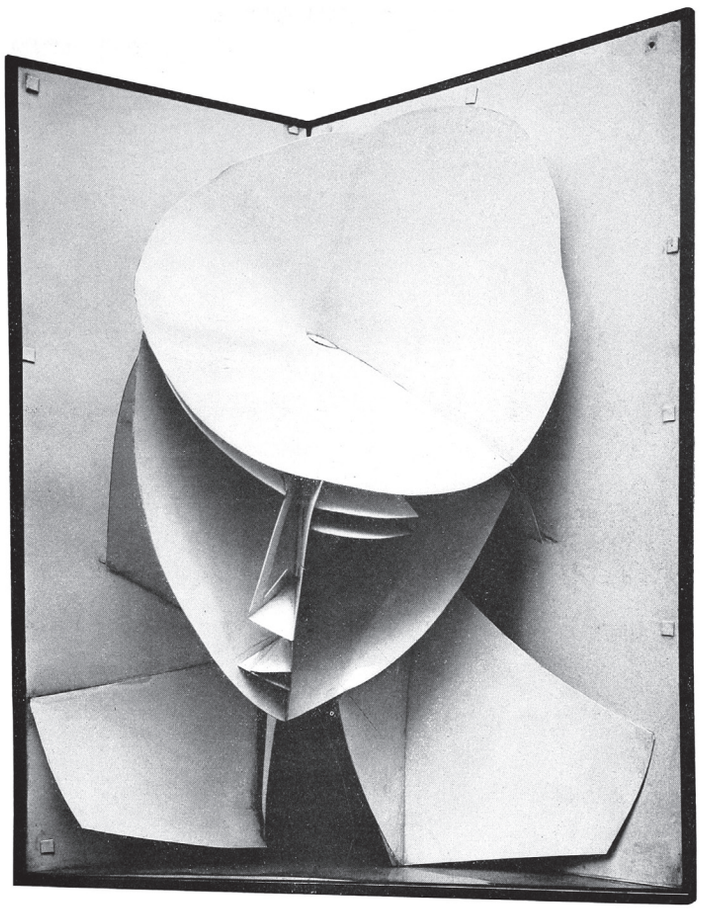
# بدايات

لكلّ فصول التغيير


**فصلية ثقافية فكرية**

**العدد ١٨ - ١٩ ◆ ٢٠١٧ / ٢٠١٨**


**بدايات**

رئيس التحرير: فواز طرابلسي
تحرير وترويج: زينب سرور
ادارة فنية: جنى طرابلسي
تصميم واخراج: لين الحوت
أبحاث الصور والرسوم: جمال صالح
الموقع الإلكتروني: منصور عزيز
المدير المسؤول: حسّان الزين

**مجلس التحرير الاستشاري**

آدم هنيه، الياس خوري، بشرى المقطري، زهير رحال، جلبير أشقر، رشا السلطي، فؤاد م. فؤاد، سحر مندور، سلامة كيلة، سليم تماري، سينثيا كريشاتي، صبحي حديدي، عساف كفوري، غسان عيسى، فاروق مردم بك، كامل مهدي، محمد العطار، ميسون سكرية.



تصدر عن بدايات ش.م.م.
صندوق البريد ١٣ /٥٧٤٨
شوران، بيروت - لبنان
التوزيع: شركة «الناشرون»
لتوزيع الصحف والمطبوعات، ش.م.م.،
بيروت - لبنان

www.bidayatmag.com
info@bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

صدر هذا العدد من «بدايات» بدعم من
مؤسسة روزا لوكسمبرغ، مكتب بيروت

ROSA LUXEMBURG STIFTUNG
BEIRUT OFFICE
مؤسسة روزا لوكسمبورغ مكتب بيروت

# المحتويات

العدد ١٨ - ١٩ ◆ ٢٠١٧ / ٢٠١٨

٤ ثورة أكتوبر الروسيّة ١٩١٧: البدايات

## من أبواب أولى

٨ النار التي أضرمت الاحتجاجات الإيرانيّة
آصِف بَيَات

١٣ الاقتصاد الأخلاقي للاحتجاجات الإيرانيّة
كافيه إحساني

١٨ ثورة الفقراء تزعزع النظام في إيران
أزادي كيان

٢١ شهادتان من الحرب اليمنية
بشرى المقطري

٢٥ احتجاجات الحسيمة إخفاق الشارع أم إخفاق الدولة المغربيّة
عبد الفتاح نعوم

٣٥ الأسرة العراقيّة بين كفَّي المشَرِّع الديني
ديمة ياسين

## ملف: مئوية الثورة الروسية، البدايات ١٩١٧ - ١٩٢٧

٣٨ الثورة الروسية - مساق زمني

٤٢ «أطروحات نيسان» إلى المرحلة الثانية من الثورة!
فلاديمير إيلييتش لينين

٤٦ البدء من البداية
فلاديمير إيلييتش لينين

٤٧ أشهر تحقيق صحافيّ عن ثورة أكتوبر «عشرة أيّام هزّت العالم»
جون ريد

٥٨ أول أيام السلطة
ليون تروتسكي

٦٢ الثورة ضد كتاب «رأس المال»
أنطونيو غرامشي

٦٤ المغزى الجوهري للثورة الروسيّة
روزا لوكسمبرغ

٧٠ القوانين الصّادرة عن مفوّضي الشّعب

٧٣ بيان ليون تروتسكي عن نشر الاتّفاقات السرّية

٧٦ الأمميّة الشيوعيّة: مواقف من قضايا عربيّة

٧٨ جردة حساب تاريخيّة
جلبير الأشقر

٨٥ تشاينا مايفيل هي ثورتنا وعلينا إكمالها
ريما ماجد

٩١ النساء في الثورة الروسية عن العمل والحرية والحب
سنثيا كريشاتي

٩٩ ألكسندرا كولونتاي رائدة تحرّر المرأة
ألكسندرا كولونتاي

١٠٩ إينيسّا آرمان البلشفيّة، النسويّة، العاشقة
إعداد فريق «بدايات»

١١١ نساء روسيا ١٩١٧ في أعين المؤرّخين المعاصرين
وسام سعادة

١٢٢ تحرّر المرأة في الملصق وفي الحياة
عماد الدين رائف

١٢٦ الثقافة الجديدة دمقرطة الفنّ وابتكارٌ بلا حدود
إعداد فريق «بدايات»

١٣٠ إيزادورا دانكن في الثورة «أرقصُ من أجل الحياة الجديدة»
إعداد فريق «بدايات»

**الغلاف ١ : من مدونة**
thecharnelhouse.org
**الغلاف ٢ و٣:**
- Rodchenko, and the Arts of Revolution Russia, Ed. by David Elliott, Pantheon Books, New York, 1979
- The Russian Avant Garde Book 1910-1934, The Museum of Modern Art, New York
**الغلاف ٤:**
Rodchenko, and the Arts of Revolution Russia, Ed. by David Elliott, Pantheon Books, New York, 1979

١٣٣ **السينما في الثورة**
**سيرغي آيزنشتاين وفن المونتاج**
سليم البيك

١٣٨ **تاتلين و«نصْبٌ للأمميّة الثالثة»**
**أو رؤيويّة الثورة**
إعداد فريق «بدايات»

١٤٠ **مایاکوفسكي: لغته، ثورته، موته**
جون برجر

١٤٨ **التعليم في الثورة**
إعداد فريق «بدايات»

القوام

١٧٠ **مذكّرات مالك الحزين!**
مريم حمّود

١٧٤ **أيقظتْني مخالبُ قطٍّ من ضَباب**
لالي ميلدور

١٧٨ **عن المُهمَل والهامشي**
**في روايات علي المقرّي**
جمال جبران

يا مين

١٨٦ **جان شمعون وتاريخ لبنان المعلّق**
هادي زكّاك

ذاكرة

١٩٦ **جورج البطل, آخر البلاشفة ٢**
**شيوعيّون في «حوادث ٥٨»**
حاوره فوّاز طرابلسي

٢٠١ **إقرار بالذَّنْب! إميل توما والتقسيم**
**الذي لم يحدث**
موسى البديري

٢١٧ **من مذكرات جارالله عمر ٥/٥**
**أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ المأساويّة**
حاورته ليزا ودين

٢٢٨ **عمر فاخوري**
**بين القوميّة واليساريّة**
أحمد علبي

٢٣٨ **قراءة في جورج أورويل**
**من «١٩٨٤» إلى نهاية**
**«الرجل الأخير في أوروبا»**
رياض نجيب الرّيس

فيما نظن

٢٤٦ **الماديّة التاريخيّة**
**أم التصوّر الماديّ للتّاريخ؟**
سلامة كيلة

نهوند

٢٥٤ **طرب بيروت زمن الانتداب**
**بين مشرق ومغرب**
ديانا عبّاني

# بدايات

# ثورة أكتوبر الروسيّة ١٩١٧: البدايات

نخصّص القسم الأكبر من هذا العدد المزدوج لمئويّة الثورة الروسيّة **١٩١٧**. اخترنا أن نخرج عن المألوف، أي عن الحديث عن النظام الذي أنشأتْه الثورة في صعوده وانهياره. أردناها فرصةً للتعرّف إلى الثورة ذاتها، بما هي عمليّة استيلاءٍ على السلطة التي طبَعت القرن العشرين إلى حدٍّ بميسَمها مع قيام نظامٍ اقتصاديٍّ اجتماعيٍّ يقدّم نفسه على أنّه البديل من النظام الرأسماليّ. لم يقتصر سعينا على دراسة العمليّة الثوريّة بذاتها، أردْنا التعرّف إلى ما ليس معروفاً كثيراً، بل يكاد أن يكون مجهولاً: توثيق مجريات العقد الأوّل من الثورة والإضاءة على الجوانب المختلفة للفوَران الفكريّ والعمليّ الذي أطلقتْه في كلّ مناحي الحياة وإنْ وسْط مآسي الحرب العالميّة الأولى والحرب الأهليّة والتدخّل الخارجيّ.

نبدأ باستعراض المقاربات النظريّة والمذكّرات عن الثورة قيد الإنتاج، وما تضمّنتْه من اجتهاداتٍ ونقاشاتٍ في الماركسيّة حول جواز الاستيلاء على السلطة وبناء الاشتراكيّة في بلدٍ لم تنضج فيه بعدُ الرأسماليّة ولا تعمّقتْ تناقضاتُها. ننشر في هذا الصدَد موضوعات لينين عن الثورة ونصوصاً لأنطونيو غرامشي وروزا لوكسمبورغ ولليون تروتسكي عن لينين عشيّة الاستيلاء على السلطة، وصفحاتٍ لجون ريد، شاهد العيان الأميركيّ، في تحقيقه الشهير «عشرة أيّام هزّت العالم». نرفق بهذه القرارات الأولى للثورة، بما فيها قرار نشر اتفاقيّة سايكس - بيكو تنفيذاً لسياسة إلغاء الدبلوماسيّة السرّيّة والمعاهدات السرّيّة، وأولى مقرّرات الأمميّة الشيوعيّة عن فلسطين وسورية.

وقد عزّزْنا تلك الشهاداتِ بمراجعةٍ لأبرز الكتب الصادرة حديثاً عن الثورة، تقدّم ربما ماجد كتاب تشاينا ميفيل «قصّة الثورة الروسيّة»، الذي يقارب الثورة بما هي عمليّةٌ لم تكتمل تنتظر فصولَها اللاحقة، ويناقش جلبير الأشقر كتاب أي. آي. سميث «روسيا في الثورة»، ذا المنظور اليساريّ النقديّ، والذي يعتبره الأشقر أغنى الكتب الحديثة عن الثورة وأكثرَها شموليّةً.

أفردْنا القسم الأكبر من الملفّ لإبراز الفوَرَان الذي أطلقتْه الثورة في مختلف نواحي الحياة مع تركيز خاصٍّ على تحرّر المرأة والتعليم والأدب والفنّ بأنواعها وتيّاراتها المختلفة. فقد زخر العقد الأوّل من الثورة بالتّجريب والإبداع والجموح إلى التّغيير وتطلّب الجديد في ومَضاتٍ من الحرّيّة والابتكار بل تطلّب الطوبى والمستحيل، وما لبثتْ أن أطبقتْ عليها البيروقراطيّة وحكْم الحزب الواحد ودكتاتوريّة الزعيم الأوحد.

نعرض للتّجريب والابتكار والتجديد في قضايا تحرّر المرأة مع سينثيا كريشاتي التي تعالج معاني العمل والحبّ في أفكار وممارسات أولى الشيوعيّات النسويّات. ونثبتُ تقارير ونصوصاً عن شخصيّتين نسويّتَين مميّزتَين هما ألكسندرا كولونتاي، أوّل امرأة تسلّمت منصباً وزاريّاً في العالَم، وإينيسّا آرمان، المناضلة النسويّة الأمميّة ومساعدة لينين. ويستعين عماد الدين رائف بمجموعته الغنيّة عن الملصقات النسويّة ليكتب عن الملصق النسويّ خلال الثورة. ويبني وسام سعادة على آخر الاصدارات عن دَور النساء في الثورة ليعرّفنا بالنّقاشات والخلافات داخل الحركة النسويّة ذاتها، خصوصاً عن قضايا الحبّ الحرّ

ومؤسّسة الزواج، كما يناقش العلاقة الإشكاليّة بين الحزب والحركة النسويّة بصدد إشكاليّة الأولويّة: لتَحرّر المرأة العاملة أم لتحرّر المرأة المجتمعيّ الشامل.

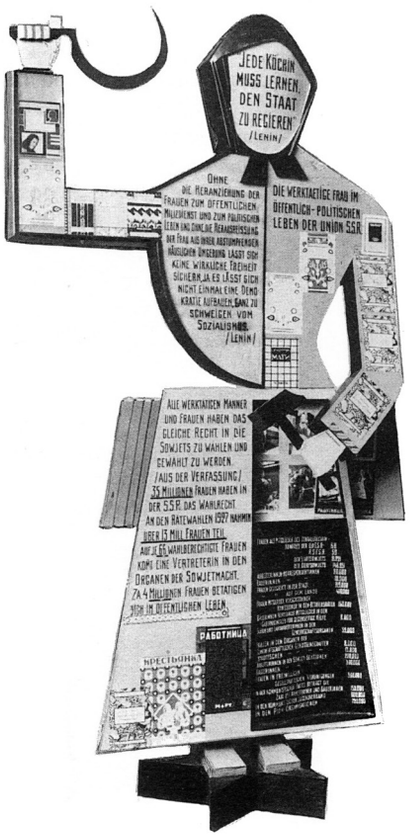
عن شاعر الثورة فلاديمير مایاكوفسكي نقرأ نصّاً ثميناً للراحل جون بُرجر، «مایاكوفسكي، لغتُه وموتُه»، ويكتب سليم البيك عن آيزنشتاين وسينما الثورة. إلى هذا أعددْنا تحقيقاتٍ عن التيّارات الثقافيّة الأساسيّة الطليعيّة والمستقبليّة والبنيانيّة، التي أطلقتْها الثورة، والسياسات الثقافيّة وهمّ التجديد في فنون العمارة والكتاب والملصقات والتوليف الفوتغرافيّ والدعاية والإعلان، إلخ. أخيراً وليس آخراً، نعرض عن التجارب والابتكارات المدهشة في التعليم وعلم النفْس. أمّا الملحقُ المصوَّر فمخصّص لصوَر وملصقات وأعمالٍ فنّيّة دالّةٍ عن تلك الحقبة من الثورة الروسيّة.

في الأقسام العاديّة للمجلّة، نفتتح «من باب أولى» بثلاث دراسات تلقي أضواء متقاطعة على الاحتجاجات الشعبيّة الأخيرة في إيران، تعيّن المناطق والشرائح الاجتماعيّة المشاركة فيها ضدّ سياسة التقشّف وتَفشّي البطالة وتدَنّي مستوى المعيشة واستشراء الفساد والهدر على نفقات المغامرات الإقليميّة، تلي ذلك شهادتان لبشرى المَقطري عن مأساة المدنيّين في الحروب اليمنيّة. وإنّه لَمعبّرٌ جدّاً أنّ الاحتجاجات الإيرانيّة تزامنتْ مع موجةٍ من الاحتجاجات العربيّة تتعلّق بالقضايا إيّاها عمّت الأردن واتّخذتْ بُعداً شاملاً للمناطق التونسيّة وبلغتْ مستوىً من العنف والقمع عالياً في السودان تنذر بعَودٍ على بدءٍ للعوامل التي أطلقت انتفاضات العام ٢٠١١. ولنا عودةٌ إلى تلك التطوّرات في عددٍ مقبل. في الانتظار، يكتب عبد الفتّاح نعّوم عن إحدى تلك الاحتجاجات: انتفاضة منطقة الريف المغربيّة، وهي مثالٌ عينيٌّ على الكيفيّة التي ينقلب بها الاحتجاج على حالة حرمانٍ مناطقيٍّ إلى دعوةٍ انفصاليّة إثنيّةٍ عندما تصطدم مطالب الاحتجاج بالتعنّت السلطويّ، ومن العراق مقالٌ نقديّ لديمة ياسين عن قانون المرأة الجديد في العراق.

في «نون والقلم»، نودّع المخرجة والممثلة مريم حمّود بنشر «مذكّرات مالك الحزين»، آخر نَصٍّ خصّتْ به «بدايات» قبل وفاتها المؤسفة والمبكّرة، ويترجم خالد النجار قصائد للشاعرة التركيّة لالي ميلدور ويعرّف بها، ويكتب جمال جبران عن الروائيّ اليمنيّ عليّ المقري.

زاوية «يا عين» مخصّصة لسينما الراحل جان شمعون في دراسةٍ مستفيضةٍ للمخرج اللبنانيّ هادي زكّاك. قسم الذاكرة غنيّ في هذا العدد. يكتب رياض الريّس عن الصحافيّ والمناضل الاشتراكيّ البريطانيّ جورج أورويل، ويوثّق موسى البديري للنّقد الذاتي الذي أجبرَ عليه القائدُ الشيوعيّ الفلسطينيّ أميل توما بسبب معارضتَه قرار تقسيم فلسطين العام ١٩٤٧، ويعرّف أحمد علَبي بالكاتب التقدميّ اللبنانيّ عمر الفاخوري، ونواصل نشر حلقة جديدة من مذكّرات كلٍّ من جورج البطل وجارالله عمر. في القسم الفكريّ يثير سلامة كيلة مسألة الفارق بين الماديّة الجدليّة والتصوّر الماديّ التاريخيّ، والاختلاف الدلالي بينهما، ونختم بدراسةٍ مبتكرة وغنيّة لديانا عباني عن الموسيقى في بيروت وبلاد الشام في نهاية القرن التاسع عشر.

**«بدايات»**


JEDE KÖCHIN MUSS LERNEN, DEN STAAT ZU REGIEREN.
/LENIN/
OHNE DIE HERANZIEHUNG DER FRAUEN ZUM ÖFFENTLICHEN MILITÄRDIENST UND ZUM FREIEN LEBEN UND OHNE DIE BEFREIUNG DER FRAU AUS IHRER ABSTUMPFENDEN HÄUSLICHEN UMGEBUNG LÄSST SICH KEINE WIRKLICHE FREIHEIT SICHERN, JA ES LÄSST SICH NICHT EINMAL EINE DEMOKRATIE AUFBAUEN, GANZ ZU SCHWEIGEN VOM SOZIALISMUS.
/LENIN/
DIE WERKTÄTIGE FRAU IM ÖFFENTLICH-POLITISCHEN LEBEN DER UNION S.S.R.
ALLE WERKTÄTIGEN MÄNNER UND FRAUEN HABEN DAS GLEICHE RECHT IN DIE SOWJETS ZU WÄHLEN UND GEWÄHLT ZU WERDEN.
/AUS DER VERFASSUNG/
35 MILLIONEN FRAUEN HABEN IN DER S.S.R. DAS WAHLRECHT.
AN DEN RATEWAHLEN 1937 NAHMEN ÜBER 15 MILL FRAUEN TEIL.
AUF JE 66 WAHLBERECHTIGTE FRAUEN KOMT EINE VERTRETERIN IN DEN ORGANEN DER SOWJETMACHT.
ZU 4 MILLIONEN FRAUEN BETÄTIGEN SICH IM ÖFFENTLICHEN LEBEN.
РАБОТНИЦА
КРЕСТЬЯНКА



# من أولى أبوابه


٨ **النار التي أضرمت الاحتجاجات الإيرانيّة**
آصِف بَيَات

١٣ **الاقتصاد الأخلاقي للاحتجاجات الإيرانيّة**
كافيه إحساني

١٨ **ثورة الفقراء تزعزع النظام في إيران**
أزادي كيان

٢١ **شهادتان من الحرب اليمنية**
بشرى المقطري

٢٥ **احتجاجات الحسيمة إخفاق الشارع أم إخفاق الدولة المغربيّة**
عبد الفتاح نعوم

٣٥ **الأسرة العراقيّة بين كفَّي المشرِّع الديني**
دِيمة ياسين

# النار التي أضرمت الاحتجاجات الإيرانيّة

**آصِف بيَات**

**جامعيّ وكاتب إيرانيّ - أميركيّ، له عدّة مؤلّفات عن الأفكار الثوريّة والثورات، آخر مؤلّفاته عن الثورات العربيّة «ثورات بدون ثوار»، ٢٠١٧.**

غرقت الجمهوريّة الإسلاميّة في نوع جديدٍ من الغضب. في ٢٨ كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٧، انطلق احتجاج شارعيّ صغير على ارتفاع الأسعار في مدينة مشهد وتدفّق بسرعة ليشمل ما يقارب ٨٥ مدينة وبلدة. تذمّرت الحشود بفعل البطالة، ووسائل العيش المتقلقلة والحُكم القمعيّ، مع وجود قلّة استحضرت اسم رضا شاه، الملك الفارسيّ الذي يُعزى إليه تحديث إيران في ثلاثينيّات القرن العشرين. وفي هذه الأثناء، انضمّ الرئيس دونالد ترامب ورئيس الوزراء الإسرائيليّ بنيامين نتنياهو إلى المنادين بعودة حُكم الشاه وإلى جماعة مجاهدي خلق المعارضة لـ«دعم الشعب الإيرانيّ». شوهد محتجٌّ ملثّم على شريط فيديو يحثّ أبناء شعبه على الانضمام إلى الاحتجاج، ويبعث في الوقت ذاته رسالة إلى هؤلاء الحلفاء الغربيين كي «يذهبوا إلى الجحيم ويتركونا وشأننا». وانتهى الاحتجاج بعد فرض إجراءات بوليسيّة قمعيّة على المحتجّين ووسائل التواصل الاجتماعيّ، مخلّفاً ٢٥ قتيلاً و ٣٧٠٠ معتقَل.

### احتجاج شعبيّ استثنائيّ

كيف لنا أن نفسّر هذه الانتفاضة؟ من بين الملاحظات الكثيرة، لدينا تفسيران رئيسان. يصوِّر الأوّل الاحتجاج بكونه تمهيداً لثورة. بينما يفهمه الثّاني بكونه مثالاً عن الكيفيّة التي يُعْرب بها الإيرانيّون عن مشاغلهم العامّة عادةً. لكنّ الواقع يبدو مختلفاً على أيّة حال. فما ارتشح في إيران أخيراً ليس مجرّد امتداد لاحتجاجات روتينيّة، أو تمهيداً لثورة، بل هو احتجاج شعبيّ استثنائيّ. ففي قلب الاحتجاج نجد «فقراء الطبقة الوسطى» وهي الطبقة الغاضبة الناشئة التي ولّدها عصر نيولبراليّ تُرك فيه رفاهُ الشعب لرحمة السوق. مع انفتاح اقتصاد إيران، استفادتْ هذه الطبقة من الفرص التعليميّة، ولكنّها لاقت إخفاقاً في سوق العمل، كان سقف توقّعاتها عالياً، ولكن كان مستوى معيشتها أقلّ استقراراً. ومع وجود ميلٍ متمايزٍ عن ميل كلٍّ من الطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة، كانت هذه الطبقة المتململة مُهيّأةً لإقلاق راحة السلطات اللامبالية.

ليست احتجاجات العمّال أو المحرومين من الحقوق نادرةً ولا مستجدّةً في شوارع إيران. فمنذ التسعينيّات، كان العمّال يخرجون في احتجاجات بسبب الأجور، ومعاشات التقاعد، والتسريحات الموقّتة، وضدّ النقابات المستقلّة، وآثار اللبرلة الاقتصاديّة التي جعلت العمل أكثر تشظّياً وتهلهلاً وهشاشة. نجد اليوم أنّ قرابة ٨٠ في المئة من مجموع العمّال في إيران يعملون بعقودٍ موقّتة غير مضمونة. وربّما بنتيجة هذا، كان هناك ٤٠٠ احتجاج تقريباً عام ٢٠١٥، و٣٦٠ احتجاجاً عام ٢٠١٦، تبعاً لدراسة كيفان هاريس وزيپ كالب في جامعة كاليفورنيا - لوس أنجلس UCLA، كما انطلق قرابة ٩٠٠ احتجاج منذ آذار / مارس في العام الماضي [ ٢٠١٧ ]، تبعاً للباحثة في شؤون العمل زهراء آية الله. وفي الاحتجاج الأخير، أصدرت خمس منظّمات عمّاليةٍ بياناً تدعو فيه إلى «إنهاء الفقر والبؤس»، وتحثّ الحكومة على إجراء إصلاحات اقتصاديّة لمصلحة العمّال. ومن الواضح أنّ العمّال النقابيّين دعموا الاحتجاجات، لكنّ مدى انخراطهم الفعليّ غير معروف.

وفي هذه الأيام نجد أنّ الجماهير الإيرانيّة، على تبايُنها، هي التي تواجه السلطات بمعدّل يوميّ، أكثر حتى ممّا كان يفعله العمّال النقابيّون. منذ آذار / مارس ٢٠١٦، أُعلن عن خروج ما يقارب ١٧٠٠ احتجاج شعبيّ، بحسب جمعيّة مُؤرِخي الثورة الإسلاميّة، وهي

هيئة محافظة مقرّبة من الرئيس السابق محمود أحمدي - نجاد[1]. وتشهد المدن معارك يوميّة بين باعة الشوارع الجوالين وقوّات الشرطة، وسائقي درّاجات الأجرة الذين يعملون بلا رخصة في نقل الرّكاب والبضائع في المدن، واحتجاجات المتقاعدين بشأن المعاشات، والمودِعين بشأن الودائع المصرفيّة المفقودة، والمزارعين بسبب الصعوبات التي يواجهونها مع محاصيلهم وأراضيهم، والمندّدين بالتلوّث الدّائم ونقص المياه. وفيما تنشر الحكومة شبكة إجراءاتها التقييديّة على «التعدّيات الصامتة» وغير الرسميّة - مثل بناء المنازل بلا رخصة، وسرقة المياه والتهرّب من فواتير الكهرباء، أو البيع في الشارع - يوجّه الفقراء غضبهم نحو الشوارع. وتجسّد هذه الاحتجاجات، على نحو جزئيّ، ردّة الفعل الجمعيّة للطّبقات الدنيا ضدّ ما يعجزون عن فعله من خلال تعدّياتهم الصامتة.

**الاحتجاج الأخير لم ينطلق من الفقراء العاديين. أو الطبقات الوسطى الحداثية: فبحسب وزارة الداخلية. كان أكثر من ٩٠ في المئة من المعتقلين. تحت سن الخامسة والعشرين.**

وقد أضرم هذا السخط اليوميّ الاحتجاجات الأخيرة. لكنْ وصَلَ مدى الاحتجاج إلى أبعد من هذا السَّخط - حيث اندمجت الاحتجاجات فجأة، وانتشرت في أنحاء البلاد، وباتت تتحدّث بلغة سياسيّة واضحة، وتضمّنتْ أعمالَ عنف، وصار قادتها هم الشبّان في عمر العشرينيّات. وبما أنّهم من فقراء تلك الطبقة الوسطى، أخذوا على عاتقهم المجازفة العظيمة في الخروج إلى الشوارع للهتاف، وتنظيم التّظاهرات، والتنسيق في ما بينهم. لم تكن الاحتجاجات عاديّة، بل كانت أقرب إلى ثورة استثنائيّة على امتداد البلاد.

### انتفاضات ١٩٩١ و١٩٩٤ و٢٠٠٩

بما أنّ الجمهوريّة الإسلاميّة نجت من انتفاضتين ضاريتين، ما مدى استثنائيّة هذا الانتفاضة؟ حدثت الانتفاضة الأولى بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٤، وكانت عبارة عن سلسلة من الاحتجاجات الشعبيّة التي شملت مدن طهران، شيراز، آراك، مشهد، قزوين، تبريز، وخرم آباد. وشملت معظم هذه الأحداث سكّان عشوائيّات المدن إثر هدم ممتلكاتهم على يد السلطات البلديّة. وكان أكثر الحوادث دراماتيكيّة في منطقة عشوائيّات «كوي طلاب» في مدينة مشهد، حين رفضت السلطات منح رخصة لتنظيم مجموعة من المساكن المبنيّة. وحين قتلت قوات الشرطة متظاهرَيْن، أحرق المحتجّون مبنى مجلس المدينة والمكتبة وعدداً من مخافر الشرطة؛ ومع حلول المساء، قالت تقارير إنّ المحتجين سيطروا على المدينة. ومع عجز الجيش عن قمع المتظاهرين، استدعت الحكومة المركزيّة وحدات إضافيّة من قوات الباسيج (ميليشيا من المتطوعين) من مدن أخرى. وفي النهاية، أسفر تمرّد مشهد عن تدمير ١٠٠ بناء ومحلّ تجاريّ. واعتُقل أكثر من ٣٠٠، وقُتل ستّة أفراد شرطة، وأُعدم أربعة متظاهرين.

أمّا الانتفاضة الأخرى فقد كانت الثورة الخضراء عام ٢٠٠٩. ومع أنّ شرارتها كانت بسبب تزويرٍ في نتائج الانتخابات الرئاسيّة التي أعادت تنصيب المتشدّد محمود أحمدي نجاد ضدّ المرشَّح الإصلاحيّ المفضَّل مير حسين موسوي، إلّا أنّها استَعَرتْ بفعل تَوقٍ مديد لحياةٍ تخلو من الرقابة اليوميّة، والفساد، والحكم التسلّطيّ. ولأسابيع بعد إعلان نتائج الانتخابات، كانت سياسة الشارع هي التعبير الأساسيّ لتلك الثورة. تسبّبت المسيرة الصامتة الكبيرة في ١٥ حزيران / يونيو ٢٠٠٩ في طهران، ومعارك الشوارع المستمرّة، في صدمةٍ للمؤسّسة المحافظة، ما حرّض الحرس الثوريّ على إحكام سيطرةٍ تامّة على العاصمة طوال شهرين. ومع نهاية العام، وصل عدد المعتَقلين إلى عشرة آلاف والقتلى إلى ٧٠. وأغلقت وسائل الإعلام الإصلاحيّة، وانتهى التواصل الحرّ في المدينة فعليّاً.

مَن قاد تلك الحركات؟ كانت ثورة التسعينيّات ثورة فقراء إيران العاديّين - مهاجري الأرياف الأميّين في معظمهم، الذين ينخرطون في الصراعات المحلّيّة، ويعبّرون عن شكاويهم بشأن السكن والخدمات العامّة. وعلى العكس، انطلقت الثورة الخضراء وقيادتها الإصلاحيّة من الطبقة الوسطى المدينيّة في طهران وبعض المدن الكبرى في الغالب. وكانت مشاغل هؤلاء مرتبطة بالحرّيّات المدنيّة والسياسيّة.

أمّا الاحتجاج الأخير فلم ينطلق من الفقراء العاديّين، أو الطبقات الوسطى الحداثيّة: فبحسب وزارة الداخليّة، كان أكثر من ٩٠ في المئة من المعتقلين، تحت سنّ الخامسة والعشرين، ومن المتعلّمين في الغالب. وقد بيّنت الأحداثُ الأخيرة ثورة فقراء الطبقة الوسطى، وهم

نتاج طفرة شبابيّة كبيرة، وفُرَص تعليميّة أوسع، وتمدّن، ولبرلة اقتصاديّة ضارية.

**مفارقات الطبقة الوسطى المفقرة**

ثمّة ما يلفت إلى المفارقة في هذه الطبقة. إنّها تمتاز بشهاداتٍ جامعيّة، متضلّعةٌ من وسائل التواصل الافتراضيّة، وتمتلك معلومات عن العالم، وتحلم بحياة طبقةٍ وسطى، لكنّها مرغمةٌ بفعل الحرمان الاقتصاديّ على عيش حياة الفقراء الاعتياديّين في العشوائيّات وضواحي المدن، وتعتاش على الإعانات العائليّة أو على وظائف متدنّية وغير مستقرّة معظم الأحيان - كأن يعملوا سائقي تاكسي مثلاً، أو باعة فاكهة، أو أصحاب بسطات، أو مندوبي مبيعات. ابن فقراء الطبقة الوسطى يرتاد مركز المدينة، ولكنّه يعيش في أطرافها. يحلم بحذاء «نايكي»، ولكنْ عليه أن يرضى بنسخةٍ مقلّدة رخيصة. يحلم بالعمل أو قضاء الإجازة خارج البلاد، ولكنّه يحسّ بأنّه مطوَّقٌ بفعل نقص المال وتقييدات إجراءات الحدود. إنّها طبقةٌ تربط عالم الفقر والحرمان، مدن الصفيح والعمل الموقّت، الدّيون وعدم الاستقرار، بعالم الجامعة، والاستهلاك، والإنترنت - بالحياة الكونيّة. أفرادها واعون جدّاً لما هو متوفّر في العالم ولما يفتقرون إليه على نحوٍ مؤلم، من المفترض أن يكون عدم استقرارهم وحالة اللمبو [البرزخ] ظروفاً موقّتةً، ولكنّها أصبحتْ دائمة في واقع الحال. وبما أنّها لا تشعر بكونها شابة كليّاً أو بالغة كليّاً، ومليئة بإهانةٍ أخلاقيّة كبيرة، ستصبح هذه الطبقة لاعباً محوريّاً في السياسة الراديكاليّة.

**مع إخفاق الاقتصاد في خلق وظائف لهم وإخفاق الحكومة في حمايتهم. يبدو هؤلاء الشباب المتحفزون جاهزين لإشعال ثورة. وقد جاءت هذه الشرارة مع احتجاجات مشهـــــــــــــد.**

تعود أصول هذه الجماعة إلى الثمانينيّات، حينما ولَّد معدل الخصوبة العالي في إيران إحدى أكبر الشرائح السكّانيّة الشابّة في العالم. وفي الوقت ذاته، تَرافق هذا الأمر مع ارتفاع معدّل التعليم أيضاً. ومع نهاية التسعينيّات، كان عدد السكّان من الطلّاب قد زاد بنسبة ٢٢٦ في المئة أي ما يعادل ٢٠ مليوناً، أو نسبة ثلث سكّان البلاد. وفي حزيران / يونيو ٢٠١٤، بات عدد الطلّاب الجامعيّين في إيران ٤,٥ ملايين طالب - بنسبة ازدياد أكثر من ٢٥ ضعفاً منذ قيام الثورة. وفي بدايات العقد الأوّل من الألفيّة، كان كلّ بيتٍ من خمسة بيوتٍ يضمّ طالباً جامعيّاً أو متخرّجاً. كما أسهم ازدهار جامعة آزاد الإسلاميّة الخاصّة وامتداد التعليم إلى البلدات الريفيّة في توليد متخرّجين جامعيّين في كلّ قرية.

ولكنْ مع أنّ التعليم رفع سقف التوقّعات، إلّا أنّه أخفق في تأمين حراكٍ اقتصاديّ، على الأقلّ بالنّسبة إلى مليونين ونصف مليون متخرّجٍ جامعيٍّ ممّن لا يزالون عاطلين من العمل حاليّاً. وبالمجمل، فإنّ نسبة ٣٥ في المئة من الشباب المتعلّمين عاطلون من العمل، بحسب تقرير برلمانيّ. لا بدّ لهؤلاء الشباب من دفن أحلامهم في امتلاك بيتٍ من بيوت الطبقة الوسطى، حيث يلزمهم من أجل تأمينه ادّخار ثلث دخلهم الشهريّ لمدّة ٩٦ سنة. وبدلاً من هذا، يستقرّ عددٌ كبير منهم في المناطق العشوائيّة التي تؤوي اليوم أكثر من ٢٠ في المئة من سكّان المدن في إيران، بحسب دراسة أجرتْها وزارة التنمية المدنيّة في إيران عام ٢٠١٤. وبوجود دخلٍ قليلٍ وسكنٍ بائس، تتلاشى أحلام الزّواج أو تُعلَّق - وهذا سببٌ من أسباب أنّ أربعة ملايين متخرّج جامعيٍّ إيرانيٍّ يبقون عازبين مع أنّهم في سنّ الزواج المتعارَف عليه. ومع أنّ العائلات في إيران تُعين الأفراد المعوزين في العائلة، إلّا أنّ عار الاتّكال والشعور العام بالركود يفاقم مشاعر السخط لدى هؤلاء الشباب البالغين على نحو متواصل. ومع إخفاق الاقتصاد في خلق وظائف لهم وإخفاق الحكومة في حمايتهم، يبدو هؤلاء الشباب المتحفّزون جاهزين لإشعال ثورة. وقد جاءت هذه الشرارة مع احتجاجات مشهد.

**التمثيل السياسيّ والتدخّل الخارجيّ**

من يتحدّث باسم هؤلاء الشباب المحرومين من حقوقهم؟ في أزمنةٍ أخرى وبلدانٍ أخرى، مثل مصر في التسعينيّات، تحوّلت شرائح من هذه الطبقة إلى حركاتٍ قوميّةٍ وإسلامويّة قبل اللجوء إلى سياسة الشارع قبل الربيع العربيّ وفي أثنائه. في تونس، بدا أنّ الاتحاد التونسيّ العامّ للشغل، الذي يُعدّ من يسار الوسط، قد يمنحهم صوتاً، لو لم تسبق الدولة الإسلاميّة في إغرائهم قبله. لكنْ في إيران، ليس لدى هؤلاء الشباب أدنى تمثيل - لا الإسلاميّون المشغولون ببناء جماعة أيديولوجيّة، سواءٌ في ذلك الإصلاحيّون المنهمكون في «التنمية السياسيّة» ومشروع مابعد إسلاميّ، واليساريّون الذين اختفوا في



معظمهم. وقد أُرغمتْ هذه الطبقة على تمثيل نفسها في الشوارع، كما رأينا وسمعنا في الاحتجاج الأخير. وقد أعادتْ ديناميكيّات ثورتهم إلى الأذهان تونس في انتفاضة كانون الأول / ديسمبر ٢٠١٠، حيث لعب فقراء الطبقة الوسطى دوراً جوهريّاً.

**انتهت الانتفاضة وانتهت أية فكرة لثورة وشيكة. لكن المظالم الكامنة لا تزال باقية. وإن واصلت الحكومة سياسة الأمر الواقع، من الأرجح أن تقوم «الطبقة الغاضبة» بالضرب مجددا عاجلا أو آجلا.**

هل الانتفاضة الأخيرة في إيران تمهيدٌ لثورة؟ ثمّة مؤشّراتٌ بعينها - امتداد الاحتجاجات في أرجاء البلاد، الدعوات إلى تغيير النظام، انقسام النخبة، والدعم الدوليّ - يبدو أنّها توحي بإمكانيّة هذا الاحتمال. لكنْ ستكون هذه سوء قراءةٍ للوضع.

أوّلاً، سيتسبّب الدعم الدوليّ من أجل تغيير النظام أو الدعوات إلى العنف، في المرحلة الحاليّة، بنزع المصداقيّة عن المحتجّين بحيث يبدون مجرّد عملاء لقوى خارجيّة. ثانياً، مع أنّ الاحتجاجات امتدّتْ على نحوٍ واسعٍ في أرجاء البلاد، إلّا أنّ أرقام المشاركين الفعليّة كانت محدودةً بالمقارنة مع الثورة الخضراء. ومع أنّ عدداً كبيراً من المواطنين العاديّين احتشدوا في الشوارع فعلاً، إلّا أنّهم اكتفوا بمراقبة تطوّر الأحداث أغلب الأحيان، بدوا غير واثقين ممّا سيُسفر عنه الوضع، وخافوا أن تصبح بلادهم سوريةً أخرى. ثالثاً، برغم انقسام النخبة السياسيّة في إيران - حيث تبادلوا اللوم بشأن اندلاع الاحتجاجات - فقد ظلّوا موحَّدين بصرامة حيال صون أساسات النّظام.

أخيراً، وهذا هو الأهمّ، أخفقت الانتفاضة حتى الآن في استقطاب ائتلافٍ واسعٍ من القوى الطبقيّة والسياسيّة - وهذا هو العجز ذاته الذي حكم على الثورة الخضراء بالفشل، إذ لم تضمّ إليها الطبقتين الفقيرة والعاملة. انتفاضة إيران الأخيرة هي انتفاضة شعبٍ محروم من الحقوق - الطبقة الوسطى المقتدرة غائبة بنسبة كبيرة. أمّا الإصلاحيّون، وهم قوّة سياسيّة أساسيّة تتحدّر من الطبقة الوسطى، فقد أبقوا أنفسهم بعيدين من الاحتجاجات الحاليّة. كما أنّ سياسيّيها ومثقّفيها عبّروا عن معارضةٍ صريحةٍ للانتفاضة، منهم عبّاس عبدي أو صادق زيباكلام[٢] اللذان تحدّثا بصراحة رافضَين القلقلة المزعزعة للاستقرار. وبالإضافة إلى استدعاء سيناريو على النّمَط السوريّ، فإنّ الإصلاحيّين يرفضون جوهر فكرة الثورة من حيث المبدأ. إذ يؤمنون بمبدأ الإصلاح بقوّةٍ، مع أنّ جهودهم الفعليّة، المهمّة في واقع الأمر، قد أُحبطتْ بفعل المقاومة العنيدة من جانب المؤسّسة المحافظة - وهي المؤسّسات غير المنتخَبة ولكن القويّة في الجمهوريّة الإسلاميّة. وما نعنيه هو أنّ قيام حركة ثوريّة احتمالٌ ضئيلٌ إلى حدٍّ بعيد من دون ائتلاف من القوى الطبقيّة والسياسيّة، العمّال الفقراء والطبقة الوسطى.

أمّا الآن، فقد انتهت الانتفاضة وانتهت أيّة فكرة لثورة وشيكة. لكنّ المظالم الكامنة لا تزال باقية، وإن واصلت الحكومة سياسة الأمر الواقع، من الأرجح أن تقوم «الطبقة الغاضبة» بالضرب مجدّداً عاجلاً أو آجلاً. لا أحد يعلم ما الذي سيحدث حينذاك. فالسياسة الإيرانيّة عصيّة على التنبّؤ إلى حدٍّ كبير - أمّا الثورة فعلى نحوٍ أكبر حتى.

وماذا لو استعادت الاحتجاجات المُتفرّقة زخمها، واجتذبت الفقراء، والقوى السياسيّة، والطبقات الوسطى ضمن ائتلافٍ يطلق شرارة انفجار ثوريّ؟ حتى لو أثمر الأمر عن انتفاضةٍ على امتداد البلاد، من الأرجح أن يتطوّر الأمر إلى ربيع عربيّ آخر - لا يُحدث إلّا تغييراً ضئيلاً في سلطة الدولة - ما لم تطوِّر الحركة الثوريّة تنظيماً قويّاً، ورؤية استراتيجيّة، وبرنامجاً تقدّميّاً، وقيادة قادرة على إلهام الشعب بأنّ إمكانيّة حدوث مستقبل آخر قائمة فعلاً. والمستقبل مفتوح على الاحتمالات في جميع الأحوال.

**هوامش**

١ جمعيّة مُؤثري الثورة الإسلاميّة (جمعيت ايثاركران انقلاب اسلامي): حزب محافظ بدأ نشاطاته السياسيّة منذ عام ١٩٩٥، ولكنّه لم يتأسس رسميّاً إلّا في شباط / فبراير ١٩٩٧. يُعرف في إيران باختصاره بكلمة «ايثاركران» التي تعني «إيثار» بالعربيّة. ويتكوّن الحزب من أعضاء سابقين في قوّات الباسيج ممّن شاركوا في الحرب العراقيّة - الإيرانيّة، ويعدّ من أكبر القوى المعارضة للإصلاحيّين، حيث يتهّمهم بأنّهم «عملاء للولايات المتحدة». كان نجاد أحد مؤسّسي هذا الحزب الذي دعمه بقوّة في الانتخابات الرئاسيّة عام ٢٠٠٥، وشغل عدد من أعضائه مناصب حكوميّة في فترة حكم نجاد.

٢ عباس عبدي (١٩٥٦): سوسيولوجيّ وناشط اجتماعيّ، كان أحد الطلاب الذين اقتحموا السفارة الأميركيّة في طهران مع اندلاع الثورة الإيرانيّة عام ١٩٧٩، وما لبث أن أصبح ناقداً للمؤسسة السياسيّة المحافظة، ومن ثم أحد أهم الشخصيّات الإصلاحيّة المؤثّرة خلال رئاسة محمد خاتمي وبعدها. صادق زيباكلام (١٩٤٨): أكاديمي وكاتب ووجه إعلامي معروف في إيران وخارجها. يُعرَف بانتقاداته الحادة للمحافظين وللرئيس حسن روحاني على السواء، بخاصة في ما يخص إطلاق السجناء السياسيّين ورفع الإقامة الجبريّة عن قادة الحركة الخضراء.

# الاقتصاد الأخلاقي للاحتجاجات الإيرانيّة


**كافيه إحساني**

**أستاذ مساعد في الدراسات الدوليّة في جامعة دي بول. كذلك، يكتب في Middle East Report وGoftogu Dialogue وهي صحيفة إيرانيّة تعنى بالتحليل الاجتماعي النقدي.**

**أرانغ كيشاوارزيان**

**أستاذ مساعد في الدراسات الإسلاميّة والشرق أوسطيّة في جامعة نيويورك. عضو في لجنة التحرير الخاصّة بـ Middle East Report.**


كانت التظاهرات التي تحرّكت أخيراً في إيران لافِتةً بسبب نطاقها الجغرافيّ ومجموعة الشكاوى التي شملتها. بدأت هذه الاحتجاجات في مدن المحافظات وقد سبّبها الاستياء حيال البطالة المستمرّة والتضخّم، والأجور ومعاشات التقاعد التي استحقّت منذ زمنٍ طويل، وانخفاض الإعانات النقديّة، والتدهور البيئيّ، فضلاً عن انهيار المؤسّسات الماليّة المشبوهة التي تَبيّن أنّها شركات احتيال. وتمثّل هذه الاحتجاجات في جوهرها، صرخة أخلاقيّة أطلقتها الأطراف المهمّشة ضدّ ما تعتبره المركز القاسي المتحجّر وخيانته لمبادئ العدالة الاجتماعيّة التي أحيت القوى الثوريّة عام ١٩٧٩ ووحّدتها.

كانت المعارضة الشعبيّة سمةً دائمة وواسعة الانتشار في السياسة الإيرانيّة، وبخاصّةٍ منذ انتهاء الحرب العراقيّة الإيرانيّة عام ١٩٨٨. بيد أنّها لا تحظى باهتمامٍ كبير في وسائل الإعلام الغربيّة التي تركّز عوضاً عنْ ذلك على آراء المرشد الأعلى، والتنافس الفئويّ بين النّخَب والبرنامج النوويّ. حتى إنّ نظرةً سريعة إلى الصحافة الإيرانيّة خلال العقود الثلاثة الماضية تكشف عن تيّار مستمرٍّ من الاحتجاجات من قبل المعلّمين، والممرّضين، وسائقي الباصات، والعمّال في مجال الصناعة والزراعة، والمجنّدين، والطلّاب، والمتقاعدين وغيرهم بسبب الوعود الكاذبة وظروف العمل. وهذه الاحتجاجات مستمرّة على الرّغم من أنّ السلطات تتعامل معها بقسوة.

هؤلاء المواطنون ليسوا جميعاً فقراء، أو ممّن لا يملكون الممتلكات، أو غير المتعلّمين، لكنّهم يعانون من نسبة بطالةٍ مرتفعةٍ في صفوف الشباب، ومن سوق إسكانٍ شوّهتها المضاربة، ومن أنظمة عملٍ متراخية، ومن عدم القدرة، عموماً على أن يعيشوا الحياة الموعودة بحسب وضعهم التعليميّ أو حتى على التماشي مع مستوى معيشة والدِيهم. وبما أنّ الجمهوريّة الإسلاميّة بارعةٌ في قمع السبلِ الرسميّة للتمثيل الشعبيّ - مثل الأحزاب السياسيّة الفاعلة، والجمعيّات المستقلّة، والنقابات العمّاليّة - بقيت هذه الشكاوى معزولة في السابق وقد تمّ احتواؤها، لكنّها انفجرت الآن.

### الثورة في المناطق النائية

ثمّة بُعدٌ سياسيّ لهذه الاحتجاجات لا يمكن التقاطه من خلال هذه التسمية الشاملة، «مناهضة النظام». والأحرى أنّ هذه الاحتجاجات متجذّرة في الإرث المتنوّع للثورة الإيرانيّة. كانت الثورة عبارةً عن تمرُّدٍ في المحافظات بقدر ما كانت «إسلاميّة الطابَع». وقد تمّ تجاهل هذا العامل، على الرّغم من أهميّته، في سياق تحديد كيفيّة رسم السياسات ما بعد الثورة. غير أنّ الباحثين والصحافيّين سلّطوا الضوء على دور الدين ورجال الدين الشيعة، وموجة الاحتجاجات الضخمة في المدن التي أسقطت النظامَ الملكيّ. لكنّ الكثير من المشاركين في الثورة كانوا مهاجرين اقتصاديين جُدداً، أو أنّهم انتقلوا من القُرى والمُدُن الصغيرة للانضمام إلى المسيرات في المدُن الكبرى. وما أشعل غضبَهم هو الحداثة غير المتوازنة التي همّشت المناطق المحيطة بالأرياف والمُدُن.

لم تكن ثورتهم هذه مقاومةً للحداثة إنّما استياءً حيال استثنائهم من فوائدها الملموسة على المستويَين الاقتصاديّ والاجتماعيّ. وبمجرّد الإطاحة «بملك الحداثة»، انضمّ هؤلاء الرجالُ والنساء من المحافظات إلى مؤسّسات الدّولة الثوريّة الجديدة مثل حرس الثورة الإسلاميّة، أو منظّمة جهاد الإيرانيّة، المكرّسة للتنمية الريفيّة. كذلك، انتُخبوا في البرلمان، وتمّ تعيينهم حكّاماً وبيروقراطيّين، وقاتلوا في الحرب العراقيّة الإيرانيّة. بعد الحرب، ارتادوا

جامعاتٍ تشكّلت حديثاً بمئات الآلاف، وأصبحوا المهنيّين والتكنوقراط المسؤولين عن إعادة الإعمار ما بعد الحرب. وسواء كانوا إصلاحيّين أو محافظين أو مجرّد مهنيّين، تولّوا تخطيط وتنفيذ مشاريع التنمية الضخمة والبيرقراطيّات التي بدّلت المناطق الريفيّة. لقد كانوا المستفيدين كما جسّدوا الاقتصاد الأخلاقيّ الثوريّ الذي وَعَد بالترقّي وقدّر المساواة مقابل «التضحية» والمشاركة الفاعلة في الحفاظ على النظام.

لكن مع أنّ التركيبة الاجتماعيّة للدولة تبدّلت بعد الثورة، فإنّ مقاربتها النهائيّة حيال التنمية لم تتغيّر. في حين شهدَت الثمانينات التي مزّقتها الحرب تحوّلاً ملحوظاً في المحافظات، مدفوعاً بتعبئةٍ شعبيّةٍ، وبناء البنية التحتيّة، وفرصةٍ أكبر للحصول على الرعاية الصحيّة والتعليم، شهدت إعادة الإعمار في فترة ما بعد الحرب تحوّلاً نحو الأولويّات التجاريّة وتقرير السياسات من أعلى الهرم إلى أسفله.

**في حين شهدت الثمانينات التي مزقتها الحرب تحولا ملحوظا في المحافظات. مدفوعا بتعبئة شعبية. شهدت إعادة الإعمار في فترة ما بعد الحرب تحولا نحو الأولويات التجارية وتقرير السياسات من أعلى الهرم إلى أسفله.**

ولفهم الشكاوى التي تحثّ على الاحتجاجات اليوم، يشكّل نهر كارون، النهر الأكبر في إيران، مثالاً مأسويّاً وتثقيفيّاً. يقع هذا النّهر في جنوب غرب البلاد ويعبُر محافظة تشهارمحال القبليّة الجبليّة، ومحافظة خوزستان المجاورة الغنيّة بالنفط، أي إنّه يشكّل، في النهاية، الحدود الايرانيّة مع العراق. منذ نهاية الحرب بُنيَت سدودٌ رئيسة عدّة على النهر. وقد أشاد الرئيس السابق محمّد خاتمي بهذه المشاريع باعتبارها رمزاً للتقدّم الوطني: «ستحول هذه السدود دون ذهاب أيّ قطرة مياه هدراً». وعلى الرّغم من أنّ هذه المشاريع بنيت تحت شعار التقدّم الوطنيّ، تم تنفيذها بقلّة اكتراثٍ لآثارها الجانبيّة الاجتماعيّة والبيئيّة الخطيرة. وُضعت خططُ هذه المشاريع أساساً في الستينيّات، لكنّها لم تُنفَّذ إلا بعد التسعينيّات، وقد أُنشئت هذه المشاريع على غرار هيئة وادي تينيسي في الولايات المتّحدة الأميركيّة - والواقعُ أنّ رئيس هيئة وادي تينيسي ديفيد ليلينتال كان المستشار الرئيسيّ لذلك المشروع.



بَيد أنّه ما إن شيّدت هذه المشاريع، تسبّبت بتهجير عشرات الآلاف من مجتمعاتهم القديمة، وغمرت أراضي الزّراعة والرّعي بالمياه. وتألّفت مجموعة السكّان النازحين بشكلٍ أساسيّ من الأقليّات العرقيّة (العرب والبختياريّين) والقرويّين الفقراء الذين يفتقرون إلى النفوذ السياسيّ. ولهذا الغرض صودِرَت مساحاتٌ شاسعة من الأراضي لاستعمالها كخزّانات (مع خسارة كميّة كبيرة من المياه بسبب التبخُّر)، هذا فضلا عن الأعمال الزراعيّة الضخمة المتعلّقة بقصَب السكّر، وهو محصولٌ يعطش كثيراً ويُروى بالمياه العادمة.

**مقابل كل سيارة رياضية أو شقة فخمة في منطقة شمال طهران الراقية، ثمة مقالات في الصحف عن الفقراء المشردين الذين ينامون في قبور فارغة أو عن تجار يهربون السلع الاستهلاكية عبر الحدود الجبلية مع العراق وتركيـــــــــــــــــــا.**

أعقبت ذلك أزمةٌ بيئيّة إذ إنّ مياه النهر باتت ملوّثة إلى حدٍّ كبير لاستعمالها للشرب والزراعة. عانت الأهوار الضعيفة من كارثة بيئيّة. وقد أثّر ذلك على ملايين الأشخاص الذين يعيشون عند مصبّ النهر في القُرى والمدن الكبرى على غرار الأهواز، وعبادان والمحمرة (أو خورمشهر) - شعوبٌ سبق أن تأذّت بفعل الحرب مع العراق التي استمرّت ثماني سنوات. في حين تُشيد الدعاية الإعلاميّة الرسميّة بالتّضحيات التي قدّمتها هذه المناطق الحدوديّة خلال حرب «الدفاع المقدّس»، يشعر السكّان المحليّون بالخيانة والغضب بفعل الإجحاف المترتّب عن ميزانيّةٍ شديدة المركزيّة وضعها تكنوقراط طهران الذين يَبدون غير آبهين للرّفاه المحليّ. وقد أثارت مشاريعُ أخرى تهدف إلى تحويل مياه النهر إلى المحافظات الداخليّة الخصيبة إنّما المتعطّشة إلى المياه مثال أصفهان ويَزد المزيدَ من الجدال.

على الرّغم من أنّ الإصلاحيّين بادروا إلى إجراء إنتخاباتٍ محليّة، انتشرت هذه المركزيّة المفرطة وعدم المحاسبة على مستويات الحكومة كافّة. يُضاف إلى هذا المزيج المتفجّر جفافٌ طبيعيّ مُستدامٌ دمّر منذ التسعينيّات الزراعَة وكثّف النزوح الريفيّ إلى حدٍّ كبير. وقد نَزَح بعض هؤلاء الأشخاص المهجّرين إلى مدنٍ حضَريّة كبيرة أو إلى مدنٍ تابعة لها، لكن غالباً ما نقلَهم المسؤولون إلى مدن المحافظات الأصغر حجماً التي كانت مراكز للاحتجاجات الحديثة.

تكرّرت هذه الكوارث التي صنعها الإنسان في كافّة أرجاء البلاد. الطرقات السريعة، مصافي النفط، مصانع الإسمنت، ومصانع الصلب والمناجمُ ومشاريع كبيرة أخرى بُنيَت تحت لواء التنمية والاستقلاليّة الاقتصاديّة. بَيد أنّ الغالبيّة العظمى من عمّال تلك المنشأات يبقون بدون أجر لأشهر، ويتحمّلون ظروف عملٍ خطيرة، يفتقرون إلى الأمن الوظيفيّ أو المنافع المستقرّة، ويتعرّضون للقمع حين يحاولون تنظيم مظالمهم أو التعبير عنها. ثمّة سلسلةٌ لامتناهية من الكوارث الجليّة تساهم في إثارة الغضب الأخلاقيّ: جفاف البحيرة الأكبر في البلاد، بحيرة أروميّة (التي كانت تُسمّى سابقاً بحيرة رضائيّة)، بسبب الإفراط في الريّ، انهيار ناطحة سحاب بارزة في طهران ووقوع كارثة في أحد المناجم في الشمال الشرقيّ أودت بحياة عشرات رجال الإطفاء وعمّال المناجم على التوالي. والواقع أنّ كلّ عقدةٍ في الاحتجاجات التي حدثت أخيراً لها قصّةٌ مماثلة.

**المافيات والفقر المزمن**

ولعلّ ما يفاقم هذه الفضائح المافيات المتجذّرة في مراكز السلطة العسكريّة والأمنيّة، والاستنزاف الجليّ الذي يمارسه المضاربون عديمو الضمير، إلى جانب تركيبات العقوبات الدوليّة. عوضاً عن التخطيط الصناعيّ، أنشأت مناطق التجارة الحرّة والمبادرات العامّة والخاصّة فئةً من الاستغلاليّين، الذين غالباً ما يتعاونون مع شركاء في دبي، وتركيا، وسواها. مع ذلك، مقابل كلّ سيّارة رياضيّة أو شقّة فخمةٍ في منطقة شمال طهران الراقية، ثمّة مقالاتٌ في الصحف عن الفقراء المشرّدين الذين ينامون في قبورٍ فارغة أو عن تجّارٍ يهرّبون كمّياتٍ كبيرة جدّاً من السلع الاستهلاكيّة عبر الحدود الجبليّة مع العراق وتركيا.

حاولت بعض فروع الدولة إيجاد حلولٍ مبتكرة لمعالجة الفقر المزمن. على سبيل المثال، حاولت الوزارة الفرعيّة التي تُعنى بالرعاية الاجتماعيّة، تسجيل الباعة الجوّالين في الشوارع، ممّا يتيح لهم الاستفادة من بعض المنافع على صعيد الرعاية الصحيّة والاجتماعيّة، وعدم تجريم عملهم. في الوقت نفسه، تستمرّ الشرطة والبلديّات في مضايقة هؤلاء الباعة الجوّالين فضلاً عن آلاف العمّال من الأطفال، ومعاملتهم كمجرمين يعتدون على المساحات المدنيّة الخاصّة بالطبقة الوسطى. وفي حين أنّ من المبكر جدّاً معرفة هويّة

الإيرانيّين الذين تجرّأوا على المشاركة في الاحتجاجات، تشير أدلّة وافرة إلى أنّهم ليسوا ممّن يعيشون في الفقر المدقع ولا من المستفيدين من هذا الاقتصاد السياسيّ غير المتكافئ. عوضاً عن ذلك، تشكّلت طموحات النّاس العاديّين بمزيج متناقضٍ من الغضب حيال الظلم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والرغبات الاستهلاكيّة التي تغذّيها وعودُ الدولة التنمويّة بتحقيق الأمن المادّيّ والوفرة.

غالباً ما يطالب المتظاهرون بالاعتراف بأصواتهم الجمعيّة المستقلّة. لكن في حين شكّل بعض الناشطين العمّاليّين الشجعان والمنظمات البيئيّة مساحةً لرصد المطالب والتعبير عنها، غالباً ما تجاهلتهم الدولة التي تقمع قوّاتُها الأمنيّة أيّ محاولاتٍ لتوسيع نطاق هذه النشاطات. في أعقاب الاحتجاجات، قد يشكل قيام الدولة بتشريع هذه الأشكال من المشاركة المؤسّساتيّة هذه عوضاً عن تجريمها سبيلاً مثمراً لمعالجة الأزمة الاجتماعيّة. لم تُبدِ الطبقة السياسيّة الحاكمةُ أيّ إشارةٍ تُذكر إلى أنّها مستعدّةٌ للتساهل مع هذا الشكل من السلطة الاجتماعيّة. كذلك، صبّ الرئيس حسن روحاني تركيزه على تحسين «مناخ الأعمال» لجذب الاستثمار الأجنبيّ والمحليّ الخاصّ، مع وضع ميزانيّات تقشفيّة في السنوات الخمس التي أمضاها في منصبه. في هذه الأثناء، تجنّبت الفصائل الإصلاحيّة من النخبة تعبئة الطبقة العاملة والتعاطي الجادّ مع مطالبها في ما يتعلّق بالأجندة الإصلاحيّة.

**قد تحاول الحكومة التخفيف من حدة التوترات من خلال إعادة صياغة الميزانية. ولعل جولة جديدة من قضايا مكافحة الفساد. قد تشكل وسيلة بيد النظام للقول إنه يتخذ الإجراءات اللازمة ويستجيب للمطالب الاجتماعية.**

بَيد أنّ الدولة ليست جاهزةً ولا مجهّزة جيّداً لإدارة المهمّة الجبّارة التي تقضي بمواجهة أسباب الاستياء الكثيرة. فالموارد محدودةٌ، وما زال تأثير العقوبات وأسعار النفط المنخفضة محسوساً في نواحي الاقتصاد جميعها. في الوقت عينه، تفتقر الحكومة المنتخَبة إلى السيطرة على أجزاء كبيرة من الميزانيّة المخصّصة للمنظّمات التي يحكمها المرشد الأعلى آية الله خامنئي. أثبتت ولاية محمود أحمدي نجاد الرئاسيّة الشعبويّة، الممتدّة من عام ٢٠٠٥ حتى عام ٢٠١٣ أنّها كارثيّة بشكلٍ خاصّ على مؤسّسات الدولة. وبخلاف أسلافه، رفسنجاني وخاتمي، اللذين كانا متمسّكين بالحلول التكنوقراطيّة للمشاكل الاجتماعيّة، سعى أحمدي نجاد بفاعليّة إلى تقويض فئة المهنيّين ومحاصرتهم، إذ إنّه اعتبرهم خصومه السياسيّين. من خلال تسييس البيروقراطيّة، أمل بالإبقاء على قنواتٍ مباشرة للرعاية والسيطرة. وقد أحبطت أعمالُه هذه الموظّفين في القطاع العامّ وزادت الفساد.

في تشرين الثاني / نوفمبر عام ٢٠١٧، ضرب زلزالٌ الحدودَ الإيرانيّة العراقيّة في محافظة كرمنشاه، وأودى بحياة أكثر من ٦٠٠ شخص. ويُعزى الكثير من هذه الوفيّات إلى انهيار المجمّعات السكنيّة العامّة التي بُنيَت حديثاً خلال ولاية أحمدي نجاد. لم تكشف الأضرار عن مدى تأثر إيران بالزلازل وحسب بل كشفت النّقاب أيضاً عن الفساد وعدم الكفاءة في بناء المشاريع العامّة للفقراء التي تحظى بترويجٍ كبير. وبخلاف الزلازل السابقة التي كانت أقوى بكثير، لم تكن منظمات الطوارئ جاهزةً لذلك وجاءت استجابتها بطيئةً - وأشارت التقارير إلى عدم توافر العدد الكافي من المروحيّات القادرة على الوصول إلى المناطق الجبليّة وإلى أنّ الكثير من الإمدادات التي وصلت لم تُوَزَّع على المحتاجين. بعد شهرين، ظلّ خمسون ألف شخصٍ بدون مأوى، يعيشون في الخيام.

يتشارك المتظاهرون الإيرانيّون المخاوف المعهودة ذاتها التي ولّدها التفاوت المتفشّي في الرأسماليّة العالميّة والدمار البيئيّ. في الوقت الراهن، يبدو أنّ الاحتجاجات تتلاشى في ظلّ القمع الذي تمارسه الدولة وعجز المتظاهرين عن الحصول على دعم أوسع. وتُقرُّ الحكومة بأنّ واحداً وعشرين شخصاً قد قُتِلوا كما أوقِف أربعة آلاف شخص تقريباً في مسحٍ وطنيّ. قد تحاول الحكومة التخفيف من حدّة التوتّرات من خلال إعادة صياغة الميزانيّة وإعادة الإعانات الماليّة والدفوعات النقديّة التي كانت تعتزم خفضها إلى سابق عهدها. ولعلّ جولةً جديدة من قضايا مكافحة الفساد، تحظى بتغطيةٍ إعلاميّة كبيرة، قد تُشكِّل وسيلة بيَد النظام للقول إنّه يتّخذ الإجراءات اللازمة ويستجيب للمطالب الاجتماعيّة. بَيد أنّ الواقع الاجتماعيّ لمن يعيشون على هامش المجتمع الإيرانيّ سيستمرّ. أمّا ما يجعل المظاهرات ضدّ المخالفات والدعوات إلى التغيير السياسيّ والعدالة الاجتماعيّة تلقى أصداءً قويّة فهو واقع أنّ المتظاهرين يتّهمون حكّام إيران بأنّهم أخلفوا التزامَهم بالاقتصاد الأخلاقيّ الذي قطعوه بعد الثورة.

# ثورة الفقراء تزعزع النظام في إيران

**أزادي كيان**

**أستاذة العلوم الاجتماعيّة في جامعة باريس، إيران وفرنسا.**

«أثقَلَ الفساد وعدم الكفاءة الاقتصاديّة لحكومة الفقيه (ولاية الفقيه)[1]، إلى جانب قمع الحريّات المدنيّة والسياسيّة المشروعة كاهل السكّان وتسبّبتْ بإثارة موجة التظاهرات الأبرز في سنوات ما بعد الثورة».

في التصريح أعلاه، حمَّل أبو الفضل قدياني، وهو شخصيّة إسلاميّة مشهورة وشجاعة تنتمي إلى اليسار الإسلاميّ، وسجينٌ سياسيّ سابق في عهد الشاه كما في زمن الجمهوريّة الإسلاميّة، حمّل المرشد الأعلى علي خامنئي مسؤوليّة الانتفاضة التي هزّت البلاد لعشرة أيّام، ما بين أواخر كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠١٧ ومطلع كانون الثاني / يناير ٢٠١٨. ساهم تدخّل قوى القمع وانتشار حرس الثورة في وضع حدٍّ مؤقّت لتجمّع آلاف المتظاهرين من الطبقات الشعبيّة الذين زعزعوا أكثر من سبعين مدينة. وتتمثّل حصيلة أيّام الغضب هذه في مقتل خمسةٍ وعشرين شخصاً، واعتقال ما بين أربعة آلاف وسبعة آلاف شخصٍ بحسب التقديرات، ووفاة ثلاثة متظاهرين داخل السجن في ظروفٍ غامضة.

هنّأ مؤيّدو النظام الإسلامي، ومِن بينهم المرشد الأعلى - وهو الهدف المفضّل لدى المتظاهرين الذين أطلقوا شعاراتٍ كـ«الموت لخامنئي» أو «ليسقط الدكتاتور» - والرئيس «المعتدل» حسن روحاني، أنفسهم لتمكّنهم من لجْم «مثيري الشغب» الذين اعتبروهم أقلّيّة تسلل إلى صفوفها خصومُ النّظام في الخارج إلى جانب الولايات المتّحدة والمملكة العربيّة السعوديّة وإسرائيل. بَيد أنّه، بعد يومين على بدء التظاهرات، اعترف روحاني في خطابٍ له بشرعيّة المطالب الشعبيّة التي لا تتلخّص بنظره بمطالب اقتصاديّةٍ وحسب، بل هي أيضاً مطالب اجتماعيّة وسياسيّة. مع ذلك، تراجع الرئيس مرّة أخرى أيضاً أمام إملاءات المرشد الأعلى خامنئي الذي حاول أن يلقي مسؤوليّة النزاعات الإجتماعيّة على الخارج واصفاً المتظاهرين بأنّهم مخرّبون يعملون لصالح قوى خارجيّة.

### شعور عميقٌ بالظلم

من دون أن ننكر محاولات الاستغلال والتسييس من قبَل أعداء جمهوريّة إيران الإسلاميّة أو أعداء النظام في الخارج، تُعبِّر هذه الثورات التي شارك فيها عددٌ من الشابّات عن طموح التغيير في صفوف الطبقات الشعبيّة والطبَقات المتوسّطة الدّنيا، وذلك على المستوى الاقتصاديّ كما الاجتماعيّ والسياسيّ. وهؤلاء السكّان الذين يعانون بشدّة من البطالة، وعدم الاستقرار، والفقر المدْقع، بدون أيّ تطلّعاتٍ مستقبليّة، يسكنهم شعورٌ عميقٌ بالظلم، مرتبطٌ بالفساد ونهب الثروات الوطنيّة من قِبَل أقليّة في السُلطة.

في مقابلةٍ مع موقع Etemad، اعتبر محمد مالجو، اقتصاديٌّ إيرانيٌّ توقّع احتمال حدوث أعمال شغبٍ بسبب لقمة عيش المواطنين المهدَّدين (بدون مأوى، نازحين ريفيّين، عاطلين من العمل، عمّال مياومين، بائعين جوّالين)، أنّ التظاهرات الأخيرة هي بمثابة «الثورات الطبقيّة» الأولى منذ الثورة الإيرانيّ[2]. والواقع أنّ هذه التظاهرات مختلفةٌ عن تظاهرات الحركة الخضراء في العام ٢٠٠٩. وقد ظهرتْ هذه الحركة السياسيّة المُنظَّمة التي تسيطر عليها بشكلٍ أساسيٍّ الطبقاتُ المدنيّة الوسطى، على الساحة الاجتماعيّة مع قادةٍ ينبثقون عن النظام ولا يزالون حتى الآن تحت الإقامة الجبريّة. وقد كانت هذه الجهاتُ الفاعلةُ التي تتمتّع برأسمالٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ في آن، ترفض العنف، وتطمح إلى تغييراتٍ سلميّة، كما تسعى إلى وضع أسسٍ ديمقراطيّةٍ لمحاولة تغيير النظام من الدّاخل من خلال الانتخابات والمشاركة في حيّزٍ سياسيٍّ مؤسّساتي.

* نشر هذا المقال في موقع *Orient XXI* في شباط / فبراير ٢٠١٨

منذ الثورة، أتاح وجود طيفٍ واسعٍ من التوجّهات في قلب النظام الإسلاميّ، مع إيديولوجيّاتٍ ومصالحَ مختلفة، أو حتى متضاربة، تصوّر إمكانيّة حدوث تناوبٍ سياسيٍّ وقابليّة إضفاء الطابع السياسيّ على النظام.

في المقابل، ليس لدى متظاهري عام ٢٠١٨ ما يخسرونه وهم غاضبون من مجموع مؤسّسات النظام ومسؤوليه، الإصلاحيّين كما المحافظين. والواقعُ أنّ الموقف الذي اتّخذتْه ضدّهم غالبيّة الشخصيّات الإصلاحيّة، وفي طليعتها محمد خاتمي، وهو موقفٌ مقرونٌ بالخيبة الكبيرة التي يشعر بها الناخبون الذين أعادوا انتخاب روحاني عام ٢٠١٧ آملينَ تحقيق انفتاحٍ سياسيٍّ واقتصاديّ في البلاد، قد وضع حدّاً لإمكانيّة حدوث تطوّرٍ تدريجيّ. ونحن نجازف بأن نشهد تعميم متطلّبات العدالة الاجتماعيّة، وتقسيمٍ أفضل للثروات الوطنيّة، ووضع حدٍ للسلطة الاقتصاديّة، والماليّة والسياسيّة التي تنعم بها البُنى الاحتكاريّة (المرتبطة ببيت المرشد الأعلى، المؤسّسات الدينيّة، أسس أو حرس الثورة)، الشفافيّة، وحماية البيئة، واحترام الحريّات الفرديّة والجماعيّة، وفصل الدين عن الدولة. أو حتى تنظيم استفتاءٍ شعبيّ لتحديد طبيعة النظام المنشود من غالبيّة الناخبين الذين يرفضون على ما يبدو الإسلام السياسيّ ويطالبون بجمهوريّة إيرانيّة، لا إسلاميّة.

### أرستقراطيّة رجال الدين

لن تُسهم أرستقراطيّة رجال الدين الذين يرفضون الاعترافَ بالمشاكل الاجتماعيّة والسياسيّة التي أدّت إلى هذا الاستياء الشعبيّ، إلّا في جعل الخطابات، والمطالبات والأعمال أكثر تطرّفاً، واستقطاب المجتمع بين أقليّة مرتبطة بدوائر السلطة، جمعتْ ثرواتِها منذ الثورة، وأكثريّة لم تستفِدْ من توزيع الثروة النفطيّة. وقد تفضي التوتّرات المتزايدة إلى زعزعة الاستقرار في البلاد، وذلك في إطارٍ إقليميٍّ ودوليّ حيث وطّدت الولايات المتحدة وإسرائيل والمملكة العربيّة السعوديّة تحالفاً ضدّ إيران.

وبخلاف المحافظين، الذين أجمَعوا على إدانة المتظاهرين، تسبّبت أعمال الشغَب في زرع الشقاق في صفوف الإصلاحيّين: اصطفّت أكثريّة يُقال إنّها معتدلةٌ إلى جانب السلطة وأقليّة نأت بنفسها. ينتمي محمّد تقي فاضل ميبدي، مدرّس في مدرسة قم الدينيّة إلى هذه الأقليّة. فبعدما انتقد بشدّة كاظم صديقي، إمامٌ يؤمّ صلاة الجمعة في أحد جوامع طهران لأنّه وَصَف المتظاهرين بالـ«قمامة»، صرّح ميبدي: «أعتقد أنّ رجل الدين لا يعرف حقيقة السكّان ولا يفهم مشاكلهم ولا معاناتِهم. ولو كان إمام صلاة الجمعة يعيش دون عتبة الفقر، ما كان ليتحدّث بالطريقة نفسها. تنعم هذه المجموعة بمستوىً معيشيٍّ رغيد، ولا تخضع أبداً للضغوطات الاقتصاديّة وليس لديها بالتالي، أدنى فكرة عن الحياة الصعبة التي يعيشها أولئك الذين ينزلون إلى الشارع للتعبير عن معاناتهم». كذلك، انتقد أيضاً الزيادةَ المهمّة في الحصّة المخصّصة للمدارس والمؤسّسات الدينيّة في موازنة الحكومة الجديدة، في حين أنّ الميزانيّة المخصّصة لتنمية البلاد قد انخفضت، وهذا ما يُسهم، برأيه، في موجة الاستياء.

من جهته، يرى أبو الفضل قادياني أنّ «من الواضح، حتى وإن كان حمَلَةُ لواء الإصلاح يتجنّبون التحدّث عن ذلك، أنّ المذنب الرئيسيّ هو علي خامنئي. فالمؤسّسات التي يحكمها تسيطر على ٦٠ في المئة من الاقتصاد الإيرانيّ وما زالت تنهب الثروات الوطنيّة والأملاك العامّة بلا حسيبٍ أو رقيب. في سبيل الحفاظ على حصانته، أنشأ خامنئي الجهاز القضائيّ الأكثر فساداً والأكثر انصياعاً في تاريخ إيران المعاصر. ومن أجل الحفاظ على هيمنته الديكتاتوريّة، سَحَقَ الطبقة المنتجة في الاقتصاد وأجبر الشباب المثقّف على مغادرة البلاد. عطشُه اللامحدود إلى السلطة جعل من المستحيل إرساء الاستقرار السياسيّ واستنزف مصادر الاستثمار المنتج. وعلى الرّغم من الرأي العامّ المعارِض، ينفق خامنئي ثروات هذه الدولة الفقيرة في سوريةَ وأماكن أخرى بغية الإبقاء على الدكتاتوريّين الفاسدين في مناصبهم. لم يترك هذا السجلّ الكارثيّ والقاتم، وهذه الشهوة اللامحدودة إلى السلطة، أيَّ أملٍ أمام الشعب بتغيّر سلوك خامنئي وتصرّفاته. بالتالي، يملك الشعب حقّاً لا يجوز التصرّف فيه بمعارضة هذه الدكتاتوريّة والمطالبة بحقوقه المنتهَكة وفقاً لما تنصّ عليه المادّة ٢٧ من الدستور. إنّ هذه المطالب مشروعة، وإن اتّخذت المظاهرات منحىً عنيفاً فذلك لأنّ مَن هم في سُدّة الحكم لا يحترمون حق المواطنين بالتظاهر (...)».

### العقوبات الاقتصاديّة

غالباً ما يتّهم قادة النظام العقوباتِ الدوليّة بأنّها السبب في كلّ المشاكل الاقتصاديّة. صدَر قانون العقوبات ضدّ إيران في كانون الأوّل / ديسمبر ٢٠٠٦، بسبب غموض برنامجها النوويّ، ولم تُرفَع إلّا في كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ بعد إبرام الاتّفاق النوويّ في تمّوز / يوليو ٢٠١٥، وقد أضعفتْ هذه العقوباتُ الاقتصادَ فعلاً. يُضاف إلى

ذلك الإبقاء على العقوبات التي فرضتْها الولايات المتّحدة والتي تُرخي بثقلها بشدّة على المعاملات المصرفيّة والاستثمارات الأجنبيّة، وبخاصةٍ الأوروبيّة منها. وقد راهن روحاني كثيراً على هذه الاستثمارات التي يُفترَض أن تستقدم تكنولوجيا حديثة وتُنشئ مئات ملايين فرَص العمل للشباب العاطلين عن العمل من أصحاب الشهادات. بيد أنّه إلى جانب عداء الولايات المتحدة وغياب الدعم الأوروبّي، يعاني الاقتصاد من قطاعٍ عامّ غير فعّال ومن بُنى احتكاريّة تسيطر على مناطق بكاملها، وتعيق نشوء قطاعٍ خاصّ فعليّ قادرٍ على جذب رؤوس الأموال الإيرانيّة والأجنبيّة. وفي السنوات الأخيرة، وسّع حرس الثورة، ومليشيات الباسيج أو حتى الجيش النظاميّ أيضاً، ووزير الدفاع الذين يستفيدون جميعهم من الثروة البترولية، مؤسّساتهم الماليّة والاقتصاديّة، التي لا ترتبط في معظم الأحيان بالأنشطة العسكريّة، وأنشأوا بذلك دولةً داخل الدولة. تحصل هذه البُنى، وبخاصّةٍ «مؤسّسة خاتم الأنبياء» التابعة للحرس الثوري الإيراني، من الحكومة، وبدون أيّ استدراج عروض، على امتيازاتٍ مُربحة في قطاعات الطاقة، والاتصالات، وشبكات الطرقات أو حتى أحواض السفن وورش بناء السدود. لم ينجح الرؤساء المتعاقبون في الحَدّ من امتداد أنشطة الحرس الثوريّ. وبحسب الرئيس الشعبويّ السابق محمود أحمدي نجاد، استفاد هؤلاء «الإخوة المهرّبون» من العقوبات الدوليّة لاستيراد البضائع بشكلٍ غير شرعيّ. أمّا بالنّسبة إلى روحاني، فقد انتقد سيطرة الحرس الثوري، مصرّحاً في حزيران / يونيو الماضي بأنّ جزءاً من الاقتصاد كان بيَد «دولةٍ بدون بندقيّة» وانتقل إلى «دولةٍ مع بندقيّة».

أثارت التظاهرات العفويّة التي شارك فيها شبّانٌ من الطبقات الشعبيّة - يُفترَض أنّهم من ركائز النظام، ضدّ كافّة أشكال السلطة (السياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة والإيديولوجيّة)، مخاوفَ من انتفاضةٍ ضدّ نظامٍ لم يعُدْ فيه من ثوريٍّ أو شعبيّ سوى الخطاب. بيد أنّ انفتاحاً سياسيّاً قد تكون له عواقب خارجة عن السيطرة. كذلك، في ٢٢ كانون الثاني / يناير، أعلن صادق لاريجاني رئيس السلطة القضائيّة والمقرّب من المرشد، أنّ ثمن الاحتجاجات ضدّ السلطة سيكون غالياً. عوضاً عن ذلك، اختار المرشد شبه انفتاحٍ اقتصاديّ، وأصدر في اليوم نفسه أمراً بإجراء تحقيقٍ حول إمكانيّة الحَدّ من نشاطات قوى الإكراه غير المرتبطة بالنشاطات العسكريّة والدفاعيّة.

قد ينجح هذا التعهّد في جذب الاستثمارات الأوروبيّة إلى إيران، لكنّه لن يُهدّئ الطبقات المحرومة، وهؤلاء المتظاهرين المهمَّشين الذين ليس لديهم ما يخسرونه، والذين تصرّفوا للمرّة الأولى بشكل مستقلّ عن النخبة الإصلاحيّة أو الطبقة الوسطى المثقّفة، يشكّلون بهذه الطريقة ميداناً سياسيّاً مستقلّاً.

**الهوامش**

١ يدافع جزءٌ فقط من البنية الهرميّة الشيعيّة عن ولاية الفقيه. وبحسب عقيدة الشيعة الإثني عشريّة، بعد وفاة النّبي محمّد والأئمة الإثني عشر الذين خلفوه، «انسحب» آخرهم وهو لا يزال على قيد الحياة. بانتظار نهاية الأزمنة وعَودة «الإمام الغائب»، خلال فترة «الغيبة الكبرى»، الذي سيَهدي جماعة المؤمنين. وبحسب آية الله الخميني وأنصار ولاية الفقيه، يعود هذا الدَّور إلى الفقيه، الحاكم، نائب «الإمام الغائب» ومندوب السيادة الإلهيّة

٢ مقابلة (بالفارسيّة) أجراها محمّد مالجو مع صحيفة Etemad، بتاريخ ١٠ كانون الثاني / يناير ٢٠١٨



# شهادتان من الحرب اليمنية

**بشرى المقطري**

**مناضلة وروائية يمنية.**

## أجنحة صغيرة لريم

يتسلّل البرد والهواء والغبار إلى بيتنا من نوافذ وقمريات بلا زجاج، يدخل الريح والمطر أيضاً، ولا نستطيع حماية أنفسنا من البرد، أصلحَ زوجي زجاج النوافذ والقمريات مرّةً أخرى، لكن مع كلّ قصف للمليشيات على منطقتنا يتشرّخ زجاج النوافذ على رؤسنا. اقتنع أخيراً زوجي بتركها لحالها وسعدتُ بذلك. ريم هناك، أحسّ أنّ روحها في الهواء الذي ينفذ إلى رئتيّ، وكلّما خفق هواء العصارى الباردة شعرتُ بأنّ روح ريم في الهواء الذي يبقى في العظم ليذكّرني بأنّي فقدتُ ابنتي في الحرب.

تقول الجدّات إنّ الأطفال عندما يموتون يذهبون إلى الجنّة، يصبحون ملائكة. في كلّ وقت أتخيّل ريم ملاكاً صغيراً بأجنحة ورديّةٍ تُحلّق في سماء الجنّة، ترقص ريم وتضحك، تغنّي مع أطفالٍ آخرين قَتلتُهم الحياة أو الحرب، لكنّ الأطفال عندما يُقتلون في الحرب يُخّلفون في قلوب أمّهاتهم حسرة، وأنا أكلتْني الحسرة على ريم. أتذكّر ذلك اليوم كألمٍ لا ينام، الندَم والذنب يبقياني مستيقظةً في الليل، أفكّر بما حدث، أحياناً يَدهمني شعورٌ منهك بأنّي السبب في موتها، وأحياناً أتخلّص من العذابات المُرهِقة، وأُقنع نفسي بأنّ الصّدف العبثيّة أو الأقدار هي السّبب. صادف أنّ ريم وأختَها ملاك وأطفالاً آخرين في الحيّ كانوا أمام الدكّان وقت وقوع القذيفة، وأنّ القتلة هم الذين تسبّبوا بفجيعتنا وبآلامنا، لكنّ الشعور بالذنب يأكل قلب الأمّ الحزينة التي ظلّت تحمي صغارها، الأمّ التي تركتْ طفلتيها تخرجان للموت.

أتذكّر ريم طوال الوقت، حين تلعب مع أختيها ملاك وبشرى، ويناكفهما أخوهما مالك، أصواتهم المحبّبة تملأ حياتي، وتمنحني الأمان، أو حين تقلّد ريم حركات وأفعال جدتها حَجة. إذا بدأت الجدّة بالصلاة تُحضر ريم سجّادتها وتصلّي جوارَها، وإذا استلقتْ جدّتها في السرير، استلقت ريم جوارها مقلّدة إيّاها. أكون حينها بعيدةً عن ضجّة العالم وأصوات القصف والقذائف، أكون محميّة من الرعب الذي يملأ شوارع «بير باشا»، المنطقة التي لا تهدأ فيها الحرب أبداً.

في الأشهر الأولى من الحرب، نزحنا إلى قريتنا في منطقة «مَقْبَنَة»، بقينا في القرية شهرين، لكن كما تقول عمّتي حَجَة، كانتا سنتين من الشقاء، لا ماء، لا كهرباء. في كلّ صباح نذهب إلى الجبال البعيدة لجلب الحطب، تتشقّق أيدينا وأقدامنا من الألم، لم نستطع البقاء أكثر في القرية، عدنا إلى البيت، وأصلحنا النوافذ المحطّمة، لكن بعد ثلاثة أيّام من عودتنا استهدفت القذائفُ بيتنا، سقطتْ قذيفة على السقف وحطّمت خزّانات المياه، حبستْ أطفالي ومنعْتهم من الخروج.

لا أعرف لماذا قلتُ يومها لريم وملاك أن تشتريا من الدكّان بطاطس لأختهما الصغيرة؟ لا زلتُ أتذكّرهما، وهما تنزلان درج العمارة. ريم ترتدي سروالاً ورديا و«جاكيت» أنيقة، قبل يومين قَصصتُ شعرها، كانت تبقى أمام المرآة تتأمّل نفسها وتبتسم. (تصمت نسيبة، وتنكمش حول نفسها) رجّة انصفاق باب البلكونة بقوّة هي ما أيقظني من شرودي، ثمّ بدأ الدخان يملأ الغرفة، بكت ابنتي الصغيرة، حملتُها ونزلتُ درجات السلّم، كان زوجي واقفاً هناك. «ريم... حقّ الله». خرجتُ إلى الزّقاق. الدماء تغطّي درجات الدكّان، البطاطس مختلط بالدم، ريم صغيرتي، وأطفال آخرون، ميتون وبلا رؤوس. (تبكي نسيبة) ما الذي فعلتْه ريم ليقتلوها؟ كانت طفلة صغيرة، حرموني منها، كسروا قلبي، من ينصفنا؟

ملاك الآن لا تمشي، ولا تقف، نخلَت الشظايا جسدها، تتذكّر كلّ يوم كيف كانتْ تمسك بيد أختها، وهما تنتظران صديقتيهما رُبى ورَفى لتلعبا معهما، تقول لي «يا ماما لم يكن لريم وجه. سحقت القذيفة وجه أختي».

في كوابيس ملاك، أسمع صوت القذيفة وهي تسقط آلاف المرّات، ثمّ، ابنتي ريم وأطفال آخرون بلا رؤوس، تحكي ملاك تفاصيل الفزع مرّة تلو مرّة، وتتعرّق في نومها، تحكي عن رأس أختها المشظّى على الدرجة الرابعة في الدكّان، أحضنها وأبكي، حينها تتسلّل نفحات هواء باردة وأفكّر بريم، تحلّق حولنا بجناحيها الصغيرين.

الأمّ نُسيبة عبد الملك

في الساعة الرابعة والربع من عصر يوم الثالث من تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٦، استهدفتْ مليشيات الحوثي وصالح دكّانا في منطقة «بير باشا» بمدينة تعزّ، قُتلت ابنتها ريم بشير، ٤ سنوات، وسعيد محمد سعيد، ١٠ سنوات، ومحمّد فوّاز محمّد، ١٠ سنوات، وبشّار محمّد قائد، ١١ سنة، وعلي عبده سعيد، ٩ سنوات، وماجد ناصر سعيد، ٢٨ سنة، ومحمّد عبد الله عبده، ٢٠ سنة، وهيثم قائد منصور، ٢٠ سنة، وإسماعيل محمّد أحمد، ٣٥ سنة، وأصيل مهيوب غالب، ١٧ سنة، كما أصيبت ابنتها ملاك بشير، ٨ سنوات.

◆◆◆◆◆◆◆◆

## الأباتشي لا تصطاد السمك

لا أريد أن أتذكّر. أنا تعبان. يصمت بِخيت، يحدّق بالسقف المقشّر طلاؤه، تبرز قدماه من تحت ملاءة سرير المستشفى، يشاغله أصدقاؤه بالمزاح، لكنّه ينظر إلى كلّ ما حوله بغضب. قال لي أحد أصدقائه «لا تغضبي منه، لقد عانى كثيراً لإنقاذهم. إنّه حزين». ينتبه بِخيت لحوارنا ويبدأ في سرد حكايته...

كنّا في القارب الأوّل الذي قُصف في ذلك الليل، رأينا ضوء طائرة ينير ظلمة الليل والبحر. لم نسمع صوت تحليقها، كأنّها هبطْت من السماء. لم ننتبه لها إلّا حين بدأتْ تحلّق بموازة القارب. في البداية ذُعرنا من




الشهيد يوحد الوطن
الذكرى السنوية للشهيد
رجال
ماعاهدوا الله عليه
الشهيد يوحد الوطن
رجال
ماعاهدوا الله عليه
خطر الألغام
إحذر الألغام والقذائف غير المتفجرة والشراك الخداعية
خطر يهددنا فابتعد عنها
unicef

ظهورها المفاجئ، لكنّا عدنا لانشغالنا، لم يخطر ببالنا أنّها ستهاجم قاربنا. أعتقدنا أنّ مرورها هنا مجرّد صدفة، وأنّها في طريقها إلى مكان ما، لا شيء هنا لتقصفه، لا شيء سوى صيادين يكدّون لكسب قوت يومهم، لكنّها لم تمهلنا طويلاً للتّفكير باحتمالات أخرى، بدأت الأباتشي بإطلاق النّار على القارب في الساعة السابعة ليلاً، بعد مضيّ سبع ساعات على إبحارنا من شاطئ مدينة الحديدة في الساعة الواحدة ظُهراً. حينها كنّا قد وصلنا إلى منطقة «صندل»[1]، المنطقة التي كنّا نصيد منها دائماً. كانت منطقة هادئة، لا قواعد عسكريّة هنا ولا مُسلّحين، فقط قوارب الصيّادين، عندما بدأتْ طائرة الأباتشي تستهدفنا بنيرانها، اضطربْنا، حاولنا الهروب من نيرانها وحماية رؤسنا، لكن لم يكن في قاربنا الصغير ما يمكن الاختباء خلفه.

أتذكّر الأباتشي وهي تصوّب نيرانها نحونا، ونحن محاصرون في القارب في عرض البحر، مهما صرخنا، لا أحد هناك ليغيثنا، لا بشر ولا زوارق صيد أخرى، فقط الظلام والبحر حولنا. أتذكّر كيف كنّا ممدّدين على القارب الذي نخلتْهُ النيران. سقطنا بين قتيل وجريح، لا صوت يخرج منّا ولا نفس. بعد تأكّد الطائرة أنّ لا حركة تصدر من القارب، اختفت فجأة كما ظهرتْ. (تقاطع ممرّضة دخلت إلى الغرفة، ذكريات بخيت، تسألني: «هل ستصوّرين بخيت؟ إذا كنتِ ستُصوّرينه، انتظري حتى أغيّر الملاءات». أهزّ رأسي بالنفي. يواصل بخيت).

عندما فتحت عينيّ، أدركتُ أنّني مصاب، لا أستطيع الحراك، ألتفت فيما حولي، أصدقائي ممدّدون بلا حراك. حاولت النهوض، لكنّ إصابتي أعاقتني عن الحركة، استجمعتُ قوّتي ونهضت لأتفقّد أصدقائي: صديقاي عبد الله دعبوش وعبد الله علي جابر قُتلا، نخلَت نيران الأباتشي جسديهما، دماؤهما تسيل على القارب (يختنق صوته ويصمت).

تحسّستُ باقي أصدقائي، كانوا مصابين، ومغمىً عليهم. بحثتُ في القارب عن شيء لأُوقف به النزيف، وعندما لم أجد ما يمكن استخدامه، فقدت الأمل في النجاة. بعد وقت، عدت من جديد، أبحث عمّا أوقف به النزيف، انصبّ كلّ تركيزي وقوّتي وطاقتي على إنقاذ أصدقائي الآخرين، كنت واعياً رغم إصابتي، لا أعرف من أين امتلكت تلك القوّة والصبر، عندما أتذكّر ذلك الآن أفكّر بأنّي كنت حينها إنساناً آخر، لا يرى سوى آلام أصدقائه والنجاة من الموت بأيّ طريقة، لكن كيف يمكن أن ننجو، وجميعنا مصابون، لا شيء في القارب لنربط أنفسنا به، المياه تنفذ إلى داخل القارب المملوء بالثقوب، والذي يتمايل طوال الوقت والمياه تغمره. كنتُ أنظر حولي كالمجنون، وأنا أفكّر بموتنا الوشيك، أدور داخل القارب لأبحث عمّا ينقذنا من الغرق. بعد وقت، نجحت بصعوبة في ربط أصدقائي المصابين من أرجلهم، أوثقتهم جيّداً وأوثقت نفسي أيضاً، ثمّ استلقيت على ظهري جوار جثث أصدقائي. جميعنا من قرية الصباري[2]، نعرف بعضنا جيّداً، لم يكونوا أصدقائي بل أخوتي. فقدتُ اثنين منهم يومها.

دائماً ما كنّا نرتاد هذه المنطقة، نصطاد فيها منذ احترفنا مهنة الصّيد، كانت تبعد ١٦ كيلو عن جزيرة طُرفة، منطقة آمنة للصّيّادين، لم نسمع أنّ طيران التحالف يقصف قوارب الصيّادين ويقتلهم بهذه البشاعة، لو كنا سمعنا بشيء كهذا ما نزلنا البحر. لكن ما ذنب أصدقائي، هم مجرّد صيّادين، لماذا يقتلونهم؟ (يصمت).

القارب الذي «خوزقتْه» نيران الأباتشي كان يهيم وحده في البحر، لم أبال إلى أين قد يذهب بنا، كنّا مصابين وننتظر مصيرنا، مرّت إثنتان وعشرون ساعة منذ قصفتْنا طائرة الأباتشي ونحن ما زلنا في البحر. عندما مرّ قارب للصيّادين في وقت الجَلبة[3]، كانت الساعة الخامسة من عصر اليوم الثاني. أنقذنا الصيّادون، سحبوا القارب وأسعفونا إلى المستشفى.

اثنتان وعشرون ساعة مضتْ ونحن في البحر. هل تتخيّلين ذلك. اثنتان وعشرون ساعة ونحن عالقون في البحر، مصابين، ومتعبين، وقتٌ طويل ومظلم وحزين. كيف مرّ عليّ وبماذا كنت أشعر؟ لا أريد أبداً أن أتذكّر.

الصيّاد بخيت أحمد عبد الله

---

في الساعة السابعة ليلاً من يوم الأربعاء، الخامس عشر من آذار / مارس ٢٠١٧، استهدفت مقاتلة أباتشي للتّحالف العربيّ قارب صيّادين. أُصيب بخيت أحمد عبد الله وعصام مُعافى وحمدي سيّد ومحمّد ربيد وحسن جعدار، وقتل صديقاه عبد الله علي جابر وعبد الله دعبوش موسى جمال. زرت بخيت في مستشفى «الأقصى» بمدينة الحديدة.

---

◆◆◆◆◆◆◆◆

١ في مدينة الحديدة.

٢ قرية في مدينة الحديدة.

٣ مفردة يستخدمها الصيّادون وتعني وقت نزولهم إلى البحر لاصطياد السمك.

# احتجاجات الحسيمة
## إخفاق الشارع أم إخفاق الدولة المغربيّة

**عبد الفتاح نعوم**

**باحث في علم السياسة، المغرب.**

مضى أكثر من عامٍ على اندلاع حراك الحُسَيمة، وانتهتْ مآلاته إلى اعتقال قادتِه بتهَم متنوّعة ومتفاوتة الخطورة. أمّا المسؤوليّات المختلفة حول أسباب الحراك، والصيَغ التي مرّ بها وآل إليها، فقد تقاذفها المسؤولون وزعماء التيّارات السياسيّة الأساسيّة في البلاد.

تقع الحسيمة في أقصى الشّمال الشرقيّ للمغرب، ويهيمن عليها من حيث تشكيلُها الديمغرافيّ المكوّن الأمازيغيّ الريفيّ[1]، الذي لا يزال مخيال قسمٍ من نخَبه ينتعش على الواقع التاريخيّ الذي جعل من الريف جمهوريّة مستقلّةً في يومٍ من الأيّام[2]. وهو قد يكون من العوامل التي سهّلت حدوث الحراك بالحسيمة، والقبائل المحيطة بها والوافدة إليها، على الرّغم من وجود العناوين وعوامل الانفجار نفسها في معظم مناطق المغرب.

على الرّغم من خلفيّتها الثقافيّة واللغويّة الأمازيغيّة، فإنّ احتجاجات الحسيمة لم يغلب عليها الطابع الذي هيمن على مطالب «الحركة الأمازيغيّة». ذلك أنّ مطالب هذه الحركة تتركّز على نحوٍ أساسيّ في رفع الحيف عن الأمازيغ من الناحية الاجتماعيّة، كما تتركّز جوهريّاً في المطالبة بإعادة الاعتبار للأمازيغيّة لغةً وثقافةً وهويّةً أصليّة. بيد أنّه يسوّغ استحضار هذا البعد في مسألة احتجاجات الحسيمة، باعتبار أنّ السنوات الأولى من حكم الملك محمّد السادس قد اتّجهت نحوه، إذ ألقى العاهل المغربيّ في ١٧ تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠٠١ خطاباً في مدينة أغادير القريبة من الحسيمة، والحاملة لرمزيّةٍ كبيرةٍ من منطلق كونها مسقطَ رأس محمّد بن عبد الكريم الخطّابي، وكان موضوع الخطاب حول الهويّة والثقافة الأمازيغيّتين، واللتين سيُصار إلى تأسيس معهدٍ ملكيٍّ لأجلهما لاحقا[3].

حاول نشطاء الحراك فصل مطالبهم ذات الطابع الاجتماعيّ عن المضمون السياسيّ والثقافيّ للحركة الأمازيغيّة، ولجناحها الثقافيّ الأكثر تشدّداً في المسائل الثقافيّة. وقد طغى على خطاب ناصر الزفزافي، باعتباره أبرز نشطاء الحراك، الخطابُ الدينيّ. لكنّ نشطاء الحركة الأمازيغيّة حاولوا في تصريحاتهم وتقييماتهم للوضع أن يربطوا جهد الإمكان، بين الاحتجاجات وبين سوء تدبير الدولة المغربيّة لملف الهويّة، وإرجاع أسباب الاحتجاجات إلى التهميش والحيف الواقعين على الأمازيغ اجتماعيّاً وثقافيّاً ولغويّاً[4]. لكن يصعب التسليم بذلك الربط على نحو ميكانيكيّ، باعتبار أنّ التهميش حالة عامّة في مجموع مناطق المغرب. وإذا كان صحيحاً أنّ الدولة لم تتقدّم سوى بخطواتٍ خجولة في أفق تعميم تعليم الأمازيغيّة، إلّا أنّ تيّار التعريب وتيّار الفرانكوفونيّة يعوقان ذلك، بقدر إعاقتهما تعميم تدريس اللغة الإنكليزيّة. لكنّ الوضع إيّاه لم يُعقْ تواجد الأمازيغيّة ثقافيّاً، إذ لا يزال الأمازيغ ينطقونها حتى في مليلية التي تحتلّها إسبانيا[5]، وحتى في جزر الكناري المتمتّعة بحكم ذاتيّ.

تحاول هذه الورقة أن ترصد مختلف محطّات الحراك، منذ البدايات إلى النتائج، وتعرض الآثار المترتّبة، لمحاولة تفسير على مَن يقع عاتق الفشل، على الحراك أم على الدولة، أم عليهما معاً.

### البدايات

مرّت انتخابات السابع من تشرين الأوّل / أكتوبر في أجواء سياسيّة عاديّة، هي نفسها الأجواء التي تميّزت بها الحياة السياسيّة المغربيّة منذ مطلع الألفيّة الحاليّة، واتّضحتْ معالمها مع التّفاعل الذي سرى بين الدولة المغربيّة وبين مطالب الشارع، وانتهت بالإفراج عن دستور جديد للبلاد في سنة ٢٠١١. وكانت تلك الانتخابات هي الثانية التي يجري تنظيمها في ظلّ ذلك الدستور،

بعد انتخابات سنة ٢٠١٥. وقد سيطر على ذلك المشهد الانتخابيّ الصراع بين حزب العدالة والتّنمية ذي الخلفيّة الإسلاميّة، وحزب الأصالة والمعاصرة المقرّب من القصر، حيث استمرّ قادتهما في تبادل الاتّهامات، سواء اتّهامات العدالة والتنمية للأصالة والمعاصرة بالحصول على دعم الإدارة، والتغطّي بالمساندة المتستّرة للقصر، أو اتّهام حزب الأصالة والمعاصرة للعدالة والتنمية بالسعي إلى أخوَنة المجتمع، و«محاولة زعزعة الاستقرار التاريخيّ للمغرب» باعتبار الأصل «الإخوانيّ» لحزب العدالة والتنمية[٦].

**مدينة الحسيمة شهدت مسيرات حاشدة الأمر الذي دفع بالمسؤولين إلى اتخاذ الإجراءات. ولم تتوقف أصابع الاتهام في شعارات المسيرات عن الإشارة إلى الملياردير المغربي عزيز أخنوش. الذي كان وقتها وزيرا للفلاحة والصيد البحري. باعتبار مسؤوليات الموانئ تقع تحت يده.**

أُجريت الانتخابات في ذلك المناخ على الرّغم من أنّ الحكومة التي قادها العدالة والتنمية لم تنجح في تقديم حصيلةٍ قادرةٍ على إرضاء الفئات الشعبيّة على النّحو المأمول، ولم تفِ بوعودها الكبرى في محاربة الفساد. لكنّ الحصيلة الانتخابيّة التي عادت بحزب العدالة والتنمية إلى الصدارة، لم تصبح ذات أهمّيّة منذ مساء يوم الجمعة ٢٨ تشرين الأوّل / أكتوبر. فقد اهتزّ الرأي العامّ المغربيّ والعالميّ لحادثة مصرع شابّ مغربيّ في شاحنة لشفط النفايات، وذلك مباشرةً بعد إقدام سلطات مدينة الحسيمة على مصادرة بضائع بائع السمك محسن فكري، ورميها في شاحنة القمامة، ليصعد إلى الشاحنة هو وشركاؤه محتجّين على ذلك، قبل أن يأمر أحد المسؤولين الأمنيّين بسحقه مع بضاعته، ليتمّ شفطه إثر ذلك وسط ذهول الحاضرين، وأمام مفوضيّة الأمن والمحكمة الابتدائيّة لمدينة الحسيمة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اللفظة التي أطلقها المسؤول الأمنيّ قبل وقوع الحادثة، تحوّلت إلى هاشتاج في وسائل التواصل الاجتماعي، وهي عبارة «طحن مو» التي تعني في الدارجة المغربيّة إعطاء الأمر بالقتل. وقد تبع ذلك دعوة نشطاء إلى مسيراتٍ في كلّ المدن المغربيّة، احتجاجاً على ما اعتبروه «تعاملاً مهيناً للسلطات مع المواطنين المغاربة». أمّا مدينة الحسيمة قد شهدت مسيراتٍ حاشدة الأمر الذي دفع بالمسؤولين المحلّيّين إلى اتّخاذ الكثير من الإجراءات.

ولم تتوقّف أصابع الاتّهام في شعارات المسيرات عن الإشارة إلى الملياردير المغربيّ عزيز أخنوش، الذي كان وقتها وزيراً للفلاحة (الزراعة) والصّيد البحريّ، باعتبار مسؤوليّات الموانئ تقع تحت يده.

واستمراراً للتّداعيات التي صاحبت الحادث، فقد أعلن كلٌّ من حزب النهج الديمقراطيّ المعارض للملكيّة، وجماعة العدل والإحسان المحظورة استعدادهما لكافّة أنواع الاحتجاجات الممكنة. وتعاظمت بمرور الوقت مسيرات الحسيمة، ونُظّمت مسيرة وطنيّة في الرّباط عاصمة المملكة، وبدأت مع مرور الوقت تظهر على السطح شخصيّة ناصر الزفزافي الذي قاد الحراك، وهو شابّ ريفيّ ثلاثينيّ، ساهمت مواهبه الخطابيّة والقياديّة واهتمام وسائل الإعلام به.

قيادة الزفزافي للحراك بلغتْ مداها مع ملء الاحتجاجات لجميع أوقات شهر رمضان الذي تلا حادثة مقتل محسن فكري، نهاراً وليلاً. وزادت السلطات الأمنيّة المغربيّة من كثافة تدخّلاتها الأمر الذي خلّف عشرات المصابين والجرحى، واعتقال العشرات بتُهَمٍ ثقيلة كالمساس بأمن الدولة أو الإرهاب. وسيزداد الوضع تأزّماً يوم الجمعة ٢٦ أيّار / مايو ٢٠١٧، حينما أقدمتْ وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة على تعميم خطبةٍ واحدة على معظم مساجد الحسيمة، ومنها المسجد الذي كان فيه ناصر الزفزافي زعيم الحراك. وقد تضمّنت الخطبة هجوماً على قياديّي الحراك، محذّرةً من كَون الاحتجاج مجرّد «فتنة»، ومدعاة لحدوث القلاقل، ليقاطع الزفزافي الخطبة على نحوٍ فجّ وسافر، ويندّد بها، ثمّ ليقرّر، إلى جانب بعض زعماء الاحتجاج، الدّعوة إلى مقاطعة المساجد الخاضعة لسيطرة وزارة الأوقاف، الأمر الذي أدّى في النّهاية إلى اعتقاله ووضعه تحت طائلة الكتابة القانونيّة[٧].

لقد تداخلت في صناعة هذا المشهد عدّة عوامل، فالحراك بشكل أو بآخر لم يكن بعيداً عن عناصر الدفع الميكانيكيّة الطبيعية، باعتبار نمط التّضامن الاجتماعيّ السائد بين المتظاهرين كان هو النّمط الذي يشير إليه إميل دوركهايم بـ«التّضامن الميكانيكيّ»، أي التّضامن القائم على علاقات الشبَه، وهو الذي يسود العلاقات بين الأفراد في المجتمعات التقليديّة، التي لا تزال ترتكن على الدّين أو العرْق أو اللغة أو اللون في تحديد أنماط علاقاتها وفقاً لمنطق (أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمّي على الغريب)[٨]. ولهذا فقد استمرّ الحراك لمدّة طويلة بالرّغم من أنّ ذات القضايا قائمةٌ في جميع مناطق



المغرب، ولم ينجح أيّ حراك في السابق في الحفاظ على استمراريّته بالقدْر نفسه، فالرّوابط التي عزّزتها وحدةُ المشاعر والمخيال الريفيّ، والإحساس بالظّلم، مضافاً إلى ذلك الاهتمام الإعلاميّ بشخصيّة ناصر الزفزافي باعتبار مواهبه الخطابيّة والقياديّة، وباعتبار دور الإعلام في تظهيرها وتسليط الضوء عليها... كلّ ذلك ساهم في تزخيم الحراك.

على صعيدٍ آخر، استمرّ الحراك نظراً لتواتر الأخطاء في التّعاطي مع الأحداث، كنعْت الزفزافي بالخلفيّة الشيعيّة من لدن الباحث والأكاديميّ المغربي محمّد منار اسليمي، بحيث قام في لقاءٍ تلفزيونيّ بطرحِ وجهة نظره في الزفزافي بأسلوبٍ مستفزّ نوعاً ما، متّهماً إيّاه بممارسة «نوعٍ من التقيّة» التي يقول بها بعض أئمّة الشيعة ومراجعهم، معتبراً أنّ الزّفزافي بإحالته في خطاباته التحريضيّة إلى الخليفة «عمر بن الخطّاب»،إنّما يقوم بالتمويه كي لا يُتّهم بالتشيّع، عبر الاستشهاد بخليفةٍ محسوبٍ على المرجعيّة الدينيّة والثقافيّة السنّيّة، لأنّ اسليمي تحدّث عن معطيات يتّهم فيها الزفزافي بتلقّي أموالٍ من جمعيّات شيعيّة مغربيّة تنشط في أوروبا. وبالقدْر نفسه الذي أثارتْ فيه وجهة النظر تلك هي والصيغة التي طُرحتْ بها كمّاً من السخرية والاجتزاء والتشويه، بالقدْر الذي نِيل فيه أيضاً من تصريحات أخرى لأكاديميّين وإعلاميّين آخرين تمحورت حول علاقة الحراك بأجندات حركات انفصاليّةٍ ريفيّةٍ أيضاً تنشط في أوروبا.

**المنعرجات**

بدأتْ منعرجات الحراك تتشكّل منذ أن بدأ تقاذفُ المسؤوليّات بين عدد من المسؤولين السياسيّين والحكوميّين. فمنذ بداية الحراك حمّل الأمينُ العامّ لحزب الأصالة والمعاصرة إلياس العمّاري، المسؤوليّةَ لحزب العدالة والتنمية الذي يقود حكومة تصريف الأعمال، ويستعدّ لقيادة الحكومة المقبلة، الأمر الذي لم يتمكّن منه بسبب دخول المفاوضات والمشاورات في دوّامةٍ من الأزمات انتهت بإقالته وتكليف سعد الدين العثماني خلفاً له بتشكيلها.

وكان حزب العدالة والتنمية قد تفاعل مع الحدث، بإصدار أمينه العامّ عبد الإله بنكيران يوم السبت ٢٩ تشرين الأوّل / أكتوبر، بياناً توجيهيّاً إلى الشبيبةٍ أعرب فيه عن أسفه للحادث، ودعاها إلى النّأي بالنّفس عن المشاركة في أيّ مظاهرةٍ لها صلةٌ بالتنديد بالحادث. أمّا الملك فقد كان حينئذٍ موجوداً خارج المغرب في زيارة لتنزانيا، وتواردَت معلوماتٌ عن إعطائه أوامرَ بمحاسبة المتورّطين في الحادث، وزيارة وزير الداخليّة لأسرة الضحيّة محسن فكري.

حادث مصرع محسن فكري، وتشييع جنازته يوم الأحد ٣٠ تشرين الأوّل / أكتوبر، دشّن بشكل أو بآخَر أزمةً سياسيّة هي الأولى من نوعها في التاريخ السياسيّ المغربيّ المعاصر. يتعلّق الأمر بأزمة تشكيل حكومة جديدة بقيادة عبد الإله بنكيران، الشخصيّة السياسيّة المثيرة للجدل. فانطلق بذلك مسارٌ طويلٌ من التجاذبات والمنعرجات المحايثة لأزمة الحسيمة، في إطار ما عُرف في التداول السياسيّ والإعلاميّ المغربيّ بـ«البلوكّاج». والذي لم تمنع حالة الاستقرار السياسيّ التي تميّز بها المغرب عن محيطه العربيّ، من الاصطدام به.

بدأت فصول البلوكّاج مباشرة بعد فوز حزب بنكيران بأكبر عدد من مقاعد مجلس النّواب، الأمر الذي أعطاه بحسب دستور المملكة الحقّ في قيادة حكومةٍ ثانية، وهو أمر يحدث لأوّل مرّة أيضاً في تاريخ المغرب. فقد كانت أغلبيّة التقديرات ترى أنّ التّحالف الحكومي ممكن عقده في اتّفاق أحزاب ما يُعرف في المغرب بالكتلة الديمقراطيّة، حزب الاستقلال (٤٦ مقعداً)، وحزب الاتّحاد الاشتراكيّ (٢٠ مقعداً)، وحزب التقدّم والاشتراكيّة (١٢ مقعداً)، مضافاً إليهم حزب العدالة والتنمية (١٢٥ مقعداً)، متجاوزين بذلك عتبة نصف مقاعد مجلس النّواب المكوّن من ٣٩٥ مقعداً.

وقد كان حزب الاتّحاد الاشتراكيّ سبّاقاً إلى تأزيم تشكيل ذلك التّحالف، بسبب شروطه التي وصفها العدالة والتنمية بأنّها تعجيزيّة، بحيث إنّه اشترط الحصول على رئاسة مجلس النواب، ولم يُخْفِ اصطفافه إلى جانب عزيز أخنوش، وزير الفلاحة في الحكومة السّابقة، الأمر الذي أزعج العدالة والتّنمية، الذي انتخب أميناً عامّاً لحزب التجمّع الوطنيّ للأحرار (٣٧ مقعداً). وهو الحزب الذي وضع بدوره شروطاً لقبوله الدّخول في التّحالف الحكوميّ، أوّلها إخراج حزب الاستقلال من الحكومة، وتعويضُه بحزب الاتحاد الدستوريّ (١٩ مقعداً)، وإلزام بنكيران بتغيير لهجته، والتّراجع عن سياسة رفع الدعم عن الموادّ الأساسيّة، الأمر الذي اعتبره بنكيران تطفّلاً على اختصاصات رئيس الحكومة.

لم يكن ممكناً تشكيل حكومةٍ حائزة على أغلبيّة مريحة من دون النجاح في استقطاب حزب التجمّع الوطنيّ للأحرار منعاً لتشكيل معارضة قويّة بين حزبَي الأصالة والمعاصرة والتجمّع الوطنيّ للأحرار.

تدخّل الملك في آخر المطاف، وأقال عبد الإله بنكيران، الذي تشدّد في التّفاوض بناءً على الشروط التي وضعتْها الأمانة العامّة لحزبه غداة الفوز بالصدارة. وعيّن الملك في اجتهادٍ دستوريّ غير مسبوق شخصيّةً أخرى من الحزب الفائز بأعلى عددٍ من المقاعد النيابيّة، وتمّ تكليف الدكتور سعد الدين العثماني بالتشاور لتشكيل الحكومة، ثمّ تشكّلت الحكومة في وقتٍ قياسيّ، بعدما تنازل العثماني عمّا تشدّد فيه بنكيران[٩]. لم تكن الاحتجاجات في الحسيمة حينئذٍ قد ترشّحتْ إلّا للمزيد من التزايد والزخم. وكلّ ما قامت به الحكومة الجديدة تلخّصَ في إصدار بيانٍ جمَع أحزاب الأغلبيّة، واتّهمت فيه الحراك باحتوائه على عناصر مرتبطة بالخارج وتتلقّى تمويلاتٍ مشبوهة، وبأنّ الحراك تجاوز الخطوط الحمراء وبات يهدّد الثّوابت الوطنيّة. وبعدما استعدّت السلطات الأمنيّة لفضّ الاحتجاجات بالقوّة، عبر إنزالٍ أمنيٍّ كثيف، تراجعت الحكومة عن موقفها، وسط موجة استهجان غير مسبوقة، أعادت إلى حيّز التّداول عبارة «أنتم عصابة ولستم حكومة» المأثورة عن الزعيم الريفيّ محمّد بن عبد الكريم الخطّابي.

**الآثار**

من أهمّ الآثار التي ترتّبتْ عن أزمة حراك الحسيمة تلك التي مسّتْ عميقاً البنيان الذي تقوم عليه الحياة السياسيّة والحزبيّة في المغرب، حيث حزبا الأصالة والمعاصرة والعدالة والتنمية هما الأكثر تعرّضاً للهزّات.

**كل ما قامت به الحكومة الجديدة تلخص في إصدار بيان جمع أحزاب الأغلبية. واتهمت فيه الحـــــــــــــــراك باحتوائه على عناصر مرتبطة بالخارج وتتلقى تمويلات مشبوهة.**

تقدّم إلياس العمّاري باستقالته من الأمانة العامّة لحزب الأصالة والمعاصرة، وذلك نتيجة تراكم الضغوط على الحزب، سواء تلك التي تتمثّل في تنافسه الحادّ مع حزب العدالة والتنمية، أو تلك الضغوط التي تسبّب فيها مشكل الحسيمة. لذلك يريد حزب الأصالة والمعاصرة أن يؤكّد مجدّداً جدارته السياسيّة في مواجهة حزب العدالة والتنمية، وتحميله في الوقت نفسه مسؤوليّة أزمة الحسيمة، فكانت الاستقالة التي تقدّم بها ثالثُ أمين عامّ له، وذلك بعد أسبوعٍ من خطاب العرش في ٣٠ تمّوز / يوليو ٢٠١٧، الذي أعلن فيه الملك عدم ثقته في الأحزاب والإدارة في المغرب، وطالب باستقالة من لا يرى في نفسه القدرة على تحمّل المسؤوليّة، رابطاً أيضاً بين واقع فساد الإدارة والأحزاب وبين احتجاجات المواطنين في الحسيمة وغيرها.

وكان العماري قد كشف في ١٣ حزيران / يونيو ٢٠١٧ في ظهورٍ تلفزيونيّ له أنّه في يوم ٢٩ تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٦، حذّر بنكيران من تداعيات حادثة مقتل محسن فكري، في حين كان كلّ اهتمامه مركّزاً على تشكيل الحكومة طيلة فترة الأزمة هو وباقي الأحزاب الأخرى، مضيفاً أنّه راسله رسميّاً يطلب المعطيات والمعلومات من حكومته فيما يتعلّق بالحادثة وحيثيّاتها كي يتمكّن كمسؤول عن رئاسة الجهة من تقديم التوضيحات اللازمة للسّكّان. وذكر العمّاري في السياق ذاته، أنّ بنكيران أجابه يوم ٤ تشرين الثاني / نوفمبر، رافضاً إمداده بأيّ معلومات، بسبب عدم وجود أيّ سنَدٍ قانونيٍّ يخوّل رئيس الجهة أن يطالب رئيس الحكومة بمعلومات مماثلة.

ومنذ ذلك الوقت دأب المحتجّون على تحميل المسؤوليّات لجميع الأطراف، أي لرئاسة جهة طنجة - تطوان - الحسيمة، وللحكومة، ولوزير الفلاحة والصّيد البحريّ في حكومة بنكيران الأولى، رجل الأعمال المغربيّ عزيز أخنوش، فيما أصرّ هؤلاء كلّهم على تقاذف المسؤوليّات بينهم، لتصبح أحداث الحسيمة ساحةً جديدةً من ساحات التنافس بين حزبَي الأصالة والمعاصرة والعدالة والتنمية، خصوصاً أنّ إلياس العمّاري يريد تحميل مسؤوليّة أحداث الحسيمة لبنكيران، لمسؤوليّة الأخير عن عدم تنفيذ مشروع «الحسيمة، منارة المتوسّط»، الذي يشمل مشاريع في البنيات التحتيّة والمرافق الاجتماعيّة والصحية وغيرها من المحاور التي ضمنها المحتجّون في الحسيمة لملفّاتهم المطلبيّة.

ففي اعتقاد حزب الأصالة والمعاصرة، أنّ العدالة والتنمية هو المسؤول الأوّل عن ذلك التعثّر، لأنّ إطلاق المشروع جاء في خضمّ الولاية الحكوميّة التي ترأّسها بنكيران، وأيضاً تفاقُم الأزمة والاحتجاجات كان خلال فترة تصريف الأعمال التي دخلتْها تلك الحكومة بعد انتخابات ٧ تشرين الأوّل / أكتوبر. غير أنّ بنكيران يسعى جاهداً لإخلاء مسؤوليّته ومسؤوليّة حزبه من تبعات تلك الأزمة، مؤكّداً ذلك خلال الخطاب الذي ألقاه في الملتقى الثالث عشر لشبيبة حزبه، وسط اتّهامات لبنكيران بإهمال تنفيذ المشروع نكاية بالعمّاري، وهو الذي كان قد فاز برئاسة جهة طنجة - تطوان - الحسيمة، بطريقة لم

تُرض العدالة والتّنمية، في إطار ما اعتبره استغلالاً لنفوذٍ سلطويٍّ للأصالة والمعاصرة، تمكّن عبره من تغيير خريطة التحالفات لصالحه.

**لم يكن حزب الأصالة والمعاصرة محظوظا منذ ظهوره على الساحة الحزبية المغربية. ففي المرة الأولى كبحت اندفاعته أحداث سنة ٢٠١١. وفي المرة الثانية كبحته أحداث الحسيمة.**

لقد كانت أزمة تشكيل الحكومة الجديدة برئاسة بنكيران، هي التحدّي الذي رفعه بنكيران، لكي يستمرّ في نهجه السياسيّ المناقض لنهج الأصالة والمعاصرة، وكانت في الوقت نفسه هي المحطّة التي ظهر فيها ضعف الأصالة والمعاصرة في التصدّي لتقدّم العدالة والتنمية. وفي ذات السياق جاء التأثير القويّ لعزيز أخنوش في سياق المشاورات من أجل تشكيل الحكومة، خصوصاً بعد انتخابه في ٢٩ تشرين الأوّل / أكتوبر أميناً عاماً لحزب التجمّع الوطنيّ للأحرار. فقد تسبّب أخنوش في إشعال أزمة تشكيل الحكومة بسبب شروطه المسبقة التي رفضها بنكيران، مساهماً بدوره في تعميق الأزمة. وكانت الحصيلة هي تراجُع حزب الأصالة والمعاصرة إلى خلفيّة المشهد، وبعدما كان يطمح إلى تصدّر النّتائج وتشكيل الحكومة، وإعادة العدالة والتنمية إلى صفوف المعارضة، فقد أصبح غير معنيٍّ حتى بإبداء الرّأي حول المشاورات، وعاد إلى موقع الدفاع عن النّفس، وتحميل مسؤوليّة أزمة الحسيمة للعدالة والتنمية.

ثمّة صراعٌ على الزّعامة بين الحزبَين، وبنحوٍ أدقّ بين العمّاري وبنكيران. لذلك فقد راج حديث عن اجتماعٍ حضرَه إلياس العمّاري، ودعا فيه إلى عرقلة مساعيّ بنكيران لتشكيل حكومته الثانية، وهو ما نفاه العمّاري لاحقاً. وبعد إعفاء الملك لبنكيران من مهمّة تشكيل الحكومة، وتمكُّن سعد الدين العثماني الأمين العامّ السابق للعدالة والتنمية من تشكيلها في ظرف وجيز، وعدم تمكّنها من تدبير ملفّ الحُسَيمة، وتورّطها في إبداء لغة عدائيّة تُجاه المحتجّين ومَطالبهم، أراد إلياس العمّاري العودة من جديد إلى واجهة الأحداث السياسيّة عبر بوّابة الاستقالة، على خلفيّة مضمون الخطاب الملكيّ، مؤكّداً في مؤتمره الصحافيّ أنّ السبب الحقيقيّ يكمن في رغبته في تحمّل مسؤوليّته عن تزكية رؤساء الجماعات والبرلمانيّين الذين اتّخذ المكتب السياسيُّ للحزب في حقّهم قرار الإقالة لعدم التزامهم بقوانين الحزب.

رواية إلياس العمّاري لأسباب استقالته لم تُقنع الكثيرين، خصوصاً من خصومه، باعتبار أنّ رؤساء الجماعات والبرلمانيّين في معظمهم ينتمون إلى الأعيان كثيري «التّرحال السياسيّ» بين الأحزاب، وبالتّالي ليس منطقيّاً أن يكون من المنتظَر منهم الانضباطُ لمدوّنة سلوك الحزب. ومن ناحية ثانية فإنّه مباشرة بعد إعلان العمّاري عن استقالته، تداولتْ وسائل الإعلام خبراً عن تصريحاتٍ مسيئةٍ للملكيّة أدلى بها العمّاري في اجتماع خاصّ، معتبراً الرهان عليها في «محاربة الإسلاميّين» رهاناً غير مضمون النتائج، الأمر الذي نفاه العمّاري بشدّة في حينه.

اعتبر إلياس العمّاري ما يحدث داخل حزبه «أمراً عاديّاً جدّاً، وهو ما ينبغي أن يحدث حينما يشعر مسؤولٌ بأنّه مخطئ، متسائلاً: لماذا في التاريخ السياسيّ المغربيّ منذ الاستقلال لم يقُلْ مسؤولٌ حزبيّ أو سياسيّ يوماً إنّه أخطأ وسيستقيل؟ كما اعتبر أنّه يتوقّع التشكيك في خلفيّات استقالته من طرف منافسيه، وهذا طبيعيّ لأنّهم منافسون ولا يمكن أن يؤيّدوه أو يلتمسوا له الأعذار»[١٠]. يريد العمّاري أن يُحرج بنكيران الذي يحاول الترشّح لولاية ثالثة في العدالة والتنمية كأمينٍ عامّ، وذلك بعد تعديل النّظام الأساسيّ، كما يريد أن يوفّر فرصةً للحزب لكي يتمكّن المنتسبون إليه من تعزيز وجودهم فيه كمؤسّسة، وليس كأشخاصٍ مرتبطين بزعامة شخصٍ ما، وهو ما يتداوله عددٌ من أعضاء الحزب الذين تمكّنتُ من التّواصل معهم، ومعظمهم يعترفون بأنّه اختبارٌ قاسٍ للحزب لكنّه ضروريٌّ وإيجابيّ.

لم يكن حزب الأصالة والمعاصرة محظوظاً منذ ظهوره على الساحة الحزبيّة المغربيّة، ففي المرّة الأولى كبحَت اندفاعتَه أحداثُ سنة ٢٠١١، وفي المرّة الثانية كبحَتْه أحداث الحسيمة. فقد اجتهد كثيراً لكي يَظهر بمظهرِ حزبٍ يساريٍّ بصورة معيّنة، ويقدّم نفسه بوصفه قادراً على وقْف تقدّم إسلاميّي العدالة والتنمية، واجتهد لكي يتجنّب ما يلصقونه به من نعوت تطعن في صدقيّته وأصالة قراره السياسيّ، وتُصوّره حزباً يريد إفساد الحياة السياسيّة المغربيّة. لكنّه في الحدود الدنيا تمكّن من تحفيز الحياة السياسيّة المغربيّة لكي تتباين اتجاهاتها وخطاباتها، بالرّغم من أنّه يعيش وضعاً صعباً، انتهى باستقالة واحد من أهمّ الزعماء الذين كان بإمكانهم

إثبات جدارته وتحسين أدائه، لولا ضغوطُ التّنافس مع العدالة والتنمية، وضغوط ملفّ الحُسَيمة[11].

أمّا حزب العدالة والتنمية، فمنذ أن تولّى عبد الإله بنكيران مهامّ أمانته العامّة لخدمة هدف مواجهة مشروع حزب الأصالة والمعاصرة، أخذتْ تقوى وتحشد له الكثير من المتعاطفين والمنخرطين. وزاد وهجه مع تولّيه مسؤوليّة قيادة الحكومة بعد دستور ٢٠١١، لكنّه أيضاً تأثّر بأزمة الحسيمة، وذهب رويداً رويداً في اتّجاه تمايز تيّارين عن بعضهما لبعض. الأوّل يقوده بنكيران، والثاني يقوده ما بات يعرف بـ«تيّار الوزراء». وبعد جهد كبيرٍ بذَله تيّار بنكيران لتعديل القانون الأساسيّ للحزب لكي يتمكّن بنكيران من الترشّح لولايةٍ ثالثة للأمانة العامّة للحزب، ويضرب إسفيناً بين قيادات الحزب المتواجدة في الحكومة، وبين القاعدة الحزبيّة، صوّت برلمان الحزب بأغلبيّته ضدّ السماح لبنكيران بالترشّح لولاية ثالثة، عبر آليّة رفض تعديل القانون الأساسيّ للحزب، وذلك يوم الأحد ٢٦ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٧، لتبدأ رحلة فرضيّات تعرّض حزب العدالة والتنمية للانشقاقات والتصدّع، وهو ما تؤكّده تصريحاتٌ منسوبةٌ لعبد الإله بنكيران عقب ذلك، وقبل عقْد الحزب لمؤتمره المقبل، لاختيار الأمين العام الجديد.

## الفشل

أزمة حراك الحسيمة جاءت في سياق تزايد مضطرد في الاحتجاجات الشعبيّة على السلطة وعلى صنّاع القرار منذ الاستقلال، وغالباً ما كان تدبير السلطة فاشلاً وقمعيّاً للاحتجاجات. والرّيف، كغيره نال النصيب نفسه. ولعلّ الدولة المغربيّة قد اختارت منذ الاستقلال، وتحت ضغوط مراكز الثقل في النظام الدوليّ، نموذجَ «التنمية بلا تصنيع»، وانتهجتْ سياسةً زراعيّة لم تتبنّ الإصلاح الزراعيّ الذي يبدأ بإصلاح نظام الملكيّة الزراعيّة، كما حدث في تونس بورقيبة في الستينيّات، وكلّ ذلك ترك البلاد عرضة لبقايا الإقطاع ولاقتصادٍ رأسماليٍّ غير مكتمل البنيان، سماتُه الرئيسيّة تتمثّل في الاستثمار الخدميّ والصناعات التحويليّة والزراعات المعيشيّة التقليديّة، لتبدأ استراتيجيّة الملك محمّد السادس منذ وصوله إلى الحكم قائمةً على البحث في هوامش هذه المعادلة دون المساس بها، وتصريف المشاكل الناجمة عنها في الشراكات الاستراتيجيّة التي بدأت المملكة تجنيها عبر التّحركات الملكيّة في أفريقيا وفي اتّجاه القوى العالميّة الصاعدة.

لكنّ ذلك كلّه لم يقض على الفقر متّسع المدى والنطاق، ولم يقض على عوامل التفجير الاجتماعيّ. كما أنّ سطوة وسائل التواصل الاجتماعيّ سهّلت فرَص اندلاع الاحتجاجات وتدفّقها. والدولة المغربيّة لم تطوّر وسائلها في التعاطي مع تلك الوقائع، ما جعل، ويجعل الملك مضطرّاً إلى التدخّل بين الفينة والأخرى لتصحيح الأوضاع، وإعادة إنتاج شرعيّة المؤسّسة الملكيّة، التي لم يعد الغطاء الدينيّ والعاطفيّ كافياً لإنتاجها. ومن هنا تدخّلات الملك في سياق ما ينبغي فعلُه تجاه أزمة الريف والحسيمة تحديداً.

ففي يوم الثلاثاء ٢٤ تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٧، صدر بلاغٌ عن الدّيوان الملكيّ المغربيّ يتضمّن قراراتٍ ملكيّة تقضي بإعفاء وزراء من حكومة العثماني، وآخرين من حكومة بنكيران تمّ تبليغهم عدم رضى الملك عنهم، ومنعهم من تقلّد أيّة مسؤوليّات رسميّة مستقبلاً. وقد جاء هذا القرار الملكيّ الذي تضمّنه البلاغ بناءً على تقريرٍ رفعَه المجلس الأعلى للحسابات إلى الملك، تضمّن اختلالات رافقتْ محطّات تنفيذ مشروع «الحسيمة منارة المتوسّط» سابق الذّكر. وكان البلاغ بمثابة خطّةٍ عمليّة لاحقة للخطاب الذي ألقاه الملك بمناسبة افتتاح الدورة التشريعيّة الثانية للبرلمان المغربيّ للولاية التشريعيّة الجارية، والذي تحدّث فيه عن ضرورة تغيير منطق تسيير الشؤون العامّة، وربَطَ المسؤوليّة بالمحاسبة، وإن اقتضى الأمر إحداث «زلزالٍ سياسيّ» على حدّ التعبير الملكيّ.

«الزلزال السياسيّ» بدأ مع اللهجة التي حملَها خطاب الملك بمناسبة عيد العرش في ٣٠ تموز / يوليو ٢٠١٧، ذلك أنّها كانت لهجةً شديدة متّجهةً أساساً إلى إلقاء اللوم على المسؤولين في الأحزاب وفي الإدارة، ومطالبتهم بالاستقالة. ولو أنّه في الفترة الواقعة بين الخطابَين الملكيّين، لم يتقدّم مسؤولٌ واحدٌ باستقالته الطوعيّة، باستثناء إلياس العمّاري زعيم حزب الأصالة والمعاصرة، ورئيس جهة طنجة - تطوان - الحسيمة، والذي كان هو حامل مشروع «الحسيمة منارة المتوسّط». ثمّ تراجع العمّاري لاحقاً عن استقالته بسبب رغبة قواعد حزبه في ذلك.

من الناحية الشكليّة، يمكن القول بأنّ الملك في قرارات الإعفاءات التي تعدّ سابقة في التاريخ السياسيّ المغربيّ المعاصر، لم يقمْ سوى بتفعيل نصوص الدستور التي تعطيه الحقّ «بمبادرة منه وبعد استشارة رئيس الحكومة، في أن يعفي عضواً أو أكثر من أعضاء الحكومة من مهامّهم»[12]. لكنّ قرار الإعفاء أدّى من الناحية السياسيّة

إلى تعريض حكومة العثماني للاهتزاز مرّة أخرى، لاسيّما أنّها كانت قد خرجتْ لتوّها من مسلسل «البلوكّاج». وليُصار إلى توجيه رئيسها لكي يقترح على الملك وزراء جدداً في الوزارات التي باتتْ شاغرة بعد الإقالات. الأمر الذي يعني سياسيّاً أنّ ثمّة سعياً إلى تقزيم بعض الأحزاب التقليديّة مثل حزب التقدّم والاشتراكيّة وحزب الحركة الشعبيّة، لتمهيد الطريق أمام المشهد الجديد الذي يؤسّس له كلٌّ من حزبَي العدالة والتنمية والأصالة والمعاصرة، ولو أنّ أغلب الترجيحات تقول بأنّ الفرصة باتت مواتية ليعود حزب الاستقلال إلى واجهة العمل الحكوميّ من جديد.

تقرير المجلس الأعلى للحسابات لم يسجّل وجود اختلاسات ماليّة، لكنّه سجّل نوعاً من غياب «الحوكمة»، لأنّ ثمّة اعتماداتٍ ماليّة جرى توظيفها من طرف الوزراء المعنيّين، دونما تحديد أوجه صرفها، كما أنّ ثمّة تأخراً في إطلاق بعض المشاريع، وغياب الشروع في تنفيذ أخرى، الأمر الذي يؤكّد الطبيعة المترهّلة للجسد السياسيّ والإداريّ المغربيّ، ويبيّن أنّ عقوداً من الاستقلال والتدابير الإصلاحيّة المتعاقبة، لم تسفر عن تشكيل نخبة سياسيّة تحترف شؤون الدولة، ويكون بمقدرتها إدارة شؤونها إن في أوقات الأزمات، أو في أوقات الاستقرار، فضلاً عن أنّ البلاد لا تزال تعاني وجود مساحات كثيرة خارج الهيكلة والقوننة، وذلك بفعل غياب الإجراءات التفصيليّة التي من شانها تحديد الواجبات والمسؤوليّات بدقّة، ولهذا غالباً ما تحدث الاختلالات، ثمّ يكون من الصعب تحديد المسؤولين المباشرين عنها بدقّة، أو على الأقلّ في وقتٍ وجيز، ولهذا لم يأت وقت ربط مسؤوليّة المسؤولين بمحاسبتهم عن الإخلال بها، إلّا بعد حوالي السنة من بدء أزمة الحسيمة.

في وجه كلّ هذا تحاول الملكيّة في المغرب أن توائم بين طبيعتها الوراثيّة التقليديّة، والتي يكتسب بموجبها الملك سلطاته بالوراثة، وبين مستلزمات الحكم الديمقراطيّ، والتي تعني من بين ما تعنيه، أنّ سلطة الحكم ينبغي أن تُكتسب بالانتخاب، كي يتسنّى انتخابيّاً فقط محاسبة المسؤولين، في ظلّ تداول سلميّ للسلطة، يحاسب فيه الناخبون المسؤولين بحجب أصواتهم عنهم بعد انتهاء مدّة حكمهم المقرّة دستوريّاً، وليس بإقالة المنتخبين والسخط عليهم من طرف مسؤولٍ ورث مسؤوليّاته. لذلك فالملكيّة المغربيّة تغلّف الشرعيّة الديمقراطيّة بشرعيّة تاريخيّة، تجعل من نظام الحكم معتمداً على برلمان حكومة لهما صلاحيّات واسعة، لكن تحت قيادة ملكيّة تنفيذيّة متماهية مع المطالب الشعبيّة، ولا تتدخّل إلّا في اللحظات الحاسمة والتاريخيّة الدقيقة.




لأي مصالحة...
ضد مازال ليبزف...
لحراك الشعبي بالريف
الثائر

أفق الملكيّة المغربيّة يتمثّل في السعي إلى الحفاظ على الاستقرار النموذجيّ الذي باتت تجسّده وسط محيطٍ عربيّ وشرق أوسطيّ ملتهب، سمَتاه الرئيسيّتان هما الاستبداد والإرهاب، لتقول المملكة للعالم بأنّها تمثّل نموذج «الديمقراطيّة الممكنة في الشرق الأوسط»، وبأنّها تستحقّ طموحاتها الرياديّة في أفريقيا، لاسيّما أنّ من المرجّح أن يكون موضوع الدورة المقبلة للاتّحاد الأفريقيّ حول مكافحة الفساد، وهي الفرصة ليعرض المغرب نموذجه، ولو أنّه عاد إلى المنظّمة فقط في بداية السنة الحاليّة بعد غيابٍ دام زهاء الثلاثة عقود. بل إنّها تمتح قراراتها أحياناً من بعض التقاليد الأكثر ثوريّة، كتقليد «العزل السياسيّ» الذي يمكن ملاحظته في منع مسؤولين مدى الحياة من مزاولة أيّة مهامّ سياسيّة رسميّة، وإن كان ذلك لا يطاول كلّ المسؤولين، ذلك أنّ لعبة موازين القوى لم تسمح بالاقتراب من الملياردير عزيز أخنوش، وزير الفلاحة والصّيد البحريّ في حكومتَي بنكيران والعثماني، وهو واحد من أكثر من طاولتْهم مطالب المحتجّين في الحسيمة بالنقد اللاذع، لأنّ مقتل بائع السمك مرتبط بنمط تدبير الموانئ الذي يقع تحت مسؤوليّته كما سبقت الإشارة. لكنْ هكذا هي مطالب الشارع لا تعرف سقوفاً، بينما تدابير المسؤولين الكبار في الدوَل تراعي حسابات موازين القوى والصيَغ والأشكال التي تأخذها قراراتهم[١٣].

## خاتمة

يمكن الخلوص إلى أنّ موجة الاحتجاجات التي عرفتها مدينة الحُسيمة، ومنطقة الريف المغربيّة، هي موجةٌ لها الكثير ممّا يبرّرها، على صعيدَي الاقتصاد والاجتماع البشريّين، كما أنّ الصيَغ التنظيميّة والزعامات التي أفرزتْها، وعوامل الاستمرار والاطراد اللذين وسماها منذ بدايتها لها أيضاً جذور معرفيّة ذات صلة ببعض المعاني السياسيّة التي يتقاسمها أبناء تلك المنطقة في المغرب، والتي توحّد إلى حدٍّ بعيد بين منظوراتهم إلى السلطة وإلى الدولة وإلى أواليّات صنع القرار وما إلى ذلك من مفردات.

لكنّ الفشل الذي مُنيتْ به تلك الاحتجاجات، وتراجع سقوفها من مطالبها الأصليّة إلى المطالبة بالإفراج عن المعتقلين، وصولاً إلى الخفوت التدريجيّ والتوقّف، هو فشلٌ وجدت الاحتجاجات نفسها منقادةً نحوه بسبب الخضوع للتفاعل الدولتيّ المغربيّ معها. فانسحب فشل الدولة في التدبير الجوهريّ لمطالب الاحتجاجات على المطالب نفسها، وعلى آليّات تصريفها.

مازالت الدولة المغربيّة تراوح مكانها، بين العجز عن بلورة نموذج تنمويّ يستجيب للتطلّعات الداخليّة، ويوازن بينها وبيْن التوجّهات الاستراتيجيّة الرياديّة في أفريقيا والفضاءين المتوسّطيّ والأوروبيّ. وفي المقابل تحضر الحلول الأمنيّة بما هي حلولٌ آنيّة في تدبير ملفّات الاحتجاجات، لتتوّج لاحقاً بتدخّلات ملكيّة سرعان ما تذوب الغاية منها وسط كومة الإجراءات والترهّلات التي بات جهاز الدولة في المغرب موسوماً بها، فتتأخّر المبادرات والمشاريع الملكيّة من حيث الإنجاز، أو تتوقّف نهائيّاً بدون أسباب. وهذه مشكلة أخرى تنضاف إلى أثمان خيار «التنمية بلا تصنيع»، حيث كان التصنيع هو المدخل إلى التنمية في تصوّرات حركات التحرّر، وفي التجارب العالميّة التي عرفت تنمية حقيقيّة منذ استقلالاتها إلى اليوم.

**الهوامش**

١ أمازيغ المغرب يتوزّعون على ثلاثة: تمازيغت، تشلحيت، تريفيت، وأمازيغ تريفيت، هم سكّان الشمال الشرقيّ المغربيّ الذي يضمّ مدناً كبرى مثل الحسيمة والناضور

٢ أسّسها الزعيم الريفيّ محمّد بن عبد الكريم الخطابي في الفترة ما بين ١٩٢١ و١٩٢٦. يراجع: سيدي أحمد سكيرج، **الظلّ الوريف في محاربة الرّيف**، (مخطوطة نشرتْ في مدينة الجديدة سنة ١٩٢٦. بدون تاريخ نشر، ولا ناشر

٣ تمّ الإعلان عنه في خطاب العرش لسنة ٢٠٠١

٤ مَاد يبرم علاقة بين احتجاجات الريف وتردّي اللغة الأمازيغيّة، موقع **هسبريس** الإلكتروني، ١٤ يونيو / حزيران ٢٠١٧
https://www.hespress.com/tamazight/354009.html

٥ تعليم اللغة الأمازيغيّة في مدارس مليليّة .. «حُلم بعيد المنال»، موقع **هسبريس** الإلكتروني، ٣٠ يناير / كانون الثاني ٢٠١٧
https://www.hespress.com/tamazight/334241.html

٦ كان ذلك في مؤتمر خطابيّ للأمين العام لحزب الأصالة والمعاصرة، في أثناء الحملة الانتخابيّة

٧ المعطي منجب، حراك الريف يستمرّ بلا هوادة في المغرب، ٢١ حزيران / يونيو ٢٠١٧: http://carnegieendowment.org/sada/71334

٨ إميل دوركهايم، في **تقسيم العمل الاجتماعيّ**، ترجمة حافظ الجمالي، المكتبة الشرقيّة، بيروت، ١٩٨٢، ص٨٧ وما بعدها

٩ عبد الفتّاح نعّوم، المغرب: متى ينجح العدالة والتنمية في تشكيل حكومته الثانية؟، جريدة **السفير**، بتاريخ ٢٩ / ١١ / ٢٠١٦، ص٥

١٠ مقابلة أجراها الكاتب مع إلياس العمّاري في ١٥ آب / غشت ٢٠١٥

١١ عبد الفتاح نعوم، حزب الأصالة والمعاصرة يواجه الضغوط، ٨ ايلول/ سبتمبر ٢٠١٧ http://carnegieendowment.org/sada/73050

١٢ الفصل ٤٧ من دستور المغرب لسنة ٢٠١١

١٣ عبد الفتّاح نعّوم، الإقالات الملكيّة.. أيّ حساب لأيّ بيدر؟، جريدة **الاتحاد** اللبنانيّة، الثلاثاء ٣١ تشرين الأوّل / أكتوبر ٢٠١٧، ص٧

# الأسرة العراقيّة بين كفَّي المشَرِّع الديني

**ديمة ياسين**

**كاتبة وباحثة، العراق.**

لم يكن قانون الأحوال الشخصيّة العراقيّ رقم ١٨٨ المقرَّر سنة ١٩٥٩ وتعديلاتُه اللاحقة قانوناً يتّسمُ بالمثاليّة، بل هو بعيد كلَّ البُعد عنها. إلّا أنّه، وبعد ما يقارب الستّة عقود منذ إقراره وجد العراقيّون أنفسهم يترحّمون عليه، مصدّقين بأنّ ماضيهم كان مشرقاً مقارنةً ببؤس حاضرهم. فإذا نظرنا إلى القانون بنسْخته قبل تعديل ٢٠١٧، يبدو لنا جليّاً أنّه كان قانوناً مدنيّاً لكنّه مجاملٌ للشريعة الإسلاميّة في بلَدٍ فيه نسبةٌ لا بأس بها من الأقليّات غير المسلمة بالإضافة إلى المذاهب الإسلاميّة المختلفة. فعند التدقيق فيه يظهر كأنّه يوجد ثغراتٍ لنفسه يستطيع من خلالها أن يمرّر مدنيّته خصوصاً فيما يتعلّق ببنود الزواج والطلاق، حيث تبدو البنود في ظاهرها مطابقةً للتشريع الدينيّ، دون أن يحدّد المذهب، بينما يترك جوهرها وتطبيقها للمشرّع المدنيّ، أو القاضي في المحكمة المدنيّة.

من ضمن بنود قانون الأحوال الشخصيّة رقم ١٨٨، أنّه لا يجوز عَقد الزواج مهما كان المذهب أو الديانة أو المعتقَد، إلّا في المحكمة المدنيّة، ولا يُعدّ الزواج الدينيّ (إسلاميّاً كان أم مسيحيّاً أم صابئيّاً أم أيزيديّاً...إلخ.) بحدّ ذاته نافذاً. كما لا يستطيع الرجل إتمام زيجةٍ ثانية (من دون تحديد المذهب حرفيّاً) إلّا بشروطٍ معيَّنةٍ من ضمنها المقدرةُ الماديّة والعدل بين الزوجات. فيعود القاضي المدنيّ إلى الزوجة الأولى ويدرسُ حالها وهو الذي يقرر ما إذا كان ذلك الزواج مسموحاً به أم لا. وفي حال مخالفة حكم القاضي أو زواج الرجل من غير موافقة المحكمة المدنيّة تترتّب على المخالِف عقوباتٌ قد تصل إلى السجن من ستّة أشهرٍ إلى سنة. بالإضافة إلى العديد من البنود التي حاولَت الموازنةَ بين الشرع والتشريع المدنيّ مثل سِنّ الزواج التي حُدّدتْ بسنّ الثامنة عشرة لكلا الجنسيْن، وفي استثناءاتٍ معيَّنة قد يُسمَح بزواج من لا يقلّ عن الخامسة عشرة، ويُقرِّر ذلك قاضٍ في المحكمة المدنيّة أيضاً.

يبدو أيضاً أنّ اللجنة المشرّعة لقانون الأحوال الشخصيّة لسنة ١٩٥٩، وفي حين إنّها شدّدتْ في النّص على كون القانون شاملاً لكلّ العراقيّين بمختلف دياناتهم وأطيافهم، تعمّدت في ذات الوقت عدم تحديد هذه الدّيانات خصوصاً فيما يتعلق بمسائل الميراث وانتقال الملكيّة، حيث تختلف المدارس الفقهيّة والأديان بشأنها. فهي وإن ذكرتْ أنّ «للذكر مثل حظّ الأنثيين» إلّا أنّ المحكمة المدنيّة في العراق اعتمدتْ في حلّ نزاعات الميراث المعقّدة حدّ خروجها من اتّفاقات الأسرة الداخليّة إلى المحكمة، على قانون الأراضي الأسريّة أو ما كان يسمّى بقانون الأراضي الأميريّة الذي وُضع في زمن الحكم العثمانيّ في العراق واعتاد النّاس عليه منذ زمنٍ بعيد. وينصّ هذا القانون على انتقال أملاك المتوفّى العقاريّة والمنقولة بالتّساوي بين ذرّيّته ذكوراً وإناثاً، واضعاً الحلّ مرّة أخرى في يد القاضي المدنيّ، وشاملاً لكلّ العراقيّين بغضّ النّظر عن دياناتهم.

مع اندلاع الحرب العراقيّة الإيرانيّة في بداية ثمانينيّات القرن العشرين واشتداد حدّتِها، دخلتْ بعض التعديلات أو ما يمكن تسميتها التوضيحات على القانون في بعض البنود خصوصاً فيما يتعلّق بالطلاق في حال غياب الزوج أو اعتباره أسيراً أو مفقوداً في الحرب. وبينما بقيت المحكمة المدنيّة هي السلطة التشريعيّة الوحيدة المنفّذة للقانون حتى عام ٢٠١٧، أي قبل التعديلات الأخيرة، إلّا أنّنا لا نستطيع إنكار تهميش هذه السلطة خلال أيّام الحصار الاقتصاديّ على العراق وإطلاق صدّام حسين ما سمّاه بالحملة الإيمانيّة التي قام من خلالها بالتقرّب من الإسلاميّين السنّة والعشائر

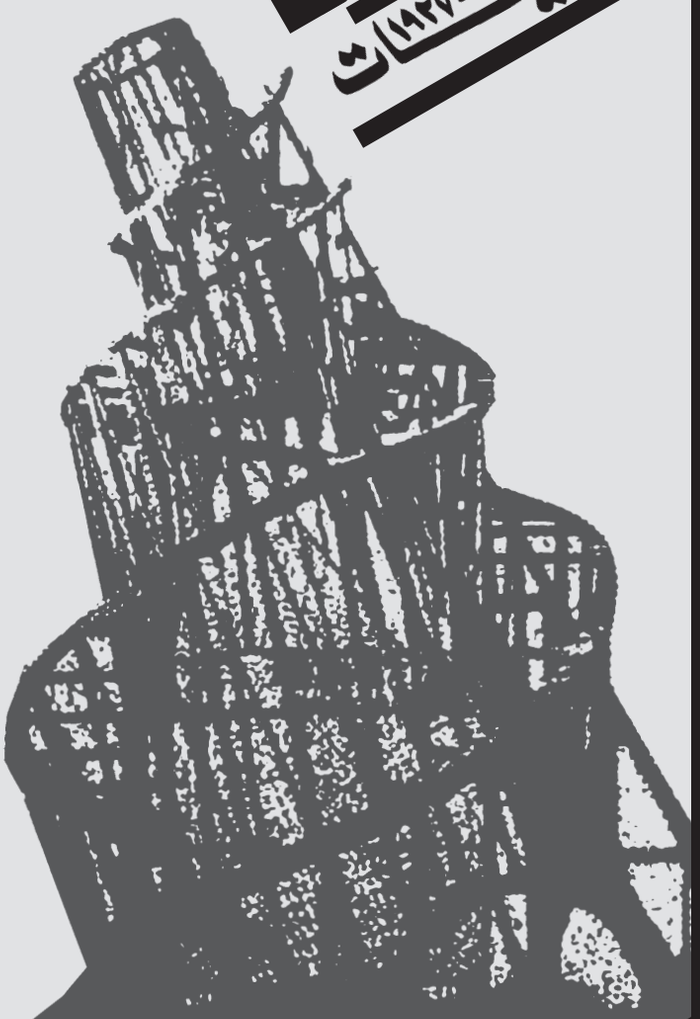
العراقيّة، فسيطر القانون العشائريّ وأصبح بديلاً في حلّ النزاعات ودفْع الديّات وعقْد الاتّفاقات الاجتماعيّة منها والاقتصاديّة حتى وصولنا إلى ما بَعد الاحتلال الأميركيّ الذي خلَق الفوضى وزاد من تهميش القانون المدنيّ. وقد جرت الكثير من المحاولات في السنين القليلة الماضية لإجراء تعديلات على هذا القانون بما يتماشى مع سيطرة الأحزاب الدينيّة (لا سيّما الشيعيّة المتطرّفة) في العراق، وربّما أشهرُ هذه المحاولات كانت ما طرحه رئيس الوزراء العراقيّ الأسبق، إبراهيم الجعفري، الذي أطلقَ على مشروع التعديل «القانون الجعفريّ». وقد جُوبه هذا الطرحُ بالرفض والاستياء الشّديدَيْن من قبَل منظّمات حقوق المرأة والمجتمع المدنيّ، وخَرَجَت المظاهرات مطالبةً بإقالة الحكومة. وجاء تعديل عام ٢٠١٧ متوقّعاً إلَى حدٍّ بَعيد وغيرَ مفاجئٍ وإن كان مثيراً للكثير من الجدل والاستياء.

صوَّتَ البرلمان العراقيّ الحاليّ في جلسته المنعقدة في تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٧، مانحاً موافقته المبدئيّة على مشروع تعديل قانون الأحوال الشخصيّة العراقيّ الذي يضع فيه رسميّاً أمور تنظيم الأسرة في يد المشرِّع الدينيّ المذهبيّ تحديداً بدلاً من المحكمة المدنيّة العراقيّة، التي كانت توحِّد العراقيّين بغضّ النظر عن انتماءاتهم الدينيّة أو المذهبيّة تحت قانونٍ تشريعيٍّ واحد. وقد نَصّ مشرع التعديل الأخير أنّه يحقّ للمواطن العراقيّ الرجوعُ إلى ما يتبَع من مرجعيّةٍ دينيّةٍ ومذهبيّةٍ لحلّ أمور حياته الشخصيّة وعقوده الاجتماعيّة كالزواج والطلاق والميراث وغيرها... ممّا يُعطي للمشرع الدينيّ، الذي يعتمد عادةً على تفاسيرَ مذهبيّةٍ أو فقهيّةٍ، أن يقرّر تفاصيل حياة الأفراد والأسرة، وبالتالي المجتمع ككلّ، الأمر الذي أثار مرّةً أخرى، غضب واستنكار منظّمات حقوق المرأة ومنظّمات المجتمع المدنيّ والتيّارات المدنيّة في البرلمان. وقد صرّح بعض ناشطي المجتمع المدنيّ بأنّ هذا التعديل ما هو إلّا محاولة أخرى تلي سابقاتها من محاولات ممثّلي الأحزاب الإسلاميّة في البرلمان لتمرير قوانين مجحفة بحقّ المرأة وتحكيم الدين بدلاً من فصله عن الدولة. وكان من أهمّ ما طُرح من مخاوف باتتْ شبه ثابتة هو أنّ المشرِّع الدينيّ لا يمانع في كثيرٍ من الأحيان زواج القاصرات اللواتي قد يكنَّ في عمر التسع سنوات أحياناً، ممّا يعتبر انتهاكاً صارخاً لحقوق الطفل، بالإضافة إلى القضايا الأخرى التي يجيزها المشرِّع الدينيّ أيضاً كضرب الزوجة وإجبارها على طاعة الزوج، أو عدم السماح بالزواج بين المذاهب المختلفة وغيرها من التعاليم والممارسات والآراء الفقهيّة التي ترسِّخ السيطرة الذكوريّة الدينيّة وتُعيد العراق عقوداً إلى الوراء متسبّبةً بتفكيك المجتمع وزيادة الفرقة المذهبيّة والدينيّة بين أفراده.



# مئوية الثورة الروسية

## البدايات ١٩١٧-١٩٢٧




٣٨ **الثورة الروسية - مساق زمني**

٤٢ **«أطروحات نيسان» إلى المرحلة الثانية من الثورة!**
فلاديمير إيليتش لينين

٤٦ **البدء من البداية**
فلاديمير إيليتش لينين

٤٧ **أشهر تحقيق صحافيّ عن ثورة أكتوبر «عشرة أيّام هزّت العالم»**
جون ريد

٥٨ **أول أيام السلطة**
ليون تروتسكي

٦٢ **الثورة ضد كتاب «رأس المال»**
أنطونيو غرامشي

٦٤ **المغزى الجوهري للثورة الروسيّة**
روزا لوكسمبرغ

٧٠ **القوانين الصّادرة عن مفوّضي الشعب**

٧٣ **بيان ليون تروتسكي عن نشر الاتّفاقات السرّية**

٧٦ **الأمميّة الشيوعيّة: مواقف من قضايا عربيّة**

٧٨ **جردة حساب تاريخيّة**
جلبير الأشقر

٨٥ **تشاينا مايفيل هي ثورتنا وعلينا إكمالها**
ريما ماجد

٩١ **النساء في الثورة الروسية عن العمل والحرية والحب**
سنثيا كريشاتي

٩٩ **ألكسندرا كولونتاي رائدة تحرّر المرأة**
ألكسندرا كولونتاي

١٠٩ **إينيسّا آرمان البلشفيّة، النسويّة، العاشقة**
إعداد فريق «بدايات»

١١١ **نساء روسيا ١٩١٧ في أعين المؤرّخين المعاصرين**
وسام سعادة

١٢٢ **تحرّر المرأة في الملصق وفي الحياة**
عماد الدين رائف

١٢٦ **الثقافة الجديدة دمقرطة الفنّ وابتكارٌ بلا حدود**
إعداد فريق «بدايات»

١٣٠ **إيزادورا دانكن في الثورة «أرقصُ من أجلّ الحياة الجديدة»**
إعداد فريق «بدايات»

١٣٣ **السينما في الثورة سيرغي آيزنشتاين وفن المونتاج**
سليم البيك

١٣٨ **تاتلين و«نصبٌ للأمميّة الثالثة» أو رؤيويّة الثورة**
إعداد فريق «بدايات»

١٤٠ **مایاكوفسكي: لغته، ثورته، موته**
جون برجر

١٤٨ **التعليم في الثورة**
إعداد فريق «بدايات»

# الثورة الروسية - مساق زمني

## ١٩٠٥ - ١٩٠٧

**٢٢ كانون الثاني / يناير ١٩٠٥**

◆ «الأحد الدّامي» - قوّات من الجيش والشرطة تطلق النّار على تظاهرة سلميّة خارج «قصر الشتاء» وفي أماكن أخرى في سانت بطرسبرغ وتقتل وتجرح نحو ألف شخص.

**حزيران / يونيو ١٩٠٥**

◆ تمرّد بحّارة «المدرّعة بوتمكين»، وهي جزء من «أسطول البحر الأسود». يطلق التمرّد التظاهرات الصاخبة في أوديسّا لاتي ولا تلبث أن تقمعها القوّات العسكريّة بأمر من القيصر.

**٣٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٠٥**

◆ تظاهرات أكتوبر - القيصر نيقولا الثاني يصدر «بيان أكتوبر» يعد فيه بالحرّيّات المدنيّة (مثل حريّة التعبير) وببرلمانٍ منتخب (الدوما) ما يفرض القيود على الصلاحيّات المُطلقة للعاهل الروسي، مع صدور دستور أمر واقع («القوانين الأساسيّة للعام ١٩٠٦»).

**١٦ حزيران / يونيو ١٩٠٧**

◆ انقلاب يونيو ١٩٠٧، الذي أدّى إلى حلّ «الدوما الثانية» للإمبراطوريّة الروسيّة، واعتقال عدد من أعضائها، وإحداث تغيير جذريّ في قانون الانتخابات الروسيّ.

**١٩١٤**

◆ اندلاع الحرب العالميّة الأولى

**الأوّل من آب / أغسطس ١٩١٤**

◆ ألمانيا تعلن الحرب على روسيا، وروسيا تدخل الحرب العالميّة الأولى.

## ١٩١٧ ثورة شباط / فبراير

**٨ - ١٦ آذار / مارس، ١٩١٧**

◆ سلسلة من الاحتجاجات تبدأ في بتروغراد وتستمرّ لثمانية أيّام ثمّ تنتهي عمليّاً بإلغاء النظام الملكيّ في روسيا. مجموع عدد القتلى والجرحى في الاشتباكات مع الشرطة والجيش في عموم روسيا يبلغ حوالي ١٣٠٠ شخص.

**٨ آذار / مارس ١٩١٧**

◆ في «يوم المرأة العالميّ»، متظاهرون وعمّال مضربون، العديد منهم نساء، في الشوارع يحتجّون على قوّة الأزمة المعيشيّة والحرب. بعد يومين، تعمّ الإضرابات بتروغراد.

**١٥ آذار / مارس ١٩١٧**

◆ القيصر نقولا الثاني يتنحّى وينحّي ابنه عن الوراثة.

◆ تشكيل «حكومة مؤقّتة» لتخلف الحكومة القيصريّة.

**نيسان / إبريل ١٩١٧**

◆ لينين يعود من المنفى، يصل إلى بتروغراد على متن قطار مقفل من سويسرا عبر ألمانيا وفنلندا.

◆ الحكومة المؤقّتة تقرّر مواصلة الحرب. يتسرّب خبر القرار فتندلع احتجاجات تزيد التأييد للبلاشفة.

◆ أعضاء من «الاشتراكيّين الثوريّين» و«المنشفيك» ينضمّون إلى الحكومة المؤقّتة.

**الأوّل من حزيران / يونيو ١٩١٧**

◆ وزير الحرب الروسي ألكسندر كرينسكي يعلن الهجوم على قوّات الإمبراطوريّة النمساويّة - المجَرية في غاليسيا.

◆ «لجان الجنود» تشجّع الجنود على عصيان أوامر الضبّاط. العديد من الجنود يعودون إلى قراهم للمشاركة في إعادة توزيع الأراضي.

**«أيّام يونيو»: ١٦ - ٢٠ حزيران / يونيو ١٩١٧**

◆ سلسلة من التظاهرات المسلّحة العفويّة ضدّ الحكومة يطلقها عمّال وجنود وتنطلق في بتروغراد. الأمير لفوف الليبراليّ يستقيل من رئاسة الحكومة المؤقّتة ويخلفه ألكسندر كرينسكي الذي يصدر أمره بقمع التّظاهرات. في الشّهر ذاته، تعود الحكومة إلى فرض الإعدام وتمنح النّساء حقّ التّصويت وتوَلّي الوظيفة الحكوميّة.

◆ كرينسكي يصدر أمراً باعتقال لينين الذي ينتقل إلى العمل السرّيّ. مداهمات لمطابع جريدة البلاشفة «البرافدا» والمركز الرئيسيّ للّجنة المركزيّة للحزب البلشفيّ واعتقال العديد من القادة البلاشفة بينهم تروتسكي.

◆ الانتفاضة المجهضة تؤدّي إلى خسارة سيطرة مجالس السوفيات على الحكومة المؤقّتة، الأمر الذي يعني نهاية حالة «ازدواج السلطة». البعض يرى في ذلك نقطة اللاعودة في المسار السلميّ للثّورة.

**قضيّة كورنيلوف: ٩ أيلول / سبتمبر ١٩١٧**

◆ انقلاب فاشل للجنرال كورنيلوف، قائد الجيش الروسيّ، الذي يأمر قوّاته بالتحرّك إلى بتروغراد لمواجهة الخطر البلشفيّ.

◆ رئيس الوزراء كرينسكي يتّهم كورنيلوف بأنّه يقود محاولة انقلابيّة يمينيّة. «الحرس الأحمر» التّابع للحزب البلشفيّ يلعب دوراً رئيساً في صدّ هجوم كورنيلوف على بتروغراد. تزايد نفوذ البلاشفة بين الطّبقات العاملة والفلّاحين والجنود، يقابله ضعف صدقيّة الحكومة المؤقّتة الائتلافيّة بين اشتراكيّين وليبراليّين.

**١٤ أيلول / سبتمبر ١٩١٧**

◆ إعلان الجمهوريّة الروسيّة رسميّاً

**٧ - ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ ثورة تشرين الأول / أكتوبر

**٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ البلاشفة يستولون على السلطة في بتروغراد.

**٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ الجيش الأحمر يحتلّ القرم ويجبر الجيش الأبيض على الانسحاب. البلاشفة يحتلّون «قصر الشتاء» آخر معقل للحكومة المؤقّتة.

**٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ الحكومة البلشفيّة الجديدة تصدر «مرسوم الأرض» الذي يعلن إلغاء الملكيّة الفرديّة للأرض وتوزيع الأراضي على الفلّاحين و«مرسوم السلم»، الذي يعرض الانسحاب الفوريّ لروسيا من الحرب العالميّة الأولى. تلتها مراسيم عمّاليّة تتعلّق بتحديد يوم العمل بثماني ساعات، وتعيين حدٍّ أدنى للأجور وإدارة المصانع. وصدر قرار بإلغاء عقوبة الإعدام.

**٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ «مرسوم الصحافة»، أوّل قرار بتطبيق الرّقابة على الصحف أعلن إلغاء الصحافة «البرجوازيّة».

**٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧**

◆ انتخابات «الجمعيّة التأسيسيّة» يكسب فيها الاشتراكيّون الثوريّون أكبر عدد من المقاعد، في حين لا يحوز البلاشفة على أكثر من ربع المقاعد.

**١٥ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧**

◆ إعلان الهدنة بين روسيا والقوى المركزيّة وتوقّف القتال.

**٢٠ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧**

◆ لينين ينشئ لجاناً استثنائيّة لمكافحة الثّورة المضادّة سُمّيت «التشيكا».

## ١٩١٨ - ١٩٢٤

**١٨ - ١٩ كانون الثاني / يناير ١٩١٨**

◆ البلاشفة يحلّون «الجمعيّة التأسيسيّة»

**٢٨ كانون الثاني / يناير ١٩١٨**

◆ «مجلس مفوّضي الشعب» يصدر مرسوماً بتأسيس «جيش العمّال والفلّاحين الأحمر».

**١٩١٨**

◆ بداية الحرب الأهليّة الروسيّة وحرب التدخّل الأجنبيّة

◆ عدّة أطراف تهاجم الجمهوريّة بدعم ألمانيّ وبريطانيّ وفرنسيّ، الجبهات متعدّدة الأطراف المفتوحة على الجمهوريّة السوفياتيّة تضمّ «الجيوش البيضاء» بقيادة ضبّاط قيصريّين، أو بقيادة كورنيلوف، أو موالية لكرينسكي أو مسلّحين تابعين لحزب الاشتراكيّين الثوريّين، وغيرهم. مفوّض الحرب تروتسكي، يقود عمليّات «الجيش الأحمر» متنقّلًا من جبهة إلى جبهة على متن «القطار المدرّع».

**٣ آذار / مارس ١٩١٨**

◆ معاهدة بريست - ليتوفسك

◆ روسيا تنهي مشاركتها في الحرب العالميّة الأولى، وتخسر ثلث سكّان الإمبراطوريّة السابقة، وثلث شبكة سكّة الحديد، ونصف صناعتها، وثلاثة أرباع مواردها من خام الحديد، وتسعة أعشار مواردها من الفحم وقسماً كبيراً من مواردها الغذائيّة.

**٨ آذار / مارس ١٩١٨**

◆ المؤتمر السابع لـ«حزب العمّال الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ» البلاشفة يقرّر تغيير اسم حزبهم إلى «الحزب الشيوعيّ الروسيّ» ونقل عاصمة روسيا من بتروغراد إلى موسكو.

**١٠ تمّوز / يوليو ١٩١٨**

◆ أوّل دستور لـ«جمهوريّة روسيا الاشتراكيّة الاتّحاديّة» يمنح الرجال والنساء حقوقاً متساوية.

**١٦ - ١٧ تمّوز / يوليو**

◆ إعدام القيصر نيقولا الثاني مع أسرته في يكاترنبرغ.

**٣٠ آب / أغسطس ١٩١٨**

◆ بداية «الإرهاب الأحمر».

◆ محاولة اغتيال لينين على يد عضو حزب الاشتراكيّين الثوريّين فاني كابلان يُصاب فيها القائد البلشفيّ بجروح خطيرة. المحاولة، بالإضافة إلى اغتيال يوريتسكي، مسؤول الأمن في بتروغراد، تطلق حملة اعتقالات وإعدامات جماعيّة سمّيت «الإرهاب الأحمر».

**تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨**

◆ تشكيل حكومة خولتشاك التي تعجز عن توحيد كافّة «الجيوش البيضاء» المقاتلة ضدّ البلاشفة. معظم البيانات الفلّاحية لا تؤيّد «الجيوش البيضاء» وترفض الخدمة فيها مخافة عودة كبار ملّاك الأرض وسلبهم الأراضي التي حازوا عليها بناءً على «مرسوم الأرض».

**١٩٢٠**

◆ تأسيس أحزاب شيوعيّة عبر العالم.

**تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٠**

◆ الجيش الأحمر يحتلّ القرم ويجبر الجيش الأبيض على الانسحاب. وفي هذا بداية النّهاية للحرب الأهليّة.

**آذار / مارس ١٩٢١**



◆ انتفاضة بحّارة كرونشتادت الفاشلة يقمعها «الجيش الأحمر» بالعنف.

**آذار / مارس ١٩٢١**

◆ نهاية فترة «شيوعيّة الحرب» واعتماد «السياسة الاقتصاديّة الجديدة» التي أعادت الاعتبار لمساحات معيّنة من اقتصاد السوق والقطاع الخاصّ والملكيّة الفرديّة في الزراعة.

**ربيع ١٩٢١**

◆ نهاية الحرب الأهليّة.

**ربيع ١٩٢١ إلى نهاية ١٩٢٢**

◆ مجاعات وأوبئة ضربت المناطق الروسيّة حصدت لا أقلّ من خمسة ملايين روسيّ.

**٣ نيسان / إبريل ١٩٢٢**

◆ تعيين جوزيف ستالين أميناً عامّاً للحزب الشيوعيّ الروسيّ.

**٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٢**

◆ انتهاء الحرب الأهليّة.

◆ الجيش الأحمر يحرّر مدينة فلاديفوستوك. توقيع اتفاقيّة انسحاب القوّات اليابانيّة من روسيا.

**كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٢**

◆ الإعلان الرسميّ عن تأسيس الاتحاد السوفياتي

**٢١ كانون الثاني / يناير ١٩٢٤**

◆ وفاة لينين يفتح الصراع على خلافته.

# «أطروحات نيسان»
## إلى المرحلة الثانية من الثورة!

فلاديمير إيلييتش لينين

◆◆◆ ١ ◆◆◆

في موقفنا من الحرب: في ظل حكومة لفوف وشركاه المؤقّتة الجديدة، من المؤكّد أنّ الحرب لا تزال، من الجانب الروسيّ، حرب الكواسر الإمبرياليّة نظراً إلى الطبيعة الرأسماليّة لتلك الحكومة، فلا يجوز تقديم أدنى تنازلٍ لنزعة «الدفاعيّة الثوريّة».

يمكن للبروليتاريا الواعية أن توافق على حربٍ ثوريّة، التي قد تبرِّر الدفاعيّةَ الثوريّة فقط بشرط: (أ) أن تنتقل السلطة إلى البروليتاريا وإلى الشرائح الأفقر من الفلّاحين المتحالفين معها، (ب) أن يجري التخلّي عن كلّ أعمال ضمّ الأراضي بالفعل لا بالقول، (ج) أن تحصل قطيعة عمليّة كاملة مع كافّة المصالح الرأسماليّة.

نظراً للصّدق الأكيد لتلك الشرائح الواسعة من الجماهير المؤمنة بالدفاعيّة الثوريّة الذين يرَون إلى الحرب على أنّها ضرورة، وليستْ وسيلة غزو، ونظراً لحقيقة أنّهم يتعرّضون للتّضليل من قبَل البرجوازيّة، من الضروريّ أن نفسّر لهم خطأهم، بحزمٍ وإصرارٍ وصبر، وأن نشرح الصلة التي لا تنقطّع بين رأس المال والحرب الإمبرياليّة، وأن نثبت أنّه من دون الإطاحة برأس المال، يستحيل إنهاءُ الحرب عن طريق سلم ديمقراطيّ حقّاً، سِلم لا يُفرَض بواسطة العنف.

يجب أن ننظّم أوسع حملةٍ للدّفاع عن هذا الرّأي في صفوف الجيش على الجبهات. التآخي بين جنود معسكرَي الحرب عبر الخنادق.

◆◆◆ ٢ ◆◆◆

الصفة المميِّزة للوضع الرّاهن في روسيا هي أنّ البلد في طورٍ انتقاليٍّ من المرحلة الأولى من الثورة - التي وضعت السلطة بيد البرجوازيّة بسبب عدم كفاية وعي البروليتاريا وضعف تنظيمها - إلى المرحلة الثانية، التي يجب أن تضع السلطة بيَد البروليتاريا والشرائح الأفقر من الفلّاحين.

يتميّز هذا الانتقال، من جهة، بالحدّ الأقصى من الحقوق المعترَف بها قانونيّاً (وروسيا الآن هي البلد الذي يتمتّع بأوسع قدْر من الحرّيّة بين البلدان المتحاربة في العالم)، وبغياب العنف تجاه الجماهير، وأخيراً بالثقة الطائشة الممنوحة لحكومة الرأسماليّين، أسوأ أعداء السلم والاشتراكيّة.

إنّ هذا الوضع المميّز يتطلّب منّا امتلاك القدرة على أن نتكيّف مع الظروف الخاصّة للعمل الحزبيّ في الأوساط البروليتاريّة غير المسبوقة من حيث اتّساعُها والتي استيقظت للتّوّ، إلى الحياة السياسيّة.

◆◆◆ ٣ ◆◆◆

**لا تأييدَ للحكومة المؤقّتة!**

يجب توضيح الخطل الكامل في كلّ وعودها، خصوصاً تلك المتعلّقة بالتخلّي عن ضمّ الأراضي. الفضح بديلًا من «الطّلب»، غير المبرّر والمولِّد للأوهام، أن تتوقّف هذه الحكومة، حكومة الرأسماليّين، عن أن تكون حكومةً إمبرياليّة.

◆◆◆ ٤ ◆◆◆

الاعتراف بحقيقة أنّ حزبنا هو في الأقلّيّة في معظم مجالس

(سوفييتات) مندوبي العمّال، وأنّه لا يزال أقلّيّةً ضئيلةً في مواجهة جبهة العناصر البرجوازيّة الصغيرة الانتهازيّة، من الاشتراكيّين الشعبيّين والاشتراكيّين الثوريّين وصولاً إلى «اللجنة التنظيميّة» (جماعة شخيدزه وتسيريتللي وسواهما) وستيكلوف، وغيرهم ممّن ينصاع لنفوذ البرجوازيّة وينشر نفوذها في أوساط البروليتاريا.

يجب أن نوَعّي الجماهير على أنّ مجالس مندوبي العمّال هي الشكل الوحيد الممكن لحكومة ثوريّةٍ، وأنّ مهمّتنا بالتّالي، مادامتْ هذه الحكومة تنصاع لنفوذ البرجوازيّة، أن نقدّم شرحاً صبوراً ومنتظماً ومواظباً لأخطاء تكتيكاتها، شرحاً متكيّفاً بنحوٍ خاصٍّ مع الحاجات العمليّة للجماهير.

مادمنا نحن في الأقلّيّة، سوف نجهد لممارسة النقد وفضح الأخطاء ولنبشّر، في الوقت ذاته، بضرورة نقلِ سلطة الدولة كاملةً إلى مجالس مندوبي العمّال، بحيث يتجاوز النّاس أخطاءهم بواسطة الممارسة.

◆◆◆ ٥ ◆◆◆

**ضدّ الجمهوريّة البرلمانيّة:**

إن العودة إلى جمهوريّةٍ برلمانيّةٍ بعد قيام مجالس مندوبي العمّال سوف تشكّل ردّةً رجعيّة - والأحرى أنّها جمهوريّة من مجالس مندوبي العمّال والعمّال الزراعيّين والفلّاحين على امتداد البلاد، تُبنى من أسفل إلى أعلى.

إلغاء الشرطة وحلّ جهاز الدولة البيرقراطيّ[1].

أجور جميع الموظفين، وجميعهم يجب أن يكونوا منتخَبين وقابلين للعزل في أيّ وقت، يجب ألّا تتجاوز متوسّط أجر عاملٍ ماهر.

◆◆◆ ٦ ◆◆◆

يجب نقل مركز الثّقل في البرنامج الزراعيّ إلى مجالس مندوبي العمّال الزراعيّين.

مصادرة جميع ملكيّات الأرض.

تأميم جميع أراضي البلد، ووضع الأرض بتصرّف المجالس المحلّيّة لمندوبي العمّال الزراعيّين والفلّاحين.

إنشاء تنظيمٍ خاصٍّ لمجالس مندوبي فقراء الفلّاحين. تأسيس مزرعةٍ نموذجيّةٍ على كلٍّ من ملكيّات الأرض الكبيرة (تتراوح مساحتها بين ١٠٠ و٣٠٠ ديسياتين تبعاً للظّروف المحلّيّة وغيرها، ولمقرّرات الهيئات المحلّيّة) تحت سيطرة مجالس مندوبي العمّال الزراعيّين وفي ظلّ المساءلة العامّة.

◆◆◆ ٧ ◆◆◆

الدمج الفوريّ لكلّ مصارف البلد في مصرفٍ وطنيٍّ واحد، وإخضاعه لرقابة مجلس مندوبي العمّال.

◆◆◆ ٨ ◆◆◆

ليس «إدخال» الاشتراكيّة من مهمّاتنا الفوريّة. يجب الاقتصار على وضع الإنتاج الاجتماعيّ وتوزيع الموادّ فوراً تحت إشراف مجالس مندوبي العمّال.

◆◆◆ ٩ ◆◆◆

**مهمّات حزبيّة:**

- الدعوة الفوريّة إلى مؤتمرٍ للحزب.
- تعديل برنامج الحزب بخصوص:
  - ◆ قضيّة الإمبرياليّة والحرب الإمبرياليّة.
  - ◆ موقفنا تجاه الدولة ومطالبتنا بقيام «دولة المشاع»[2].
  - ◆ تعديل اسم الحزب[3].

◆◆◆ ١٠ ◆◆◆

**تأسيس أمميّة جديدة**

يجب أن نأخذ المبادرة لتأسيس أمميّة ثوريّة، أمميّة ضدّ الاشتراكيّين الشوفينيّين وضدّ «الوسَط» (...).

**(تلاها لينين في اجتماعَين لـ«مؤتمر عموم روسيا لمجالس مندوبي العمّال والجنود»، في ٤ نيسان / أبريل ١٩١٧).**

**الهوامش**

١ أي تسريح الجيش النظامي واستبداله بجيش الشعب كلّه

٢ أي دولة مشيّدة على نموذج «كومبونة باريس» [١٨٧١]

٣ بديلاً من «الاشتراكية الديمقراطية»، التي خان قادتها الرسميون الاشتراكية عبر العالم، وانتقلوا الى صفوف البرجوازية («دعاة النزعة الدفاعية» وأنصار كاوتسكي «المتذبذبين») يجب ان نتسمّى «الحزب الشيوعي»



❖
احتفالات الأول من أيار ١٩١٧ في بتروغراد



# البدء من البداية

فلاديمير
إيلييتش لينين

**كُتب هذا النّصّ القصير بعنوان «ملاحظات داعية» في شباط / فبراير ١٩٢٢[١]، عندما اضطر البلاشفة، بعد كسب الحرب الأهليّة على الرّغم من كلّ المآسي والعقبات، إلى التراجع إلى «السياسة الاقتصاديّة الجديدة» التي سمحت بمدىً أوسع من اقتصاد السوق وبالملكيّة الفرديّة - استخدم لينين تشبيهَ متسلّق الجبال المضطرّ إلى العودة أدراجه بعد محاولةٍ أولى لبلوغ قمّة جبلٍ جديد لوصف ما يعنيه التراجع في المسار الثورة، وكيف يمكن أن يتمّ دون خيانة القضيّة انتهازيّاً.**

لنتصوّر رجلًا يرقى جبّلا مرتفعاً وسليطاً وغير مكتشَف من قبل. ولنفترض أنّه قد تجاوز مصاعب ومخاطر غير مسبوقةٍ ونجح في بلوغ نقطةٍ أعلى من تلك التي بلغها أيٌّ من سابقيه، لكنّه مع ذلك لم يصل إلى القمّة. يجد نفسه في وضعٍ لا يقتصر الأمر فيه على مواصلة الصعود في الاتّجاه وفي المسلَك الذي اختاره وحسب، بل بات مستحيلاً بالمطلق أيضاً.

إنّه مضطرّ إلى العودة أدراجه، للنّزول، والبحث عن مسلكٍ آخر، ربّما يكون أطول، لكنّه مسلكٌ سوف يمكّنه من بلوغ القمّة. وربّما تبيّن أنّ النزول من ارتفاعٍ لم يبلغه أحدٌ قبله أخطر وأصعب بالنّسبة إلى رحّالتنا المتخيّل من الصعود - فليس أسهلَ من الانزلاق، وليس أصعب من أن يجد لنفسه موطئ قَدَم، وهو محروم الصعود مثير للبهجة يشعر بها المرء وهو يرقى قُدُماً نحو الهدف، إلخ. ثمّ إنّعلى المرء أن يلفّ حَبْلاً حول جسده، وعليه أن يقضي ساعاتٍ يستخدم عدّة صعود الجبال كاملةً لكي يستطيع حفر موطئ قدم أو ليجد نتوءاً يربط الحبل فيه بإحكام، وعليه فوق ذلك أن يتقدّم ببطء حلزونةٍ وهو يتحرّك باتجاه النزول، بعيداً عن الهدف، لا يدري أين سوف ينتهي به هذا النزول بالغ الصعوبة وشديد المشقّة، أوما إذا كان سيجد عطفة آمنة تمكّنه من أن يعاود الصعود بحزمٍ أشدّ وبسرعة أكبر وعلى نحوٍ مباشرإلى القمّة.

من الطبيعي الافتراض أنّ المتسلّق الذي يجد نفسه في مثل ذلك الوضع، لن يخلو من لحظاتٍ من القنوط. والأرجح أنّ تلك اللحظات سوف تكون أوفر عدداً وأسرع وتيرةً وأقسى احتمالاً إذ كان يسمع أصواتَ من هم في الأسفل يراقبون نزوله المحفوف بالمخاطر، من على مسافةٍ آمنةٍ بواسطة منظارمقرِّب، أصواتاً تصدح بفرحٍ ماكر ولا تخفيه، تقهقه وتصيح بحبور «سيقع للحال! إنّه يستحقّ ذلك، هذا الأفّاق!» آخرون يحاولون إخفاء فرحهم الماكر فيتصرّفون مثل «يوضاس غولوفليوف»، مالك الأرض الماكر الشهير في رواية سالتيكوف - شيشدرين «أسرة غولوفليوف»: يتوهون ويرفعون أعينهم إلى السماء بحزن، كأنّهم يقولون «لم يحزنّا بتقرّح أن نرى مخاوفنا وقد تحققت! ولكن ألم نطالب، نحن الذين قضينا كلّ حيواتنا نجهد لإنجاز خطّة مناسبة لصعود الجبل، بتأجيل ارتقائه إلى حين إنجاز خطّتنا؟ وإذا كنّا قد عارضنا بشدّة اعتماد هذا المسلك، الذي يتخلّى عنه الآن هذا الأفّاق، وإذا كنّا قد عِبنا على هذا الأفّاق وحذّرنا الجميع من تقليده أو مساعدته، فذلك فقط بسبب إخلاصنا للخطّة العظيمة، خطّة ارتقاء هذا الجبل، ولمنعه منتشويه سمعتها!»

...إنّ مسافرنا المتخيّل لا يستطيع سماع أصوات هؤلاء الذين هم «أصدقاء صادقون» لفكرة ارتقاء الجبل، فلو أنصتَ لها، لأصيب بالغثيانوالغثيان، كما يقال، لا يساعد على أن يحتفظ المرء بذهن صافٍ ولا بخطوة واثقة، خصوصاً في المرتفعات العالية... وطبعاً، إنّ المجاز لا يوازن البرهان، فكلّ مجاز أعرج.

١ عنوانه الكامل «ملاحظات داعية: في صعود جبل مرتفع، في أذى القنوط؛ في التجارة،وفي الموقف من المناشفة، إلخ.». نشر لأوّل مرّة في «البرافدا» العدد ٨٧، ١٦ نيسان / ابريل ١٩٢٤.

# أشهر تحقيق صحافيّ عن ثورة أكتوبر
## «عشرة أيّام هزّت العالم»

**جون ريد**

**صحافي أميركي. خريج هارفرد. أصبح في بداية الحرب العالمية الأولى مراسل حرب. شهد على ثورة ١٩١٧ في روسيا وتوفي فيها في العام ١٩٢٠ ودفن في الكريملن.**

**ولادة روسيا الجديدة**

«إنّني أعلن افتتاح الجلسة الأولى للمؤتمر الثّاني لسوفيات مندوبي العمّال والجنود»!

جرى انتخاب مجلس الرّئاسة وسط الجلبة والحراك. فأعلن أفانيسوف أنّ البلاشفة والاشتراكيّين الثّوريّين اليساريّين والمناشفة الأمميّين قد اتّفقوا على اعتماد التّمثيل النّسبي في مجلس الرّئاسة. وانتصب بعض المناشفة محتجّين فصاح بهم جنديّ ملتح: «تذكّروا ماذا فعلتم بنا نحن البلاشفة عندما كنا أقلّية»! النّتيجة ١٤ بلشفيّاً، ٧ اشتراكيّين ثوريّين ثلاثة مناشفة ومنشفيّ أمميّ من جماعة غوركي. أعلن هندلمان، باسم جناحي الاشتراكيّين الثوريّين اليمينيّ والوسطيّ، رفضهما الاشتراك في مجلس الرئاسة، وأيّد قوله خينشوك باسم المناشفة، وأعلن المناشفة الأمميّون أنّهم أيضاً لن يشتركوا في مجلس الرّئاسة إلّا إذا جرى التّحقيق حول بضعة أمور.

تصفيقٌ متقطّعٌ وزعيق، وقال صوت: «أيّها المرتدّون، تعتبرون أنفسكم اشتراكيّين؟!». وطلب أحد مندوبي أوكرانيا مقعداً فأعطي له. ثمّ انسحبت «التسايكا القديمة»، وظهر في مكانها تروتسكي، كامنييف، لونا تشارسكي، مدام كولانتاي، ونوغين. وهبّت القاعة راعدة. كم حلّق هؤلاء البلاشفة! كانوا زمرةً مكروهة ومضطهدة منذ أربعة أشهر، وها هم الآن في هذا المكان الرّفيع يديرون دفّة روسيا العظيمة في عزّ ثورتها!

وقرأ كامنييف جدول الأعمال: أوّلاً، تنظيم السّلطة، ثانياً، الحرب والسّلم، ثالثاً، الجمعيّة التّأسيسيّة. وقام لوزوفسكي معلناً أنّ مكاتب جميع الفرقاء تقترح الاستماع إلى تقرير سوفيات بتروغراد ومناقشته، ثمّ إعطاء حقّ الكلام لأعضاء «التسايكا» والأحزاب المختلفة قبل الانتقال إلى موادّ جدول الأعمال.

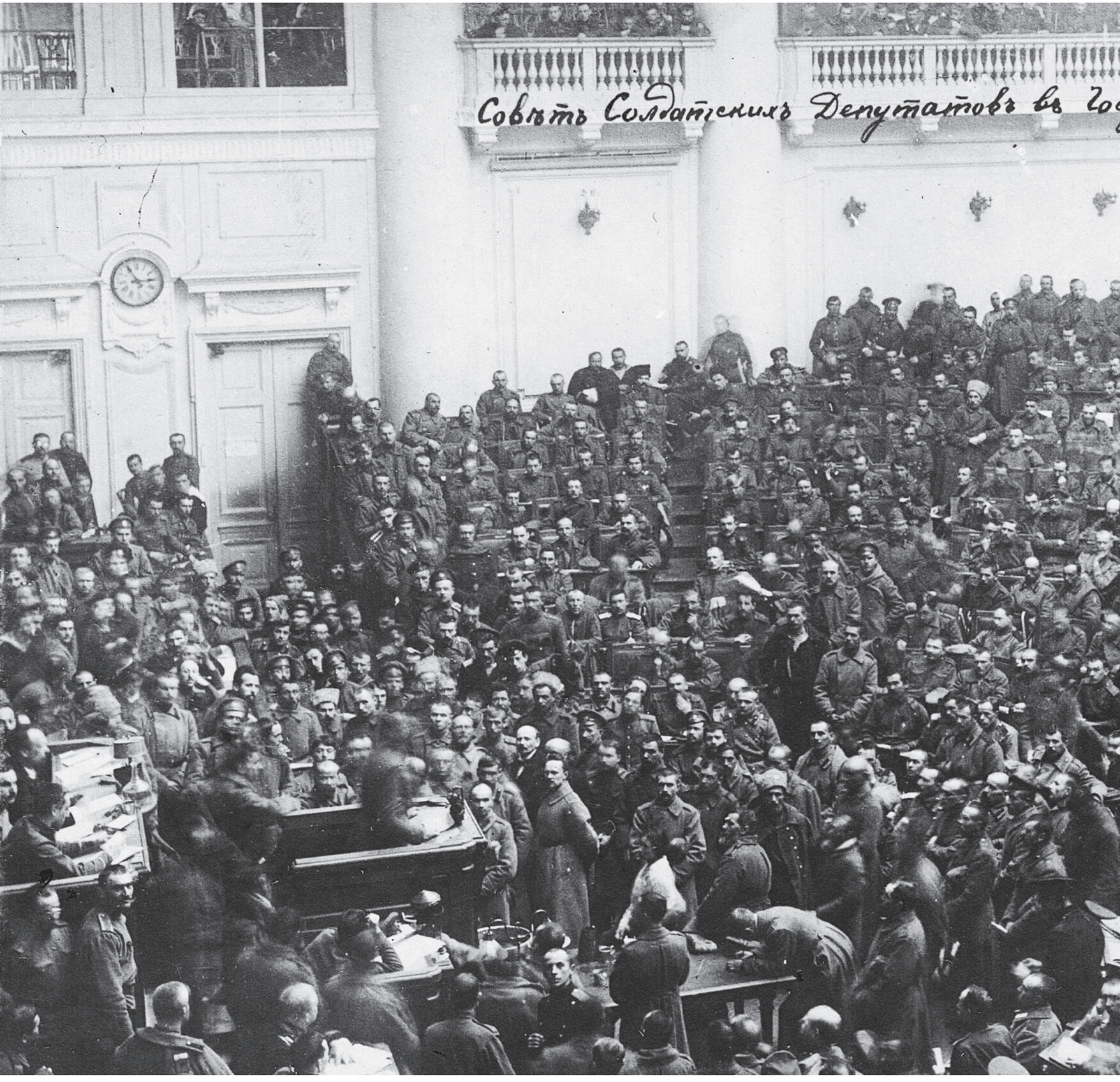
وفجأةً ترامى صوتٌ جديد أعمق من جلبة الجمهور، ملحاحاً، مقلقاً: إنّه دويّ المدافع الأصمّ. ونظر النّاس بقلقٍ نحو النّوافذ المغبّشة وامتلكهم نوعٌ من الحمّى، طلب مارتوف حقّ الكلام صائحاً بصوتٍ أبحّ: «الحرب الأهليّة قد بدأت، أيّها الرّفاق يجب أن تكون أوّل مسألة هي مسألة تسوية الأزمة بطريقةٍ سلميّة. يجب أن نناقش بسرعة وسيلة تفادي الحرب الأهليّة من زاوية مبدئيّة وسياسيّة. إنّ إخواننا يُقتلون في الشّوارع! في هذه اللّحظة نجد أنّ أحد الأحزاب الثوريّة يحلّ مسألة السّلطة بواسطة انقلاب عسكريّ وكلّ هذا قبل افتتاح مؤتمر السوفيات» وعجز خلال برهةٍ عن إسماع صوته بسبب الضّجّة: «يجب على جميع الأحزاب الثّوريّة أن تواجه الحقيقة! المسألة الأولى المعروضة أمام المؤتمر هي مسألة السّلطة، وهذه المسألة يجري حلّها الآن بقوّة السّلاح في الشّوارع... يجب أن ننشئ سلطةً تعترف بها جميع القوى الديمقراطيّة. وإذا كان المؤتمر يريد أن يعبّر عن الدّيموقراطيّة الثّوريّة فلا يجوز أن يقف مكتوف الأيدي أمام نشوب الحرب الأهليّة التي ستكون نتيجتها انفجاراً خطراً للثّورة المضادّة... إنّ إمكان الوصول إلى مخرج سلميّ هو تشكيل سلطة ديمقراطيّة موحّدة... يجب أن ننتخب وفداً ليتفاوض مع جميع الأحزاب والمنظّمات الاشتراكيّة الأخرى»...

دويّ المدافع الأصمّ ما زال يسمع بانتظام من خلال النّوافذ، والمندوبون يتصايحون. وهكذا، كانت روسيا الجديدة تولد بقذف المدفعيّة في العتمة وبالخوف والحقد والإقدام الّذي لا يُحدّ.

ريازانوف يصعد السّلّم الأمامي مفسّراً بنوعٍ من الذّعر المرح أنّه لا يعرف شيئاً عن الاقتصاد مع أنّه عيّن مفوّضاً للتّجارة. وفي مقهى الطّابق العلويّ يجلس رجلٌ وحيداً في إحدى الزّوايا مرتدياً معطفاً من وبر




❖
اجتماع
سوفيات بتروغراد
في العام ١٩١٧


Совѣтъ Солдатскихъ Депутатовъ въ

الماعز وثياباً - كنتُ سأقول «ثياباً نام فيها» ولكنّه لم ينم طبعاً - وله لحية لم تحلق منذ ثلاثة أيّام على الأقلّ. وكان يدوّن أرقاماً على مغلّفٍ وسخ بينما يعضّ قلمه. هذا هو مينجنسكي، وزير الماليّة، وكلّ مؤهّلاته هو أنّه كان كاتباً في مصرفٍ فرنسيّ. وهؤلاء الّذين يهرولون في البهو خارجين من مكتب اللّجنة العسكريّة الثّوريّة وهم يكتبون على قصاصات ورق، هؤلاء هم المفوّضون المرسلون إلى جميع أنحاء روسيا ليحملوا الأنباء ويناقشوا ويصارعوا مستعملين أيّ حججٍ أو أسلحة يقعون عليها.

كان مقرّراً أن يُعقد المؤتمر في السّاعة الواحدة بعد الظّهر، ولكنّ القاعة الكبيرة امتلأت بالنّاس قبل ذلك بكثير. في السّاعة السّابعة لم يكن أعضاء مجلس الرّئاسة قد وصلوا. البلاشفة والاشتراكيّون الثوريّون اليساريّون يعقدون اجتماعاً في الغرفتين المخصّصتين لهما. لينين وتروتسكي يناضلان طوال بعد الظّهر ضدّ المساومة، فقد كان قسمٌ كبيرٌ من البلاشفة على استعدادٍ للتّراجع إلى حدّ تشكيل حكومة تضمّ جميع الاشتراكيّين. صاحوا: «لا نستطيع الصّمود! يوجد كثيرون ضدّنا. ليس لدينا رجال. سوف نُعزل وينهار كلّ شيء». وكان بين هؤلاء كامنييف وريازانوف وغيرهما.

إلّا أنّ لينين، وتروتسكي إلى جانبه، ظلّا صامدين كالصّخر: «فليقبل المساومون ببرنامجنا لنسمح لهم بالاشتراك في الحكم! لن نتراجع قيد شعرة. وإذا كان بعض الرّفاق لا يملكون الشّجاعة ولا الإرادة الكافية ليقْدموا على ما نقْدم عليه، فلينسحبوا مع بقيّة الجبناء والمساومين! سوف نستمرّ على ما نحن عليه يدعمنا العمّال والجنود».

في السّاعة السّابعة والخمس دقائق جاء من يخبر أنّ الاشتراكيّين الثّوريّين اليساريّين قرّروا البقاء في «اللجنة العسكريّة الثوريّة»، فصاح لينين: «ألم أقل لكم؟ لقد تبعونا!».

وبعد برهة، وبينما كنّا جالسين إلى طاولة الصّحافة في البهو الكبير اقترح عليّ أحد الفوضويّين الّذين يحرّرون في الصحافة البرجوازيّة أن نذهب لنستطلع ماذا حلّ بمجلس الرّئاسة. لم نجد أحداً في مكتب «التسايكا» ولا في مكتب سوفيات بتروغراد. وتجوّلنا من غرفةٍ لغرفة في «سمولني» الواسعة. ولم يكن أحدٌ يعرف أنّه يمكن أن نجد الهيئة التي ترأس المؤتمر. وفيما كنّا نتجوّل، بدأ رفيقي يصف نشاطه الثوريّ السّابق وفترة نفيه الطّويلة والسّعيدة في فرنسا. وأسرّ لي بأنّ البلاشفة أناس سوقة وأقظاظ وجهَلة لا يملكون أيّ حساسيّة جماليّة. كان نموذجاً حقيقيّاً عن الإنتلجنسيا الروسيّة. وصلنا إلى الغرفة رقم ١٧، مكتب اللّجنة العسكريّة الثّوريّة، ووقفنا وسط حركة ذهاب وإياب مذهلة. فتح الباب وخرج منه رجلٌ مربوع القامة مسطّح الوجه يرتدي بزّة عسكريّة بدون أشرطة، وبدا باسماً، ولكن سرعان ما تبيّن لنا أنّها لم تكن سوى بسمة الإرهاق الشّديد. إنّه كريلنكو. فأطلق صديقي الوسيم حسنُ الهندام صيحة فرحٍ وتقدّم وهو يمدّ يده ويقول: نيقولاي فاسيلييفيتش. ألم تعرفْني يا رفيق؟ كنّا في السجن معاً».

فقام كريلنكو وركّز ذهنه وبصره ثمّ أجاب وهو ينظر إليه من فوق لتحتٍ بكثيرٍ من الودّ: «أكيد. أنتَ س. مرحباً! (وتعانقا). ماذا تفعل في هذه المعمعة؟» سأل وهو يشير بيده.

«آه! أنا مجرّد متفرّج. يبدو أنّكم أحرزتم نجاحاً باهراً».

«إي». أجاب كريلنكو بحزم، «الثورة البروليتاريّة حقّقت نجاحاً عظيماً» ثمّ قهقه قائلاً: «على كلّ حال، ربّما نلتقي في السجن مرّةً ثانية!».

وعندما خرجنا إلى الممشى عاد صديقي إلى شروحه: «أنا من أتباع كروبوتكين. إنّنا نعتبر أنّ الثّورة قد أخفقت إخفاقاً كاملاً لأنّها لم تتمكّن من إثارة وطنيّة الجماهير. وهذا يبرهن، طبعاً، على أنّ الشعب غير مستعدّ للثّورة».

كانت الساعة تشير إلى التّاسعة إلّا عشرين دقيقة عندما أعلنت موجة راعدة من الهتاف قدوم أعضاء مجلس الرّئاسة ومعهم لينين - لينين العظيم. رجلٌ مربوع القامة، قصيرها، ذو رأسٍ أصلع مدوّرٍ يغوص بين كتفيه، وعينين صغيرتين وأنف دقيق وفم ممتلئ وذقن كبيرة حليقة بدأت تنمو عليها لحيته الشّهيرة. كان يرتدي ثياباً رثّة، وكان سرواله كبيراً عليه. ليس مهيباً ليكون معبود الجماهير، ولكنّه يحظى بحبٍّ واحترام لم يحظَ بمثلهما إلّا القليل من القادة في التّاريخ. إنّه نوعٌ غريبٌ من القادة الشّعبيّين، قائد بفعل قوّة فكرة ليس إلّا. لم يكن بهيّ الطّلعة ولا مرحاً ولا غريب الأطوار، كان منكفئاً على نفسه لا يساوم، ويملك مقدرة هائلة على تفسير أعمق الأفكار بعباراتٍ بسيطة، وتحليل الأوضاع، يجمع الشّجاعة الفكريّة البالغة إلى حدّة الذّكاء.

كان كامنييف يقرأ تقريراً عن أعمال «اللّجنة العسكريّة الثوريّة»: إلغاء عقوبة الإعدام في الجيش، إعادة الحقّ في الدعاية الحرّة، إطلاق سراح الضبّاط والجنود الّذين اعتُقلوا بتهمة ارتكاب جرائم سياسيّة، أوامر بإلقاء القبض على كرنسكي وبمصادرة إمدادات الأغذية من مخازن الغذاء الخاصّة. تصفيق حادّ.

عاد ممثّل «العصبة» ليقول إنّ موقف البلاشفة المتصلّب سوف يؤدّي إلى سحق الثّورة، لذا فإنّ مندوبي «العصبة»

يرفضون البقاء في المؤتمر. صيحات الحضور «خمّنّا أنّكم انسحبتم اللّيلة الماضية! كم مرّة تنسحبون ثمّ تعودون؟».

**اعتلى لينين المنبر ممسكا بأطرافه بينما تجول عيناه بين هذا الجمع وهو واقف ينتظر متغافلا عن عاصفة التصفيق والهتاف المدوية. ولما انتهت. قال ببساطة: «سنبدأ الآن ببناء المجمتع الاشتراكي» فدوى ذلك الرعد البشري من جديـــــــــــــــد.**

وعقبه ممثّل عن المناشفة الأمميّين. صيحات: «ماذا؟ ما زلتم هنا؟»، فأوضح المتكلّم أنّ قسماً فقط من المناشفة الأمميّين قد غادر المؤتمر، أمّا القسم الآخر فقد قرّر البقاء - ثمّ قال، وسط المقاطعات: «إنّنا نعتبر عمليّة انتقال السّلطة إلى يد السوفيات عمليّة خطرة وربّما تكون قاضية، ولكنّنا نشعر بأنّ الواجب يدعونا إلى البقاء هنا والتّصويت ضدّ هذه العمليّة»!

وعقبه متكلّمون آخرون بدون نظامٍ معيّن. دعا أحد مندوبي عمّال الفحم في «حوض الدّون» المؤتمر إلى اتّخاذ إجراءات ضدّ خالدين [أحد جنرالات الثّورة المضادّة] الذي يقطع الفحم والطعام عن العاصمة. وتتالى عدّة جنود، وصلوا لتوّهم من الجبهة، على نقل تحيّات أفواجهم المشجّعة للمؤتمر.

**«سنبدأ الان ببناء المجتمع الاشتراكيّ»**

ثمّ اعتلى لينين المنبر ممسكاً بأطرافه بينما تجول عيناه الصّغيرتان الراعشتان بين هذا الجمع وهو واقفٌ ينتظر متغافلاً عن عاصفة التّصفيق والهتاف المدوّيّة. ولمّا انتهت، قال ببساطة: «سنبدأ الآن ببناء المجتمع الاشتراكيّ» فدوّى ذلك الرّعد البشريّ من جديد.

«إنّ أوّل مهمّة أمامنا هي اتّخاذ إجراءات عمليّة لتحقيق السّلم. سوف نعرض السّلم على شعوب جميع البلدان المتحاربة على أساس شروط السّوفيات، لا دمج، لا تعويض، حقّ الشعوب في تقرير المصير. وفي الوقت ذاته سنفي بوعدنا وننشر المعاهدات السّريّة البغيضة. إنّ مسألة الحرب والسّلم من الوضوح بحيث سأسمح لنفسي بأن أبدأ مباشرةً وبدون مقدّمات بتلاوة مشروع النّداء إلى شعوب جميع البلدان المتحاربة».

فمه الممتلئ الكبير ينفتح واسعاً وهو يتكلّم تعلوه شبه ابتسامة، وصوته غليظ، لا يزعج وإنّما يعبّر عن قساوة من تكلّم خلال سنوات وسنوات، يتدفّق بشيءٍ من الرّتابة موحياً أنّه يستطيع الاستمرار في الكلام على هذا النّحو إلى ما لا نهاية. وكان ينحني قليلاً عندما يريد التأكيد على نقطةٍ ما. إنّه لا يقوم بأيّ إشارات. وأمامه آلاف الوجوه البسيطة تتطلّع إليه بخشوع.

**نداءٌ إلى شعوب وحكومات جميع الأمم المتّحاربة**

«إنّ حكومة العمّال والفلّاحين التي جاءت بها ثورة السّادس والسّابع من تشرين الثّاني/ نوفمبر والمعتمدة على سوفيات مندوبي العمّال والجنود والفلّاحين، تعرض على جميع الشّعوب والحكومات المتحاربة الشّروع فوراً في مفاوضات تهدف إلى تحقيق سلم ديمقراطيّ عادل.

إنّ الحكومة تعني بالسّلم الديمقراطيّ العادل الّذي ترغب به الغالبيّة السّاحقة من العمّال والكادحين التي أنهكتها الحرب وامتصّت قواها، ذلك السّلم الّذي لم يتوقّف العمال والفلاحون الرّوس عن المطالبة به منذ تحطيمهم للملكيّة القيصريّة، السلم الفوريّ بدون ضمّ (أي بدون اجتياح ترابٍ أجنبيّ وبدون الدمج القسريّ للقوميّات الأخرى) وبدون تعويضات.

إنّ حكومة روسيا تقترح على جميع الشّعوب المتحاربة تحقيق مثل هذا السّلم فوراً، بأن تبدي استعدادها لاتّخاذ الخطوات اللازمة للمفاوضات الهادفة إلى الوصول إلى هذا السّلم مباشرةٍ وبدون أدنى تأخير، على أن يعود أمر التّصديق على جميع شروط هذا السّلم إلى الجمعيّات المسؤولة تجاه شعوب هذه البلدان والقوميّات.

إنّ الحكومة، واستناداً إلى مفهوم الحقوق الديمقراطيّة بشكلٍ عامّ وحقوق الطبقة العاملة بشكلٍ خاصّ، تعني بالضمّ وباجتياح التراب الأجنبي كلّ عمليّةٍ يتمّ فيها ضمّ قوميّة صغيرة أو ضعيفة إلى دولة كبيرة وقويّة بدون التعبير الإراديّ والواضح والمحدّد عن موافقتها ورغبتها في ذلك، أيّاً كان موعد حدوث هذا الدّمج القسريّ، ومهما كان المستوى الحضاريّ للأمّة التي أدمجت بالقوّة أو فُصلت عن حدود دولة أخرى، ولا يؤثّر في ذلك إذا كانت هذه الأمّة في أوروبّا أو في البلدان البعيدة ما وراء البحار.

إذا أبقيت إحدى الأمم، بواسطة القوّة، ضمن حدود دولة أخرى، وإذا لم تمنح هذه الأمة حقّ التّقرير بواسطة الاقتراع الحرّ عن الشكل الإداريّ والسياسيّ الوطنيّ الذي تريده بدون أيّ عمليّة قسر، وبعد الجلاء التامّ للقوى المسلّحة التابعة للأمّة التي ضمّتها أو ترغب في ضمّها، أو هي أقوى منها بشكلٍ عامّ، إذا لم تمنح هذا الحقّ رغم رغبتها فيه، ولا يهمّ إذا عبّرت هذه الرّغبة عن نفسها بواسطة الصحافة أو الاجتماعات الشعبيّة أو مقرّرات الأحزاب السياسيّة أو

بواسطة الاضطرابات والأعمال المعادية للاضطهاد الوطنيّ، فإنّ مثل هذا التّوحيد يعتبر عمليّة ضمّ أي إنّه احتلال وعنف.

إنّ الحكومة تعتبر أنّ الاستمرار في هذه الحرب لتمكين الأمم القويّة والغنيّة من أن تتقاسم فيما بينها القوميّات الضّعيفة والمغلوب على أمرها، إنّما يشكّل أفظع جريمة بحقّ الإنسانيّة، وهي تعلن أنّ رغبتها الأكيدة في توقيع معاهدة سلم تضع حدّاً لهذه الحرب وفق الشّروط المبيّنة أعلاه هي رغبة عادلة بالنّسبة إلى جميع القوميّات بدون استثناء.

**نشر المعاهدات السرّيّة**

لقد ألغت الحكومة الديبلوماسيّة السّريّة، وهي تعلن أمام البلد كلّه عن عزمها القيام بجميع المفاوضات أمام الشّعب وفي وضح النّهار، وستعمد فوراً إلى نشر النّصوص الكاملة لجميع المعاهدات السرّيّة التي صادقت عليها أو وقّعت عليها حكومة ملّاك الأرض والرّأسماليّين منذ آذار / مارس حتّى السابع من تشرين الثّاني / نوفمبر **١٩١٧**. والحكومة ترفض رأساً وبدون مناقشة جميع بنود المعاهدات السّريّة الهادئة، في أغلب الأحيان، إلى جلب المزيد من الفوائد والامتيازات للرّأسماليّين الرّوس وإلى المحافظة على ما ضمّه الاستعماريّون الرّوس أو مضاعفته.

إنّ الحكومة، وقد عرضت على جميع الحكومات والشّعوب الدّخول في مفاوضةٍ علنيّة من السّلم، تعلن استعدادها لإجراء هذه المفاوضات بواسطة اللاسلكي أو البريد أو بواسطة محادثات تجري بين ممثّلي البلدان المختلفة أو في ندوة تضمّ هؤلاء الممثّلين. والحكومة قد عيّنت ممثّليها المفوّضين في البلدان الحياديّة للقيام بمثل هذه المهمّة رغبةً منها في تسجيل المحادثات.

تقترح الحكومة على شعوب وحكومات جميع البلدان المتحاربة عقد هدنة فوريّة، كما تقترح أن تكون مدّة هذه الهدنة ثلاثة أشهر يمكن خلالها إجراء المحادثات اللازمة بين ممثّلي جميع الأمم والقوميّات بدون استثناء من الّذين جرّوا إلى الحرب أو الّذين أجبروا على خوضها، وانعقاد مجالس النوّاب المفوّضة من قِبل جميع الشعوب للتّصديق نهائيّاً على شروط السّلم.

إنّ الحكومة المؤقّتة للعمّال والفلّاحين في روسيا إذ تتوجّه بعرض السّلم على حكومات وشعوب جميع البلدان المتحاربة، تتوجّه بدعوتها في الوقت ذاته وبنوعٍ خاصّ إلى العمّال الواعين في الأمم الثّلاث الأكثر إخلاصاً للإنسانيّة الّتي هي في الوقت نفسه المساهمة الكبرى في الحرب الحاليّة - فرنسا وإنكلترا وألمانيا.

لقد قدّم عمّال هذه البلدان خدماتٍ جلّى لقضيّة التّقدّم والاشتراكيّة. إنّ الأمثولات الرّائعة الّتي قدّمتها «الحركة الشّارتريّة» في إنكلترا وسلسلة الثّورات ذات الأهميّة العالميّة والتّاريخيّة التي قامت بها البروليتاريا الفرنسيّة - وأخيراً النّضال التّاريخيّ ضدّ «قوانين المنع» في ألمانيا، هذا النّضال الّذي يشكّل مثالاً رائعاً لعمّال العالم أجمع على العمل الدّؤوب العنيد، أنشأ تنظيمات العمّال الألمان الجبّارة - إنّ جميع هذه النّماذج عن بطولة البروليتاريا، هذه الصّروح التّاريخيّة، لهي ضمانٌ أكيدٌ لنا بأنّ عمّال هذه البلدان سيفهمون واجب تحرير الإنسانيّة من أهوال الحرب وعواقبها الملقى على عاتقهم، وأنّ هؤلاء العمّال سوف يساعدوننا، بالعمل الحاسم والنّشيط والدّؤوب، على إنجاح قضيّة السّلم وعلى إنجاح قضيّة تحرير الجماهير الكادحة المضطهدة من كلّ عبوديّة واستغلال».

ولمّا تلاشت عاصفة التّصفيق المدويّة، استأنف لينين خطابه:

«نطلب من المؤتمر أن يصدّق على هذا النّداء. إنّنا نتوجّه إلى الحكومات مثلما نتوجّه إلى الشّعوب، لأنّ نداءً موجّهاً إلى شعوب البلدان المتحاربة فقط قد يؤخّر في عقد اتّفاقيّة السّلم. وسوف تصادق الجمعيّة التأسيسيّة على شروط السّلم التي توضع خلال الهدنة. ونحن قد حدّدنا مهلة الهدنة بثلاثة أشهر لأنّنا نرغب في إعطاء الشّعوب أطول فترة راحة ممكنة من هذه المجزرة الدّمويّة ووقتاً كافياً لينتخبوا ممثّليهم. إنّ اقتراح السّلم هذا سوف يلقى معارضة الحكومات الاستعماريّة ونحن لا نضلّل أنفسنا في هذا الصّدد، ولكنّنا نأمل أن تندلع الثّورة قريباً في جميع البلدان المتحاربة، ولهذا السّبب بالذّات نتوجّه إلى عمّال فرنسا وإنكلترا وألمانيا بشكلٍ خاصّ...».

ثمّ ختم قائلاً: «إنّ ثورة السّادس والسّابع من تشرين الثاني افتتحت حقبة الثّورة الاجتماعيّة. إنّ الحركة العمّالية سوف تنتصر وتحقّق مصيرها باسم الاشتراكيّة».

كان ثمّة شيءٌ هادئ وقويّ في كلّ هذا، شيءٌ يحرّك أعماق البشر. وكان مفهوماً لماذا يصدّق النّاس عندما يتكلّم لينين.

تقرّر، بواسطة التّصويت الجماعي، السّماح فقط لممثّلي الفئات السياسيّة بالكلام عن الاقتراح، وبأن تحدّد فترة خمس عشرة دقيقة لكلّ متكلّم.

تكلّم كاريلين أوّلاً باسم الاشتراكيّين الثوريّين اليساريّين: «لم يُمنَح حزبنا فرصة تقديم التّعديلات على




❖
اجتماع لعمال معمل بوتيلوف في بتروغراد في تموز من العام ١٩٢٠

نصّ النّداء، إنّه وثيقة خاصّة بالبلاشفة، ولكنّنا سنؤيّده لأنّنا نوافق على مضمونه».

وتكلّم كراماروف عن الاشتراكيّين - الديموقراطيّين الأمميّين، كراماروف الطّويل المنحني شحيح النّظر كان مؤهّلاً للعب دورٍ بارزٍ كمهرّج المعارضة، فقال إنّ حكومة مؤلّفة من جميع الأحزاب الاشتراكيّة هي وحدها الّتي تملك سلطة القيام بمثل هذا الدّور. وإذا تشكّلت حكومة ائتلافيّة اشتراكيّة فإنّ حزبه سيؤيّد البرنامج كلّه، وإلّا فإنّه سيؤيّد قسماً منه فقط. أمّا بالنسبة إلى النّداء نفسه فإنّ الأمميّين سيوافقون كلّيّاً على نقاطه الرئيسيّة.

ثمّ تعاقب المتكلّمون وسط حماسةٍ متزايدة: الحزب الاشتراكيّ - الدّيمقراطيّ الأوكرانيّ، تأييد، الحزب الاشتراكيّ - الديمقراطيّ اللّيتواني، تأييد، الاشتراكيّون الشعبويّون، تأييد، الحزب الاشتراكيّ - الديمقراطيّ البولونيّ، تأييد، الاشتراكيّون البولونيّون، تأييد مع تفضيل تحالف اشتراكيّ، الحزب الاشتراكيّ - الديمقراطيّ اللّتفيانيّ، تأييد. كانت شعلة تضطرم في نفوس هؤلاء الرّجال. تكلّم أحدهم عن «الثّورة العالميّة المقبلة التي نحن طليعتها»، وتكلّم آخر عن «عصر الأخوّة الجديد عندما تصبح الشّعوب كلّها عائلة كبيرة واحدة». ثمّ طلب أحدُ الحضور الكلام، فقال: «يوجد تناقضٌ هنا، تعرضون السّلم بدون ضمّ ولا تعويضات ثمّ تقولون إنّكم مستعدّون للنّظر في جميع عروض السّلم. الاستعداد للنّظر يعني القبول».

وقف لينين: «نريد سلماً عادلاً لكنّنا لا نخاف الحرب الثوريّة. ربّما لن تستجيب الحكومات الاستعماريّة لندائنا، ولكنّنا لن نوجّه إنذاراً يسهل رفضه. وإذا اتّضح للطّبقة العاملة الألمانيّة أنّنا مستعدّون للنّظر في أيّ عروضٍ للسلم، فربّما يكون ذلك القشّة التي تقصم ظهر البعير فتندلع الثّورة في ألمانيا. وإنّنا نوافق على دراسة جميع الشّروط التي تقدّم لنا حول السّلم ولكن هذا لا يعني أنّنا سنقبلها. سوف ندافع عن بعض الشّروط حتّى النهاية ولكنّنا قد نجد أنّه من المستحيل الاستمرار في الحروب دفاعاً عن البعض الآخر. إنّنا نريد إنهاء الحرب قبل أيّ شيءٍ آخر».

كانت السّاعة تمام العاشرة وخمسٍ وثلاثين دقيقة عندما طلب كامنييف من جميع الموافقين على النّداء أن يرفعوا بطاقاتهم، فتجاسر أحد المندوبين على رفع يده ضدّ الاقتراح ولكنّه أنزلها بسرعة عندما تعالت أصواتٌ حادّة حوله. فاز الاقتراح بالإجماع.

وفجأةً وجدنا أنفسنا واقفين يحرّكنا دافعٌ مشترك، نُهَمْهِمُ معاً «نشيد الأمميّة» بصوتٍ هادئ يرتفع تدريجيّاً. جنديّ عجوز أشيب ينتحب كطفل. وألكسندرا كولانتاي تلتقط دموعها، الصّوت الهادر يجتاح القاعة وينفجر خارجاً من النّوافذ والأبواب منطلقاً في السّماء الهادئة. «انتهت الحرب!»، صاح عاملٌ شابٌّ مشرقُ الوجه يجلس قربي. وعندما انتهينا وكنّا شاخصين بصمتٍ أخرق صاح أحدهم من آخر الغرفة: «رفاق! فلنتذكّر الّذين ماتوا من أجل الحرّيّة!» فبدأنا نرنّم «نشيد الموتى»، ذلك النّشيد الهادئ والكئيب والظّافر، شديد التّأثير ووثيق الارتباط بروسيا. ومهما يكن من أمر فـ«النّشيد الأمميّ» نشيدٌ أجنبيّ. أمّا «نشيد الموتى» فبدا كأنّه نابعٌ من روح الجماهير السّوداء التي يجلس مندوبوها في هذه القاعة يبنون روسيا جديدة من رؤاهم الغامضة، وربما يبنون أكثر من ذلك.

**«لقد سقطتم في الصّراع المميت**
**من أجل حرّيّة الشّعب، من أجل شرف الشّعب**
**ضحّيتم بحياتكم وبكلّ غالٍ ونفيس،**
**تعذّبتم في غياهب السّجون،**
**ونُفيتم مكبّلين بالسّلاسل**
**وبدون كلمة، حملتم سلاسلكم**
**لأنّكم لم تتجاهلوا إخوانكم المعذّبين،**
**لأنّكم آمنتم بأنّ العدالة أقوى من السيف.**
**سيأتي يومٌ يقدَّر فيه استشهادكم**
**وهذا اليوم قريب: عندما يسقط الطّغيان**
**سينتصب الشّعب عظيماً وحرّاً!**
**وداعاً، يا إخوان، لقد اخترتم الطّريق النّبيل،**
**يلحق بكم جيشٌ مستعدٌّ للموت والتّضحية**
**وداعاً، يا إخوان، لقد اخترتم الطّريق النبيل**
**إنّنا نُقسم على قبوركم بأن نناضل،**
**بأن نعمل من أجل حرّيّة الشّعب وسعادته»**

لهذا استشهد أبطال آذار الّذين أودعوا في «مقبرة التّآخي» الباردة في «حقل مارس»، لهذا مات الآلاف وعشرات الآلاف في السّجون، في المنفى، في مناجم سيبيريا. لم تحدث الثّورة كما توقّعوا، ولا كما رغب المثقّفون. ولكنّها حدثت عنيفة، قويّة، حقيقيّة لا تحتمل الصّيغ، وترفض النّزعات العاطفيّة.

**ثمّ تلا لينين «مرسوم الأرض»:**

- تلغى ملكيّة الأرض الفرديّة فوراً وبدون تعويض.

◆ تنقل أراضي الملّاك وجميع أراضي الأسرة المالكة والأديرة وأراضي الكنيسة وكلّ ما عليها من مواشٍ وبنايات وملحقات إلى لجان الأرض البلديّة، وإلى سوفيات مندوبي الفلّاحين المناطقيّة، وتوضع تحت تصرّفها إلى حين انعقاد الجمعيّة التّأسيسيّة.

◆ إنّ أيّ ضررٍ يصيب الملكيّة المصادَرة، وقد أصبحت الآن ملكيّة الشّعب بأسره، يعتبر جريمة خطيرة يعاقَب مرتكبوها أمام المحاكم الثوريّة. إنّ سوفيات مندوبي الفلّاحين المناطقيّة مطالبة بأن تتّخذ كلّ الإجراءات اللازمة للمحافظة على النّظام خلال مصادرة أراضي الملّاك، لمسح الأرض ولتعيين الأجزاء التي تطاولها المصادرة، ولجرد محتويات الملكيّة المصادرة ولتأمين الحماية الثّوريّة الكاملة لانتقال ما تحتوي عليه قطعات الأرض من أدواتٍ زراعيّة وبنايات وملحقات وماشية ومحصول، إلى آخره، إلى أيدي الشّعب.

◆ خلال تحقيق الإصلاحات الزّراعيّة الكبرى، وإلى حين تصديق الجمعيّة التّأسيسيّة الكبرى على هذه الإصلاحات، يُعمل بالتّعليمات الفلّاحيّة الآتية (نا كاز) الّتي استخلصها مجلس تحرير صحيفة «إزفستيا» لسان حال سوفيات مندوبي الفلّاحين لعموم روسيا، من مئتين واثنتين وأربعين مجموعة من التّعليمات الفلّاحيّة المحليّة، ونشرت في العدد ٨٨ من الصّحيفة المذكورة (بتروغراد، العدد ٨٨، ١٩ آب، ١٩١٧).

◆ لن تصادر أراضي الفلّاحين والقوزاق الّذين يخدمون في الجيش.

ثمّ أوضح لينين المرسوم قائلاً: «هذا ليس مشروع الوزير السّابق تشيرنوف الّذي تكلّم عن «تشييد هيكل للإصلاح» وحاول تحقيق الإصلاحات من فوق. إنّ قضايا تقسيم الأرض سوف تحدّد من تحت، وفي الأمكنة المعنيّة بالأمر. وقد تختلف مساحة الأرض الممنوحة لكلّ فلّاح حسب المنطقة الموجود فيها.

لقد رفض ملّاك الأرض الانصياع لأوامر لجان الأرض في ظلّ الحكومة المؤقّتة، هذه اللّجان نفسها الّتي اقترحها لفوف، وأنشأها شينغاريوف وتولّى كرنسكي إدارتها».

وقبل بدء النّقاش، كان رجلٌ يشقّ طريقه بعنفٍ وسط جمع احتشد في الممشى واعتلى المنبر. إنّه بيانيخ، عضو اللّجنة التّنفيذيّة لسوفيات الفلّاحين، وكان في ذروة الغضب:

«إنّ اللّجنة التّنفيذيّة لسوفيات مندوبي الفلّاحين في عموم روسيا يحتجّون على اعتقال الرّفيقين الوزيرين سالازكين ومازلوف»! ثمّ صاح بقسوة في وجه الحضور: «إنّنا نطالب بإطلاق سراحهما فوراً! إنّهما الآن في حصن بطرس - بولس. نريد عملاً سريعاً. ليس لدينا وقتٌ نضيّعه!». وتلاه جنديٌّ ذو لحيةٍ شعثاء وعينين لاهبتين: «إنّكم تجلسون هنا وتتكلّمون عن توزيع الأرض على الفلّاحين، بينما تتصرّفون كالطّغاة والغاصبين تجاه ممثّلي الفلاحين! إنّي أقول لكم - (هدّد بقبضته) إذا مسستم شعرةً من رؤوسهم فسوف نقيم ثورةً ضدّكم!» فهاج الجميع بارتباك.

**تروتسكي على المنبر**

ثمّ اعتلى تروتسكي المنبر، هادئاً، مسموماً، واعياً للسّلطة التي بين يديه، فاستُقبل بالهتاف: «أمس، قرّرت اللّجنة العسكريّة الثوريّة مبدئيّاً أن تطلق سراح الوزراء المناشفة والاشتراكيّين الثوريّين مازلوف، سالازكين، غفوزدف، ماليانتوفيتش. وإذا كانوا لا يزالون في سجن بطرس - بولس فلأنّنا كنّا مشغولين جدّاً. إلّا أنّهم سوف يوضعون في منازلهم تحت الإقامة الجبريّة حتّى نحقّق في تواطئهم مع أعمال كرنسكي الخائنة خلال مؤامرة كورنيلوف!».

صاح بيانيخ: «لم تحدث مثل هذه الأعمال في أيّ ثورة من الثّورات!».

أجاب تروتسكي: «أنت مخطئ. لقد حدثت مثل هذه الأعمال حتّى في ثورتنا. لقد اعتقل المئات من رفاقنا في أيّام تمّوز / يوليو، ولمّا أطلق سراح الرّفيقة كولانتاي من السّجن بأمر الطّبيب، وضع أفاكسانتييف أمام بابها عميلين من عملاء شرطة القيصر السّريّة!». فانسحب الفلّاحون مَهمْهمين يلاحقهم عياطٌ (صياح وصراخ) ساخر.

وتكلّم ممثّل الاشتراكيّين الثوريّين اليساريّين عن «مرسوم الأرض»، فقال إنّ حزبه لن يصوّت على المسألة إلّا بعد النّقاش بالرّغم من موافقته عليه، مؤكّداً ضرورة استشارة سوفيات الفلّاحين. وحذا المناشفة الأمميّون حذوه مؤكّدين ضرورة عقد اجتماع لمندوبي حزبهم قبل التّصويت.

ثمّ تكلّم قائد «المتطرّفين»، الجناح الفوضويّ من الحركة الفلّاحيّة: «يجب علينا أن نمجّد الحزب السّياسي الّذي يوضع موضع التّنفيذ مثل هذا المرسوم منذ اليوم الأوّل، بدون ثرثرة حوله!»

واعتلى أحد الفلّاحين المنبر - بشعر طويل ومعطف من الوبر - وأخذ ينحني أمام زوايا القاعة الأربع: «السّلام عليكم يا رفاق ويا أيّها المواطنون! بعض أعضاء حزب الكاديت يتجوّلون في الخارج. لقد اعتقلتم الفلّاحين الاشتراكيّين، فلماذا لا تعتقلون هؤلاء كذلك؟».

وبدأ على الأثر نقاشٌ بين الفلّاحين الهائجين كان شبيهاً بنقاش الجنود في اللّيلة الماضية، هؤلاء هم عمّال الأرض الحقيقيّون.




❖
لينين والرفاق في تظاهرة الأول من أيار ١٩١٩ في الساحة الحمراء


ВЕНГРИЯ

# أول أيام السلطة

**ليون تروتسكي**

**من قادة ثورة أكتوبر الروسية قبل أن يتم نفيه إلى خارج البلاد في العام ١٩٢٩ بعد خلافه مع ستالين. اغتيل في المسكيك في العام ١٩٤٠.**

كانت الحكومة مجتمعة في «قصر الشتاء»، لكنّها تحوّلت إلى مجرّد ظلّ. لقد قضي عليها سياسيّاً. خلال نهار الخامس والعشرين من الشهر كانت قوّاتنا تحاصر «قصر الشتاء» من كلّ الجهات. في الواحدة بعد الظهر، قدّمتُ تقريري إلى سوفيات بتروغراد. وهذا ما نقلتْه الصحافة:

«باسم اللجنة الثوريّة العسكريّة أعلن أنّ الحكومة المؤقّتة لم يعد لها وجود (تصفيق). تمّ اعتقال عدد من الوزراء (برافو). وسوف يعتقل الباقون خلال بضعة أيّام أو بضع ساعات (تصفيق). الحامية الثوريّة الموضوعة بتصرّف «اللجنة العسكريّة الثوريّة» قد فرّقت اجتماع «البرلمان التحضيري» (تصفيق حادّ). كنّا يقظين هنا طوال الليل نتابع مفارز «الجنود الثوريّين» و«الحرس العمّالي» بالهاتف وهم ينفّذون مهمّاتهم بصمت. نام المواطنون ملء جفونهم جاهلين أنّ انتقالاً يحصل بين سلطة وأخرى. محطّات سكّة الحديد، مركز البريد، مركز التلغراف، وكالة بتروغراد للتّلغراف، المصرف الحكوميّ، قد احتُلّت جميعها. (تصفيق حادّ). لم يُحتلّ «قصر الشتاء» بعد لكنّ مصيره سيتقرّر خلال الدقائق القليلة القادمة (تصفيق)».

### «إلى مزبلة التاريخ!»

إنّ هذا التقرير المجرّد قد يعطي انطباعاً خاطئاً عن مزاج المجتمعين. توفّر ذاكرتي التفاصيل الآتية. عندما قدّمت التقرير عن انتقال السلطة الذي تمّ خلال الليل، ساد صمت متوتّر لثوانٍ، ثمّ بدأ التصفيق، لم يكن عاصفا جدّاً، بل كان تصفيقاً ملؤه التفكّر. كان الاجتماع يتحسّس الأمر بكثافة وينتظر. عندما جهّزت الطبقة العاملة نفسها للمعركة، تملّكتها حماسة تفوق الوصف، ولكن عندما تجاوزتْ عتبة السلطة، حلّ تأمّل قلق مكان الحماسة الطائشة. هنا تجلّى حسٌّ تاريخيّ حقيقيّ. لعلّ ما سيواجهنا هو مقاومة عاتية من قوى العالم القديم، سيكون صراع ومجاعة وبرد ودمار ودم وموت. «هل سوف نستطيع التغلّب على كلّ هذا؟» تساءل كثيرون. «سوف ننتصر!» كان جوابهم جميعاً. كانت مخاطر جديدة تلوح في البعيد، لكن نشعر الآن بانتصار عظيم، وكان الانتصار يغنّي في دمائنا. وجد ذلك الشعور التعبير عنه في زوبعة الترحيب العاصف التي استقبلت لينين عندما ظهر في الاجتماع بعد غياب أربعة أشهر.

لاحقاً في تلك الليلة، فيما نحن ننتظر افتتاح مؤتمر مجالس السوفيات، كنت أرتاح أنا ولينين في غرفة مجاورة لقاعة الاجتماع، هي غرفة خاوية إلّا من الكراسي وقد بسط لنا أحدهم أغطية على الأرض، فيما آخر، وأظّنه شقيقة لينين، جاءنا بمخدّات. كنّا راقدين الواحد قرب الآخر، يرتاح منّا الجسد والرّوح ترتاح مثل أوتار محكمة الشدّ. هي استراحة مستحقّة. ولكن لم تغمض لنا عين، تجاذبنا أطراف حديث خافت. الآن فقط تصالح لينين مع تأجيل الانتفاضة. تبدّدتْ مخاوفه. ثمّة إخلاص نادر في صوته. كان مهتمّاً أن يعرف كلّ شيء عن الحواجز المشتركة للحرس الأحمر والبحارة والجنود المنتشرين في كلّ مكان. «أيّ منظر رائع: عاملٌ ومعه بندقيّة جنباً إلى جنب مع جنديّ واقفان في الشارع أمام موقد نار!» كان يردّد بشعور عميق. أخيراً التقى الجندي والعامل.

بدأ فجأة «وماذا عن قصر الشتاء؟ ألم يتمّ احتلاله بعد؟ أليس من خطر في ذلك؟». وقفت لكي أستفسر على الهاتف عن مجرى العمليّة لكنّه حاول منعي. «ارقد بلا حراك. سأرسل أحدهم لاستطلاع الأمر». لكنّنا لم نرقد لفترة طويلة. كانت جلسة مؤتمر مجالس السوفيات قد افتتحت في القاعة المجاورة. هرعتْ إلينا أوليانوفا شقيقة لينين لاستدعائي.

* من كتابه «حياتي» الترجمة الإنكليزية، ١٩٦٠، ص٣٢٦ - ٣٤١

«دان يتحدث.[1] إنّهم يطلبونك».

صوت متهدّج كان دان يهاجم المتآمرين ويتنبّأ بالانهيار المحتوم للانتفاضة. طالبَنا بأن نعقد تحالفاً مع الاشتراكيّين الثوريّين والمنشفيك، الحزبين اللذين كانا لا يزالان في السلطة حتى يوم أمس، واللذين طاردانا وأودعانا السجون، ها هما، وقد أطحناهما، يريدوننا الآن أن نتفاهم معهما.

أجبتُ على دان وبواسطته على ثورة الأمس: «ما حصل اليوم انتفاضة وليس مؤامرة. هي انتفاضة جماهير شعبيّة لا تحتاج إلى تبرير. لقد كنّا نشدّ من العزيمة الثوريّة للعمّال والجنود. كنّا نعمل على الملأ لصهر إرادة الجماهير من أجل الانتفاضة. ولقد فازت انتفاضتنا. والآن تطالبوننا بأن نتخلّى عن انتصارنا، وأن نعقد الاتّفاقات. ومع من؟ أنتم أفراد مفكّكون بائسون، أنتم مفلِسون، لقد انتهى دوركم. اذهبوا إلى حيث يجدر بكم أن تكونوا فيه من الآن فصاعداً - إلى مزبلة التاريخ!».

**لقد فازت انتفاضتنا. والآن تطالبوننا بأن نتخلى عن انتصارنا. وأن نعقد الاتفاقات. ومع من؟ أنتم أفراد مفككون بائسون. أنتم مفلسون. لقد انتهى دوركم. اذهبوا إلى حيث يجدر بكم أن تكونوا فيه من الآن فصاعدا - إلى مزبلة التاريخ!**

هذا كان الجواب الأخير في حوار مديد بدأ يوم الثالث من نيسان / أبريل، اليوم والساعة التي وصل فيهما لينين إلى بتروغراد.

(...)

### دوّار السلطة

لقد تمّ الاستيلاء على السلطة في بتروغراد على الأقلّ. لم يكن للينين الوقت ليغيّر ياقته بعد، لكنّ عينيه يقظتان على وسعهما، مع أنّ معالم الإعياء ترتسم على وجهه. نظر إليّ بهدوء بذلك الخفر الأخرق الذي يشير إلى الحميميّة عنده. «تعرف؟» قال بتردّد، «مِن الاضطهاد والعيش في الخفاء، أن نأتي إلى السلطة بفجائيّة كبرى...» توقّف ليجد الكلمة المناسبة «es schwindelt» (الدوّار)، ختم قائلاً، وقد انتقل فجأة إلى الألمانية وهو يرسم حركة دائريّة فوق رأسه. تطلّع واحدنا للآخر وتضاحكنا قليلاً. استغرق ذلك دقيقة أو دقيقتين فقط، ثمّ مجرّد «لننتقل إلى المهمّة التالية».

يجب تشكيل الحكومة. وجدنا بيننا عدداً من أعضاء اللجنة المركزيّة، فعقدنا جلسة سريعة في إحدى زوايا الغرفة.

«ماذا سنسمّيهم؟» سأل لينين وهو يفكّر بصوت مرتفع «أيّ شيء إلّا وزراء - هذا اسم مبتذل جدّاً وحقير جدّاً».

«فلنسمّهم «مفوّضون»» كان اقتراحي، «ولكن يتكاثر جدّاً عدد المفوضين الآن. ربّما «مفوّضون سامون»؟ لا «سامون» لا تبدو مفردة مناسبة هي أيضاً. ماذا إذا سمّيناهم «مفوّضو الشعب»؟».

«مفوّضو الشعب؟ حسناً، إنّه اسم ملائم برأيي»، قال لينين موافقاً، «والحكومة برمّتها؟».

«نسمّيها «مجلس» [سوفيات] طبعاً، «مجلس مفوضي الشعب»، ما رأيكم؟»

«مجلس مفوّضي الشعب؟»، التقط لينين التسمية، «هذا رائع، أشتمّ فيها رائحةَ الثورة!».

لم يكن لينين ميّالاً إلى جماليّات الثورة، ولا هو يستمتع بـ«طابعها الرومنطيقي». لكنّه كان يتحسّس الثورة في عمق أعماقه وبذاك القدر لم يكن ليخطئ في التعرّف إلى «رائحتها».

في تلك الأيّام الأولى، سألني فلاديمير إلييتش فجأة ذات مرّة، «ماذا لو أنّ الحرس الأبيض قتلوني وقتلوك؟ هل سيكون بمقدور سفردلوف ويوخارين أن يتدبّرا الأمر؟»

«لعلّهم لن يقتلونا»، قلت متضاحكاً.

(...)

في اليوم التالي، خلال اجتماع اللجنة المركزيّة للحزب، اقترح لينين انتخابي رئيساً لـ«مجلس مفوّضي الشعب». انتصبت معترضاً - بدا الاقتراح لي غير متوقّع وغير ملائم. «لماذا لا؟» أصرّ لينين. «كنتَ رئيساً لسوفيات بتروغراد الذي استولى على السلطة»، اقترحتُ رفض الاقتراح دون نقاش. وفاز الاقتراح.

في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر، خلال النقاشات الحامية في اجتماع لجنة بتروغراد في الحزب، أعلن لينين «ليس من بلشفيّ أفضل من تروتسكيّ». عنت الكلمات الكثير الكثير بالنسبة لي وهي الصادرة عنه. ولا عجب أنّ مَحاضر الجلسة التي دُوّنت فيها تلك الكلمات لا تزال محجوبة عن الجمهور.

### أيّ منصب لتروتسكي؟

أثار الاستيلاء على السلطة مسألة مشاركتي في العمل الحكومي. الغريب في الأمر، أنّي لم أعر الأمر أيّ تفكير، فيما تجربة العام ١٩٠٥، لم تكن مناسبة ربطت فيها

١ فيودور دان (١٨٧١ - ١٩٤٧) أحد أبرز قادة المنشفيك.



مسألة مستقبلي بمسألة السلطة. منذ شبابي، والأدقّ منذ طفولتي، كنت أحلم بأن أكون كاتباً. بعد ذلك، أخضعتُ عملي الكتابيّ، مثله مثل كلّ شيء آخر، للثورة. كانت تتراءى لي مسألة استيلاء الحزب على السلطة. ولمرّات غير معدودة، كتبت وتحدّثت عن الحكومة الثوريّة، على أنّ مسألة عملي الشخصيّ فيها بعد الاستيلاء على السلطة لم يطرأ لي على بال. لذا واجهتْني المسألة على حين غفلة.

بُعيد الاستيلاء على السلطة، حاولت الابتعاد عن الحكومة، وعرضت أن أتولّى الإشراف على الصحافة. يجوز أنّ ردّ الفعل العصبيّ عقب الانتصار كان له يد في ذلك، فالأشهر التي سبقت كانت وثيقة الارتباط بالعمل التحضيري للثورة. وكل عصبٌ من أعصاب كياني كان مشدوداً إلى أقسى طاقته. كتب لوناتشارسكي في مكان ما أنّ تروتسكي كان يسير وكأنّه بطاريّة كهربائيّة وأيّ اتّصال به تلسعك شحنة كهربائيّة. حمل يوم ٢٥ تشرين الأوّل / أكتوبر الانفراج فشعرت وكأنّي جرّاح ينجز جراحة صعبة وخطيرة - وما عليّ إلّا أن أغسل يديّ وأن أخلع المئزر وأرتاح.

كان لينين في وضعٍ مختلف. لقد وصل للتوّ من مخبئه، بعدما أمضى ثلاثة أشهر ونصف الشهر معزولاً عن القيادة العمليّة المباشرة. تصادف الأمران ولكنّ ذلك زاد من رغبتي في أن أغادر المسرح لبعض الوقت. على أنّ لينين لم يكن يريد حتى سماع ذلك. أصرّ على أن أتولّى مفوضيّة الداخليّة، قائلاً إنّ المهمّة الأهمّ في اللحظة الحالية هي قتال الثورة المضادّة. اعترضتُ، وأثرت، بين اعتبارات أخرى، المسألة القوميّة. هل يجدر أن نضع بين أيدي أعدائنا سلاحاً جديداً هو أصلي اليهودي؟

كاد لينين يفقد أعصابه. «إنّنا نصنع ثورة أمميّة عظيمة. ما أهميّة تلك الترّهات؟».

بدأ شجار ودّيّ. أجبته «لا شكّ في أنّ الثورة عظيمة، ولكن لا يزال يوجد عدد لا بأس به من المجانين».

«ولكن لسنا مضطرّين بالتأكيد أن نماشي المجانين؟».

«لعلنا لسنا في حاجة إلى ذلك، ولكن يجب على المرء أن يحسب أحياناً حساب الحماقة، فلماذا نزيد التعقيدات منذ البداية؟».

**[يجرى التصويت فيجد لينين نفسه في الأقلّيّة. أخيراً يقترح سفردلوف أن يوضع تروتسكي في مواجهة أوروبا ليتولّى مهمّة الشؤون الخارجيّة. فيوافق لينين بعد تردّد وكذلك يفعل تروتسكي.]**


THE MILITANT
of the OPPOSITION
roller

# الثورة ضد كتاب «رأس المال»

**أنطونيو غرامشي**

**مفكر وفيلسوف إيطالي. من مؤسسي الحزب الشيوعي الإيطالي في العام ١٩٢١. سجن في العام ١٩٢٤ وبقي في السجن لمدة عشر سنوات. توفي تحت التعذيب في العام ١٩٣٧. من أعماله «دفاتر السجن» .**

* نُشرت في «آڤانتي» في ٢٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩١٧

الثورة البلشفيّة هي الآن جزء حاسم من الثورة الشاملة للشعب الروسي. لشهرين مضيَا كان الجذريّون هم العناصر النشطة المطلوبة لتأمين عدم ركود الأحداث، وعدم توقّف الاندفاعة نحو المستقبل في حال إتمام تسوية نهائيّة - هي التسوية البرجوازيّة. والآن تسلّمَ هؤلاء الجذريّون الحكم وأنشأوا دكتاتوريّتهم، وهم يؤسّسون إطاراً اشتراكيّاً في إمكان الثورة أن تستقرّ فيه إذا كان لها أن تنمو على نحو منسجم، دون مجابهات رأسيّة، وأن تؤسّس على المكتسبات الضخمة التي سبق أن تحقّقت.

**البلاشفة يرفضون كارل ماركس**

تتكوّن الثورة البلشفيّة من أيديولوجيّات أكثر منها أحداثاً، (وبالتالي، ففي نهاية المطاف، لسنا نحتاج حقّاً إلى أن نعرف أكثر ممّا نعرف أصلاً). إنّها الثورة ضدّ كتاب «رأس المال» لكارل ماركس. في روسيا، كان «رأس مال» هو كتاب البرجوازيّة أكثر منه كتاب البروليتاريا. إنّه يمثّل البيان النقديّ عن الكيفيّة التي بها يتعيّن أن تتبع الأحداث مساراً محدّداً سلفاً: أي كيف يتعيّن على البرجوازيّة أن تتطوّر في روسيا، وكيف يجب أن تُفتتح حقبةُ رأسماليّة تترافق مع تأسيس نمطٍ غربيّ من الحضارة، قبل أن يساور البروليتاريا حتى التفكيرُ في شروط انتفاضتها الخاصّة، وفي مطالبها الذاتيّة، وثورتها المميّزة. لقد فجّرت الأحداث الترسيميّة النقديّة التي تحدّد مسار تاريخ روسيا وفق قواعد المادّيّة التاريخيّة. يرفض البلاشفةُ كارل ماركس، وتشهد ممارساتهم ومنجزاتهم السافرة على أنّ قواعد المادّيّة التاريخيّة ليست بذات القدْر من الجمود كما التصوّر السابق والحالي عنها.

ومع ذلك ثمّة حتميّة في تلك الأحداث، وإذا كان البلاشفة يرفضون بعض مقولات «رأس المال» فإنّهم لا ينكرون ما ينطوي عليه من فكر مزخّم. ليس هؤلاء البشر بـ«ماركسيّين». هذا كلّ ما في الأمر. لم يستخدموا أفكار «المعلّم» لتأسيس عقيدة من المقولات الدوغمائيّة التي لا يرقى إليها تساؤل. لقد عاشوا الفكر الماركسيّ - هذا الفكر الخالد، والذي يمثّل استمرار النّزعات المثاليّة الألمانيّة والإيطاليّة، والذي تلوّث في حالة ماركس بعلائق وضعيّة وطبيعويّة. يرى هذا الفكر الذي عاشوه أنّ العامل الحاسم في التاريخ ليس هو الوقائع الاقتصاديّة الخام، إنّما هو الإنسان، هم البشر داخل مجتمعاتهم، البشر في العلاقات المتبادلة بينهم، يتوافقون فيما بينهم، ويطوّرون إرادة اجتماعيّة مشتركة من خلال التواصل (الحضارات)؛ ويتوصّلون إلى إدراك الوقائع الاقتصاديّة والحكم عليها وتكييفها حسب إرادتهم إلى أن تتحوّل تلك الإرادة إلى القوّة الدافعة للاقتصاد، قوّة تصوغ الواقع الموضوعيّ، الذي يعيش ويتحرّك ليصير يشبه تياراً من الحمم البركانيّة المتدفّقة يمكن توجيهها بحسب الوقت والاتّجاه الذي تقرّره إرادة البشر.

لقد توقّع ماركس ما هو قابل للتوقّع. لكنّه لم يكن بمقدوره أن يتوقّع الحرب الأوروبيّة، والأحرى أنّه لم يكن بمقدوره أن يتوقّع بأنّ الحرب سوف تطول إلى هذا الحدّ أو أنّها سوف تترك الآثار التي تركتها فيها. لم يكن بمقدوره أن يتوقّع أنّه في غضون ثلاث سنوات من العذاب والبؤس العصية على الوصف، سوف تحفّز تلك الحرب الإرادةَ الشعبيّة الجمعيّة في روسيا كما حفزتها. في الأحوال العاديّة، يتطلّب الامر مساراً طويلاً من البثّ التدريجيّ في المجتمع لكي تتكوّن تلك الإرادة، ومروحة واسعة من التجارب الطبقيّة.

البشر كسولون، يحتاجون إلى التنظيم، التنظيم الخارجيّ أوّلاً، في نقابات وروابط ومن ثمّ التنظيم الداخليّ

في فكرهم وإرادتهم... إنّهم يحتاجون إلى مواظبة دؤوبة وحوافز خارجيّة متعدّدة. لهذا السبب، في الأحوال العاديّة، تستطيع قواعد المادّيّة التاريخيّة الماركسيّة القبض على الواقع، تقبض عليه وتوضحه. في الأحوال العديدة، تصنع طبقتا المجتمع الصناعيّ التاريخ من خلال صراع طبقيٍّ متزايد الحدّة. فالبروليتاريا شديدة الوعي لفقرها، ولقلقها الدائم، فتضغط على البرجوازيّة لتحسين مستوى معيشتها. إنّها تخوض الصراع وهي تجبر البرجوازيّة على تحسين تقنيّات الإنتاج وتكييفها أكثر فأكثر لتلبية حاجات البروليتاريا الملحّة. والنتيجة مسارٌ رأسي للتحسين، ونحو تسريع وتائر الإنتاج والمزيد من الاستمراريّة في إنتاج السلع لصالح المجتمع. في هذه الاندفاعة يتساقط العديدون على جانبي الطريق، ما يجعل حاجات المستمرّين أكثر إلحاحاً، فإذا الجماهير في حالة تململ لا متناهية وهي تكوّن من خلال هذه الفوضى تنظيماً معيّناً لأفكارها فتزداد وعياً لطاقاتها الذاتيّة، وقدراتها الخاصّة على تحمّل المسؤوليّة الاجتماعيّة، وتصير سيّدة مصيرها.

هذا ما يحصل في الأحوال العاديّة. عندما تتكرّر الأحداث بوتيرة منتظمة إلى حدٍّ ما، عندما يسير التاريخ يسير في حقبات متشابهة، مع أنّها متزايدة التعقيد والثراء من حيث المعنى والقيمة. لكنْ في روسيا، صهرت الحرب إرادة البشر. نتيجة العذابات المتراكمة عبر ثلاث سنوات، تكوّنت لهم إرادة واحدة كأنّما بين ليلة وضحاها. المجاعة داهمة والجوع، والموت من الجوع يمكن أن يقضي على أيّ أحد، قد يسحق عشرات الملايين من البشر ضربةً واحدة. على نحو آليّ في البدء، ثمّ على نحو حيويّ وواع بعد قيام الثورة الأولى، توحّدت الإرادة الشعبيّة.

**الوعي يختزل المراحل**

وضعت الدعاية الاشتراكيّة الشعبَ الروسي على صلة بتجارب البروليتاريا في سائر البلدان. فبمقدور الدعاية الاشتراكيّة أن تحيي تاريخ البروليتاريا على نحو دراميّ في لحظة: نضالاتها ضدّ الرأسماليّة، السلسلة الطويلة من الجهود المطلوبة لتحريرها كليّاً من قيود العبوديّة، وقد زادتها بشاعة، ولتمكينها من تكوين وعيٍ جديدٍ ولأن تشهد الآن على عالم سيأتي. هي الدعايةُ الاشتراكيّة التي كوّنت إرادة الشعب الروسي. فلماذا ينتظرون لكي يتكرّر تاريخ إنكلترا في روسيا، وللبرجوازيّة أن تنهض، وللصراع الطبقيّ أن يبدأ، وللوعي الطبقيّ أن يتكوّن وللكارثة النهائيّة للرأسماليّة أن تصيبهم، في نهاية الأمر؟ إنّ الشعب الروسيّ - أو على الأقلّ أقليّة من الشعب الروسي - قد سبق لها أن مرّت بتلك التجارب في الفكر، وتجاوزتها. وإنّها ستستخدمها الآن لتفرض نفسها تماماً مثلما ستستخدم التجربةَ الرأسماليّة الغربيّة لكي ترقى بسرعة إلى مستوى الإنتاج الذي بلغه العالم الغربي. بعبارات رأسماليّة، أميركا الشماليّة أكثر تطوّراً من إنكلترا، الآن الأنغلو - ساكسون في أميركا الشماليّة انطلقوا من المستوى الذي بلغته إنكلترا بعد مسار تطوّر طويل. والآن، البروليتاريا الروسيّة، المتعلّمة في مدرسة الاشتراكيّة، ستبدأ تاريخها انطلاقاً من أرقى مستوى بلغتْه إنكلترا في أيّامنا هذه. ولأنّها مضطرّة أن تبدأ من الصفر، فالبروليتاريا ستبدأ من حيث توصّل الآخرون إلى الكمال، فتندفع بالتالي لتحقيق ذلك المستوى من النضج الاقتصاديّ الذي اعتبره ماركس شرطاً ضروريّاً للتشريك.

إنّ الثوريّين سيخلقون بأنفسهم الشروط المطلوبة لتحقيق كامل هدفهم. وإنّهم سيخلقون ذلك بأسرع ممّا حقّقته الرأسماليّة. والانتقادات الموجّهة إلى نواقص النظام الرأسماليّ وإلى هدره الثروات، يمكن توجيهها اليوم على يد الثوريّين من أجل تحسين أدائهم، وتحاشي الهدر وعدم الوقوع ضحيّة العذاب. ولنفترض أنّ نظاماً برجوازيّاً قد قام [في روسيا] لكان عليه أن يرث ظروف الفقر والعذاب ذاتها. إنّ الرأسماليّة غير قادرة على أن تحقّق في روسيا فوراً ما لا يقدر التشريك على تحقيقه. والحقيقة أنّها ستحقق أقّل من ذلك لأنّها ستواجهها فوراً بروليتاريا متذمّرة ومشاغبة، بروليتاريا لم تعدْ قادرة على احتمال أن يسومها الآخرون العذاب والحرمان اللذين يحملهما التفكّك الاقتصاديّ. لذلك، في الظروف البشريّة المطلقة، قيام الاشتراكيّة في روسيا له ما يبرّره. والمصاعب التي تنتظر الروس بعد إحلال السلام، سوف تكون محتملة إذا شعر البروليتاريّون بأنّهم مسيطرون على أقدارهم ويدركون أنّهم بجهودهم يستطيعون التخفيف من تلك المصاعب بأسرع وقت ممكن.

لدى المرء الانطباع أنّ الجذريّين في هذه اللحظات هم التعبير العفويّ عن حاجة بيولوجيّة - اضطرّوا إلى أن يتسلّموا الحكم في روسيا ليحولوا دون أن يصير الشعب الروسيّ ضحيّة كارثة فظيعة، وليشعر الشعب الروسيّ، وقد آلى على نفسه بذل الجهود الجبّارة المطلوبة من أجل نهضته، بأنّ أنياب الذئب الجائع باتت أقلّ حدّة، وكي لا تصير روسيا مرعى قطعان شاسعاً من الوحوش الكاسرة يمزّق بعضها بعضاً إرباً إرَباً.

# المغزى الجوهري للثورة الروسيّة

**روزا لوكسمبرغ**

**مفكرة واقتصادية ألمانية من أصل بولوني. شاركت في ثورة العام ١٩٠٥ الروسية حيث تم القاء القبض عليها. قادت انتفاضة سبارتاكوس الشيوعية مع كارل ليبنخت في برلين مطلع ١٩١٩ واغتيلت على يد ضباط يمينيين في ١٥ كانون الأول من ذلك العام. من أعمالها: «الاقتصاد السلعي والعمل المأجور» و«إصلاح اجتماعي أم ثورة». ترجمة يزن الحاج.**

...تسبّب اكتساح الثورة الهائل في روسيا، والنتائج العميقة التي غيّرت جميع العلاقات الطبقيّة، بإثارة كلّ المشكلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، كما أدّى، من خلال بذرة الحتميّة في منطقها الداخليّ، إلى تطوّر الثورة بالنتيجة من المرحلة الأولى الخاصّة بالجمهوريّة البرجوازيّة إلى مراحل أكثر تقدّماً، لتُحيل سقوط القيصريّة في نهاية المطاف إلى مستوى لا يعدو كونه مجرّد حلقة ثانويّة - تبيّن لنا هذه الأشياء كلّها بوضوحٍ كوضوح النّهار أنّ تحرير روسيا لم يكن إنجازاً من إنجازاتٍ الحرب والهزيمة العسكريّة للقيصريّة، أو خدمةً من خدمات «الحِراب الألمانيّة في القبضات الألمانيّة»، كما بشّرت بذلك مرّةً جريدة نيو تسايت [الأزمنة الجديدة] في إحدى افتتاحيّاتها حين كان يرأس كاوتسكي تحريرها. بل تبيّن، على العكس من هذا، أنّ تحرير روسيا كان متجذّراً في تربة أرضها هي وبلغ أشدّه داخليّاً.

(...)

كذلك الأمر، وكما يرى كلّ مراقبٍ ذكيّ، فإنّ هذه التطوّرات تفنيدٌ حاسمٌ للنظريّة العقيديّة التي يتشاركها كاوتسكي مع الحكومة الديمقراطيّة - الاشتراكيّة، والتي تقول إنّ روسيا، كأرضٍ متخلّفة اقتصاديّاً تغلب عليها السّمَة الزراعيّة، لم تكن لتنضج بحيث تكون مؤهّلةً للثورة الاشتراكيّة ودكتاتوريّة البروليتاريا. وهذه النظريّة، التي ترى أنّ روسيا ليست مؤهّلة لثورة تتعدّى الثورة البرجوازيّة، هي أيضاً النظريّة التي يعتنقها الجناح الانتهازيّ في الحركة العمّاليّة الروسيّة، التابع لمَنْ يُسمَّون المناشفة، تحت قيادة [بافل] آكسلرود و[فيودور] دان المخضرمة.

(...)

كما أنّ مشكلات الثورة الروسيّة - بما أنّها نتاجٌ للتطوّرات الدوليّة علاوةً على المسألة الزراعيّة - لا يمكن أن تُحلّ ضمن حدود المجتمع البرجوازيّ.

فمن الناحية العمليّة، تمثّل هذه النظريّة ذاتُها محاولةً للتملّص من أدنى مسؤوليّة عن مسار الثورة الروسيّة، طالما أنّ هذه المسؤوليّة تتعلّق بالبروليتاريا العالميّة، والألمانيّة على الأخصّ، ولإنكار الصِّلات العالميّة لهذه الثورة. فما برهنتْ عليه أحداث الحرب والثورة الروسيّة ليس عدم جهوزيّة روسيا، بل عدم جهوزيّة البروليتاريا الألمانيّة للإيفاء بواجباتها التاريخيّة. وإنّ توضيح هذا الأمر هو أوّل مهمّة من مهمّات التقييم النقديّ للثورة الروسيّة.

(...)

عند التعامل، كما نحن الآن، مع أولى التجارب في دكتاتوريّة البروليتاريا في التاريخ العالميّ (وهي تجربة تحدث ضمن أصعب ظروف يمكن تخيُّلها، وسط الحريق والفوضى المستعرة في أنحاء العالم على وقْع المجزرة الإمبرياليّة الشاملة، وفي عقر دار أشدّ القوى العسكريّة رجعيّة في أوروبا، بالترافق مع أكبر إخفاقٍ من جانب الطبقة العاملة العالميّة)، سيكون من الجنون أن نظنّ أنّ كلّ ما تمّ فعله أو تُرك في تجربة تتعلّق بدكتاتوريّة البروليتاريا ضمن ظروفٍ غير طبيعيّة كهذه يمثّل أقصى درجات الكمال. بل على العكس، فالتصوّرات الأوّليّة للسياسات الاشتراكيّة وتأمّل اشتراطاتها اللازمة تاريخيّاً ستدفعنا إلى إدراك أنّ حتّى أعتى المثاليّات الهائلة وأشدّ الطاقات الثوريّة منعةً ستكون عاجزة، ضمن ظروف فتّاكة كهذه، عن تحقيق الديمقراطيّة والاشتراكيّة، ولن تكون قادرةً إلّا على محاولات مشوّهة في أيٍّ منهما.

(...)

وليس ثمّة أدنى شكّ بأنّ العقلَين الحكيمين اللذين يقودان دفّة الثورة الروسيّة، لينين وتروتسكي، في دربهما الشائك الذي يعجّ بالفخاخ من كلّ نوع، لم يتّخذا الخطوات الحاسمة الكثيرة إلّا وهما يقاسيان أقصى

درجات التردّد الداخليّ وأعتى درجات المعارضة العنيفة في الداخل. وبالطبع، فإنّ أبعد ما كان يدور في خلدهما هو الاعتقاد بأنّ كلّ الأشياء التي فعلاها أو أغفلاها ضمن ظروف قسريّة وضروريّة مرّة وسط دوّامات الأحداث الهائجة، ينبغي أن تُؤخَذ من جانب الأمميّة بكونها مثالاً ساطعاً على السياسة الاشتراكيّة التي لم تُلاقِ إلّا تبجيلاً غير نقديّ وتقليداً متحمّساً.

ولن يكون أقلّ خطأً أن نخشى من أن يؤدّي التقييم النقديّ للطريق التي قطعتْها الثورة الروسيّة حتى الآن إلى الانتقاص من احترام مثال الثورة الروسيّة أو قوّتها الجذّابة، التي يمكنها وحدها أن تتغلّب على العطالة القاتلة لدى الجماهير الألمانيّة.

(...)

**سقط الطغيان بعد أول هجوم وبلا مقاومة تقريبا. مثل عضو ميت من أعضاء الجسم كان ينتظر مجرد لمسة لكي يسقط. وكذلك انهارت. خلال ساعات معدودات. المحاولة القصيرة للبرجوازية اللبرالية كي تحافظ على العرش والسلالة الحاكمة على الأقل**

في بدايات آذار / مارس **١٩١٧**، ترأّس الكاديت[١]، أي البرجوازيّة الليبراليّة، الثورة. وقد اكتسح أوّل فوَران كبير في المدّ الثوريّ معه كلّ شخص وكلّ شيء. أمّا مجلس الدوما الرابع، النتاج الأكثر رجعيّة لحقّ الاقتراع رباعيّ الطبقات الأكثر رجعيّة الذي أقرّ بعد الانقلاب، فقد تحوّل إلى أداةٍ للثورة. وشكّلت جميع الأحزاب البرجوازيّة فجأة، حتى تلك المنتمية إلى اليمين القوميّ، كتيبةً ضدّ الطغيان. وقد سقط الطغيان بعد أوّل هجوم وبلا مقاومة تقريباً، مثل عضو ميت من أعضاء الجسم كان ينتظر مجرّد لمسةٍ لكي يَسقط. وكذلك انهارتْ، خلال ساعات معدودات، المحاولة القصيرة للبرجوازيّة اللبراليّة كي تحافظ على العرش والسلالة الحاكمة على الأقلّ. قفزتْ مسيرة الأحداث الكاسحة، خلال أيّام وساعات، إلى مسافاتٍ استغرقت سابقاً، في فرنسا، عقوداً لقطعها.

(...)

**نحو المرحلة الثانية من الثورة**

والآن، على أيّة حال، بدأت المهمّة الثانية والأصعب. منذ اللحظة الأولى، كانت قوّة الثورة هي جماهير بروليتاريا المدن. لكنّ مطالبها لم تتقيّد بتحقيق الديمقراطيّة السياسيّة بل كانت معنيّة بالسؤال الحارق المتعلّق بالسياسة الدوليّة - السلام العاجل. وفي الوقت ذاته، احتضنَت الثورة كتلةَ الجيش التي طرحت المطلب ذاته من أجل السلام العاجل، وجماهير الفلّاحين الذين دفعوا بالمسألة الزراعيّة إلى الواجهة، تلك المسألة الزراعيّة التي كانت منذ العام **١٩٠٥** محور الثورة الفعليّ. السلام العاجل والأرض - من هذين الهدفين انبثق الانقسام الداخليّ في الكتيبة الثوريّة بعد فترة وجيزة. كان مطلب السلام العاجل متعارضاً تماماً مع النّزعات الإمبرياليّة للبرجوازيّة اللبراليّة التي كان [بافل] مليوكوف هو الناطق باسمها. ومن الجانب الآخر، كانت مسألة الأرض شبحاً مرعباً بالنسبة إلى الجناح الآخر في البرجوازيّة، أي ملّاك الأرض في الريف. كما أنّها مثّلت أيضاً هجوماً على المبدأ المقدّس للملكيّة الخاصّة عموماً، وهي مسألة حسّاسةٌ للطبقة المالكة بأسرها.

وبذلك، وفي اليوم الأوّل الذي تلا الانتصارات الأولى للثورة، نشَبَ فيها صراع داخليٌّ حيال مسألتين حارقتين - السلام والأرض. شرعت البرجوازيّة اللبراليّة بتكتيكات تأجيل الأشياء ومراوغتها. أمّا جماهير العمل، والجيش، والفلّاحين، فقد ضاعفوا من عنف ضغوطهم. وليس ثمّة احتمال للشكّ بأنّ مصير الديمقراطيّة السياسيّة للجمهوريّة كان مرتبطاً بمسألتَي السلام والأرض. وسمحت الطبقات البرجوازيّة، التي جُرِفت بفعل الموجة العاصفة الأولى للثورة، لنفسها بأن تُجرّ إلى مستوى حكومة جمهوريّة. وبدأت الآن بالبحث عن قاعدة دعم في الصفوف الخلفيّة وبتنظيم ثورة مضادّة في الخفاء. وكانت حملة كاليدين على رأس جيش القوزاق[٢] ضدّ بطرسبورغ أوضح تعبير عن ذلك. ولو قدّر لها أن تنجح لآذنت بنهاية لا مصير مسألتي السلام والأرض وحسب، بل مصير الجمهوريّة أيضاً. ولكانت الدكتاتوريّة العسكريّة، أي حُكم الإرهاب ضدّ البروليتاريا، ومن ثمّ العودة إلى النظام الملكيّ، هي النتيجة الحتميّة لذلك النجاح.

(...)

في هذا الوضع، أدّى التيّار البلشفيّ الخدمة التاريخيّة المتعلّقة بتصريحه بتلك التكتيكات التي يمكنها وحدَها صَون الديمقراطيّة ودفع الثورة إلى الأمام، واتّباع تلك التكتيكات بانضباطٍ حديديّ. كلّ السلطة في أيدي جماهير العمّال والفلّاحين على نحو حصريّ، في أيدي

السوفيات - كان هذا فعليّاً هو الطريق الوحيد للتخلّص من الوضع الشائك الذي وقعتْ فيه الثورة، وكان ضربة السيف التي قطعوا بها عقدة غورديّاس المستعصية[٣]، حيث حرّروا الثورة من طريق مسدودة وفتحوا لها مساراً هائئاً نحو حقول مفتوحة لا نهاية لها.

وبذلك كان حزب لينين هو الحزب الوحيد في روسيا الذي فهم المصلحة الحقيقيّة للثورة في تلك الفترة الأولى. كان هو العنصر الذي دفع الثورة قُدُماً، وبذلك كان الحزب الوحيد الذي تابع طريقه معتنقاً سياسةً اشتراكيّة.

وهذا ما يوضح، أيضاً، لماذا تمكّن البلاشفة، مع أنّهم كانوا في بداية الثورة أقليّةً مضطهَدة مقموعة مُطاردة تتعرّض لهجومٍ من جميع الأطراف، من الوصول في أقصر وقتٍ ممكن إلى زعامة الثورة وتمكّنوا كذلك من ضمّ جميع جماهير الشعب الأصيلة تحت لوائهم: بروليتاريا المدن،

**الخطأ الأساسي في نظرية لينين ـ تروتسكي هو أنهما عمدا، كما فعل كاوتسكي، إلى اعتبار الدكتاتورية والديمقراطية متعارضتين. «الدكتاتورية أو الديمقراطية» تلك كانت صيغة المسألة كما طرحها البلاشفة وكاوتسكي على السواء. أما لينين وتروتسكي، فكانا يفضلان الدكتاتورية مميزين إياها بالتضاد مع الديمقراطية.**

الجيش، الفلاحين، علاوةً على العناصر الثوريّة للديمقراطيّة، أي الجناح اليساريّ من الاشتراكيّين الثوريّين.

فالوضع الفعليّ الذي وجدَت الثورة الروسيّة نفسها فيه، ليصل إلى أحد البديلين خلال أشهر قليلة: إمّا انتصار الثورة المضادّة أو دكتاتوريّة البروليتاريا - كاليدين أو لينين. هذا ما كان عليه الوضع الموضوعيّ، كما ظهر سريعاً في كلّ ثورةٍ بعدما تلاشتْ آثار نشوة الانتصار الأولى، وكما تمثّل في روسيا كنتيجة للمسألتين الملموستين الحارقتين المتعلّقتين بالسلام والأرض حيث لم تكونا لتجدا حلاً ضمن إطار الثورة البرجوازيّة.

وبهذا لم تقم الثورة الروسيّة إلا بتأكيد الدرس الأوّليّ لكلّ ثورة عظيمة، قانون كينونتها، الذي ينصّ: إمّا على الثورة التقدّم بإيقاعٍ سريعٍ عاصفٍ حازمٍ يحطّم كلّ الحواجز بيَدٍ من حديد ويكبّر من أهدافه أكثر فأكثر، أو سرعان ما ستُرمى خلف نقطة الوصول الهشّة التي حقّقتها وتُهزَم على يد الثورة المضادّة. السكون، المراوحة عند نقطة واحدة، الرضا بأوّل هدفٍ يُتاح لها، ليس ممكناً أبداً في [منطق] الثورة. وكلّ من يحاول تطبيق الحكمة السائدة المُستمدَّة من المعارك البرلمانيّة بين الضفادع والفئران[٤] على حقل التكتيكات الثوريّة لن يبيّن إلّا أنّ جوهر سيكولوجيا وقوانين وجود الثورة غريبة عنه، وأنّ كلّ التجربة التاريخيّة بالنسبة إليه ما هي إلا كتابٌ مُغلَق مقفول بسبعة أقفال.

(...)

وحده الحزب الذي يعرف كيف يقود، أي كيف يدفع الأمور قُدُماً، هو الذي ينال الدعم في الأوقات العاصفة. والعزم الذي أبداه لينين ورفاقه، في لحظةٍ حاسمة، في تقديم الحلّ الوحيد الذي يمكن به دفع الأمور قُدُماً («كلّ السلطة بيد البروليتاريا والفلّاحين»)، حوّلهم في عشيّة وضُحاها من أقليّةٍ مضطهَدة مُهاجَمة مُطارَدة اضطرّ قائدها إلى الاختباء مثل مارا في الأقبية[٥]، ليصبحوا السّيد المطلَق في الميدان.

وعلاوة على ذلك، سارع البلاشفة مباشرةً إلى تحديد هدفٍ قبضهم على زمام السلطة بكونه برنامجاً ثوريّاً كاملاً بعيدَ المدى، لا أن يكونوا حرساً للديمقراطيّة البرجوازيّة، بل دكتاتوريّة بروليتاريا تهدف إلى تحقيق الاشتراكيّة. وبذلك فقدْ كسبوا لأنفسهم التميّز التاريخيّ الخالد في كونهم أعلنوا للمرّة الأولى أنّ هدف الاشتراكيّة النهائيّ هو البرنامج المباشر للسياسة العمليّة.

أياً تكن درجة الشجاعة، وبُعد النظر الثوريّ، والاتّساق التي يمكن لحزبٍ أن يبلغها في ساعةٍ تاريخيّة، فإنّ لينين، وتروتسكي، وجميع الرفاق الآخرين قد بلغوها إلى حدّ بعيد. إنّ انتفاضتهم في أكتوبر لم تكن بمثابة الخلاص الفعليّ للثورة الروسيّة وحسب، بل كانت أيضاً الخلاص لشرف الاشتراكيّة الأمميّة.

### الديمقراطيّة والدكتاتوريّة

الخطأ الأساسيّ في نظريّة لينين - تروتسكي هو أنّهما عمَدَا، كما فعل كاوتسكي، إلى اعتبار الدكتاتوريّة والديمقراطيّة متعارضتين. «الدكتاتوريّة أو الديمقراطيّة» تلك كانت صيغة المسألة كما طرحها البلاشفة وكاوتسكي على السواء. من الطبيعيّ أنّ هذا الأخير كان يفضّل «الديمقراطيّة»، أي الديمقراطيّة البرجوازيّة، وذلك تحديداً لأنّه كان يضعها بمواجهة البديل المتمثّل بالثورة الاشتراكيّة. أمّا لينين وتروتسكي، من الجهة المقابلة، فكانا يفضّلان الدكتاتوريّة مميّزين إياها بالتضاد مع الديمقراطيّة، وبذلك فهما كاما يفضّلان دكتاتوريّة حفنةٍ من الأشخاص، أي الدكتاتوريّة على



الطراز البرجوازيّ. وهذان قطبان متضادّان، وكلاهما على السواء بعيدان من سياسةٍ اشتراكيّة أصيلة. فلا يمكن للبروليتاريا، حين تستولي على السلطة، أن تأخذ بنصيحة كاوتسكي الجيّدة، إذ بما أنّها قُدّمت على أساس فرضيّة «عدم نضوج البلاد»، فإنّ تلك النصيحة تشجب الثورة الاشتراكيّة وتكرّس نفسها للديمقراطيّة. لا يمكنها الأخذ بهذه النصيحة من دون خيانة نفسها، والأمميّة، والثورة بالنتيجة. ينبغي لها بل ويجب عليها أن تضطلع فوراً بمعايير اشتراكيّة بأقصى حدٍّ من الطاقة والعناد والصلابة، أي بمعنى آخر عليها ممارسة دكتاتوريّة، ولكنْ دكتاتوريّة الطبقة، لا دكتاتوريّة حزب أو طغمة - دكتاتوريّة الطبقة، وتعني أوسع شكل ممكن من الديمقراطيّة اللامحدودة على أساس أعظم مشاركة فعّالة لامحدودة للجماهير.

«كماركسيّين،» يكتب تروتسكي، «لم نكن يوماً عبَدة أصنام الديمقراطيّة التقليديّة». ومن المؤكّد أنّنا لم نكن يوماً عبدَة أصنام الاشتراكيّة أو الماركسيّة أيضاً. وهل يستتبع من هذا أن نرمي الاشتراكيّة في كومة المهملات، كما فعل كونو ولنش وپارفوس[٦]، لو لم تعدْ مناسبةً لنا؟ تروتسكي ولينين هما التفنيد الحيّ لهذه الإجابة.

«لم نكن يوماً عبدَة أصنام الديمقراطيّة التقليديّة»، وكلّ ما يعنيه هذا: لطالما كنّا نميّز الجوهر الاشتراكيّ عن الشكل السياسيّ للديمقراطيّة البرجوازيّة، لطالما كشفْنا النّواة الصّلبة للتفاوت الاجتماعيّ والافتقار إلى الحريّة المتخفّيين تحت القشرة الجميلة للمساواة والحريّة التقليديّتين - لا من أجل أن نرفض الأخيرة بل كي نحرّض الطبقة العاملة كيلا ترضى بالقشرة، بل أن تعمل، عبر هزيمة السلطة السياسيّة، على خلق ديمقراطيّة اشتراكيّة تحلّ محلّ الديمقراطيّة البرجوازيّة - لا أن نمحو الديمقراطيّة كليّاً.

لكنّ الديمقراطيّة الاشتراكيّة ليست شيئاً لا يبدأ إلّا في أرض الميعاد بعد وضع أساسات الاقتصاد الاشتراكيّ، ولا تأتي كنوعٍ من هديّةِ عيد الميلاد لمن هم جديرون بها الذين دعمُوا بإخلاص، في غضون هذا الوقت، حفنةً من الدكتاتوريّين الاشتراكيّين. تبدأ الديمقراطيّة الاشتراكيّة بالتزامن مع بداية دمار الحكم الطبقيّ وبداية تشييد الاشتراكيّة. تبدأ في جوهر لحظة استيلاء الحزب الاشتراكيّ على السلطة. وإنّها هي دكتاتوريّة البروليتاريا.

نعم، دكتاتوريّة! لكنّ هذه الدكتاتوريّة تتشكّل في تطبيق الديمقراطيّة، لا في إلغائها، ولكن من خلال الهجمات القويّة الحازمة على حقوق المجتمع البرجوازيّ وعلاقاته الاقتصاديّة المتجذّرة، إذ من دون تلك الهجمات لا يمكن لأيّ تحول اشتراكيّ أن يتحقّق. ولكن لا بدّ لهذه الدكتاتوريّة من أن تكون بيَد الطبقة لا بيَد أقليّة صغيرة تحكم باسم الطبقة - أي، لا بدّ أن تتولّد خطوة إثر أخرى من المشاركة الفاعلة للجماهير، لا بدّ أن تكون تحت تأثيرهم المباشر، وخاضعة لسيطرة النشاط الشعبيّ التامّ، لا بدّ من أن تنبع من الخبرة السياسيّة المتنامية لجماهير الشعب.

**ضغوط الحرب والاحتلال**

ولا شكّ في أنّ البلاشفة كانوا سيعملون وفق هذا النّهج لو لم يعانوا الضغوط الرهيبة التي فرضتْها الحرب العالميّة، والاحتلال الألمانيّ وجميع الصعوبات الهائلة المرتبطة بهما، وهي أشياء كان من المحتّم بالضرورة أن تحرف أيّة سياسة اشتراكيّة، بصرف النظر عن مدى تشبّع [هذه السياسة] بأحسن النوايا وأسمى المبادئ.

ونجد برهاناً صارخاً على هذا الأمر من خلال استخدام القوّة إلى درجة مفرطة جدّاً من جانب الحكومة السوفياتيّة، وخصوصاً في الفترة الوجيزة التي سبقت انهيار الإمبرياليّة الألمانيّة، وبُعيد محاولة اغتيال السفير الألمانيّ. وحتى المفهوم السائد بقوّة بأنّ الثورات ليست حفلة شاي لبقة لن يؤدّي الغرض تماماً.

كلُّ ما يحدث في روسيا مفهوم، ويمثّل سلسلةً محتومةً من الأسباب والنتائج، وإنّ منطلقها ونهايتها هما: إخفاق البروليتاريا الألمانيّة واحتلال روسيا على يد الإمبرياليّة الألمانيّة. وسنكون كمن يطلب ما هو فوق طاقة البشر من لينين ورفاقه لو كنّا نتوقّع منهم ابتكار أفضل صيغة ديمقراطيّة، وأعظم مثال يُحتذى لدكتاتوريّة البروليتاريا واقتصاداً اشتراكيّاً مزدهراً، وهُم يقاسون تلك الظروف. إذ من خلال موقفهم الثوريّ الحازم، وقوّة أفعالهم النموذجيّة، وإخلاصهم الصارم للاشتراكيّة الأمميّة، ساهموا بكلّ ما يمكن المساهمة به ضمن تلك الظروف مفرطة القسوة. ولن تبدأ الخطورة إلّا إذا تذرّعوا بذلك الاضطرار وأرادوا تجميد كّل التكتيكات التي فرضتْها عليهم هذه الظروف المرهقة في منظومةٍ نظريّة كاملة، بحيث يصدّرونها إلى البروليتاريا الأمميّة كأنموذجٍ للتكتيكات الاشتراكيّة. فحين سيدمّرون إنجازاتهم علىً هذا النّحو، ويقزّمون خدمتهم التاريخيّة التي لا ريب في أصالتها ضمن خطوات زائفة فرضتْها عليهم الضرورة، سيقدّمون خدمةً بائسةً للاشتراكيّة الأمميّة التي قاتلوا وعانوا من أجلها، إذ يودّون أن يضعوا

في مخزون تجاربها، كاكتشافات جديدة، كلّ الانحرافات التي شهدتْها روسيا بفعل الضرورة والاضطرار - والتي ليست سوى نتاجاتٍ لإفلاس الاشتراكيّة الأمميّة في الحرب العالميّة الحاليّة في نهاية المطاف.

**كلنا خاضعون لقوانين التاريخ. ولا يمكن للنظام الاشتراكي أن يتحقق في المجتمع إلا أمميا. وقد أظهر البلاشفة أنهم قادرون على كل ما يمكن لحزب ثوري أصيل أن يساهم به ضمن حدود الإمكانات التاريخية.**

دعوا اشتراكيّي الحكومة الألمانيّة يصرخون بأنّ حُكم البلاشفة في روسيا هو تمثيلٌ مشوَّهٌ لدكتاتوريّة البروليتاريا. وإنْ كانت كذلك حقاً، فهذا ليس إلّا لأنّها نتاج لسلوك البروليتاريا الألمانيّة، والتي هي بحدّ ذاتها تعبيرٌ مشوَّه عن الصراع الطبقيّ الاشتراكيّ. كلّنا خاضعون لقوانين التاريخ، ولا يمكن للنظام الاشتراكيّ أن يتحقّق في المجتمع إلّا أمميّاً. وقد أظهر البلاشفة أنّهم قادرون على كلّ ما يمكن لحزبٍ ثوريٍّ أصيلٍ أن يساهم به ضمن حدود الإمكانات التاريخيّة. لا يُفترَض بهم تحقيق معجزات. إذ ستكون معجزة لو تحقّقت ثورة بروليتاريّة أنموذجيّة لا شائبة فيها، في أرضٍ معزولة، أرهقتْها الحرب العالميّة، وخنقتْها الإمبرياليّة، وخانتْها البروليتاريا الأمميّة.

وما يُفترَض بنا فعله هو تمييز الجوهريّ من غير الجوهريّ، اللبّ من التشوّهات الطارئة في سياسة البلاشفة. ففي الفترة الحاليّة، حين نواجه صراعاتٍ نهائيّة حاسمة في كلّ أرجاء العالم، كانت المسألة الملحّةُ في زمننا ولا تزال هي مسألة الاشتراكيّة ذات الأهميّة القصوى. مسألة التكتيكات الثانويّة هذه أو تلك ليست مهمّة، بل المهمّ هو قابليّة الفعل لدى البروليتاريا، قوّة الفعل، وإرادة القوة لدى الاشتراكيّة. في هذا الجانب، كان لينين وتروتسكي ورفاقهما هم الأوائل، هم من تقدّموا كمثال لبروليتاريا العالم، ولا يزالون الوحيدين حتى الآن ممّن يحقّ لهم أن يصرخوا مع هوتن: «لقد تجرّأتُ!»[٧].

هذا هو الجوهريّ والثابت في السياسة البولشفيّة. وبهذا المعنى فإنّ خدمتهم هي الخدمة التاريخيّة الخالدة حين تقدّموا على رأس البروليتاريا الأمميّة ونجحوا في اكتساب السلطة السياسيّة وفي التناول العمليّ لمسألة تحقيق الاشتراكيّة، وفي تقدّمهم القويّ في تصفية الحساب بين رأس المال والقوّة العاملة في العالم بأسره. في روسيا، كلّ ما أمكنَ هو طرح المشكلة. لم يكن بالإمكان حلّها في روسيا. وبهذا المعنى، فإنّ المستقبل في كلّ مكان ينتمي إلى «البولشفيّة».

**الهوامش**

١ كاديت (Cadets أو Kadets) اختصار لأول حرفين (K-D) من الكلمتين الروسيتين كونستيتوتسونو وديموكراتشيسكا (أي: الحزب الديمقراطي الدستوري).

٢ كاليدين القوزاق: نسبة إلى الجنرال الروسيّ ألكسي كاليدين (١٨٦١ - ١٩١٨)، قائد «الحركة البيضاء»، وهي تحالف مبعثر من القوى المناهضة للشيوعيّة يضمّ خليطاً متبايناً من القوى البرجوازيّة والاشتراكيّة والجمهوريّة على اختلاف أطيافهم، كان الطرف الأضعف في الحرب الأهليّة الروسيّة (١٩١٧ - ١٩٢٢) ضدّ قوى ثورة أكتوبر من البلاشفة الشيوعيّين «الحمر». أمّا القوزاق فقد كانوا من أكبر داعمي الحركة البيضاء، لذا تعرّضوا لاضطهاد كبير مع انتهاء الحرب على يد قوى الثورة المنتصرة.

٣ عقدة غورديّاس: نسبة إلى القصة الميثولوجيّة التي تروي قصة اختيار غورديّاس حاكماً في تلميسوس على يد الكهنة، ومكافأة الآلهة لابنه ميداس بربط عقدة حبل لا يمكن حلّها، والتي لم تُحل أبداً إلا بعد أن قطعها الإسكندر الأكبر بسيفه. وبذا صارت رمزاً لكلّ وضعٍ مستعصٍ لا فكاك منه إلا بحلٍّ حاسم.

٤ إشارة إلى باتراخوميوماخيا أو معركة الضفادع والفئران، وهي ملحمة شعريّة هزليّة تُنسَب إلى هوميروس، تصوّر المعركة التي اندلعت بين الضفادع والفئران إثر غرق أحد الفئران بعد تخلّي ملك الضفادع عنه حين هاجمتهما أفعى مائيّة. تقف الآلهة متفرّجة على المعركة المحتدمة التي كادت تنتهي بفوز الفئران، قبل أن يرسل زيوس جيشاً من السرطانات لنصرة الضفادع، فتنقلب النتيجة لصالح الضفادع.

٥ الإشارة إلى جان - پول مارا (١٧٤٣ - ١٧٩٣): طبيب وثوريّ راديكاليّ فرنسيّ، وأحد أعمدة الثورة الفرنسيّة. اشتُهر بدايةً من خلال عمله كطبيب، ثم نوّع كتاباته بين الكتب العلميّة والفلسفيّة. كان فكره إصلاحياً مع شيءٍ من الراديكاليّة أحياناً، ولكنّه انتقل إلى الراديكاليّة كلياً بعد تأسيسه لجريدة لامي دو پوپل [صديق الشعب] قبيل اندلاع الثورة الفرنسيّة، حيث هاجم فيها جميع القوى المؤثّرة في فرنسا، بخاصة الجيروندييين الذين اعتبرهم أعداء للجمهوريّة، قبل أن يضطر إلى التخفّي بين عامي ١٧٩٠ - ١٧٩٢ في الأقبية والمجاري، ولم يعاود الظهور إلا بعد أحداث ١٠ آب / أغسطس ١٧٩٢ التي أنهت الحكم الملكيّ فعلياً. يعتبره كثيرون أحد المحرّضين على مجازر أيلول / سبتمبر ١٧٩٢ التي راح ضحيّتها أكثر من ألف سجين ممّن كان «يُخشى من عدم ولائهم للثورة»، قبل أن يُنتخَب عضواً في المؤتمر الوطنيّ الفرنسيّ، ثم بُرغَم على التقاعد بعد سقوط حكم الجيروندييين وإعدام لويس السادس عشر بالمقصلة بسبب تغيّر القوى في الثورة، إضافة إلى استفحال مرضه الجلديّ الذي قيل إنّه أصيب به أثناء فترة تخفّيه. اغتيل مارا في ١٣ تموز / يوليو ١٧٩٣ بطعنة خنجر في بيته على يد شارلوت كورديه التي كانت مناصرة للجيروندييّن.

٦ هاينرش كونو (١٨٦٢ - ١٩٣٦)، پاول لنش (١٨٧٣ - ١٩٢٦)، ألكساندر پارفوس (١٨٦٧ - ١٩٢٤): اشتراكيّون ألمان كانوا أقرب إلى الماركسيّة الأرثوذكسيّة قبل الحرب العالميّة الأولى، ثم تحوّلوا إلى الشوفينيّة أثناء الحرب وبعدها.

٧ الإشارة إلى الشاعر والهجّاء الألمانيّ أولرش فون هوتن (١٤٨٨ - ١٥٢٣) الذي كان من أشدّ منتقدي البابويّة قبل مارتن لوثر، ثم انضم إليه في حركة الإصلاح الدينيّ. كان شعاره «Alea iacta est. Ich hab's gewagt»، وهي جملتان الأولى باللاتينيّة تُنسب إلى يوليوس قيصر ومعناها «لقد أُلقي الزَّهر» [بمعنى: لا مجال للتراجع]، والثانية بالألمانيّة وتعني «لقد تجرأت».

# القوانين الصّادرة عن مفوّضي الشّعب

## قانون السكن

◆ يحقّ للحكومات الذّاتيّة البلديّة أن تصادر جميع المساكن غير المأهولة.
◆ يحقّ للبلديّة أن تسكِن في المساكن المتوفّرة المواطنين الّذين بدون مسكن أو الّذين يعيشون في مساكن مزدحمة أو غير صحيّة وذلك وفق قوانينها وترتيباتها الخاصّة.
◆ يحقّ للبلديّات أن تنشئ جهازاً مكلّفاً بتفتيش المساكن وأن تنظّمه وتحدّد صلاحيّاته.
◆ يحقّ للبلديّات أن تصدر الأوامر حول تكوين «لجان المساكن» وأن تنظّمها وتحدّد صلاحيّاتها وتمنحها سلطات قانونيّة.
◆ يحقّ للبلديّات تكوين «محاكم للمساكن» وأن تحدّد صلاحيّاتها وسلطاتها.
◆ يبلّغ هذا القرار برقيّاً.

مفوّض الشّعب للشّؤون الدّاخليّة: ا.ي ريكوف

## الضمان الاجتماعي

لقد رفعت البروليتاريا الرّوسيّة شعار الضّمان الإجتماعيّ الكامل للعمّال والأجَراء ولفقراء المدن والقرى. إنّ حكومة القيصر والملّاك والرّأسماليّين وحكومة التّحالف والمساومة قد عجزوا جميعاً عن تحقيق رغبات العمّال فيما يتعلّق بالضّمان الاجتماعيّ.
إنّ حكومة العمّال والفلّاحين المعتمدة على دعم سوفيات مندوبي العمّال والجنود والفلّاحين تعلن إلى الطّبقة العاملة الرّوسيّة وإلى فقراء المدن والقرى أنّها ستعدّ فوراً المراسيم المتعلّقة بالضّمان الاجتماعيّ المبنيّة على الاقتراحات الّتي قدّمتها المنظّمات العمّاليّة:
◆ ضمان لجميع العمّال والأجراء بدون استثناء بالإضافة إلى فقراء المدن والرّيف.
◆ ضمان يشمل كلّ مستويات فقدان القابليّة على العمل كالمرض والعجز والشّيخوخة والحَمْل والتّرمّل واليتم والبطالة.
◆ يتحمّل أرباب العمل جميع تكاليف الضّمان.
◆ في حالة فقدان القابليّة على العمل والبطالة يكون التّعويض موازياً للأجور على الأقلّ.
◆ التّسيير الذّاتي العمّالي الكامل لجميع مؤسّسات الضّمان.

مفوّض الشّعب للعمل: ألكسندر شليابنيكوف

## التعليم الشعبي

يا مواطني روسيا!
مع ثورة السّابع من تشرين الثّاني، سيطرت الجماهير الكادحة لأوّل مرّةٍ على السّلطة الحقيقيّة.
إنّ المؤتمر العامّ للسّوفيات قد وضع هذه السّلطة، مؤقّتاً، بيد لجنته التّنفيذيّة ومجلس مفوّضي الشّعب.
باسم الشّعب الثّائر جرى تعييني مفوّضاً للشّعب للتّعليم.
إنّ ما تبقّى للحكومة المركزيّة من سلطةٍ في الإشراف العامّ على التّعليم الشّعبي قد وضع بين أيدي «مفوّضيّة التّعليم الشّعبي» الّتي يرأسها وينفّذ مقرّراتها مفوّض الشّعب، وذلك إلى حين انعقاد الجمعيّة التّأسيسيّة.
على أيّ اقتراحات أساسيّة ستعتمد هذه اللّجنة الحكوميّة؟ كيف يجري تحديد مجال عملها؟

## الخط العام للنشاط التعليمي

في بلدٍ تسوده الأمّيّة والجهل يجب على كلّ سلطة ديمقراطيّة حقيقيّة أن تضع على رأس أهدافها النّضال ضدّ هذا الظّلام. يجب أن تصل إلى وضعٍ يكون فيه كلّ الشّعب متعلّماً بأقرب فرصة ممكنة وذلك بتنظيم شبكةٍ من المدارس على أساس متطلّبات التّربية الحديثة ويجب أن تحقّق التّعليم العامّ الإلزامي والمجّاني للجميع، وأن تؤسّس في الوقت ذاته سلسلة من دور المعلّمين بحيث تجهّز، بوقتٍ قصير، جيشاً قويّاً من المعلّمين الشّعبيّين، فروسيا الشّاسعة بحاجةٍ ماسّةٍ إليهم (...).

## خبراء التربية

إنّ مفوّضيّة الدّولة ترحّب بجميع خبراء التّربية ليشاركوا في عمل تعليم الشّعب العظيم والمشرّف، هذا الشّعب الّذي هو سيّد البلد (...).

تعتبر المفوّضيّة أنّ أولى مهمّاتها هي تحسين وضع المعلّمين وخصوصاً معلّمي المدارس الإبتدائيّة، هؤلاء مدقعي الفقر رغم أنّهم أهمّ المساهمين في العمل الثّقافيّ. يجب تحقيق مطالبهم العادلة فوراً وبأيّ ثمن، إنّ بروليتاريا المدارس قد طالبت، ولكن عبثاً، بزيادة أجورها إلى مئة روبل في الشّهر. إنّه لمن العار أن يظلّ معلّمو الغالبيّة السّاحقة من الشّعب الرّوسي في حالة فقرٍ بعد الآن.

إلّا أنّ الدّيمقراطيّة الحقيقيّة لا يسعها أن تتوقّف عند محو الأمّيّة وعند التّعليم الإبتدائيّ. عليها أن تعمل باتّجاه تكوين مدرسة علمانيّة موحّدة ذات عدّة مستويات. إنّ المثال الذي نطمح إليه هو إتاحة الفرصة لجميع المواطنين أن يحصّلوا تعليمهم العالي إذا أمكن. وما دامت هذه الفكرة لم تتحقّق بعدُ بالنّسبة إلى الجميع فإنّ الإنتقال بين جميع المستويات المدرسيّة إلى المرحلة العليا، أي المرحلة الجامعيّة، يجب أن يعتمد كلّيّاً على كفاءة التّلميذ وليس على مدخول عائلته.

إنّ مشكلة التّنظيم الدّيمقراطيّ الحقيقيّ للتّعليم لهي مشكلة عويصة في بلدٍ أفقرته حربٌ استعماريّة إجراميّة طويلة، إلّا أنّ العمّال الّذين تسلّموا السّلطة يجب أن يتذكّروا أنّ التّعليم سيكون أنجع سلاح بين أيديهم لتحسين أحوالهم ولتطوّرهم النفسيّ. إنّ حصّة التّعليم من الموازنة يجب أن تكون حصّة كبيرة، هذا رغم ضرورة تخفيض تكاليف موادّ أخرى من موازنة



❖ مندوبو المعامل في بتروغراد في نيسان ١٩١٧

الشعب. إنّ موازنةً تعليميّة كبيرة هي فخرٌ للأمّة ومجدٌ لها. إنّ شعوب روسيا الحرّة أو التي في طريق التّحرّر لن تنسى ذلك.

إن النّضال ضدّ الأمّيّة والجهل لا يمكن أن ينحصر بتوفير التّعليم المدرسيّ للأطفال والشّباب، فالكبار أيضاً متلهّفون لإنقاذ أنفسهم من الوضع المنحطّ لرجلٍ لا يعرف القراءة ولا الكتابة. لذا يجب أن تحتلّ مدارس الكبار مجالاً واسعاً في الخطّة العامّة للتّعليم الشّعبي.

**التعليم والتثقيف**

من الضّرورة تمييز الفرق بين التّعليم والتّثقيف.

التّعليم هو عمليّة نقل المعرفة الجاهزة من المعلّم إلى التّلميذ. أمّا التّثقيف فعمليّةٌ خلّاقة. إنّ شخصيّة الفرد «تتثقّف» طوال حياته، تتبلور، تغنى من جهة المضمون، تصبح أقوى وأكمل.

إنّ الجماهير الكادحة، من عمّالٍ وفلّاحين وجنود، متعطّشة للتّعليم الابتدائيّ والعالي. ولكنّها متعطّشة أيضاً إلى الثّقافة. لا الحكومة ولا المثقّفون ولا أيّ فئة أخرى خارجهم تستطيع أن تقدّم لهم هذه الثّقافة. المدرسة، الكتاب، المسرح، المتحف، وما شابه ليست إلّا عوامل مساعدة. إنّهم يملكون أفكارهم الخاصّة، مشاعرهم الخاصّة، طرقهم الخاصّة في معالجة مشاكل الفرد والمجتمع. العامل في المدينة سيعمل بطريقته، والعامل الزّراعيّ سيعمل بطريقته لبناء نظرته الشّاملة التي تخترقها نظرة العمّال الطّبقيّة. لا أروع ولا أبهى من الظّاهرة التي يكون فيها أبناؤها الشّهود والمشاركين في بناء الشّخصيّة الفَنيّة الحرّة الشّاملة بواسطة العمل الجماعيّ.

إنّ التّعليم سيكون عاملاً هامّاً، ولكنه ليس عاملاً حاسماً. والأهّم في هذا المجال هو النّقد، الطّاقة الخلّاقة عند الجماهير نفسها، فالعلوم والفنون لها أهمّيّة إنسانيّة عامّة في بعض أجزائها فقط. إنّها تتغيّر جذريّاً مع كلّ ثورة طبقيّة بعيدة المدى (...).

إنّ الدّعوة إلى سلامة الوطن تكمن في تعاون جميع قواه الحيّة والدّيمقراطيّة الحقيقيّة.

إنّنا نؤمن بأنّ جهد الجماهير الكادحة والمثقّفين المتنوّرين الشّرفاء هو الّذي سيُخرج البلد من محنته القاسية، مروراً بالدّيمقراطيّة الكاملة إلى الاشتراكيّة وتآخي الأمم.

مفوّض الشّعب للتّعليم: ا. ف. لوناتشارسكي

## قضية الخمور

**الأمر رقم ١**

◆ يمنع إنتاج الكحول والمشروبات الكحوليّة حتّى إشعارٍ آخر.

◆ على جميع منتجي الكحول والمشروبات الكحوليّة أن يبلّغوا عن أمكنة مخازنهم قبل السّابع والعشرين من هذا الشّهر.

◆ يقدّم إلى المحكمة العسكريّة الثّوريّة جميع الّذين يخالفون هذا الأمر.

اللّجنة العسكريّة الثوريّة

**الأمر رقم ٢**

من لجنة فوج احتياط الحرس الفنلنديّ إلى جميع لجان المساكن وإلى مواطني فاسيللي أوستروف.

لقد اختارت البرجوازيّة طريقة قذرة لمحاربة البروليتاريا، فأنشأت، في أجزاء مختلفة من البلد، مستودعات خمر كبيرة وأخذت توزّع الخمور على الجنود محاولةً زرع بذور التّفرقة في صفوف الجيش الثّوري.

إنّنا نأمر لجان المساكن بأن تتقدّم في السّاعة الثّالثة، موعد نشر هذا الأمر، وتخبر رئيس لجنة فوج الحرس الفنلندي سرّاً عن كمّيّات الخمر الموجودة في البنايات التّابعة لها.

إنّ الّذين يخالفون هذا الأمر سيعتقلون ويقدّمون إلى محاكم لا ترحم وتصادر ملكيّتهم، والمخازن من الخمر الّذي يوجد سوف يُنسف بالدّيناميت بعد مضيّ ساعتين على هذا الإنذار لأنّ التّجربة قد أثبتت أنّ الإجراءات المتسامحة لا تأتي بالنّتائج المرجوّة.

تذكّروا أنّنا لن ننذركم مرّة ثانية قبل النّسف.

لجنة فوج الحرس الفنلندي

# بيان ليون تروتسكي عن نشر الاتّفاقات السرّية

**إذ ننشر الوثائق الدبلوماسيّة السريّة من أرشيف السياسة الخارجيّة للقيصريّة ولحكومات التّحالف البرجوازي خلال الأشهر السبعة الأولى من الثورة، ننفّذ تعهداً اتّخذه حزبنا عندما كان في المعارضة. إنّ الدبلوماسيّة السرّية أداة ضروريّة للأقليّة المالكة المضطرّة إلى خداع الأكثريّة من أجل إخضاعها لمصالحها. إنّ الإمبرياليّة، بمخطّطاتها السوداء للغزو وبتحالفاتها وصفقاتها اللصوصيّة، قد طوّرت نظام الدبلوماسيّة السرّية إلى أعلى درجاته. إنّ النّضال ضدّ الإمبرياليّة الذي ينهك شعوب أوروبا ويدمّرها هو في الآن ذاته نضال ضدّ الدبلوماسيّة الرأسماليّة، التي تملك ما يكفي من الأسباب لتخشى نور النّهار.**

**إنّ الشعب الروسيّ، وشعوب أوروبّا والعالم أجمع يجب أن يعرفوا الحقيقة الموثّقة عن مخطّطات رسمها في السرّ أربابُ المال والصناعيّون بمعيّة وكلائهم البرلمانيّين والدبلوماسيّين. وإنّ شعوب أوروبّا قد دفعت ثمن هذه الحقيقة بتضحيات غير محدودة وبالشّقاء الاقتصاديّ الشامل.**

**إنّ إلغاء الدبلوماسيّة السريّة هو الشّرط الأوّل لسياسة خارجيّة صادقة، شعبيّة وديمقراطيّة حقّاً. وتعتبر الحكومة السوفياتيّة أنّ من واجبها أن تضع تلكً السياسة موضع التّنفيذ. ولهذا السّبب بالذّات، فيما نقترح علناً الهدنة الفوريّة على جميع الشّعوب المتحاربة وحكوماتها، ننشر في الآن ذاته هذه المعاهدات والاتّفاقات التي فقدتْ أيّ قوّة إلزاميّة بالنّسبة إلى العمّال والجنود والفلّاحين الرّوس الذين وضعوا السلطة بين أيديهم.**

**إنّ سياسيّي وصحافيّي ألمانيا والنّمسا - هنغاريا قد يحاولون استخدام هذه الوثائق لتحسين صورة إمبراطوريّات الحلف المركزيّ. لكنّ أيّ محاولاتٍ من هذا النّوع محكوم عليها بالإخفاق الذّاعي إلى الشّفقة، وذلك لسببين اثنين.**

**أوّلاً، لأنّنا ننوي أن نضع سريعاً في متناول محكمة الرّأي العامّ وثائقَ سرّيّةً تعالج بوضوح كافٍ دبلوماسيّة الإمبراطوريّات المركزيّة.**

**ثانياً، والأهمّ، أنّ وسائل الدبلوماسيّة السريّة هي شاملة قدر شمول اللصوصيّة الإمبرياليّة. فعندما سوف تسلك البروليتاريا الألمانيّة الطريق الثوريّ المؤدّي إلى أسرار دوائرها الخارجيّة، سوف تنتزع وثائق لن تكون أدنى خطورة من تلك التي نحن بصدد نشرها الآن. يبقى أن نأمل أن يتمّ ذلك سريعاً.**

**إنّ حكومة العمّال والفلّاحين تعلن إلغاء الدبلوماسيّة السريّة ومناوراتها وشيفراتها السريّة وأكاذيبها. لسنا نملك ما نخفيه. إنّ برنامجنا يعبّر عن الرغبات الحارّة لملايين من العمّال والجنود والفلّاحين. نريد إسقاط حكم رأس المال بأسرع ما يمكن. وإذ نفضح أمام العالم كلّه أعمال الطّبقات الحاكمة، كما تتجسّد في الوثائق الدبلوماسيّة السريّة، نتوجّه إلى العمّال بالنّداء الذي يشكّل الأساس الثّابت لسياستنا الخارجيّة «يا عمّال العالم اتّحدوا».**

× ٢٢ نوفمبر ١٩١٧، تروتسكي، الأعمال الكاملة، المجلّد الثالث، ص ٦٤




❖
تظاهرة الأول من أيار ١٩١٨ في بتروغراد


ДА ЗДРАВСТВУЕТЪ МЕЖДУНАРОДНЫЙ
ПРАЗДНИКЪ ТРУДА
ДА ЗДРАВСТВУЕТЪ СОЦІАЛИЗМЪ
МОНЕТНЫЙ
ДВОРЪ

# الأمميّة الشيوعيّة: مواقف من قضايا عربيّة

## ١
## المؤتمر الثاني للكومنترن
## تمّوز / يوليو - آب / أغسطس ١٩٢٠

**ضدّ إنشاء دولة يهوديّة في فلسطين**[١]

أهمّ ما صدر عن هذا المؤتمر شروط الانضمام إلى الأمميّة الشيوعيّة و«الموضوعات حول المسألة الوطنيّة ومسألة المستعمرات» التي تَقدّم بها لينين وأقرّها المؤتمر بعد إجراء عدد من التعديلات عليها.

ومن هذه التعديلات ذلك الذي أدخل على الفقرة السادسة من الموضوعة الحادية عشرة حول الصهيونيّة وقضيّة فلسطين.

وفيما يلي الفقرة والتعديل بالحرف الأسود:

«يجب علينا أن نفضح باستمرار الخداع الذي تمارسه القوى الاستعماريّة بمساعدة الطبقات ذات الامتيازات في الأقطار المخضعة على جماهير الشغّيلة في العالم أجمع، وفي الأقطار المتأخّرة تحديداً، حيث ينشئ الاستعمار، وراء ستار الاستقلال السياسيّ، شتى المؤسّسات الدولتيّة والحكوميّة التابعة له عمليّاً تبعيّة كاملة، اقتصاديّاً وماليّاً وعسكريّاً. وكمثال صارخ على هذا الخداع الذي تمارسه على الطبقة العاملة في الأقطار المقهورة والمخضعة قوى «الحلفاء» الاستعماريّة وبرجوازيّات تلك الأقطار - **نذكر مشروع الصهاينة في فلسطين حيث تعمل الصهيونيّة، بحجّة إنشاء دولة يهوديّة في فلسطين، حيث يشكّل اليهود نسبة لا تُذكر من سكّانها - على إخضاع السكّان الأصليّين من الكادحين العرب لنير الاستغلال الإنكليزيّ. إنّ اتحاد الجمهوريّات السوفياتيّة هو السبيل الوحيد إلى خلاص القوميّات الضعيفة والمقهورة في الظروف الدوليّة الراهنة**».

اقترحت التعديل لجنة مكوّنة من مندوبي الأحزاب الشيوعيّة في روسية، بلغاريا، فرنسا، هولندا، ألمانيا، المجر، الولايات المتّحدة، الهند، الصين، كوريا وبريطانيا. ويشدّد لينين في تقريره أمام المؤتمر على أنّ اللجنة أقرّت جميع التعديلات بالإجماع[٢].

## ٢
## المؤتمر الأوّل لشعوب الشرق
## أيلول / سبتمبر ١٩٢٠

**إلى الجهاد المقدّس تحت الراية الحمراء**[٣]

بدعوة من الكومنترن، عقد مؤتمر باكو لشعوب الشرق في آب / أغسطس - أيلول / سبتمبر ١٩٢٠ في مدينة باكو. حضر المؤتمر ١٨٩١ مندوباً بينهم ١٢٧٣ شيوعيّاً أغلبيّتهم من الأتراك (٢٣٥) والفرس (١٩٢) والأرمن والجيورجيّين فضلاً عن مندوبي الشعوب المسلمة في الاتّحاد السوفياتي. وحضره أيضاً ٣ مندوبين عرب. تمثّلت قيادة الكومنترن بزينوفييف ورادك وبيلا كون، وتبنّى المؤتمر في جلسته الختاميّة «نداء إلى شعوب الشرق» دعاها إلى الوحدة والجهاد المقدّس ضدّ الاستعمار البريطانيّ بوصفه الوسيلة الوحيدة لتحرّرهم من الهيمنة السياسيّة والاستغلال الاقتصادي. وهذا أبرز ما ورد فيه عن المنطقة العربيّة.

«خيضت هذه الحرب لاقتسام العالم، وعلى الأخصّ

آسيا، خيضت لاقتسام الشرق، خيضت من أجل أن يتقرّر مَن هو الذي سيسير على أقطار آسيا، ولمصلحة من سَوف تُستعبد شعوب الشرق.

يا شعوب الشرق! ماذا قدّمت إنكلترا للجزيرة العربيّة والعراق؟ أعلنت أنّ ثلاث دول إسلاميّة مستقلّة قد تحوّلتْ إلى مستعمرات تابعة لها، وطردت أصحاب الأرض من العرب من أراضيهم وحرمتْهم من أخصب وديان نهرَي دجلة والفرات ومن أفضل المراعي الحيويّة لمعيشتهم، وسلبت أثمن الموارد النفطية في الموصل والبصرة. وهكذا حرم العرب من كافّة موارد الرزق، بينما بريطانيا تراهم على المجاعة التي يعانون منها لإخضاعهم واستعبادهم.

**يا شعوب الشرق! في الجهاد المقدس هذا يقف إلى جانبكم جميع العمال الثوريين وجميع الفلاحين المقهورين في الغرب. وسوف يمدون لكم يد العون. ويقاتلون ويموتون معكم. إنه المؤتمر الأول لممثلي شعوب الشرق يخاطبكم. تعيش وحدة فلاحي وعمال الشرق والغرب. وحدة جميع الكادحين. جميع المضطهدين والمستغلين.**

وما الذي تقدّمه إنكلترا لفلسطين؟ إرضاءً لحفنة من الرأسماليّين اليهود والإنكليز، طردت العرب من أراضيهم ومنحتْها للمستوطنين اليهود. ولكي تتيح في الوقت ذاته متنفّساً لتذمّر العرب، سلّطتهم على المستعمرات اليهوديّة التي أنشأتها هي نفسها، زارعة الخلاف والتذمّر والبغضاء بين جميع القبائل، مضعفة كلا الطرفين لكي تنفرد هي بالسيطرة».

ماذا قدّمت إنكلترا لمصر حيث السكّان يرزحون تحت نير الرأسماليّين الإنكليز منذ ثمانية عقود، وهو نير أثقل من نير الفراعنة الذين بنوا الأهرامات الجبّارة بعمل العبيد.

(...) إنّنا ندعوكم الآن إلى أوّل جهاد مقدّس حقيقيّ تحت راية الأمميّة الشيوعيّة الحمراء. ندعوكم إلى الجهاد المقدّس من أجلكم، من أجل حرّيّتكم، من أجل حياتكم.

إنّ إنكلترا، آخر القراصنة الإمبرياليّين الأقوياء في أوروبا، تبسط أجنحتها السوداء على بلدان الشرق الإسلامي مستعبدةً شعوبها.

...قوموا للنّضال ضدّ هذا القرصان!

قوموا جميعاً، قَومة رجل واحد، للجهاد المقدّس ضدّ المحتلّين الإنكليز!

هبّوا جميعاً للنّضال ضدّ العدوّ المشترك - إنكلترا الاستعماريّة!

لترفرف عالياً راية الجهاد الحمراء.

هذا جهاد مقدّس من أجل تحرير شعوب الشرق، من أجل أن تزول قسمة البشريّة إلى قاهرين ومقهورين، من أجل المساواة الكاملة بين جميع الشعوب والقبائل، بغضّ النظر عن اللغة ولون البشرة والمعتقد الديني!

إنّه جهاد مقدّس ضدّ قسمة العالم إلى بلدان متقدّمة وأخرى متأخّرة، بلدان تابعة وأخرى مستقلّة، بلدان حاكمة ومستعمرات!

إنّه جهاد مقدّس لتحرير البشريّة جمعاء من نير عبوديّة الرأسماليّة والاستعمار، والقضاء على اضطهاد شعب لآخر، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان!

...جهاد مقدّس من أجل الحرّيّة والاستقلال والسعادة لجميع شعوب الشرق. لملايين الفلّاحين والعمّال الذين تستعبدهم إنكلترا!

يا شعوب الشرق! في الجهاد المقدّس هذا يقف إلى جانبكم جميع العمّال الثوريّين وجميع الفلّاحين المقهورين في الغرب. وسوف يمدّون لكم يد العون. ويقاتلون ويموتون معكم.

إنّه المؤتمر الأوّل لممثّلي شعوب الشرق يخاطبكم.

تعيش وحدة فلّاحي وعمّال الشرق والغرب، وحدة جميع الكادحين، جميع المضطهدين والمستغلّين!

تعيش قيادتنا المناضلة - الأمميّة الشيوعيّة!

ليستعِر أوار الجهاد المقدّس لشعوب الشرق وكادحي العالم ضدّ إنكلترا الاستعماريّة!

**الهوامش**

١ فواز طرابلسي، «الأمميّة الشيوعيّة وقضيّة فلسطين»، في **المقاومة الفلسطينيّة، الواقع والتوقّعات**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧١، ص ٦٧

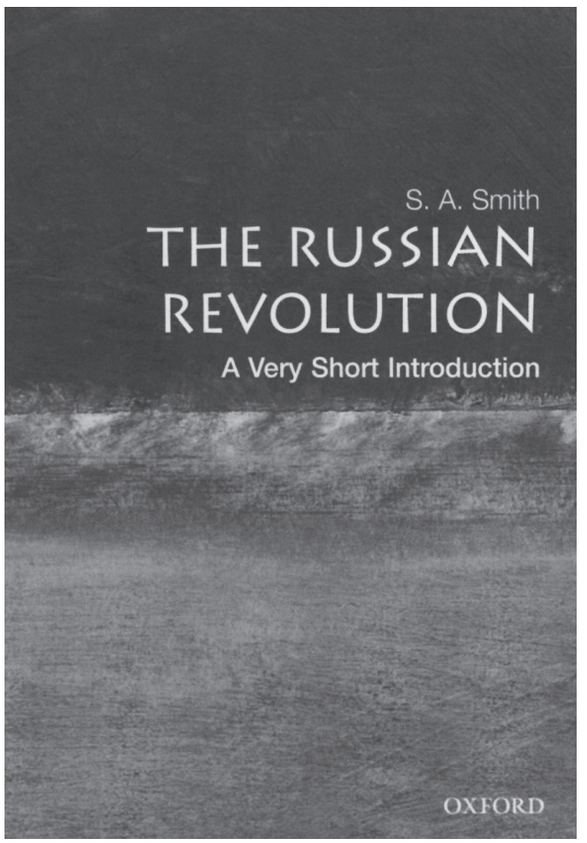
٢ انظر Theses of the Communist International (as adopted by the Second Congress held in Moscow, August 1920, CPGB, London 1921, p.11.) ولينين، **المؤلّفات الكاملة**، الطبعة الإنكليزيّة، الجزء ٣١، ص ٥٦٤ المصدر ذاته، ص ٢٤٠

٣ الأمميّة الشيوعيّة وتحرّر الشرق، المؤتمر الأوّل لشعوب الشرق، باكو ١-٨ أيلول / سبتمبر ١٩٢٠، ترجمة فواز طرابلسي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ص٢٣٥ - ٢٥٠. نشر النداء في نشرة «الأمميّة الشيوعيّة»، لسان حال الكومنترن، عدد ٢٠ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٢٠. انظر أيضاً:
I Spector, *The Soviet Union and the Muslim World, 1917-1958*, University of Washington Press, Seatle, 1919

# جردة حساب تاريخيّة


**جلبير الأشقر**

**جامعي وكاتب، بريطانيا ولبنان. آخر مؤلّفاته، «الشعب يريد. بحث جذريّ في الانتفاضة العربية» (٢٠١٣) و«انتكاسة الانتفاضة العربية. اعراض مرضية» (٢٠١٦).**


*Russia in Revolution: An Empire in Crisis, 1890 to 1928*,
Stephen Anthony Smith,
Oxford University Press, 2017

كان من الطبيعيّ أن تشهد سنة ٢٠١٧، سنة الذكرى المئويّة لثورة ١٩١٧ الروسيّة، صدور عدد هامّ من الكتب المخصّصة لذلك الحدث المفصليّ في تاريخ القرن العشرين، لا بل في التاريخ الحديث بوجهٍ عام. باللغة الإنكليزيّة وحدها، صدرت دزّينةٌ من الكتب بين عناوين جديدة وإعادة إصدار لعناوين قديمة. قسمٌ من العناوين الجديدة سياسيّ، يقوم على التعليق على الثورة أو إعادة سرد حكايتها بشكل تبسيطيّ بالاستناد إلى مصادر ثانويّة ولغاية سياسيّة تنتسب على العموم إلى التاريخ الأسطوري، الذي تشبه روايته التي لا تتغيّر على مرّ العقود سيرة المسيح أو السيرة النبويّة لدى المؤمنين من المسيحيّين والمسلمين. ومن غير المستغرب أن يكون أغلب مؤلّفي هذا الصنف من الكتب من غير المؤرّخين الأكاديميّين، وأن يكون معظمهم لا يحسن اللغة الروسيّة.

أمّا القسم الآخر من الإصدارات، فكُتب تاريخٍ معظمها أكاديميّ، تقوم على مجهودٍ بحثيٍّ لا يقتصر على المصادر الثانويّة باللغة الإنكليزيّة، بل يستند إلى مصادر أوّلية وثانويّة باللغة الروسيّة، حتى لو كانت في أغلب الحالات كتبَ توليفٍ أكثر من كونها أبحاثاً جديدة، تعيد النظر في الثورة الروسيّة بمناسبة ذكراها المئويّة من خلال المسافة الزمنيّة النوعيّة التي باتت تفصلنا عن الحدَث، كما في ضوء المصادر العديدة التي أتيحت للمؤرّخين من جرّاء فتح الأرشيف الروسيّ بعد انهيار الاتحاد السوفياتي قبل ربع قرن. وإذا كان العقد الأوّل للثورة الفرنسيّة لا يزال، بعد انقضاء أكثر من قرنين، محطّ خلافات بين المؤرّخين، دع عنكم الجمهور العامّ، وهي خلافات سياسيّة الجوهر تتركّز بصورة خاصّة على تقييم مرحلة سلطة اليعاقبة (١٧٩٣ - ١٧٩٥)، فالعقد الأوّل للثورة الروسيّة حريّ بأن يثير خلافاتٍ مماثلة، بل أكثر حدّة، إزاء سلطة البلاشفة.

ذلك أنّه إذا كانت القضايا التي هي في صميم العقد الأوّل للثورة الفرنسيّة لا تزال تشغل واقعنا السياسيّ المعاصر، فكم هي أحرى بإشغالنا تلك التي هي في صميم العقد الأوّل للثورة الروسيّة. محصّلة ذلك أنّ الكتب الجديدة سياسيّة بامتياز، كما يسهل توقّعه. أمّا كتب التاريخ البحثيّة الجديدة فينتمي أغلبها إلى التيّار الأيديولوجيّ اليمينيّ السائد في الدراسة الأكاديميّة لروسيا باللغة الإنكليزيّة، وهي تلتزم الهجاء إزاء الحقبة المذكورة.

**كتاب مختلفٌ عن السائد**

هذا وثمّة استثناءٌ هامّ في المجال الأكاديميّ، يختلف عن التيّار السائد بجلاء لكن بدون أن يعيد اجترار التاريخ الأسطوريّ. وهو كتاب يتوخّى الموضوعيّة بممارسةِ نقدٍ متوازن لتجربة البلاشفة من منطلق التعاطف مع فكرة الثورة وأماني الجماهير التي انخرطت فيها. هذا الكتاب هو «روسيا في ثورة: إمبراطورية في أزمة، ١٨٩٠ - ١٩٢٨» لمؤلّفه إس. أي. (ستيفن أنتوني) سميث[١]. وهو كتابٌ من حوالي ٤٥٠ صفحة، يستند إلى كمّ عظيم من المصادر باللغتين الإنكليزيّة والروسيّة فضلاً عن بعض اللغات الأخرى. مؤلّفه خبيرٌ معروف بالثورتين الروسيّة والصينيّة، درس في جامعات موسكو وبكين وشانغهاي، وهو الآن باحث في جامعة أكسفورد التي كان قد بدأ فيها دراسته الجامعيّة في أوائل السبعينيّات. بدأ اهتمام سميث بالثورتين الشيوعيّتين من ماضٍ ثوريّ ماركسيّ، مرّ بتيّار منشقّ عن التروتسكيّة ومن ثمّ بالاشتراكيّة التحرّريّة، وما زال يساريّاً لا يُخفي تعاطفه النقديّ مع اليسار، بما فيه اليسار الجذريّ. ولسميث مؤلّفات عديدة، منها دراستان ميدانيّتان شهيرتان إحداهما لحركة المصانع في عامَي ١٩١٧ و١٩١٨ في بتروغراد (اسم سانت بطرسبرغ بين عامَي ١٩١٤ و١٩٢٤) وأخرى للحركة العمّالية في شانغهاي حتى سحقها عام ١٩٢٧.

**ينتمي سميث إلى تقليد التاريخ الاجتماعي. فإنه يقدم لوحة أخاذة لتحولات روسيا منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى انفراد ستالين بالسلطة. بكافة أبعاد التحول: الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وبالطبع السياسي. وغيرها.**

وينعكس توجّه الكاتب اليساريّ في اختياره تركيز بحثه على العقد الأوّل للثورة الروسيّة من حيث ما يتضمّن ذلك الخيار من إقرارٍ بوجود فارقٍ نوعيّ بين ذلك العقد والمرحلة الستالينيّة التي تلته، بخلاف علم التاريخ المعادي للثورة وللفكّر الشيوعيّ بوجهٍ عامّ الذي يشدّد على فكرة التواصل الحتميّ بين البلشفيّة / اللينينيّة والستالينيّة، باعتبار الثانية هي البنت الشرعيّة للأولى. وحيث ينتمي سميث إلى تقليد التاريخ الاجتماعي، فإنّه يقدّم لوحةً أخّاذة لتحوّلات روسيا منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى انفراد ستالين بالسلطة، بكافّة أبعاد التحوّل: الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثقافيّ وبالطبع السياسيّ، وغيرها. ويشير المؤلّف في مستهلّ كتابه إلى أنّ الحرب تلعب دوراً هامّاً في روايته إذ إنّ المرحلة الزمنيّة التي تناولها شهدت حروباً عدّة، من الحرب بين روسيا واليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥) إلى الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ومن ثمّ الحرب الأهليّة التي تلت الثورة الروسيّة (١٩١٨ - ١٩٢١ بصورة أساسيّة). بل يلاحظ أنّ كافّة ثورات القرن العشرين الاشتراكيّة نتجت من حروب، ولتلك الملاحظة أهميّة إذ سوف يعود إليها في خلاصة الكتاب.

في الفصل الأوّل، يصف سميث «جذور الثورة» من ثمانينيّات القرن التاسع عشر حتى ثورة ١٩٠٥، مبيّناً كيف أنّ النظام القيصريّ شهد أزمةً متصاعدةً من جرّاء التحديث الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وقد بلغت ذروتها بتأثيرٍ من انخراط روسيا في الحرب العالميّة الأولى. ويصف تطوّر الإمبراطوريّة في تلك المرحلة، وله أوجهٌ شبه عديدة بتطوّر الإمبراطوريّة العثمانيّة التي انهارت هي أيضاً بنتيجة الحرب ذاتها، لاسيّما في تشابه الترويس والتتريك. كما يصف الدولة القيصريّة وعلاقتها بالكنيسة الأرثوذكسيّة، ناقداً وصف بعض الكتّاب لها بالدولة البوليسيّة إذ يرى أنّها كانت أضعف وأكثر هشاشة، تنظيميّاً، من متطلّبات دولة بوليسيّة. ثمّ يستعرض وضع الزراعة والفلّاحين وتطوّر الرأسماليّة الصناعيّة، بما فيه تركّزها الفائق (وهي سمةٌ معروفة رأى فيها ليون تروتسكي نتاجاً بارزاً لما سمّاه «التطوّر المركّب»). ثمّ يروي الأزمة التي سوف تؤدّي إلى انفجار ثورة ١٩٠٥ على خلفيّة هزيمة الدولة القيصريّة في حربها مع اليابان.

وفي الفصل الثاني، يتناول سميث المرحلة التي بدأت بإصلاحات عامّ ١٩٠٦ التالية للثورة، ومن ثمّ الردّة القمعيّة الأتوقراطيّة التي ما لبثت أن عقبتها وأجهضتها، وصولاً إلى اندلاع الحرب العالميّة وما نجم

١ S. A. Smith, *Russia in Revolution: An Empire in Crisis, 1890-1920*, Oxford: Oxford University Press, 2017.

عنها من تحوّلاتٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ في الإمبراطوريّة ستؤدّي إلى الانفجار. كذلك يناقش حالة الأحزاب السياسيّة وعلى الأخصّ الأحزاب الثوريّة. تلي ذلك في



**يؤكد المؤرخ أن شعار «كل السلطة للسوفيات» كانت الغاية منه إنهاء الائتلاف الحكومـــــــــــــــي القائم مع البرجوازية وتشكيل حكومة تستند حصرا إلى الأحزاب الممثلة في المجالس.**

الفصل الثالث دراسة سنة **١٩١٧** في السيرورة المؤدّية من ثورة شباط / فبراير حتى ثورة أكتوبر، فيصف نشوء ازدواجيّة السلطة مع إعادة تشكيل مجالس «السوفيات» التي سبق أن تشكّلت في ثورة **١٩٠٥**. ويشير في هذا الصدد إلى أن المجالس العمّالية لم تنظر لنفسها كشكل أعلى من الديمقراطيّة، كما وصَفها لينين، بل كانت تصبو إلى ديمقراطيّة برلمانيّة وتطالب بحماسة بانتخاب جمعيّةٍ تأسيسيّة، إذ يؤكّد المؤرّخ أنّ شعار «كلّ السلطة للسوفيات» الذي اشترك فيه البلاشفة مع أقسام من المناشفة والاشتراكيّين الثوريّين والأناركيّين كانت الغاية منه إنهاء الائتلاف الحكوميّ القائم مع البرجوازيّة وتشكيل حكومةٍ تستند حصراً إلى الأحزاب الممثّلة في المجالس بغية الدعوة إلى انتخاب الجمعيّة التأسيسيّة.

**هل كانت الثورة انقلاباً؟**

بعد وصف أحداث تلك الأشهر الثوريّة الشهيرة، لاسيّما أيّام تموز / يوليو ومحاولة كورنيلوف الانقلابيّة الفاشلة، يحلّل سميث تطوّر الأوضاع الطبقيّة والقوميّة والنسائيّة في تلك الأشهر وصولاً إلى «الاستيلاء على السلطة» في تشرين الأوّل / أكتوبر. في صدد هذا المنعطف الأخير، يكتب: «غالباً ما يجري وصف الاستيلاء على السلطة كأنّه انقلاب تآمريّ على حكومة ديمقراطيّة. كانت له بالتأكيد سمات انقلاب، لكنّه كان انقلاباً تمّ الإعلان عنه بكثافة، وقد أسقط حكومةً لم تكن منتخبة ديمقراطيّاً». ويشير إلى مسؤوليّة «الاشتراكيّين المعتدلين» (أي يمين الأحزاب الاشتراكيّة) في تأجيل انعقاد مؤتمر السوفيات من **٢٠** إلى **٢٥** تشرين الأول / أكتوبر، الأمر الذي لولاه لجرى الاستيلاء على السلطة بقرارٍ من المؤتمر مثلما كان يطالب به تروتسكي، وليس قبل انعقاده كما كان يبغي لينين.



الفصل الرابع مخصَّص للسّلطة البلشفيّة والحرب الأهليّة. ويبدأ بالأزمة التي نجمت عن قرار البلاشفة تشكيل حكومة بلشفيّة خالصة في البدء، الأمر الذي حدا بخمسة بلاشفة على الاستقالة من الحكومة («مجلس مفوّضي الشعب») لقناعتهم بأنّ انفراد البلاشفة بالسلطة سوف يؤدّي لا محال إلى «الإرهاب السياسيّ» حسبما قالوا. ثمّ يروي سميث التطوّرات اللاحقة بما فيها دخول ممثّلين عن يسار الاشتراكيّين الثوريّين إلى الحكومة لفترةٍ وجيزة، على الرّغم من معارضتهم لعدم خضوع الحكومة لقيادة السوفيات ولقيام البلاشفة بمنع الصحافة «البرجوازيّة» من الصدور. ويروي بعد ذلك تجربة انتخاب الجمعيّة التأسيسيّة تلبيةً للمطلب الشعبيّ، وكيف تمّ حلّها بعدما جاءت الانتخابات بأغلبيّةٍ من معارضي البلاشفة، فينتقد حجّة القيادة البلشفيّة في هذا الصّدد. ويصف سميث استيلاء البلاشفة على مجالس السوفيات ذاتها في سائر أنحاء البلاد من خلال حلّ المجالس التي لم تكن لهم فيها الأكثريّة، بل حازت على الأغلبيّة فيها أحزابٌ وصَفَها البلاشفة بأنّها من «البرجوازيّة الصغيرة»، وهو وصف ملازم لادّعائهم احتكار تمثيل الطبقة العاملة. فيصف السيرورة التي أدّت بعد حين إلى إرساء دولة الحزب الواحد.

**ساهمت الحرب الأهلية مساهمة أساسية في توطيد السلطة الثورية من خلال بناء «جيش أحمر» بلغ تعداده خمسة ملايين ونصف المليون. وغدا يشكل قاعدة الحكم الاجتماعية الرئيسة على خلفية ضمور الطبقة العاملة ومعارضة قسم منها للبلاشفة.**

ويخصّص سميث صفحات عديدة ومثيرة للحرب الأهليّة والمجهود الجبّار الذي تطلّبته من الحكم الثوريّ الجديد، وكيف ساهمت الحرب الأهليّة مساهمةً أساسيّةً في توطيد السلطة الثوريّة من خلال بناء «جيش أحمر» بلغ تعداده خمسة ملايين ونصف المليون، وغدا يشكّل قاعدة الحكم الاجتماعيّة الرئيسة على خلفيّة ضمور الطبقة العاملة ومعارضة قسم منها للبلاشفة. كذلك استطاع الحكم البلشفيّ من خلال الحرب الأهليّة تحييد قسم كبيرٍ من الفلّاحين الذين كانوا معادين له، والذين كان عداؤهم للرجعيّة القيصريّة («البيض») ممثلة الأرستقراطيّة العقاريّة البغيضة أكبر من عدائهم للبلاشفة، لاسيّما بسبب تعلّقهم بالأراضي التي استولوا عليها في إطار الثورة. يضاف إلى ذلك أنّ الاستقطاب الحادّ بين «الحمر» و«البيض» قلّص كثيراً من قدرة الأحزاب الاشتراكيّة المعارِضة للبلاشفة على أن تؤثّر سياسيّاً.

ويصف سميث تطوّرات المسألة القوميّة على خلفيّة الثورة والحرب الأهليّة، مبيّناً التّناقضات في السياسة البلشفيّة، والخلافات بين البلاشفة أنفسهم. وقد كان لينين أكثرهم حرصاً على حقّ الشعوب في تقرير مصيرها، بينما رأى الكثير من رفاقه أنّ لمصلحة الحكم الثوريّ أولويّةً مطلقةً على ذلك الحقّ. والحال أنّ الدولة البلشفيّة، وعلى الرّغم من تناقضاتٍ عديدةٍ في هذا المجال، أعادت بناء الإمبراطوريّة الروسيّة على قاعدة منح شعوبها حقوقاً أعلى بكثير ممّا كان لديها في العهد القيصريّ، أو ممّا كان للشعوب في الإمبراطوريّات الأخرى متعدّدة القوميّات كالعثمانيّة والنمساويّة - المجريّة اللتين انهارتا إثر الحرب العالميّة الأولى.

### تحوّلات «شيوعيّة الحرب»

تلي ذلك أقسامٌ تصف درجة العنف القصوى التي شهدتها الحرب الأهليّة، وتطوّر «الإرهاب» في ظلّ الحكم البلشفيّ، والإرهاب صفة أطلقها الحكم نفسه على إجراءاته مشبّهاً إيّاها بعهد الإرهاب اليعقوبيّ أثناء الثورة الفرنسيّة، الذي رأى فيه لينين مثالاً يجب الاحتذاء به. وقد ساهم الزعيم البلشفيّ مساهمةً رئيسيّةً في الحؤول دون إخضاع جهاز الأمن (تشيكا) للرقابة والقانون. هذا وقد كان العنف الذي ساد تلك المرحلة هو جزئيّاً من نتائج العنف والمجازر الهائلة التي شهدتها الحرب العالميّة الأولى، وجزئيّاً نتاج انحلال السلطة وانفلات التوتّرات الاجتماعيّة والصراعات بين شتى أنواع الجماعات. أمّا الإرهاب البلشفيّ فقد ترافق مع القضاء على المعارضة الاشتراكيّة وصعود بيرقراطيّةٍ متضخّمة تجلّت في أنّ عدد موظّفي الدولة ارتفع من مليونٍ في العام ١٩١٧ إلى مليونين ونصف المليون بعد أربع سنوات، ومن ٦،٤ بالمئة من السكان في عام ١٩١٣ إلى ١٣،٥ بالمئة في عام ١٩٢٠. ولا تنفصل «البقرطة» تلك عن تفضيل البلاشفة، ولاسيّما لينين، للإدارة المركزيّة السلطويّة للاقتصاد على حساب الرقابة العمّاليّة ودور النّقابات فيها. وهي المطالب التي خاضت «المعارضة العمّاليّة» (من أبرز قادتها ألكسندرا كولونتاي، أشهر النساء القليلات جدّاً في القيادة البلشفيّة) نضالاً مريراً من أجلها داخل الحزب

البلشفيّ إلى أن تمّ حلّها ومنع التكتّلات داخل الحزب سنة ١٩٢١، وهو قرارٌ تمّ وصفه بالمؤقّت إلّا أنّه غدا سلاحاً رئيسيّاً في هيمنة ستالين على الحزب.

**ازدهر في مرحلة «النيب» إبداع أدبي وفني وضع روسيا في طليعة العالم الثقافية. كذلك شهدت البلاد تغييرات عظيمة في وضع النساء غدت قدوة لسائر العالم.**

فصل الكتاب الخامس مخصّص لمرحلة سمّيت «شيوعيّة الحرب». فيصف تعبئة القدرات الصناعيّة لأغراض الحرب ضدّ «البيض» المدعومين من الدول الإمبرياليّة، مبيّناً كيف سمح ذلك بتلبية حاجات الجيش الأحمر، لكنّه أدّى إلى مشاكل اقتصاديّة جمّة وساهم إسهاماً كبيراً في تسريع بقرطة الدولة. وقد نتج من تلك المرحلة صعود التذمّر بين العمّال والفلّاحين، وهو تذمّرٌ عبّرت عن أوجّه انتفاضة بحّارة وجنود قاعدة كرونشتادت سنة ١٩٢١، احتجاجاً على قمع السلطة البلشفيّة للإضراب العامّ الذي نفّذه عمّال بيتروغراد. وقد جرى قمع الانتفاضة قمعاً دمويّاً مع اتّهامها بأنّها مؤامرةٌ رجعيّةٌ بينما كانت في الحقيقة انتفاضةً يساريّة، تطالب بسلطة السوفيات بدون البلاشفة وهو شعارٌ انتشر في ذلك الوقت. ويؤكّد سميث أنّه كان هناك مجالٌ للتفاوض مع المتمرّدين، إلّا أن الحكم البلشفيّ لجأ إلى القمع بسبب خوفه من استشراء التمرّد. ويرى سميث أنّ مرحلة «شيوعيّة الحرب» كانت حاسمة في تحوّل الدولة البلشفيّة إلى دولة بيرقراطيّة قمعيّة معادية للديمقراطيّة وقائمة على دكتاتوريّة الحزب الواحد.

أمّا الفصلان اللاحقان والأخيران فهما مخصّصان لمرحلة «النيب» («السياسة الاقتصاديّة الجديدة») التي بدأت سنة ١٩٢١ وامتدّت طوال العشرينيّات حتى قضاء القيادة الستالينيّة عليها بدءاً من عام ١٩٢٨. فيتناول الفصل السادس تلك المرحلة من زاوية السياسة والاقتصاد بينما يتناولها الفصل السابع من زاوية المجتمع والثقافة. في المجال الاقتصاديّ، أدّت «النيب» إلى الانفراج والعودة إلى الاستقرار بعد سنوات «شيوعيّة الحرب» العجاف. ويصف سميث بإسهابٍ التحوّلات في الزراعة والصناعة وشروط العمل، ومن ثمّ تفاقم الصراع داخل القيادة البلشفيّة على خلفيّة تعزيز تمسّك الحزب باحتكار السلطة. والحال أنّ البلاشفة قرّروا عدم إرفاق الإصلاح والانفراج الاقتصاديّين بإصلاحٍ وانفراجٍ سياسيّين.

### مداواة الدّاء بالدّاء

يصف سميث تبلور نظام النخبة البيرقراطيّة (نومنكلاتورا) من خلال تولّي الحزب كافّة التعيينات الهامّة في مؤسّسات الدولة، وكيف ترافق ذلك مع انتساب أعدادٍ كبيرة من «الأمّيّين السياسيّين» (حسب تقرير رسميّ صدر في تلك الفترة) إلى الحزب الحاكم. فيتناول المؤرّخ إدراك لينين المتعاظم لخطورة البقرطة، مبيّناً كيف أنّ مؤسّس البلشفيّة رأى أن يواجه تلك البقرطة ليس بالدقرطة، بل بتوكيل لجنة الحزب المركزيّة ومعها هيئة تفتيش مستحدثة مسؤوليّة محاربتها، وهو في ذلك كمن أراد محاربة الدّاء بالتي كانت هي الداء. ويستعرض الفصل السادس أيضاً التطوّرات التي حلّت في ظلّ «النيب» في الأرياف، التي بقيت غالبيّتها مناهضة للحكم البلشفيّ، وفي مسألتَي السياسة الخارجيّة والقوميّات مع تشكيل الاتحاد السوفياتي. ويخلص سميث إلى أنّ «النيب» عجزت عن تلبية حاجات البلاد الاقتصاديّة وكان لا بدّ من تسريع التصنيع، غير أنّ ذلك لم يحتّم اختيار الطرق العنيفة والإرهابيّة التي سوف يستخدمها ستالين بعد أن كان قد تحالف لسنوات مع يمين الحزب ضدّ المعارضة اليساريّة التي طالبت بمنعطف تصنيعيّ.

وقد تكون الأمور التي يتناولها الفصل السابع المخصّص للمجتمع والثقافة بعد الحرب الأهليّة هي التي أعطت العالم أجمل صورة عن الدولة البلشفيّة الفتيّة، صورة توحي بوفائها إلى اليوتوبيا التي استلهمها الثوريّون الذين ناضلوا ضدّ النظام القيصريّ. فعلى الرغم من تفاقم البقرطة في البلاد وتصاعد التمايز الاجتماعيّ في المدن والأرياف، وعلى الرغم من أنّ الحكم البلشفيّ أولى أهمّيّةً أكبر لما سُمّي «التنوير السياسيّ» ممّا أولى التعليم حيث إنّ نسبة نفقات التعليم في ميزانيّة الدولة في عامَي ١٩٢٤ - ١٩٢٥ كانت أقلّ قليلاً ممّا كانت عليه سنة ١٩١٤ في ظلّ الحكم القيصريّ، وعلى الرغم من تنظيم رقابةٍ فاقت ما عرفته روسيا بعد ثورة ١٩٠٥، فقد ازدهر في مرحلة «النيب» إبداعٌ أدبيّ وفنّي وضع روسيا في طليعة العالم الثقافيّة. كذلك شهدت البلاد تغييراتٍ عظيمة في وضع النساء غدت قدوة لسائر العالم على الرغم من مقاومة التقاليد البطريركيّة للتطلّعات النسويّة وتغلّبها عليها في نهاية المطاف.

ويتضمّن الفصل وصفاً لحملة محو الأمّيّة والتربية الشعبيّة التي أطلق عليها اسم «الثورة الثقافيّة» وكذلك وصفاً للحملة على التديّن والمؤسّسات الدينيّة، مع الإشارة إلى المفارقة التي جعلت جماعة ستالين تعيد بعض عناصر التديّن الشعبيّ إلى صلب الثقافة الرسميّة من خلال تنظيم عبادة لينين إثر وفاته، بما في ذلك تحنيط جثمانه وعرضه في ضريح. وينتهي الفصل بإشارة مقتضبة إلى الانعطاف الحادّ الذي سوف يقوده ستالين في سنوات **١٩٢٨ - ١٩٣١** («القطيعة الكبرى»). وفي إحدى المبالغات النادرة التي يمكن أخذها على كاتب توخّى الاتّزان باستمرار، يقول عن تلك القطيعة إنّها غيّرت الاقتصاد والمجتمع والثقافة «بعمق أكبر بكثير مما أنجزته ثورة أكتوبر».

**يرى سميث أن مصير ثورة فبراير كان يمكن أن يكون مختلفا لولا إصرار «الاشتراكيين المعتدلين» على الحكم مع البرجوازية ممثلة بحزب الكاديت.**

في خلاصته، يتأمّل سميث في عِبَر الثورة الروسيّة في ضوء إحدى القضايا الرئيسيّة التي تناقشها فلسفة التاريخ، ألا وهي ديالكتيك «البنية والوكالة»، أو بكلام آخر، أقرب إلى القاموس الماركسيّ، «دور الفرد في التاريخ». فبينما لا يشكّ في أنّ النظام القيصريّ قد واجه توتّرات هائلة من جراء دفعه للتحديث في مجتمع غارق في التخلّف الاجتماعيّ، يرى أنّ درب الإصلاح السياسيّ والاجتماعيّ كان متاحاً لولا التعنّتُ الرجعيّ الذي تميّز به القيصر نيقولا الثاني. كما يرى سميث أنّ مصير ثورة فبراير كان يمكن أن يكون مختلفاً لولا إصرار «الاشتراكيّين المعتدلين» على الحكم مع البرجوازيّة ممثّلة بحزب الكاديت. أمّا الفائدة من هذه التأمّلات المضادّة للواقع، فهي في نظر المؤرّخ أنّها تسمح بفهم ما جرى على وجهٍ أفضل.

### اللينينيّة والستالينيّة: تواصلٌ أم انقطاع؟

بعد تلخيص تقييمه لنتائج الثورة البلشفيّة في المنظور التاريخيّ، يُنهي سميث كتابه بتناول موضوع مركزيٍّ في مناقشة تلك الثورة التي غيّرت وجه العالم، فيبحث في أطروحة المؤرّخين المناوئين للشيوعيّة الذين يعزون الستالينيّة إلى اللينينيّة وهذه الأخيرة بدورها إلى الماركسيّة. لا يدخل سميث في دحض المساواة بين الماركسيّة واللينينيّة التي هي خارجة عن نطاق بحثه، بل يبحث في مسألة التواصل أو انقطاعه بين اللينينيّة والستالينيّة. فمن جهةٍ يبيّن أنّ الأيديولوجيّة لم تكن المسيّر الأوحد لقرارات البلاشفة، بل أنّها رسمت نطاق خياراتٍ شتى انعكست آراء شتى بين البلاشفة أنفسهم ولم تكن ثمّة حتميّة في القرارات التي تمّ اتّخاذها. وفي حين يقرّ سميث أنّ النظريّة والممارسة اللينينيّتين انطوَتا على وفرة من العناصر التي مهّدت للستالينيّة، فإنّه يرى أنّ من مآسي التاريخ، التي تناقض تصوّرات حتميّة المصائر، أنّ لينين مات في سنّ مبكّرة وفي وقت كان قد بدأ يفطن إلى خطورة تسليمه مقاليد الحزب لستالين، لكنّه لم يتمكّن من خوض تلك «المعركة الأخيرة» (كما سمّاها المؤرّخ موشي ليفين). ويرى سميث أنّه لو خلَفَ لينين بوخارين أو تروتسكي بدل أن يخلفه ستالين لما عرفت روسيا فظاعات الستالينيّة.

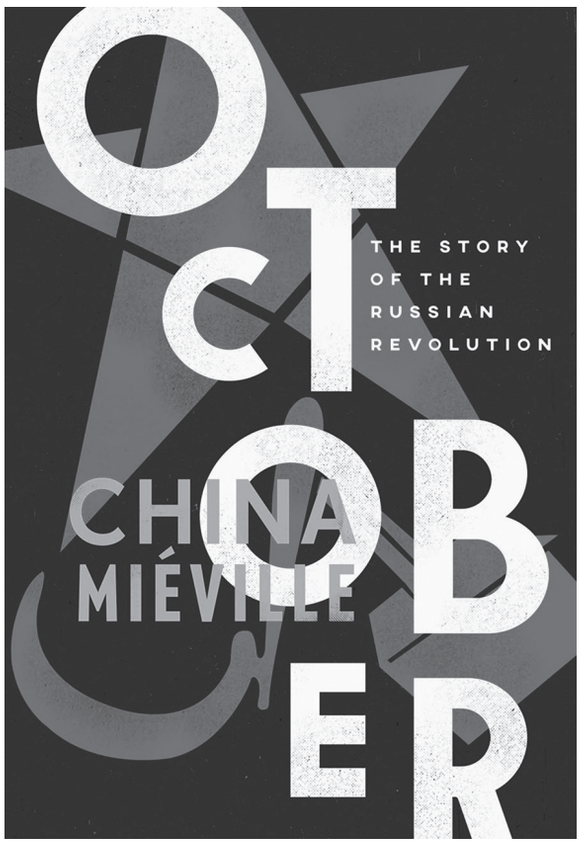
ختاماً، يستشهد سميث بقائدَي الحركة العمّاليّة قبل الحرب العالميّة، كارل كاوتسكي وجان جوريس، اللذين حذّرا قبل اندلاع الحرب من أنّ ثورةً اجتماعيّةً تنشأ من المعمعة لا يمكنها سوى أن تكون متأثّرة بانحطاط القيَم الأخلاقيّة الذي يرافق الحرب. ويرى المؤرّخ أنّ القرن الواحد والعشرين قد يجعل المستقبل ينظر إلى الثورة الصينيّة بوصفها أعظم ثورات القرن العشرين عوضاً عن الثورة الروسيّة، نظراً لنجاحها الباهر في نقل الصين إلى مرتبة القوّة الاقتصاديّة العظمى. كما يرى أنّ الإرث الأهم لثورة **١٩١٧** في القرن العشرين ليس تحدّيها للرأسماليّة الذي فشلت فيه، بقدر ما هو كون الدولة التي نتجت عنها قد ساهمت في دحر الفاشيّة وتصدّت للهيمنة الأميركيّة خلال الحرب الباردة.

وباختصار، كتابُ أي. إس. سميث أغنى وأشمل الكتب الحديثة في جَرد الحساب التاريخيّ للثورة الروسيّة في ضَوء إلمام متميّز بكافّة الأبحاث الأساسيّة التي تراكمت طوال القرن المنصرم منذ انفجارها، ومن منطلق يتعاطف مع الغاية الاشتراكيّة والأماني الثوريّة. ونأمل أن يُترجم إلى العربيّة بأسرع وقت، كي يساعد على إعداد الجيل الذي دخل حلبة السياسة ثوريّاً في «الربيع العربيّ» والذي يقف أمام تحدٍّ تاريخيّ لا يقلّ صعوبة عن ذلك الذي واجه الثوريّين الروس، إن لم يكن يفوقه.

# تشاينا مايفيل
## هي ثورتنا وعلينا إكمالها

**ريما ماجد**

**جامعيّة وعالمة اجتماع من لبنان.**




China Miéville,
*October: The Story of the Russian Revolution*,
Verso, 2017

**«كانت تلك بالتأكيد ثورة روسيا، لكنّها كانت أيضاً، ولا تزال، ملكاً للآخرين. وكان يمكن أن تكون ثورتنا. وإذا خلّفت أقوالاً غير مكتملة، يتعيّن علينا نحن إكمالها».**

هكذا يبدأ الروائيّ البريطانيّ، تشاينا مايفيل، كتابه الجديد «أكتوبر» ليحتفل بمئويّة الثورة الروسيّة ويقصّ لنا حكاية هذه الثورة التي غيّرت وجه العالم في القرن العشرين. لا يخفي مايفيل ميوله السياسيّة على القارئ، بل يحدّد في مقدّمة كتابه أنّه على الرّغم من محاولته الجادّة أن يكون موضوعيّاً في سرد الأحداث، فإنّ «لديه أبطاله وأعداءه في هذه القصّة». ويوضّح مايفيل في بداية الكتاب أنّ هذا العمل ليس بعمل أكاديميّ يطمح إلى البحث التاريخيّ في أحداث الثورة الروسيّة، بل هو كتاب يهدف إلى تعريف القارئ إلى إحدى أعظم ثورات العالم من خلال جمع الأبحاث المنشورة عن الموضوع وإعادة صياغتها على شكل رواية واقعيّة تحكي مجريات العام ١٩١٧ في روسيا.

نجح مايفيل في تقديم تاريخ الثورة الروسيّة بشكل موضوعيّ إلى حدٍّ بعيد، يجمع التفاصيل التاريخيّة بالدّقّة البحثيّة، ما جعل من هذا العمل بمثابة إضافة مهمّة إلى أدبيّات الثورة البلشفيّة. وقد أجمع معظم المؤرّخين، حتى الذين لا يتّفقون مع وجهة نظر مايفيل السياسيّة المؤيّدة والمحتفية بالثورة (مثل البروفيسورة شايلا فيتزباتريك)، على أنّ الكتاب مبنيّ على بحثٍ دؤوب ودقيق لا تشوبه الأخطاء التاريخيّة. وبالتالي، يشكّل هذا الكتاب، الذي استغرق إعداده حوالى العام من البحث المكثّف، مدخلاً مهمّاً إلى تاريخ الثورة الروسيّة، خصوصاً بالنسبة إلى الطّارق الجديد للموضوع. ولهذا القارئ، يقدّم مايفيل





في نهاية الكتاب فهرساً طويلاً بأسماء كلّ الشخصيّات المذكورة في الكتاب مع لمحة سريعة عن كلٍّ منها لكي يسهّل التعرّف عليها ويحدّ من الخلط بين الأسماء الروسيّة التي يمكن في كثير من الأحيان أن تبدو متشابهة لمن لا يفقه فيها. أمّا القارئ المطّلع، فهو أيضاً سيستمتع بقراءة هذا العمل الذي يجمع بشكلٍ ساحر الوقائع التاريخيّة والنقاشات النظريّة والأيديولوجيّة والسياسيّة بأسلوب روائيّ سلسٍ وممتع يضيء على جوانب الثورة الروسيّة وشخصيّاتها بتفاصيل قلّ من يعرفها. وكما يقول مايفيل في إحدى المقابلات معه، إنّ الكتاب لم يُكتب لقارئ يساريّ بالضرورة، لكنّه كُتب لأيّ قارئ بأيدي مؤلّف يساريّ... وهنا تكمن الحكاية!

**بدأت الثورة في ٢٣ شباط/فبراير حين خرجت الآلاف من العاملات في مظاهرات في اليوم العالمي للمرأة. محتجات على الأوضاع المعيشية الصعبة والنقص في الخبز. لينضم إليها العديد من النساء والرجال من خلفيات متعـــــــــــــــــددة.**

يروي تشاينا مايفيل في هذا الكتاب قصّة العام ١٩١٧ في روسيا بحماسة من كان يريد للثورة أن تنتصر. يبدأ الكتاب بفصل يشرح الإطار العام والسياق التاريخيّ الذي أوصل إلى الثورة الروسيّة. تنطلق القصّة في العام ١٧٠٣، مع قرار القيصر بطرس الأكبر إقامة قلعة ومدينة له على رقعة من الأرض الروسيّة لتصبح عاصمة الإمبرطوريّة وتحمل اسمه: سانت بطرسبرغ. ومن هنا تتسارع الأحداث لتربط بين تاريخ روسيا القيصريّة وتقلّباتها، مروراً بالثورة الصناعيّة وتشكّل الاشتراكيّة الروسيّة ومن ثمّ انقسام حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي في العام ١٩٠٣ بين المناشفة (أي الأقليّة في اللغة الروسيّة) والبلاشفة (أي الأكثريّة)، والحرب الروسيّة - اليابانيّة في العام ١٩٠٤، وصولاً إلى ثورة ١٩٠٥ التي قادها العمّال والفلّاحون والعسكريّون عبر الإضرابات والعصيان. وقد استطاعت هذه الثورة، على رغم هزيمتها، في فرض أوّل دستور روسيّ عام ١٩٠٦ وتحويل النظام إلى ملكيّة دستوريّة وتأسيس مجلس دوما تتمثّل فيه مختلف الأحزاب. كانت هذه الثورة بداية تشكّل المجالس العمّاليّة، أو ما عُرف بالسوفيتات، وهي الشكل التنظيميّ الذي سيظهر مجدّداً في ثورة ١٩١٧.

هكذا مثّلت ثورة ١٩٠٥ محطّة رئيسة في السيرورة التاريخيّة التي ستؤدّي إلى ثورتَي شباط / فبراير ومن ثمّ تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩١٧. لكنّ مايفيل رأى أنّ النّقطة التاريخيّة المفصليّة التي ستقود لثورات ١٩١٧ هي دخول روسيا في الحرب العالميّة الأولى، وتفاقم الأوضاع المعيشية والاجتماعيّة، وسوء إدارة (أو حتى سذاجة) القيصر نقولا الثاني، فيروي كيف أنّ الأسرة الحاكمة، ولاسيّما زوجة القيصر، أليكساندرا، وقعت تحت سحر الكاهن راسبوتين الذي استطاع أن يداوي ابنها (أي وليّ العهد) من مرضٍ عضال، فأصبح لديه تأثير كبير على العائلة الحاكمة وعلى سياسة البلاد وقرارات القيصر. ويصوّر مايفيل القيصر نقولا الثاني كشخص أبله، ذي شخصيّة ضعيفة وذكاء سياسيّ محدود جدّاً. فيخبرنا كيف أنّ زوجته ألكساندرا كانت تضع له مشط راسبوتين في جيبه قبل اجتماعاته السياسيّة كي تحلّ عليه حكمة الكاهن ويتّخذ قرارات صائبة، ويروي مايفيل كيف أنّ القيصر تغاضى وقلّل من شأن كلّ المعلومات والبرقيّات التي وصلته في شباط / فبراير ١٩١٧ تشير إلى أنّ الثورة أصبحت على الأبواب. ففي هذا الظرف التاريخيّ، الذي جمع بين ضعف القيصر وتدهور الظروف المعيشيّة بعد دخول روسيا في الحرب العالميّة الأولى، قامت الثورة الروسيّة التي سيأخذنا مايفيل في كتابه إلى تفاصيلها شهراً شهراً، وأحياناً ساعةً ساعة. فبعد الفصل الأوّل، ينقسم الكتاب إلى تسعة فصول، يروي كلّ منها مجريات شهر واحد، من شباط / فبراير ١٩١٧، عند الإطاحة بالقيصر وتسلّم الحكومة المؤقّتة للحكم، إلى تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٧، عند الاطاحة بالحكومة المؤقّتة وتسلّم البلاشفة للحكم.

### في اليوم العالمي للمرأة

بدأت الثورة في ٢٣ شباط / فبراير (أو ٨ آذار / مارس حسب التقويم الغريغوري) حين خرجت الآلاف من العاملات في مظاهرات في اليوم العالميّ للمرأة، محتجّات على الأوضاع المعيشيّة الصعبة والنقص في الخبز، لينضمّ إليها العديد من النّساء والرّجال من خلفيّات متعدّدة. وقد لعب الاشتراكيّون دوراً أساسيّاً في تنظيم الاحتجاجات وتصعيدها. وفي غضون يومين، وصل الإضراب إلى إقفال المعامل والمحالّ والخدمات في العاصمة سانت بطرسبرغ، الأمر الذي أجبر مجلس الدوما على التحرك وطلب التنحّي من القيصر تحت ضغط الشارع. رفض القيصر وأمر العسكر بوقف الإضراب وإعادة الأمور إلى

مجراها. لكنّ معظم العسكريّين تمرّدوا على هذه الأوامر وانضمّوا إلى الحركة الثوريّة التي أفضت إلى اعتراف القيصر بالهزيمة واستقالته في ١٩١٧.

**كانت عودة لينين إلى روسيا لحظة تاريخية هامة. إذ إنه أعلن حينذاك «أطروحات أبريل». أو توصياته العشر التي ستعيد ترتيب العمل السياسي للبلاشفة.**

هنا، أعلن مجلس الدوما إقامة حكومة مؤقّتة تحت قيادة الأمير غريغوري لفوف أوّلاً ومن ثَمّ انتقلت القيادة إلى ألكسندر كيرنسكي، رئيس الحزب الثوري الاجتماعي. في هذه الأثناء، كان الاشتراكيّون قد أعادوا تشكيل العمل في سوفيات سانت بطرسبرغ الذي أصبح الممثّل الأساسيّ للعمّال والجنود. وعلى الرّغم من التغيّرات السياسيّة الكبيرة التي حدثت في روسيا بعد شباط / فبراير، فإنّ الحكومة المؤقّتة قرّرت المضيّ في الحرب العالميّة، الأمر الذي أثار غضب الكثير من الروس الذين كانوا يودّون تنتهي الحرب. ونظراً إلى تطوّر الأمور والانفتاح السياسيّ الذي حدث بعد ثورة فبراير، عاد لينين، الزعيم البلشفيّ المنفيّ في سويسرا، إلى روسيا مع رفاقه في قطار مغلق أخذهم عبر الأراضي الألمانيّة وصولاً إلى «محطّة فنلندا» ومن ثمّ سانت بطرسبرغ في نيسان / أبريل ١٩١٧. وكانت عودة لينين إلى روسيا لحظة تاريخيّة هامّة، إذ إنّه أعلن حينذاك «أطروحات أبريل»، أو توصياته العشر التي ستعيد ترتيب العمل السياسيّ للبلاشفة وتؤسّس لمواجهة صريحة مع الحكومة المؤقّتة التي اتّهمها لينين بالبرجوازيّة والليبراليّة. وبعد عودة لينين إلى روسيا، ارتفعت شعبيّة الحزب البلشفيّ وازدادت وتيرة المظاهرات والإضرابات المنددّة بالحرب والرافعة لشعار «كلّ السلطة للسوفيات». وفي شهر أيار / مايو، وصل تروتسكي إلى روسيا عائداً من نيويورك، وأيّد أطروحات لينين وانضمّ إلى الحزب البلشفيّ في تمّوز / يوليو ١٩١٧ حيث انتُخب عضو في اللجنة المركزيّة للحزب. وأفضت هذه الأجواء من التصعيد ضدّ الحكومة المؤقّتة إلى أحداث تمّوز / يوليو العنيفة، حين تحوّلت المظاهرات إلى مواجهات دامية أدّت إلى القبض على تروتسكي وهروب لينين إلى فنلندة. لكنّ «انتكاسة» يوليو لم تستطع إنهاء البلاشفة إذ إنّ أعدادهم ظلّتْ تتصاعد وتمدّد نفوذهم إلى العديد من القرى والمدن البعيدة عن العاصمة. في آب / أغسطس بدأت موجة مظاهرات وإضرابات عماليّة، تلبيةً لنداء الحزب البلشفيّ، مطالبةً بالانسحاب من الحرب العالميّة الأولى.

ونظراً لسخط الشارع، شعر القائد العام للقوّات المسلّحة، كورنيلوف، بأنّ هناك قابليّة عند كرينسكي للانسحاب من الحرب، فقام بمحاولة انقلاب على الحكومة المؤقّتة في ٢٥ آب. لكن، على الرغم من الخلاف مع كرينسكي، قام الحزب البلشفيّ بنجدته، وقد كان لهذا الحزب دور أساسيّ في إفشال محاولة كورنيلوف الانقلابيّة التي عدّها انقلاباً على الثورة. ففي بدايات أيلول / سبتمبر ١٩١٧، كانت قوّة الحزب البلشفيّ وشعبيّته قد أصبحت واضحة للجميع، فقام سوفيات سانت بطرسبرغ بالإفراج عن كلّ السجناء البلاشفة، ومن بينهم تروتسكي الذي ما لبث أن رأس هذا السوفيات بعد تراجع المناشفة والاشتراكيّين الثوريّين في أيلول. في هذه الأثناء كان لينين لا يزال في فنلندا حيث كان قد أنجز كتابه «الدولة والثورة». وفي تشرين الأوّل / أكتوبر، شعر لينين بأنّ الوضع قد أصبح ملائماً لعودته إلى روسيا، فعاد وطرح على اللجنة المركزيّة للحزب البلشفي فكرته بضرورة حلّ الحكومة المؤقّتة وتسلّم سوفيات سانت بطرسبغ (أو بتروغراد) السلطة. صوّت كلّ أعضاء اللجنة المركزيّة تأييداً لهذه الفكرة، ما عدا إثنين: كامنيف وزينوفييف. وهكذا بدأت ثورة أكتوبر، حيث قام البلاشفة، تحت قيادة تروتسكي الميدانيّة، بالسيطرة على القصر الشتوي والإطاحة بالحكومة المؤقّتة لتأسيس أوّل تجربة لحكم السوفيات.

هكذا يروي كلّ فصل من فصول الكتاب مجريات الشهر من خلال الغوص في يوميّات الإضرابات والنقاشات والخلافات والتنظيمات والعنف والثورة والثورة المضادّة. كما أنّ الكتاب يغطّي تفاصيل تاريخيّة مشوّقة ولافتة، منها دور لينين في تنظيم الطابور للدخول إلى المرحاض في القطار الذي أعاده هو ورفاقه من سويسرا إلى روسيا، أو تفاصيل عن مجموعة «مزرايونتسكي» الاشتراكيّة التي انضمّ إليها ورأسها تروتسكي عند عودته إلى روسيا، وكذلك غناء كيرنسكي للأوبرا في غرفته في «قصر الشتاء» من أجل ضبط أعصابه خلال محاولة الجنرال كورنيلوف الانقلاب على الثورة في آب / أغسطس ١٩١٧... فيشعر القارئ بأنّه جزء من هذه القصّة، يتعرّف إلى الشخصيّات من خلال وصف دقيق يجعله يتخيّل ملامحها ويتعرّف إلى صفاتها ومزاجاتها، فيعاشرها من

خلال صفحات هذا الكتاب ليخلص، مثل مايفيل، إلى بناء صداقات وعداوات مع هذه الشخصيّات التاريخيّة.

**يعج الكتاب بالنقاشات الطويلة والخلافات الحادة والتقلبات الفكرية والتصويت كأداة لاتخاذ العديد من القرارات. ويظهر دور مجالس السوفيات كساحات أساسية للنقاش الديمقراطي. بعيدا عن المركزية الحزبية التي اتبعت لاحقا في العهد الستاليني.**

يظهَر إعجاب تشاينا مايفيل بلينين وتروتسكي جليّاً في صفحات الكتاب. في مقابلة أجراها حول كتابه، يقول مايفيل إنّ عظمة لينين، وتروتسكي إلى حدٍ أقلّ في قدرته الفائقة على التأقلم مع التغيّرات السريعة. على الرّغم من أنّ هذه الميزة لم تأت بلا أخطاء، إلّا أنّ اللافت في سيرة لينين سرعة تغيير مواقفه وتبنّي مواقف مغايرة دون تردّد ودون تمسّك بمواقف فقط لأنّه هو من أطلقها. ومن هنا إعجاب مايفيل بعلاقة لينين «غير العاطفية» بمواقفه وبقدرته الدائمة على إعادة التقييم واختيار مواقفه على نحوٍ إستراتيجيّ يتلاءم مع متغيّرات الواقع.

### ديمقراطيّة السنوات الأولى

من أهمّ ما يسلّط الضوء عليه هذا الكتابُ المكانةُ المهمّة للعمل الديمقراطيّ في المراحل المبكّرة من الثورة البلشفيّة. على عكس الصورة التي رُسمت لاحقاً للبلاشفة وللاتحاد السوفياتي بسبب الحقبة الستالينيّة وما خلّفته، كانت السنوات الاولى من الثورة الروسيّة تتحلّى بروح ديمقراطيّة عالية تتجلّى بوضوح في رواية مايفيل لمجريات العام **١٩١٧**، فيعجّ الكتاب بالنقاشات الطويلة والخلافات الحادّة والتقلّبات الفكريّة والتصويت كأداة لاتّخاذ العديد من القرارات. ويظهر هنا دور مجالس السوفيات كساحات أساسيّة للنقاش الديمقراطي ولاتّخاذ القرارات، بعيداً عن المركزيّة الحزبيّة (أو ما سُمّي «المركزيّة الديمقراطيّة» بحسب النظريّة اللينينيّة) التي اتُّبعتْ لاحقاً في العهد الستاليني. ويسلّط مايفيل الضوء على الدور الرئيس الذي أدّته النساء، وخصوصاً الاشتراكيّات مثل ألكساندرا كولونتاي، في اندلاع الثورة. ويروي الإنجازات الكبيرة للثورة البلشفيّة التي استطاعت، في غضون أيّام، منح المرأة حقوقاً سياسيّة واجتماعيّة، والاعتراف بالحرّيّات الفرديّة والدينيّة، والانفتاح على مواضيع المثليّة الجنسيّة والتحرّر الجنسيّ، وذلك كله جاء قبل أن تدخل هذه القيَمُ التقدميّة الدّوَل الغربيّة بسنوات عديدة.

وما يميّز هذا الكتاب عمّا سبقه ممّا كُتب في الموضوع، من كتاب جون ريد إلى كتاب تروتكسي وغيره، هو أن مايفيل يكتب اليوم قصّة الثورة بعدما شهدنا قيامها، وحربها الأهليّة، وتأسيسها للاتحاد السوفياتي في العام **١٩٢٢**، وانتكاسها وتحريف مجراها بعد وصول ستالين إلى الحكم، وأخيراً انهيارها وانهيار المشروع الذي كان يحمل، ولو بأشكال مختلفة، أفكارها ومبادئها وأحلامها. يكتب مايفيل قصّة الثورة البلشفيّة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وقلّة هم من كتبوا هذا التاريخ بعد العام **١٩٨٩** وحافظوا على حماستهم ومناصرتهم للثورة. مايفيل من هذه القلّة، إذ إنّه لا يزال يؤمن بأهمّيّة تلك الثورة وبجدوى القيَم التي قامت من أجلها ورفعتْها. ويقول في إحدى المقابلات إن انزلاق الثورة وانتكاس مجراها لم يكن حتميّة تاريخيّة، وإنّما كان من الممكن جدّاً لهذه الثورة أن تأخذ منحى آخر، أكثر إيجابيّة وأكثر عدالة وأكثر اشتراكيّة.

أخيراً، يخلص مايفيل إلى أنّ الثورة في روسيا كانت «ثورة القطارات»، إذ إنّ الثورة الصناعيّة وتطوّر المواصلات وتزايد عدد عمّال سكك الحديد لعب دوراً أساسيّاً في مجريات الثورة. لكنّ المؤلّف يستعمل القطارات أيضاً لتسليط الضوء على الربط بين الجغرافيا والتاريخ، بين المدن والتطوّر الزمني، بين الماضي والحاضر وبين المادّيّة التاريخيّة والأحداث الثوريّة. ويقول مايفيل إنّه إذا كان هناك درس واحد لنتعلّمه من العام **١٩١٧** فهو قدْرة التاريخ على أن يغيّر مجراه وينقلب بسرعة قصوى. لذا، يرى أنّ من المهمّ أن نكتب ونقرأ عن الثورة الاشتراكيّة الأولى لنتذكّر أنّ التاريخ قد انقلب مرّةً، وأنّ بإمكانه أن ينقلب مجدّداً. وعلى الرّغم من عدم تبنّي مايفيل لنظرة تفاؤليّة بالمطلق، على اعتبار أنّ التفاؤل في ظلّ الظروف الراهنة هو سذاجة لا أكثر، إلّا أنّه في هذا الكتاب يحاول أن يبعث الأمل في إمكانيّة تغيّر الظروف المادّيّة وانقلاب التاريخ. والأمل غير التفاؤل، كما يقول مايفيل. ويشكّل هذا الأمل، على الرغم الاعتراف بالانتكاسات والانجرافات في مسار معظم الثورات ومنها الثورات العربيّة، نافذة لنا لنتخيّل مستقبلاً أفضل وأكثر عدالة للمنطقة العربيّة وللعالم أجمع.

# النساء في الثورة الروسية
## عن العمل والحرية والحب

**سنثيا كريشاتي**

**جامعيّة وناشطة اجتماعيّة، لبنان.**

**«إذا كان لا يمكننا تصوّر أنّ تحرّر المرأة يتمّ بدون الشيوعيّة، إذاً فلا يمكننا أن نتصوّر أن الشيوعيّة سوف تتحقّق بدون تحرّر المرأة»**
إينيسّا آرمان

يقول الأنتروبولوجي الفرنسي موريس غودلييه في «أصول السيطرة الذكوريّة» إنّ إخضاع المرأة في المجتمع مرتبطٌ بالرأسماليّة قدْر ارتباطه بآليّات السيطرة قبل الرأسماليّة. والمقولات التي تتبنّاها بعض الأوساط اليساريّة والشيوعيّة من أنّ كلّ أشكال اللامساواة «محكومٌ عليها بأن تزول مع زوال الاستغلال الطبقيّ والإمبرياليّة والعنصريّة» لا توحي بأنّها صحيحة[1]. قبل غودلييه، كانت نساء الثورة البلشفيّة قد أدركْن ذلك جيّداً. وبعد أكثر من ستّة عقود على نشر «رأس المال»، وقرابة عقدٍ على الثورة البلشفيّة، سعَين إلى وضع الحريّة والعمل في مواجهة استلاب المرأة وظروف اضطهادها. فكيف يمكن للنّساء أن يمارسْن حريّة العمل، حسب إرادتهنّ، وتنمية شخصيّاتهنّ، والسّيطرة على الطبيعة من خلال التكنولوجيا الحديثة، إذ يدخلن عالماً يضجّ بالإمكانات الجديدة التي خلقتْها الثورة، وهنّ لا يزلن ضحايا السيطرة والاضطهاد؟

**«إنّ إشباع كلّ الحاجات، واستطاعة كلّ شخص أن ينمّي ميله الطبيعيّ للمشاركة في هذا الحقل أو ذاك، كلٌّ حسْب ذوقه وميوله، رجلاً كان أو امرأة، وأنْ يتحرّر كلّياً من كافّة أنواع اضطهاد الإنسان للإنسان ويمتلك كلّ الإمكانات الجديدة المتوافرة للنّضال ضدّ قوى الطبيعة، وإحراز الانتصارات ضدّها، وتنمية الطّاقات الشخصيّة الإنسانيّة المتنوّعة – هذه هي تقريباً أبرز مَعالم المستقبل البرّاق والحقيقيّ وبعيد المنال... فهل يمكن أن يتحقّق ذلك في ظروف اضطهاد النساء؟»[2].**

تعلّمنا الماركسيّة، بما هي «فلسفة الممارسة»، الطريقة التي بها تتّخذ الأفكار طريقهَا إلى التنفيذ مثلما تعلّمنا ما الذي نتعلّمه نستفيده من تلك الأفكار، وتعلّمنا الماركسيّة أيضاً أنّ الثورات تقرّبنا من القبض على المعاني المختلفة للحريّة. على العموم، هذا ما تُلقي الثّورات، والدّراسات عن الثّورات، الأضواء الكاشفة عليه. بهذا المعنى أيضاً كانت ثورة **١٩١٧** البلشفيّة «ثورةً هزّت العالم». فجميع من ساهم فيها، أو كان شاهداً عليها، أو قرَأ أو كتب عنها، ولو بعد قرنٍ من قيامها، صار بإمكانه أن يشاهد العالَم وأن يرى إليه بطرائق لم يكن يعرفها من قبل، وهذا ينطبق على الرّجال كما على النّساء. من هنا كان الاعتراف بأهمّيّة النّساء والجندر في تاريخ الثورة الروسيّة لا علاقة له بالاستقامة السياسيّة. إنّه مسألة دقّةٍ تاريخيّة[3].

### يوم المرأة العالميّ ١٩١٧

إنّ عاملات النسيج هنّ من أطلقن شرارة الثورة في اليوم العالميّ للمرأة في **٨** آذار / مارس **١٩١٧**. أعلنت العاملات الإضراب في حيّ فابورغ في بتروغراد غير آبهاتٍ بكلّ تحذيرات زملائهنّ الذين شعروا بأنّ الاحتجاج سابقٌ لأوانه. وبعد ساعات، سارتْ تظاهرة نسائيّة نحو مجلس الدّوما البلديّ تطالب بالخبز. وعندما التقتْ مطالبهنّ الاقتصاديّة بالمطالب السياسيّة الداعية إلى وضْع حدٍّ للحرب، وقد حملَت الحرب العالميّة الأولى الكوارث على سكّان الإمبراطوريّة الروسيّة، كانت النتيجة فاتحةً لعهدٍ جديد. بعد أيّامٍ تنحّى القيصر نيقولا الثاني، وأنهى بذلك

سلالة رومانوف الإمبراطوريّة الروسيّة، وتشكّلتْ حكومةٌ جمهوريّة مؤقّتة.

منذ ذلك الثامن من مارس / آذار لم تعُد العاملات مجرّد الشرارة التي أطلقت الثورة، صارتْ جزءاً مكوّناً من الثورة ذاتها. كانت النساء ثوريّات بذاتهنّ. ومع أنّ مساهمة البعض منهنّ تُذكر في العادة، مثل مساهمة ألكسندرا كولونتاي وإينيسّا آرمان، نادراً ما توضع «المسألة النسويّة» في مقدّمة البحث. وهي مسألةٌ لا تزال إلى يومنا هذا مسألةً معقّدةً يصعُب تفكيك عقَدها وتعريفُها وفهمُها. وكما تقول شيلا روبوثام «بدا لمفسّري الثورة الروسيّة أنّ ثمّة مسائل أخرى أكثر أهمّيّة من المسألة النسويّة. مع ذلك فإنّ أثر الثورة على النساء كان له دلالاتٌ تتعدّى بكثير تلك التي تتعلّق تخصيصاً بتحرّر المرأة. إنّ العالَم الذي فتحتْه الثورة على مصراعَيه للنّساء لا يمكن فصله عن ذلك الذي شرّعته للرّجال. وهذا ما تمّ تناسيه لأنّ الثورة توصف من خلال عيون الرجال»[٤].

إنّ تعريف «المسألة النسويّة» وتفسيرها قبل ثورتي العام **١٩١٧** (ثورة شباط / فبراير وثورة تشرين الأول / أكتوبر) وخلالها وبُعَيدها مهمّةٌ جبّارة بسبب صعوبتها وحيويّتها في الآن ذاته. فيما يلي مساهمة متواضعة في النّظر إلى الأسباب التي دفعت النساء إلى الانتفاض في العام **١٩١٧**، وإلى القيام بدَورهنّ خلال الثورة. وسننظر فيها أيضاً إلى إنشاء «الجينوتدل» Genotdel – «مكتب النساء» التابع للّجنة المركزيّة للحزب البلشفيّ – والتشريعات عن عمل النّساء والرّعاية الصحّيّة والرفاه خلال العقد الأوّل من الثّورة، وأخيراً، العلاقة بين الحبّ والوعد بالحريّة التي وعدت به الثورةُ النساء.

**العاملات ونساء النخبة المثقفة**

نعرف النَّذَر القليل عن تاريخ الحركة العمّاليّة النسويّة وجهودها التنظيميّة على امتداد السنين، فيما أصولُ مشاركة النساء في ثورتَي فبراير وأكتوبر، موثّقة بطريقة أفضل. أعلنتْ روسيا إلغاء نظام القنانة (استعباد طبقةً الفلاحين في عهد الإقطاع) في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر. لكنّ النظر للمرأة وكأنّها من المقتنيات الفرديّة ظلّ سائداً في كثيرٍ من المناطق. ومن النّوادر الشائعة أنّ الأب عندما يزوّج ابنته يهدي إلى الزّوج سوطاً غالباً ما كان يعلّق فوق السّرير الزّوجيّ ويستخدم للسّيطرة على المرأة وترويضها. وكانت الشابّة تنتقلُ من الخضوع لسلطة الأب إلى الخضوع لسيطرة الزّوج، وكثيراً ما كانت تحتاج إلى إذن الزوج في كلّ شؤون حياتها. وقضت الشرائع القيصريّة أنّ واجب المرأة هو طاعةُ زوجها بصفته رأس العائلة، وأن تكون محبّة ومبجِّلة له وخاضعةً في كلّ المجالات، وأن تُظهر له الطّاعة والعاطفة. الطلاق، باهظ الثمن والذي يحتاج إلى إذن من الكنيسة الأرثوذكسيّة، كان مستحيلاً عمليّاً. وفي الريف كانت النساء يعامَلن مثل الماشية، يثقلهنّ شظف العيش وظروف العمل.

كانت فترات الحمل والولادة تتخلّلها ظروفٌ فظيعة. في أشهُر الشتاء الطويلة، عندما كان الرجال يلازمون البيوت لأسابيع كاملة، كان لا بدّ من أنْ تحمل النّساء. كان الإجهاض يتمّ سرّاً فيما القابلات يستخدمْن المسامير للتخلّص من الأجنّة غير المرغوب فيها. وكثيرة كانت حالات الوفاة عند الولادة. المحظوظات فقط يَسلمْن، إذ كانت الولادة بذاتها مخيفة. ثمّة روايات عن نساء كنّ يستلقين على المدافئ أو على الأرض بين الصراصير فاسخات الأفخاذ تسحقهنّ أوجاعُ الطلق، وهنّ يحاولن إطلاق مواليدهنّ. وغالباً ما وَصَف مكسيم غوركي النساء وهم يولدن في الحقول والحفَر ولا يملكْن غير أسنانهنّ لقطْع حبل السرّة.

لم تكن أحوال النساء العاملات بأفضل حالاً بكثير. حتى العام **١٩١٢**، لم يكن ثمّة تشريعٌ يحمي العاملات في الصناعة (حيث لا ضمان صحّياً ولا إجازاتٍ مرَضيةَ، لا حدود لساعات العمل، إضافةً إلى الأجور الزهيدة، إلخ.). كنّ يعملْن لساعات طويلة ويتقاضَين أقلّ من زملائهنّ من الرّجال وغالباً يُصرفْن من العمل عند الحَمْل. ولم يكن البغاء بممارسة نادرة بين العاملات فيما رجال الدّين يباركون أماكن ممارسة البغاء لحماية الرجال الذين يرتادونها.

كانت نساء الطّبقات الوسطى والعليا يعشن حياة مختلفة. فمعيشتهنّ مؤمّنة في الحدّ الأدنى، لكنّ ذلك لم يمنع تعرضهنّ للاضطهاد والتحكّم والسيطرة من قبل ذكور الأسرة، وقلّة منهنّ حظين بالتعليم. يلاحظ طارق علي عدّة نساءٍ من تلك الأوساط، تأثّرن بالحماسة الجذريّة الأوروبّيّة، وتمرّدن على نشأتهنّ البطريركيّة الصارمة على امتداد القرن التّاسع عشر. هنّ نساء أمثال فيرا فيغنر وفيرا زاشولتش وصوفيا بيروفسكايا وغيرهنّ من اللواتي التزمْن سياسيّاً وانفصلْن عن أسَرهنّ الأرستقراطيّة أو البرجوازيّة وأخذْن يطالبْن بالحقوق السياسيّة في سعيهنّ إلى دكّ أركان النظام القيصريّ

وتحقيق الإصلاح المجتمعيّ. في حين كانت حقوق المرأة جزءاً من هموم تلك النسوة، لم ينشغلن كثيراً بأشكالٍ طوباويّة من مثل التحرّر الجنسيّ أو التغيّرات الجذريّة في ظروف عمل أخواتهن العاملات والفلّاحات. وسوف تأتي الحرب العالميّة الأولى لتبدّد ذاك النظام فتتولّى الثورة تعميق الانقطاعات التي ولّدتها الحرب[٥].

**النساء في الثورة**

كانت الحرب العالميّة الأولى بمثابة الجائحة بالنّسبة إلى الإمبراطوريّة الروسيّة. غادر الرجال إلى الحرب وتولّت النساء الوظائف الشاغرة بغيابهم. فرضَت الحرب على النساء العمل في المصانع وفي البيوت في آن معاً. وبسبب ندرة الموادّ الغذائيّة والحاجات الأوليّة كان عليهنّ الاصطفاف في صفوفٍ طويلةٍ على مدى ساعاتٍ للحصول على رغيفِ خبز. وكثيراً ما كنّ يصطففْن لساعات طوال وينتهين بعدم الحصول على ما يسدّ الرّمَق. تطوّعتْ نساء عديداتٌ من النّخبة المتعلّمة للعمل كممرّضات. إنّ ظروف الحرب الماديّة التي مزّقت روسيا وفاقمت التّناقضات بين نساء الطّبقة العاملة ونساء الطبقتين الوسطى والعليا، أتاحتْ أيضاً التّقارب بين المتباعدات ولو لفترة وجيزة. فقد تلاقتْ مطالب نساء الطبقة العاملة بالخبز وتحسين ظروف العمل مع مطالب نساء النّخبة المُعارضات للحكم الاستبداديّ اللواتي يطالبْن بالحقوق السياسيّة ووضْع حدٍّ للحرب. وسوف تدفع الثورة والحرب الأهليّة تلك اللقاءات الى ما هو أبعد من ذلك. خدمَتْ نساء عديداتٌ في الجيش الأحمر بوصفهنّ ممرّضات، ومساعداتٍ، ومفوّضات سياسيّات وجاسوسات، بل إنّهنّ تسلمْن أحياناً مواقع القيادة العسكريّة والأمنيّة. حظيت النساء بمقدار من المساواة على تلك الصّعد، ومَن وقعتْ منهنّ في الأسْر لدى الجيوش البيضاء تعرّضتْ لوحشيّةٍ فاقتْ ما تعرّض له الذّكور، كأنّما هي عقوباتٌ إضافيّةٌ قد فُرضتْ عليهنّ لأنّهن تجرّأن على انتهاك ميادين مخصّصةٌ للذّكور. أمّا الأوجه الأخرى للنّضال النّسَويّ من أجل التحرّر والمساواة فكانتْ أقلّ وضوحاً وأكثر تعقيداً.

ألكسندرا كولونتاي من أبرز النّساء الثوريّات وقد عملتْ على تنظيم أوّل مؤتمرٍ للنساء العاملات في بتروغراد خلال الأسابيع الأولى منْ تشكيل الحكومة السوفياتيّة. شارك في المؤتمر أكثر من خمسين ألف امرأة من كافّة المناطق الروسيّة، وقد تفرّعتْ منه لجانٌ خاصّة تولّت مسؤوليّة توعية النساء على حقوقهنّ. ولمّا لم تنجح تلك اللجان في وضع الخطط لذلك وتنفيذها، وافقت الحكومة الثوريّة على إنشاء «قطاع العاملات والفلّاحات في الحزب الشيوعيّ» في العام ١٩١٩ الذي سمّي اختصاراً «جينوتدل» أو «المكتب النسائيّ»، وهدفه الأوّل العمل على تحرّر النّساء.

تولّت القيادة في «جينوتدل» نساءٌ ناضلنَ من أجل التحرّر في السنوات السابقة على الثورة: إينيسّا آرمان، ألكسندرا كولونتاي، صوفيا سميدوفتش، كونكورديا ساموبلوفنا وكلافديا نيكولييفا، وكنّ يعرفْنَ مدى صعوبة المهمّة التي تواجههنّ. لم يتوقّعن نتائج مباشرة لكنّهنّ سَعيْن إلى تنفيذ المهمّات الأكثر إلحاحاً ودفْع الدولة إلى تحمّل مسؤوليّة الأعباء التي تُرهق كاهل النساء أكثر من سواها: حماية حقّ التّعلّم في ظروفٍ لائقةٍ والاهتمام بالعمل المنزليّ والولادة والحضانة. لم يكن «جينوتدل» يهدف إلى مجرّد توعية النساء على حقوقهنّ وممارستها. سعتْ كولونتاي إلى جلب النساء إلى النشاط السياسي. وقد أسهمتْ في تأسيس شبكةٍ من النوادي لمساعدة النّساء على تعزيز حضورهنّ وأدوارهنّ في النّقابات كما في الحزب والحياة العامّة. وكانت ترى إلى تلك النوادي على أنّها ذات أهمّيّة بالغة ليس فقط لدلالاتها السياسيّة وإنّما أيضاً لأنّها تزيد ثقة النّساء بأنفسهنّ وتمكنهنّ من مواجهة الرّجال الذين يتجاهلون حاجاتهنّ.

واجهت نساء «جينوتدل» التحدّيات الكبيرة. في بعض المناطق، تعرّضت مراكزهنّ المتواضعة للهجوم وتولّى رجالٌ تهديدهنّ بالعنف حتى عندما كانتْ نشاطات «جينوتدل» تقتصر على توفير دروس محو الأمّية للنّساء. وقد أُطلقت الكلاب على النساء في طريقهنّ إلى مكاتب «جينوتدل» وتعرّض البعض منهنّ للتشويه عن طريق المياه المغليّة وأحياناً إلى القتل وتقطيع الأعضاء من قبل أبٍ أو زوج أو أخ. في أقلّ من ثلاثة أشهر وقعتْ ٣٠٠ حادثة قتل في المناطق الشرقيّة من الاتّحاد السوفياتيّ، وقد صنّفتْها الدولة بما هي «جرائم معادية للثورة». ومع ذلك لمْ تستسلم الناشطات.

عملتْ «جينوتدل» على توفير نموذج من التحرّر الذاتيّ للنساء بديلاً من التحرّر الذي تفرضه الدولة. وقد فاقتْ نسب نجاح ذلك النموذج نِسبَ إخفاقها. ومن دواعي الأسَف أنّ النسويّات البلشفيّات واجهْن مقاومةً من رفاقهنّ البلاشفة الذّكور، فقد عارض عددٌ لا بأس به من الحزبيّين وجود «المكتب النسويّ» أصلاً وسعَوا إلى حلّه بحجّة أنّه يقسّم الصفوف الحزبيّة. وقد أيّده آخرون لمجرّد أنّهم وجدوا فيه وسيلةً لتهميش النساء البلشفيّات

وإفساح المجال للرّجال كي «يقوموا بالعمل الحقيقيّ» داخل الحزب. وقد رأى عددٌ من الحزبيّين إلى النساء على أنّهنّ عاصياتٌ وغير منضبطات ومتخلّفات[٦]. إلّا أنّ أفعال النساء نطَقَتْ بذاتها تناهض تلك الأفكار المسبقة. من جهةٍ أخرى، ظهرت معارَضةٌ لتوجّهات وطموحات البلشفيّات الروسيّات من يساريّاتٍ من أوروبا وسائر الأمم، فكان للمناضلة المنشفيّة فيرا زاشولتش والثوريّة الألمانيّة روزا لوكسمبرغ آراء مغايرة فيما يتعلّق بالتحرّر الجنسيّ والعلاقات الأسَريّة. لم ينظرْن إلى هذا الجانب من تحرّر المرأة على أنّه يمثّل هدفاً لأغلبيّة النّساء قدْر ما هو «حَرفٌ للمسار في زمنٍ تواجِه فيه الإنسانيّة مهمّات جبّارة»[٧].

**من دواعي الأسف أن النسويات البلشفيات واجهن مقاومة من رفاقهن البلاشفة الذكور. فقد عارض عدد لا بأس به من الحزبيين وجود «المكتب النسوي» أصلا وسعوا إلى حله بحجة أنه يقسم الصفوف الحزبية.**

أمّا لينين وتروتسكي فكانا متّفقَين على أنّ عمل «جينوتدل» لن يؤتي نتائج مباشرة. وحاجج تروتسكي من جهته عن ضرورة توفير أمثلةٍ تثبت للمتشكّكين فضائل إنشاء المكتب. لكنّه كان يشدّد باستمرار على موقفه بشأن أهمّيّة تحوّل الأسرة والعلاقات بين القاعدة الاقتصاديّة والبناء الفوقيّ، على اعتبار أنّ تغيير العلاقات الشخصيّة والعائليّة من العوامل التي من شأنها إطلاق المخيّلة والمبادرة الفنيّتين.

يكشف الحوار بين لينين والمناضلة الشيوعيّة الألمانيّة كلارا زتكن عدداً من آراء لينين في المسألة النسويّة. كانت زتكن معجبة بنشاط النّساء خلال الثورة وبعدها. وكانت ترى أيضاً إلى الحزب البلشفيّ والجينوتدل مثالاً يُقتدى بالنّسبة إلى الحركة الشيوعيّة النسويّة العالميّة. وقد وافقها لينين على ضرورة بناء حركةٍ نسويّةٍ أمميّةٍ قويّةٍ ذات قاعدة نظريّة ماركسيّة متينة لا تقوم الثورة من دون توافرها. في موضوع البغاء، رأى لينين أنّ المومسات «ضحايا مزدوجاتٌ للبرجوازيّة»: ضحايا منظومة المُلكيّة الفرديّة البرجوازيّة وضحايا نفاقها الأخلاقيّ. غير أنّ العمل على تنظيم المومسات، الذي تسعى إليه روزا لوكسمبرغ ورفيقاتٌ أخرياتٌ في الحزب الشيوعيّ الألمانيّ، «انحراف بغيض» عن الأولويّات الأخرى. بناءً عليه، عارض أيضاً تخصيص شيوعيّات مجتهدات معظم قراءاتهنّ ونقاشاتهنّ لقضايا جنسيّة والأشكال التي تتّخذها مؤسّسة الزّواج. قال:

**«يبدو لي أنّ هذا الفائض من النظريّات الجنسيّة، ومعظمها فرضيّات، بل فرضيّات اعتباطيّة في الغالب، صادرةٍ عن حاجةٍ شخصيّةٍ. إنّها نابعة من الحاجة إلى تبرير حياةٍ جنسيّةٍ غير طبيعيّةٍ أو مغالية أمام الأخلاقيّة البرجوازيّة والمطالبة بالسماح. إنّ هذا الاحترام المستتر للأخلاقيّة البرجوازيّة منفّرٌ بالنّسبة إليّ قدر هذا التنقيب في كلّ ما يتعلّق بالجنس. مهما بدت هذه النظريّات متمرّدة أو ثوريّة فهي في نهاية المطاف برجوازيّة بالتّمام. إنّها ممّا يتعلّق به مثقّفون وامثالهم. لكن لا مكان في الحزب لذلك بين البروليتاريا الواعية طبقيّاً والمقاتلة».**

عارضتْ زتكن آراءه عن الجنس والزّواج مؤكّدة أنّ الملكيّة الفرديّة والنّظام الاجتماعيّ البرجوازيّ والحرب تؤثّر في الحياة الشخصيّة والعلاقات الجنسيّة. وبالعكس، فالعالم القديم، آخذٌ في الانهيار بأفكاره ومشاعره وأحاسيسه بسبب الثورة. في ردّه، وافق لينين على تعيين زتكن للمسألة وتقديرها لأهمّيّتها، لكنّه انتقل إلى نقد نظريّة كولونتاي الشهيرة عن الجنس بما هو «كأس ماء»: «أعتقد أنّ نظرة «كأس الماء» الشهيرة غير ماركسيّة ومعادية اجتماعيّاً (...) ليست العلاقات بين الجنسين مجرّد تعبيرٍ عن التأثير المتبادل بين العامل الاقتصاديّ والحاجة الجسديّة، يجري انتقاؤها بمفردها للفحص الفيزيائيّ. إنّ محاولة نسْب تغيّر تلك العلاقات مباشرةً إلى الأساس الاقتصاديّ للمجتمع بمعزل عن علاقة ذلك بالإيديولوجيّة بشكل عامّ فكرةٌ عقلانيّةٌ وليست فكرةً ماركسيّة. بالتأكيد يجب الارتواء من عطش. لكن، هل يستلقي الإنسان الواعي في المجرور ويشرب من المستنقع؟ أو يشرب من كأس تمرّغت بحافتها شفاهٌ عديدة؟ إذاً، يبقى أنّ الجانب الاجتماعيّ هو الأهمّ (...) كشيوعيّ لا أميل إلى كلّ هذه النظريّة عن «كأس الماء» رغم عنوانها الجذّاب: «تحرير الحبّ». ليست الشيوعيّة مطالبةً بتحقيق التقشّف، بل بإشاعة الفرح والقوّة النابعَين، من بين أشياء أخرى، من حياة حبٍّ كاملة، في حين أنّ عيش حياةٍ جنسيّةٍ صاخبةٍ في أيّامنا هذه لن يجلب، برأيي، لا الفرح ولا القوّة. على

العكس، إنّه سيعطّل هذا وتلك. وهذا أمر سيّئ، بل سيّئ جدّاً، بالتأكيد في زمن الثورة».

واستطرد لينين في حديثه للاستشهاد بكلمات عشيقته ورفيقته إينيسّا آرمان التي تشدّد على أنّ لا شيوعيّة من دون تحرّر المرأة، والعكس بالعكس. وميّز لينين بين النسويّة البرجوازيّة والثورة، مشدّداً على أهمّيّة النّضال البروليتاريّ، من خلال مكاتب مثل جينوتدل، لصالح العاملات، في المصانع كما في مطابخ كما في البيوت.

**الإصلاحات القانونيّة**

حملت ثورة أكتوبر البلشفيّة ١٩١٧ عدداً من التّغييرات القانونيّة الجذريّة، منحت النّساء حقوق العمل والحماية ودرجاتٍ أوسع من الحرّيّات الجنسيّة والإنجابيّة. بعد أشهر من قيام الثورة، صدر أوّل مرسوم يُلغي كافّة القوانين السابقة المتعلّقة بالأسرة وبسيطرةً الدّين على الحياة الشخصيّة وتجريم المثليّين. لم تَعُد النّساء مقيّداتٍ بأزواجهنّ أو آبائهنّ. فقد أعلن المساواة بين الرّجال والنساء. واعتُبرت الزّيجات الدينيّة باطلةً واستُبدل بها الزّواج المدنيّ أو شراكات الأمر الواقع. بات الطّلاق ممكناً عند طلب أيٍّ من الزّوجين ولا حاجة إلى تقديم مسوّغات له. كذلك، أُلغي مفهوم الأولاد غير الشرعيّين في حال لم يكن باستطاعة المرأة أن تتعرّف إلى أبٍ لطفلها، وأُعطي الشركاء الجنسيّون السّابقون حقوقاً متساوية. والمقصود بذلك السماح بالانتقال من نموذج رعاية الأطفال الشخصيّ والفرديّ إلى نموذج أكثر جمعيّةً حيث يقع على عاتق الدولة الاهتمامُ بجميع الأولاد[٨]. وقد اعتُبر الأطفال جميعاً متساوين بغضّ النظر عمّا إذا كان أهلهم متزوّجين أم لا. بناءً عليه، أُلغي قانون التبنّي الفرديّ.

في العيد الأوّل من الثورة، أقرّت اللجنة التنفيذيّة للحزب بالإجماع «قانون الزواج والأسرة والحضانة» الذي دعّم تلك الإصلاحات وألغى التّمييز المأسَس بين رجال ونساء في الأقلّ على مستوى الدولة. ولمّا كان القانون لا يزال يعترف بالزّواج، فقد رأى بعض النّقّاد إلى الاستمرار بالاعتراف بمؤسّسة الزواج بما هو استسلامٌ للبرجوازيّة. وبعد عامٍ من ذلك، أي في العام ١٩٢٠، كان الاتّحاد السوفياتيّ أوّلَ بلدٍ في العالم يَمنح حقّ الإجهاض.

سوف يتبيّن أنّ التحرّر القانونيّ لم يكن كافياً لإحداث تحوّلاتٍ مجتمعيّة أوسع وأكثر جذريّة. فيما كان العالم الخارجيّ يتغيّر، والمجتمع يعيش في ظلّ نظام شيوعيّ، ظلّ العالم الداخليّ للنّاس والأسَر عمليّاً على حاله. نهضتْ معارضاتٌ لتلك الإصلاحات القانونيّة، كما لمداها ومستتبعاتها. كان الهدف منها، في معظمها، إرساء أسسٍ ماديّة لمجتمع شيوعيّ، وكانت النساء بحاجة إلى أن تتحرّر من العمل المنزلي ورعاية أطفالهنّ للمشاركة في النشاط الاقتصاديّ وفي إنتاج الوفرة المطلوبة لتحقيق الحريّة. ورأت قلّة من الطوباويّين أنّ الهدف هو تحرير النّساء ببناء أسسٍ لعالَم تتوحّد فيه الحريّة والعمل والحبّ في ثالوثٍ واحدٍ. عالمٍ تستطيع فيه النساء أن يُحببن كما يشأن فلا يكون الحبّ وسيلةً لاستيعابهنّ أو إجبارهنّ على تَناسي حاجاتهنّ والخضوع إرضاءً للشريك. في عالمٍ كهذا، حيث تسيطر النّساء على حياتهنّ وأجسادهنّ، سوف يتولّى المجتمع الشيوعيّ العناية بالأولاد وتسود الوفرة الماديّة والمشاعر الرفاقيّة وتتخلّص العلاقات الجنسيّة من طابعها المقدّس. وسوف يصير النّشاط الجنسيّ في الفكر والممارسة والسلوك نشاطاً عاديّاً مثل شرب كأس ماء. غير أنّ نظريّة كولونتاي «الحبّ مثل شرب كأس ماء» كانتْ سيّئة الطالع، تعرّضتْ لمنوّعاتٍ من سوء التفسير والتجنّي. فقد افتُرض بسذاجةٍ أنّ الرأسماليّة سوف تؤدّي إلى اضمحلال العائلة وولادة أنماطٍ جديدةٍ من المؤسّسات المجتمعيّة القائمة على الحبّ الحرّ. وكما تحاجج المؤرّخة شيلا فيتسباتريك، لم تعرف سنواتُ الثورة الأولى سيادةَ نسَق واحد من النشاط الجنسيّ. تكاثرت وتفاوتتْ وجهاتُ النّظر في هذا الموضوع بين المواقف المتقشّفة والمواقف الطليقة والظرفيّة من الجنس والحبّ. وعلى العموم، مع أنّ النّاس شعروا بفسحات أوسع من الحريّة، فإنّ الأزواج والقلوب كانت لا تزال مكسورة. عانى الأيتام من مصاعب اجتماعيّة قاسية، ومع أنّ تجريم المثليّة ألغي، لم يكن من نقاشاتٍ علنيّةٍ في هذا الموضوع أو ممارسات علنيّة له.

في نهاية العام ١٩٢٠ ظهرت الخلافات حول «قانون الأسرة» بحدّة أشدّ وأعمّ. كان العديد من قادة الحزب يعتقدون أنّ سيطرة النساء على أجسادهنّ تهدّد معدّلات الخصوبة والولادة، الأمر الذي يعرقل إنتاج سكّان سوفياتٍ أقوياء ومنتجين اقتصاديّاً وعسكريّاً. فبدلاً من دعم الحريّة الجنسيّة يجب أن تكون القواعد الجنسيّة الحكوميّة والشخصيّة موجّهة نحو الجدوى المجتمعيّة. في العام ١٩٢٩، تقرّر حلّ «جينوتدل»، وفي العام ١٩٣٦ قلب ستالين معظم القوانين والمراسيم المتعلّقة بالأسرة رأساً على عقب، مانعاً الإجهاض وواضعاً عقباتٍ عديدةً في وجه حريّة الطلاق.




❖
تظاهرة لعمال وعاملات معمل بوتيلوف في اليوم الأول من ثورة شباط ١٩١٧


Кормите
дѣтей
защитниковъ
родины

**ماذا تبقّى من الحبّ؟**

ألكسندرا كولونتاي مؤلّفة يجعلك اكتشافُها ترين وتفهمين العالم وحياتك الشخصيّة بطرائق لم تألفيها من قبل. في أعمالها الأخيرة، فيما هي تتأمّل مسار حياتها وإنجازاتها، كتبتْ أنّ التحرّر الفعليّ ليس ممكناً إلا بواسطة العمل. في رأي كولونتاي، أنّ النساء تخلّين لفترات طويلة عن كلّ شيء من أجل الحبيب، على أمَل بلوغ الكمال والانسجام الروحانيّين. وقد جنيَن في المقابل محاولات الرّجال فرضَ رغباتِهم وحاجاتهم الشخصيّة، وإلزام النساء على التكيّف معها. لم تجدْ كولونتاي حلاً لتلك المعضلة. في أواخر حياتها، دعت كولونتاي النساء إلى التحرّر من الحبّ، ذلك أنّه يحتلّ حيّزاً جسمانيّاً وعاطفيّاً أكبر ممّا يجب، وبلا كبير جدوى. وحريّ بالعمل أن يكون جوهر الحياة على الدّوام.

لقد نالت كولونتاي نصيبها من إضاعة الجهد والوقت والحبّ على رجالٍ سعَوْا إلى فرض إرادتهم الذاتيّة عليها، وجميعهم على حساب ما تسمّيه كدحها الشعوري - أي المسار الذي سلكتْه في مشاعرها وتطلّعاتها، الأمر الذي أدّى بها في الغالب إلى كبْت حاجاتها الذاتيّة من أجل تحقيق متطلّبات علاقاتها الغراميّة. لكنّ الحماقة الكبرى التي تعترف بها أنّها ظلّتْ تؤمن بالحبّ وبمركزيّته بالنسبة إلى الثورة وطاقته على تغيير العالم.

في مقال بعنوان «راديكاليّة الحبّ»، كتب الفيلسوف الكرواتيّ سريكو هورفات، وهو من تلاميذ سلافوي جيجك، أنّ المحادثات عن الحبّ قد واكبتْ معظم الانتفاضات السياسيّة والاجتماعيّة في القرن الماضي، من ثورة تشرين الأول / أكتوبر **١٩١٧** إلى أيار / مايو **١٩٦٨** إلى تجارب الحياة الجمعيّة. طوال تلك السنين، فيما كان ثوريّون راديكاليّون يسعوْن إلى قمع التعبير الجنسيّ وكبْت الحبّ، كان آخرون، أمثال كولونتاي، يناضلون من أجل إرساء الثورة على الحبّ. في المقابل، يلاحظ هورفات أنّ الحبّ غائبٌ إلى حدٍّ كبير في ثورات القرن الواحد والعشرين[٩].

اليوم، تشكّل الحريّة والحقوق الجنسيّة مبدأين لا يتزعزعان للنّظام العالميّ الذي نعيش فيه، إلّا أنّ المعاني المُعطاة لهذا المفهوم وذاك تختلف جذريّاً عن تلك التي واجهتْها كولونتاي ورفيقاتُها النسويّات. في التركيز الحالي المضخّم على الفرديّة وعلى إشباع الحاجات الأنانيّة، ثمّة استحالةٌ للحبّ. ذلك أنّ الحريّة لا توجد إلّا في السوق. وعلى الرغم من أنّ الزّواج والعائلة في طَوْر التقهقر، فلا يزالان المؤسّستين المجتمعيّتين الأساسيّتين اللتين بإمكانهما أن تتكيّفا لاستيعاب حتى زواج المثليّين، وهو أمرٌ كان مستبعدَ التّصديق منذ بضع سنوات فقط. لا يزال الزواج الإفراديّ موضع تساؤلٍ على نحوٍ متزايد حيث يمكن العثور على الحبّ أحياناً في أشكالٍ من العلاقات الحرّة أو في التّعدّد الطّوعي للشركاء الجنسيّين. لكنّ أوضاعنا الماديّة الحاليّة تطرح السؤال مجدّداً عن المعاني التي نضفيها على هذا الحبّ؟ في واحدة من المقالات الأثيرة لديّ عن الحبّ المعاصر أقرأ:

**«ولكن مع أنّي أستمتع بالسّرير، يُغضبني الخداع: الحميميّة بدون كلفتها. وإني أعرّف ما هي الكلفة: كلّما ازددت حبّاً بك ازددت توحّداً... السؤال هو: كيف نحبّ؟ إنّه سؤالٌ شخصيّ بين الفرد والفرد، كثيفاً، حميماً، مخيفاً، وضرورياً. وهو سؤال عالميّ أيضاً، غضوباً، رافضاً، متطلّباً، وعسيراً. ليس الحبّ عاطفيّاً. ليس الحبّ بدلاً عن ضائع. يتعيّن على النساء امتشاق السّلاح من أجل الحبّ».**[١٠]

أيّتها النساء، امتشقْن السلاح من أجل الحبّ، ذلك أنّ الحبّ ثورة والثورة حبّ.

**الهوامش**

١ «Maurice Godelier: The Origins of Male Domination». *New Left Review* I/127, May-June 1981. New Left Review, newleftreview.org/I/127/maurice-godelier-the-origins-of-male-domination.

٢ Sofia Smidovich, a key member of the Genotdel - the Women's Department of the Secretariat of the Central Committee of the Bolshevik Party (Zhenotdel or Genotdel) cited in Tariq Ali. *Dilemmas Of Lenin: Terrorism, War, Empire, Love, Revolution*. London, 2018, p.525.
وصوفيا سميدوفتش هي عضو «قطاع النساء (جينوتدل) في سكرتاريّة اللجنة المركزيّة للحزب البلشفيّ»

٣ ««Weren't We Women First Out on the Streets?»: The Incomplete History of 1917». *Versobooks.com*, www.versobooks.com/blogs/3221-weren-t-we-women-first-out-on-the-streets-the-incomplete-history-of-1917

٤ Sheila Rowbotham, «Women, Resistance and Revolution: A History Of Women And Revolution In The Modern World»., p.274

٥ Tariq Ali, *Dilemmas of Lenin: Terrorism, War, Empire, Love, Revolution*, 2018

٦ Elizabeth A. Wood, «Baba and the Comrade: Gender and Politics in Revolutionary Russia», 2001

٧ Tariq Ali, p.514

٨ Trudell, Megan. «The Women of 1917». *Jacobin*, www.jacobinmag.com/2017/05/women-workers-strike-russian-revolution-bolshevik-party-feminism

٩ Sreko Horvat, *The Radicality of Love*, 2016

١٠ Jeanette Winterson, «All I Know About Gertrude Stein». *Granta Magazine*, 17 Mar. 2017, granta.com/all-i-know-about-gertrude-stein/

# ألكسندرا كولونتاي
## رائدة تحرّر المرأة

**ألكسندرا كولونتاي**

**١٨٧٢ - ١٩٥٢**

**مناضلة شيوعيّة روسيّة. أوّل امرأة في العالم تشغل المنصب الوزاري. مؤسّسة الحركة النسويّة في روسيا. لها عدّة كتابات في التعليم والتربية وتحرّر المرأة والمسألة القوميّة. هذه مقاطع من كتاب «ألكسندرا كولونتاي: تحرّر المرأة العاملة»، ترجمة طلال الحسيني وفواز طرابلسي، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٢.**

ألكسندرا كولونتاي من أبرز نساء الحركة الشّيوعيّة الروسيّة، حتّى أنّ مكسيم غوركي يروي على لسان مارتوف قوله: «في روسيا شيوعيّان اثنان فقط: لينين ومدام كولونتاي!».

كانت أوّل امرأة في العالم تشغل منصب وزير. ولعبت دوراً هامّاً في الحزب والدّولة خلال السّنوات الأولى لثورة أكتوبر. ثمّ واصلت خدمتها للدولة السوفياتيّة في السلك الدّبلوماسي خلال ربع قرن، لكنّ مساهمتها الكبرى هي نضالها الذي كرّست له كلّ حياتها ككاتبة ومناضلة شيوعيّة من أجل تحرّر المرأة وتحرّر النّساء العاملات بشكل خاصّ.

ولدت ألكسندرا دومونتوفيتش لدى أسرة عقيد في الجيش الروسي في سان بطرسبرغ عام **١٨٧٢**. وتزوّجت أحد أقاربها، المهندس فلاديمير كولونتاي. تأثّرت باكراً بالأفكار الثوريّة عبر نظريّة داروين التّطوّرية واهتمامها بالتّربية وعلم نفس الأطفال. ومع أفول القرن التّاسع عشر كانت كولونتاي في عداد ذاك الرّعيل من النساء الأرستقراطيّات والبرجوازيّات اللواتي سعين إلى التّحرّر الشخصيّ عبر التّدريس وعبر «التّوجّه إلى الشّعب». وكانت تلك الفترة تشهد نهايات «الحركة الشّعبويّة» التي تعتبر الفلّاحين عماد الثورة ضدّ القيصرّية، والجماعة البدائيّة في الريف قاعدة الانتقال المباشر إلى الاشتراكيّة. وقد انشقّ عنها جناحٌ إرهابيّ سرعان ما اتّضحت حدوده بعد سلسلةٍ من الاغتيالات الفرديّة الجريئة ضدّ القياصرة وكبار موظّفي الدّولة.

في تلك الأثناء كانت روسيا عند منعطف تاريخيّ، فقد أدّى النّموّ المتسارع للصّناعة وتمركزها الشّديد وانتقال مئات الألوف من الأقنان السّابقين للانخراط بقوّةٍ في العمل المأجور، وتغلغل الرّأسمالية في الزّراعة وتدميرها السريع للإنتاج البطريركي إلى ولادة الطبقة التي ستتمكّن من الانتصار أخيراً على القيصريّة وبناء الاشتراكيّة: الطّبقة العاملة. ومن العلامات الفارقة لهذا الانعطاف الإضرابات العماليّة الضّخمة في سانت بطرسبرغ عام **١٨٩٦**، حيث أسهمت العاملة إلى جانب العامل في تحطيم الآلات (وهو أحد الأشكال البدائية للصّراع الطّبقي) ومقاومة الشّرطة.

مع البروز السّريع للطّبقة العاملة الروسيّة، برزت الحلقات الماركسيّة التي اتّحدت في «حزب العمّال الاشتراكي الديمقراطي الروسي» عام **١٨٨٩**. انضمّت كولونتاي إلى الحركة العمّاليّة منذ سنيّها الأولى. وقد أثّرت فيها زيارة قامت بها لأحد مصانع النّسيج الضّخمة الذي يضمّ ١٢ ألف عاملة وعامل. فقرّرت بعد ذاك ربط مصيرها بالطبقة الثوريّة الصّاعدة. فأدّى التزامها السياسيّ إلى تأزّم علاقاتها بزوجها الذي اعتبر نشاطها السياسي بمثابة تحدٍّ شخصيّ له. فانفصلت عنه، ومعها طفلها الوحيد، رغم ما كانت تكنّ له من حبّ واحترام. واختارت حياة النّضال والعمل الخلّاق على حياة الحبّ والأسرة. ولم يكن مثل هذا الاختيار أمراً يسيراً بالنسبة إليها وإلى بنات جيلها. وتروي في مذكّراتها (المكتوبة عام ١٩٢٦):

**«ما زلت أنتمي إلى جيلٍ من النساء نشأ عند منعطف التّاريخ. وكان الحبّ، بكلّ ما يجريه ويجرّه من خيبات أملٍ متكرّرة ومآسٍ وسعي دائم وراء السعادة الكاملة، لا يزال يلعب دوراً كبيراً في حياتي، دوراً أكبر ممّا يجب أن يكونه! ولقد هدرت فيه الوقت الثمين والكثير من الطاقة، ويمكن القول إنّه كان عديم الجدوى في التحليل الأخير. فنحن، نساء الجيل الماضي، لم نكتشف السّبيل إلى التّحرّر الفعلي،**

**فبذلنا طاقاتنا بدون حساب، وهدرنا قدراتنا العلميّة في تجارب عاطفيّة عقيمة. وتأكيداً، فإنّي وغيري من المناضلات والكادحات أدركنا أنّ الحبّ ليس الهدف الأساسيّ للحياة، وتمكّنّا من أن نجعل العمل محوراً لحياتنا. ولولا أنّنا لم نهدر طاقاتنا في الصّراع الدائم مع عواطفنا تجاه الآخرين، لكنّا استطعنا بذل المزيد من الجهد الخلّاق. والواقع أنّ هذا النزاع كان حرباً دائمة ضدّ تدخّل الرجل في شؤوننا وتعدّيه على ذاتيّتنا، نزاعٌ يدور حول مشكلة معقّدة: العمل أم الحب أم الزواج؟ نحن نساء الجيل القديم لم ندرك، كما يدرك الشّبان والشّابّات اليوم، أنّه يمكن التّوفيق بين العمل والسّعي وراء الحبّ، بحيث يبقى العمل محوراً للوجود. فقد منحنا كلّ ذاتنا للمحبوب على أمل بلوغ التّناغم الروحيّ الكامل.**

**غير أنّ الرجل كان يسعى باستمرار إلى فرض ذاتيّته علينا وتكييفنا حسب مبتغاه. فاضطرمت الثورة في داخلنا، رغم كلّ شيء، وتحوّل الحبّ تكراراً إلى قيدٍ يقيّدنا، وشعرنا أنّنا مستعبدات وحاولنا التّحرّر من قيد الحبّ. وبعد نضالاتٍ متواصلة مع المحبوب انعتقنا أخيراً وتدافعنا نحو الحريّة. وسقطنا مجدّداً في الوحدة والتعاسة والوحشة. لكنّنا كنّا ننعم بحرّية السعي وراء فارس أحلامنا – العمل.**

**من حسن حظّ الجيل الحالي أنّه ليس مضطرّاً إلى خوض غمار هذا النّضال عديم الجدوى بالنّسبة إلى المجتمع البشريّ، فيوفّر كامل جهوده للنّشاط الخلّاق».**

بعدما استعادت كولونتاي «حرّيّتها» غادرت روسيا إلى ألمانيا ودرست الاقتصاد السياسيّ في زيوريخ، وأسهمت في الحركة الاشتراكيّة الدّيمقراطيّة الألمانيّة وتوثّقت صلاتها بأبرز قادتها وبخاصّة زورا لوكسمبورغ وكلارا زتكن. أمّا على صعيد السّياسة الثّوريّة الرّوسيّة فقد وقفت كولونتاي إلى جانب المناشفة خلال انشقاق الحزب عام ١٩٠٣. ولم تنضمّ إلى البلاشفة إلّا خلال الحرب العالميّة الأولى.

عادت كولونتاي إلى روسيا مع اندلاع الثورة الأولى عام ١٩٠٥. وكرّست معظم وقتها، في فترة ما قبل الحرب العالميّة الأولى، للعمل بين النساء. أسّست الحركة النّسائيّة في روسيا عقب الثورة الأولى. وكانت بقيادة الحركة النسويّة البرجوازيّة، المطالبة بالمساواة الكاملة بين الرجال والنساء، بغضّ النّظر عن التّحوّلات الاجتماعيّة والسياسيّة المطلوبة لتحقيقها، وسعيها لتنظيم كافّة النساء حول هذا المطلب، الأمر الّذي يميّع وعي العاملات للاستغلال الّذي يتعرّضن له ويضعهنّ تحت القيادة البرجوازيّة. في سعيها لتأسيس عملٍ اشتراكيّ بين النساء، اضطرّت كولونتاي إلى النضال على جبهتين: ضدّ الحركة النسويّة من جهة، ومن أجل إقناع رفاقها ورفيقاتها في الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ بضرورة الاهتمام بتنظيم العاملات. فأسّست مع رفيقات لها «نادي النساء العاملات»، عام ١٩٠٦، لدراسة قضايا المرأة العاملة والتّدريب على مختلف أشكال الدعاية والتّحريض في صفوف العاملات. وأخذت تطالب بإنشاء أجهزة حزبيّة متخصّصة للعمل بين النساء انطلاقاً من خصوصيّة وضع المرأة كأمّ وربّة بيت، وبالتالي خصوصيّة أشكال القهر والاستغلال الإضافيّة التي تتعرّض لها. وقد أسهم هذا النادي في تكوين أوّل نواة للحركة الاشتراكيّة النسائيّة في روسيا. وفي المؤتمر النسائيّ الأوّل لعموم روسيا، المنعقد عام ١٩٠٨، أمكن للمرأة العاملة أن تتمثّل وتطرح مطالبها المتميّزة بواسطة وفدٍ من النساء الاشتراكيّات ضمّ ثلاثين عاملة، معظمهنّ من الأمّيات.

مع اشتداد موجة القمع والإرهاب وصدور أمر بإلقاء القبض عليها، اضطرّت كولونتاي إلى سلوك طريق المنفى عام ١٩٠٧. في ألمانيا واصلت عملها النسائيّ وحضرت مؤتمر شتوتغارت للحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني. كذلك كانت كولونتاي في عداد المحاضرين في مدرسة الكادر الحزبيّة للعمّال الروس في إيطاليا، ووضعت مشاريع القوانين حول رعاية الأمومة والطّفولة ليقدّمها النوّاب الاشتراكيّون - الديمقراطيّون في مجلس الدوما. وفي المنفى صدر كتابها «الأسس الاجتماعيّة لمسألة المرأة»، وهو بمثابة سجال ضدّ الاتّجاه النسوانيّ ودعوة للحزب الاشتراكي الدّيمقراطي الروسي إلى أن يبني حركة عماليّة نسائيّة. شاركتْ كولونتاي، عام ١٩١١، في تنظيم أوّل عيدٍ عالميٍّ للمرأة الّذي ما زلنا نحتفل به في الثامن من آذار / مارس من كلّ عام. وزارت فرنسا حيث أسهمت في تنظيم إضرابات ربّات البيوت ضدّ

غلاء المعيشة، وفي إنكلترا، حيث اطّلعت على الدور الّذي تؤدّيه النساء في النقابات العمّالية الإنكليزيّة.

غادرت كولونتاي ألمانيا بعد اندلاع الحرب العالميّة، وقد صعقها موقف أغلبيّة الأحزاب الاشتراكيّة - الديمقراطيّة الأوروبيّة المؤيّدة لحرب اقتسام المغانم بين الدّول الاستعماريّة. فقطعت صلاتها نهائيّاً بالاتّجاه المنشفي وانضمّت أخيراً إلى البلاشفة في حزيران / يونيو **١٩١٥**. ولعبت طوال ذلك العام دوراً هامّاً، إلى جانب ألكسندر شليابينكوف، في الدّعاية ضدّ الحرب وضدّ الاتّجاه الاشتراكي - الإمبريالي في الحركة العمّاليّة، وكانت صلة الوصل بين لينين - في سويسرا - واللّجنة المركزيّة للحزب البلشفي داخل روسيا. ثمّ سافرت إلى الولايات المتّحدة، بتشجيع من لينين، حيث قامت بجولةٍ واسعةٍ ألقت خلالها عشرات المحاضرات ضدّ الحرب الاستعماريّة ومن أجل تحويلها إلى حربٍ أهليّة ضدّ الرّأسماليّة.

**انسحـــــــاب كولونتاي المبكر من الحياة السياسية الداخلية أنقذها من المصير المظلم الذي لاقاه رفاقها في «المعارضة العمالية» والعديد غيرهم من قادة وكوادر الحزب البلشفي من مختلف الاتجاهات على يد ستالين في منتصف الثلاثينات.**

عادت كولونتاي إلى روسيا بعد انهيار الحكم القيصريّ، وكانت الحرب قد رفعت أكلاف المعيشة، وهذا ما شجّع البلاشفة على إيلاء العمل بين النّساء العاملات الأهمّيّة لإصدار صحيفة شيوعيّة نسائيّة، ونظم العمل بين النّساء المسلمات، وعقد مؤتمرين عالميّين للنّساء في موسكو. وتكلّل نشاط كولونتاي بالنّجاح عندما دعم لينين شخصيّاً مشروعها القاضي بجعل الإجهاض عملاً شرعيّاً يتمّ تحت رعاية الدّولة وعلى حسابها.

في تلك الأثناء، كان يدور في صفوف الحزب البلشفي سجالٌ عاصف حول دور النّقابات في ظلّ دكتاتوريّة البروليتاريا، فوقفت كولونتاي موقفاً معارضاً لأغلبيّة الحزب، يدعو إلى تسيير الصناعة من قبل مؤتمر للمنتجين في عموم روسيا. وشكّلت كتلة حزبيّة معارضة مع ألكسندر شليابينكوف وبعض القادة النّقابيّين عرفت بـ«المعارضة العماليّة». وكانت «المعارضة العمّالية» تردّ بالدّرجة الأولى على تروتسكي الّذي رفع شعار «عسكرة العمل» بفرض الانضباط العسكري الصّارم على الطّبقة العاملة، وتسخير النّقابات لتنفيذ هذه السياسة واعتماد التّعيين بدل الانتخاب في اختيار القيادات النّقابيّة. وقد التفّت غالبيّة الحزب حول لينين الّذي دان بشدّة النّزعة البيرقراطيّة الإداريّة عند تروتسكي. وردّ على «المعارضة العمّالية» معتبراً أنّ الدّعوة إلى تسيير النّقابات للإنتاج والصّناعة تلغي الدّور القيادي للحزب ودور النّقابات كحلقة وصل بين الطّليعة الشّيوعيّة والجماهير، فتبقى الطّبقة العاملة نهبا لشتّى الأضاليل والانحرافات التي ترشح إليها من الوسط الفلّاحي والبرجوازي الصّغير المحيط بها. ودعا لينين في المقابل:

◆ **١** إلى منح النّقابات حدّاً من الاستقلالية للاستمرار في الدّفاع عن مصالح الطّبقة العاملة تجاه الدولة السوفياتيّة، التي لم تصبح بعد دولة اشتراكيّة وإنّما هي دولة عمّاليّة «ذات انحراف بيرقراطي» ترتكز على تحالف العمّال مع الفلاحين الّذين يشكّلون أكثريّة الشّعب السّاحقة.

◆ **٢** إلى اعتبار النّقابات مدرسة للشّيوعية ودرساً للإدارة العمالية. وقد هزم الجناحان المعارضان في مؤتمرٍ للحزب عام **١٩٢٢** وصدرت عنه توصية باعتبار «المعارضة العمّالية» تكتّلاً ممنوعاً.

بعد هذا التّاريخ، تقلّص دور كولونتاي في السّياسة الدّاخليّة، فانضمّت إلى السّلك الخارجيّ عام **١٩٢٣** وشغلت عدّة مناصب ديبلوماسيّة في النّرويج والمكسيك وفنلندا والسّويد، إلى أن رقّيت إلى رتبة سفيرة متجوّلة عام **١٩٤٣**. وقد انتدبتها الحكومة السوفياتية لتوقيع اتّفاقيّة الهدنة السّوفياتيّة - الفنلنديّة عام **١٩٤٥**.

وما من شكٍّ في أنّ انسحاب كولونتاي المبكّر من الحياة السّياسية الدّاخليّة أنقذها من المصير المظلم الّذي لاقاه رفاقها في «المعارضة العمّاليّة» والعديد غيرهم من قادة وكوادر الحزب البلشفي من مختلف الاتّجاهات على يد ستالين في منتصف الثلاثينات. وقد توفّيت كولونتاي في موسكو عام **١٩٥٢** ولها من العمر ثمانون عاماً. وتركت عدداً كبيراً من الكتابات حول قضايا التّربية والمسألة القوميّة والاشتراكيّة في فنلندا والحرب العالميّة والطّبقة العمّاليّة في روسيا السّوفياتيّة، نشر منها ثلاثة نصوص «الشّيوعيّة والأسرة» وهو كرّاس دعاوي كتب بعد قيام السّلطة السوفياتيّة و«تاريخ حركة العاملات الاشتراكيّات في أوروبا» و«التّقرير أمام المؤتمر الثالث الكومنترن» ننشره هنا مع المقرّرات المرتبطة به (ترجم النّصّين الأوّل والثاني فواز طرابلسي وترجم النص

الثّالث طلال الحسيني). لقد لخّصت كولونتاي نفسها فهمها لقضيّة تحرّر المرأة الّتي نذرت حياتها لها بهذه العبارات المقتطفة من مذكّراتها (المكتوبة عام ١٩٢٦):

**«إذا كنت قد حقّقتُ شيئاً في هذا العالم، فليس مردّ ذلك لصفاتي الشّخصيّة، فإنجازاتي ما هي إلا الدّليل على أنّ المرأة باتت تسير باتّجاه كسب الاعتراف العامّ بها، على الرّغم من كافّة الصّعاب. فانخراط ملايين النّساء في العمل الإنتاجي الذي تمّ بوتيرةٍ متسارعةٍ خلال الحرب، هو الذي أفسح المجال أمام المرأة لكي تحتلّ أعلى المراكز السيّاسيّة والدّبلوماسيّة. غير أنّه من المؤكّد أنّ بلداً مستقبلياً، كالاتّحاد السوفياتي، هو وحده القادر على معالجة قضايا المرأة دون أفكارٍ مسبقة، وعلى تقييم أعمالها فقط من منظارٍ مهارتها ومواهبها، وبالتّالي فهو وحده القادر على أن يوكّل إليها مراكز المسؤوليّة. وحدها العواصف الثوريّة الجديدة امتلكت القوّة الكافية لكنْس كافّة العقد والتّرسّبات ضدّ النساء. واتّحاد الشّعب الكادح المنتج هو القادر على تحقيق المساواة الكاملة والتّحرّر النّاجز للمرأة ببنائه المجتمع الجديد».**

ف. ط.

## في تحرر المرأة العاملة: ألكسندرا كولونتاي

### العمل المنزليّ لم يعد ضرورة

في الماضي كانت المرأة الفقيرة، في المدينة والرّيف، تقضي كلّ حياتها في كنف الأسرة، تجهل كلّ ما يجري خلف عتبة دارها، لا بل إنّها نادراً ما كانت توّاقة إلى المعرفة، على كلّ حال. وكتعويضٍ عن ذلك، كانت المرأة تؤدّي في بيتها مهمّات ضروريّة ومتنوّعة تنفع الأسرة والدّولة في آنٍ معاً. كانت المرأة تؤدّي كافّة المهامّ التي تؤدّيها حالياً أيّ امرأة عاملة أو فلّاحة: تطبخ وتغسل وتنظف البيت وتكوي وترتق الثّياب. ولكن لم يكن عملها يقتصر على ذلك، فقد كانت تؤدّي مهامّ لم تعد تؤدّيها المرأة المعاصرة، كأن تغزل الصّوف والكتّان وتحيك الأجواخ والقماش وتصنع الجوارب وأشرطة الزّينة. كذلك كانت تصنع المخلّل (الكبيس) وتدخّن اللحوم بالقدْر الذي تسمح لها به مواردها الماديّة، وتستخرج المشروبات للبيت وتصبّ الشّموع. ما كان أكثرها واجبات المرأة في تلك الأيّام! هكذا قضت أمّهاتنا وجدّاتنا حيواتهنّ. وحتّى في أيّامنا هذه لا تزال تجد في بعض القرى النائية في أقاصي الرّيف بعيداً عن الطّرقات والأنهر الكبيرة جيوباً لا تزال تحتفظ بنمط الحياة القديم هذا بكلّ نقاوته، حيث ربّة المنزل تنوء تحت عبء أعمالٍ أعفيت منها المرأة العاملة في المدن والمراكز الصناعية المكتظّة بالسّكان منذ زمنٍ بعيد.

### عمل المرأة الصّناعي في البيت

على أيّام جدّاتنا كان هذا العمل المنزليّ عملاً بالغ الأهميّة والضّرورة يتوقّف عليه رفاه الأسرة كلّها. وبالقدر الذي كانت تجتهد فيه ربّة المنزل في أداء مهامّها، بقدر ما كانت حياة البيت منتظمة ومزدهرة. حتى الدّولة أفادت من نشاط المرأة كربّة منزل. فالمرأة في تلك الأيّام لم تكن تكتفي بطبخ حساء البطاطا لها ولأسرتها وإنّما كانت تصنع عدّة منتجات مثل الجوخ والخيوط والزّبدة إلخ. وهذه كلّها يمكن بيعها في السّوق حيث تتحوّل إلى سلع، أي إلى أشياء ذات قيمة.

صحيحٌ أنّ عمل جدّاتنا وأمّهاتنا لم يكن يثمّن بالمال. لكنّ جميع الرّجال، أكانوا فلاحين أم عمّالاً، كانوا يبحثون عن امرأةٍ «يداها من ذهب» كما يقول المثل، لأنّ موارد الرّجل وحده بدون «عمل المرأة المنزلي» ليست كافية لبناء بيتٍ زوجيّ مزدهر. في ذلك الحين كانت مصالح الأمّة والدّولة تلتقي مع مصالح الزّوج، فبقدر تسمك المرأة بالأسرة بقدر إنتاجها لشتّى المنتجات من نسيج وجلد وصوف يباع الفائض منها في السّوق، فتسهم بذلك في ازدهار البلد الاقتصاديّ.

### المرأة المتزوّجة والمصنع

إنّ الرّأسماليّة قد غيّرت كلّ نمط الحياة هذا. وكلّ ما كانت تنتجه الأسرة صارت تنتجه المشاغل والمصانع. وحلّت الآلة محلّ أنامل المرأة الرّشيقة. فأيّ ربّة بيت تشغل نفسها الآن في صبّ الشّموع أو غزل الصوف أو نسج الجوخ في وقتٍ يمكن فيه شراء كلّ هذه الحاجيّات في الحانوت المجاور؟ وهل شاهدتم صبيّة تصنع جواربها بنفسها؟ أوّلاً، لا وقت لديها لذلك، فالوقت من ذهب. ومن منّا يريد هدر المال بطريقةٍ غير مجدية دون أن يجني منه أيّ


SOCIALIST FEDERAL

ربح؟ إنّ ربّة المنزل، التي هي امرأة عاملة في الوقت ذاته، تشتري جواربها في السّوق بدلاً من أن تضيّع وقتها في صنعها. وقليلات هنّ النّساء العاملات اللواتي يصرفن وقتاً في تخليل الخيار أو صنع المحفوظات في وقتٍ يبيع فيه البقّال المجاور المخلّلات والمحفوظات على أنواعها.

وعلى الرّغم من أنّ المنتوج الذي يبيعه البقّال قد يكون أدنى من حيث النّوعيّة، والمصنوعات الخارجيّة من المصنع ليست في جودة المحفوظات التي تصنعها ربّة المنزل، فإنّ المرأة العاملة لا تملك الوقت ولا القدرة على القيام بهذه العمليّات كلّها. إنّها عاملٌ مأجور أوّلاً بأوّل، يضطرّها عملها المأجور إلى إهمال عملها المنزليّ. ومهما يكن من أمر، فالأسرة في وضعها الرّاهن آخذة في الانعتاق تدريجيّاً من مختلف الأعباء المنزليّة - هذه الأعباء التي كانت جدّاتنا لا يتخيّلن الأسرة خالية منها. وما كانت تنتجه الأسرة بالأمس بات ينتجه الجهد المشترك للعمّال والعاملات في المصانع والمشاغل.

**نهاية العمل المنزليّ الفرديّ**

إنّ الأسرة باتت تستهلك الآن ولا تنتج. والأعباء الرّئيسية التي تقوم بها ربّة المنزل هي: شؤون النّظافة (مسح الأرض ونفض الغبار والتّدفئة والعناية بالإضاءة إلخ.) والطّبخ (تحضير الغذاء والعشاء) والغسيل والاعتناء ببياض وثياب الأسرة (رتق الثّياب وما شابه).

وهذه أعباء مرهقة مؤلمة تستغرق كلّ وقت المرأة العاملة المضطرّة إلى بذل ساعات عمل طويلة في المصنع وتستنفد كلّ قوّتها. لكنّ الأكيد أنّ المهامّ التي كانت جدّاتنا يقمن بها كانت أكثر تنوّعاً. وبالإضافة إلى ذلك، كان عمل جدّاتنا يتميّز بميزةٍ بات يفتقدها العمل المنزليّ للنّساء العاملات، وهي أنّ النساء فقدن فائدتهنّ بالنّسبة إلى الدّولة (من منظار مساهمتهنّ في الاقتصاد الوطنيّ)، ذلك أنّ العمل الذي يقمن به لا ينتج أيّ قيَم جديدة ولا يسهم في ازدهار البلد.

عبثاً تقضي المرأة العاملة يومها بكامله من الصباح للمساء وهي تنظّف البيت وتغسل وتكوي الثّياب هادرةً كلّ حياتها في جهود لا متناهية لرتق الثياب المهترئة أو لتحضير الطّعام، حسب الموارد المتواضعة المتوافرة لديها، دون أن ينتهي يوم عملها هذا إلى أيّ نتيجةٍ مادّية، لأنّها لا تنتج بأيديها التي تعمل بلا كلل أيَّ شيء يمكن اعتباره سلعةً في السّوق التجاري. وحتى لو عاشت المرأة العاملة ألف سنة، فإنّ الأمر لن يتغيّر بالنسبة إليها. ستبقى ثمّة طبقة من الغبار يجب نفضها عن الرّفّ، وسيبقى زوجها يأتي إلى البيت جائعاً عند المساء، ويبقى أطفالها يحملون الوحل على أحذيتهم. وهكذا مع الأيّام يصبح عمل ربّة المنزل أكثر فأكثر تفاهة وأقلّ إنتاجيّة.

**ولادة العمل المنزلي الجماعي**

إنّ المنزل الإفرادي قد جاوز حدّه. وها إنّ العمل الجماعي يحلّ محلّه تدريجيّاً. وإنّ المرأة العاملة سوف تدرك، عاجلاً أم آجلاً، أنّها ليست بحاجة لأن تعتني بمنزلها بنفسها. ففي مجتمع الغد، في المجتمع الشيوعي، سوف يقوم بهذا العمل فئة متخصّصة من النساء لا يقمن بعمل سواه. إنّ نساء الأغنياء قد تحرّرن منذ سنوات من هذه الأعمال السّقيمة المرهقة. فلماذا يجب على المرأة العاملة أن تستمرّ في أدائها؟ في روسيا السوفياتية يجب أن تحاط حياة المرأة العاملة بنفس الجوّ من الرّاحة والإشراق والصّحة والجمال الذي لا يزال يحيط حتّى الآن بحياة نساء الطّبقات الغنيّة. فلا تضطرّ المرأة في المجتمع الشيوعيّ إلى قضاء ساعات فراغها - النّادرة مع الأسف - في الطّبخ لأنّ المجتمع الشيوعيّ سوف يوفّر المطاعم العامّة والمطابخ المركزيّة التي يحقّ للجميع ارتيادها.

هذه المؤسّسات تتكاثر في كافّة الأقطار، حتّى تلك التي لا يزال يسيطر عليها النّظام الرّأسمالي. والواقع أنّه طوال نصف القرن الأخير كان عدد المقاهي والمطاعم في جميع مدن أوروبا يتزايد يوماً بعد يوم، فإذا بها تنبت وتتكاثر كالفطر بعد مطر الخريف. هناك ظلّ ذوو الجيوب المحشوّة بالمال وحدهم القادرين على ارتياد مثل هذه المطاعم. أمّا في المجتمع الشّيوعيّ فيصبح بمقدور أيّ أحد أن يتناول وجبة الطّعام في المطاعم والمطابخ المركزيّة. وما ينطبق على الأكل ينطبق على الغسيل وغيره من الأعباء. لن تكون المرأة العاملة مضطرّة إلى أن تغرق في مستنقع من القذارة أو أن تفقد بصرها من جرّاء رتق الجوارب أو إصلاح البياضات. لا بل إنّها سوف تحمل هذه الحاجيّات إلى المغاسل المركزيّة كلّ أسبوع، وتخرجها أيضاً كلّ أسبوع مغسولة ومكويّة. هذا عبءٌ إضافيّ سوف يُزاح عن كاهل المرأة العاملة. كذلك فإنّ المحلّات الخاصّة برتق وإصلاح الثياب سوف تسمح للمرأة العاملة بأن تقضي أمسياتها في القراءات المفيدة والاستجمام الصحّي بدلاً من أن تقضيها في الكدح المضني. لذلك فإنّ الأعباء الأربعة المذكورة التي لا تزال ترهق نساءنا سوف تزول في ظلّ النّظام الشيوعي الظّافر، ولا شكّ في أنّ المرأة العاملة

لن تذرف دمعةً واحدة على زوالها. وهكذا يكون المجتمع الشيوعي قد حطّم النّير المنزليّ الرّازح على المرأة لكي يجعل حياتها أغنى وأتمّ وأسعد وأكثر امتلاءً بالحريّة.

**تربية الأطفال في ظلّ الرّأسماليّة**

ما الّذي يبقى من الأسرة بعد زوال أعباء العمل المنزلي الفردي؟ تبقى تربية الأطفال. هنا أيضاً تهبّ دولة الرّفاق الكادحين لنجدة الأسرة، فيحلّ المجتمع تدريجيّاً محلّ الوالدين. إنّ تربية الأطفال في ظلّ الرّأسماليّة لم تعدْ مَهمّة يضطلع بها الوالدان. فالأطفال يتلقّون تعليمهم في المدرسة. وما إن يبلغ الطّفل سنّ الدّراسة حتّى يبدأ أهله يتنفّسون بحريّة أكبر. فنموّ طفلهم الذّهني لم يعد أمراً يعنيهم. إلّا أنّ هذا لا ينهي طبعاً مسؤوليّات الأسرة تجاه الطّفل. تبقى مهمّة إطعامه وتأمين كسوته وتحويله إلى عاملٍ ماهر ونزيهٍ قادر على الاعتماد على نفسه، عندما تدعو الحاجة، وعلى إعالة أهله في شيخوختهم.

غير أنّه نادراً ما استطاعت أسرة عمّاليّة ظلت تضطلع بهذه المسؤوليّات تجاه أولادها. فأجور الأهل منخفضة لا تسمح بإطعام الأولاد حتّى الشّبَع، وندرة أوقات الفراغ لا تمكن الأهل من بذل الوقت والاهتمام الكافيين لتربية الجيل الطّالع. فكانت الأسرة مضطرّة إلى أن تتولّى تربية أولادها بنفسها. ولكن، هل كانت تربيتهم فعلاً؟ الواقع أنّ الشّارع هو الّذي يربّي أطفال البروليتاريا. وهؤلاء يجهلون راحة الحياة العائليّة وأفراحها، تلك التي كنّا ننعم بها في كنف آبائنا وأمّهاتنا.

ثمّ إنّ انخفاض أجور الأهل وانعدام الضّمانات، لا بل المجاعة، غالباً ما تدفع بابن البروليتاريّ إلى أن يصبح بدوره عاملاً مستقلّاً قبل بلوغه سنّ العاشرة. وما إن يبدأ الولد (سيّان أكان صبيّاً أم بنتاً) بإعالة نفسه حتّى يعتبر أنّه بات سيّد نفسه إلى درجةٍ يبطل معها مفعول كلمات ونصائح أهله عليه، وتتقلّص سلطتهم وتنتهي طاعته لهم.

مع اضمحلال أعباء الأسرة، الواحد تلو الآخر، يحلّ المجتمع محلّ الأهل في تنفيذ واجبات الإعالة والتّربية. والواقع أنّ الأطفال غالباً ما شكّلوا، في ظلّ الرّأسماليّة، عبئاً ثقيلاً لا يطاق على الأسرة البروليتاريّة.

**الطّفل والدولة الشيوعية**

في هذا المجال أيضاً يهبّ المجتمع الشيوعي لمساعدة الأهل. لقد خطتْ روسيا السوفياتيّة - بفضل جهود مفوّضيتَي التّربية العامّة والشّؤون الاجتماعيّة - خطوات هامّة وحقّقت المنجزات العديدة في مجال التّخفيف من أعباء الأسرة وتربية وإعالة الأطفال. ثمّة بيوت للرّضّع وحضانات نهاريّة ورياض، ومخيّمات للأطفال والأهل ومستوصفات ومنتجعات صحّيّة للأطفال المرضى ومطاعم وطعام مجّاني في المدارس وكتب مدرسيّة مجانيّة وملابس دافئة للشّتاء وأحذية للأطفال في المؤسّسات التّعليمية. ألا تكفي كلّ هذه للتّدليل على أنّ الطّفل لم يعد عبئاً على الأسرة وإنّما بات المجتمع هو الّذي يتولّى رعايته؟

كان اهتمام الأهل بأطفالهم يشمل ثلاثة مجالات:

١◆ الاعتناء بالرّضيع

٢◆ تربية الطّفل

٣◆ التعليم. أمّا بالنسبة إلى تعليم الأطفال في المدارس الابتدائيّة والثانويّة والجامعات، فهذا واجب ملقى على عاتق الدولة، حتّى في المجتمع الرّأسمالي. إنّ تراكم الأعباء على الطّبقة العاملة ونوعيّة ظروف معيشتها قد فرضا على المجتمع الرّأسمالي إنشاء الملاعب والحضانات والرّياض للأطفال. ومع تنامي وعي العمّال لحقوقهم وتوطّد تنظيماتهم في دولةٍ معيّنة، تنامى اهتمام المجتمع بإعفاء الأسرة من أعباء رعاية الأطفال.

غير أنّ المجتمع البرجوازيّ كان يخاف التّمادي في تلبية مصالح الطّبقة العاملة كي لا يسهم في تقويض أركان الأسرة نفسها. فالرّأسماليّون أنفسهم يدركون أنّ الأسرة القديمة، حيث المرأة مستعبدة للرّجل المسؤول عن إعالة الأسرة ورفاهها، هي أفضل سلاح لخنق تطلّع البروليتاريا نحو الحرّية وإخماد الرّوح الثوريّة عند العمّال والعاملات على حدٍّ سواء. فالانشغال بأمور الأسرة يُفقد العامل عزيمته ويجعله يساوم مع رأس المال. وأيّ شيءٍ لا يفعله أب أو أمّ عند رؤية أطفالهما يتضوّرون جوعاً؟

المجتمع الرّأسماليّ عاجزٌ عن تحويل تربية الناشئة إلى وظيفة اجتماعيّة فعليّة، إلى وظيفةٍ من الوظائف التي تضطلع بها الدّولة. أمّا المجتمع الشيوعيّ، في المقابل، فإنّه يعتبر أنّ التربية الاجتماعيّة للجيل الطّالع هي أساس قوانينه وأعرافه وحجر الزّاوية في البنيان الجديد. إنّ إنسان مجتمع الغد لن يولد بالتّأكيد من أسرة الأمس، التّافهة الضّيّقة، بما تنطوي عليه من نزاع بين الوالدين واهتمامها الأنانيّ بأولادها دون سائر الأولاد. إنّ إنساننا الجديد، في المجتمع الجديد، يولد في رحم التّنظيمات الاشتراكيّة كالمتنزّهات والحدائق والرّياض والمخيّمات وغيرها من المؤسّسات حيث يقضي الطّفل القسط الأوفر من وقته ويتولّى مربّون أكفّاء تحويله إلى شيوعيّ

يعي عظمة الشعارات المقدّسة، شعارات التّضامن والروح الرّفاقيّة والتعاون المتبادل والإخلاص للحياة الجماعيّة.

**تأمين معيشة الأمّ**

مع زوال أعباء التربية والتّعليم ولاسيّما بعد إعفاء الأسرة من القسط الأوفر من الأعباء الماديّة النّاجمة عن إنجاب الأطفال، لا يبقى من واجبات الأسرة تجاه أطفالها سوى رعاية الطّفل الرضيع عندما يكون بحاجة لعناية الأمّ وهو في طور تعلّم المشي والتّعلّق بثياب أمّه. لن يثقل كاهل الأمّ الصبيّة بعد الآن بعبء رعاية أطفالها! فالدّولة العمّاليّة تعتبر أنّ من واجبها أن تؤمّن المعيشة للأمّ أكانت متزوّجة زواجاً شرعيّاً أم لا، ما دامت هي الّتي ترضع الطّفل. وسوف تنشئ دُور الأمومة في كلّ مكان، وتبني الحضانات النّهاريّة في كلّ المدن والقرى، فتسمح بذلك للمرأة بأن تخدم الدّولة بطريقةٍ مجدية وأن تمارس دورها كأمّ في آنٍ واحد.

**لكي لا يكون الزّواج قيداً**

لنطمئنّ الأمّهات العاملات: إنّ المجتمع الشيوعيّ لا يرمي إلى انتزاع الطّفل من حضن أمّه ولا الرّضيع من على ثدييها. ولا هو ينوي تدمير الأسرة بواسطة العنف. ثقوا من أنّنا لسنا نضمر أيّاً من هذه النوايا! ليست هذه أهداف المجتمع الشيوعيّ.

ولكن ما الّذي نشاهده اليوم؟ نشاهد الأسرة القديمة

**لم تعد الأسرة ضرورية للدولة كما كانت بالأمس. لا بل إنها أسوأ من مجرد مؤسسة عديمة الجدوى لأنها تمنع النساء العاملات من القيام بعملهن بمزيد من الإنتاجية والجد. ولم تعد الأسرة ضرورية لأفرادها أنفسهم لأن مهام تربية الأطفال. وقد كانت بالأمس ملقاة على عاتق الأسرة. أخذت تنتقل الآن إلى عاتق المجموعة.**

آخذة بالانحلال. وقد أخذت تتحرّر تدريجيّاً من كافّة الأعباء المنزليّة التي كانت بالأمس تشكّل دعائم تماسك الأسرة كوحدةٍ اجتماعيّة. وماذا عن الأطفال؟ إنّ الأهل البروليتاريّين غير قادرين أصلاً على الاعتناء بهم ولا على تأمين معيشتهم وتعليمهم. وهذا وضعٌ يعاني منه الأهل والأبناء على حدٍّ سواء.

لذا يخاطب المجتمع الشيوعيّ العمّال والعاملات ويقول لهم: «ما زلتم في ربيع العمر، وأنتم تحبّون بعضكم بعضاً. إنّ السعادة حقٌّ للجميع. فعيشوا حياتكم ولا تنفروا من السّعادة. ولا تخشوا الزّواج مع أنّه كان قيداً على العامل والعاملة في المجتمع الرّأسماليّ. والأهمّ من كلّ ذلك ألّا تتردّدوا وأنتم شبّانٌ ممتلئون صحّة وعافية، في أن تمنحوا الوطن عمّالاً وأطفالاً مواطنين جدداً. فإنّ مجتمع العمّال بحاجة إلى قوى عاملة جديدة، وهو يرحّب بمجيء كلّ طفل جديدٍ إلى العالم. ولا حاجة إلى أن تقلقوا على مستقبل أطفالكم، فإنّهم لن يعرفوا البرد والجوع ولا البؤس والإهمال، كما كان الحال في المجتمع الرّأسمالي. فما إن يولد الطّفل، حتّى يؤمّن المجتمع الشّيوعي، حتّى تؤمّن الدّولة العمّاليّة للأم وطفلها ما يحتاجان إليه من غذاءٍ وعناية. إنّ الوطن الشيوعيّ سوف يتولّى إطعام الطّفل وتربيته وتعليمه. لكنّه لن ينتزع الطّفل من كنف أهله، بأيّ حالٍ من الأحوال، إذا كانوا يريدون الإسهام بتربية أولادهم بأنفسهم. إنّ المجتمع الشيوعيّ سوف يضطلع بكامل واجباته في مجال تربية الأطفال. إلا أنّه لن يحرم أحداً من أفراح الأبوّة أو حنان الأمومة إذا ثبت أنّه قادرٌ على فهمها وتقديرها قدرها الصّحيح». فهل يمكن اعتبار ذلك تدميراً للأسرة بواسطة العنف؟ وهل يمكن اعتباره انتزاعاً قسريّاً للطّفل من حضن أمّه؟

**الأسرة: اتّحاد عاطفي - رفاقي**

مهما يكن من أمر فلا مفرّ من الاعتراف بالحقيقة القائلة إنّ الأسرة من النّمط القديم قد تجاوزها الزّمن. والمسؤول عن ذلك ليس المجتمع الشيوعيّ وإنّما هو تغيّر ظروف الحياة.

لم تعد الأسرة ضروريّة للدّولة كما كانت بالأمس. لا بل إنّها أسوأ من مجرّد مؤسّسة عديمة الجدوى لأنّها تمنع النساء العاملات من القيام بعملهنّ بمزيدٍ من الإنتاجيّة والجدّ. ولم تعد الأسرة ضروريّة لأفرادها أنفسهم لأنّ مهامّ تربية الأطفال، وقد كانت بالأمس ملقاة على عاتق الأسرة، أخذت تنتقل الآن إلى عاتق المجموعة. ولكن على أنقاض الأسرة السّابقة سوف يُبنى شكلٌ للعلاقات بين الرّجل والمرأة جديد كلّيّاً: اتّحاد عاطفيّ - رفاقيّ يقوم على المساواة بين مواطنين من أبناء المجتمع الشّيوعي في ممارسة حرّيتهما واستقلالهما وعملهما.

لقد انتهى عهد عبوديّة المرأة المنزليّة! انتهى عهد انعدام المساواة داخل الأسرة! وانقضى زمنٌ كانت المرأة يتهدّدها الخوف فيه من أن تبقى بدون معيل، هي



❖
كولونتاي تتوسط المندوبات إلى مؤتمر النساء الشيوعيات لشعوب الشرق في العام ١٩٢٠

وأطفالها، إذا ما هجرها زوجها، فالمرأة في المجتمع الشيوعيّ لن تعتمد بعد الآن على زوجها، وإنّما سوف تعتمد على عملها. ولن يعيلها زوجها وإنّما ساعداها القويّان، ويزول القلق على مصير الأطفال لأنّ الدولة العمّاليّة ستكون مسؤولة عنهم. ثمّ إنّ الزواج سوف يطهَّر من كافّة مقوّماته الماديّة وأثقاله الماليّة التي كانت تشكّل لطخة عار في الحياة العائليّة حتّى الآن. فمن الآن وصاعداً سوف يتحوّل الزّواج إلى اتّحادٍ سام بين نفسَي شخصين متحابّين، كلٌّ منهما يثق بالآخر - اتّحاد يوفّر لكلّ عاملٍ وعاملة الحدَّ الأقصى من السعادة والرّضى. هذا ما يستحقّه مواطنون يعرفون أنفسهم ويعون البيئة المحيطة بهم. وهذا الاتّحاد الحرّ، المتين بفضل الرّوح الرّفاقيّة الّتي تسوده، هو البديل عن العبوديّة العائليّة الماضية الّذي يقدّمه مجتمع الغد الشيوعيّ إلى الرّجال والنّساء على حدٍّ سواء.

وما أن تتغيّر ظروف العمل وتتزايد الضّمانات المادّية

**الأم العاملة. الواعية لدورها الاجتماعي. سوف ترتفع من الآن فصاعدا إلى مستوى لا فارق فيه بين ما هو لها وما هو ليس لها. فتدرك أن الأطفال هم أطفالنا نحن. أطفال الدولة الشيوعية. وأنهم ملك مشترك لجميع الكادحين.**

المتوفّرة للعاملات، وبعد أن يزول الزّواج الدّيني - الّذي كان يُسمّى «زواجاً لا ينفصم» ليتّضح أنّه خدعة لا غير - ويحلّ محلّه اتّحادٌ حرّ نزيه بين الرّجال والنساء، بوصفهم عشّاقاً ورفاقاً في آنٍ معاً، فإنّ كارثة إضافيّة مخزية تبدأ بالاضمحلال ويزول شرّ مخيف كان يشكّل لطخة عارٍ على جبين الإنسانيّة جمعاء، غير أنّه يُرخي بكلّ ثقله على المرأة الكادحة الجائعة على نحو خاصّ - عنينا به البغاء.

**إلغاء البغاء**

إنّ البغاء هو ابن النّظام الاقتصاديّ السّائد وابن مؤسّسة الملكيّة الفرديّة. وما إن تلغى هذه المؤسّسة حتّى تزول تجارة النساء تلقائيّاً.

من هنا، لا يخيفنّ المرأة العاملة أنّ الأسرة، في شكلها الراهن سائرة إلى زوال، لا محالة. فالأحرى بها أن تحيّي انبلاج فجر مجتمع جديد يحرّر المرأة من العبوديّة المنزليّة ويخفّف عنها أعباءَ الأمومة ويمهّد السّبيل أخيراً أمام إلغاء البغاء - أبشع النّكبات التي بُليت بها النّساء.

إنّ المرأة المدعوّة للنّضال من أجل القضيّة الكبرى - قضيّة تحرير البروليتاريا - ينبغي أن تدرك أنّ الدولة الجديدة لن تقبل بالانقسامات السّخيفة من النّمط الّذي كان سائداً من قبل: «هؤلاء أطفالي أنا وأولئك أطفالك أنت أو أطفال الجيران وأنا لست معنيّة بهم، تكفيني مصائبي». إنّ الأمّ العاملة، الواعية لدورها الاجتماعي، سوف ترتفع من الآن فصاعداً إلى مستوى لا فارق فيه بين ما هو لها وما هو ليس لها، فتدرك أنّ الأطفال هم أطفالنا نحن، أطفال الدّولة الشيوعيّة، وأنّهم ملكٌ مشتركٌ لجميع الكادحين.

**تحقيق المساواة الاجتماعيّة بين الرّجال والنساء**

لا بدّ للدولة العمّالية من أن توفّر شكلاً جديداً للعلاقات بين الجنسين. إنّ العاطفة الأنانيّة الضّيّقة التي تكنّها الأمّ لأطفالها يجب أن تتّسع لتشمل جميع أطفال الأسرة البروليتاريّة الواسعة. وعلى أنقاض «الزّواج الّذي لا ينفصم»، القائم على استعباد المرأة، سوف يقوم الاتّحاد الحرّ بين الرجل والمرأة، يعزّزه الحبّ والاحترام المتبادل بين مواطنين من مواطني الدّولة العماليّة، متساويَيْن في الحقوق والواجبات. ومكان الأسرة الفرديّة الأنانيّة سوف تقوم أسرة العمّال الكبيرة الشّاملة حيث الشّغّيلة، رجالاً ونساءً، هم فوق كلّ شيء إخوة ورفاق.

هكذا ستكون العلاقة بين الرّجل والمرأة في مجتمع الغد الشيوعيّ. وهي علاقة ستضمن للإنسانيّة كافّة المباهج التي يوفّرها ما يسمّى «الحبّ الحرّ» عبر تحقيق المساواة الاجتماعيّة الحقيقيّة بين المرأة والرّجل، وهي مباهج يعجز عن توفيرها المجتمع التّجاريّ في ظلّ الرّأسماليّة.

أفسحوا المجال أمام الأطفال المترعرعين، المتفجّرين صحّةً وعافية!

أفسحوا المجال أمام شبيبة ممتلئة حيويّةً ونشاطاً، متعلّقة بالحياة ومباهجها، حرّة في مشاعرها وعواطفها!

تلك هي شعارات المجتمع الشّيوعي. فباسم المساواة والحريّة والحبّ نهيب بكافّة العاملات والعمّال والفلّاحات والفلّاحين أن يضطلعوا، بجرأةٍ وإيمان، بمهمّة إعادة بناء المجتمع البشريّ باتّجاه مزيدٍ من الكمال والعدالة وزيادة قدرته على أن يؤمّن للأفراد السّعادة التي يستحقّون. إنّ راية الثورة الاجتماعيّة الحمراء، الّتي تنطلق من روسيا لَترفرفُ على بلدان أخرى في العالم، إيذاناً لنا باقتراب «الجنّة على الأرض» التي تحلم بها البشريّة منذ قرون.

# إينيسّا آرمان
# البلشفيّة، النسويّة، العاشقة

إعداد
فريق «بدايات»

ولدتْ إينسيّا آرمان (١٨٧٤ - ١٩٢٠) لدى أسرة فنيّة، ابنة لمغنّي أوبرّا باريسيّ، نشأتْ في كنَف عمّتها وجدّتها. عاشتْ في موسكو. عملتْ مدرّسة. تزوجتْ من الكزندر آرمان، ابن أسرة فرنسيّة - روسيّة من كبار صناعيّي النسيج، وهي في سنّ الـ ١٩ وأنجبتْ منه أربعة أطفال. وبعد عقد من الزّمان هجرتْ زوجها لتعيش مع شقيقه الأصغر فلاديمير، الطالب والثوريّ البالغ ١٧ من العمر. تجيد أربع لغات وذات قدرات إداريّة مرموقة. ظلّ زوجها الكزندر يرعاها. وتبنّى ابنها أندريه الذي أنجبتْه من شقيقه العام ١٩٠٣.

بدأ نشاطها البلشفيّ مع ثورة العام ١٩٠٥ التي شاركت فيها وانضمّت خلالها إلى الحزب الديمقراطيّ الاشتراكيّ حيث أسستْ الفرع النسويّ التّابع للّجنة المركزيّة للحزب. لمّا فتحتْ جامعة موسكو أبوابها للفتَيات، انضمّت إليها إينيسّا لدراسة الحقوق. خلال تلك الفترة اعتُقلتْ أربع مرّات آخرُها في العام ١٩٠٧ عندما نُفيتْ إلى سيبيريا لكنّها تمكّنت من الفرار. في العام ١٩٠١ تُوفّي عشيقُها فلاديمير آرمان بالسلّ العامّ فلجأتْ إلى فرنسا وانضمّتْ إلى مجموعة لينين.

سرعان ما تحوّلت إينيسّا آرمان إلى مساعدة لينين الرّئيسة. وسرعان ما نشأت علاقة غراميّة بينهما. عَرضتْ ناديا كروبسكايا على لينين الهجر لكنّه طلب منها البقاء. وقد سكنتْ إينيسا في بنايةٍ مجاورة للبناية التي يسكنها لينين وكروبسكايا في دائرة باريس الرّابعة عشرة (هي الشقّة التي اشتراها الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ وحوّلَها إلى متحف ما لبث أن أغلق أبوابه العام ٢٠٠٧).

في أيلول / سبتمبر ١٩١٠ رافقتْ إينيسّا لينين إلى «مؤتمر الأمميّة الاشتراكيّة النسويّة» في كوبنهاغن. ومطلع ١٩١١ بدأتْ تدريس الاقتصاد السياسيّ في مدرسة الكوادر الحزبيّة البلشفيّة في لونجومو قرب باريس. ومن المهمّات النضاليّة العديدة التي تولّتْها أنّها عادتْ إلى روسيا للمساهمة في إعادة تنظيم فرع الحزب البلشفيّ في سان بطرسبرغ الذي تلقّى ضربة قويّة من الشرطة. أُلقي القبض عليها رغم تخفّيها بزيّ فلّاحة بولونيّة وحُكم عليها بالسّجن لستّة أشهر. خرجتْ من الاعتقال وعاشتْ لسنتَين في العمل السرّيّ وقد أعيد اعتقالُها ونُفيت مجدّداً إلى سيبيريا. لكنّها تمكّنت من الفرار قبل محاكمتها العام ١٩١٣ وانضمّت إلى لينين الذي كان يعيش قرب كراكوف في بولونيا.

في نهاية ١٩١٣ قرّر لينين وقْف علاقته بإينيسّا. ويتبيّن من الرسالة الوحيدة المعروفة عن تلك الحادثة مدى تعلّقها بالقائد البلشفيّ: «أستطيع أن أتحمّل حرماني من قُبلاتك، ولكن كم يكون فرحي عظيماً، لو أنّي أستطيع أن اظلّ أراك بين حينٍ وآخر... وهذا لن يؤلم أيّ أحد، فلماذا تحرمني منه؟»[١].

لم يحرمْها. تبادلا الرسائل التي تحمل تعليماتٍ حزبيّة ونقاشات نظريّة وسياسيّة تتخلّلها عباراتُ شعورٍ لينين بالذّنب والحزن والحرص الشديد عليها. نُشرتْ بعض رسائله في «مؤلّفات لينين الكاملة»، وحُجبت الرسائل الشخصيّة الحميمة التي لا تزال محفوظة في «معهد الماركسيّة - اللينينيّة» بموسكو.

عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى انتقلت إينيسّا لتسكن على مقربة من لينين وناديا في سويسرا، وحافظتْ على صداقتها مع كروبسكايا والزّمالة في العمل الثوريّ والنسويّ. وقد كتبتْ زوجة لينين عن الرّحلات الجبليّة التي كانت تعتزمها مع لينين وإينيسّا. لكن لم يخْلُ الأمر من توتّرٍ بين القائد ومساعِدته قويّة الشخصيّة. كلّفها بمهمّة حزبيّة إلى باريس مطلع العام ١٩١٦ ولم يكن راضياً عن كيفيّة تنفيذها المهمّة، فردّت بتعليقٍ غاضبٍ

١ Michael Pearson, «Lenin's Lieutenant», *The Guardian*, 29 Septembre, 2017



صادم، فكتب ردّاً عليه «لن ننجز أمراً ... باستخدام كلمات نابية ... هذا لا يشجّع على مواصلة المراسلة».

عقب اندلاع ثورة شباط/ فبراير ١٩١٧ كانت إينيسّا في عداد الفريق الذي عاد مع لينين إلى روسيا وسمحتْ له السلطات الألمانيّة بالمرور عبر الدولة العدوّ في «القطار المُغلق» الشهير. بعد انتصار ثورة أكتوبر انتُخبتْ إينيسّا لعضويّة اللجنة التنفيذيّة لسوفيات موسكو، لترأس لاحقاً اللجنة النسائيّة التابعة للّجنة المركزيّة للحزب البلشفيّ المعروفة باسم «جينوتدال» Jenotdal وهي اللجنة التي مُنحت الحقّ في إصدار القوانين المتعلّقة بالنّساء وكلّفتْ بتحقيق المساواة بين الرجال والنّساء في الحزب وفي النّقابات.

لمّا أصيب لينين في محاولة اغتيال نفذتْها إحدى المنتسبات إلى «الحزب الاشتراكيّ الثوريّ» طلَبَ أن تكون إينيسّا الى جانبه خلال فترة نقاهته. لم ترافقه كروبسكايا وما لبثتْ أن غادرتْ الكرملين قبل أن يعود. أعادتْ تلك الفترة وصْل العلاقة بإينيسّا وقد انتقلت للسّكَن في شقّة بالكرملين ومُنحتْ خطّ هاتفٍ على الشبكة الداخليّة المقفلة الموصولة مباشرةً بلينين.

انكبّتْ إينيسّا آرمان على العمل ١٤ ساعة باليوم في سنوات الحرب الأهليّة والمجاعة وانتشار وباء الإنفلونزا. أصيبتْ بذات الرئة فأرسلها لينين للنّقاهة في مصحّة في جبال القوقاز، ما لبثتْ أن غادرتْها بعدما طوّقت الجيوش البيضاء المنطقة. في إحدى المحطّات على الطريق، خرجتْ إينيسّا من القطار لجلب طعام لأحد المصابين بالسلّ فالتقطتْ وباء الكوليرا.

**سرعان ما تحولت إينيسا آرمان إلى مساعدة لينين الرئيسة. وسرعان ما نشأت علاقة غرامية بينهما.**

توفّيتْ إينيسّا آرمان في ٢٤ أيلول / سبتمبر ١٩٢٠. سجّي جثمانها في «بيت النّقابات» محاطاً بحرس من النّساء، ودفنتْ في اليوم التالي عند جدار الكرملين في الساحة الحمراء في إثر تشييع رسميّ. وَضَع لينين باقةً من الزّنبق الأبيض على القبر. وكتبت ألكسندرا كولونتاي عن وطأة الحزن على لينين دامع العينين، حتى ظَنّ من حولَه أنّه قد ينهار في أيّ لحظة. وختمتْ قائلةً إنّ لينين لم يتجاوز قَطّ وفاة إينيسّا.

# نساء روسيا ١٩١٧ في أعين المؤرّخين المعاصرين

**وسام سعادة**

**كاتب واستاذ جامعي، لبنان.**

شحيحة رسائل النساء التي عثر عليها المؤرّخ الأميركيّ مارك د. ستينبرغ[١] أثناء تنقيبه في الأرشيف الروسيّ، ضمن الكمّ الهائل من الرسائل والنداءات والشكاوى والعرائض المرفوعة إلى طرفَي مرحلة «ازدواجيّة السلطة» في العام ١٩١٧، الحكومة المؤقّتة وسوفيات بتروغراد، من آلاف العمّال والجنود والفلّاحين الذين صمّم الكثير منهم على الكتابة وهم بالكاد يفكّون الحرف.

في هذا تفاوتٌ كبير، إذا ما قورن بالدور الحيويّ، والمفاجئ وقتذاك، الذي لعبتْه النساء في انطلاقة الأحداث الثوريّة الروسيّة، بدءاً من احتجاجات طوابير الخبز فتظاهرات «يوم المرأة العالميّ» في ٢٣ شباط / فبراير (٨ آذار / مارس بالتقويم الغريغوري)[٢]، التي غلبتْ عليها المشاركة النسائيّة، وخصوصاً عاملات مصانع النسيج، لكن أيضاً ربّات المنازل، وما تحوّل سريعاً إلى إضرابٍ عامّ فانتفاضة واسعة مع انضمام قطاعات البحّارة وجنود الحامية العسكريّة في العاصمة.

لإعطاء فكرةٍ عن طبيعة هذا التّفاوت بين المشاركة والصوت، يلتقط ستينبرغ قصيدةً نشرتْ في العدد الأوّل من الجريدة النسائيّة البلشفيّة «رابوتنيتسا» في أيّار / مايو ١٩١٧، موقّعةً باسم جنديّ. في القصيدة، يتحدّث الجنديّ على لسان امرأةٍ تناجي محبوبها المَرمي على الجبهة، في أتون الحرب التي يندّد البلاشفة باستمرارها. يبالغ الجنديّ أندرييف في انفعالات المرأة ومشاعرها، على نحوٍ كاريكاتوريّ. بالنسبة إلى ستينبرغ، تسامُح محرّراتِ الجريدة مع هذا التنميط ينمّ عن رغبةٍ في تفادي شبهة «الانفصاليّة النسويّة» عن الوحدة الطبقيّة، للرجال والنساء، في الصراع، ولو من خلال استعارة صوت الذّكَر الكادح البلشفيّ، التنميطيّ لانفعالات المرأة وأحاسيسها، وهو يحتلّ مساحة صوتها، لمناجاة نفسه كذكَر في آخر الأمر.

### ١◆ ضدّ «الانفصاليّة النسويّة» وضدّ إهمال الحزب لـ«المسألة النسائيّة»

لكتاب ستينبرغ عن «الثورة الروسيّة ١٩٠٥ - ١٩٢١» مكانة مميّزة بين لائحةٍ عامرةٍ من الكتب صدرتْ في المئويّة، لكنّه يتعسّف هنا في «نقد أدبيّ» لقصيدة جنديّ في جريدةٍ بلشفيّةٍ نسائيّة. أوّلاً، لأنّ «الانفصاليّة النسويّة» لم تكن خشيةً داخليّةً غير مصرّح عنها تتفاداها محرّرات «رابوتنيتسا»، بل كانت خصماً سجاليّاً من لحمٍ ودم: تجربة «حزب النساء التقدميّ» بقيادة الطبيبة ماريا بوكروفسكايا (١٩٢٢ - ١٨٥٢) التي اكتسبتْ شهرةً من عملها بين الفقراء. يصنّف حزب بوكروفسكايا هذا على يسار الحركة النسائيّة البرجوازيّة، أي على يسار «رابطة النساء من أجل المساواة في الحقوق لعامّة روسيا» المنادية بحقّ الاقتراع العام للنساء (وهذه أكبر منظّمات روسيا النسائيّة قبل الثورة، وقريبة من حزب الدستوريّين الديمقراطيّين، الكاديت). رفض حزب بوكروفسكايا حصر مَطالبه بقضايا المرأة فقط، لكنّه اعتبر في الوقت نفسه أنّ التعاون مع الرجال، في منظّماتٍ مشتركةٍ، حزبيّة أو نقابيّة، من أجل تحصيل حقوق النساء، سيكون دائماً لمصلحة الرجال لا النساء[٣]. وعندما تمكّن، مثلاً، الجناح البلشفيّ من «حزب العمّال الاشتراكي الديمقراطي الروسيّ» من الحصول على إذن السلطات في يوم المرأة العالميّ لعام ١٩١٤، لتنظيم لقاءٍ محدودٍ في سانت بطرسبرغ، تحسّرت بوكروفسكايا، «كما توقّعنا، فإنّ اليوم العالميّ للمرأة لم يحتجّ قطّ على تبعيّة النساء لأزواجهنّ، بل تَركّز الحديث فيه على استعباد رأس المال لنساء البروليتاريا، ولم يتطرقوا إلى التبعيّة المنزليّة إلّا عرضاً»[٤]. بوكروفسكايا المنفصلة «جندريّاً» عن النّضال «الاقتصاديّ»، هي نفسها بوكروفسكايا التي تحمّست

لدخول روسيا في الحرب ضدّ ألمانيا بعد ذلك بأشهرٍ قليلة، معتبرةً أنّ الحرب، وما تفترضه من تضحيات من قبل المرأة، هي السبيل كي تحقّق المرأة التقدّميّة ذاتها. وفي فترة صدور «رابوتنيتسا» بالتحديد، كانت «الانفصاليّة النسويّة» التي تمثّلها بوكروفسكايا، في طليعة المؤيّدين لقرار الحكومة المؤقّتة الاستمرار في الحرب العالميّة، جنباً إلى جنب، مع كوكبة من «بطلات» الاشتراكيّة الثوريّة، آنا فيغنير، ويكاترينا بريشكو بريشكوفسكايا، وآنا ياكيموفا، والمنشفيّة فيرا زاسوليتش، اللواتي تحوّلن إلى دعم حكومة الأمير جيورجي لفوف المستمرّة في الحرب، وذلك تحت شعار أنّ حرب القيصر نقولا الثاني قد صارتْ بعد إسقاطه، حرب الدفاع عن الثورة الروسيّة ضدّ الإمبرياليّة العسكريّة الألمانيّة.

**مهما يكن التحفظ اليوم على موقف كولونتاي السلبي من «النسويـــــــــــة» بعامة. إلا أنه أقل ما يقال هنا أنه كان موقفـــــــــــا مبلورا نظريا. ومن التعسف اختزاله إلى تفويض الصوت للرجل حفاظا على وحدة خط الطبقة العاملة.**

كما أنّ العدد الأوّل لجريدة «رابوتنيتسا» في أيّار/ مايو ١٩١٧ كان بالأحرى استئنافاً للجريدة التي صدر أوّل عدد منها في٢٣ شباط / فبراير١٩١٤، في يوم المرأة العالميّ. من جملة النّقاط المهمّة لكتاب المؤرّخ والمناضل التروتسكيّ الفرنسيّ جان جاك ماري «النساء في الثورة الروسيّة» الصادر في أيلول / سبتمبر ٢٠١٧ عن دار سوي، إيضاحُه أنّ إنييسا آرمان هي التي طرحتْ في الأساس فكرة هذه الجريدة، وأن ناديجدا كروبسكايا فرضتْ هذه الفكرة على لينين الذي كان قليل الحماسة لها، بل متحفظاً، ولم يساهم في أيٍّ من الأعداد السبعة التي صدرتْ منها خلال أعوام الحرب[٥].

### بين ألكسندرا كولونتاي وكلارا تستكين

في الموازاة، تصدّتْ قياديّةٌ بلشفيّة مثل ألكسندرا كولونتاي، باكراً لما اعتبرتْه إهمالاً من جانب حزبها لقضيّة نساء الطبقة العاملة، لكنّها رفضتْ في الوقت نفسه مقولة «الحركة النسويّة». فلم تضيّعْ كولونتاي مجهودها النظريّ في «الأسس الاجتماعيّة لمسألة المرأة»[٦] (١٩٠٩) في إطار بلوَرة «نسويّة ثوريّة» بالضدّ من «النسويّة البرجوازيّة»، بل وضعت النسويّة بالمطلق في خانة البرجوازيّة، واعتبرتْ أنّ «تحرير النساء البروليتاريّات لا يمكن أن يكون قضيّةً مشتركةً للنّساء من كلّ الطبقات، بل هو فقط المجهود الشامل لكلّ البروليتاريا من دون تمييز بين الجنسين». صدر كرّاس كولونتاي هذا في الفترة نفسها تقريباً التي كتبت فيها كلارا تستكين «حركة النّساء الاشتراكيّات الألمانيّات»[٧]. المقالة الأخيرة جمعتْ بين التشديد، بالضدّ من حركة حقوق النساء البرجوازيّة، على أولويّة التناقضات الطبقيّة على التناقضات الاجتماعيّة بين الجنسين، وبين التشديد على أنّ نضال الاشتراكيّات الألمانيّات من أجل الظفر بحقّ الاقتراع للنساء أقوى بكثير ممّا تقوم به المناديات بحقوق المرأة حصراً، وتحديداً لأنّ هذا الاقتراع ليس هدفاً في ذاته، بل هو بالنسبة إليهنّ، سلاح مسخّر لبلوغ مرامي الاشتراكيّة.

الفارق بين تستكين وكولونتاي هنا، أنّ الأولى تقيم المفاضلة بين حركة حقوق النساء في حدودها البرجوازيّة، وبين النسوة الاشتراكيّات، فتوجد حيّزاً قائماً بذاته للأخيرات في إطار الحركة الاشتراكيّة، في حين أنّ كولونتاي لا ترمي لإعطاء كيانيّة بذاتها للنساء الاشتراكيّات، بل تفصح عن مشكلتها مع «النسويّة» بحدّ ذاتها، وتقول «تَرى النسويّات الرجال كعدوّ مشتركٍ لهنّ، أمّا النّساء البروليتاريّات فلهنّ موقفٌ مختلف. لا تنظر النساء البروليتاريّات إلى الرجال كأعداء ومضطهِدين لهنّ، بل هم رفاقٌ وشركاء في الكدح اليوميّ وفي الكفاح من أجل مستقبلٍ أفضل. يستعبد المرأةَ ورفيقُها الرجل من قبْل الظروف الاجتماعيّة نفسها». مع هذا، تشدّد كولونتاي على أنّ النسوة العاملات يَنوْنَ تحت أعباء مضاعفة. ويبدو لنا هنا أنّ انتقاد روزاليند مارش لألكسندرا كولونتاي في محلّه، فالأخيرة تميل إلى دمج ميتافيزيقيّ نوعاً ما، بين «المرأة الاشتراكيّة» وبين «المرأة البروليتاريّة»، كما أنّ رفضها إعطاء أيّ صكٍّ للحركة النسويّة بحدّ ذاتها يصطدم بمآل التجربة البلشفيّة نفسها، كما أنّ إعادة اكتشاف إرث كولونتاي، سواءٌ في الغرب أو في الاتّحاد السوفياتيّ، ارتبط بموجة تحذيرٍ للفكر النسويّ. يبقى أنّه، في نهاية الأمر، ومهما يكن التّحفّظ اليوم على موقف كولونتاي السلبيّ من «النسويّة» بعامّة، إلّا أنّه أقلّ ما يُقال هنا أنّه كان موقفاً مبَلوَراً نظريّاً، ومن التعسّف اختزاله إلى تفويض الصوت للرجل حفاظاً على وحدة خطّ الطبقة

العاملة، كما يحتسب ستينبرغ، حين يتناول قصيدة الجنديّ أندرييف في «الرابوتنيتسا».

### ٢◆ زوجات الجنود وعاملات النسيج

يصحّ في المقابل حديث ستينبرغ عن مفاجأة الحزبيّين الاشتراكيّين بدور النساء في ثورة شباط، ويصحّ أقلّ توصيفه لنظرة هؤلاء إلى المرأة الروسيّة على أنّها، سياسيّاً، أكثر تخلّفاً من الرجل على وجه العموم، وغير مجرّبة، وخجولة، ولا بدّ من الإيضاح هنا أنّه بالنسبة إلى ستينبرغ حدث تحوّل مطلع القرن العشرين من نظرةٍ مثاليّةٍ للريف في معترك الثوريّين الروس إلى نظريّةٍ سلبيّةٍ تربطه بالرجعيّة والتخلّف ووقوفه مع القيصر، وتنظر على هذا النحو للمرأة الريفيّة المسمّاة في الروسيّة الـ«بابا».

بعد أسبوع من اندلاع ثورة شباط، أخذتْ جريدة «البرافدا» البلشفيّة تمتدح النساء لكونهنّ السبّاقات إلى الشارع في «يوم المرأة العالميّ»، ولدورهنّ في ثَنْي الجنود عن إطلاق الرصاص، ولم تذكر «البرافدا»، كما يشير ستينبرغ، إلى أنّ كوادر الحزب في منطقة فيبورغ طلبوا من العاملات عدم التظاهر والالتزام بالانضباط، وأنّ حركة النساء في الشارع في اليوم التالي لم تقتصر على محاولة ثنْي الجنود عن إطلاق النّار، بل كانت بينهنّ السبّاقاتُ إلى تنظيم الهجمات على مراكز الشرطة وإضرام النيران فيها. مع هذا، فإنّ إقامة التعارض هنا بين «عفويّة جماهير» نسائيّة وبين «كوادر سراطية» ليس في محلّه، إذ كما يوضّح المؤرّخ ستيفن سميث، حتى لو كانت هذه الكوادر قد طالبتْ عاملات مصانع النسيج في منطقة فيبورغ بالانضباط والتقيّد بقرارات الحزب، فإنّ هذه الكوادر نفسها هي التي ضحّت في الساعات التالية «عنصراً سياسيّاً» أخذ التّظاهرات في الاتّجاه التصعيدي[٨].

يستعيد جان جاك ماري كيف أنّ الكادر الحزبيّ البلشفيّ فيكتور كايروف طلب من عاملات مصانع النسيج في فيبورغ عدم الخروج إلى الشارع في يوم المرأة العالميّ. كانت المنظّمات الحزبيّة في العاصمة في حالةٍ من الضعف في تلك الفترة جرّاء نجاح الشرطة السرّيّة «الأوخرانا» بتوقيف عدد كبيرٍ من الكوادر في أعوام الحرب، وبسبب إرسال عددٍ كبيرٍ من الشباب إلى الجبهة. بالتوازي، كانت الأحزاب الاشتراكيّة الثلاثة، البلاشفة والمناشفة والاشتراكيّون الثوريّون، تنظر إلى معامل النسيج على أنّها الأقلّ تطوّراً في سلّم الصناعات، ويختلط ذلك بموقف ذكوريّ بلا ريب ما دامت أكثريّة اليد العاملة في هذه المعامل من النساء. مع ذلك، وفي هذه المعامل تحديداً، بقيَت حيّة ذاكرةُ الإضرابات العمّاليّة الكثيفة التي شهدتْها روسيا في السنتين السابقتين على اندلاع الحرب، وبالأخصّ إضراب منطقة فيبورغ نفسها في أيلول / سبتمبر ١٩١٣. كما تضاعفتْ نسبة النساء، ما بين اندلاع الحرب وبداية العام ١٩١٧، لتُقارب نصف اليد العاملة الصناعيّة: فمع الحرب واستمرار ضخّ الشبّان إلى الجبهة، عملت النساء في قطاعات لم تكن متاحة لهنّ من قبل، مثل التراموای والقطار والحراسة والعتالة والعمل في الموانئ وورش البناء والبريد، وإلى حدّ كبير كانت الأجور هي الأضعف في القطاعات التي توظّف نسبةً عاليةً من النساء، كما في حال معامل النسيج والغذاء والكاوتشوك، في حين كان للعامل الرجل ضعف ما للمرأة في معامل الجلد والأحذية والصابون. وبما أنّ المرأة العاملة في قطاعات الإنتاج هذه هي أيضاً امرأة عاملة في الإطار المنزليّ، وجب الأخذ بعين الاعتبار أنّ أزمات التموين تصيب النّساء قبل الرجال. لم تكن الكوادر الحزبيّة الاشتراكيّة تتوقّع انفجاراً اجتماعيّاً جماهيريّاً في شباط / فبراير ١٩١٧، مع أنّ تقارير الشرطة في بتروغراد كانت تحذّر منه بالفعل قبل أسابيع قليلة من حصوله، وفي وقت كان السفير البريطاني يراسل حكومته محذّراً من أنّ انفجاراً للأوضاع بات وشيكاً في روسيا، لكنّه لا يستطيع أن يحدّد إذا كان انفجاراً من فوق، أم من تحت.

كتب فيكتور كايوروف بالتفصيل، عام ١٩٢٣، وقائع تلك الساعات. طلب من العاملات التوقّف عن أيّ دعوة مباشرة إلى التظاهر والإضراب، وانتظار توجيهات الحزب، وأنّه كان من جملة الذين يعتقدون بأنّه ليس هناك ظرف مؤاتٍ للتحرّك، اذ «ليس هناك من سبب سوى طوابير الخبز»، وأنّ موقف الحزبيّين تبدّل بعدما خرجت العاملات إلى الشارع، وبتنسيق ثلاثيّ بين الأحزاب الاشتراكيّة في منطقة فيبورغ، حيث أخذت الكوادر المحلّيّة تطالب الهيئات الحزبيّة الأعلى بالاستجابة لهذا الضغط القاعديّ العمّالي النسائي. ما حدث أنّ القطاع «الأكثر تأخّراً» من الطبقة العاملة، عاملات النسيج، كان القطاع الأكثر تأثّراً بأزمة التموين، والأقلّ تقيّداً بالانضباط الحزبيّ، وأثمر ذلك رغبة في إحياءٍ نضاليّ عند أولئك العاملات لإحياء يوم المرأة العالميّ في الشارع.





حتى العام ١٩٢٣، كان لا يزال ممكناً رؤية الأمور على هذا النّحو في الاتّحاد السوفياتيّ بلا مشكلة. وكلّما اقتربنا من الثلاثينيّات صارت الأمور مقيّدة بالسرديّة الرسميّة التي تقلب الوقائع، ومعها يصير الناشطون الحزبيّون هم الذين جالوا على عنابر العاملات في فيبورغ، ودفعوا بهنّ إلى التظاهر والإضراب، ولبّتْ تسعون ألف امرأة النداء. لم يعد مسموحاً للكادر أن يدخل في لعبة تأثّر وتأثير مع عاملات النسيج، بل صار «الكادر يقرّر كلّ شيء» وفقاً للمقولة الستالينيّة.

**يشدد تروتسكي في «تاريخ الثورة الروسية» نجده يشدد على أن «عناصر القاعدة التي تجاوزت منظماتها الثوريـــــــــــة المعترضـــــــــــة. هي التي فجرت ثورة شباط/فبراير. وأن المبادرة أتت عفويا من قسم من البروليتاريـــــــــــا الأكثر عرضة للاستغلال والاضطهاد من سواه. عاملات النسيج.**

وبالعودة إلى ليون تروتسكي في «تاريخ الثورة الروسيّة» نجده يشدّد على أنّ «عناصر القاعدة التي تجاوزتْ منظّماتها الثوريّة المعترضة، هي التي فجّرت ثورة شباط / فبراير، وأنّ المبادرة أُتتْ عفويّاً من قسم من البروليتاريا الأكثر عرضةً للاستغلال والاضطهاد من سواه، عاملات النسيج، وينبغي أن نحصي من جملتهنّ عدداً غير قليل من نساء الجنود»[٩]. تروتسكي الذي كان في منفاه النيويوركيّ لحظة اندلاع هذه الأحداث، يَذكر إرسال عاملات النسيج، في صبيحة يوم المرأة العالميّ، مندوباتٍ إلى عمّال التعدين.

كان «الخبز» هو الشعار الأساسيّ لليوم الأوّل من الثورة الروسيّة. الطابع النسائيّ الغالب على حشود التسعين ألف نسمة التي أضربتْ وتظاهرتْ في ذلك اليوم، ممتزجاً بشعار الخبز، كان له، مع ذلك، أثرٌ سيئٌ في «يوميّات» الشاعرة زيناييدا غيبيوس، رائدة «المدرسة الرمزيّة» في الفنّ الروسيّ، والتي عُرفت بانحيازها إلى ثورة ١٩٠٥ ومعارضتها لدخول روسيا حرب الـ١٩١٤. اعتبرت زيناييدا هذه التظاهرات شبيهة بما كان يحدث في تلك الفترة من قلاقل على خلفيّة الجوع في ألمانيا، وكتبتْ، هي التي لم تشارك في هذا اليوم، بل راقبتْه من النافذة كما يسجّل ماري، «كان احتجاجنا هذا بلا كرامة، وخضوعنا من بعده سيكون أيضاً من دون كرامة». لكنّ المشهد كبُر في اليوم التالي، حيث شارك أكثر من نصف العمّال الصناعيّين في بتروغراد في إضراب وتظاهرات ٢٤ شباط، وتصاعدتْ حدّة المواجهات الدامية، وتطوّر الشعار إلى «إسقاط الأوتقراطيّة»، ومع ذلك وصفت الجماهير بأنّها «حشدٌ من الصعاليك والبنات»، وبأنّ روسيا ليست ألمانيا كي تشهد «انتفاضة سيّدات».

ما أشاحت زيناييدا عينيها عنه هنا، لم يعتنِ به جان جاك ماري في عرضه هو أيضاً، فعلى الرّغم من ملاحظة تروتسكي أنّ من عاملات النسيج عدداً كبيراً من نساء الجنود، لم يطرق ماري هذا الباب. نساء وأرامل الجنود، أو «السولداتكي»، ويقدّر عدَدُهنّ بنحو ١٤ مليوناً وقت اندلاع الثورة، شكّلْن كتلة احتجاجيّة حقيقيّة طيلة فترة الحرب العالمية الأولى في روسيا، إذ لم تنقطع يوماً طيلة أعوام الحرب موجات احتجاجات الخبز، ونهب المخازن والمستودعات من جانب الـ«سولداتكي». ٢٨٨ هجمة جماعيّة في العام ١٩١٦ وحدَه، وقد أخذت احتجاجات «السولداتكي» تلك مسار التنديد التصاعديّ باستمرار الحرب نفسها[١٠].

### ٣◆ من حقّ التصويت للمرأة إلى «لواء الموت النسائيّ»

ما حدث في شباط / فبراير - آذار / مارس ١٩١٧، أنّ «انتفاضة من تحت» بدأتْ بين عاملات النسيج و«السولداتكي» ثمّ توسّعت لتشمل الطبقة العاملة الصناعيّة والبحّارة لتنحازَ لها الحامية العسكريّة، تقاطعتْ مع «حركةٍ ضاغطةٍ من فوق»، بادرتْ فيها المعارضة الليبراليّة، من أكتوبريّي نوكاديت، بتشكيل «لجنة دوما الدولة» برئاسة الأكتوبريّ ميخائيل رودزيانكو، وأقنعت فيها اللجنة قيادة أركان الجيش «الستافكا» بالضغط على القيصر نقولا الثاني للتنحّي. لم يكن مطروحاً بالنسبة إلى هذه الحركة الضاغطة من فوق إلغاء المَلَكيّة في لحظتها، لكنّ موافقة القيصر السريعة على التنحّي، مع عدم التقيّد بقانون توارث العرش في الأعقاب، المعمول به منذ بولس الأوّل، والذي بموجبه ينتقل العرش إلى ابنه المريض ألكسي، وإصراره على تطبيق فكرته عن الأوتقراطيّة اللامحدودة لصاحب السيادة لآخر لحظة ممكنة، من خلال نقل العرش إلى أخيه الأرشيدوق ميخائيل، هو الذي تسبب «تقنيّاً» بانتهاء حكم سلالة آل رومانوف، فميخائيل اعتذر عن قبول ذلك ما لم ينل مصادقة جمعيّة منتخَبة.

حكم هذا التقاطع بين «انتفاضةٍ من تحت» والنخَب الليبراليّة والقيادة العسكريّة من فَوق، على عام الثورة الروسيّة بالتباسٍ سيزداد تفاقماً، ولن يجد حسماً له إلّا مع استيلاء البلاشفة على السلطة ونجاحهم في الاحتفاظ بها. وهكذا ستتجاور في جناحَين من قصر طوريد طوال أشهر، سلطتان، واحدة تمثّل «ثورة النّخَب»، وهي الحكومة المؤقّتة، وثانية تمثّل «ثورة النّاس»، من خلال «سوفيات مندوبي العمّال والجنود». بين لحظة وضُحاها، أخذ الجميع يُطْنب في امتداح الثورة الحاصلة، بمن في ذلك قادة الكنيسة الأرثوذكسيّة، وفي الوقت نفسه الذي اتّفقت فيه الحكومة المؤقّتة بقيادة الأمير لفوف مع اللجنة التنفيذيّة للسوفيات برئاسة الاشتراكيّ الديمقراطيّ المنشفيّ نيقولا تشخيدزه على التعاون، وكان من الطبيعيّ أن يلعب المحامي ألكسندر كرنسكي دوراً محوريّاً في تلك الفترة، بحكم كونه صلةَ الوصل بين الحكومة المؤقّتة التي شغل فيها في البدء منصب وزير العدل، وبين تنفيذيّة السوفيات التي كان عضواً فيها. بهذا التعاون، جرى تأجيل البتّ في طبيعة نظام ما بعد الثورة إلى حين قيام جمعيّة تأسيسيّة منتخَبة، وهذه ظلّ موعدُ انتخابها يتأجّل، ولم يحصل إلّا في نهاية العام ١٩١٧، ومباشرةً بعد إطاحة البلاشفة بالحكومة المؤقّتة، ثمّ تفريقهم الاجتماعَ الأوّل للجمعيّة التأسيسيّة التي لم تَرُق لهم تركيبتُها، في انعطافةٍ حادّة باتّجاه منطق الحرب الأهليّة.

**بالأجنـــــــــــــــدة القومية. وتحت شعار استمرار الحـــــــــــــــرب. جرى انتزاع حق التصويت للمرأة.**

ثمّة مفارقتان تأسيسيّتان في بداية عمل كلٍّ من سوفيات بتروغراد والحكومة المؤقّتة.

### دمقرطة الجيش وحقّ التصويت للنّساء

فيما يتعلّق بالسوفيات. تلاحظ المؤرّخة الأستراليّة شيلا فيتزباتريك أنّ السوفيات، ومباشرةً قبل انتخاب قيادته التنفيذيّة التي سيطر عليها المناشفة، كان قد أقرّ نصّاً ثوريّاً للغاية، هو «القرار رقم ١» الذي ينصّ على دمقرطة الجيش من خلال جمعيّات منتخَبة للجنود، وتخفيض سلطة الضبّاط، وإقرار مرجعيّة السوفيات حول كلّ الأسئلة المتعلّقة بالقوّات المسلّحة، ورهن أيّ قرارٍ حربيّ للحكومة بتوقيع السوفيات أيضاً[١١]. تقول فيتزباتريك إنّ اللجنة التنفيذيّة للسوفيات التي هيمن عليها الاشتراكيّون المؤيّدون للتّعاون مع الحكومة المؤقّتة، ثمّ المشاركون بعد ذلك بأشهرٍ قليلة في هذه الحكومة، حاولت المستطاع للتنصّل من «القرار رقم ١»، إلّا أنّ هذا القرار أسّس لافتراقٍ كبير، بين الضبّاط الذين باتتْ مرجعيّتهم هي الحكومة المؤقّتة، والجنود وبحّارة الأسطول الذين باتتْ مرجعيّتهم هي السوفيتّات ولجانهم المنتخَبة، وفي حين اتخذت اللجنة التنفيذيّة للسوفيات موقفاً «دفاعيّاً» تجاه استمرار الحرب، أي تسويغ استمرارها طالما الأراضي الروسيّة عرضة للهجوم، فإنّ «السوفيات من تحت»، صارتْ تميل أكثر فأكثر إلى الموقف الداعي لوقْف الحرب بكلّ بساطة.

أمّا المفارقة الثانية فيُظهرُها جان جاك ماري عند تناوله مسألة منح الحكومة المؤقّتة حقّ التصويت للمرأة.

ففي ١٩آذار / مارس١٩١٧، وبمبادرة من رابطة النساء من أجل المساواة في الحقوق، ستتوجّه أربعون ألف امرأة، محاطات بمواكب من مليشيا النساء على الأحصنة، إلى قصر طوريد، مقرّ الدّوما، وكلّ من السوفيات والحكومة المؤقّتة، تحت شعار «مكان النساء هو في الجمعيّة التأسيسيّة»، وبعدما كان كلٌّ من الحكومة والسوفيات قد سبق لهما أن اعتبرا أن حقّ اقتراع المرأة ليس مسألةً ملحّةً ولا راهنة.

في حين يصف ستيفان سميث هذا اليوم بأنّه «لحظة نادرة كان فيها الجندر وليس الطبقة هو محور التعبئة»[١٢]، ونجد ستينبرغ يركّز على المخاوف التي انتابت اليسار بالتحديد من أن يرتدّ منْحُ الاقتراع للنساء في ظروف روسيا الاجتماعيّة والثقافيّة لمصلحة الرجعيّة، نجد ماري يلتقط نوعاً من المقايضة بين الحركة النسويّة الروسيّة والحكومة المؤقّتة: منح الحقوق السياسيّة للمرأة في مقابل إسهام النخب النسائيّة في دعم قرار الاستمرار بالحرب. بالأجندة القوميّة، وتحت شعار استمرار الحرب، جرى انتزاع حقّ التصويت للمرأة، ولو أنّ الموقف «الحربيّ» للنساء اللواتي دخلْن إلى قاعة دوما الدولة، تتقدّمهنّ «البطلات الثوريّات» مثل بريشكو - بريشكوفسكايا وفيرا فيغني، كان مختلفاً عن قسم من النساء في محيط القصر، المعارضات للحرب[١٣]. تلاقَتْ كلٌّ من «البطلات الثوريّات» لعهد الإرهاب ضدّ النظام القيصريّ والحركة النسويّة البرجوازيّة على هذه المقايضة «الحقوق

السياسيّة في مقابل دعم الحرب». وفي هذا الإطار، ستولدُ تجربة «الألوية النسائيّة» في ربيع ١٩١٧، التي شكّلتْها الحكومة المؤقّتة لإعادة ضخّ الحيويّة على الجبهة، حيث تطوّعت النسوة بالذّهاب إلى الجبهة وإعادة تذكير الرجال بواجباتهم الوطنيّة، وستبرز خصوصاً ظاهرة الفلّاحة المتطوّعة ماريا بوتشكاريفا، التي شكّلت في أيار / مايو من ذلك العام - أي في وقت كانت فيه وزارة الحرب في عهدة كرنسكي - «لواء الموت النسائيّ» في بتروغراد. وفي نهاية المطاف، لن يجد كرنسكي سوى «اللواء النسائيّ» للمرابطة أمام قصر الشتاء عشيّة الهجوم البلشفيّ للإطاحة به في ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر. في المقابل، شكّلت زوجاتُ وأراملُ الجنود «السولداتكي»، الكتلة الاجتماعيّة الأساسيّة في الحركة الشعبيّة المناهضة لاستمرار الحرب، وتقاطعتْ أكثر فأكثر مع المسار الذي سيسلكه الحزب البلشفيّ، خصوصاً بعد عودة لينين والمنفيّين.

### ٤◆ تركة القياديّات البلشفيّات

في كتابها «السياسات والشعب في روسيا الثوريّة» تشدّد سارة بادكوك على أنّه، وفي مقابل أهميّة دور «السولداتكي»، بقيت المرأة غائبةً عن كلّ درجات الإدارة في البيروقراطيّة المرتبطة بالحكومة المؤقّتة، ونسوة قليلات انتُخبن مندوباتٍ لسوفيات بتروغراد، وتذهب بادكوك إلى أنّه من منظار سائر المناطق، كان هناك ميل لاختزال حضور المرأة في الهيئات عموماً حين تشارك كمندوبة عن المدرّسين[١٤]. أمّا ستيفن سميث، فيعتبر أنّ ثقافة اليسار الاشتراكيّ الروسيّ بقيتْ ثقافةً يهيمن عليها الرجل، رغم الهالة التي اكتسبتْها فيه البطلات الثوريّات، وخصوصاً الإرهابيّات النارودنيّات والاشتراكيّات الثوريّة مثل فيرا فيغنير ويكاترينا بريشكو - بريشكوفسكايا، وخصوصاً ماريّا سبيريدونوفا، لكنّ سميث يضعنا أمام مفارقةٍ تستأهل متابعةَ البحث والتفكير: في إحالة على مقالة لبيت فيزلر عن «تشكّل المرأة الاشتراكيّة - الديمقراطيّة الروسيّة»، يعتبر أنّ النّساء داخل حزب العمّال الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ، بجناحَيه البلشفيّ والمنشفيّ، كنّ في العهد القيصريّ أوسع مشاركةً في أطرهنّ الحزبيّة بالمدن ممّا كان للنساء في «الحزب الاشتراكيّ الثوريّ» المنبثق عن الحركة الشعبيّة، والحزب الجماهيريّ الأكبر في روسيا عام ١٩١٧، والأكثر تجذّراً في الأرياف، مع نسبةٍ لا بأس بها بين العمّال أيضاً. ويتابع سميث أنّ هذا الدور المهمّ للنساء الاشتراكيّات - الديمقراطيّات، في الجناحين، والذي لعب دوراً مهمّاً بعد ثورة شباط، سيتراجع ما أن يبدأ القادة القدماء للحزب، الرجال في أعمّهم الغالب، بالعودة من المنافي.

يخالف جان جاك ماري هذه الوجهة، مركّزاً على الوجوه القياديّة النسائيّة البلشفيّة العائدة إلى روسيا في آذار / مارس ونيسان / أبريل، مثل ألكسندرا كولونتاي وإيلينا ستاسوفا وإنيسا آرمان ونياديجدا كروبسكايا، والمشاركات في المنعطف المحوريّ للكونفرنس السابع للحزب الذي سيتبنّى «موضوعات نيسان» اللينينيّة، ويدشّن بالتالي العدّ العكسيّ لتقويض الحكومة المؤقّتة واستيلاء البلاشفة على السلطة. يذكر ماري أنّه، على هامش هذا الكونفرنس، حاولتْ كولونتاي أن تجمع بعض المندوبات لدعم اقتراحها انشاء أقسام نسائيّة في منظّمات الحزب، وهو اقتراح تصرّفت معه آرمان بلامبالاة، فالأخيرة فضّلت تكريس جهدها للنّشاط الحزبيّ العامّ[١٥]، وأيّاً يكن من شيء فإنّه في فترة ما بعد إقرار «موضوعات نيسان» تكثّف جهد القياديّات البلشفيّات، على ما يوجزه جيوفري سوين على كلٍّ من «السولداتكي»، زوجات الجنود، وعاملات المصابغ والمغاسل، وكان الداعي المباشرة لإعادة إصدار «رابوتنيتسا» هو إضرابُ لنقابة هذه العاملات. عدم تمكّن كولونتاي من إقناع الحزب، ولا سيّما رفيقاتها، بفكرتها حول المكاتب النسائيّة، ترافَقَ في نفس تلك الفترة مع صعود شعبيّتها بين الأوساط العمّاليّة، وقد زادتْ بعد اعتقالها إثر «أيّام تمّوز» إلى أن أطلق سراحها أواخر آب / أغسطس، مباشرة بعد فشل محاولة الجنرال كورنيلوف تطويق حكومة كرنسكي من اليمين، الأمر الذي فتح المجال لتقويضها من جهة البلاشفة بعد ذلك بشهرين، واستبدالها بمجلس مفوّضي الشعب الذي حلّت فيه كولونتاي، كمفوّضة الشعب للشؤون الاجتماعيّة، وبالتالي كأوّل وزيرة في العالم.

### إجراءات البلاشفة الديمقراطيّة

يركّز ماري على ما اتّخذه البلاشفة من إجراءات «ديمقراطيّة» لم تكن الحكومة المؤقّتة المهمومة بمتابعة الحرب والحفاظ على النّظام الاجتماعيّ القائم لتضعها أمام أعينها، ومن جملتها فصل الكنيسة والدولة، والكنيسة والمدرسة، وسنّ قانون أحوالٍ شخصيّة مدنيّ، وتأميم المصارف، وإنشاء مصرف مركزيّ للدولة، وكذلك،


Да здравствуют Советские
женщины — активные
строители коммунизма!
8
МАРТА
Международный женский
день.
1949
г.
40 к. почта СССР

تحت ضغط كولونتاي وآرمان ومثيلاتهما، الخطو باتّجاه تشكيل شبكةٍ عموميّة من حضانات ورياض الأطفال والسعي إلى تحرير المرأة من إرهاق العمل المنزليّ، والغاء كلّ تمييز في القانون بين أطفال يولَدون داخل مؤسّسة الزواج أو خارجا[١٦]، وإعلان عدم تدخّل الدّولة والمجتمع في العلاقات الجنسيّة بين الأفراد إلّا في حالات التعنيف والقسْر، وإلغاء عقوبة السجن للمثليّين، ولغاية إلغاء تجريم الإجهاض في ١٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢١.

ينبّهنا ماري مع ذلك إلى أنّ الذين أقرّوا هذه الإجراءات الطليعيّة لم يكونوا في البداية مقتنعين بأنّها اعتُمدتْ لتبقى، وأنّ كولونتاي مثلاً كانت تثمّن قرارات الحكومة الثوريّة على أنّها شهادة للبروليتاريا العالميّة في المستقبل، فممّا أسرّتْ به لجاك سادول، من اللجنة العسكريّة الفرنسيّة، والمنبهر بجمال وجاذبية أوّل وزيرة في العالم، أنّ البلاشفة سيُهزمون بلا ريب، لكنْ يوهم نفسه في الغرب مَن يعتقد أنّ هزيمة الثورة الروسيّة تعني هزيمة الاشتراكيّة العالميّة[١٧].

**يربط ماري توقيت التعبئة ضد الزواج المدني بأزمة مفاوضات الصلح في «بريست ليتوفسك». وانقسام الحزب البلشفي تحديدا بين تيار كان عمليا أقلويا. يقوده لينين. يطالب بتوقيع الصلح في أسرع وقت وبأي ثمن. وبين أنصار «الحرب الثورية».**

الطريف هنا هو التزامن بين تقديم كولونتاي في ٣ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ مشروع الزواج المدنيّ إلى مجلس مفوّضي الشعب وبين إلقاء الكنيسة الأرثوذكسيّة الحرَم عليها، ليس لتهمة تجديف لاهوتيّ كما كانت الحال يوم أُلقيَ الحرَم على ليون تولستوي في شباط / فبراير ١٩٠١، بل لأنّه جرى، بإيعاز من كولونتاي، وبمساعدة الحرس الأحمر، احتلال دير ألكسندر نيفسكي وطرد الرهبان منه وتحويله إلى بيت معوّقي الحرب. الحرَم على أوّل وزيرة في العالم الحديث كان إيذاناً من الكنيسة بالتصعيد. أرسلَت الكنيسة التي انتقلت في غضون أشهر من مكافحة البلشفيّة داخل الإكليروس إلى الترويج داخلها للقناعة بأنّ حكم البلاشفة سينهار في غضون أسابيع، لائحةً من ٢٤ بنداً للسوفناركوم، تنصّ على الاعتماد الرسميّ لروزنامة الكنيسة، وانسجام التعليم المدرسيّ مع روح الكنيسة، وتأمين الحاجات الروحيّة لأعضاء الكنيسة في الجيش والأسطول، وتخصيص الدولة ميزانيّةً من المال للكنيسة، وحصر الزواج وإبطاله بالكنيسة. بديهيّ أنّ السوفناركوم لم يأخذ بأيٍّ من هذه البنود، بل إنّه بعد أيّام من انضمام الاشتراكيّين - الثوريّين الثلاثة إلى السونفاركوم في ١١ كانون الأوّل / ديسمبر، استصدر مرسوم «نقل ملفّ التعليم وتكوين المعاهد الكنسيّة إلى إدارة مفوّضيّة الشعب للتعليم». تأزّمت الأمور أكثر، وسارع بطريرك موسكو تيخون (فاسيليبيلافين) إلى اعتبار البلاشفة مجانين، وأنّ عملهم شيطانيّ، ومنع المؤمنين تحت طائلة إنزال الحرَم من التعاون معهم. المفارَقة هنا أنّ بطريركيّة موسكو كان قد ألغاها بطرس الأكبر قبل ثلاث قرون، عام ١٧٢١، ولم تُحيِها الكنيسة إلّا في ٢٨ تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٧ (١٠ تشرين الثاني / نوفمبر بالتقويم الغريغوريّ)، أي بعد بضعة أيّام على استيلاء البلاشفة على السلطة.

اللافت في المقابل، أنّ مرسوم الزواج المدنيّ الذي أقرّه السوفناركوم يرفع سنّ الزواج إلى ١٨ سنة للذكور و١٦ سنة للإناث، لكنّه يلحظ أنّه بالنسبة إلى سكّان البلاد العابرة للقوقاز، تخفّض السنّ القانونيّة إلى ١٦ سنة للذكور و١٣ سنة للإناث، وبالتالي لم يستجب المرسوم لمطلب السيّدات المسلمات في مؤتمر المسلمين بموسكو، أيّار / مايو ١٩١٧، منع زواج الفتيات ما دون الـ١٦ عاماً.

### التصدّع في الموقف من الحرب والسلام

وبالعودة إلى الكنيسة الأرثوذكسيّة، يربط جان جاك ماري توقيت تعبئتها ضدّ الزواج المدنيّ بأزمة مفاوضات الصلح في بريستليتوفسك، وانقسام الحزب البلشفيّ تحديداً بين تيّار كان عمليّاً أقلويّاً، يقوده لينين، يطالب بتوقيع الصلح في أسرع وقت وبأيّ ثمَن، وبين أنصار «الحرب الثوريّة». يشدّد ماري على أنّ قائدات العمل النسائيّ، ألكسندرا كولونتاي وإنيسا آرمان وفارفارايا كوفليفا وإيفعينيا بوش، كنّ في مواجهة مع لينين في تلك الفترة، ويرَيْنَ أنّ توقيع السلام الإملائيّ المرهق هو خيانة للثورة العمّاليّة، التي هي مبرّر الثورة الروسيّة نفسها. في تلك الفترة كان الحزب على حافّة الانشقاق، واللجنة المناطقيّة لموسكو لم تعد تسمع للّجنة المركزيّة، بل تشكّل مجلس مفوّضي شعب مستقلّ لولاية موسكو، ضمّ مفوّض شعْب للشؤون الخارجيّة، الأمر الذي علّق عليه لينين بسخرية مرّة وهو يسأل إن كان «الموسكو» من الآن فصاعداً سيقيمون

علاقاتٍ دبلوماسيّة مع تفير ونوفغورو دوبسكوفوريازان، «وقد باشرنا هكذا العودة ستمئة سنة إلى الوراء». لقد استمرّت هذه الحكومة الإقليميّة الموازية، واليساريّة، حتى ٩ حزيران / يونيو ١٩١٨. لم يخرج الحزب البلشفي من أزمته الداخليّة الحادّة بعد «برستليتوفسك» إلّا في مرحلةٍ بات يشتد فيها عليه الخنّاق، من أخصامه الاشتراكيّين الثوريّين اليمينيّين (تمرّد «جمعيّة الدفاع عن الوطن الأمّ والحرّيّة» بقيادة سافينكوف)، ثمّ حلفاء البلاشفة بعد تشرين الأوّل / أكتوبر، الاشتراكيّين الثوريّين اليساريّين وصولاً إلى انتفاضتهم ٦ - ٧ تموز / يوليو في موسكو، والتي لعبتْ فيها ماريا سبيريدونوفا دوراً بارزاً. الجناح اليمينيّ للحزب الاشتراكيّ الثوريّ وضع نفسه في خانة «الثورة المضادّة» في مواجهة البلاشفة، والجناح اليساريّ للحزب وضع البلاشفة أنفسهم في خانة «الثورة المضادّة». في مواجهة هذين الجناحَين، استعاد الحزب البلشفيّ وحْدته، واليوم هناك شبه إجماع عند المؤرّخين، من مختلف المواقع، على أنّ الحزب البلشفيّ لم يكن في الأعوام ١٩١٧ - ١٩١٨ يشبه نموذج الحزب المركزيّ الهرَميّ الذي رسم لينين صورته في «ما العمل؟» (١٩٠٢).

ولعلّ من النواقص في شغل جان جاك ماري إهمال الحالة التي شكّلتها ماريا سبيريدونوفا في مرحلة وقوفها ضدّ البلاشفة، خصوصاً يوم بدت الأمور تنقلب لصالح حزبها في موسكو، ولو لساعات، قبل أن يتوجّب على هذه المناضلة فوق العاديّة عيش سلسلةٍ من التجارب المُرّة بنقْلها ما بين سجنٍ ومصحّةٍ وصولاً إلى إعدامها عام ١٩٤١، هي وأولغا كامينيفا، شقيقة تروتسكي وزوجة كامينيف، في مجزرة غابة ميدفيديف.

## تحرير المرأة من العمل المنزليّ

أمّا فيما يتعلّق بعمل كولونتاي في فترة الحرب الأهليّة، فقد نجح ماري في تتبّع خطوط أساسيّة أبرزها هاجس تحرير النساء من العمل المنزليّ، هي التي اعتبرتْ أنّ فصل المطبخ عن الزواج «سيكون إصلاحاً عظيماً، لا يقلّ أهمّيّةً عن فصل الدين عن الدولة»، والجمع بين رزمة قوانين حمائيّةٍ للمرأة العاملة وبين الانطلاق من مبدأ إجباريّة العمل، والطليعيّة في إباحة الإجهاض مع الظنّ بأنّه سوف تتضاءل الحاجة إليه مع الانتقال نحو الاشتراكيّة. ولئن شكّل قيام «الجينوتدل» أو الهيئة الموكلة بالعمل بين النساء لدى اللجنة المركزيّة، ومثيلاتها على الصعد المحلّيّة، محطّةً أساسيّةً في تكريس إسهامات هذا الجيل من القياديّات البلشفيّة، يرى ماري في التعطيل اللاحق للجينوتدل وصولاً إلى إلغائه نهاية العشرينيّات، بحجّة أنّ «تحرير المرأة» قد أُنجز، منعطفاً باتّجاه المحافظة الاجتماعيّة اللاحقة، رغم أنّ جزءاً أساسيّاً من «إصلاحات كولونتاي» قد استمرّ في روسيا إلى اليوم، في حين تواصل الكنيسة الأرثوذكسيّة حمْلتها من أجل العودة عن حرّيّة الإجهاض الممنوحة عام ١٩٢٠.

**الهوامش**

١ Mark D. Steinberg. *The Russian Revolution 1905-1921*, Oxford, 2017, p.28-32

٢ حتى ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩١٨ كان معمولاً بالتقويم اليولياني في روسيا، حيث تشبثت به الكنيسة الأرثوذكسيّة، وفقط بعد استيلاء البلاشفة على السلطة اتخذ قرار الانتقال الى التقويم الغريغوري، وعليه جرى القفز مباشرة من ٣١ كانون الثاني ١٩١٨ إلى ١٤ شباط/فبراير. فيما عنى الأحداث بروسيا، تلتزم هذه المقالة بالتقويم اليولياني حتى لحظة الاستعاضة عنه

٣ Rosalind Marsh. *The birth, death and rebirth, of feminist writings in Russia*, in: *Textual Liberation – European Feminist Writing in Twentieth Century,* Edited by Helena Forsas-Scott, Routledge, 1991

٤ Jean-Jacques Marie. *Les Femmes dans la Révolution russe*, Paris, Seuil, 2017, p.153

٥ Op.cit. p.146

٦ Selected Writing of Alexandra Kollontai. Translated with an introduction and commentaries by Alex Holt, p.58

٧ للإطلاع على مقالة كلارا تستكين «حركة النساء الإشتراكيات الألمانيات» Clara Zetkin, German Socialist women's movement, https://www.marxists.org/archive/zetkin/1909/10/09.htm

٨ S.A. Smith, *Russia in Revolution, An Empire in crisis 1890-1928*. Oxford, 2017, p.102

٩ Léon Trotsky, *Histoire de la révolution russe. 1. La révolution de Février* Editions du Seuil, 1995, p.141

١٠ S.A. Smith, op.cit. p.96-97

١١ Sheila Fitzpatrick, *The Russian Revolution*, second edition, Oxford, 1994, p.47-48

١٢ S.A. Smith. op.cit. p.140

١٣ J-J. Marie, op.cit. p.167

١٤ Sarah Badcock, *Politics and the People in Revolutionary Russia. A Provincial History*. Cambridge University, p.106

١٥ J-J. Marie, op.cit, p.187
أما المؤرخ جيفري سوين فيشير الى ان كروبسكايا هي التي رفضت دائماً فكرة المكاتب الحزبية النسائية
Geoffrey Swain. *The Russian Revolution*, London, Tauris, 2017, p.117

١٦ من جملة ما يوضحه جان جاك ماري أن القانون المقر في ١٦ أيلول ١٩١٨ نص على أن تتوجه المرأة الحامل غير المتزوجة إلى مقر البلدية قبل ثلاثة أشهر من الولادة وتسجل اسم والد الطفل، ويمكن للشخص المعترض على تسميته أن يلجأ إلى المحكمة، كما أعطى القانون للقاضي أن يوزع النفقات على أكثر من معاشر للمرأة الحامل غير المتزوجة إن تعذّر الفصل في هوية والد الطفل. في ظروف الحرب الأهلية والجوع، حصل أن استخدمت بعض النساء هذه المادة للاستفادة من نفقات غذائية لعدد من المعاشرين

١٧ J-J. Marie, op.cit. p.200-201

# تحرّر المرأة في الملصق وفي الحياة

**عماد الدين رائف**

**كاتب وصحافي، لبنان. من أعماله «قصص بيروتية لأغاتانغل كريمسكي» ٢٠١٦.**

**ملصقات «الحياة الجديدة»**

عند سماعك عبارة «أكتوبر الأحمر» بالروسيّة (كراسني أكتيابر)، وقبل أن تذهب بتفكيرك إلى الثّورة البلشفيّة قد تتبادر إلى الذهن صورة مصنع الحلويات الضّخم الرّابض على ضفّة نهر «موسكفا» في العاصمة الروسيّة، أو أحد منتجاته، ولعلّ أشهرها لوح شوكولا يُسمّى «أليونكا» (تصغير اسم أليونا). و«أليونكا» اليوم لا تزال في أبهى حللها، تحتلّ واجهات الكيوسكات المفضية إلى الساحة الحمراء، وقد تعدّدت أشكال وأنواع المنتجات التي تحمل الصورة، إلّا أن النسخة الأصليّة منها كانت قد ظهرت في العام ١٩٦٥، وهي طفلة سلافيّة جميلة نظيفة مورّدة الخدين مشرقة في فولار ملوّن، ذات عينين زرقاوين واسعتين تنظران إليك، كنموذج عن الهيئة التي ينبغي أن تكون عليها الطفلة السوفياتيّة، ولا ننسى هنا أنّها لا تتمتّع فقط بصحّة جيّدة بل ليست نحيلة كذلك، حين كانت النحافة تعتبر مرضاً، كما كان يقول المثل السائر في تلك الحقبة.

سبقت «أليونكا» مئات اللوحات الفنيّة التي تنتمي إلى فئة الرسم الواقعيّ لفتيات ونساء، للظهور على نطاق واسع في الاتّحاد السوفياتي وحظيت بشهرة كبيرة، ولم يكن ظهورهنّ في السينما وعلى شاشة التّلفاز أو في المطبوعات الورقيّة مصادفة في ظلّ نظام لم يعرف العبث أو المصادفة في انتقاء الوجوه وتوجيه الرّسائل المصوّرة. ولعلّ الفترة المصيريّة من حياته احتاجت إلى توجيهٍ مباشر أكبر وأكثر دقّة، حين كان غضّاً طريّ العود في السنوات العشر الأولى التي تلت «الأيّام العشرة التي هزّت العالم»، وكان سلاحه الدعائيّ التوجيهيّ الأوّل فيها هو الملصق السياسيّ، الذي نحت وعي جيل كامل من أبناء الثورة وبناتها.

ما إن أعلن عن انتصار الثورة في العاصمتين الشماليّتين موسكو وبتروغراد (اسم حملته مدينة سان بطرسبورغ بين العامين ١٩١٤ و١٩٢٤، لتتحوّل إلى لينينغراد حتى انهيار الاتّحاد السوفياتيّ في العام ١٩٩١) سنة ١٩١٧، حتى اندلعت شرارة حرب شعواء في جميع أنحاء روسيا القيصريّة، بأشكال مختلفة إلّا أنّها تميّزت بوحشيّة شديدة أودت بحياة أكثر من ثلاثة عشر مليون مدنيّ واستمرّت رسميّاً حتى العام ١٩٢١، إلّا أنّ المناوشات التي تلتها بين الجيش الأحمر من جهة، والمحافظين الديمقراطيّين واليساريّين المعتدلين والقوميّين الانفصاليّين والروس البيض من جهة أخرى، استمرّت سنتين إضافيّتين. وكانت المدن والأصقاع تتهاوى أمام زحف الجيش الأحمر مصحوبة بدعوات التحرّر من نير العبوديّة للقيصر والدِّين، وعشرات الملصقات التي تخاطب الشعوب بلغاتها وتدعو إلى توحيد الطبقة العاملة «البروليتاريا»، والترجمة العربيّة الأولى للعبارة الشهريّة كانت «يا صعاليك جميع العالم اتّحدوا»، التي ظهرت على العملة الورقيّة المرحليّة في تلك الفترة. وقد هشّم قائد الثورة الرفيق فلاديمير إلييتش الصورة التقليديّة للمرأة السلافيّة في روسيا القيصريّة، التي كانت قد ظهرت بالفعل على عدد من الملصقات الموجّهة أثناء فترة الحرب العالميّة الأولى أو ما سبقها من إعلانات بصورة امرأة ارستقراطيّة ذات أناقة باريسيّة. وكان لينين يعتقد بالفعل بأنّ ثورته ما كانت لتنتصر لولا المرأة، وقال في ذلك «إنّ تجارب حركات التحرّر تشهد أنّ نجاح الثّورة يخضع لدرجة مشاركة المرأة فيها، من بتروغراد إلى موسكو إلى المدن الصناعيّة البعيدة، إنّ موقف النّساء البروليتاريّات خلال الثّورة كان رائعاً، وبدونهنّ كان من المحتمل جدّاً ألّا ننتصر، هذه هي وجهة نظري، يا لها

من شجاعة برهنَّ عليها. نَعم عاملاتنا رائعات، إنّهنّ مقاتلات حقيقيّات من الدّرجة الأولى، وهنّ يستحققن كلّ إعجابنا وحبّنا».

**المساواة**

وفق هذه التعاليم، كان من السهل مطلع عشرينيّات القرن الماضي رسم صورة المرأة السلافيّة على ملصق، تسير بطريقها نحو مركز التثقيف الحزبيّ متأبّطة عدداً من الكتب وإلى جانبها رجل دين أرثوذكسيّ رسم بشكل كاريكاتوريٍّ حجمه نصف حجمها، يدعوها إلى الدين فيما تمدّ يدها اليمنى رافضة دعوته، ويترافق الرسم مع عبارة «الكاهن يدعو إلى الماضي. لا سبيل إلى ذلك». أو كذلك أن تظهر جدّة بصورة الشريرة التي تقبض بيدها ضفيرة حفيدتها وتشير بإصبع يدها الأخرى إلى الكنيسة المتهاوية، فيما الفتاة تصارع للوصول إلى «المدرسة» حيث يظهر صبيّ يحمل بوقاً، ينبئ أنْ وقت الدروس قد أزف. والرسالة المباشرة للملصق «الدِّين سمّ - احفظوا الأولاد منه». إلّا أنّ ذلك «السهل» اصطدم بواقع آخر احتاج إلى بذل جهود مضنية من المثقّفين الثوريّين في موسكو وبتروغراد لفهمه أوّلاً، وللتعامل معه ثانياً، قبل التوجّه إليه بدعوة التحرّر. ويتمثّل بالمجتمع الزراعيّ المسلم المحافظ الذي ينتشر على أراض تفوق مساحتها الأراضي التي يقطنها السلاف بأضعاف، وتمتدّ من شمال القوقاز والدونباس والقرم غرباً إلى بلاد الإيغور أقصى أراضي تركستان شرقاً، ومن أراضي التّتار التاريخيّة شمالاً إلى ضفاف بحر قزوين جنوباً. ولعلّ الملصق الذي ظهر بين العامين

**كان من السهل مطلع عشرينيات القرن الماضي رسم صورة المرأة السلافية على ملصق. تسير بطريقها نحو مركز التثقيف الحزبي متأبطة عددا من الكتب وإلى جانبها رجل دين أرثوذكسي رسم بشكل كاريكاتوري حجمه نصف حجمها.**

١٩١٩ و١٩٢١، بعنوان «أيّتها الفلّاحة تأهّبي لترك الحياة القديمة والالتحاق بالجديدة» يرسم المسار العام المطلوب من المرأة السوفياتيّة بشكل عام. ويمكن اتخاذه معياراً، في خروج المرأة على التقاليد المنزليّة من جهة والاجتماعيّة من جهة أخرى شاقّة طريقها الأحمر على شكل مثلّث وسط الملصق، وذلك بين استعباد الرجل لها بأحكام قيصريّة بالية إلى يمين الملصق واستعباد المجتمع لها بخرافات وشعوذات في الجهة الأخرى، لتتحرّر المرأة مشاركة في تربية الأطفال وفي الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة عبر المدرسة والعمل والانتخابات في آن، وذلك وفق التعاليم اللينينيّة التي تذيّله، عبر مساواتها بالرجل السوفياتيّ مرّة وإلى الأبد. وقد فرض هذا المسار بالقوّة أوّلاً، ثمّ بقوّة النساء أنفسهنّ ثانياً بعد تحررهنّ وخروجهنّ من «عبوديّة المطبخ» وغرفة النَّوم. فكيف كانت الحال شرقاً؟

**البلشفة شرقاً**

بقي الإعلان عن انتصار «الثورة» في آسيا الوسطى في ٣٠ نيسان / أبريل ١٩١٨، مجرّد إعلان عن تأسيس جمهوريّة تركستان الاشتراكيّة السوفياتيّة المتمتّعة بالحكم الذاتيّ والداخلة في نطاق جمهوريّة روسيا الاتّحاديّة الاشتراكيّة السوفياتيّة (تركستان التاريخيّة هي اليوم مساحات من أراضي كازاخستان، أوزبكستان، تركمانستان، طاجيكستان، قرغيزستان، وبلاد الإيغور - شينكيانغ في الصين). أمّا في الواقع فقد كان الأمر مختلفاً، حيث كانت الحرب الأهليّة مستعرة وروسيا نفسها محاصَرة بعد استيلاء الألمان غرباً على البلطيق وأوكرانيا والقرم وتهاوي منظومات الدفاع في بيلاروسيا وما وراء القوقاز.

أمّا من الشّمال فقد احتلّت الجيوش الفرنسيّة والأميركيّة والبريطانيّة مورمانسك وأرخانغلسك، ومن الشرق غزَت الجيوش اليابانيّة ثمّ الأنكلو - فرنسيّة مساحات شاسعة. وكانت المناطق الممتدّة من وادي فرغانة إلى بحر قزوين في آسيا الوسطى هي المَنفذ الذي دُفعت إليه الجيوش الروسيّة البيضاء بعد كلّ هزيمة من الجيش الأحمر، وعمليّاً، فقد كانت آسيا الوسطى أو تركستان معزولة عن أمّها المستجدّة - روسيا الاشتراكيّة، إلى أن أرسل لينين البوارج الحربيّة إلى بحر قزوين في آب / أغسطس وحشَد السوفيات مَن حشدوا من جموع الأوزبيك والكازاخ والطاجيك والتّتار والقرغيز وقبائل الألتاي إلى جانبهم في حرب ضروس ضدّ كلّ مَن واجههم. إلّا أنّ إمارتَي خيوه (خوارزم) وبخارى بقيتا صامدتين في وجه الزحف الأحمر، واحتاجتا إلى «ثورتين» منفصلتين من الداخل في وجه الإقطاع.

ولا يعني الحجاب هنا غطاء الرأس عموماً، فنساء الشمال كلّهنّ من المزارعات والفلّاحات يتشاركن غطاء الرأس بأشكال وألوان مختلفة تدلّ أحياناً على قوميّتهن أو زيّهنّ التقليديّ أحياناً، أو ما تقتضيه طبيعة الطقس أو ظروف العمل اليوميّ أحياناً أخرى، فما يعنيه الحجاب هو الرّمز الدّيني تحديداً، الذي يجعل المرأة رهينة المنزل ومقيّدة من المجتمع: «أفضل العاملات والفلّاحات هنّ في الحزب اللينينيّ». ويترافق ذلك مع ضرورة اقتداء نساء تركستان بما حقّقتْه المرأة الروسيّة من تقدّم وعبارة: «أيّتها المرأة التتاريّة انضمّي إلى صفوف عاملات روسيا

**كان هذا التحويل يعيد بناء المجتمع الزراعي بصورة جذرية ويصفي العلاقات البطريركية الإقطاعية في الأرياف ناقلا. وفي فترة زمنية قياسية. ملايين النساء الفلاحات التقليديات إلى ساحة الكدح. أي إلى التعاونيات الزراعية والمصانع وبالتالي إلى «الحياة الجديدة» المنشودة.**

السوفياتيّة، يداً بيد مع المرأة العاملة الروسيّة ستحطّمين آخر العقبات». والدعوة هنا صريحة إلى ترْك المنزل ونزع الحجاب بما يمثّله من قيَم ثمّ الانطلاق إلى المعمل أي إلى التقدّم الاشتراكيّ المطلوب. وسريعاً ستنتشر موجة جديدة من الملصقات التي تصوّر الانخراط الجماعيّ للمرأة الآسيويّة في الدعوة الاشتراكيّة والالتحاق بالعاملات: «انخرطي في صفوف بناء الاشتراكيّة»، وتجسيد طابور من النساء ينزعن الحجاب شيئاً فشيئاً للوصول إلى رفيقاتهنّ العاملات الصناعيّات والزراعيّات. وتترافق تلك الموجة مع دعوة المرأة إلى تكريس حقّها في العمل: «أيّتها المرأة: كرّسي حقّك في حرث الأرض والإنتاج»، وفي حقّ الفتيات الأصغر سناً بالالتحاق بـ«بيت الشباب».

### التمييز الإيجابي

وبطبيعة الحال، فإنّ المرأة العاملة سواء أكانت أمّاً أم زوجة أم ابنة، ستؤسّس لعائلة جديدة في مفاهيمها، قائمة على التعاليم اللينينيّة نحو «حياة جديدة» وهو مصطلح سيستمرّ في التردّد في الجمهوريّات السوفياتيّة الآسيويّة.

والخطوة التالية ستكون ضرورة تمثيل المرأة في المجالس الزراعيّة والعماليّة ترشّحاً واقتراعاً، فالقرية الحديثة تُبنى عبر تلك المجالس، والدعوة المباشرة: أيّتها الفلّاحة، توجّهي إلى انتخابات المجلس الزراعيّ. وتبدو السعادة على أمّ تحمل طفلها (المستقبل) عالياً بعدما مارست حقّها في الاقتراع (المرأة السوفياتيّة كاملة الحقوق تصّوت للوطن الاشتراكيّ وللحياة الاشتراكيّة). وقد ظهرت مئات الملصقات التثقيفيّة للمرأة في حالات الحمْل والولادة وتربية الأطفال والعناية بصحّتهم والسعي إلى القضاء على الأمراض المُعدية. وترافقت مع حسم مسألة هامّة لدى المرأة، وهي أنّ بوّابة المساواة هي الخروج من المنزل إلى المعمل أو الانخراط في العمل الزراعيّ، وتضمّنت تلك الملصقات أشعاراً يسهل حفظها على النساء لمخاطبة مجتمع الرجال والتعبير بها عن مرادهنّ، ومنها: «لا تعتقدْ يا عزيزي أنّني أتظاهر بالأمر فحسب، بل أنا شديدة الاهتمام بالحركة العماليّة».

كذلك عزّزت الملصقات في الأذهان قول لينين: «إنّ تحرير النساء الكادحات هو عمل النساء الكادحات أنفسهنّ»، مع الشرح المفصّل خطوة خطوة للوصول إلى المبتغى. وبالإضافة إلى العناية الخاصّة التي حظيتْ بها ملصقات يوم المرأة العالميّ في الثامن من آذار / مارس من كلّ سنة، كيوم احتفاليّ للمرأة بالقضاء على جميع أشكال التمييز ضدّها في الوطن الاشتراكيّ على مدى العقود السبعة من حياة الاتّحاد السوفياتيّ، إلّا أنّها في الحقبة الأولى كانت مكرّسةً لتحرير المرأة من قيود «عبوديّة المطبخ»، وتتضمّن رسائل مباشرة في هذا الصدد. («الثامن من آذار هو يوم انتفاضة المرأة العاملة على عبوديّة المطبخ»، وتظهر المرأة العاملة وهي تفتح الباب واسعاً أمام رهينة المطبخ لتنطلق نحو حياة جديدة).

ولا يمكن اليوم قياس مدى التأثير الفرديّ على النساء، خصوصاً في المجتمعات التي لم تمرّ بمرحلة الرأسماليّة وتمركزها، فذلك يحتاج إلى جمع كمّ كبير من الشواهد التي يختفي كثير منها خلف الدعاية السياسيّة الموجّهة، إلّا أنّ التحويل الاشتراكيّ للاقتصاد الزراعيّ فيها كان حاسماً، وقد انخرطت فيه النساء على قدَم المساواة مع الرجال، وكان هذا التحويل يعيد بناء المجتمع الزراعيّ بصورة جذريّة ويصفّي العلاقات البطريركيّة الإقطاعيّة في الأرياف ناقلاً، وفي فترة زمنيّة قياسيّة، ملايين النساء الفلّاحات التقليديّات إلى ساحة الكدح، أي إلى التعاونيّات الزراعيّة والمصانع وبالتالي إلى «الحياة الجديدة» المنشودة.

والثورة البلشفيّة في آسيا الوسطى اتّسمت بطابع بالغ التعقيد ليس على الصعيد العسكريّ فحسب، بلّ على الصعيد التنظيريّ الماركسيّ، وقد احتاج ذلك إلى تعديلات اجتهاديّة في النظريّة الماركسيّة نفسها بما يتلاءم مع الواقع واستنزف طاقات كثيرة، فللمرّة الأولى يعلن عن ثورة اشتراكيّة في بيئةٍ إقطاعيّة زراعيّة مترامية الأطراف لم تمرّ في مرحلة التطوّر الرأسماليّة، وظهرت مقولات مثل «التطوّر اللارأسماليّ للبلدان المتخلّفة اقتصادياً» و«الانتقال إلى الاشتراكيّة بناءً على التجربة الغنيّة للبدان الاشتراكيّة« و«الدولة الاشتراكيّة كأداة أساسيّة للتحوّل الاشتراكيّ للمجتمع» ناهيك عن «الثورة الثقافيّة كشرط ضروريّ لانتقال البلدان المتخلّفة إلى الاشتراكيّة». ومن نافلة القول أنّ وضع المرأة في تلك البلدان وقف عقبة كأْداء في وجه هذه الثورة.

**نزع الحجاب**

إلى جانب عدد كبير من الملصقات التي تهاجم الممارسات الدينيّة عبر تصوير رجال الدين (الأرثوذكس والمسلمين واليهود) كاريكاتيرياً وبأشكال قبيحة، وإلى جانب الملصلقات العامّة التي كانت تصل من موسكو بكثافة إلى حواضر آسيا الوسطى تتحدّث عمّا قدّمته الثورة للمرأة أو ما هو مطلوب منها: «أيّتها المرأة العاملة كوني في الصفوف الأماميّة لبناء الاشتراكيّة»، «أيّتها المرأة تثقّفي. أمّي لو كنت مثقّفة لساعدتِني!»، «ماذا قدّمت ثورة أكتوبر للعاملة والفلّاحة؟ بيتَ الأمّ والطفل، مجلس العمّال والفلّاحين، مدرسة الكبار، بيت الأطفال - الحضانة، المكتبة ونادي العاملات». إلى جانب كلّ ذلك خصّصت ملصقات لتحرير نساء تركستان من سطوة الحجاب، فظهرت المرأة - الثورة أوّلاً بحجابٍ على رأسها مكشوفة الصدر حاملةَ راية جمهوريّة تركستان الاشتراكيّة السوفياتيّة، فيما امرأتان قد كسرتا قيودهما تنظران إليها، تحمل إحداهما شعلة.

ثمّ ظهرت المرأة وقد نزعت حجابها عن رأسها وقد بدا ممزقاً تحت قدميها وهي تدير ظهرها لأمّها ووالدها ورجل الدين المسلم الذي يدعوها إلى المسجد بيده، وتحمل راية التحرّر الحمراء، وتتّجه إلى «رفيقين» يدعوانها إلى ولوج باب كُتبتْ فوقه عبارة «يا عمّال العالم اتّحدوا».






# الثقافة الجديدة
## دمقرطة الفنّ وابتكارٌ بلا حدود

إعداد
فريق «بدايات»

طغت ثلاثة تيّارات ثقافيّة متداخلة على السنوات الأولى من الثورة الروسيّة: الطليعيّة والمستقبليّة والبنيانيّة. ظهرت النزعة المستقبليّة الروسيّة بوحيٍ من سابقتها الإيطاليّة التي نشأت مع بداية القرن العشرين وتميّزت بشغفها بنتاجات العلوم والصناعة والحداثة. وقد مجّدت السرعة والتكنولوجيا وآمنت بالشباب وعبدت العنف وكرهت كلّ قديمٍ ودعت إلى القَطع مع الماضي ومع السلوك السويّ والذّوق السائد. إلّا أنّ المستقبليّة الروسيّة تفارقت كلّياً مع المستقبليّة الإيطاليّة بأنّها التزمت الشيوعيّة ندّاً بل نقيضاً للفاشيّة التي تبنّتها نَظيرتها الإيطاليّة.

**المرسوم رقم ١ لدمقرطة الفنون**

في أوّل أيّام الثورة دعا أناتولي لوناتشارسكي، مفوّض الشعب لشؤون «التنوير»، إلى إبداع «أشكالٍ جديدةٍ، حرّةٍ وشعبيّةٍ من الحياة الفنّيّة»، فاستجاب مایاکوفسكي وكامنسكي ودافيد بورليوك للدعوة وأصدروا الإعلان «المرسوم الرقم ١ حول دمقرطة الفنون: الأدب والفنّ للشعب» الذي يلخّص مبادئ النّزعة المستقبليّة الروسيّة وطموحاتها:

«الأدب للملأ والرسوم في الشوارع!»

«أيّها الرفاق والمواطنون، نحن، طليعة التيّار المستقبليّ الروسيّ (لفنّ الشبيبة الثوري) نعلن ما يلي:

١◆ ابتداءً من اليوم، وبناءً على إلغاء النظام القيصريّ، يلغى وجود الفن في مستودعات ومخازن العبقريّة البشريّة: القصور، صالات العرض، الصالونات، المكتبات، المسارح.

٢◆ باسم المسيرة الكبرى نحو مساواة الجميع أمام الثقافة، لتُدوّن «الكلمة الحرّة» للكائن المبدع عند زوايا البنايات، والأسيجة، والسطوح والشوارع في مدننا وقرانا وعلى ظهور السيّارات والعربات والحافلات الكهربائيّة وعلى ثياب جميع المواطنين.

٣◆ لتُنشر اللوحات (الملوّنة) من بيت إلى بيت، في الشوارع والسّاحات، على شكل أقواس قُزح متلألئةٍ مثل الأحجار الكريمة، تُفرح عيون المارّة وترَقّي ذائقتهم.

الرسّامون والكتّاب مطالبون بأن يتناولوا بلا تردّد عبوات الألوان وأدوات فنّهم ليزيّنوا ويغطّوا بالرسوم جميع المدن والمحطّات وقطعان قطارات سكك الحديد المنفلتة من أعقلتها.

ابتداءً من اليوم، عند مروره في الشارع، يجب أن يستمتع المواطنُ بكلّ لحظةٍ بعميق أفكار معاصريه اللامعين، وأن يتأمّل الألق الملوّن لهذا النّهار وفرَحه الرّائع، ويجب أن يُنصت أينما كان لموسيقى مؤلّفينا الموسيقيّين البديعين: شجيّة كانت أو صاخبة.

لتكن الشوارع ساحاتِ احتفالات فنّيّة للجميع.

وفي حال وَجدت كلماتنا آذاناً صاغية، فكلّ خارجٍ إلى الشارع سيكبُر ويُثري من خلال تأمّل الجمال، بديلاً من حال شوارع اليوم، وهذه الكتب المعدنيّة (لوحات الإعلانات) حيث الطمعُ والجشعُ والحسدُ السافل والغباءُ المُطبِق وحدها تدوّن كلماتِها التي تلوّث الروح وتُؤذي العَين.

«الفنّ، كلّ الفنّ، للشعب، كلّ الشعب!»

سيُقام أوّل عرض للأشعار والرّسوم في شوارع موسكو يوم تدشين مجلّتنا»[١].

**البنيانيّة CONSTRUCTIVISM**

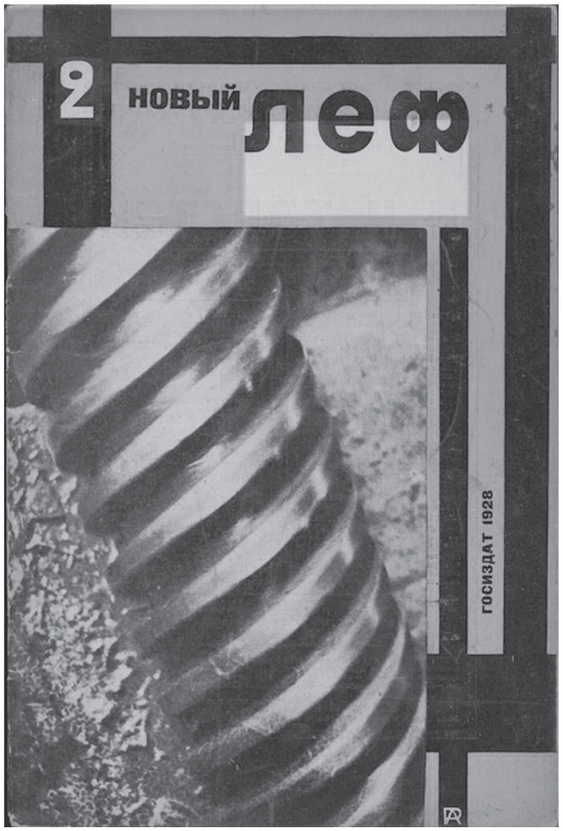
البنيانيّة تيّار فنّيّ ومعماريّ مثّلَ تطْويراً للمستقبليّة برز في روسيا بُعيد الحرب العالميّة الأولى. وقد جارى المستقبليّة في رفض الماضي والدعوة إلى رمي بوشكين ودوستوييفسكي في البحر «من فوق باخرة الحداثة» وفي

١ نُشر في غازيتا فوتوريستوف (مجلّة المستقبليّين) في ١٥ آذار / مارس ١٩١٨.


НОВЫЙ
ЛЕФ
ЖУРНАЛ
левого фронта
искусств
ПОД РЕДАКЦИЕЙ
В. В. МАЯКОВСКОГО
№ 1
МОСКВА
1927
ГОСИЗДАТ


НОВЫЙ
ЛЕФ
№ 7
ГОСИЗДАТ
1927
В НОМЕРЕ:
В. Маяковский. Хорошо!
Н. Асеев. Семен Проскаков.
С. Третьяков. Дэн-Сы-Хуа.
В. Перцов. „Какая была погода в эпоху гражданской войны“. Записная книжка Леф-а.


НОВЫЙ ЛЕФ
1
1928
В НОМЕРЕ: с НОВЫМ ГОДОМ!с„НОВЫМ ЛЕФОМ“!—С.ТРЕТЬЯКОВ.
ШУМ УНТЕРГРУНДЕНА—Н. АСЕЕВ. КУЛЬТ ПРЕДКОВ
И СОВРЕМЕННОСТЬ—В. ПЕРЦОВ.
МЫ ПОЛАГАЕМ — ЛЕФ. „ВОЙНА И МИР“ Л. ТОЛСТОГО —
В. ШКЛОВСКИЙ. „ВАС НЕ ПОНИМАЮТ РАБОЧИЕ И КРЕСТЬЯНЕ“—В. МАЯКОВСКИЙ. ФОТО.—А. РОДЧЕНКО.
ГОСИЗДАТ


2
НОВЫЙ ЛЕФ
ГОСИЗДАТ 1928

احتقار الذّوق السائد الذي جعله مایاكوفسكي موضوعاً لقصيدته «صفعة في وجه الذوق السائد» (١٩١٢).

اهتمّ البنيانيّون على نحْوٍ خاصّ بالرّبط بين الفنّ والإنتاج الصناعيّ. رأوا أنّ الفنّ الجديد يجب أن يستوحى نبض الإنتاج الصناعي. وعملوا على إسهام الفنّ في الصناعة بأشكالٍ مختلفةٍ فصمّموا نقوشاً فنيّة تزيينيّة للأنسجة وأزياءً للعاملات والعمّال وأثاثاتٍ للمنازل ومدافئَ اقتصاديّة الكلفة وتجهيزاتٍ للمكتبات العامّة. وكان للبنائيّين شغَف خاصّ بالتكنولوجيا وما أنتجتْه العلوم. وقد أعلنوا نهاية فنّ اللوحة والعمل الفنيّ الفرديّ. ومبدأُهم الأساسيّ: الفنّ نتاجٌ جماعيّ يلزم أن يُشرِك المُشاهد فيه مثلما يجب أن يخدم أهدافاً مجتمعيّة.

بناءً عليه كان التزام البُنيانيّين بالثورة وقد أسهموا في الحملة الدعاويّة البلشفيّة، فصمّموا ونفّذوا ملصقات ولوحاتٍ دعاويّةً ملوّنة أو رسموا ما سوف يُعرف لاحقاً بـ«الغرافيتي» على الأبنية، ومن أشهر أعمالهم ملصق إل ليسيتزكي بعنوان «اهزموا البِيض بواسطة الوَتَد الأحمر» (١٩١٩).

ظهرتْ بوادر التصميم الغرافيكيّ عندهم مع رودشنكو وليسيتزكي ولم يقتصر الأمر على تصميم ملصقاتٍ للسّينما أو المسرح أو الدعاية السياسيّة بل تعدّى ذلك إلى ابتكار أنماطٍ جديدة في تصميم المجلّات والكتب والاهتمام بنوع خاصّ بكتب الأطفال.

وكان البنيانيّون روّاداً ايضا في ابتكار تقنيّات التّصوير والتّوليف التصويريّ (فوتومونتاج) القائمة على الكولّاج الذي يجمع بين صوَرٍ أو قصاصاتٍ صحافيّةٍ ورسوم وتلاوين من وحْي التكعيبيّة وأعمال بيكاسّو. ومن أوائل الأعمال التي استُخدمتْ فيها تلك التقنيّة لوحة «لينين وكهربة روسيا» (١٩١٩ - ١٩٢٠) وتزيين رودشنو لقصيدة مایاكوفسكي «عن هذا». وسوف تَلقى تلك التقنيّة تطويراً خلّاقاً لدى جون واترفيلد الألمانيّ اليساريّ المُعادي للفاشيّة بمثل ما سوف تؤثّر ابتكارات البنيانيّين في العمارة والتصميم الغرافيكيّ والتّصميم الصناعيّ والمسرح والأفلام والرّقص والأزياء. ومن أبرز آثارها حركتا «الباوهاوس» في ألمانيا.

### لوناتشارسكي و«مفوضيّة التنوير»

طغتْ شخصيّة أناتولي لوناتشارسكي (١٨٧٥ - ١٩٣٣) على الحياة الثقافيّة والتعليميّة الروسيّة خلال أكثر من عقْد من زمن الثورة الأوّل. شغل منصب «مفوّض الشعب للتنوير» Narkompros (لاحقاً مفوضيّة الثقافة والتعليم) من تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩١٧ إلى ١٩٢٩.

ولوناتشارسكي من البلاشفة الأوائل منذ انشقاق الحزب الاشتراكيّ الديمقراطيّ الروسيّ العام ١٩٠٣، قد انحاز إلى التيّار المناهض للحرب بقيادة لينين وتروتسكي. كان مثقّفاً رفيع المستوى يجيد ستّ لغاتٍ وكاتباً مخصباً له مئات المقالات في الفلسفة والفكر الاشتراكيّ والأدب الكلاسيكيّ والحديث والرسم والموسيقى والنّحت. من أعماله «الدين والاشتراكيّة» ١٩٠٨، و«مقاربات لفلسفةٍ تشاركيّة» ١٩٠٩، وقد صدرت مختارات من مقالاته في الأدب والفنّ بعد الوفاة.

تحدّث عنه لينين بما هو «شخصيّة فائقة الموهبة» وقال عن علاقته به «أنا ضعيفٌ تجاهه. وأحبّه كثيراً، كما هو معروف. إنّه رفيقٌ ممتاز». مع أنّ العلاقة بين الرجلين لم تخْلُ من خلافاتٍ في الفكر كما في السياسة الثقافيّة.

عُرف عن لوناتشارسكي اعتماد سياسةٍ منفتحة ومحترمة لحرّيّة الإبداع والتعدّديّة، وبالمرونة الكبيرة تجاه المثقّفين. دافع عن الأبنية التراثيّة للعهد القيصريّ ضدّ تيّارٍ في الحزب البلشفيّ وبين المثقّفين يريد تدميرها، بحجّة القطْع مع كلّ ما يتعلّق بالماضي القيصريّ. ومن هؤلاء الدعاة مایاكوفسكي الذي أعلن في إحدى قصائده «آن الأوان لوشم المتاحف بالرّصاص». وقد ردّ عليه الشاعر الكبير ألكسندر بلوك، مدافعاً عن حماية التراث. وأنشأ لوناتشارسكي في وزارته فرعاً للمحفوظات والمتاحف مركزُه «قصر الشتاء» الشهير، وساعدتْه في تلك المهمّة المناضلة البلشفيّة لاريسا رايزنر (١٨٩٦ - ١٩٢٦) التي كانت أوّل مفوّض سياسيّ نسائيّ في الجيش الأحمر وهي الصحافيّة اللامعة التي عُرفت بتحقيقاتها عن الحرب الأهليّة والثورة الألمانيّة.

### البرولتكالت والأجيتبروب

وكان لوناتشاريسكي قد أسهم قبل الثورة بحركة «الثقافة البروليتاريّة» Proletkult صحبة زملائه في اليسار البلشفيّ ألكسندر بوغدانوف ومكسيم غوركي، وضمّت ناديا كروبسكايا، زوجة لينين، ولاريسا رايزنر في لجنتها المركزيّة. مع الثورة تحوّلت الحركة إلى مؤسّسةٍ ثقافيّةٍ تجريبيّةٍ واسعة الانتشار من أدباء وفنّانين طليعيّين طمحوا إلى إنتاج ثقافة جديدة ثوريّة وعمّاليّة تستلهم بناء مجتمع صناعيّ جديد. وقد أعلن دافيد شتيرنبرغ باسمهم أنّ «الأدب البروليتاريّ سوف يكون أدباً غير طبقيّ، يناهض

كافّة أنواع الأدب التي عرفها الماضي». وقد نَمَت الحركة بسرعة فائقة إذ ضمّت ٨٤ ألف عضو تجمّعوا في نحو ٣٠٠ نادٍ ومحترفٍ حيث يشارك نحو نصف مليون مواطن في فعاليّات الحركة التي تركّزت بنوع خاصّ في المصانع. وأصدرتْ الحركة ١٥ مطبوعة دوريّة. حظيتْ حركة الثقافة البروليتاريّة برعاية لوناتشارسكي ودعم «مفوضيّة التنوير» مع أنّها ناضلتْ للاستقلال عن الدولة التي تموّلها.

على صعيد آخر، كانت «مفوضيّة الشعب للتنوير» أبرز المفوضيّات العاملة في حقول الدعاية وتعميم الثقافة. أسهمت بدورها في الأجيتبروب Agitprop، حملة التحريض والدعاية خاضها لوناتشارسكي بروح المبادرة والحماسة التي أسّس بها البرولتكالت Proletkult. كانت قطارات وبواخر الدعاية والتحريض تجوب البلاد والقنوات والأنهار والبحار و«تنشر الثورة وفنون الثورة» - أشهرها «القطار الأحمر» الذي دشّنه لينين - يوزّع المناشير والكتب وأعداد جريدة «إزفستيا» في كافّة أرجاء روسيا. وعلى قاطراته والعربات ترتسم الشعارات والإعلانات والدعايات واللوحات الفنّيّة، وداخله سينمائيّون ومصوّرون وفنّانون تشكيليّون أدباء يجوبون أرجاء روسيا يتعرّفون على بلادهم ويستوحون منها ويُوحون.

### «محترفات الدولة الحرّة»

في نهاية ١٩١٨ أُنشئت «محترفات الدولة الحرّة» في موسكو وبتروغراد لتحلّ محلّ الأكاديميّات الإمبراطوريّة، لتعليم الفنون المختلفة. غرضُها تنمية ثقافة العين وزيادة طاقتها على تعرّف اللّون والكتلة والمدى ثلاثيّ الأبعاد والحركة. وتمكّن الطلّاب من استيعاب نظرة متكاملة للتشكيل والعمارة والنّحت لتنمية مؤهّلات الفرد الفنّيّة الفرديّة، وقد أعلنت الحريّة الفنيّة داخل جدرانها واعترفتْ بكلّ المدارس الفنيّة وتكفلتْ منحَ كلّ طالبٍ فرصة تنمية فرديّته في أيّ اتّجاه يريد.

وفي نهاية ١٩٢٠ رفد لينين «المحترفات» بقرار إنشاء معهدٍ عالٍ للفنون VKhUTEMAS استقطب عدداً كبيراً من ألمع فنّاني روسيا للتدّريس فيه، منهم آلتمان وكاندينسكي ومالفيتش وشاغال وبوبوفا وستبانوفا ورودشكنو، وليستزكلي وتاتلين وآخرون. وسوف تنشأ في ظلّ ذلك المعهد أوّل مدرسةٍ للفنون الغرافيكيّة.

ويعود إلى لوناتشارسكي أيضاً تأسيس «بيت الفنون» في بناية مصرفٍ مؤمّم في نهاية العام ١٩١٩. ويحتوي صالات تدريس وقاعات للمؤتمرات ولعروض السينما والمسرح، بالإضافة إلى مكتبةٍ ومقهى وغرَفٍ ومحترفاتٍ لسكن الكتّاب والفنّانين يعيشون فيها مقابل محاضرات يلقونها على الجمهور.

### النهايات

ما إن مضى عقدٌ من الزمن حتى كانت معظم تلك المحاولات التجريبيّة، التي انتعشت خلال سنوات الثورة والحرب الأهليّة، التجريبيّة تتعثّر أو تنتقل تحت إشراف الحزب، وقد أخذ يشجّع تيّار «الواقعيّة الاشتراكيّة»، أو الدولة مع بدء إطباق البيروقراطيّة على الحياة الثقافيّة والفنّيّة والتعليم.

باكراً خسرتْ حركة «الثقافة البروليتاريّة» استقلالها عند صدور قرارٍ عن اللجنة المركزيّة للحزب بدمْجها في مفوضيّة التعليم، وأعطيت الأولويّة في نشاطاتها لتعليم العمّال.

وقد عارضتْ شخصيّات وتيّارات الحياة الثقافيّة كافّةً «السياسة الاقتصاديّة الجديدة» (NEP) وانتقدوا النموّ المتضخّم للبيرقراطيّة وظهور الأثرياء الجدد - «رجال النيب». ليس هذا وحسب، تغيّرتْ لغة الثورة، كما يلاحظ: «تدريجيّاً، أخذت الكلمات تحجب من المعاني بقدْر ما تفصح عنها. صار للكلمة وجهان: وجهٌ للنّظريّة ووجهٌ للممارسة. فمثلاً، صارت كلمة «سوفييت» صفة ملازمة للوطنيّة ومصدراً للاعتزاز الوطنيّ. ولم تعد تدلّ - إلّا في النظريّة - على نمطٍ معيّنٍ من الديمقراطيّة البروليتاريّة» (راجع مقالة برجر عن مایاكوفسكي في مكان آخر من هذا العدد). كتب مایاكوفسكي قصائد ومسرحيّات ساخرة ومريرةً ضدّ البيروقراطيّة والأثرياء الجدد. وأسّس مع رفاقه مجلّة LEF النقديّة التي صدرت خلال ١٩٢٣ - ١٩٢٥ لتعاود الصدور بعد عامين باسم New LEF قبل أن تتوقّف عن الصدور العام ١٩٢٩.

عام ١٩٢٥ انتحر الشاعر سيرغاي ييسّينين، آخر غنائيّي الرّيف وأحد أنقى أصوات الثورة الروسيّة والأوسع شعبيّة بين شعرائها (راجع المقال عن إيزادورا دانكن في مكان آخر من هذا العدد). وعام ١٩٣٠ أقدم مایاكوفسكي بدوره على الانتحار، معتذراً من صديقه ييسينين لأنّه لامه على انتحاره. قبل ذلك بعام أخرج ستالين لوناتشارسكي من مفوضيّة الشعب لشؤون الثقافة والتعليم. وفي منتصف الثلاثينيّات، كانت «الواقعيّة الاشتراكيّة» قد حلّت عمليّاً محل البنيانيّة، مع أنّ بعض البنيانيّين أمثال ليسيستزكي ورودشنكو وستيبانوفا ظلّوا يرسمون أعمالاً فنيّةً في خدمة الدولة.

# إيزادورا دانكن في الثورة
## «أرقصُ من أجل الحياة الجديدة»

إعداد
فريق «بدايات»

ولدتْ إيزادورا دانكن العام ١٨٧٧ في حيٍّ فقيرٍ من أحياء سان فرانسيسكو، افترق والداها باكراً وعاشت مع والدتها، مدرّسة البيانو، وإخوتها الثلاثة. متمرّدة منذ النشأة، ضاقت بالمدرسة الكاثوليكيّة الصارمة، واستهواها الرّقص - كانت تقول إنّها ترقص منذ أن وقفتْ على قدمين - فغادرت المدرسة باكراً ودرّست الرقص مساهمةً في إعالة الأسرة. انتقلتْ إلى نيويورك وعملتْ لفترة في المسرح قبل أن تقرّر التفرّغ للرّقص.

غادرتْ إيزادورا إلى لندن بمالٍ اقترضتْه من نساء ثريّاتٍ كانت ترقص لهن في حفلاتهنّ الخاصّة. ومنذ مطلع القرن العشرين أخذتْ تجوب أوروبّا وقدّمت العروض في معظم عواصمها، باريس، فيينّا، بودابست، البندقيّة، اليونان، ألمانيا، سان بطرسبرغ، موسكو، وارسو، هولندا ودوماً ذهاباً وإياباً من نيويورك وإليها. أسّست مدرستين للرّقص قرب برلين وفي جنوب فرنسا، عرفت المشاهير من ملوكٍ وحكّامٍ وكبار الرأسماليّين ومثقّفين، وألهمت الملايين من المشاهدين.

جاهرتْ بعدائها للبالية، بزيّه الضيّق المنمّط وإلزامه الرّاقصة والرّاقص بأداء حركاتٍ اصطناعيّةٍ على المسرح، الذي يقيّد الجسد فيما المطلوب هو تحرير الجسد. صمّمتْ على إعادة الاعتبار إلى الجسد البشريّ «بما هو أداةً تعبيريّة»، وإحياء فنّ الرّقص المتخلّف عن رَكْب تطوّر سائر الفنون، فعملتْ على تطوير حركات رقصٍ حرّة طبيعيّة واستوحت الأساطير والعبادات والمسرحيّات الإغريقيّة. كانت ترقص حافية القدمين وأحياناً عاريةً أو متدثّرة بغلالةٍ أو عباءةٍ تستوحي الأزياء الإغريقيّة أو الرومانيّة، وتؤثر الرّقص في الهواء الطّلْق. اختارتْ موسيقاها بنفسها. رقصتْ على مقطوعاتٍ لباخ وبتْهوفن وشوبّان وشوبرت وفاغنر. واستلهمتْ في رقصها الشّعر والأدب والمسرح والفلسفة، في مروحةٍ كبيرةٍ من الاستلهامات تمتدّ من شيكسبير إلى السورياليّين. في الحصيلة، أسّست إيزادورا درانكن لأسلوبٍ في الرّقص هو باكورة ما سوف يُسمّى «الرّقص الحديث».

ارتبطتْ رؤياها للرّقص باكراً بالالتزام الاجتماعيّ والنسويّ. كانتْ تقول «أنا لستُ راقصة. أنا مهتمّة بالبحث عن شكلٍ جديدٍ للحياة والتعبير عنه». شعارُها «بلا حدود» طبّقته في كلّ نواحي الحياة، وخصوصاً في وجه قيود المجتمع البرجوازيّ. جاهرتْ بنقد الرأسماليّة الغربيّة وأعلنت انحيازها للاشتراكيّة، وطالبت بأن تسمّى «رفيقة».

رأتْ إلى رقصها بما هو «رمزٌ لحرّيّة المرأة» قبل أيّ شيء آخر. وحرّيّة المرأة عنَتْ بالنّسبة إليها حرّيّتها في التصرّف بجسدها. تطلّعتْ إلى ولادة امرأة جديدة «أرفع مجداً من أيّ امرأة وُجدتْ من قبلُ وأرقى ذكاءً في جسدٍ هو الأوفر تمتّعاً بالحرّيّة».

زارتْ إيزادورا موسكو العام ١٩٠٥، وتروي في مذكّراتها أنّها دخلتْ سانت بطرسبرغ فيما عرباتٌ تحمل نعوش ضحايا «الأحد الدامي». في ذلك اليوم، اتّجهتْ مسيرةٌ عمّاليّةٌ سلميّة بقيادة رجل دين هو الاب بابون، وترفع الصلبان والأيقونات المقدّسة، نحو «قصر الشتاء» لتقديم عريضة للقيصر تطالب بالخبز لإطعام أولادهم. أمَرَ القيصر الجيشَ وخيّالة القوزاق بإطلاق النّار على المتظاهرين فقتلتْ لا أقلّ من ألف عامل. بكتْ. وكتبتْ في سيرتها «باستنكارٍ لا حدود له شاهدتُ هؤلاء العمّالَ الفقراء المكلومين يحملون شهداءهم... لو أنّي لم أرَ ذلك المشهد، لكانت كلّ حياتي مختلفة. هناك، إزاء تلك المسيرة التي بدتْ بلا نهاية، إزاء تلك المأساة، قرّرْت أن أنذر نفسي وقواي لخدمة الشعب والمسحوقين».

بحماسةٍ استقبلتْ إيزادورا سقوط النظام القيصريّ. احتفلتْ بالثورة الروسيّة الأولى، ثورة شباط / فبراير ١٩١٧، بأن رقصتْ على أنغام «المارسييز»، نشيد الثورة



الفرنسيّة. قالت لأصحابها الذين ظنّوا أنّ الثورة حقّقتْ أهدافها بإعلان الجمهوريّة: «إنّي أراهن على لينين» وتنبّأتْ بانتصار البلاشفة وقيام المجتمع الجديد الذي حلم به كارل ماركس والقائم على التشاركيّة والمساواتيّة (Lever، ٢٩١ - ٢). رأتْ في انتصار الثورة الاشتراكيّة في روسيا ما هو أبعد من مجرّد تطبيقٍ لحلم ماركس، وجدتْ فيه تحقيقاً للنّبوءات المشتركة لأفلاطون ونيتشه والمسيح.

عام ١٩٢٠ التقتْ إيزادورا ليونيد كراسين، الدبلوماسيّ السوفياتيّ، في لندن، وعرضت عليه مشروعها لتأسيس مدرسة للرقص الحديث في موسكو تدرّس «أطفال البروليتاريا، وتمنحهم الفرح والجمال من خلال حركات الجسد الطليقة الحرّة». حمّلتْه رسالةً إلى أناتولي لوناتشارسكي، «مفوّض الشعب للتنوير»، قالتْ فيها «لا أريد أن أسمع بالمال مقابل عملي. أريد مشْغلاً وبيتاً لي ولطلّابي، طعاماً بسيطاً، أرديةً بسيطة والفرصة لأن نقدم افضل ما نستطيعه من عمَل. سئمتُ الفنّ التجاريّ البرجوازيّ. سئمتُ المسرح الحديث الأشبه ببيت دعارةٍ منه بمحرابٍ فنّي... أريد أن أرقص من أجل الجماهير، للشّعب العالِم الذي يحتاج إلى فنّي ولم يكن له مرّةً المالُ الكافي لمشاهدتي...». ردّ عليها لوناتشارسكي ببرقيّةٍ قال فيها «تعالَي إلى موسكو. سنمنحك مدرسة وألفَ طالب. وستستطيعين تنفيذ فكرتك على نطاقٍ واسع». بالفعل وضع لوناتشارسكي بتصرّفها قصراً ملكيّاً مصادَراً ومئاتٍ من الطلّاب. ومن مفارقات الأمور أنّ من اشدّ المتحمسين لمشروعها كان جارها نيكولاي بودفويسكي، رئيس اللجنة الثوريّة العسكريّة لسوفيات بتروغراد وقائد عمليّة احتلال «قصر الشتاء» وأوّل مفوّضٍ للشّعب للشؤون العسكريّة والبحريّة.

في خريف ١٩٢١ افتتحتْ إيزادورا مدرستها تحت شعار «الرّوح الحرّة لا تكون إلّا في الجسد المتحرّر» وقدّمت استعراضاً راقصاً على مسرح بولشوي في الذكرى الرابعة للثورة. وقد شارك في العرض ١٥٠ راقصة وراقصاً من طلّاب المدرسة. وفي ٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر من ذلك العام نشرتْ مقالاً في «إزفستيا» تتبنّى فيه شعار «الفنّ للجماهير»، وهو الشعار السائد حينها بين قطاع واسع من الإنتلجنسيا الروسيّة. وكرّرتْ رأيها القائل إنّ رقصَ الباليه بقواعده الصارمة البالية لم يعدْ مناسباً لنبَض الحياة الجديدة، مؤْثرةً عليه الرّقص «الحرّ» و«الطبيعيّ».

خلال إقامتها في روسيا، صمّمت رقصةً للنشيد الأمميّ، ورقصاتٍ على نشيدين جنائريّين لذكرى لينين، وسلسلةَ رقصات مستوحاة من أغان ثوريّة عبر العالم.

في العام ١٩٢٢ تزوجتْ إيزادورا الشاعر سيرغاي إيسينين مغنّي الثورة الفلّاحيّة والاشتراكيّة، الذي كان يصغرها بـ١٨ سنة. وجالتْ معه في أوروبا وأميركا. في آخر زيارة إلى نيويورك أُخضعتْ للتّحقيق عند الحدود بتهمة البلشفيّة، وتعرّضتْ لحملات صحافيّة تتّهمها بأنّها مبعوثةٌ خفيّةٌ للينين وتروتسكي، وألغيتْ عدّة عروض لها... إلى أن حُرمتْ أخيراً من جنسيّتها الأميركيّة.

بسبب الحرب الأهليّة والضائقة الاقتصاديّة والمجاعة، اضطرّت الدولة السوفياتيّة إلى وقف دعمها الماليّ للمدرسة، لكنّ إيزودورا تمكّنت من جمع ما يكفي من تبرّعاتٍ للاستمرار ولو لفترة وجيزة. انتشر نفوذ مدرستها، وانتعش الرّقص الحديث خلال الثورة وأنشئت مدارسُ له في بتروغراد وموسكو وكييف وأستراخان وتبليسي. لكنّ تلك المدارس لم تعمّر لضعْف الإمكانات. وقد جاب تلامذتها عبر روسيا وسيبيريا يعرضون تلك الرقصات الحديثة، بل وصلوا بها إلى الصين.

في العام ١٩٢٤ قدّمت إيزادورا عرضاً غنائيّاً راقصاً بعنوان «أغاني الثورة» إحياءً لذكرى لينين. ثمّ غادرتْ موسكو بعد انهيار علاقتها العاصفة والعنيفة مع إيسينين بسبب ادمان الشاعر على الكحول وانهياراته العصبيّة التي ما لبثتْ أن قادتْه إلى الانتحار في نهاية العام ١٩٢٥.

لم تشهد الفصول الأخيرة من حياة إيزادورا دانكن أياماً بهيجة، أقامتْ في جنوب فرنسا مع وصيفتها ماري، في ظروف ماليّة صعبة، متّكلةً على مساعدة زوج سابق، من دون نشاطٍ فنّيٍ يستحق الذكْر، وواصلت مغامراتها الغراميّة. لكنّها فُجعتْ بمقتل ابنها وابنتها الوحيدَين في حادث سيارة. عالجَت الأمر بأن حمَلَتْ مجدّداً لكنْ سرعان ما تُوفّي المولود الجديد.

تُوفّيتْ إيزادورا دانكن في ١٤ أيلول / سبتمبر ١٩٢٧ إثر حادثٍ مؤسفٍ عندما اختنقتْ حين التفّ شالها حَول عجَلات سيارة كانت تقلّها برفقة أحد المعجَبين. وعند وفاتها كانت قد أنجزَت كتابةَ سيرتها وباشرت العملَ على مخطوطة عن إقامتها في الاتحاد السوفياتيّ.

**الهوامش**

Isadora Duncan, *Isadora Speaks*, edited and introduced by Franklin Rosemon, San Fransisco, 1981

Maurice Lever, *Isadora*, *Roman d'une vie*, Paris, 1987

Isadora Duncan, *My Life*, Liveright, New York, 1927

# السينما في الثورة
## سيرغي آيزنشتاين وفن المونتاج

**سليم البيك**

**روائي وكاتب، فلسطين وسورية. محرّر موقع «رمّان». من أعماله رواية «تذكرتان إلى صفورية».**

«من بين كلّ الفنون، الأكثر أهمّية لنا هو السينما». هذا ما قاله قائد الثورة البلشفيّة في روسيا، فلاديمير لينين، وهذا تماماً ما تعكسه الأفلام السوفياتيّة الأولى، كوسيلة «هامّة» و«لنا». وضمير المتكلّم هنا يعود على الاتّحاد السوفياتي الوليد، وقالها في مقابلة بالتزامن مع أفلام سنتناول أمثلة منها هنا، إذ كانت السينما السوفياتيّة تتبلوَر بما يخدم مصالح الدولة، أو المصالح الطبقيّة التي تأسّست عليها الدولة السوفياتيّة، قبل أن تتحوّل سريعاً إلى بيروقراطيّة. ومن أهمّ الأفلام «الهامّة» آنذاك أفلام المخرج سيرغي أيزنشتاين، والحديث هنا عن عشرينيّات القرن الماضي.

لكن قبل الوصول إلى أيزنشتاين، وإلى اثنين من أفلامه، سنمرّ أوّلاً على أفلام أخرى يمكن أن تعطي فكرة عن الطبيعة التقنيّة / الفنّيّة لهذه السينما، إضافة إلى كونها «هامّة» بالمعنى الدعائيّ. وكلمة «الدعائي» لا تقصد الذمّ بهذه الأفلام ولا المديح، إنّما التوصيف، ففيلم «المدرّعة بوتمكين» لأيزنشتاين، هو دعائيّ تماماً، إنّما، في الوقت ذاته، يُعدّ من بين أهمّ الأفلام في تاريخ السينما العالميّة ومن بين أوّلها موضوعاً للدراسة. ليست المسألة إذن حمل الشعارات من عدمه، أي «الدعاية» لصالح أفكار معيّنة من عدمها، بل هي في الكيفيّة التي تُنقل بها هذه الأفكار، والكلام للروائيّ (الشيوعيّ) الفلسطينيّ إميل حبيبي.

### موضوعات الأفلام بأربعة أمثلة

فيلم «سقوط سلالة رامونوف» (١٩٢٧) للمخرجة إسفير شوب مبنيّ تماماً على لقطات أرشيفيّة، واقعيّة، جمّعتها المخرجة وقطّعتها وولّفتها مضيفة إليها كلاماً متخلّلاً المَشاهد، لتصنع من خلالها حكاية هي، كما يشير العنوان، حكاية سقوط القيصر الروسيّ الأخير، مظهرةً المأساة التي كان فقراء روسيا، الغالبيّة الساحقة من الشعب، يعيشونها. فكان محتوى الفيلم مقدّمة للثّورة، أو ربطاً سببيّاً بينها وبين ما يحويه الفيلم من حكاية وصور. ويعتبر هذا الفيلم فيلماً طليعيّاً مبنيّاً، تماماً، على التوليف / المونتاج.

يروي فيلم «نهاية سانت بطرسبرغ» (١٩٢٧) للمخرج فسيفولود بودوفكين حكاية فلّاح روسي يترك أرضه ويذهب للعمل في مصنع بالمدينة. يُضرِب العمّال، فيَشي العامل الجديد بصديقه الذي استضافه في بيته، بأنّه أحد قادة الإضراب. في هذا الفيلم أيضاً شغلٌ أساسي على المونتاج، وإن كان بواسطة الممثّلين والأداء، وهو كذلكُ يظهر العلاقة بين الرأسماليّة والحرب وحاجة الرأسماليّة للحرب كي تبقى.

فيلم آخر هو «موسكو في أكتوبر» (١٩٢٧) للمخرج بوريس بارنيت، ويحكي باختصار استيلاء البلاشفة على السلطة باقتحام «قصر الشتاء» في سانت بطرسبرغ عام ١٩١٧، وهو وثائقيّ بنَفَسٍ روائيّ، أو هو توليف روائيّ لأحداث ومَشاهد واقعيّة.

والأمثلة عديدة هنا، وذلك لاهتمام السلطات السوفياتية بالسينما كفنّ «هام» يخدم مصالحها، أو كأداة دعائيّة أخرى، لكنّ الشكل بدأ يتغيّر مع الزّمن، إذ ازداد عدد الأفلام الروائيّة على حساب الأفلام الوثائقيّة. ونورد هنا مثالاً واحداً هو «لينين في أكتوبر» (١٩٣٧) للمخرج ميكايل روم، وهو فيلم روائيّ بامتياز، يجسّد فيه ممثلٌ شخصيّة لينين العائد إلى سانت بطرسبرغ من فنلندا ليبدأ بتنظيم الثورة المسلّحة مع رفاقه. والفيلم الذي صدر بعد عشر سنين من الأفلام السابقة المذكورة، تأثّر بسطوة ستالين الذي يظهر في العديد من المشاهد



❖
لقطة الأدراج من
فيلم المدمرة بوتمكين



التي حذفها المخرج، بعد وفاة الدكتاتور، وقد أدرجها دون رغبة منه.

هذه أمثلة يمكن إيجاد العديد مثلها، أو تكرار لها، في نتاج السينما السوفياتية الباكرة التي تشترك مع الأفلام المذكورة هنا في الشكل والمضمون، من الكيفيّة التي يُصنع بها الفيلم، باعتمادٍ أساسيّ على المونتاج، إلى الموضوع الذي ينقله الفيلم، وهو متعلّق بالثورة البلشفيّة، وما قبلها إذ كان مسبّباً لها، وما بعدها إذ كان نتيجة لها، وبما لا يخالف رغبة السلطات السوفياتية بطبيعة الحال. إنّما الأبرز من بينها جميعها كانت أعمال المنظّر السينمائي والمخرج سيرغي أيزنشتاين، صاحب أفلام نتناول منها هنا «المدرعة بوتمكين» و«أكتوبر».

### سيرغي أيزنشتاين

قبل الحديث عن أفلامه، سنأتي على ذكر أيزنشتاين نفسه، كمخرج ومنظّر، وكما مررنا قبل أشهر بالذكرى المئة لثورة أكتوبر ١٩١٧، مررنا في ٢٢ كانون الثاني / يناير بذكرى مرور ١٢٠ عاماً على ولادة أحد أعظم السينمائيّين عبر كلّ الأزمنة وأكثرهم «استقراراً» لدى «السينيفيليّين»، هواة السينما، وذلك بفضل أفلامه كما بفضل نظريّاته السينمائيّة، في المونتاج تحديداً، وهو كتب كذلك عن الصّوت والألوان وحتى أبعاد الشاشة البيضاء.

**استطاع خلال عمر قصير ليس أن يكون سينمائيـــــــــــا عظيمـــــــا وحسب. بل أن يكون مؤسسا لسينما عظيمة. نظرية وأفلامـــــــا. وأكثر ما يمكن أن يعرف به. نظريا. هي طرائق المونتاج لديه. إذ يقول بأن المونتاج هو الفيلم بأكملـــــــــــــه.**

رحل أيزنشتاين باكراً، بعمر الخمسين في ١١ شباط / فبراير ١٩٤٨. وقد استطاع خلال عمر قصير ليس أن يكون سينمائياً عظيماً وحسب، بل أن يكون مؤسّساً لسينما عظيمة، نظريةً وأفلاماً، وأكثر ما يمكن أن يُعرف به، نظريّاً، هي طرائق المونتاج لديه، إذ يقول بأنّ المونتاج هو الفيلم بأكمله، وهذه الطرائق هي الآتية:

- المونتاج المتريّ (القياسي) الذي يقوم على طول المشاهد.
- المونتاج الإيقاعيّ الذي يقوم على محتوى الصورة وحركات الصّور.
- المونتاج النغميّ الذي يقوم على المضمون العاطفيّ للصور.
- المونتاج المافوق - نغمي، وهو المرحلة المتقدّمة من المونتاج النغميّ.
- المونتاج الفكريّ والمعني بالأثر الفكري الذي يمكن أن يُترك على المُشاهد، وهو الأهمّ من بين الطرائق لدى أيزنشتاين.

كتب آيزنشتاين عن رؤيته الفنّية وقد كان يتحدّث عن فيلمه الطويل الأوّل «إضراب» (١٩٢٥): «بخصوص الأساسات الفنّية لديّ، فنحن لا ننطلق من الحدس الإبداعيّ، إنّما من البنية العقليّة للعناصر العاطفيّة، فعلى كلّ عاطفة أن تكون مسبقاً مادّة مبنيّة على تحليل عميق وعلى حسابات، وهذا هو الشيء الأهمّ». فأيزنشتاين الذي جاء إلى السينما من الهندسة مارّاً بالجيش الأحمر وبعده بالمسرح، كانت العلوم والرياضيّات والعمليّات العقليّة أساس إبداعه السينمائيّ الخاصّ. وكانت حامل تعريفاته وتطبيقاته لما هو الإبداع في الفنون، فيكون العمل الفنّي لديه مادّة تحليليّة عقليّة، واجتماعيّة سياسيّة في الوقت ذاته، تعكس انتماءه للشيوعيّة ولانعكاس فهمه للماركسيّة في سينماه، فكانت أفلامه مُحكمة وتجريبيّة ونقيّة وإنسانيّة وكذلك ثوريّة وبالتالي طليعيّة، وكانت مقرونة بالنّظريّة، وذلك لا على المستوى السوفياتي، بل العالميّ في زمنه، والتاريخيّ إلى زمننا الحالي بعد ٧٠ عاماً على رحيله.

أيزنشتاين ابن ثورة ١٩١٧، كتب مرّة أنّ «السينما هي في جانب منها صناعة، وفي جانبها الآخر فنّ، وعلى الأبعاد التجاريّة والاقتصاديّة لهذا الفنّ أن تكون خاضعة تماماً للمهامّ الاجتماعيّة والاقتصاديّة الموضوعة من قبل ثورة ١٩١٧... إنّ غاية السينما السوفياتيّة قبل أيّ شيء هي تعليم الجماهير، منحهم الثقافة العامة والمعرفة السياسيّة، فهي تقود حملة دعاية ضخمة لصالح الدولة السوفياتيّة وإيديولوجيّتها... بالنسبة لنا، الفنّ ليس مجرّد كلمة، إذ لا نرى فيه سوى آلاتٍ تُستخدم في ساحة القتال في صراع الطّبقات وفي النضال من أجل بناء الاشتراكيّة، كما هو الحال، مثلاً، في صناعة المعادن».

وهذا اقتباس مجتزأ من مشاركة له في عمل جماعي عن الفن في الاتّحاد السوفياتيّ، نلمس فيه رؤيته لدور السينما في المجتمع، في حديث باكر من القرن الماضي، في عشرينياته حين كانت الدولة السوفياتيّة في طور التأسيس، وكان ذلك مزامناً لفيلمه «أكتوبر» الذي مجّد فيه الثورة البلشفية، ولفيلم «الخط العام» الذي تلاعبت به السلطات السوفييتية.

كانت أفلام آيزنشتاين أمينة لأفكاره، وهي ما عكسها هذا الاقتباس، فكانت، مثلاً، أفلاما عن البطولة جماعيّة،

بطولة الجماهير، وكانت أفلاما إرشاديّة، تحريضيّة، تنقل الصراع الطبقي في السياق الروسيّ. تحمل شعارات ولا يضيرها ذلك. وإن كان لا بد من تساؤل فسوف يختصّ بالكيفية التي يتم بها حمل هذه الشعارات، وهو سؤال يحيلنا إلى الأسلوب الفنّي لأيزنشتاين، أسلوب جعله أحد عظماء السينما العالمية، وهو أسلوب جعله يُهاجَم في الاتحاد السوفياتي ذاته لاحقاً حيث اتّهم بـ«الشكلانيّة»، بل حتى بـ«الانحطاط» ومعاداة الثورة. وإثر الجزء الثاني من فيلمه «إيڤان الرهيب» (صدر الجزء الأوّل منه العام ١٩٤٥ وبقي الثاني محجوزاً لدى الرقابة حتى العام ١٩٥٨). وقد انهال عليه النقد الرّسميّ السوفياتي، ليدرك الرّجلُ لاحقاً أنّ المطلوب لا خدمة للثورة بل خدمة ستالين، وإن استلزم ذلك مغالطات تاريخيةً في الأفلام.

**«المدرّعة بوتمكين» و«أكتوبر»**

يُعدّ فيلم «المدرّعة بوتمكين» (١٩٢٥) أحد أفضل الأفلام في التاريخ، وأكثرها تأثيراً، وهو مثال ممتاز لدراسة المونتاج وأهمّيّته في السينما السوفياتيّة الباكرة، خصوصاً أنّ أيزنشتاين هو أحد أبرز صانعي سينما المونتاج في العالم. يروي الفيلم قصّةً مأخوذة بشكل واقعيّ عن أحداث حقيقيّة، وهي تمرّد بحّارة المدرّعة بوتمكين وعصيانهم أوامر الضبّاط الذين سينفّذون مجزرة بالأهالي، في مشهد ملحميّ (ومن بين الأكثر استعادةً سينمائيّاً) على الدرج الطويل الذي بدا بتصويره كأنّه لا ينتهي. فالفيلم كلّه عبارة عن مقدّمة تُظهر علاقة البحّارة الفقراء بالضبّاط الأغنياء، ثمّ التمرّد عليهم والتحامهم مع تحرّك النّاس في البرّ. البطولة في الفيلم جماعيّة، فليس هنالك بطل فرد يعود إليه الفضل في كلّ ما يحصل، وهذه (بعد المونتاج) إحدى ميزات السينما السوفياتيّة حيث تكون البطولة للجماعة. نرى ذلك في مشاهد المعارك على ظهر المدرّعة كما نراه على السلّم حيث يكون جمعُ النّاس مقابل جمع العساكر.

**أتت المدرسة السوفياتية في السينما مدرسة مونتاج. التضييقات عليها هي، غالباً، ما أدى إلى ذلك. في الأدب كما في السينما، ترافق الإنتاج الإبداعي مع الإنتاج النقدي والتنظيري.**

أمّا الفيلم الآخر فهو «أكتوبر» (١٩٢٧)، وله عنوان إنكليزيّ هو «أكتوبر: عشرة أيّام هزّت العالم» (عنوان كتاب الصحافيّ الأميركيّ جون ريد)، والفيلم يصوّر الأيّام الأخيرة من الثورة البلشفيّة، منتهياً بوصول لينين إلى سانت بطرسبرغ وخطابه، بمَشاهد حقيقيّة، أمام حشود من الثوّار. الفيلم هو الوثيقة السينمائيّة الأبرز للثّورة، تحديداً بمشاهد ملحميّة لاقتحام قصر الشتاء، وهو لحظة تخليد فنّية، ليست «هامّة» وحسب للشيوعيّين والعالم، إنّما منجزة بفنّيّة عالية ساهمت في تكوين مدرسة المونتاج السوفياتيّة.

**المونتاج كشكلانيّة**

مثلما أنّ «الشكلانيّة الروسية» في الأدب كانت محطّ النّقد الرّسميّ السوفياتي، فتطوّرت ضمن ظروف خاصّة وصارت بحدّ ذاتها مذهباً أدبيّاً / نقدياً له إبداعاته، كان المونتاج في السينما الروسيّة كذلك، بظروفه الخاصّة، وذلك للمساحة الآمنة التي يمكن أن توفّرها اللقطات الأرشيفيّة أوّلاً، وللمساحة الضيّقة (جدّاً) التي يمكن أن يسرح ضمنها صانع الفيلم إذا اختار أن يكون فيلمه روائيّاً، بحكاية مكتوبة وأداءٍ وتجسيدات وما لا يمكن أن يعجب البيروقراطيّة السوفياتيّة، نقداً ودولةً.

أتت المدرسة السوفياتيّة في السينما مدرسةَ مونتاج. التضييقات عليها هي، غالباً، ما أدى إلى ذلك، إنّما، كما هو الحال في الأدب وقد برزت الشكلانيّة مزامنةً لصدور هذه الأفلام، أبدع المخرجون السوفيات ضمن المتاح في سينماهم، وصارت الأخيرة تُدرّس كأحد التيّارات السينمائيّة البارزة في التاريخ، وصار أبرز أسمائها - أيزنشتاين - أحد معلّمي السينما الأوائل، ولهذا، في الأدب كما في السينما، ترافق الإنتاج الإبداعيّ مع الإنتاج النقديّ والتنظيريّ.

هذه الأفلام الصامتة المتناوَلة هنا، بأسلوب صناعتها وبحكايتها وبمَشاهدها وبالالتزام السياسيّ فيها، هي وثيقة فنّيّة لمرحلة تاريخيّة كانت الأكثر تأثيراً من غيرها في ما لحقها من سنوات، والحديث هنا عن ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ التي أكملت في أكتوبر ٢٠١٧ قرنها الأوّل، والحديث كذلك عن سينما المونتاج في العالم حيث الريادة والتنظير والصناعة فيه كانت أوّلاً للسوفيات. فكانت السينما كما قال لينين «الفنّ الأكثر أهمّيّة» للسوفيات، وكانت هذه السينما السوفياتيّة الباكرة، من بين الأكثر أهمّيّة للعالم في تاريخه السينمائيّ.

# تاتلين و«نصْبٌ للأمميّة الثالثة»
## أو رؤيويّة الثورة

إعداد
فريق «بدايات»

يمثّل «نصب للأمميّة الثالثة» أحد أبرز معالم فنّ البُنيانيّين ورائعة أعمال تاتلين. وهو نموذجٌ معبّرٌ عن الجمع بين الفنّ والتكنولوجيا - جماليّة الآلات - والالتزام الاجتماعيّ والسياسيّ للفنّان.

وُلد فلاديمير تاتلين (١٨٨٥ - ١٩٣٥) لوالد يعمل مهندساً في شركة لسكك الحديد وأمٍّ تقرض الشعر توفّيت وهو بعدُ طفل فتولّت تربيتَه زوجةُ أبيه التي لم يحمل لها أيّ عاطفة. غادر المنزل الأبويّ باكراً وعمل لفترة بحّاراً قبل أن ينتقل إلى موسكو لدراسة الفنّ التشكيلي (١٩٠٢ - ١٩٠٤). ومارس الرسم (بدأ برسم الأيقونات) وتزيين القصائد وتصميم الأزياء للمسرح.

تأثر تاتلين في تلك الفترة بالشاعر الجوّال فكتور خليبنيكوف وانشغل معه في السعي لتوليد فنّ روسيّ يستلهم الأيقونات والرسوم الشعبيّة والفولكلور الروسيّ عامّة. في تلك الفترة كانت روسيا تتعرّض أيضاً لتيّارات ومدارس الحداثة الفنّيّة الأوروبيّة. ومثّلتْ زيارة مارتينيتي مؤسّس التيّار المستقبليّ الإيطالي لموسكو سنة ١٩١٦ مَعلماً في تطوّر فنّ تاتلين وتكوّن الحركة المستقبليّة الروسيّة. وبالأهمية ذاتها بدأ اطّلاع الفنّانين الروس في تلك الفترة على أعمال التكعيبيّين في فرنسا.

انتقل تاتلين من هاجس توليد فنٍّ روسيّ خالص، إلى محاورة علوم الغرب وفنونه انطلاقاً من انتماءٍ راسخ إلى التراث الثقافيّ والحضاريّ الروسيّ. ومن جهةٍ أخرى، بقدْر ما كان مهووساً بمبتكرات الحياة الحديثة والتكنولوجيا - الكهرباء والسيّارات والطيّارات والجرّارات، إلخ. - بذاك القدْر سعى إلى أن يعبّر في فنّه عن رؤى طوباويّة وصوفيّة.

### الثورة والابتكار

عشيّة ثورة أكتوبر، أعلن تاتلين «موت الفنّ» وتخلّى عن العمل على اللوحة الفنيّة. أخذ يجرّب بتجهيزات بالـ«كولّاج»، بوحيٍ من أعمال بيكاسو في مرحلته التكعيبيّة ثمّ انتقل إلى لوحاتٍ ثلاثيّة الأبعاد، قبل أن يستقلّ التجهيز عن اللوحة، ويتخلّى عنها ليتحوّل عملاً فنيّاً قائماً بذاته: تجهيزات مستقلّة، تصاميم معماريّة، ديكورات للمسرح والسينما، أثاثات منزليّة وتصاميم لأزياء وكتب ومجلّات.

عند قيام الثورة علّق تاتلين قائلاً «لقد عزّزت الثورة الحافز على الابتكار». وقد صمّم على أن يضع الفنّ في خدمة الحياة اليوميّة، ولسان حاله أنّ النظام الجديد يوجب أن تُستخدِم في الأعمال الفنيّة موادّ جديدة وأشكال تعبير جديدة. فكان التجريب عند تاتلين في استخدام المعادن والخشب والزّجاج.

انضمّ تاتلين إلى إدارة الدولة بدعوةٍ من مفوّض الشعب لشؤون التنوير، أناتولي لوناتشارسكي، وشغل منصب رئيس فرع موسكو في وزارة الثقافة. ولمّا قرر لينين نَصب صروح وتماثيل في الساحات العامّة لذكرى أبطال الثورة وشهدائها تولّى تاتلين تنظيم حملة لتشييد خمسين صرحاً وتمثالاً. وفي العام ١٩١٩ تولّى رئاسة «المحترَفات الفنيّة الحرّة» في موسكو، وأطلق مجلّة «الفنّ في العالم».

### وجهته نجمة القطب

صمّم تاتلين «نصب للأمميّة الثالثة» أصلاً بتكليفٍ من «مفوضيّة الشعب لشؤون التنوير» ليكون مركزاً لقيادة الأمميّة الثالثة. وأوّل ما يلفت في مظهره الخارجيّ انحناؤه الذي يجمع التماسك والتوازن إلى زخم الاندفاع إلى أمام. وقد تقصّد الفنّان أن تكون وجهة النّصب نحو نجمة القُطب. وإن كان لا بد من مقارنة «برج تاتلين»، كما سمّي العمل، بعمارة أخرى فهو أشبه ببرج المَلويّة، في سامراء العراق، أكثر منه بأيّ عمارة أخرى. ليس معروفاً ما إذا كان تاتلين قد

شاهد صوراً عن الملويّة، لكنّنا نعرف أنّ الشاعر خليبنيكوف كان معجباً بثقافة فارس وبلاد الرافدَين وحضارتهما، وقد وردتْ إشارات في شعره لقرّة العين وزرادشت.

تُرفرف فوق البرج راية تعلن «مجلس سوفيات عمّال وفلاحي العالم». وفي داخله ثلاث كتل معماريّة هي كناية عن قاعاتٍ ضخمة مغطّاة بالنّوافذ الزجاجيّة، متراكبة الواحدة فوق الأخرى، لكنّها تتحرّك وفْق آليّات خاصّة بكلٍّ منها وبوتائر زمنيّة متفاوتة. الكتلة الدنيا مخروطيّة الشكل، مخصّصة للنشاطات التشريعيّة للأمميّة وتدور على محورها بمعدّل دورةٍ واحدةٍ في السنة. والكتلة الثانية هي الوسطى، هرميّة الشكل وتخدم كمقرّ للنشاطات التنفيذيّة وتضمّ مكاتب اللجنة التنفيذيّة للأمميّة والسكرتاريا وسائر الأجهزة واللجان. وتدور هذه الكتلة حول محورها بمعدّل مرّة كلّ شهر. أمّا الكتلة الثالثة والأعلى فهي أسطوانيّة الشكل تدور حول نفسها بمعدّل مرّة واحدة في اليوم. وهي مركز للإعلام والدعاية والتحريض يحوي مكتبةً ومكاتب تحرير للصّحف ومطبعةً وأجهزة تلغراف وآلاتٍ وشاشات عرض سينمائيّة ومحطّة إذاعيّة وغيرها. وللبرج مصعدان للانتقال إلى هذه الكتل وفيما بينها. وتعلو البرج لاقطات راديو وتلغراف وأنوار كاشفة وشاشات سينما للعروض الدعائيّة المتواصلة.

عرَضَ تاتلين نموذج «نصب للأمميّة الثالثة» في ٨ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٠ لمناسبة المؤتمر الثامن لمجالس السوفيات في بتروغراد، وانتقل منها في الشهر التالي إلى موسكو. بسبب الحرب الأهليّة والضغط الهائل للنّفقات الحكوميّة، في فترة الحرب الأهليّة والتدخّل الخارجيّ، لم تتوفّر ميزانيّة لبناء النّصب.

في كلّ الأحوال، لم يُعرَف تماماً كيف كان تاتلين ينوي تنفيذ تصميمه وإنتاج الآليّات التي ستتولّى رفع العناصر المعماريّة الثلاثة وتحريكها. فقد كان التصميم يثير من المشكلات الميكانيكيّة والتكنولوجيّة ما يجعله مستحيل التحقيق عمليّاً. ولكنْ لعلّه لم يكن مصمَّماً أصلاً من أجل أنْ يُنفّذ. فعلى الرّغم من نوايا تاتلين «الانتفاعيّة» وتصوّره لوظيفة البرج الدعائيّة والإعلاميّة والتحريضيّة، يمكن النظر إليه على أنّه عملٌ فنّيّ صادر في زمن رؤيويٍّ تصوّر فيه كثيرون إمكان تحقيق الطوبى وبناء حياة جديدة هي الجنّة على الأرض.

المراجع

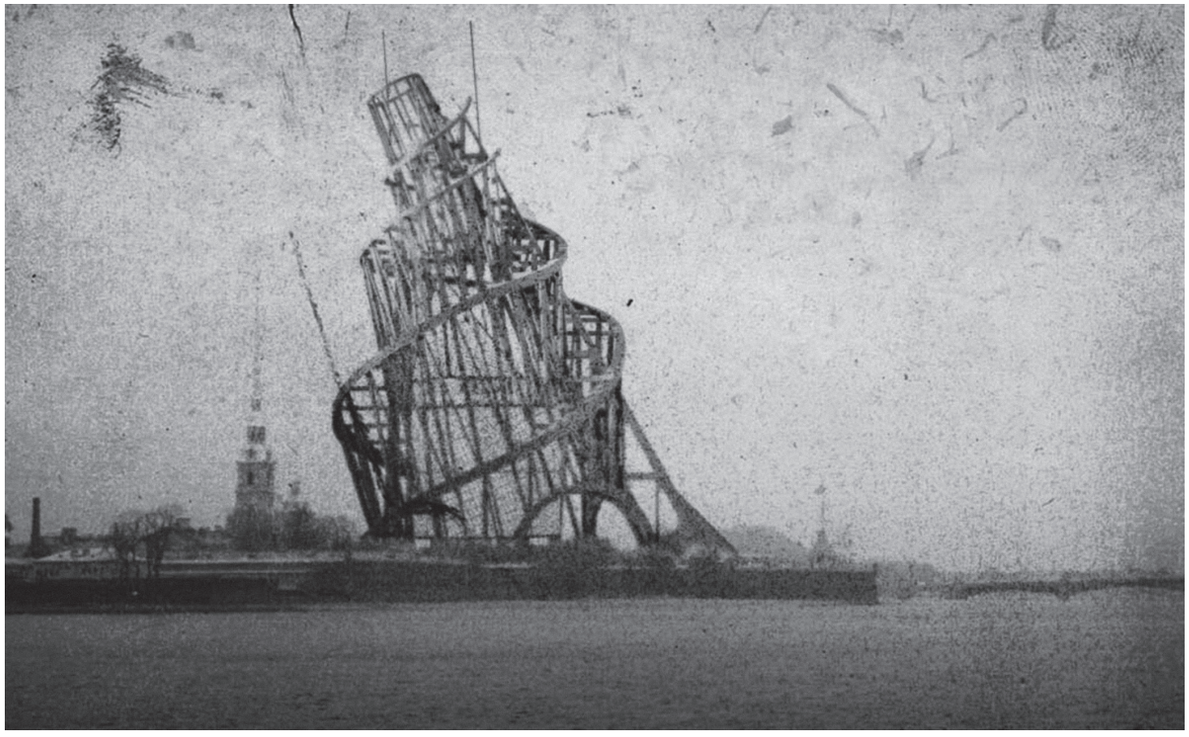

John Milner, *Vladimir Tatlin and the Russian Avant-Garde*, London, 1983

Christina Lodder, *Russian Constructivism*, London, 1983

David Elliot, *Rodchenko and the Arts of Revolutionary Russia*, New York, 1979

Harrison Salisbury, *La Russie en Révolution, 1900-1930*, Paris, 1979

Centre Pompidou, *Art et Poésies Russes, 1900-1930, Textes Choisis*, Paris, 1979

# مایاکوفسکي: لغته، ثورته، موته

**جون برجر**

**روائيّ، كاتب مسرحيّ، ناقد ورسّام (١٩٣٦ - ٢٠١٧). قيل عنه إنّه من الكتّاب الأكثر نفوذاً في العالم في الخمسين سنة الأخيرة. وُلد في بريطانيا وعاش معظم حياته في قرية فرنسيّة صغيرة في جبال الألب حيث استوحى شخصيّات ثلاثيّته الروائيّة من حياة الفلّاحين. صدر له بالعربيّة «نجاح بيكاسّو وإخفاقه» (٢٠١٠) «من عايدة إلى كزافييه» (٢٠١٠) «طرائق في الرؤية» (٢٠١٧).**

* نُشرت مقالة برجر عن مایاکوفسکي في مجموعته «وجهات في النّظر»، ترجمة فوّاز طرابلسي، دمشق، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكيّة، ١٩٩٠

«كانت الذّئاب تتسلّل إلى حدّ البيت. تتحرّك في قطعان كبيرة وتطلق عواءً رهيباً. وكان عواؤها كريهاً ومخيفاً إلى أبعد حدّ. هناك سمعتُ للمرّة الأولى ذلك العواء الثّاقب المتوحّش. لم يكن الأطفال يستطيعون النوم ليلاً وكنتُ أطمْئنهم قائلة: «لا تجزعوا، لدينا كلابٌ قويّة سوف تمنعهم من الاقتراب»».

هكذا وَصفتْ والدة مایاکوفسکي الغابة في جيورجيا الروسيّة حيث نشأ فلاديمير وأخواته. والغرض من إثبات الوصف هنا هو التّذكير منذ البداية بأنّ العالم الّذي وُلد فيه مایاکوفسکي كان شديد الاختلاف عن عالمنا.

عندما ينتحر رجلٌ يتمتّع بصحّةٍ جيّدة، فالسّبب في ذلك - في التّحليل الأخير - أنّه لم يعُد يجد مَن يفهمه. وغالباً ما يستمرّ عدم الفهم هذا بعد الوفاة. لأنّ الأحياء يصرّون على تفسير قصّة المنتحر وعلى استخدامها بما يتلاءم وأغراضهم هم. هكذا يُطبق الصمت على هذا الاحتجاج الأخير ضدّ انعدام الفهم. إنّ اكتناه معنى ظاهرة مایاکوفسکي - وهي ظاهرة مركزيّة لأيّ تأمّل في العلاقة بين السياسة الثوريّة والشّعر - يتطلّب أن نعالج ذاك المعنى بصفته متجسّداً في آن معاً في شعره، كما في مسار حياته وموته.

## اللغة أوّلاً

لنبدأ بدايةً بسيطة. إنّ مایاکوفسکي معروفٌ خارج بلاده بصفته أسطورةً رومانسيّة سياسيّة أكثر ممّا هو معروفٌ كشاعر. والسّبب أنّ شعره قد أثبت حتّى الآن استعصاءه الكبير على الترجمة. وقد شجّع ذلك الاستعصاءُ العديد من القرّاء على إحياء تلك الحقيقة المجزوءة القديمة التي تقول إنّ الشّعر غير قابلٍ للتّرجمة. وهكذا فسيرة مایاکوفسکي - حياته في الحركة المستقبليّة، التزامه بثورة ١٩١٧، تماهيه الكامل كشاعر مع الدولة السوفياتيّة، دوره خلال عقدٍ من الزّمن كشاعرٍ منبريّ وكمبشّر، وما بدا أنّه يأسُه المفاجئ الّذي دفعه إلى الانتحار وهو بعدُ في السّابعة والثّلاثين من العمر - تسمّى كلّها مادّة مسيّرة لأنّ مادّة شعره، التي كانت عند مایاکوفسکي سيرة حياته ذاتها، غائبة عنها.

الحقيقة أنّ كلّ شيءٍ عند مایاکوفسکي يبدأ باللغة التي كان يستخدمها، وهذا ما يترتّب علينا تقديره حقّ قدره حتّى لو كنّا لا نجيد اللغة الروسيّة. فسيرة مایاکوفسکي، كما مأساتُه، محكومتان بالعلاقة التاريخيّة المميّزة بينه وبين تلك اللغة. وهذا لا يعني البتّة إفراغ ظاهرة مایاکوفسکي من مضمونها السياسيّ وإنّما الاعتراف تحديداً بما يميّز ذلك المضمون.

### ثلاث نقاط بصدد اللغة الرّوسيّة:

١ ——— خلال القرن التّاسع عشر، كان التّمايز بين الروسيّة المحكيّة والروسيّة المكتوبة أقلّ نفوراً ممّا كانه في أيّ بلدٍ من بلدان أوروبا الغربيّة. وعلى الرّغم من أنّ أكثريّة الشعب كانت أمّيّة، فإنّ اللغة الروسيّة لم تكن قد صادرتْها بعدُ الطّبقةُ الحاكمة وسخّرتها للتّعبير عن مصالحها وأذواقها دون سواها. على أنّ نهاية القرن شهدتْ بداية التّمايز بين لغة الشّعب ولغة الطّبقة الوسطى المدينيّة الجديدة. وكان مایاکوفسکي من بين الذين جهروا بمعارضتهم لعمليّة «إخصاء اللغة» هذه. ومع ذلك، كان لا يزال ممكناً، بل طبيعيّاً، لشاعرٍ روسيٍّ أن يعتقد أنّه وريث لغةٍ شعبيّةٍ حيّة. فلم تكن الكبرياء الشّخصيّة وحدها هي التي دفعتْ مایاکوفسکي إلى الاعتقاد أنّه يستطيع النّطق بلسان روسيّة. وعندما قارن نفسه ببوشكين، لم يفعل ذلك من أجل أن يعلن فرادة عبقريّين معزولين، وإنّما

من أجل أن يميّز شاعرَين للغةٍ كانت لا تزال قابلة لأن تكون ملكاً لأمّةٍ بأسرها.

٢ ـــــــ لأنّ اللغة الروسيّة لغة منبرّة ومتغيّرة الدّرجات الصوتيّة، تجدها غنيّة غنىً خاصّاً بالقوافي والإيقاعات. وهذا ما يساعد على تفسير ظاهرة حفظ الشعر عن ظهر قلب عند الرّوس. فالشعر الروسيّ، وبخاصّة شعر مایاکوفسكي، أقرب إلى موسيقى «الرّوك» منه إلى شعر ميلتون. اسمعْ مایاکوفسكي نفسَه يحدّثنا عن الأمر:

**«من أين يأتي هذا الهدير البدائيّ الأصمّ للإيقاع؟ في الأمر لغزٌ من الألغاز، لكنّ مصدره عندي كلّ أنواع التّكرار في ذهني لأصواتٍ وحركاتٍ موقّعةٍ، بل هو أيّة ظاهرة أستطيع أن أنسب إليها صوتاً معيّناً. فهدير البحر الذي يتكرّر إلى ما لا نهاية قد يكون مصدراً للإيقاع، أو خادمٌ يصفق الباب كلّ صباح، صوت يتكرّر ويدور على نفسه فيكون له رجعٌ في خلدي، أو حتّى دوران الأرض الذي هو في تجربتي، كما في متجر يعجّ بالأدوات البصريّة، ينذر بصفير ريحٍ عاتية ويمتزج به».**

على أنّ هذه المميّزات الإيقاعيّة ومنشّطات الذّاكرة للغة مایاکوفسكي الروسيّة لا تأتي على حساب المضمون. قد تختلط الإيقاعات إلّا أن معانيها تتمايز بدقّةٍ استثنائيّة. وفيما انتظام الصوت يطمْئن، إذا بالمعنى الحادّ والفجائيّ يصدم. فالروسيّة لغة تطاوع على اشتقاق الكلمات الجديدة ذات المعاني شديدة الوضوح، من خلال إضافة البادئات واللاحقات. إنّها مجال لتجلّي طاقة الشاعر على البراعة والابتكار: الشاعر الموسيقيّ والشاعر البهلوان. ذلك أنّ شاعراً ماهراً على أرجوحة البهلوان قد يكون أقدر على استدرار دموعك من ممثّلٍ تراجيديّ.

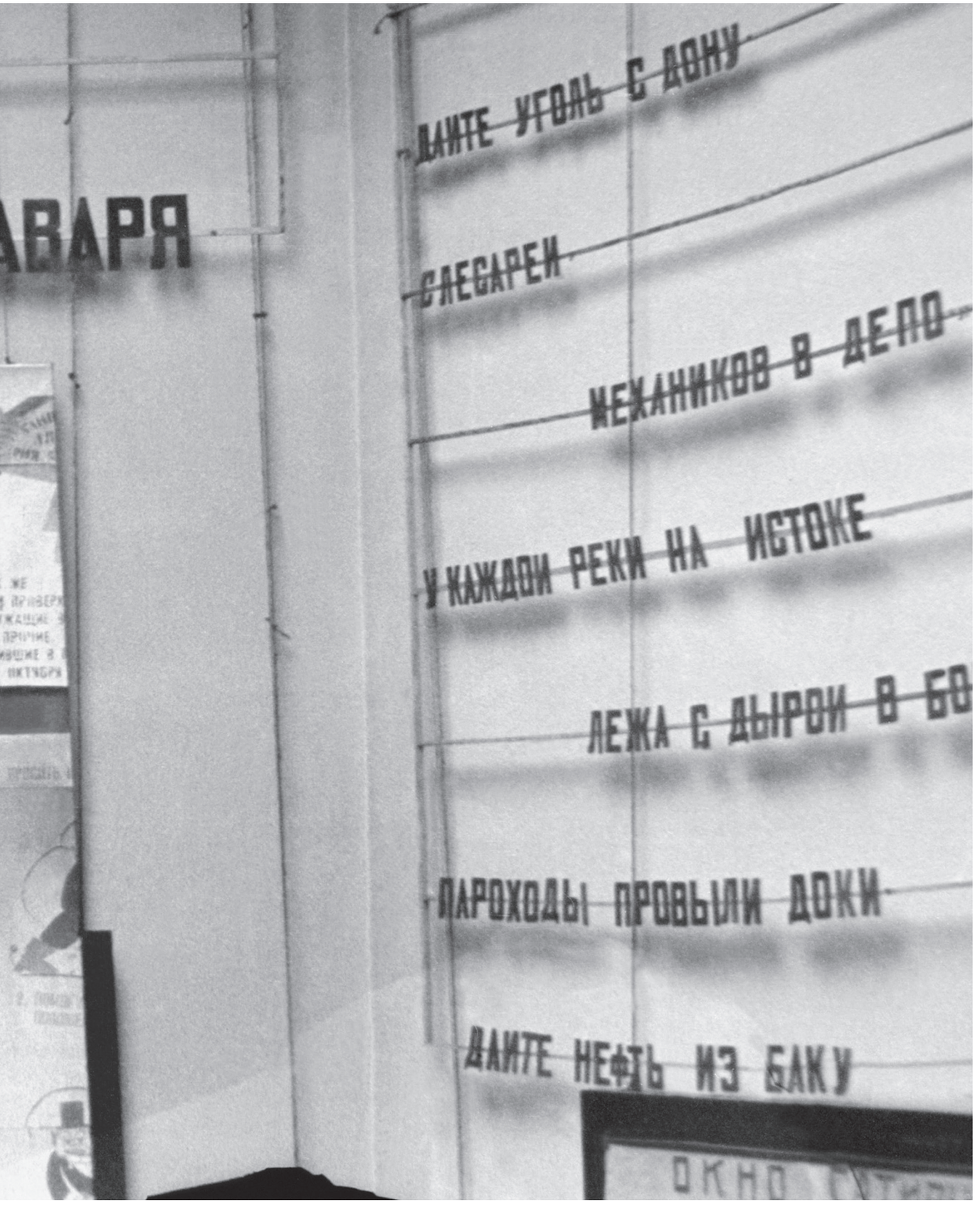
### الثورة تضاعف عدد القرّاء

٣ ـــــــ عقب انتصار الثّورة، وبسبب من حملة محو الأمّيّة الحكوميّة واسعة النّطاق، بات كلّ كاتبٍ روسيٍّ مدركاً إلى هذا الحدّ أو ذاك، أنّ جمهوراً واسعاً من القرّاء هو الآن قيد التّكوّن. أضف إلى ذلك أنّ التّصنيع أخذ يزيد من حجم البروليتاريا، وبعد تحويل البروليتاريّين الجدد إلى فئة من القرّاء «الأبكار» الذين لم تفسدْهم القراءة التجاريّة. فخطر في بال أولئك القرّاء، دونما تكلّف، أنّ الطبقة الثوريّة تطالب بالكلمة الثوريّة وباستخدامها لها كحقٍّ من حقوقها الثوريّة. وهكذا فولادة بروليتاريا تجيد القراءة والكتابة كانت تبشّر بإغناء وتوسيع نطاق الأدب المكتوب في الاتحاد السوفياتيّ، بدلاً من أن تؤدّي إلى إفقاره كما كانت الحال في الغرب في ظلّ السّيادة الرّأسماليّة.

وكان هذا الاقتناع بمثابة فعل إيمانٍ عند مایاکوفسكي بعد ثورة أكتوبر. وقد سوّلت له نفسه أنّ التجديدات الشّكليّة في شعره إنّما هي لونٌ من ألوان النشاط السياسيّ. فعندما كان يبتكر الشعارات لوكالة الدعاية الحكوميّة – الروستا ROSTA – أو يجول في أنحاء الاتّحاد السوفياتيّ طولاً وعرضاً عاقداً النّدوات الشعريّة أمام جماهيرٍ غفيرةٍ من العمّال، كان موقناً بأنّه، بواسطة كلماته، سوف يُدخل استعاراتٍ جديدة، وبالتالي مفاهيم جديدة، إلى لغة الطبقة العاملة. ومع أنّ تلك الجولات أوهنتْ صحّته على مرّ السّنين، إلّا أنّها كانت من المناسبات القليلة التي بدا فيها أنّ الحياة ذاتها تؤكّد صحّة ذلك الدّور الذي انتدب نفسه للعبه، كان الجمهور يفهم كلماته. ربّما كان المعنى الكامن وراء تلك الكلمات يغيب عن أذهانه، غير أنّه لم يكن ليأبه بذلك «هناك» حيث كان يُلقي وهم يُنصتون، مثلما كان يأبه له في المساجلات اللامتناهية التي كان مضطرّاً إلى الخوض فيها «هنا» مع الناشرين والمسؤولين الحزبيّين عن مجال الأدب. فهناك كان الجمهور، أو القسم الأكبر منه، يحدس أنّ فرادة مایاکوفسكي إنّما تنتمي إلى فرادة الثورة ذاتها. فقد كان معظم الشعراء الروس يُلقون الشعر وكأنّه مناحة، في حين كان مایاکوفسكي يلقيه مثل بحّارٍ يصيح عبر مكبّرٍ للصّوت باتّجاه سفينةٍ أخرى عبر بحرٍ هائج.

هكذا كانت حال اللغة الروسيّة في تلك اللحظة التاريخيّة. والقول إنّها كانت لغةً تستدعي الشعر استدعاءً ليس استعارةً لغويّة مبالِغة إنّما هي محاولةٌ لاختصار لحظةٍ تاريخيّة في عددٍ محدودٍ من الكلمات.

ولكنْ، ماذا بشأن الطرَف الآخر في تلك العلاقة – مایاکوفسكي الشاعر؟ أيّ نوعٍ من الشعراء كان؟ يبقى مایاکوفسكي على قدرٍ من التّفرّد بحيث يتعذّر تصنيفه بالمقارنة مع شعراء آخرين. ولعلّنا نبدأ تصنيفه كشاعر بتفحّص نظرته إلى الشّعر، ولو انطوى الأمر على قدرٍ من الفجاجة، آخذين بالاعتبار أنّ هذا التّعريف متجرّد من الضّغوط التي كان الشاعر عرضةً لها طوال حياته


АВАРЯ
ДАЙТЕ УГОЛЬ С ДОНУ
СЛЕСАРЕЙ
МЕХАНИКОВ В ДЕПО
У КАЖДОЙ РЕКИ НА ИСТОКЕ
ЛЕЖА С ДЫРОЙ В БО
ПАРОХОДЫ ПРОВЫЛИ ДОКИ
ДАЙТЕ НЕФТЬ ИЗ БАКУ
ОКНО


ВЫЛАЗЯТ
ОСТАТКИ СЛОВ ТАКИХ
ТИТУЦИЯ
ТУБЕРКУЛЕЗ
БЛОКАДА
ТОРЫЕ
ВЫ И ЛОВКИ
ХОТКИНЫ ЛЕВКИ
АГИТАТОРА
ГОРЛАНА - ГЛАВ

وهي ضغوط يتعذّر علينا أن نميّز فيها العوامل الذّاتيّة عن العوامل التاريخيّة.

**الشعر بالنسبة إلى مایاكوفسكي تصنيع للتجربة الشخصية وتحويل وهو يتحدث عن تجربة الشاعر بما هي المادة الخام للشعر. في حين أن القصيدة هي المنتوج النهائي الذي يلبي الطلب الاجتماعي.**

هكذا يصف مایاكوفسكي طريقه إلى الشعر، في الملاحظات نحو سيرته الذاتيّة:

**«اليوم كتبتُ قصيدة. أو بالأحرى: مقاطع من قصيدة. إنّها سيّئة. لا تصلح للنّشر. «ليل» جادّة ستريتنسكي. قرأتُ القصيدة لبورليوك. وأضفتُ: إنّها من نظْم صديق. جمد دافيد ونظر إليّ: «أنت نفسُك كاتبُها!» ثمّ صاح: «إنّك لعبقريّ!». فرحتُ لهذا الإطراء الرائع الذي لا أستحقّه... فانكببْت على الشّعر. في تلك الليلة، أمسيتُني شاعراً على نحوٍ فجائيّ تماماً».**

**تلبية الطلب الاجتماعي**

اللهجة ملتبسة. لكنّ المهمّ قوله إنّه صار شاعراً لأنّه استدعي لتلك المهمّة استدعاءً. طبعاً، كانت طاقته العبقريّة كامنةً أصلاً. والأرجح أنّها كانت ستتفجّر عاجلاً أو آجلاً. إلّا أنّ مزاجه قضى بأن يأتي تفجّر تلك الطاقة تلبيةً لطلبٍ معيّن.

فيما بعد، سوف يواصل الإشارة إلى الشعر بصفته أمراً يجب أن يقابله بالضرورة «طلبٌ اجتماعيٌّ» معيّن، تأتي القصيدة تلبيةً مباشرةً له. والجامع المشترك بين شعره المتوقّد في فترته المستقبلية وشعره السياسيّ اللاحق هو تحديداً شكل المخاطبة. ونعني بذلك نمط مواجهة الشاعر للـ«أنت» الذي يخاطب. قد يكون هذا الـ«أنت» امرأةً أو الله أو المسؤول الحزبيّ، إلّا أنّ تغيّراً لا يطرأ على شكل تقديم الشاعر لحياته إلى الذين يخاطبهم. عبَثاً تبحث عن الـ«أنت» في حياة الـ«أنا»، ذلك أنّ الشعر هو عمليّة إضفاء معنى شاعريّ على حياة الشاعر الموضوعة في تصرّف الآخر. قد يقول قائلٌ إنّ ذلك القول ينطبق، إلى هذا الحدّ أو ذاك، على الشعر إطلاقاً، غير أنّ الفكرة القائلة إنّ الشعر نمطٌ من التبادل يفعل فعله بين حياة الشاعر وبين الطلَبات التي تضعها عليه حياتٌ أخرى، فكرة متبلورة بنوع خاصّ في الظاهرة المایاكوفسكيّة. إنّها تنطوي على المبدأ القائل إنّ الشعر يلقى تبريره أو لا يلقاه بحسب نمط استقبال النّاس له. هنا نلامس صراعاً هامّاً من الصراعات التي كانت تخترم حياة الشاعر. فالمبتدى هنا هو اللغة بما هي المُعطى الأساس. على أنّ المنتهى هو حكم الآخرين على كيفيّة استخدامه لتلك اللّغة في ظروف معيّنة. فقد تعاطى مایاكوفسكي مع اللغة وكأنّها جسده ذاته، وترك للآخرين أن يقرّروا ما إذا كان لذاك الجسد الحقّ في الحياة أم لا.

كانت المقارنة بين إنتاج الشّعر والإنتاج الصّناعيّ واحدة من المقارنات الأثيرة لدى مایاكوفسكي. غير أنّ اختزال تفسير تلك الاستعارة بإعجابه المستقبليّ بالتكنولوجيا الحديثة يجانب الحقيقة. فالشعر بالنسبة إلى مایاكوفسكي تصنيعٌ للتجربة الشخصيّة وتحويل. وهو يتحدّث عن تجربة الشاعر بما هي المادّة الخام للشعر، في حين أنّ القصيدة هي المنتوج النهائيّ الذي يلبّي الطلب الاجتماعيّ:

**«وحده جهد تمهيديّ قد نال نصيبه الوافي من الاختمار يوفّر لي الوقت اللازم لإتمام نصٍّ معيّن، ذلك أنّ متوسّط إنتاجي اليوميّ يتراوح بين ثمانية وعشرة أسطر».**

**«إنّ الشاعر هو ذلك الكائن الذي يرى إلى كلّ اجتماعٍ أو إشارة مرور أو كلّ حدثٍ من الأحداث، في أيّ ظرفٍ من الظروف، على أنّه مادّة قابلة للصّياغة في كلمات».**

والذي كان يعنيه بالجهد التمهيديّ هو تأليف القوافي والصوَر والأبيات الشعريّة واختزانها من أجل استخدامها اللاحق. فـ«صناعة» القصيدة تمرّ بأطوارٍ عديدة، كما يقول بصراحةٍ نادرة في مقاله «كيف تصنع الأشعار؟». يأتي في المقام الجهد التمهيديّ الذي يقوم على سكب التجربة في كلماتٍ واختزان تلك المقاطع الكلامية الموجزة نسبيّاً.

**«حوالي العام ١٩١٣ كنت عائداً من ساراتوف إلى موسكو، ولكي أثبت إخلاصي لامرأةٍ كانت ترافقني، قلت لها: «ما أنا ببشر، إنّما أنا غمامةٌ ترتدي سروالاً». وما إن تفوّهتُ بتلك العبارة حتّى لمَع في خاطري أنّها قابلة للاستعمال في قصيدة.**

**بعد مضيّ سنتين على الحادثة، استخدمتُ «غمامة في سروال» عنواناً لقصيدة جاهزة كانت تبحث عن عنوان».**

بعد ذلك يأتي إدراك الشاعر بأنّ ثمّة «طلباً اجتماعيّاً» لقصيدةٍ حول موضوعٍ معيّن، فيجهد لكي يتفهّم الحاجة الكامنة وراء ذلك الطّلَب بأشمل ما يمكن. وأخيراً، تأتي عمليّة نظم القصيدة بما يتلاءم وتلك الحاجة. هنا يحاول الشاعر أن يفيد الإفادة القصوى ممّا قد سكبه سابقاً في كلمات. إلّا أنّ هذه العمليّة تتطلّب الاختبار تلو الاختبار. وعندما يستوي النّظر أخيراً، إذ ذاك تكتسب القصيدة طاقتها التفجيريّة:

**أيّها الرفيق جابي الضرائب**
**أقسم بشرفي**
**أنّ قافيةً**
**لا تكلّف الشاعر**
**أكثر من فلس أو فلسين**
**اسمحْ لي بهذه الاستعارة:**
**القافية**
**عبوة**
**عبوة ديناميت**
**وبيت الشعر هو الفتيل**
**يحترق الفتيل**
**فتنفجر العبوة**
**ويتناثر حطام المدينة في الجوّ:**
**تلك هي القصيدة**
**فما هي الضريبة**
**على القوافي**
**التي تصيب الهدف؟**
**وتقتل على الفور؟**
**لو أنّه**
**لم يبقَ على هذه البسيطة**
**غير خمس قوافٍ متوارية**
**ولو أنّها في مجاهل فنزويلا**
**لاقتفيتُ أثرها**
**غيرَ آبهٍ بقيظٍ أو صقيع**
**ولغصْتُ بحثاً عنها**
**مثقلاً بجلاميد التسليفات والقروض**
**فيا أيّها المواطن،**
**ادّخرْ ثمن بطاقة السّفَر!**
**فالشعر – كلّ الشعر! –**
**رحلةٌ في المجهول!**
**الشعر**
**مثل التّنقيب عن الرّاديوم**
**أوقيّة واحدة من المنتوج**
**مقابلَ عامٍ من العمل.**
**في سبيل إنتاج كلمةٍ واحدة**
**عليكَ أن تصنّع**
**آلاف الأطنان**
**من خام الكلام**
**ولكن، قارن قدح شرار**
**تلك الكلمة**
**بالاحتراق البطيء**
**للكلمات الخام!**
**فتلك الكلمة**
**تقطّر ألوف السنين**
**وتهزّ أفئدة الملايين!**

**الشعر عمليّة تبادل**

ما إن ينتهي نظم القصيدة حتّى تتطلّب أن يقرأها القرّاء أو أن يلقيها الشاعر نفسه إلقاءً. في ندواته الشعريّة العامّة، كان مایاكوفسكي، مثل سائق سيّارة سباق أو طيّارٍ تجريبيّ، يستعرض ميزات منتجاته، مع فارق أنّ معرض القصائد لم يكن على الأرض ولا في الجوّ إنّما في أذهان مستمعيه.

ومهما يكن من أمر لا يجوز أن تخدعنا رغبة مایاكوفسكي في عقلنة عمليّة إنتاج الشعر، فنحسبها خلوّاً من الأسرار. فقد كانت رؤياه الشعريّة مترعة بشغفٍ تزعزعه أبداً رغبة الشاعر.

**يغفو الكون**
**وأذنه الجبّارة**
**المحشوّة ببراغي**
**– هي النجوم –**
**ملقاةٌ على كتفه**

مع ذلك، كان مایاكوفسكي يرى إلى الشعر بصفته عمليّة تبادل، بل عمليّة ترجمةٍ تهدف إلى جعل تجربة الشاعر قابلةً للاستخدام من قبل الآخرين. كان يؤمن بكيمياء اللغة.

ففي فعل الكتابة نفسه يحدث التحوّل العجائبيّ. وعندما كتب عن انتحار الشاعر ييسينين عام ١٩٢٥، عجز عن تقديم حجّةٍ واحدةٍ مقنعةٍ لماذا كان على الشاعر أن يبقى على قيد الحياة، وإن يكن اعتبر أنّ هذا ما يمليه عليه الطّلَب الاجتماعيّ. إنّ المقاطع الأولى من الرّثاء هي بيت القصيد: لو كان في غرفة ييسينين في الفندق مجرّد دواة حبر، لما قطع شرايين رسغه وشنق نفسه. لو كان في مقدوره فقط أن يكتب، لربّما بقي على قيد الحياة. فأن تكتب يعني أن تختلي بنفسك وأن تنضمّ إلى الآخرين في آنٍ معاً.

يتحدّث مایاكوفسكي في القصيدة ذاتها عن الشعب الروسيّ الذي «تعيش فيه لغتنا وتتنفّس»، ويهاجم كلّ استخدام خجول أو أكاديميّ للّغة (مردفاً أنّه لو قدّر لييسينين أن يستمع إلى الخطباء التقليديّين في تأبينه، لدعاهم أن يدسّوا مراثيهم في إستهم). إلّا أنّه يعترف، في المقابل، بأنّ وقْع الأزمة شديد الوطأة على الكتّاب، مع أنّه يتساءل: ولكن أيّ زمنٍ لم يكن شديد الوطأة عليهم؟ ثمّ يقول:

**إنّما الكلمات**
**هي طلائع**
**البشريّة الزّاحفة**
**تقدّموا!**
**خلفُنا**
**الزّمن**
**يتفجّر مثل ألغام أرضيّة!**
**لن نتركَ**
**للماضي**
**غير ضفائر**
**شعورنا**
**المتشابكة بالرّيح**

**بين مایاكوفسكي وريتسوس**

توضيحاً لفكرتنا، قد يساعد أن نقارن مایاكوفسكي بكاتبٍ آخر هو الشاعر اليونانيّ المعاصر بانيس ريتسوس الذي هو، مثله كمثل مایاكوفسكي، شاعرٌ سياسيٌّ وشيوعيّ. لكنْ على الرّغم من الالتزام المشترك لشاعرَينا، يقع ريتسوس في الضفّة الأخرى من الشعر بالمقارنة مع مایاكوفسكي. إذ لا تولد الأشعار عند ريتسوس من فعل كتابةٍ ولا من تصنيع للكلمات. يولد الشعر عنده كمحصّلة لقرار أساسيّ لا علاقة له بالشّعر. وبدلاً من أن تكون الأشعار المنتوج النهائي لعمليّةٍ إنتاجيّةٍ شديدة التّعقيد، تبدو كمنتوج فرعيّ من منتجاتها. فيساورُك الانطباع بأنّ أشعار ريتسوس تأتيه قبل تراكمها في كلمات: إذ إنّها ترسّبٌ من ترسّبات موقفٍ أو قرارٍ مسبق. ليس بقصائده يؤكّد ريتسوس تضامنه السياسيّ. بل بالعكس من ذلك، بسببٍ من موقفه السياسيّ، تتلبّس بعض الأحداث لديه لبوساً شعريّاً:

**يوم السبت، الساعة الحاديةَ عشرة قبل الظّهر**
**النسوة يجمعن الثّياب**
**من على حبل الغسيل.**
**صاحبة الدّار واقفة عند عتبة**
**الفناء**
**رجلٌ يحمل حقيبة.**
**وآخر يعتمر قبّعةً سوداء**
**الموتى لا يدفعون الإيجار**
**قطعوا خطّ الهاتف عن إيلين.**
**بائع الكعك ينادي عمداً:**
**«كعك، سخن، يا كعك»**
**عازف الكمان الشابّ على النّافذة**
**«سخن وطيّب الكعك»**
**يقول.**
**يرمي كمانه على الرّصيف**
**البغاء تراقب من فوق كتف الخبّاز.**
**صاحبة الدّار تخشخش بمفاتيحها.**
**النسوة الثّلاث يدخلْن البيت**
**ويصفقْن الباب.**

ليس القصد الاستشهاد بريتسوس في مواجهة مایاكوفسكي، أو العكس. إنّهما نَمطان مختلفان من الشعراء يكتبان في ظروفٍ هي نفسها متغايرة. فشعر ريتسوس (بسببٍ من عبقريّته الشعريّة) منتوج فرعيٌّ من منتجات خياره الذي هو خيار معارضة ومقاومة. فيما يرى مایاكوفسكي أنّ الواجب السياسيّ يُملي عليه أن يمجّد وأن يؤكّد. الشكل الشعريّ عند واحدهما علنيّ، سرّيّ عند الثّاني. وعلى عكس ما قد يبدو ظاهريّاً، فالأوّل أشدّ عزلةً من الثاني.

**تغيّرتْ لغة الثورة**

لنعدْ الآن إلى مایاكوفسكي. يمكننا القول إنّ اللغة الروسيّة كانت تستدعي شعراً جماهيريّاً، وتنقّب عن شعرائها الوطنيّين قبل الثورة وخلال سنواتها الأولى.

ومع أنّه يستحيل الحسم في مسألة ما إذا كانت عبقريّة مایاكوفسكي قد ظهرت بفعل ذلك الاستدعاء أم أنّها ترعرعت فقط في كنفه، فإنّ هذا التّزامن بين عبقريّته وبين حالة اللغة في عصره كان عنصراً حاسماً في نتاج الشاعر على امتداد حياته وربّما أيضاً في موته، لكنّه تزامنٌ لم يعمّر طويلاً.

منذ افتتاح «السياسة الاقتصاديّة الجديدة» (الـ«نيب» NEP) أخذتْ لغة الثورة نفسها تتغيّر، كان التّغيّر خفيّاً، أول الأمر، إلّا أنّه لم يكن ليَخفى على شاعرٍ منبريّ مثل مایاكوفسكي. ومع الوقت، لم تعد الكلمات تعني تماماً ما تقوله. (إنّ تصميم لينين على القول الصّدق كان خارقاً. فإذا وفاتُه منعطفٌ حاسم في هذا المضمار كما في سواه). تدريجيّاً، أخذَت الكلمات تحجب من المعاني بقدْر ما تفصح عنها. صار للكلمة وجهان: وجهٌ للنّظريّة ووجهٌ للممارسة. فمثلاً، صارت كلمة «سوفيات» صفة ملازمة للوطنيّة ومصدراً للاعتزاز الوطنيّ. ولم تعدْ تدلّ - إلّا في النظريّة - على نمط معيّن من الديمقراطيّة البروليتاريّة. هكذا أمسى جمهور القرّاء «الأبكار»، إلى حدٍّ بعيدٍ، جمهوراً من المخدوعين.

**تدريجيا. أخذت الكلمات تحجب من المعانى بقدر ما تفصح عنها. صار للكلمة وجهان: وجه للنظرية ووجه للممارسة. صارت كلمة «سوفيات» صفة ملازمة للوطنية. ولم تعد تدل على نمط معين من الديمقراطية البروليتاريـــــــــــــــــــــــة.**

مات مایاكوفسكي قبل أن تستفحل ظاهرة خفْض قيمة اللغة الروسيّة. لكنّه في سنوات حياته الأخيرة، ازدادت رؤياه سخريةً كما نتبيّن من أعمال «الخير» و«البقّ» و«الحمّام»، وقد لقيَتْ جميعها استقبالاً سلبيّاً. فقد أضحت كلماته مشحونة بمَعانٍ فقَدَت الصحّة والصّدق. فلنستمعْ إلى المخرج في الفصل الثّالث من «الحمّام»:

**«حسناً! الآن جميع الرّجال على المسرح. اركعوا على ركبةٍ واحدة، احنُوا الظهور وطأطئوا الرّؤوس. يجب أن تبدوا مستعبَدين، تمام؟ انهالوا بمعاولكم الوهميّة على الفحم الحجريّ الوهميّ. أشدّ بؤساً، أنت هناك، يجب أن تبدو أشدّ بؤساً، فإنّ القوى الظلّامةَ تقهرك.**

**«وأنت هناك! أنت تمثّل «رأس المال». قفْ هناك، أيّها الرفيق، «رأس المال». سوف تؤدّي لنا رقصةً قصيرة تمثّل «القهر الطبقيّ»...**

**«النساء على المسرح الآن. أنتِ سوف تكونين «الحرّيّة». أخلاقك الحميدة تخوّلكِ ذلك. وأنت تستطيعين لعب دور «المساواة»، ليس مهمّاً من يمثّل هذا الدّور، أليس كذلك؟ وأنتِ، يا عزيزتي، ستمثّلين دور «الأخوّة»، فلستِ تستثيرين من المشاعر إلّا هذا الشّعور! جميعكنّ مستعدّات؟ هيّا! انفثن الجماهير الوهميّة بحماستكنّ الوهميّة! حسناً! حسناً!».**

ما الذي كان يحلّ بمایاكوفسكي في تلك الأثناء؟ امرأة يحبّها تتركه. وإنتاجه يتعرّض لنقدٍ متزايد الحدّة، على اعتبار أنّ «نَفَسَه» بعيدٌ عن الطبقة العاملة. أبلغَه الأطبّاء بأنّه أعطب أوتاره الصوتيّة بلا أمل في شفاء، لأنّه يرهق صوته عند تلاوة الشعر. وهو، من جهته، أعلن حلّ رابطته الأدبيّة الطّليعيّة («ليف» LEF وقد أعيدت تسميتها «نيف» NEF) وأعلن انضمامه إلى رابطة الكتّاب «الأكثريّين» الرسميّة («الرّاب» RAPP) التي كانت دوماً سلبيّة تجاهه. والنتيجة أنّه بات معزولاً في الرابطة الجديدة، فيما أصدقاؤه السابقون يصنّفونه في عداد المرتدّين. من جهةٍ أخرى، المعرضُ الاسترجاعيُّ لنتاجه - من أشعارٍ ومسرحيّاتٍ وملصقاتٍ وأفلامٍ - لم يحرز النجاح الذي كان يتوقّعه له. كان في السابعة والثّلاثين من العمر - كان بوشكين في السنّ ذاتها عندما قُتل. غير أنّ بوشكين كان مؤسّس اللغة الحديثة للشعر الروسيّ بلا منازع. فما الذي سيحلّ بلغة الشعر الروسيّ الثوريّ التي آمن بها مایاكوفسكي ذاتَ يوم؟

إذا كان الكاتب يرى إلى حياته على أنّها مادّة خامٌ تنتظر دخول اللغة، وإذا كان مشغولاً على الدّوام بتصنيع تجربته الشخصيّة، ويرى إلى الشعر على أنّه عمليّة تبادل في المقام الأوّل، ينجم عن ذلك خطرُ أن يستنتج ذاك الكاتب أنّ حياته ذاتها مستنفدة عندما يُحرم من جمهوره المباشر. فلن يرى بعد الآن إلى تلك الحياة إلّا كشذرات منشورة على امتداد السنين. فكأنّما نجحت الذّئاب، بالرّغم من كلّ شيء، في تمزيق جسمه إرباً:

**«لا تجزعوا، لدينا كلابٌ قويّة سوف تمنعهم من الاقتراب». ثمّة من أخلف بالوعد. فقد هجَمَت الذّئاب.**

# التعليم في الثورة

إعداد
فريق «بدايات»

أوّل إنجازات التعليم في روسيا - الثورة المرسوم الحكوميّ الدّاعي إلى مَحو الأمّيّة بين سن ٨ و ٥٠ سنة، وهو الإجراء الذي مكّن عشرات الملايين من سكّان روسيا من تعلّم القراءة والكتابة. ما لبث أن تحوّل إلى تقليدٍ يشارك في حملات تعليم القراءة والكتابة متطوّعون من الشبيبة الشيوعيّة يطوفون على الأرياف والأطراف.

في ٣٠ أيلول / سبتمبر ١٩١٨ صدر «إعلان مبادئ» عن الإصلاح في حقل التربية والتعليم. وأبرز إجراءاته توحيد التعليم المدرسيّ فيما سمّي «مدرسة العمل الموحّدة» تحلّ محلّ المدارس السابقة متعدّدة المستويات. والتعليم في المدرسة الموحّدة مجّانيّ ومختلط للجميع من سنّ ٨ إلى ١٧ سنة. وقد اتّبعت تلك المدارس برنامجاً تعليميّاً موحّداً وشهاداتٍ موحّدة. وقام النظام التعليميّ الجديد على مبادئ تعليميّة إصلاحيّةٍ جذريّةٍ أبرز ما فيها:

١◆ إلغاء «مبدأ السلطة» في المدرسة ومعه كلّ القيود الخارجيّة المفروضة على الطلّاب.

٢◆ التخلّي التدريجيّ عن الفروض والواجبات البيتيّة والعلامات وامتحانات الدخول والتخرّج.

٣◆ الاهتمام بالتّعليم المهنيّ وربط التعليم المدرسيّ بالعمل اليدويّ تحت شعار «أن تعيش يعني أن تعمل».

٤◆ اعتماد نظام «المركّبات» الذي يقوم على التخلّي التدريجيّ عن نظام «الموادّ» لصالح نظامٍ عابرٍ للاختصاصات يقوم على العلاقات بين العالم الطبيعيّ والنشاطات الإنسانيّة والعلاقات الاجتماعيّة.

## تطبيق اشتراكيّ لنظريّات أميركيّة

حظي القطاع التعليميّ بعدّة خبراء ومنظّرين نشطين وخلّاقين من جيل الروّاد بقيادة أناتول لوناتشارسكي، «مفوّض الشعب للتنوير» Narkompros، المفوضيّة المسؤولة عن التعليم والثقافة، ونائبته ناديا كروبسكايا، زوجة لينين، والمسؤولة الأبرز عن قطاع التعليم الجامعيّ في المفوضيّة.

لم يُخفِ معظم تربويّي تلك الفترة تأثّرهم بالنّظريّات التعليميّة للمربّي الأميركيّ التقدّميّ جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢). سعى ديوي إلى ربط التعليم بالديمقراطيّة، ومن أبرز مؤلّفاته «المدرسة والمجتمع» (١٨٩٣) حيث يعرّف المدرسة على أنّها وحدةٌ مجتمعيّة يجب أن تشكّل إطاراً للإصلاح المجتمعيّ، أي تحويل التلميذ إلى مواطنٍ يسهم إسهاماً أخلاقيّاً في المجتمع، على حدّ تعبيره. وقد انتقد ديوي التعليم القائم على تحصيل المهارات المبرمجة سلفاً، ودعا إلى تنمية طاقات التلميذ إلى أقصاها واستخدامها في خدمة الصّالح العامّ. وعارض المربّي الأميركي التقدّميّ السلطويّة في التعليم، وما تفرضه على التلاميذ من استكانةٍ وتقييدٍ جسمانيّ. والأهمّ أنّه دعا الى التخلّي عن ممارسة العلم باتّجاهٍ واحدٍ من الأستاذ إلى التلميذ. ونظر إلى التعليم الجديد بما هو قائم على الموازنة بين توصيل المعرفة والأخذ بعين الاعتبار مصالح التلميذ وتجاربه الحياتيّة. فدعا إلى تكوين تلاميذٍ قادرينَ على التفكير النقديّ المستقلّ من خلال مناهج متعدّدة الاختصاصات. وشدّد على عدم الاكتفاء بتنمية كفاءات الأساتذة وإنّما العمل على تغيير مفهوم التعليم ذاته.

ترجمت كروبسكايا كتاب ابنة ديوي عن أبيها. وكانت الفكرة المركزيّة عن المدرسة الجديدة عند المربّية كروبسكايا، ترى أن مهمّة المدرسة الجديدة ليست تأهيل التلميذ لنشاطاتٍ معيّنة بقدْر ما هي تنمية طاقات الطّفل التي ستسمح له بإنتاج ظروف حياته المستقبليّة بذاته. وكتب لوناتشاركي في العام ١٩٢٠ يقول «لقد أدخلنا في «مدرسة العمل الموحّدة» تطبيقاً اشتراكيّاً للوسائل التعلميّة التي تتبنّاها أفضل المدارس الأميركيّة».



ومن أبرز ما أخذه النظام التعليميّ الجديد عن ديوي
١◆ اعتماد «مصالح» التلاميذ، تمييزاً لها عن «الرغبات»، وتوجيهها نحو تنمية شخصيّة التلميذ وملَكَته النقديّة وشعوره بالمسؤوليّة وتشجيع التعاون والمشاركة مع الآخرين.
٢◆ التشجيع على الاختبار وتطعيم التعليم باستمرارٍ بآخر مكتشفات العلوم.

ومن أبرز تربويّي تلك الفترة بلونسكي Blonski الذي يقول إنّه بنى نظريّته التربويّة على ثلاثة: ماركس وديوي والواقع الروسيّ. وقد أخذ عن ماركس مقولته أنّ المجتمع الشيوعيّ سوف يلغي تقسيم العمل ويعمل على إنهاء الفوارق بين العمل الذهنيّ والعمل اليدويّ، وبين المدينة والأرياف. عُرف بلونسكي بنظريّته عن «التّسيير الذاتيّ للمدرسة من قبل التلامذة» والتركيز على التوفيق بين متطلّبات العصر ومصالح التلامذة، وبين تنمية روح المبادرة عند الطفل وتنمية روح المسؤوليّة.

موبزي بيستراك Moisey Pistrack (١٨٨٨ - ١٩٤٠) داعية الابتكار وتنمية الروح النقديّة لدى التلامذة ووعيهم للعلاقات الحقيقيّة في المجتمع. وهو صاحب مفهوم «مدرسة العمل» الذي أطلقه العام ١٩٢٠ على اعتبار العمل هو حامل الرقيّ والسعادة للإنسان. وقد رأى أنّ المزج بين التعليم والعمل اليدويّ، وبين المدرسة والمصنع، يجب أن يكون ركيزة المدرسة الجديدة. وبناءً على مبادرات بيستراك وليبيشنسكي نُظّمتْ «المخيّمات الطلّابية» يمارس خلالها التلامذة العمل الصناعيّ. وقد دأب لينين وكروبسكايا على زيارة تلك المعسكرات.

كانت تلك فترة «شيوعيّة الحرب» وقد شهدتْ حرّيّةً واسعة في التجريب والتخييل والابتكارات الخلّاقة بلا حدود في التعليم مثلما شهدتْه في سائر ميادين الحياة. أعيد النّظر بدور المعلّمين الذين كانوا يُنتخَبون من السوفييتات المحلّيّة، وسادتْ بصددهم معادلة ماركس الشهيرة عن «أنّ المعلّم يجب أن يتعلّم هو نفسه» نحو توازن قوّة جديد بين المعلّم والتلميذ. وقد دعا لينين من جهته إلى إصلاح المسؤولين عن التعليم قبل الشروع في إصلاح السياسات التعليميّة. حتى إنّ بعض التربويّين تساءلوا عن جدوى المدرسة كمؤسّسةٍ أصلاً، حتى إنّ أحدهم، شولغين، دعا إلى «اضمحلال المدرسة» على اعتبارها مؤسّسة طبقيّة وسلطويّة، على غرار ضرورة اضمحلال الدولة.

وبرز جيلٌ جديدٌ من التربويّين، منهم الفيلسوف والعالم النفسانيّ أنطون ماكارنكو (١٨٨٨ - ١٩٥١) الذي أسّس المآتم وبنى الملاجئ لأطفال الشوارع ومشرّدي الحرب الأهليّة وكان مديراً لقطاع إصلاحيّات الأحداث. طبّق ماكارانكو مفهوم «مدرسة العمل» خلال إدارته إصلاحيّات الأحداث التي اعتمد فيها منهجاً يقوم على احترام الأحداث والعمل على كسب ثقتهم وربط التعليم مع العمل المنتِج. وقد أُعجب مكسيم غوركي بمنجزات ماكارنكو وكتب مقالاً شهيراً يحيّيه فيه بما هو رائدٌ لفكرٍ تربويٍّ من نمطٍ جديد. وقد منح ماكارنكو «وسام الراية الحمراء»، أرفع الأوسمة السوفياتيّة. من أبرز مؤلّفات ماكارنكو «الطريق إلى الحياة» (١٩٣٣) الذي يروي قصصاً واقعيّة عن تلامذته من المآتم وإصلاحيّات الأحداث. وهو يمثّل أد كلاسيكيّات كتب التربية على الصعيد العالميّ، قرأه الملايين وتُرجم إلى ٥٤ لغة، وطُبع في الاتّحاد السوفياتيّ وحده ٨٥ طبعة.

وفي العام ١٩٢٨ زار ديوي روسيا ودُهش لاكتشافه أنّ النظام التعليميّ فيها يطبّق نظريّاته. ومع أنّ ديوي لم يغفل أنّ المدرسة باتت «ذراعاً للثورة»، على ما سمّاها، إلّا أنّه اعترف بأنّ روسيا السوفياتيّة هي البلد الوحيد الذي يتمّ فيه الربط بين النشاطات التربويّة والنّشاطات الاجتماعيّة في النظام التعليميّ الرسميّ. ولاحظ ديوي فوق ذلك أنّ ما يمنع تحقيق هذا الرّبط في المجتمعات الرأسماليّة هو التشجيع على المنافسة بين الأفراد والسعي وراء الربح الفرديّ.

ومن مفارقات ذلك العام أنّه آذن ببدء الردّة على تلك الفترة من الحريّة والابتكار والتخييل في حقل التربية والتعليم. تعرّضت نظريّات ديوي للهجوم بما هي «فرديّة» و«برجوازيّة» لا تسهم إلّا بتخدير الصراعات الطبقيّة. ووجهت لماكارنكو اتهامات سياسيّة بأنّه انتقد ستالين وأيّد المعارضة الأوكرانيّة، وأخضع لنظام مراقبة خاصّة.

وأعلن فشل «الوسائل التقدميّة» في التعليم إذ فشلتْ في توفير الأساسيّات للتلامذة من أجل تحضيرهم للمعاهد المهنيّة والجامعات. ومع اشتداد قبضة ستالين على السلطة ضاق ذرعاً باللامركزيّة التي يتمتّع بها النظام التعليميّ وفوضاه التجريبيّة والفكريّة. كان يحتاج خصوصاً إلى العمّال المهرة والتقنيّين لتنفيذ خطّة التنمية الخمسيّة الأولى، فأعطى الأولويّة لتجيير النظام التعليميّ نحو إنتاج تعليم مهنيٍّ فعّال. وما لبثت اللجنة المركزيّة أن أعلنت في العام ١٩٣١ «نهاية التجريبيّة» في حقل التعليم والتربية. وتقرّرت العودة السريعة إلى العلامات والامتحانات والعقوبات والأزياء الموحّدة والأناشيد الإلزاميّة وتحيّة العلَم.

## نعوم غابو وأنطوان پيڤزنر
### البيان الواقعي، ١٩٢٠

نعلن الآتي: اليوم ولِد لدينا المكان والزمان. المكان والزمان: الشكلان الوحيدان اللذان تقيم فيهما الحياة، لذا، فهما الشكلان الوحيدان اللذان يجب ان ينبني عليهما الفن.

الدول، الانظمة السياسية والاقتصادية، تنهار تحت وطأة القرون؛ الأفكار تتهاوى، لكن الحياة صلدة، تنمو ولا يمكن اقتلاعها، والزمن متواصل في ديمومة الحياة الحقيقية. فمن يرينا اشكالاً أكثر نجاعة؟ أي انسان عظيم يمنحنا قاعدة أكثر رسوخا؟ أي عبقري يستطيع ان يتخيّل أسطورة أكثر بهجة من تلك الرواية العادية المسماة «حياة»؟

ان الهدف الوحيد لإبداعنا التشكيلي هو استكمال تصوّرنا للعالم انطلاقاً من منظور المكان والزمان.

لن نقيس نتاجنا بمقياس الجمال، ولن نزنَه على كفّتَي ميزان الرقّة والشعور. خيط المِعمار باليد، والنظرة شاخصة مثل بوصلة، نبني منشآتنا فيما الكون يبني. لهذا، فعندنا نصوّر الأشياء، ننزع عنها الألقاب التي وضعها لها مالكوها، ومعها كل ما هوعَرَضي ومحلي فلا يبقى عليها غير الجوهر والمظهر، من اجل استخراج نبض القوى المخبأة فيها.

١ ◆ في الرسم، ننبذ اللون بما هو عنصر تصويري. اللون هو الوجه المثالي والبصري للأشياء. الانطباع الخارجي سطحي. اللون عَرَضيّ لا يشترك بشيء مع المضمون الجوّاني للأجسام.

نعلن ان صبغة الاجسام، أي، تجسدها المادي وهي تشفّ الضوء، هي الحقيقة التصويرية الوحيدة.

٢ ◆ اننا ننكر على الخط قيمته البيانية. في الحياة الحقيقية للأجسام لا وجود لشيء بياني. الخط ما هي الا أثر زائل يتركه البشر على الأشياء ولا علاقة له بالحياة الجوهرية وبالبنية الدائمة للأشياء. ان الخط عنصر بياني، توضيحي، تزييني فقط. اننا نعترف بالخط فقط بما هو وجهة القوى الساكنة المخبأة في الأشياء، ووجهة ايقاعاتها.

٣ ◆ اننا نتبرأ من الحجم بما هو الشكل التشكيلي للمكان. لا يمكن قياس السوائل بالسنتيمترات. انظروا الى مكاننا الحقيقي. ما هو إن لم يكن عمقاً متواصلا؟

اننا نعلن العمق بما هو الشكل التشكيلي الوحيد للمكان.

٤ ◆ اننا نتبرأ في النحت من الكتلة بما هي عنصر نحتي. كل مهندس يعلم ان القوى الساكنة للأجسام الصلدة، ومقاومتها المادية، ليستا وظيفتين من وظائف كتلتهما. مثلا: السكّة، الدعامة، العارضة. لكنكم ايها النحاتون، على اختلاف تياراتكم والتلاوين، تتعلقون بمسبقات قديمة تقول باستحالة تحرير الحجم من الكتلة. هكذا: نأخذ أربعة مسطحات ونجعل منها الحجم نفسه الذي يمكننا ان نصنعه بواسطة كتلة من مئة كيلوغرام.

هكذا نستعيد للنحت الخط بما هو وجهة وهو ما سرقته منه الأفكار المسبقة. وهكذا نؤكد العمق في النحت، العمق الذي هو الشكل الوحيد للمكان.

٥ ◆ اننا ندين الخطأ الألفي الموروث من الفن الفرعوني، حيث تبدو الايقاعات الساكنة على انها العناصر الوحيدة للإبداع التشكيلي.

اننا نعلن عنصرا جديدا في الفنون التشكيلية: الايقاعات الحركية الذي هي الاشكال الجوهرية لتعقّلنا الزمن الحقيقي...

ان الفن مدعوّ لمواكبة الانسان أينما كان حيث حياته حاضرة وفاعلة لا تكل ولا تهدأ - في المشغل، في المكتب، في العمل، في الراحة وفي الرفاه؛ في أيام العمل كما أيام العطل، في البيت وعلى الطريق – من اجل ان لا تفارق شعلةُ الحياة الانسانَ.

## تصوير وفوتو مونتاج



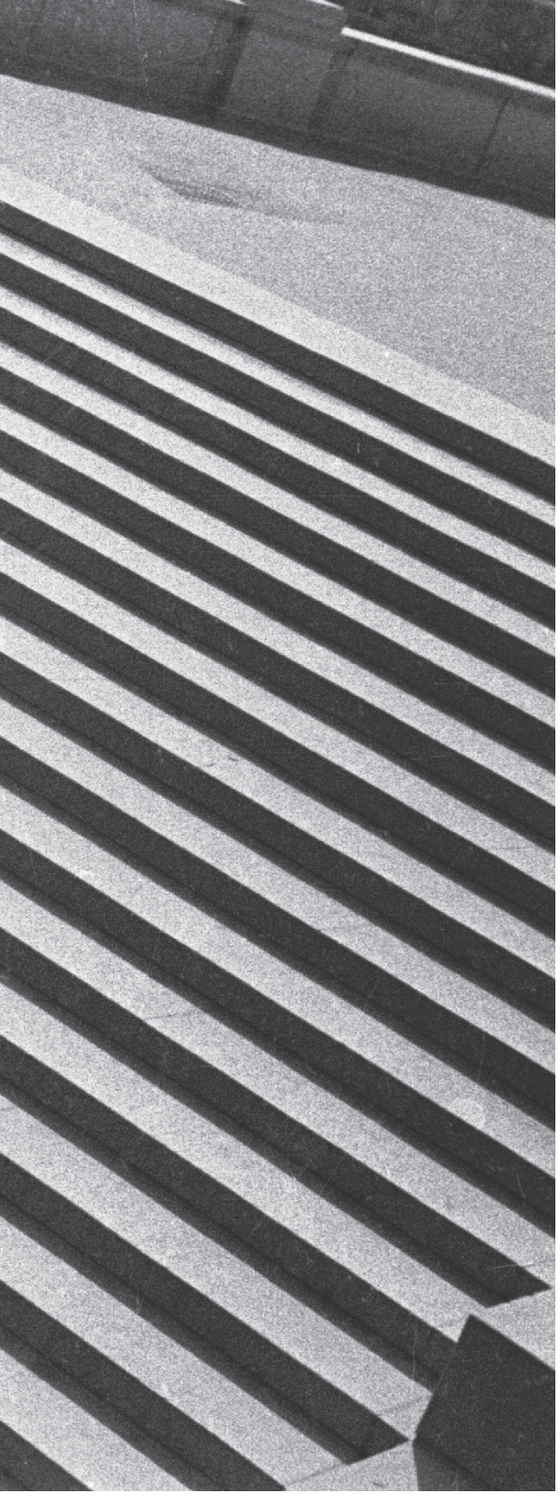
❖
«فتاة مع لايكا»،
ألكسندر
رودشينكو،
١٩٣٢-١٩٣٣

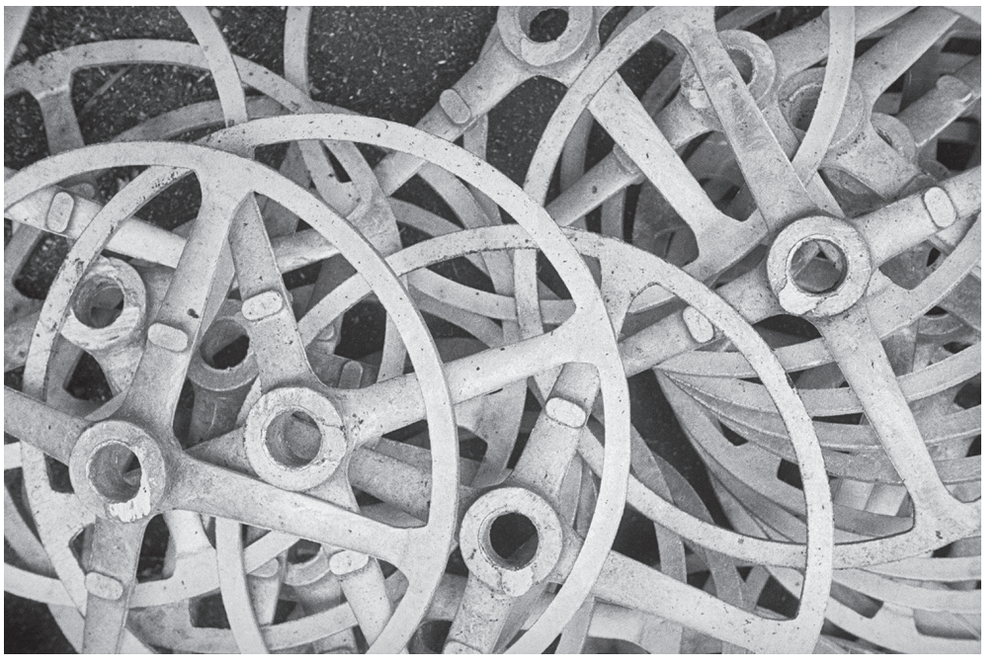


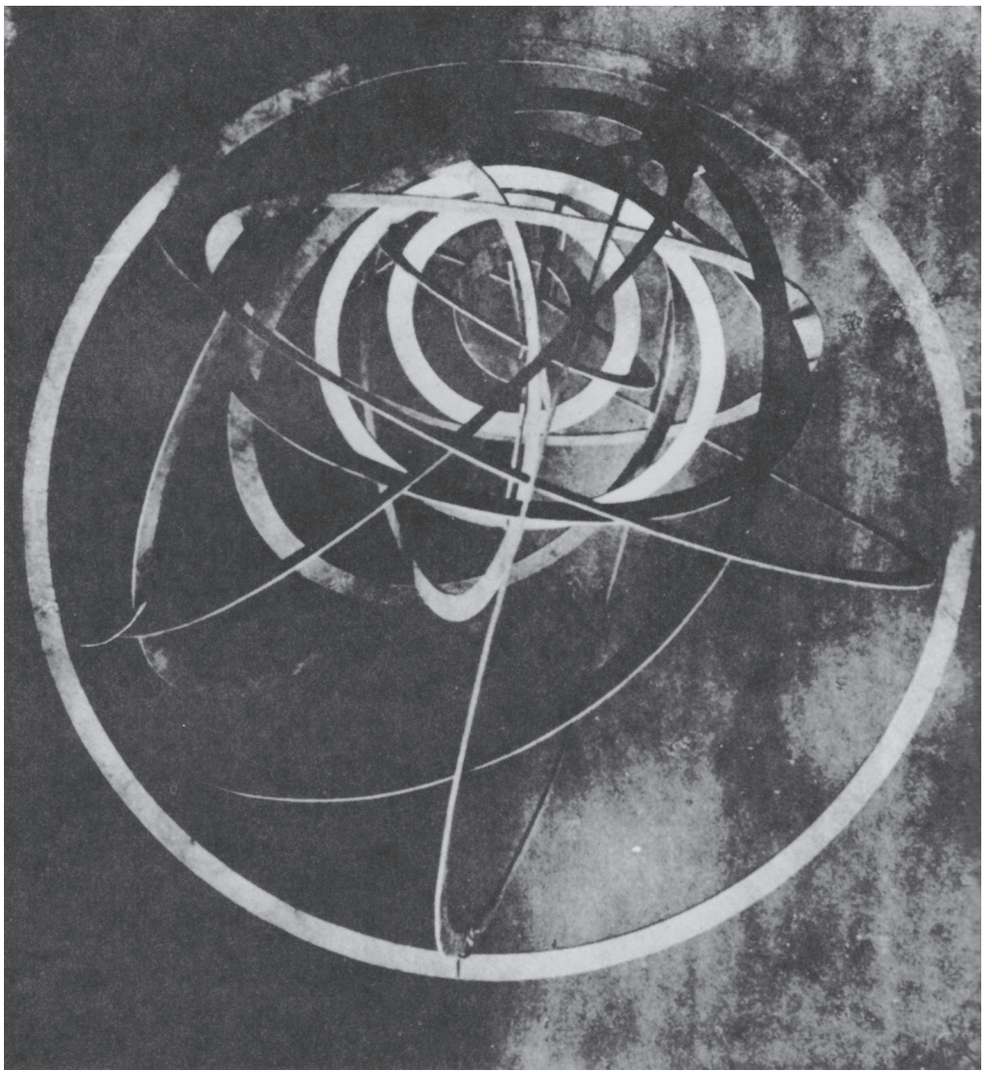



❖❖

فوتو مونتاج
لأكسندر
رودشينكو لقصيدة
لمایاكوفسكي من
العام ١٩٢٣







❖♣
ألكسندر رودشينكو،
معمل الذخيرة

❖❖
ألكسندر رودشينكو،
«أبنية معلقة»
١٩٢٠-١٩٢١



❖
ألكسندر
رودشينكو،
الدرج، ١٩٢٩

## لوحات فنّية



❖
ليوبوف بوبوفا،
تركيب (أحمر -
أسود - ذهبي)

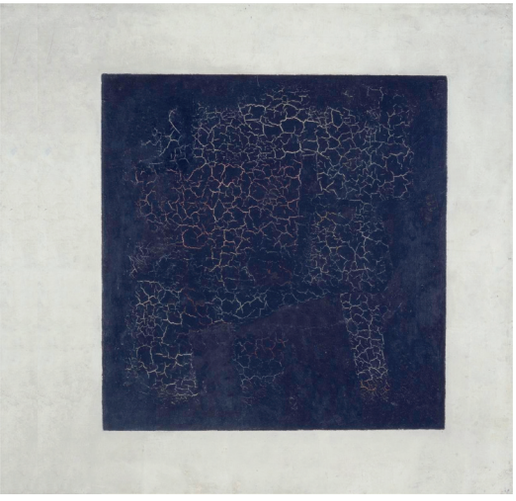
❖❖
إل ليسيتزكي،
«أهزم البيض
بشعر أحمر»،
١٩١٩ - ١٩٢٠

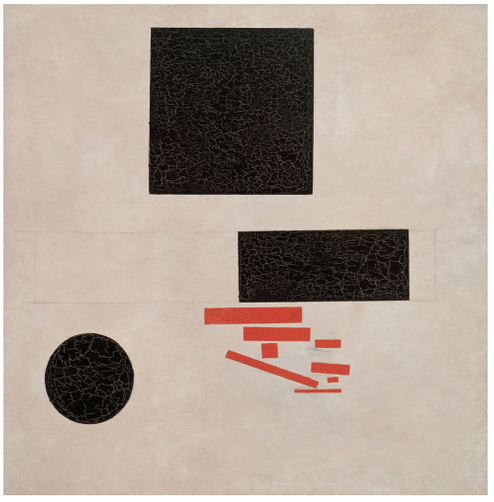
❖❖
كازيمير ماليفيتش،
«تركيب متفوق»،
١٩١٨

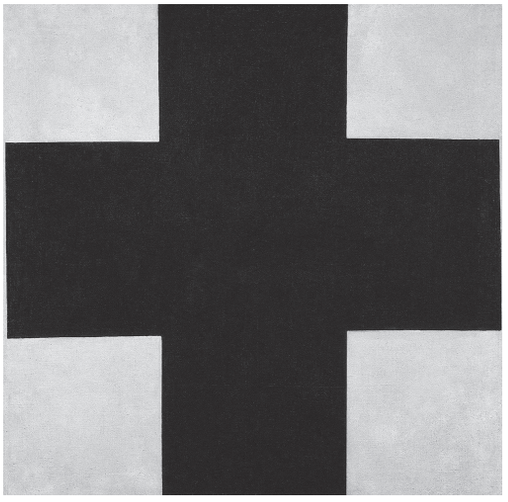
❖❖
كازيمير ماليفيتش،
«تركيب متفوق»،
زيت على قماش،
١٩١٥

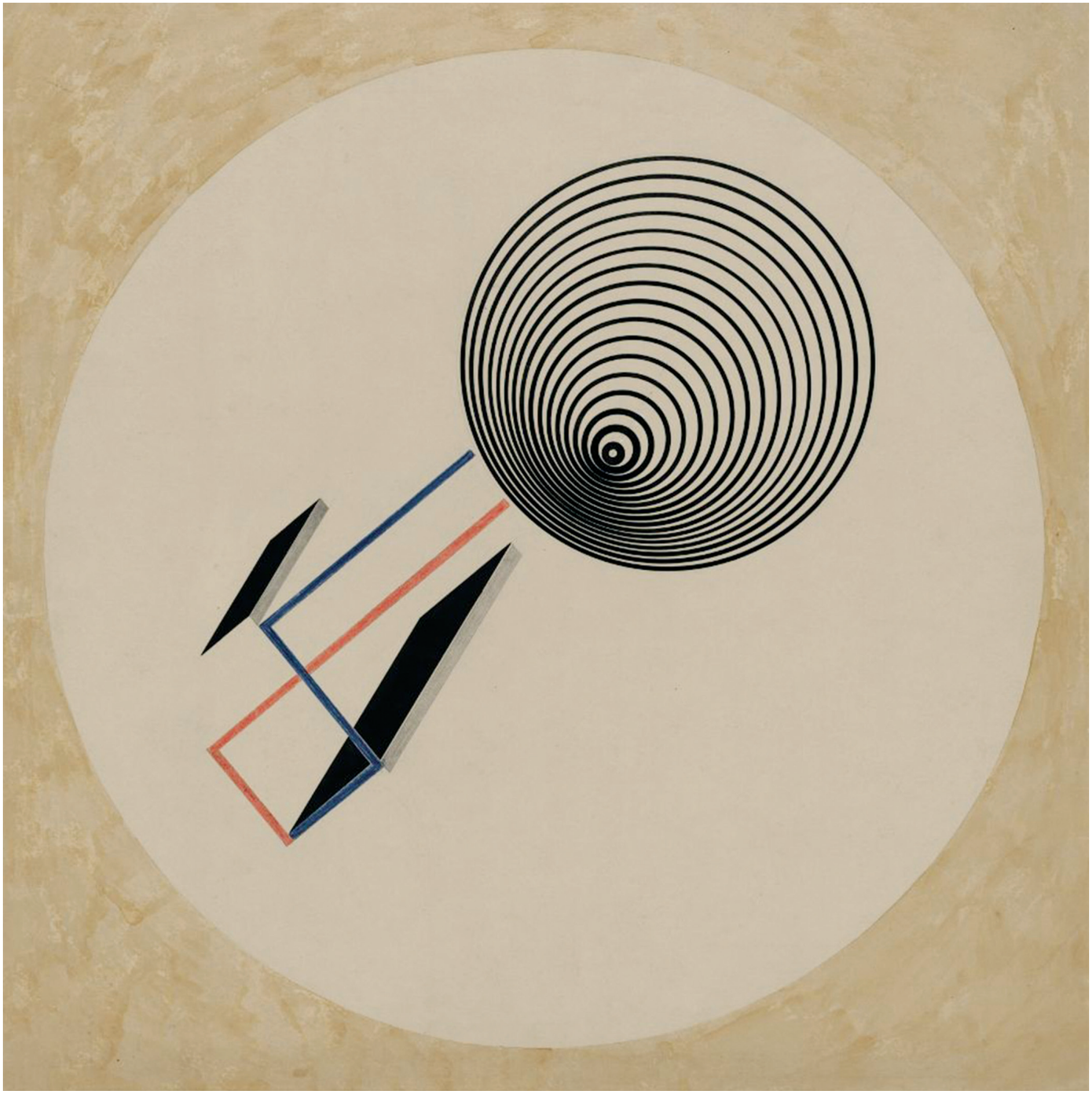
❖❖
كازيمير ماليفيتش،
«مكعب أسود
متفوق»، ١٩١٥


КЛИНОМ
КРАСНЫМ
БЕЙ
БЕЛЫХ
№ 19 Литиздат. Политуправаения Запфронта
Унович





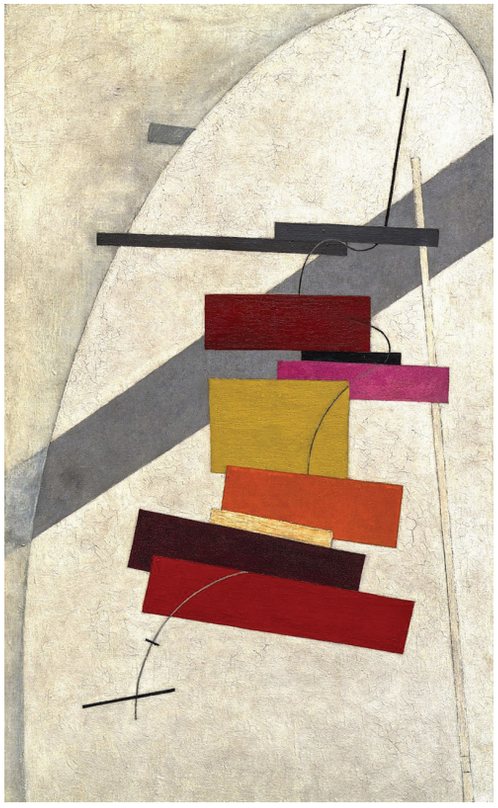






❖
إل ليسيتزكي،
«الضمير رقم
٩٣»، ١٩٢٣



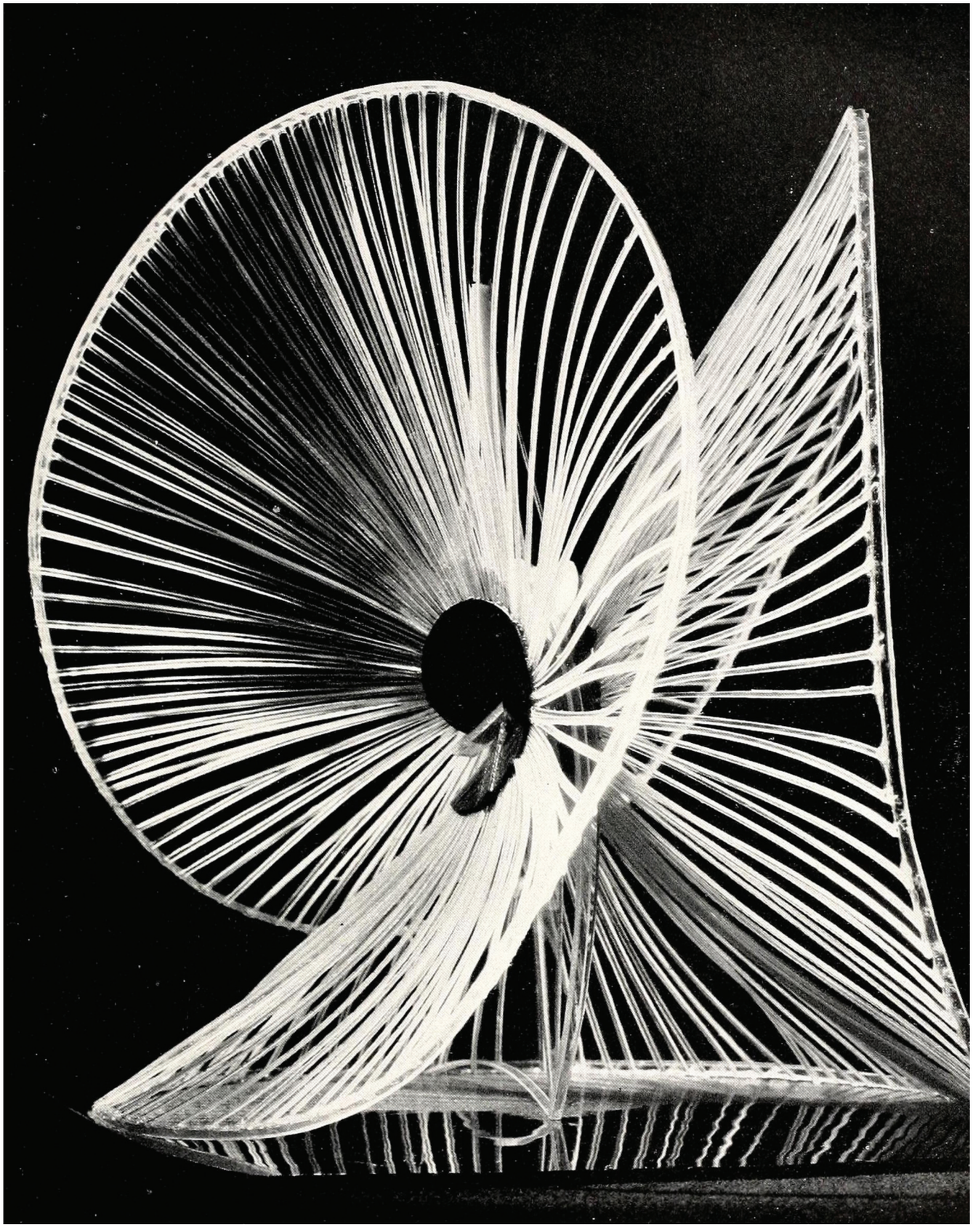


❖❖
إل ليسيتزكي،
تماثيل من «انتصار على
الشمس»،
رجل جديد

❖❖
إل ليسيتزكي،
تماثيل من «انتصار على
الشمس»،
رجل البريد

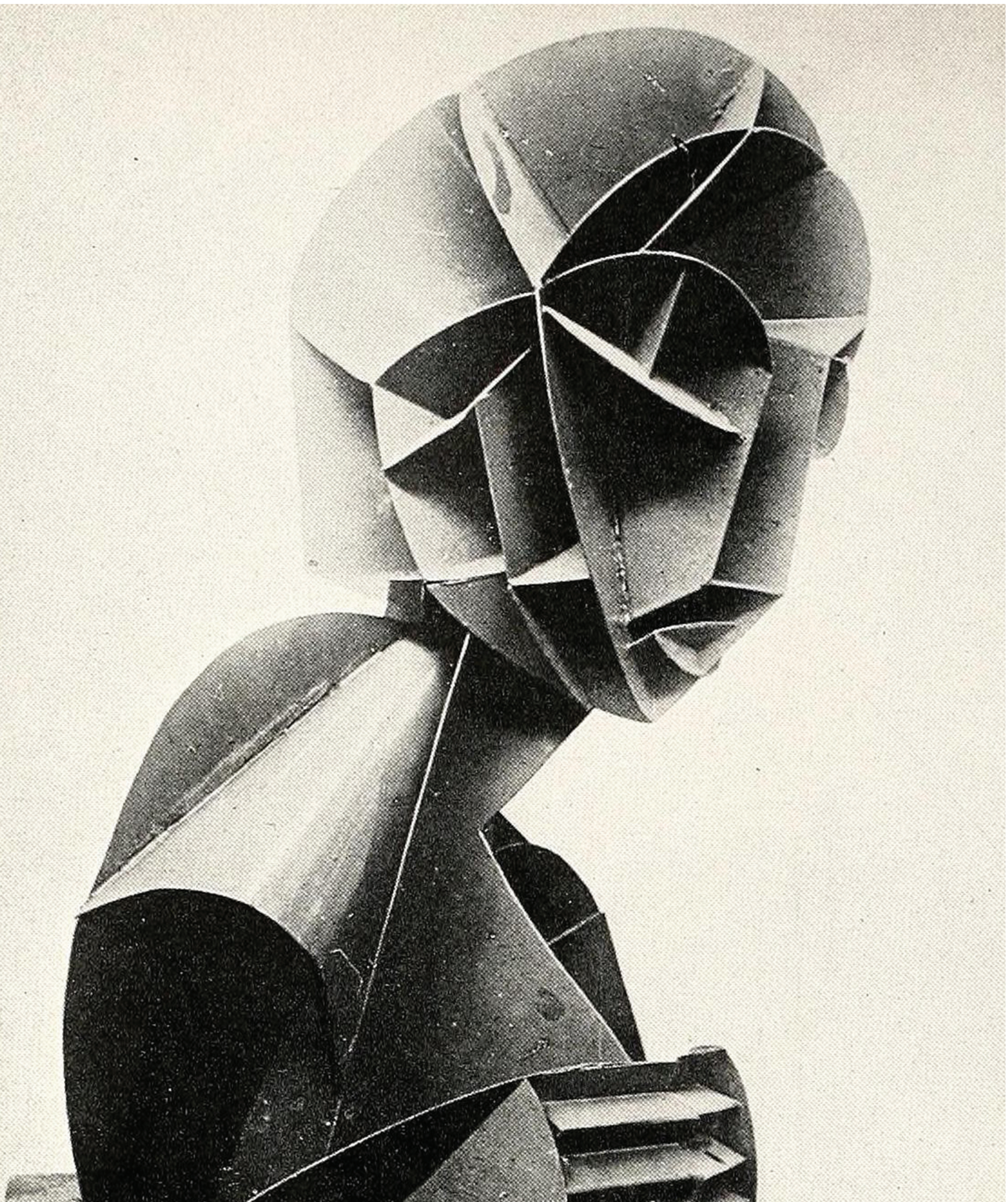
❖❖
إل ليسيتزكي،
بلا عنوان،
١٩١٩-١٩٢٠

## العمارة والمجسمات

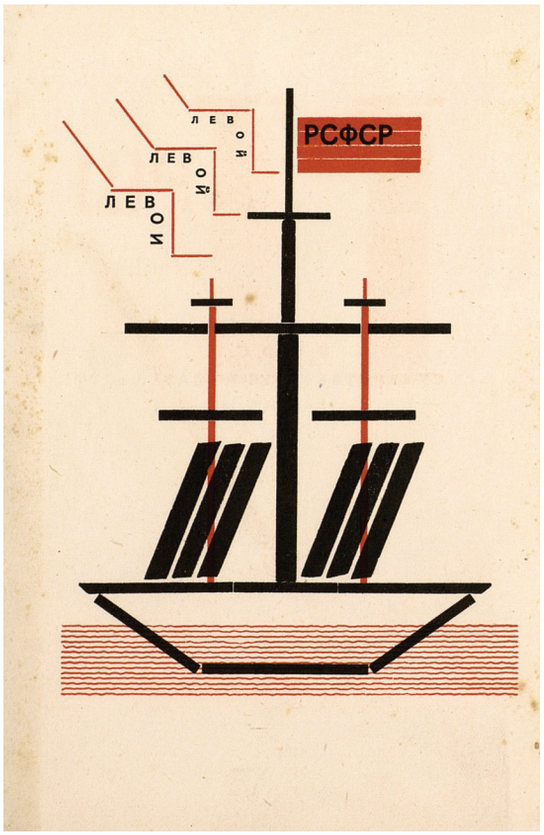


❖
نعوم غابو، نافورة
من بلاستيك،
١٩٣٧

❖
نعوم غابو، رأس
من بلاستيك،
١٩١٦



## تصميم













❖

تعاون بين
إل ليسيتزكي
ومایاكوفسكي
لكتاب شعر
«للصوت»، ١٩٢٣

❖

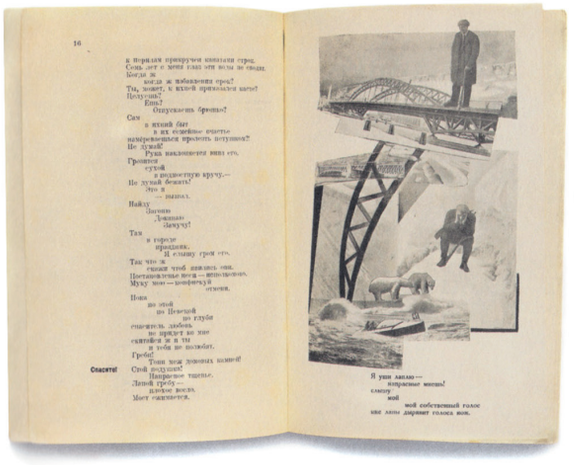
ألكسندر
رودشينكو،
أغلفة من أصل
عشرة من سلسلة
«Mess Mend» من
العام ١٩٢٤

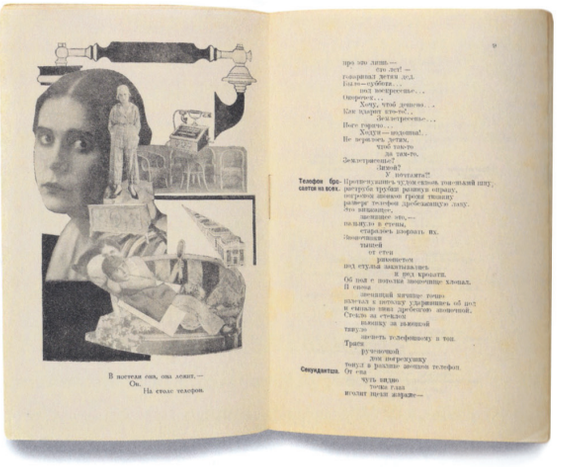

ДЖИМ ДОЛЛАР
МЕСС МЕНД
ВЫП 6
ЗА И ПРОТИВ
ТОРГОВ
СОГЛАШЕНИЕ
ГОСУДАРСТВЕННОЕ ИЗДАТЕЛЬСТВО
МОСКВА 1924

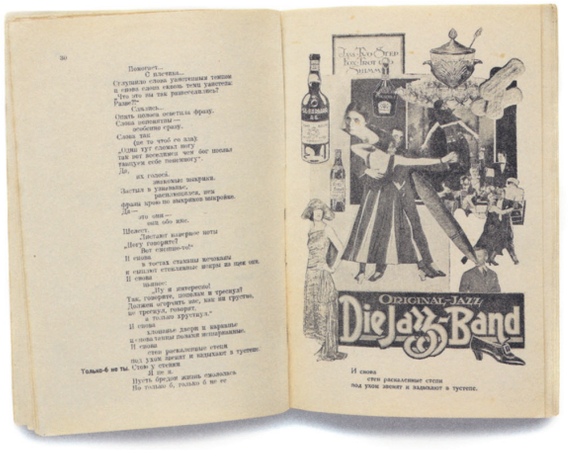

ДЖИМ ДОЛЛАР
МЕСС МЕНД
ВЫП 7
ЧЕРНАЯ РУКА
ГОСУДАРСТВЕННОЕ ИЗДАТЕЛЬСТВО
МОСКВА 1924

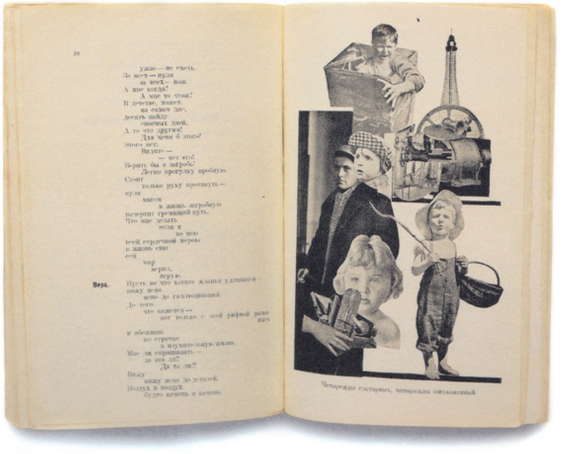

ДЖИМ ДОЛЛАР
МЕСС МЕНД
ВЫП 9
ЯНКИ ЕДУТ
ГОСУДАРСТВЕННОЕ ИЗДАТЕЛЬСТВО
МОСКВА 1924


ДЖИМ ДОЛЛАР
МЕСС МЕНД
ВЫП 10
ВЗРЫВ СОВЕТА
ГОСУДАРСТВЕННОЕ ИЗДАТЕЛЬСТВО
МОСКВА 1924







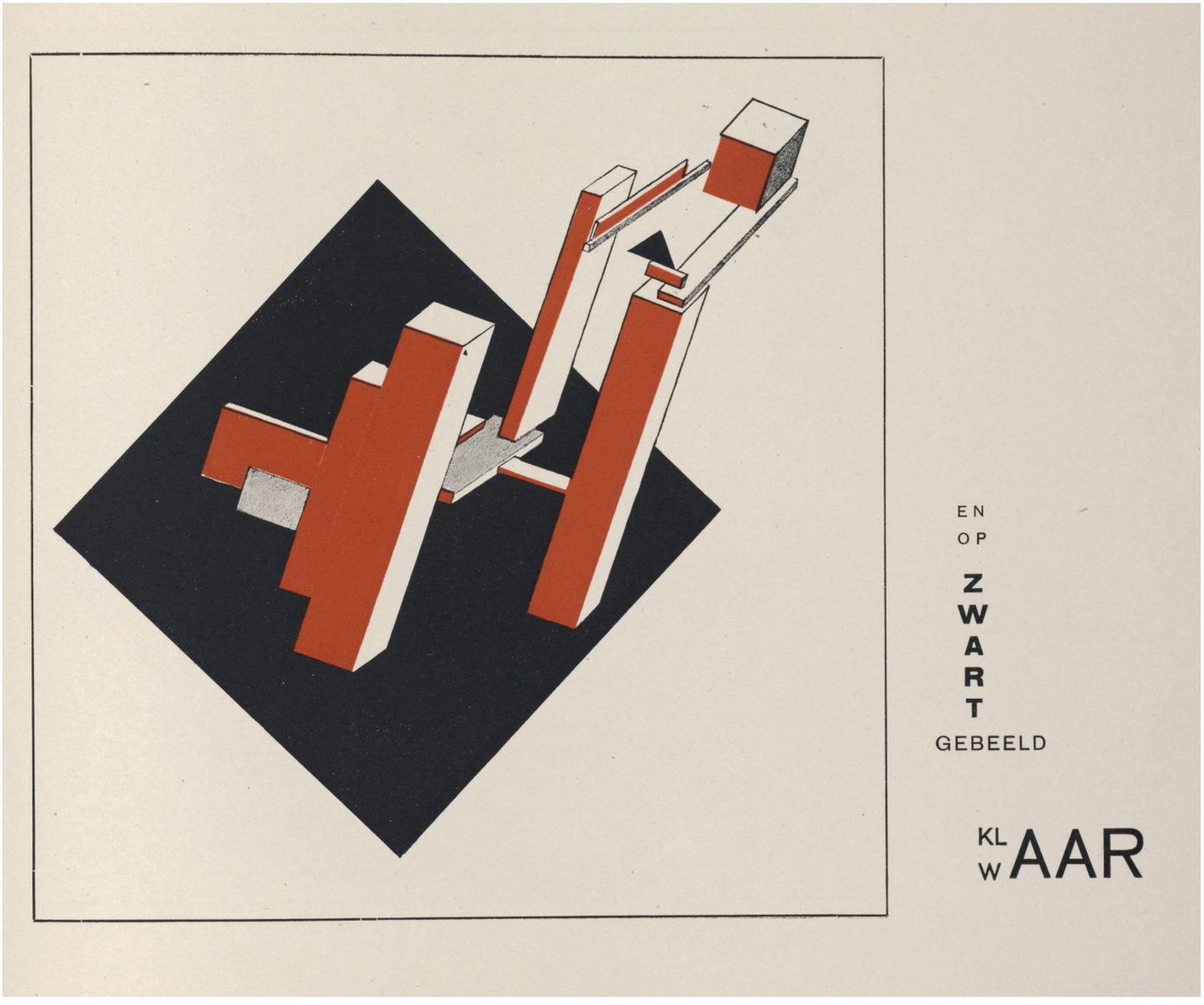


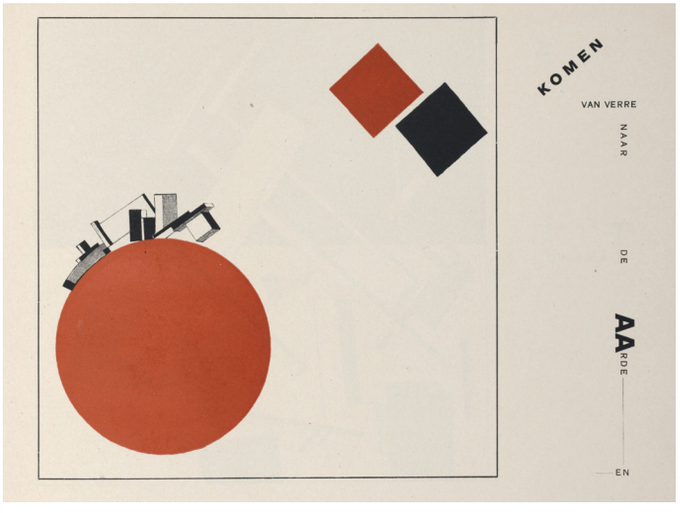
❖

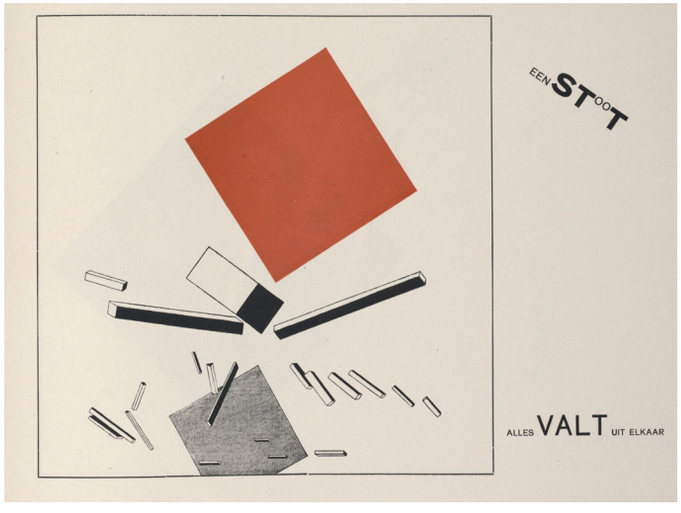
ألكساندر رودشينكو،
كتاب قصائد
لمایاكوفسكي من
العام ١٩٢٣

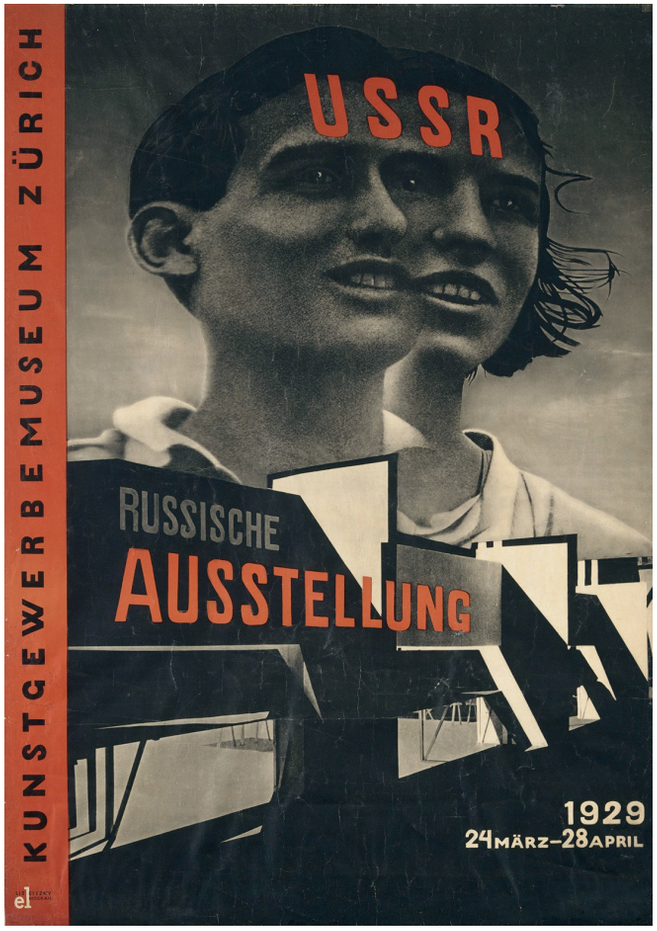
❖

إل ليسيتزكي،
«حوالي مربعين»،
١٩٢٢


EN
OP
ZWART
GEBEELD
KL
W AAR


KOMEN
VAN VERRE
NAAR
DE
AARDE
EN


EEN STOOT
ALLES VALT UIT ELKAAR







❖❖

ديميتري ستاخيفيتش مور، «هل تطوعت مع الجيش الأحمر»، ملصق من العام ١٩٢٠

❖❖

ملصق لإل ليسيتزكي من العام ١٩٣٠




♣
ألكسندر رودشينكو، «كتب رجاء! في كل فروع المعرفة»، ١٩٢٥



ملصق بنائي لفلاديمير ليبيديف،
«عامل يكنس المجرمين من
الأراضي الروسية»، ١٩٢٠



# نون القلم


١٧٠ **مذكّرات مالك الحزين!**
مريم حمّود

١٧٤ **أيقظتْني مخالبُ قطٍّ من ضَباب**
لآلي ميلدور

١٧٨ **عن المُهمَل والهامشي في روايات علي المقرّي**
جمال جبران

# مذكّرات مالك الحزين!

**مريم حمّود**

**ممثلة ومخرجة مسرحية، لبنان. درست في «جامعة القديس يوسف» ودرّست في «الجامعة اللبنانية الدولية»، بيروت. من أعمالها مسرحية «الميرم»، آذار/مارس ٢٠١٧.**

**مطلع تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٧ فوجئ الوسط الفنيّ في لبنان بوفاة الممثّلة والمخرجة المسرحيّة مريم حمّود عن ٣٢ سنة. وُلدت مريم في عكّار العتيقة، قضاء عكّار بلبنان، وظلّت عالقة بالطّفلة التي كانتها فيها وهي تعيش فطام الهجرة إلى بيروت. في العاصمة، درست المسرح ودرّست المسرح.**

**كان الموت قلقَ مريم الدائم، أنشأت مسرحيّتها «الميرم» حول جثة. وكانت العلاقة بين العنف والفنّ محور شغلها المسرحيّ. غادرتْنا وهي تعدّ مسرحيّة جديدة عن العنف في الحروب الأهليّة.**

**مع ذلك، كانت مريم العاصية ضاجّة بالحياة والمشاريع المسرحيّة والأحلام. وقد توفّيت خلال النّوم وهي تعدّ للسفر إلى كولن بألمانيا لمتابعة دراستها والزواج.**

**أسهمت مريم في «بدايات» بعددٍ من المقالات المتسلسلة لفتتْنا إلى موهبتها الواعدة في التخييل والكتابة، آخرها بعنوان «مذكّرات مالك الحزين» التي ننشرها في العدد.**

سيضيع منّي الليل إذا لم أروِه من وطأة هذه الشمس، ستذبل الأرض، وستجفّ روحي أكثر. سأرويه بسيلٍ ذهبيّ من ذكرياتٍ أحاول جمعها، تعليبها وتغليفها فهيَ هشّةٌ وقابلةٌ للكسر، كما هي روح الكائن الحيّ.

سأُلملم فُتات ظلّه وأنظّف الأرضَ بسوائل التطهير. سأرمّم أحشائي جميعها من بعد سفر التكوين، وحالما أنتهي سأطلب من والدتي إنجابي وتعليقي على الحائط الكلسيّ في الإطار البنفسجي. سأكون مبتسمةً هناك لا محالَ.

يوماً ما سأصير صغيرة. يوماً ما، سألعب ولن يكون لعبي تكتيكاً. يوماً ما سأسمّي اليوم.

سأنام على الفراش وأغرق بين السطح والقعر، ولن يكون هناك أيّ مناسبةٍ لمحاولة التقلّب، يطغى على اللّيل أحياناً حالٌ من التكفين.

يوماً ما سيمتدّ الليل حتى الصّباح، عندها فقط سأجهّز، سأحمل جعبتي وأغادر. عندها فقط سأترك ظلّي مسمّراً هنا، فمن دونه يتّسع مدى حريّتي!

يوماً ما سأنهي المقدّمات ولن أقطعها بالكثير من الأنين. لست أعتقد أنّني أستطيع متابعة الكتابة فالكلمات تؤلمني ومعدتِي تصرخ كأمّ تبكي أولادها وتزفّهم شهداء وتنادي «فداكَ يا سيّد! إنت بتأمر يا سيّد!». والسيّد مبسوط. إذاً سأذهب وأطبخ وأعود لأصير أكثر إنتاجيّة وأقلّ عدائيّة.

التهمتُ ما طبخت: صحنين كبيرين وكثيراً من السّموم المعلّبة تسبح في جسدي. قرّرتُ أن أسمّيه. سأسمّي جسدي اليوم: المالكَ الحزين.

**الدائرة في حضرة المقّدّس**

**«الله أكبر الله أكبر الله أكبر**
**لا إله إلا هو**
**الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً**
**الله أكبر الله أكبر الله أكبر ولله الحمد.»**

**ويليليش ويليليش ويليليشششششششش**
**«بكرا العيد ومنعيّد**
**مندبح بقرة سِي سيّد**
**سي سيّد ما عندو بقرة**
**مندبح بنتو هالشقرا،**

**سي سيّد ما عندو بنت شقرا**
**مندبح بنتو هالسمرا!»**

حالتي الجسديّة والذهنيّة ما قبل الأكل وما بعده تذكّرني بما قبل ١١ أيلول وما بعد بعد حيفا! كنتُ جائعة فسمعتُ أنين معدتي يقدّم أحشائي وليمة للسيّد، وحالما شبعت ذبحتُ ابنة سي سيّد، شقراء كانت أم سمراء. كيف نقدّم الذّبح على أنّه طقس احتفالٍ وانتصار؟ وهل بنات سي سيّد بقرات؟ من أبكيها أكثر، الشقراء أم السمراء؟

منعت نفسي من ترداد هذه الأغنية لشعوري الضّمني بمشاركة الحيّز العام، المجموعة الأكبر، بعمليّة قتلٍ جماعيّة وذلك منذ أن حفظتها من دون وعيٍ أو تحليل وأيٍّ نوعٍ من العبث الذي أمارسه في الآونة الأخيرة.

كان هذا منذ حوالي أربعة وعشرين عاماً. زمنٌ دائريٌّ لولبيٌّ عاصف مشمسٌ أحياناً وغزير المطر. مازال أبناء إخوتي يسيرون عصاباتٍ متحالفةً في الأزقّة ليزفّوا لنا العيد. ولمجرّد أنّه آتٍ ولأنّنا لا نستحقّ الابتهاج علناً من دون مقابل، سيذكّروننا بالشقراء، ومن بعدها السّمراء، والحمد لله أنّني حنطيّة. ولستُ أدري إن كان المجتمع يفرّق هنا بيني وبين البقرة. وللأمانة قد أكون شقراءَ الشّعر سمراءَ الجسد، وقد أغفلتْ تقاليدنا الشعبيّة الموروثة والمكتسبة، والنابعة من عدم فهم كتاب القرآن، غارقاً في عجزه عن مواكبة الـ«سولاريوم» والتشقير!

**يبدو أن الجميع مصر على تقليد الخلفاء. كل من في الأمة الإسلامية. قد ينعت التاريخ ما يحصل اليوم بأنه الأكثر همجية. وهو يتحدث عن حزب بربري ذكـــــــــــــــــوري.**

لا أحبّ فكرة الدائرة، لا يعجبني أنّ أطفالَ اليوم يردّدون ما اقتبسه جيلنا عمّن ألّفه الخلفاء. الاقتباس نعم وليس التكرار! شخصيّاً، اقتبستُ وعدلّتُ وطوّرتُ ولم أتوقّف آنذاك عند السّمراء فقط، بل شعرتُ بالعنصريّة تتدفّق من داخلي وبفورة غضبٍ ورفض. ذبحتُ الحمراء وذبحتُ الزوجة وتوقفتُ قربَ جثّتيهما ساكنةً متسائلةً مستغربة: يبدو أنّ منزل سي السيّد خالٍ من الذّكورة، من الثيران، ربّما كلّهم واقفون في جبهات القتال وربّما ذُبحوا في مناسباتٍ سابقة، ربّما لا يستطيع إنجابهم فلعن زوجته لذلك وذبحها يوم العيد ليتزوّج غيرها ليزيّن عرشه ويغطّي عجزه ويسنّ سكّينه!

يسنّ سكّينَه على الزّجاج: صوتٌ تتحطّم له الأسنان. وأكثر من اثني عشر شخصاً يعضّون على السنتهم وهم يحضُرون كيف يذبح والدي عنق الديك، على الطّريقة الحلال. لأنّي شفيت، والدّيك كان قد كبر لدينا، طبخَتْه أمّي بعد أن أطعمتُه، فلم أستطِع أكله. ومن أكل منه اشتكى مذاقَه: قاسٍ ومرّ.

اثنا عشر شخصاً حضروا القتل متفرّجين. أشعر اليوم أنّ يعي كلمة «حلال» يأتي بالشّهادة، والشّهادة الحقّ لا تأتي إلّا بحضور مراسم السّفك فالتأبين فالتّقييم.

لم أستطع الاعتذار من الدّيك، كلب الحيّ عند المسلمين. كنتُ طفلةً منشغلةً بتقليد «جان كلود فاندام»، طفلةً أحاول فسخ قدميّ عند المغيب على أسطح الطّين والدّيكُ قربي والبقرةُ تحتي في الطابق الأسفل، وأنا أحاول التّنفّس بعمق. ومنذ ذلك الحين يأتي إليّ صوتُ البشر كحَفّ السّكّين.

يبدو أنّ الجميع مصرٌّ على تقليد الخلفاء، كلّ من في الأمّة الإسلاميّة. قد ينْعت التاريخ ما يحصل اليوم بأنّه الأكثر همجيّة، وهو يتحدّث عن حزبٍ بربريٍّ ذكوريّ. وأنا، أكثر ما يؤلمني اليوم رؤية نسائه جميعاً كوالدتي ورجالِه كأبي وأبناء ضيعتي، كلّهم مدانون باستخدام الدّين ذريعةً لجهلهم، وأكثر من ذلك.

لم أعتقد بتاتاً أنّني سأتطرّق إلى هذه الفقرة من التاريخ، ربّما هي تداعيات العيد! كم أكره العيد! وكم قاطعته مذ بلغتُ العاشرة وحوّلتُ عادةَ شراء الملابس الجديدة - ثياب العيد - إلى ملابس نوم. انتقيتُ من خزانتي «البيجاما الممزّعة»، تمسّكتُ بها كي لا ترغمني والدتي على تقديم القهوة، والجلوس، طفلة أنا، بين الكبار. لا مساحةَ للكلام والحوار والمشاركة، بل على العكس، إجبارٌ على تقبّل النّقد بابتسامة، فرضى الله من رضى الوالدين أوّلاً.

على الأقلّ يمكننا تناول الطعام علناً. لم نعد نسرق اللقمة ونشرب اللبن من بعده. نفعلها ونمدّ لساننا للآخر مستعطفين منه قبول صيامنا، فإذا اللسان أبيض قُبل صيامنا ولله الحمد.

أمّا العيد الكبير «الأضحى»، عيد الأضحى، اسمه أضحى. باسم الرحمن الرحيم يذبحون الخرفان التي تتوزّع في الشوارع تنتظر ذبحها. لا أدري إن كانوا تذكّروا إطعامها وتقديم المياه لها، أم أنّها نفقتْ جائعة.

الخرفان عندنا تموت. هكذا، كلّ واحد يرى صديقه يموت أمامه ويبكي، ملجوماً بحبل يجثو قرب جثثٍ من سبقَه، وأربعة رجالٍ يتفرّجون، وغالباً ما يتشارك الرّجال الوقفة الواحدة. يقفون جميعاً على جهةٍ واحدةٍ من الحوض، الثّقلُ على قدمٍ واحدة، وتتدلّى القدم الثّانية، وتعصرُ اليدُ الخصرَ. إنّها وقفة التأمّل والتّنظير.

في المقابل يقفُ الخروف كالإله، مرعوباً، نعم، وشاهداً. يعلّق، يُصلَب، يؤكل، يُنسى لنعيدَ صلبَه في ملحمةٍ أخرى أكثر اتّساخاً من ملحمة هذا العام.

كما يصوم الإله عن حبّ البشر، يصومون هنا عن الطعام. كما تنقضّ الطبيعة بكوارثها على ضعف البشر، يُذبحون هنا ويرمون ما بقي كمكافأةٍ على صيامهم، فإذا ما كافأهم ربّهم كافؤوا أنفسهم وأخذوا منه حقّهم. وقد خلق الله كلّ شيءٍ من العدم. «خلقنا أصلا عدم».

**كما يصوم الإله عن حب البشر. يصومـــــــــــــــــون هنا عن الطعام. كما تنقض الطبيعة بكوارثها على ضعف البشر. يذبحـــــــــــــــــون هنا ويرمون ما بقي كمكافأة على صيامهم. فإذا ما كافأهم ربهم كافؤوا أنفسهم وأخذوا منه حقهم.**

العامَ الماضي قدّم «داعش» ذبيحةً إلهيّة قوامها ستّة عشر شاباً من دير الزور. هذا العام سلخ العرب أنفسهم وذبحوا بعضهم بعضاً ونكّلوا وتوكّلوا، لكنّ الدم لم يصل حدّ الثمر، وما دام النخل عامراً، فستبقى الأمّة الإسلاميّة أبيّة وسيبقى المنْسف على المائدة والذّبيحة فوقَه، سواء كانت سوريّةً أم يمنيّة أم قطريّة أم لبنانيّة أم مصريّة. خرفان في قطعان والكلب واحد، بجسدٍ واحد. لكنّ للجسد رؤوساً كثيرة ولا راع ولا جرس.

### الدائرة في حضرة المغيب

أخيراً فرشتُ المنزل الذي استأجرته. لأهربَ من صخب المدينة، استأجرتُه في عمقها.

أخيراً رتّبتُه وفرضتُ هويّتي على جدرانه.

أخيراً صار عندي راديو قديم، قطّتان، فونوغراف، طاولة طعامٍ من خشبٍ قويّ.

أخيراً رسمتُ جسدَ امرأة عارياً على الحائط وتمنّيتُ لو يرسم العري على كلّ ضريح.

أخيراً صار عندي سريرٌ كبير وغرفة للضّيافة وحمّامٌ شخصيّ وآخر عموميّ.

أخيراً ملأتُ لائحةَ الإنجازات لهذا العام وحان موعد أذان المغيب.

لم يعد للمغيب أيّ شأن فنحنُ غير صائمين. لم يعد موعدَ الشّواء ولا الأكل ولا الشوارع الفارغة. صار ذكرى، فالمغيبُ ينتفض بريش سلطنته شهراً واحداً ومن بعدها يصمت لعامٍ كامل. تماماً كما هو حال العالم الافتراضيّ، يثورون كلّ يومين على موضوعٍ واحد، ليسكتوا من بعدها، ثمّ يعودون للانتفاضة على موضوعٍ جديد.

إذا ما نظرنا بتمعّنٍ إلى هذا الإيقاع لوجدنا أنّ اليوم الواحد الافتراضيّ عامٌ من التحضير للانتفاضة، وإن انتقلت الانتفاضة من الافتراضيّ للحقيقيّ لهدمنا العامَ الحقيقيّ بيوم واحدٍ من العالم الافتراضيّ!

هكذا فقط تدرك أنّكَ وماضيك وأفكارك وتحليلاتك ومحاولاتك وثورتك رهن سرعة الإنترنت بحسب عدد «اللايكات»، فيما إذا ضربتَ الأرض وجدتَ أنّكَ وحيد، أنتَ وروحك ومشروعك وحيدون معاً في حضرة المغيب.

ماذا سآخذ معي إذاً؟ ماذا سأنتقي من العالم الحقيقيّ قبل أن تصير ذكراه افتراضيّة؟ ربّما سأنتقي قطعة النيلون البلاستيكيّ الصفراء التي تغلّف حبوب الـ«بونبون» البنّيّة، تلك الّتي تعلك بسرعة. سآخذ واحدةً منها، فهي كانت تشكّل أصلاً بالنسبة لي بصفارها وبكلّ ما أراه خلالها، كلّ مرّة حملتها ووضعتها على عينيّ، ذهبَ المغيب! ربّما إذا واجهتُ خوفَ النسيان والتلاشي ما خفتُ من الزوال.

سأنتقي أيضاً كاميرا الحجّ، تلك النقطة الصغيرة السحريّة التي تكاد تُدخلُ عينيك فيها فترى أمّة محمد تدور حول الكعبة وبعضَ الجمال وبعضَ النخيل وجبلَ عرفات وبشراً يعذّبون إبليس، وإبليس هو الوحيد الافتراضيّ خارج الصور. تتّسع كلّ هذه الالوان ببؤبؤ عين في مهبّ الريح.

ربّما سأنتقي ثيابي جميعها وبعضَ الكتب والراديو القديم. الأسطوانات؟ لا لا! ربّما أقصّ الجدار وآخذ الجسدَ العاري؟

لماذا كلّما اشتريتُ غرضاً في السّابق أحسستُ بالأمان وكلّما تخلّصتُ من واحدٍ منها اليوم شعرتُ بالحرّية؟ لطالما تساءلت: لماذا نطيل شَعرنا، نحن السيّدات، وعندما فقط يصير طويلاً نقصّه لإعادة تطويله؟ في الحقيقة كان لا بدّ من قصّ الدائرة واللعب بزواياها ومزاياها.



قصصتُ دائرتي الخاصّة وإذ بالعالم كلّه دائريٌّ من حولي. تخلّصتُ من دائرتي فوجدتُني عالقةً بظلالي في دوائر الآخرين: دوائر في دوائر. عندما تبسط دائرتك ترى الدّوائر الافتراضيّة المقنّعة. عندما تلمّع دائرتك لا ترى شيئاً فقدْ أهلكَ اللّمعانُ عينيك.

**عندما كنت صغيرة استعنت بالبلاستيك الأصفر لأرى العالم أكثر جمالا وشردت باختراعي زمنا فالتصق البلاستيكي الأصفر بعيني حتى ذاب فيهما بفعل الحساسية المفرطة.**

عندما كنتُ صغيرةً استعنتُ بالبلاستيك الأصفر لأرى العالم أكثر جمالاً وشردتُ باختراعي زمناً فالتصق البلاستيكي الأصفر بعينيّ حتّى ذاب فيهما بفعل الحساسيّة المفرطة. بكيت البلاستيك الأصفر من فترة وجيزة وإذ لدموعي رائحة كيميائيّة!

فقط عندها تنشّقتُ العالمَ الحقيقيّ، وإذا بي أعود لأتعلّق بكلّ غرض في منزلي وأتنازل عنه بحرّيّة وأشعر بثقل الدوائر فالنّظام الرأسماليّ قائمٌ على وضعنا في الدّوائر، ضمن الهرميّة، دوائر في هرم، والرّأس واحد، ولا كلب يحرسنا ولا جرس سوى واحد يدقّ عند الموت فقط ليختم بذلك إحدى الدّوائر.

فيما أبحثُ غريزيّاً عمّن بسط دائرته، أبحث عنه وأعرف أنّنا إذا تكاثرنا، مجدّداً وأننا سنعلق بالكارثة - الدائرة!

كم تؤثّر الموسيقى التي أسمعها الآن في كتابتي. أشعر أنّني حزينة. قيل لي في الفصل السّابق إنني «نقّاقة». أعجبني هذا الكلام. ضحكت إذ كان الرّأي صائباً مع أنّني لم أكن أستمع لأغاني هاني شاكر أثناء الكتابة على الإطلاق. ربّما سأتطرّق إلى هاني في الفصول اللاحقة، ولكن قبل المغادرة أستأذنكم و«بما إنّو العيد قرّب»:

**«إيه ويها وعملنا بامية (تلفظ بامي):**
**إيه ويها وطلعت مقوامة**
**إيه ويها قلنا عن العيد مو حلو**
**إيه ويها طلع أحلى من راغب علامة**
**«تلفظ علامي» ويلييش».**

(يتبع)

# أيقظتْني مخالبُ قطٍّ من ضَباب


## لالي ميلدور

شاعرة وكاتبة وصحافيّة تركيّة، مواليد ١٩٦٥، من مجموعاتها الشعريّة «ابنة المطر» و«موسيقى الماء» ولها كتاب نثري «بيزنطية».

## ترجمة خالد النجار

شاعر ومترجم من تونس. من مؤلفاته «سراج الرّعاة» وهو سلسلة حوارات مع كتّاب وشعراء عالميّين.


لالي التي جرّبت الحياة كثيراً، غمرت نفسها في العالم، مضتْ بعيداً في مغامرة الروح بلا خوف أو وجل. هي شخصيّة نيتشويّة بالسليقة، من أولئك الذين غمسوا أقدامهم في طين الأرض ومضوْا بعيداً في معانقة الحياة. وهي ليست من أولئك التجريديّين المنظّرين، أصحاب النظريّات الواضحة التي تمضي بهم إلى الموت الشعريّ.

هي أيضاً من النّوادر بين شعراء العالم الثالث ممّن أفْلتوا، رغم قربهم من الماركسيّة، من أسْر الأيديولوجيا ومضَتْ إلى ذاك الالتزام الكيانيّ الشامل بالعالم وبالحياة. أفْلتَتْ بحدْسها الشعريّ من الاطمئنان الذي يستشعرُه أولئك المؤدلجون ذوو القناعات والأفكار النهائيّة التي لا يتطرّق إليها الشكّ، الماسكون بالحقيقة التي تمضي بهم إلى ضمور قشرة المخّ.

شعرُها غابة متحوّلة الأضواء، غابةٌ غامضةٌ أو ساحة غامضةٌ، كما تقول هي، أسرتْها من يوم دخلتْها. نتلقّى شعرها حدساً كالموسيقى نحسّها في كياننا بعمق دون أن نحيط بكنْهها. سردها واقعٌ حلميّ أو قلمُ حلم واقعيّ. صوَرها الشعريّة تمضي منسابة بين الواقع والخيال، هي صوَرٌ مدهشة ومتحوّلة بيسْر بين عوالم ثقافيّة متباعدة من أشعّة إكس والليزر إلى ميثولوجيّات الشّمال.

تبدو كما لو أنّها في تواصل كهرومغناطيسيّ مع نسائها الممطرات كما تصفهنّ. نساؤها الغامضاتُ آلهةٌ أسطوريّة وكاهناتٌ وقدّيساتٌ مثل ميلوزين إلهةِ ضباب البحر والقدّيسة هيلويز وإيريس العذراء الميثولوجيّة ذات الأجنحة الملوّنة والتي نشأ قوس قزح من أثر أقدامها وهي نازلةٌ من الأوليمب.

لكنْ من هي لالي ميلدور؟ ومن أين جاءت هذه الشاعرةُ المتفرّدة بين أبناء جيلها؟ وُلدتْ لالي في مدينة أيدن ونشأت في إسطنبول. طوّفت في القارّات الخمس: هامتْ في أوروبا وعاشت في بلجيكا تجربة زواج أسقطتْها في وَهدة على حافّة المرض النفسيّ، تجربة كان لها تأثير حاسم في مستقبل حياتها. وقصيدة «أرض النّيران» شهادة شعريّة لهذه الحقبة.

درست لالي تخصّصات متفرّقة وفي مدُن متباعدة في فرنسا وإنكلترا وأميركا. بدأت بالهندسة وانتقلت إلى الآداب، كما درست الاقتصاد والبيولوجيا وعلم اجتماع الثقافة والفنّ، وهي كثيراً ما تضمّن أشعارَها مصطلحاتٍ من العلوم من كيمياء وفيزياء ورياضيّات. كما عملت فترة من حياتها في الصحافة وكتبت مقالاتٍ في التّنظير الشعريّ.

واليوم تعتبر لالي من أهمّ أصوات الشعر التركيّ الحديث. لها عشرة مجاميع شعريّة وكتابٌ نثريٌّ واحدٌ بعنوان «بيزنطيّة». نُقل شعرُها إلى لغات عدّة منها مختارات «موسيقى الماء» إلى الإنكليزيّة وقد صدر في دبلن، ولها في الفرنسيّة مجموعتان «هكذا تتكلّم بنت المطر» وثانية بعنوان «ذهبت كثيراً لصيد أيلة».

من شعرائها الأثيرين رامبو، ريلكة، إيزرا باوند وت. س. إليوت. تحترف الكتابة وتعيش في إسطنبول.

خالد النّجار

## في الزمن الجميل

لا تحدّثوني عن الحبّ. فقد بكيت هذه الكلمة.
هناك مسافة تحطّمني. بقايا الرّماد تلك والحروق
التي كنتُ قد خبزْتها في الجحيم
على كلّ حال ها أنا أحمل الآن قفّازاتٍ من التويل البنفسجيّ
قلت في داخل كلّ امرأة استعارُ نجميّ عظيم
وأنا أنام بين صورتين واحدة تبنيني والأخرى تهدمني
ولا أعرف إلى الآن أيّهما تهدمني. بيد أنّ ذاك الذي يبنيني
تجلّى لي في ضوء السّنوات. تجلّى بين جزر
المرجان والعقيق والطواويس وزيّن مدينتي الخربة مثل بجعة
فضيّة. وبيتي بدونه خاوٍ الآن

## موسيقى الماء

ننام في الزجاج. الفراشات/ العقارب
تتطاير من حولي ها هي تقترب منّي الآن.
رائحة الكلوروفيل
مع ذلك لا شيء يهمّ. والآن لم يعدْ هناك شيء.
في أوريسا قيثارةٌ أخرى تعزف مثل ذكرى
تسيل كالماء. أيقظتْني مخالب القطّ
قطّ من ضباب. في جلبة كريستاليّة

موت فراشة من زجاج. أهو قلبه هو؟
أم قلبي أنا؟ هناك حيث تتلاقى المحيطات
طائر نحام يصيح، مثل بداهة، لا يوجد شيء.
قلت لا يو جد شيء. زهور الأوركيدة / البنفسج / الفهود
تعجّ من حولنا ونحن ننام في كتَلٍ من الزّجاج

أيّتها العاصفةُ البعيدة
أنا خائفة
منك
خائفة من غيابك
من تقلّبك الذي نعدّه أماناً
أيّتها العاصفة البعيدة
لا أفهم كيف يكون
هذا البُعد الهَشّ قريباً أيضاً
وهو في الآن صورة لقالِقَ طائرة
وليزر
معلن للزّوابع التي تصطحبك

هذه الحياة التي بلا أمل حيث لا تُسكب
أيّ دمعة تجعلني أقول بالأبيض
بياضاً شديد النّعومة
إنّ مياههم تكسر المرآة
إلى شظايا زجاجيّة

وفي داخلي حركة مكّوكيّة لسيول صغيرة وشقوق

عندما تأتي
ينهار كلُّ شيء ويتكسّر
وعبْر الأبواب
يجيء طوفان مفعمٌ بكتَل الجليد والزّجاج المكسور
وفي الجدران طقطقة حلميّات
وفي الرّدهة تأثير دوبلر

عشق رجل
يقترب منك بنعومة
مثل دخان سيجارة

أيّها الليثيوم غبارك الذهبيّ علق بوجهي

أحمل إليك مرآةً فولاذيّةً ذات حواف حادّة أيّتها
العاصفة البعيدة
لآخذ شكلك الخاصّ
ومن أعماقك آخذ قواك الزجاجيّة
ذاك أنّ للكبرياء أيضاً شبيهها

أيّتها العاصفة البعيدة
سأكتبك يوماً
وستكون هناك مرايا ثقيلة
لا تعكس سواك أنت
وجمال كهربائيّ
يجرح الأذنيَن بالبرافين

سأكتبك يوماً
دون أن أنسى أنّه
لا بدّ من الوقت لجسدي البائس
حتى يتهيّأ للبروق
سأسجّل ذاك الغبار الذي بلا بُقع
شرارة الغبار تلك
ذاك البركان الذي في الجزيرة المتجمّدة

...علينا ألّا ننتظر أبداً
ها هي ساعة الارتطام بين شبحَي باخرتين هادئتين

أنام ملتحفة بدرعي
بيد أنّي وفي الصباح أجد حربةً هنا في قلبي

أيّتها العاصفة البعيدة
أقولها لك للمرّة الأخيرة
صباح الليالي سوف يأتي
كصباح حيث
لن أجد في فراشي نبيذ جزيرة لايت
ولكنْ مثل نهر يفيض على ضفافه
سيكفّ قلبي حينئذ عن النبض

وفي سمعك فقط سيستمرّ ذاك الحفيف
لأجنحة غادرت لئلّا تعود.

أفرّ من نارك الباردة
التي بسببها تتحوّل ذاكرتك إلى جليد
طامرة هموم قلب نابض
باخرة تتحوّل إلى كرة نار

وكلّ ما كان تحوّل الآن إلى بقايا متحجّرة

أحياناً أفكّر أيضاً:
ما الذي بقي ممّا كنته؟
أطراف الأعصاب التالفة
الشرايين المشوّهة
وربّما ساق خشبيّة

بقيت صورة بجعة ميتة في الذاكرة

وفي داخلي هناك مدينة وكلّ نجومها لا تزال مطفأة

يا أورسالابندة!

إنّه طائر البطريق وقد انبثق من الدخان
في لون الماء نهاية الكآبة
ومن الممكن أيضاً
أن يتشكّل. فيما بيننا طبقاتٌ من السمّ
...ذاك الرماد الأبيض هو الحقد

الفارس الجنَويّ أندريا دوريا
مهندس متذبذب حول تعارض المرأة مع الرّجل
تطلّع إليه هو الآن مدفون تحت الرمال
ومتى تكون هناك هزّة مستمرّة

تكون له لحظتها طاقة مرعبة



تُحدث زلزالاً
شيئاً مثل الجزيئات الذرّيّة

مياهٌ تُفرغ بالشّطف موجاتٍ من العواطف
أحياناً إن كانت لا تزال تسجّل بعض الهزّات
ذاك الصدام الذي يذرع حدود الألم الطويلة
يسحبه الإنسان نحو التاريخ

---

شيءٌ مريبٌ يتعفّن
كائناتٌ باردةٌ تخترق العظم
نقطة الصّفر فوق خرائط الألم
موت من الداخل رقصةٌ جنائزيّة
إيقاع معدنيّ رقص مروّع
وأنا أحمل
حول خصري نطاقاً أسود من المجهول

---

هي حربٌ داخلَ الحروب
حرب المرأة والرجُل
الكراهيةُ تقول تراجعْ تراجعْ
والحبُّ يقول اقترب اقترب
أنا حرب بحريّة

لتكنْ هذه الذّكرياتُ التي لا تزال طافية فوق أشعّة غاما
صادرة عنك

# عن المُهمَل والهامشي في روايات علي المقرّي

**جمال جبران**

**كاتب وصحافي، اليمن. من أعماله «كتاب محمد»، ٢٠١٦.**

شهدت الساحة الأدبيّة اليمنيّة، خلال السنوات العشر الأخيرة طفرة هائلة ملحوظة في الإنتاج السرديّ، جانب الرواية على وجه الخصوص. وحصل ذلك عبر كميّة غير قليلة من الأعمال الروائيّة أتت من خلال كُتّاب رواية بالأساس أو من خلال كُتّاب عُرف عنهم وأصدروا أكثر من مجموعة قصصيّة لكنّهم التفتوا بصورة كليّة إلى الرواية وأصدروا عدداً منها. كما يمكن الانتباه إلى تجربة أخرى تشكّلت على نحو بارز بسبب انتقال أصحابها من الشعر، ولهم إصدارات عديدة مشهودة محليّاً وعربيّاً وتمّت ترجمتهم بشكل جيّد إلى أكثر من لغة أجنبية، لكنّهم دخلوا، على نحو فجائيٍّ منطقة الرواية بقوّة وأصدروا أكثر من عمل روائيّ وعبْر دور نشر عربيّة كبيرة.

في حالة الذين انتقلوا من إنتاج القصّة القصيرة إلى الرواية مثال وجدي الأهدل وأحمد زين (المقيم في المملكة العربيّة السعوديّة)، ومحمّد الغربي عمران ونادية الكوكباني وياسر عبد الباقي وبشرى المقطري، يمكن هنا إدراك السبب في القول الشهير المعلن بأنّ فعل كتابة القصّة القصيرة ما هو إلّا تمرين أوّليّ لكتابة الرواية. لكنْ ماذا يمكن القول حول من ترك كتابة الشعر وإصداره وانتقل إلى الرواية مثال الشاعر مروان الغفوري (الخزرجي، دار أزمنة - عمّان)، الشاعرة نبيلة الزبير (زوج حذاء لعائشة - دار الساقي - بيروت) والشاعر علي المقرّي (طعم أسود، رائحة سوداء؛ اليهودي الحالي؛ حرمة، وجميعها من دار الساقي - بيروت). هل يمكن هنا، لتبرير ما حدث من انتقال، الحديث عن الانتقال الكبير الذي يفعله شعراء كبار نحو الرواية باعتبارها صارت موضة العصر الحديث واللافتة الأكبر على النطاق الأدبيّ في العالم كلّه والمنطقة العربيّة على وجه الخصوص؟ ويمكن هنا التوقّف عند حالتين عربيّتين تتمثّلان في اللبنانيّين عبّاس بيضون وعبده وازن، حيث أصدر بيضون حتى الآن ثلاث روايات في حين أصدر وازن روايتين.

لكن مع هذا قد يبدو أمر محاولة تفسير ما حدث غير ذي أهمّيّة كبيرة، فما يهمّ في نهاية الأمر هو القيمة التي أضافتها تلك الانتقالات من عدمها على صعيد إثراء المشهد الروائيّ اليمنيّ وتأهيله لكي يبدو قادراً على فعل تمثيل جيّد لهذا الأدب على مستوى المشهد الروائيّ العربيّ. كذلك وقبل كلّ شيء فعله إضافة ملحوظة ومختلفة على صعيد الرواية اليمنيّة ذاتها ومغايرتها لما سبق إنتاجه عبر أسماء الرواية اليمنيّة الكبار مثال زيد مطيع دمّاج أو محمّد عبد الولي.

### حالة علي المقرّي

يبدو الكاتب علي المقرّي حالة ثريّة يمكن الارتكاز عليها لتشكيل لوحة مكثفّة الألوان تشير باتّجاه إحداث تغيير واضح التأثير في صيغة الرواية اليمنيّة. لقد خرج المقرّي من تعليم علميّ متوسّط لاقى بسببه وظيفة حكوميّة لكن ما لبث أن تركها وتفرّغ للكتابة. اشتغل في الصحافة التي كان قد بدأها عبر المراسلة ليصبح بعدها، ومع مرور الوقت أحد أكبر الأسماء اليمنيّة العاملة في مجال التحرير الثّقافي في الصحف المحليّة. وإلى هذا ساهم المقرّي في الكتابة الصحافيّة النقديّة للأعمال الأدبيّة العربيّة الصادرة حديثاً وقتها، وكانت تصله بحكم علاقاته الواسعة مع عدد غير قليل من الأسماء العربيّة الشهيرة. وبذلك ظهر ما كان يفعله المقرّي كتابةً كحلقة وصل بين القارئ المحلّيّ وبين ما يحدث خارج اليمن من إصدارات أدبيّة وفكريّة على حدٍّ سواء.

لكنْ ما لبث أن أعطى علي المقرّي وقته كاملاً لإنتاج كتابٍ بحثيّ توثيقيّ حمل عنوان «الخمر والنبيذ في

الإسلام». في هذا الكتاب «يتناول مسألة الخمر والنبيذ في الإسلام، من خلال النّصوص القرآنيّة والمصادر والمراجع التاريخيّة، ويعرض لاختلاف الفقهاء والباحثين في مسألة تحريم الخمر... الكتاب يبدأ بتعريف الخمر والنبيذ، مروراً بمكانة الخمر قبل الإسلام وصولاً إلى تناول الخمر والمجون في العصرين الأمويّ والعبّاسيّ. واللافت أنّ المؤلّف يرى في الدّين جوهره، إعمال العقل والفكر والعلم. وهو بذلك أقرب إلى الدّين من حرّاسه المزعومين» حيث «لا تكاد سورة في القرآن تخلو من الدّعوة إلى التعقّل والتعلّم والتفكّر».

سبّب له هذا الكتاب إزعاجاً كبيراً ومضايقات كثيرة على مستوى أطراف لم يرُقْها أن يتطرّق هو أو غيره إلى موضوع كهذا يُعتبر فكرةً مفروغاً منها ولا داعي إلى الإضافات أو الشروح والتأويلات. وحصل هذا كلّه بسبب ما أتى به الكتاب من أقوال مسكوتٍ عنها بشأن الخمر وشؤونه في مجتمع غير متسامح مع فكرة مثل هذه. لكن يمكن اعتبار هذا الكتاب نقطة في سجلّ علي المقرّي الساعي نحو التطرّق إلى غابة الأفكار المسكوت عنها والقصص المُهملة التي لا يتجنّب كثيرون الخوض فيها. وسيظهر هذا الأمر لاحقاً عندما يخرج لنا، على التوالي، بأعماله الروائيّة الثلاثة التي تأخذ من فكرة المُهمل والمهمّش سنداً لها وقوّة وزاداً لتسجيل هذه السرديّات المشاكسة.

**«طعم أسود، رائحة سوداء»**

لم يهبط علي المقرّي على الرواية والكتابة عموماً من طبقة مرتفعة ومنعزلة بعيدة عن القاع. بل جاء من القاع ذاته، استطاع تعبئة ذاكرته وخزانته الشخصيّة بتفاصيل كانت له بعد سنوات لاحقة زاداً جيّداً لإنتاج رواية حقيقيّة تحكي عن طبقة القاع تلك وتسرد تفاصيلها وألوانها ومناخاتها بلسان الشاهد كليّ العلم العارف بماهيّة ما سوف يقوم بحكايته لأنّه قد عُجن بداخل تلك التفاصيل وأصبح عليماً بسرّ تلك الخامة وعناصرها التي سيصبّها في قالب روائيّ في أوّل أعماله «طعم أسود، رائحة سوداء». وهي الرواية التي أحدث فيها خضّة قويّة في الوعي الجمعيّ الذي اكتشف أنّه، من خلال رواية المقرّي إنّما يعيد اكتشاف تلك البيئة التي تعيش بالقرب منه لكنّه لا يعلم عنها شيئاً. أو أنّه وعي جمعيّ، بتواطؤ مشترك، تعامل مع تلك الطبقة الاجتماعيّة الأدنى (طبقة الأخدام ذوات البشرة السوداء) كأنّهم كائنات غير موجودة أصلاً أو غير مرئيّة بالعين المجرّدة. أو، بتعبيرٍ أدقّ، إنه وعي جمعيّ تعامل مع طبقة الأخدام مثلما جرى التعامل مع الجنون في العصر الكلاسيكي، بحسب تعبير ميشيل فوكو، على اعتبار تلك الطبقة المتدنيّة في التراتب الاجتماعيّ، طبقة مجنونة تعبّر عن اللاعقل من خلال تصرّفاتها الشاذّة عن السلوك الجمعيّ المتّفَق عليه في العرف العام، وتصل بجنونها إلى مرتبة الحيوانيّة، «ولهذا لم يترك المجانين يمارسون جنونهم بكلّ ما أمكن من حريّة، بل شيّد بيوتاً للعزل ليصبح المجنون مرادفاً للمذنب وتكبّل يداه بالقيود ويوضع خلف القضبان من أجل حماية محيطه الاجتماعيّ من تلك الشراسة والعنف اللذين يتميّز بهما وسلوكيّاته التي تعتبر غالباً مصدراً لخطر كبير».

وتظهر فكرة فوكو عن تقاطع المجتمع مع الفرد المجنون بشكل واضح ومعمول به بالنّظر إلى حالة العزل التي تعرّضت لها طبقة الأخدام في اليمن أو فئة المهمّشين من ذوي البشرة السوداء، بشكل جعل أصحابها مقموعين بقوّة ممّا دفعهم إلى تكوين حياتهم الخاصّة إلى جوار الحياة الأخرى التي تدور في منطقة مجاورة لهم. وعلى الرّغم من حقيقة تشكّل المجتمع اليمنيّ على هيئة طبقات اجتماعيّة متفاوتة بسبب التراتب المذهبيّ والقبليّ والمناطقيّ، وأخيراً بسبب التراتب المادّي، وهي تراتبيّة فئة جديدة طرأت بسبب نشوء ظاهرة الأثرياء الجدد الذين طلعوا إلى سطح الحياة الاجتماعيّة مستغلّين حالة الفساد السياسيّ والماليّ التي حصلت في اليمن ولا تزال خلال الثلاثين سنة الأخيرة. لكنْ، في واقع الأمر تبدو هذه الطّبقات الاجتماعيّة، جميعها في حالة وفاق وتناغم كأنّما قد وقّعتْ فيما بينها وثيقة عيش مشترك تحترم بموجبها كلّ طبقة حدود الطبقات الأخرى ومصالحها، ممّا خلق حالة اتصال فيما بينها. لكنْ تبدو طبقة الأخدام فئة غير موجودة تماماً على الرّغم من وجودها الفعليّ ككتلة بشريّة ولو كانت وضيعة (في نظر الآخرين)، هي طبقة غير مرئيّة ولا أثر عمليّاً لها.

ليس هذا فقط، إذ خلقت هذه العزلة، التي تُركت طبقة الأخدام بداخلها لقيام الطبقات المجتمعيّة الخارجيّة، حالة سمحت باختراع قصص وحكايا غير منطقيّة تتحدّث عنهم. وأصبحت بسبب غياب العقل والمنطق أو تراخيهما قصصاً وحكايات متبادلة بين أفراد المجتمع الأصحّاء، وعلى مختلف مستوياتهم مثل حكايات تقول أنّ طبقة الأخدام لا يقومون بدفن موتاهم ولكنّهم يأكلون جثثهم. حكاية كهذه لم تخضع، كما هو ظاهر، لأيّ فحص أو

اختبار عقليّ لأنّ أفراد المجتمع بالأساس يريدون تصديقها بغرض خلق وسائل للتسلية وإزهاق الوقت، وهذا لا يمكن أن يحدث إلّا في عقول كسولة لا تريد تنشيط حالها. فكيف يمكن تصديق خرافة تقول إنّ هناك، في هذا الزمن الذي يشاع عنه أنّه قد صار زمناً حديثاً والعالم قد صار قرية واحدة، كيف يمكن تصديق خرافة تقول أنّ هناك كائنات بشريّة، تقيم في منطقة مجاورة لنا، تأكل جثث موتاها! كلّ هذا لأنّ أهل الطّبقات الاجتماعيّة الأخرى لم يروا في حياتهم حالة جنازة واحدة تقام في ضوء النهار لواحد من موتى طبقة الأخدام! لم تذهب عقول تلك الطبقات الاجتماعيّة الطارئة لتحليل المسألة بناءً على نظريّة العزل وتبعاتها، العزل الذي يحصل بصلافة ونزَق في حقّ طبقة الأخدام وجعلهم يترفّعون عن ممارسة طقوسهم الاجتماعيّة أمام أعين الطبقات الاجتماعيّة الأخرى خشية التعرّض للاستهزاء والسخرية. لقد وجدوا، بحكم التجربة، أنّ تلك الطبقات الاجتماعيّة، القديمة منها والطارئة على حدٍّ سواء، لا تخجل من إظهار سخريتها من طبقة الأخدام حتّى في حالات الموت. ولهذا وجد الأخدام أنفسهم مجبرين على جعل الليل وقتاً مناسباً وفرصة لتنفيذ طقوس دفن موتاهم التي لا تختلف عن طقوس الآخرين. سواد الليل هنا يلعب دور حمايتهم من سخرية الآخرين وألسنتهم التي لا تحترم موتاً ولا تضع قدراً من العناية بأمور الإنسانيّة. وهو، في نهاية الأمر تصرّف يشير إلى أنّ طبقة الأخدام قد ارتضت لنفسها هذه الوضعيّة التي وجدت نفسها، رغماً عنها، محصورة بداخلها، ولهذا أوجدت لنفسها حياتها الخاصّة التي تمتلك دستورها الخاصّ وقوانينها الخاصّة.

إنّ علي المقرّي في «طعم أسود، رائحة سوداء» يقوم، من خلال سرد هذه التفاصيل غير المرئيّة، بتفكيك هذين المجتمعَين المتواجدين فعلياً على الجغرافيا ذاتها على نحو عمليٍّ، ويتمّ هذا التفكيك عبر طبقة الأخدام وإظهارها في قالب حكائيّ يهدف في الأساس إلى إزالة الغموض الذي يعتريها في نظر الآخرين وإزالة الغشاء الذي يمنع النظر إليها بوضوح واكتشافها على ما هي عليه.

لكنْ، والحال هذه، ومع استمرار حالة العزل المفروضة على طبقة الأخدام، كان لا بدّ للطّبقات الأخرى القابعة على الضفّة الأخرى على تنوعّاتها، من استغلالها، استغلال الأخدام واستخدامهم غطاءً لمجموع الجرائم التي تحدث لدى مجتمع الطبقات الأخرى. استغلال تمّ اكتشافه عبر السلطة التنفيذيّة التي لم تعد قادرة على كبح التراكم المتزايد الحاصل في مختلف الطبقات الاجتماعيّة الأخرى بسبب تفاقم الفساد السياسيّ والماليّ والإداريّ وظهور فجوة كبيرة على الصعيد الاقتصاديّ وبروز ظواهر سلوكيّة استثنائيّة، على أيدي أبناء كبار رجال الدولة ويمارسونها علانيةً كأنّما يتباهون بالمال الذي يسرقه آباؤهم من جيوب أفراد الطبقات المتدنيّة الأخرى. حالة كهذه أثمرت ظهور أنواع وأشكال جديدة من الجرائم لم تكن معهودة ومتواجدة على قائمة الجرائم المعروفة. وهو الأمر الذي أوقع السلطة التنفيذيّة في معضلة الإمساك بالفاعلين الحقيقيّين. النجاح في هذا الأمر كان ليضع السلطة العليا، رأس النظام، في إشكاليّة كبرى سوف تفضح حالة التشظّي والتفكّك والانفلات الذي صارت تعيشه مختلف الطبقات الاجتماعيّة التي من المفترض أنّه يحكمها ويضبطها، ما يعني ظهوره في العراء والانكشاف. هو أمر استوجب البحث عن ضحايا غير مألوفين من خارج المساحة التي يسيطر عليها ومن خارج تكوين الطبقات الاجتماعيّة الواقعة تحت عيونه لأنّها، بحسب نظره، طبقات صالحة بحكم كونها ناتجة من تربيته. إذاً، فليكن الحلّ في إحداث حالة بحث في ثنايا ذلك المجتمع غير المرئيّ، الذي لا يراه الآخرون، مجتمع الأخدام.

سوف يصدّق الجميع بسهولة وبال مرتاح وعقول كسولة أيّ شيء يقال عن أفراد طبقة الأخدام. سيكون من الطبيعي أن يقوم أفراد هذا المجتمع المتدنّي بأيّ شيء وأيّ فعل وأيّ جريمة مهما كان شكلها. سيكون من السهل تصديق أيّ شيء عن أفراد طبقة يأكلون جثث موتاهم. سيكون من الطبيعي هنا، عندما يجد أفراد طبقة الأخدام وقد وقعوا ضحايا جرائم لم يقترفوها مدفوعين للخروج من عزلتهم ومواجهة طبقات المجتمع المقيمين على الضفّة الأخرى من البلد. هو شكل من أشكال المقاومة أو ردّ الفعل. إنّ السجن والعقاب، بحسب ميشيل فوكو أيضاً، في نهاية الأمر لا يعمل سوى على إعادة خلق الانحراف على نحو مستمرّ ولانهائيّ. إنّ قيام السلطة العليا بتعريض حياة كبير أيّ عائلة من طبقة الأخدام للعقاب والسجن وهو مسؤول عن إعالة أفراد عائلته ورعاية شؤونهم، سوف يجعل تلك العائلة تعيش حالة من البؤس الحقيقيّ، دفعها، خصوصاً جنس البنات فيها إضافة إلى زوجة الأب، إلى الخروج من طبقة الأخدام والانخراط في الطبقات الاجتماعيّة الأخرى المقيمة في المكان الثاني بغرض التسوّل، ولكلّ هذا تبعاته المنعكسة على تلك الفئة المتماسكة بداخل بيئتها المعزولة والنجاح



❖
الحداد
اليهودي اليمني
يوسف يوسف

بتفكيكها. وهذه نقطة يمكن كشفها، بحسب حليم بركات، بالنظر من مستوى تاريخيّ، أنّ بعض الطبقات والفئات والجماعات الشعبيّة المرهقة بالحرمان والقمع قد تسوّغ واقعها أو تضطرّ إلى تقبّله معتبرة أنّ ذلك من الحكمة والتروّي، فتنصرف عن المطالبة بحقوقها والمشاركة في تغيير الواقع. وقد تذهب أبعد من ذلك، فتعتبر القبول بمكانتها والاستكانة والتمسّك بفضائل الصمت والصبر إمّا تجنّباً للمشاكل، أو نتيجة قناعة دينيّة بالتخلّي أو التنازل عن حقوقها.

**قارئ الروائي سيخرج بانطباع أن الكاتب قضى مساحة كبيرة من عمره في الشغل الروائي. وأن ما قام بإصداره لم يكن بضربة واحدة.**

كلّ هذه الجزئيّات المكوّنة للرواية الكبرى التي تؤلّفها سرديّة «طعم أسود، رائحة سوداء» نرى وقد أتقن علي المقرّي تشكيلها في قالب فائق التماسك يشير إلى أنّ صاحبها، كما أوردنا سابقاً، قد انخرط وعاش على نحو فعليّ في ثنايا تلك الفئة الاجتماعيّة المُهمَلة والمعزولةً وانخرط فيها كي يخرج لنا بتلك التفاصيل التي لم يكن أحدٌ على علم بها. ليس هذا فقط، بل إنّه يقوم بخلق روابط بين الوضعيّةً التي صارت إليها تلك الطبقة والعلاقة غير السويّة التي ربطتها بالطبقات الاجتماعيّة الأخرى وكان أن أدّت، في نهاية الأمر إلى حالة العقاب الواقعة عليها من قبل السلطة التنفيذيّة من جهة، ومن جانب أفراد المجتمع من جهة أخرى. إنّهما عقوبتان على تهمة واحدة للأخدام، على افتراض أنّهم مذنبون، وهو ما يتعارض مع أيّ قانون في العالم يشدّد على عدم فرض عقوبتين على جريمة واحدة.

### اليهودي الحالي

في عمله الروائيّ الثاني (رُشّح للقائمة الأولى لجائزة البوكر العربيّة)، أظهر علي المقرّي مجالاً مختلفاً عن المجال الذي ظهر فيه في «عرق أسود، رائحة سوداء». ترك أسلوب العيش والمخالطة الاجتماعيّة كي ينُتج رواية يذهب فيها هذه المرّة باتّجاه الكتب والتّراث. هو كان قد أثبت قدرته الجيّدة التي أنتجت كتابه «الخمر والنبيذ في الإسلام» المكثّف والمكتظّ بالأرشيف التراثيّ وبالمراجع المختلفة والمتفاوتة مرجعيّاً وزمنيّاً. لقد فَرضتْ عليه حالة «اليهودي الحالي» العودة مجدّداً لرواية حكاية لم يسمح له الظّرف الزمنيّ بالتّقاطع معها.

يعطي الشاعر اليمنيّ علي المقرّي، مجدّداً، قصيدته إجازة مفتوحة ليذهب باتجاه الرواية مرّة أخرى. هو يقول أنّ هذا مشروع حياته وبقي يشتغل عليه بصمت طوال العشرين عاماً الفائتة. ربّما يكون مبالغاً في هذا الرقم لكنّ الأكيد أنّ قارئ الروائي الحاليّ علي المقرّي سيخرج، بعد قراءة روايتيه «طعم أسود، رائحة سوداء» و«اليهودي الحالي»، بانطباع أنّ الكاتب قضى مساحة كبيرة من عمره في الشغل الروائي، وأنّ ما قام بإصداره لم يكن بضربة واحدة والأسباب كثيرة، بدايةً من قفزه على عثرات البدايات الأولى مستقرّاً على أرضيّة روائيّة متينة خلتْ، إلى حدّ بعيد من الثرثرة والرطانة والجُمل الزائدة، والشعر، وليس انتهاءً بنجاحه في التقاط الموضوع الذي بنى عليه روايتيه معاً، الأقلّيّات المنبوذة في المجتمع اليمنيّ والمسكوت عنها تماماً، السود أو «الأخدام» كما يُطلق عليهم في اليمن في رواية «طعم أسود، رائحة سوداء» وفئة اليهود اليمنيّين. وهما موضوعان يكاد الحديث عنهما يكون محرّماً أو غير مرغوب فيه في هذه البيئة الاجتماعيّة المعادية للاختلاف والمجبولة بعبادة الشكل الواحد وتأليهه كما والبقاء عليه زمناً طويلاً بلا حركة أو تبديل. واللافت في هذين العملين، كما تحدّثنا عن الأخدام سابقاً، أنّ الكاتب علي المقرّي لم ينزلق فيهما تحت تأثير حساسيّة الفكرة التي اشتغل عليها إلى مصيدة البحث الاجتماعيّ التقريريّ وتقديم تبريرات أيدلوجيّة أو تاريخيّة تقول بالأسباب التي وضعت تلك الفئتين في عزلتهما التامّة عن كلّ المحيط اليمنيّ. لا يبدو المقرّي هنا مشغولاً بكلّ هذا قدْر انشغاله بتقديم نصّ أدبيّ صرف لا يُحاكم خارج إطاره، وكان هذا عن طريق اشتغاله على شخصيّات من لحم ودم ولها الحقّ في العيش مثلها مثل غيرها من اليمنيّينً في هذا المحيط الذي لا يزال يرفض فكرة اندماجها فيه.

في عمله السرديّ «اليهودي الحالي» يعاود علي المقرّي بحثه عن فكرة الانتماء والهويّة وحدودهما بالنسبة إلى الأقليّات. يختار بقعة من التاريخ اليمنيّ ليحطّ فيها وتأتي ما بين الفترة الممتدّة من ١٠٥٤ هجريّة و١٠٧٧: «قرّرت أن أدوّن هذه الأخبار من أيّام فاطمة، وزمنها، حتى هذه السنة، التي تزوّجت فيها حلماً لننجب توأمين: أملاً وفجيعة». الراوي وبطل العمل هو سالم بن يوسف اليهوديّ، يعمل في صيانة النوافذ والأبواب الخشبيّة كأبيه.

يسمح له هذا بالذّهاب إلى بيت مفتي البلدة المسلم وهناك يجد فاطمة. هو ابن الثانية عشرة وهي تكبره بخمسة أعوام. هناك إذاً فارقُ العمر واختلاف الديانة. يتعلّم على يديها قواعد العربيّة وبدوره يعلّمها العبريّة. تسأله «ألا يعلّمونك يا يهوديّ الحالي؟». تخطو هي خطوةً أخرى، تعلّمه بعض الآيات القرآنيّة كوسيلة منها لدعم تعلّمه العربيّة، ولم تكن تعلم أنّها سوف تشعل حريقاً. يعلم أهله بالأمر فيمنعونه عنها. غياب اليهوديّ الحالي (الحلو، المليح في اللهجة اليمنيّة الدّارجة) عنها سيؤكّد أنّها وقعت في غرامه. يلتقيان بعد فترة من المنع لتطلب الزواج منه بعدما رجعت لبعض النّصوص الدينيّة التي تبيح ما تنويه. ويكون زواجهما سرّاً وهروبهما عن القرية تالياً باتّجاه بلدة أخرى أهلُها من أقرباء سالم اليهوديّ. تتخفّى فاطمة وراء ديانة زوجها، وهو ما سيتمّ فضحه أثناء ولادتها، الأمر الذي يدفع أبناء القرية إلى طرده مع وليده بعد وفاة فاطمة أثناء ولادتها. يعهد سالم رضيعه لزوجين هما صَبا اليهوديّة وعليّ المسلم، وكانا قد هربا أيضاً من القرية نفسها بعدما تزوّجا سرّاً. يقرّر سالم اعتناق الإسلام، إسلام فاطمة، مع أنّه صار يمقت كلّ دين وملّة. هو يفعل هذا «ليس لأنّني أعتقده ديناً، بل لأنّي أردت حمل صفة منها، صفة دلّتْها إليّ، فاختارتني زوج حياة وأمل».

يكبر الرضيع حاملاً اسم سعيد، ويتزوّج ابنة صبا اليهوديّة وعليّ المسلم ويكون اسمها أيضاً فاطمة... لتمضي بنا الرواية بين ثلاثة أجيال متعاقبة تحمل وصمة على ظهرها: الحبّ، ويكون لها المصير نفسه حيث لا قبر أيضاً يتّسع للعشّاق. فاطمة لا تجد لها مكاناً في مقابر اليهود على أساس أنّها في الأصل مسلمة، وعند أهلها لا تجد مكاناً لها فقد بدّلت دينها، في حين يكون الأمر مماثلاً لسالم، وهو ما يجعل ابنهما سعيداً يهذي على طول قائلاً: «اليهودي الحالي وفاطمة لم يجتمعا حتى في مقبرة واحدة».

في هذا العمل يبدو علي المقرّي لاهثاً بسردٍ نابضٍ غير مترهّل ولا مثقل بالتفاصيل. ينهض على نحو عموديّ متصاعد بلا خوض تفاصيل جانبيّة تعريفيّة بجغرافيا المكان. كما يبدو مستعرضاً ثقافته التاريخيّة لكن من دون أن يحيد عن فكرته الأساسيّة التي تنتقل زمنيّاً بسلاسة من الجدّ إلى الابن فالحفيد. وهو من وراء هذا كأنه يريد فقط أن يقول أنّ بالإمكان اتّخاذ الحبّ كفكرة وراية في مجتمع متباين وغارق في صراعات دينيّة ومذهبيّة على الرّغم من استحالة تحقّق الأمر على أرض الواقع. لكنّنا حال القراءة نتجاهل كلّ هذا آملين من الرواية أن توجد لنا نهاية سعيدة. وحتى إذا لم نجد هذه النهاية المرجوّة والمشتهاة، نكتفي بمتعة السّرد ومتانته.

**حرمة**

اكتفى علي المقري في باكورته الروائية «طعم أسود رائحة سوداء» بنزع قشرة أولى عن واقع جماعة يمنية تعيش على هامش الحياة بسبب سواد بشرتها. رواية صادمة وضعت قراءها أمام حقيقة الألم الذي تعيشه تلك الجماعة في بيئة اجتماعية تحتقر اللون الأسود. في روايته الثانية «اليهودي الحالي»، نزع قشرة ثانية من واقع اجتماعي محكوم بقيود العرق والطائفة والدين عبر حكاية حب مستحيلة بين مسلمة وصبيّ من يهود اليمن. أمّا في روايته الثالثة «حُرمَة»، فنجد الروائي والشاعر اليمني وقد ذهب متمادياً في نزع القشرات، فلم يعد هناك أي شيء يغطّي الواقع الذي يحاول الجميع إنكاره رغم معرفتهم بأنه حقيقي يحدث فعلاً ولو وراء ستائر وجدران.

ولهذا، نجد المقري مُصرّاً على الذهاب بعيداً في فعل عمل روائي يعيد سرد حياة سريّة/ معلومة تخص مجتمعاً يعيش تحت وطأة الكبت والحرمان وأثقال رغبات لا تعرف حدوداً وشهوات غير قادرة على لمس انطفاءاتها لتجد في الدين حلاً، ولو موقّتاً.

يرتكز الكاتب على أحوال فتاة لا نعرف لها اسماً طوال الرواية. مجرّد حُرمة لا تستحقّ أن تمتلك اسماً: «لم ينادني أحد في البيت باسمي، أمّي تناديني: أميمتي، وأحياناً: أمّي الصغيرة... فيما أسمع أبي يقول: يا بنت... أين البنت؟ أعرف أنّه يقصدني».

بالتوازي مع هذه الـ«حُرمة» التي لا يحقّ لها امتلاك اسم ولا هويّة ولا صوت، نجد شقيقتها الكبرى لولا التي تمتلك اسماً وحياة سرّيّة خاصّة بها و«أفلام بورنو» تخوض فيها بشراهة وبتواطؤ من أسرتها التي لا يهمّها سوى الأموال التي تأتي من ابنتها الكبرى من دون السؤال عن مصدرها. إنّه الفقر هنا وما يفعله في حياة اليمنيّين، فالمهمّ ألّا ينكشف شيء ويبقى الأمر طيّ الكتمان.

وعليه، تسير حياة لولا، تقوم بإعادة تركيب (رقْع) غشاء بكارتها، لأنّ مدير الشركة (وليّ نعمتها) الذي تعمل معه يرغب بأن يجدها بكراً في كلّ مرّة يدخلها. لكن عندما يتقدّم بها العمر، يتركها الجميع لتجد نفسها مضطرّة إلى إغواء أحد الشباب وجلبه إلى غرفتها في بيت والدها من طريق إلباسه زيّاً خاصّاً بالنّساء. يعود الأب من عمله باكراً بسبب وعكة ألمّت به، يسمع أصواتاً صاخبة آتية من غرفة

ابنته، يفتح الباب الذي لم يكن موصداً ليجدها غارقة في لذّتها: «كنت تعلم كلّ شيء وتتصرّف كأنّك لا تعرف» تقول البنت لأبيها.

في المقلب الآخر، كانت الـ«حُرمة» قد خاضت كثيراً في الحياة، لكن من دون تذوّق لذّاتها الكاملة. تُرغم على الالتحاق بمعهد سلَفيّ لا يُسمح فيه بالاختلاط، رغم أنّه يضمّ محاضرين شيوخاً يعلّمون كيف «تكون المعاشرة الزوجيّة مليئة بالإشباع العاطفيّ». حالةٌ تكاد تكون تكثيفاً لواقع هذه الجامعات الدينيّة التي تعيش كبتاً مضاعفاً داخل بيئة مكبوتة أصلاً. كبت يدفع الـ«حُرمة» إلى القبول بزوج (مجاهد) جلَبه لها شقيقها، الماركسيّ السابق والأصوليّ الحالي، لكنّها تكتشف لاحقاً أنّها قد تزوّجت عنّيناً عاجزاً عن فعل شيء. يتواصل الحرمان بينما يتقدّم الجهاد عندما تقرّر الذّهاب مع زوجها إلى أفغانستان لمحاربة «الملحدين الكفّار». إنّه استرجاعٌ لوقائع سفر آلاف الشباب اليمنيّين والعرب إلى أفغانستان أيّام الاتّحاد السّوفياتي السّابق. لاحقاً، تعود الـ«حُرمة» إلى اليمن بعدما عاشت أهوالاً وعبَرَت سجوناً كثيرة. لكنّها تعود من دون زوجها الذي وقع في الأسر. ويطول غيابه بينما يرتفع مستوى الرّغبة عندها. يدفعها ذلك إلى أخذ «فتوى شرعيّة» تتيح لها الطلاق من الـ«بعل» الذي لا يُعرف مصيره. تتزوّج ذلك الشّيخ الذي أعطاها الفتوى، لكنّ ليلةً واحدة كانت كافية لتعرف الـ«حُرمة» أنّ زوجها المفتي «لا يستطيع»، ليقع الطّلاق فيما يواصل الحرمان تقدّمه والجنون أيضاً.

اللافت في الرواية أنّ علي المقري يسرد كل هذه الوقائع والحياة المكبوتة لأبطاله مع تركيزه على «حُرمة»، لكن من دون اللجوء إلى التنظير وطرح أحكام قيمية على تصرفاتهم. كأنّه أراد تبسيط تلك الحيوات المركبة وإعادة تركيبها بواقعية قصوى من دون الوقوع في التقريرية والمباشرة والوعظ، حتى في طريقة تعمده وصف العمليات الجنسية التي احتواها العمل بإفراط قد يجده بعضهم استفزازياً وفجاً. إلا أنّ هذا لا يحجب حقيقة أنّ هذا يحدث في حياة سرية يعلم الجميع بوجودها، لكن لا أحد يستطيع الكلام عليها بصوت مرتفع.

## خلاصة

العام ٢٠٠٩ صدرت الرواية الجديدة الرواية الجديدة للمقري بعنوان «بخور عدنيّ» (دار الساقي بيروت)، وهي تسير في اتّجاه الهامشيّين وإن ظهرت خلفها فكرة «عدن للعدنيّين» على خلفيّة الاستعمار البريطانيّ للجنوب طوال قرن من الزّمان. وتبدو واضحةً الانتقالةُ التي يصرّ عليها المقرّي حين سافر إلى عدن لإنجاز عمله. أقام هناك وصرف من جيبه. سكن في فندق جوار هيئة المكتبة الوطنيّة وراح يُقلّب في الجرائد القديمة. لكنّ هذه حكاية أُخرى.

إنّها رغبة في مواصلة السَّير في طريق النّاس العاديّين، من يهود وهنود وأحباش ومهاجرين من كلّ مكان، من تعزّ الشماليّة ومن وضواحيها، ومن فقراء عدن، وكلّ النّاس المنسيّين.

ومن خلال كلّ ذلك يبدو علي المقرّي وكأنّه يواصل إمساك نقاط عدّة في الصيغة التي يسير عليها في وضعيّة الاشتغال على أعماله السرديّة الروائيّة. يبدو واضحاً انهماكه الشّديد بضرورة إرجاع الأفكار والإشكاليّات الاجتماعيّة المتروكة والمُهملة والمسكوت عنها إلى الواجهة وإعادة تعريضها للضّوء والتّشريح والتّفكيك مرّةً تلو أخرى، وكلّ ذلك من أجل تمكين المجتمع الذي يحتويها لإيجاد خلاصه من التّبعات المَرَضيّة التي يعاني منها جرّاء الصمت المُمارس عليها. ولعلّ الظرف الحالي، المؤلم والحزين الذي تمرّ به اليمن قد ساعد في إظهار القيمة الأدبيّة التي اشتغل عليها المقرّي طوال سيرته الأدبيّة. تعميق فكرة التشظّي الحاصلة في بنية المجتمع نفسه. ظهوره على حقيقته مع كمّ الانقسامات الطبقيّة والمذهبيّة على حدّ سواء. يبدو صاحب «اليهودي الحالي» قد استبق الحالة الحاضرة بوقت طويل حين هجر الشّعر وانتقل إلى الرواية. كأنّه، بقلب العارف، قد أخذ علماً بما سوف يكون. لا عنصرية ولا طائفيّة تظهر فجأة في أيّ مجتمع كان، هي أشياء تبقى تحت الجلد وفي القلب وتنتظر الفرصة فقط كي تظهر. وقد وجدت وقتها لتظهر. الحرب تفعلها. وقد نجحت في ذلك، كما نجح علي المقرّي في شغله وكتابته ونظرته الاستباقيّة. حطّ قلمه على الجرح اليمنيّ العامّ، وقبل وقت طويل من حصوله. أخذ وقتاً من حياته و... كتب.


المراجع

علي المقرّي، **الخمر والنبيذ في الإسلام**، دار رياض الريّس، بيروت، ٢٠٠٧

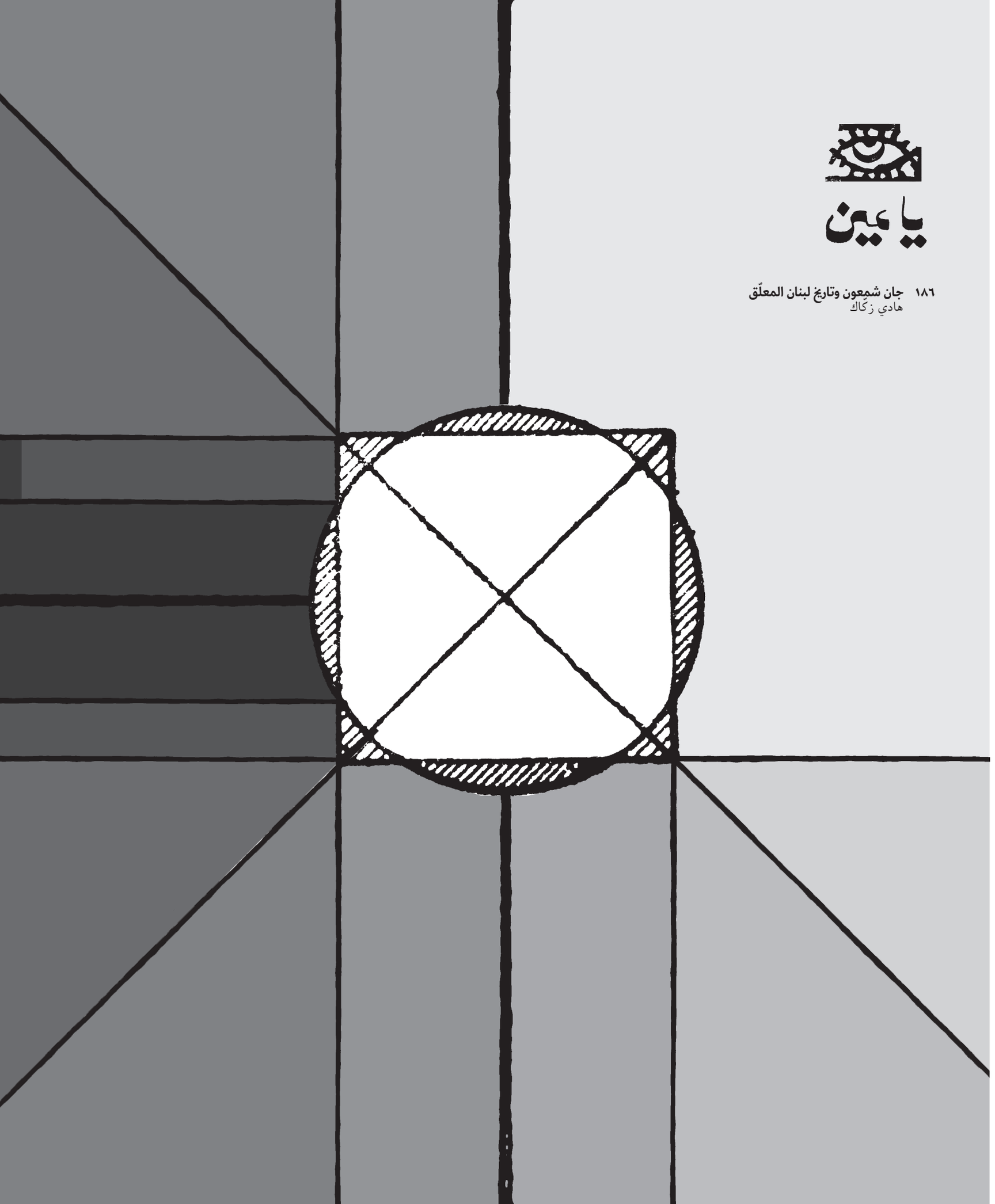
علي المقرّي، **طعم أسود، رائحة سوداء**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧

علي المقرّي، **اليهودي الحالي**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٩

علي المقرّي، **حرمة**، دار الساقي، بيروت، ٢٠١١

جيجيكة إبراهيمي، **حفريات الإكراه في فلسفة ميشال فوكو**، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١١

حليم بركات، **الاغتراب في الثقافة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦



يا مين

١٨٦ **جان شمّعون وتاريخ لبنان المعلّق**
هادي زكّاك

# جان شمعون وتاريخ لبنان المعلّق

**هادي زكّاك**

**كاتب، مخرج سينمائي، وأستاذ جامعي، لبنان.**

في ٩ آب / أغسطس ٢٠١٧، توفّي أحد أبرز السينمائيّين اللبنانيّين الملتزمين بالسينما الوثائقيّة وبقضيّة الإنسان وهو جان شمعون. ينتمي شمعون إلى جيلٍ من السينمائيّين والسينمائيّات الذين أحدثوا تغييراً جذريّاً في مسار السينما في لبنان وتزامن ظهورهم مع بدء الحرب الأهليّة اللبنانيّة في العام ١٩٧٥. يضمّ هذا الجيل أسماءً مؤسّسة للسّينما اللبنانيّة الجديدة، من أبرزها برهان علويّة ومارون بغدادي وجوسلين صعب ورندة الشهال، وغيرهم. درس هؤلاء في معظم الأحيان السينما في فرنسا أو بلجيكا، وعادوا إلى لبنان لإنجاز أفلامهم. عُرفوا بيساريّتهم من حيث التوجّه السياسيّ والاهتمام بالقضيّة الفلسطينيّة والقرب من «الحركة الوطنيّة اللبنانيّة».

بدأ هؤلاء بإنجاز أفلامهم خلال فترة التّحوّلات على الساحة العربيّة وبروز الحركات الثوريّة والتغييريّة، وهي الفترة التي بدأ فيها الحديث عن السينما العربيّة البديلة أو السينما الملتزمة بقضايا مجتمعها والتي تتمتّع بوعيٍ سياسيّ واجتماعيّ.

مع اندلاع الحرب اللبنانيّة أخذ الفيلم الوثائقي حيّزاً مهمّاً من عمل الجيل الجديد، فلم يعد مجرّد فيلم سياحيّ أو مؤسّساتي، بل أصبح فيلماً سينمائيّاً يكشف عن مشاكل الواقع وتعقيداته (الطائفيّة، المخيّمات الفلسطينيّة، الاختلاف بين الطبقات الاجتماعيّة، الوضع في الجنوب اللبنانيّ، تمزّق الكيان اللبنانيّ وتدمير بيروت، المعاناة اليوميّة للمواطنين، إلخ...).

### سينما الواقع

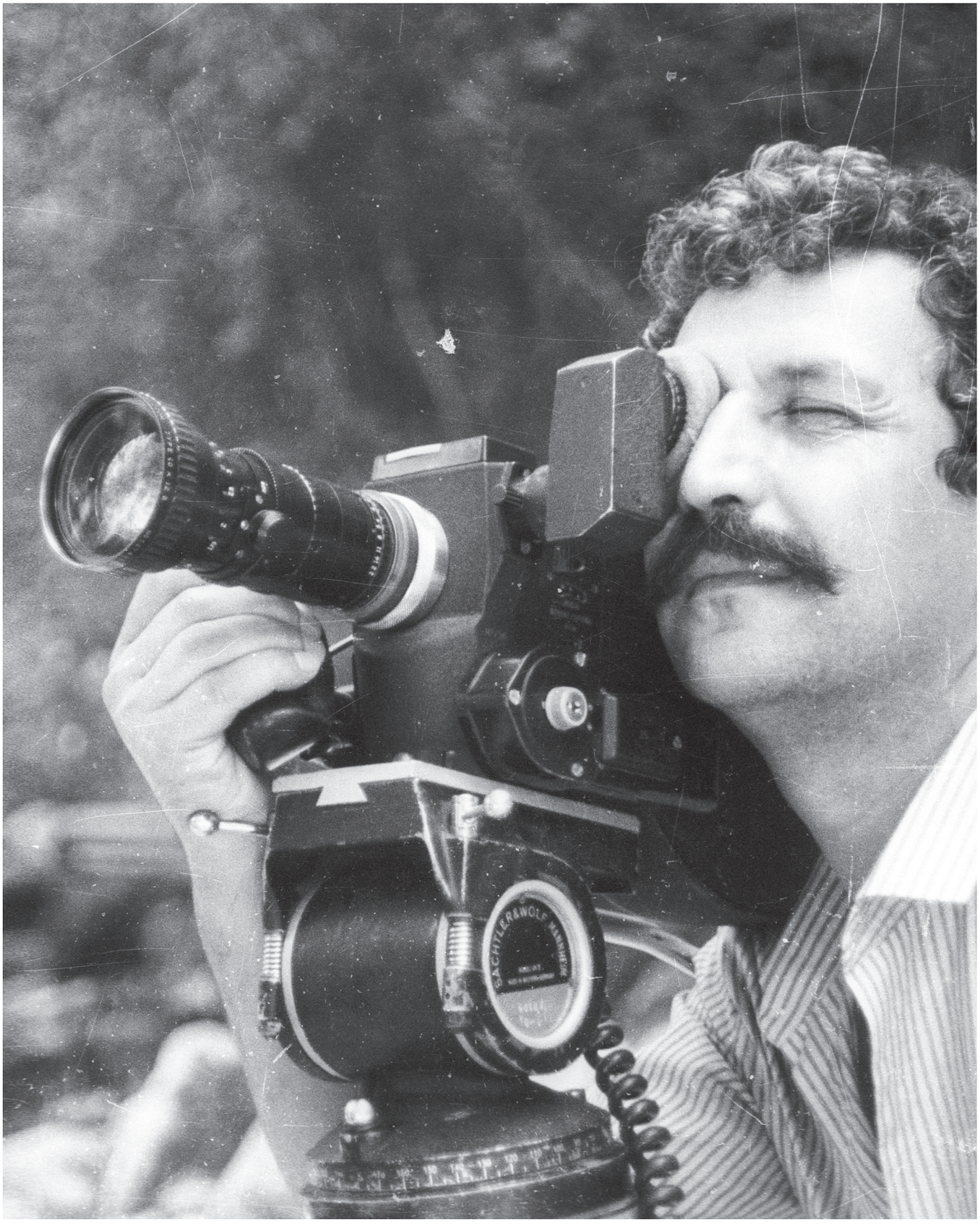
تغيّر كلّ التوجّه الطّاغي منذ الخمسينيّات، وبالأخصّ الستينيّات، على السينما في لبنان. كان هذا ترفيهيّاً يفتقر غالباً إلى الهويّة. تغيّر ليصبح سينما مباشرة من أرض الواقع تتخطّى الناحية الإخباريّة والفولكلوريّة لتقترب أكثر من الإنسان ولتفسّر أكثر أسباب الحرب.

في هذا الإطار، عاد شمعون (مواليد البقاع، سنة ١٩٤٤) إلى لبنان سنة ١٩٧٤ بعد إنهاء دراسته السينما بين بيروت وباريس، عشيّة اندلاع الحرب اللبنانيّة. بعد مرور عام على اندلاع الحرب أخرج فيلماً وثائقيّاً بعنوان «تلّ الزعتر» وذلك بالتّعاون مع مصطفى أبو علي وبينو أدريانو. والفيلم عن مخيّم «تلّ الزعتر» الفلسطيني الذي سقط في ١٢ آب / أغسطس ١٩٧٦ على يد الميليشيات اليمينيّة المسيحيّة بعد حصارٍ طويل.

### الالتزام بالقضيّة الفلسطينيّة

نشطت «مؤسّسة السينما الفلسطينيّة» في بيروت منذ مطلع السبعينيّات بإنتاج أفلام وثائقيّة عن القضيّة الفلسطينيّة والعمل النضاليّ والوضع في المخيّمات. قام بإخراج هذه الأفلام مخرجون فلسطينيّون مثل مصطفى أبو علي، رئيس المؤسّسة بين ١٩٧١ و١٩٨٠، ومخرجون عرب كالسينمائي العراقيّ قاسم حول، ومخرجون لبنانيّون كجان شمعون. يبرز في هذا الإطار التعاون الفلسطينيّ اللبنانيّ في إخراج فيلم «تل الزعتر» بين أبو علي، الذي يمكن اعتباره مؤسّس سينما الثورة الفلسطينيّة، وشمعون، وهو من انتاج «مؤسّسة السينما الفلسطينيّة» و«يونيتل فيلم».

يستند «تل الزعتر» إلى شهاداتٍ من المواطنين والمقاتلين والمسؤولين السياسيّين والعسكريّين والأطبّاء الذين كانوا داخل المخيّم منذ بدء المعارك الطاحنة في ١٧ حزيران / يونيو حتى ١٢ آب / أغسطس ١٩٧٦. تتقاطع مع الشهادات مشاهد من قلب المخيّم الذي تأسّس سنة ١٩٥٠ وضمّ مجموعة كبيرة من اللاجئين الفلسطينيّين


SACHTLER&WOLF MUNCHEN

المهجّرين من أرضهم إثر نكبة ١٩٤٨، إلى جانب الكثير من الفقراء اللّبنانيّين الّذين قدموا إليه من جنوب لبنان.

بدأ حصار المخيّم في نيسان / أبريل ١٩٧٥ بعد حادثة بوسطة عين الرمّانة التي قُتلت فيها مجموعة من الفلسطيّنيين وكلّهم من سكّان مخيّم «تلّ الزعتر». ساهم دخول الجيش السوريّ إلى لبنان في العام ١٩٧٦ وإعطاؤه الضّوءَ الأخضرَ لميليشيات اليمين بتسريع حتميّة إنهاء وجود المخيّم في منطقة مسيحيّة (المنطقة الشرقيّة) كان يتمّ «تنظيفها» (حسب اللغة المستعملة في ذلك الوقت) من جميع «البؤر المسلّحة العدوّة»، فسقطت الكرنتينا والنبعة ومخيّما «ضبيّه» و«جسر الباشا» وكانت الخاتمة مع مخيّم «تلّ الزعتر».

**تشكل الأفلام الوثائقية للجيل الذي ينتمي إليه شمعون والأجيال اللاحقة فصولا من كتاب تاريخي يتخطى مادة الاستظهار للوصول إلى مادة أكثر حيوية تستعمل الصورة والصوت. تأتي الأهمية القصوى لهذا الأمر لناحية حفظ الذاكرة في وطن النسيان ويأتي الاهتمام بأفلام شمعون من هذا المنظار التأريخي.**

الفيلم وليد اللحظة ومشاعرها ووجهة نظر الناجين من المجازر الذين شاهدوا الفظاعات: تصفية الرّجال واغتصاب النساء والموت الجماعيّ. نحن نعلم كيف أصبحت هذه المجازر عمليّات تتنقّل بين المناطق وتجسّد الحقد المطلق. وقد طبعت حرب السنتين (١٩٧٥-١٩٧٦) من «السّبت الأسود» إلى الكرنتينا والنّبعة وصولاً إلى الدّامور، ولم تفرّق بين لبنانيّ وفلسطينيّ وبين مسيحيّ ومسلم. لكن في ظلّ اللحظة، لا يمكن رؤية الواقع بشكلٍ أوسع، فالحرب محتدمة وهذا ما تؤكّده أدبيّات المرحلة في صوت المعلّق والمقابلات: حربٌ تُواجه فيها المقاومة الفلسطينيّة والحركة الوطنيّة اللبنانيّة متّحدةً القوّات الانعزاليّة (كما كانت تسمّى مليشيات اليمين المسيحيّ) مع تدخّل عربيّ وسوريّ تحديداً، وإسرائيلي وخلطٌ في التحالفات.

يحمل شمعون الميكروفون ويجري بعض المقابلات مظهراً تعاطفاً واضحاً سيكون تعبيراً صادقاً في جميع أفلامه. جثثٌ تملأ الأرض وتحضّرنا للمزيد منها مع «تحت الأنقاض» (١٩٨٣). امرأة جميلة تصل مع المسلّحين لتلقي نظرة على الجثث وكأنّها تزور متحفاً للبطولات. أولادٌ يحملون السّلاح وسنرى تحوّلاتهم منذ بدء الحرب وحتى أيّامها الأخيرة في «بيروت جيل الحرب» (١٩٨٩).

هي أفلامٌ تشهد على اللحظة، ووثائق للبحث في تاريخنا الذي لا يُكتب رسميّاً. في هذا الإطار، تشكّل الأفلام الوثائقيّة للجيل الذي ينتمي إليه شمعون والأجيال اللاحقة فصولاً من كتاب تاريخيّ يتخطّى مادّة الاستظهار للوصول إلى مادّة أكثر حيويّة تستعمل الصّورة والصّوت. تأتي الأهمّيّة القصوى لهذا الأمر لناحية حفظ الذّاكرة في وطن النسيان ويأتي الاهتمام بأفلام شمعون من هذا المنظار التأريخيّ.

بعد «تلّ الزعتر»، جاء الفيلم الوثائقيّ القصير: «أنشودة الأحرار» (١٩٧٨) وهو أيضاً من إنتاج «مؤسّسة السينما الفلسطينيّة» وانطلق من المهرجان الحادي عشر للشبيبة والطلبة الذي أقيم في كوبا في صيف ١٩٧٨ تحت شعار «التضامن ضدّ الإمبرياليّة من أجل السّلم والصّداقة». نرى الوفود المشاركة في المهرجان ومنها الوفدان الفلسطينيّ (المُمَثل بياسر عرفات) واللبنانيّ، ويتخلّل الفيلم عمليّة توليف لمشاهد من الأرشيف تُظهر الحركات الثوريّة في بلدانٍ عدّة في أميركا اللاتينيّة وأفريقيا والعالم العربيّ وإيران، وتدخّل وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة بتصفية العديد من الرموز منهم تشي غيفارا وسالفادور أللينديّ.

تابع شمعون مسيرته، وهو من القلائل من جيله الذي بقي في لبنان طوال الحرب. وتمكّن هكذا من تغطية مراحل عديدة من تاريخنا الحديث تمتدّ من السبعينيّات حتى عام ٢٠٠٩.

**سينما شمعون - مصري: علاقة لبنان - فلسطين**

بعد «أنشودة الأحرار» ومع الاجتياح الإسرائيليّ للبنان سنة ١٩٨٢، بدأت مرحلة جديدة من الأفلام الوثائقيّة التي سيوقّعها جان شمعون مع السينمائيّة الفلسطينيّة ميّ مصري التي تزوّجها سنة ١٩٨٦. نستطيع الحديث عن خصائص مسيرة تمتدّ على ثلاثة عقود وتشكّل توثيقاً تاريخيّاً عن مجموعة الحروب التي يعيشها الوطن:

◆ العمل المشترك بين شمعون وزوجته تعاونٌ بنّاء وفريد يؤكّد في كلّ فيلم على العلاقة اللبنانيّة - الفلسطينيّة. يصبح ما رأيناه في فيلم «تلّ الزعتر» مشروع حياة. إذا كانت هذه العلاقة معقّدة جدّاً منذ ظهور المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة وبدء العمليّات العسكريّة الفلسطينيّة من جنوب لبنان واتفاق القاهرة وصولاً إلى اندلاع الحرب

اللبنانيّة حيث لعب الفلسطينيّ دوراً فعّالاً، تبدو مقاربة العلاقة اللبنانيّة - الفلسطينيّة مختلفةً في أفلام شمعون - مصري حيث تتشارك شخصيّات الأفلام، مهما كانت هويّتها، المعاناة نفسها من حربٍ واعتقالٍ وتهجير.

◆ التعاون الوثيق بين شمعون ومصري على تغطية المهامّ التقنيّة ضمن فريق العمل الصغير للفيلم الوثائقيّ، فبالإضافة إلى الإخراج المشترك، تقوم مصري بالتصوير («زهرة القندول» (١٩٨٥)، «بيروت جيل الحرب» (١٩٨٩)). ويجب هنا التنويه بدورها المميّز وإحساسها الذي سنفتقده في بعض الأفلام في ما بعد. كما تقوم مصري بالمونتاج («تحت الأنقاض» (١٩٨٣)، «زهرة القندول»، «بيروت جيل الحرب») وتتعاون مع شمعون في تسجيل الصوت («تحت الأنقاض») أو يقوم شمعون بالتسجيل وحيداً («زهرة القندول»). وعندما يكون شمعون هو الكاتب والمخرج المطلق للفيلم، تكون زوجته المنتجة المنفّذة.

◆ أهمّيّة التصوير السينمائيّ بتقنية ١٦ ملّم في الأفلام التي أخرجها الثنائيّ في الثمانينيّات، بحيث تصبح صورة الواقع مختلفة عن الصورة الإخباريّة الباهتة التي تحوّلت بمعظمها إلى الفيديو. وتبدو هذه الصورة السينمائيّة أكثر جودة من الأفلام التي أخرجها في ما بعد شمعون في التسعينيّات، إذ طغت في بعض الأحيان أساليب التحقيقات التلفزيونيّة من حيث استعمال «الزّوم» وإضاءة الشخصيّات بشكل مباشر واللجوء إلى مونتاج تعدّد المشاهد بدل تطوير المشهد الواحد وجعله وحدة زمانيّة ومكانيّة.

◆ ابتداءً من فيلم «زهرة القندول» تصبح الشخصيّات النسائيّة أساسيّة في الأفلام، وندخل من خلالها إلى موضوع الفيلم الذي يتناول غالباً محاور المقاومة بكافّة أنواعها.

◆ تلعب شخصيّات الأفلام دور الوسيط لولوج موضوع الفيلم. ومع تتالي الأفلام نقترب من الشخصيّات أكثر فأكثر، ولكن يبقى الموضوع هو الأهمّ فتأتي مداخلات ومقابلات مع شخصيّات أخرى.

◆ يشكّل فيلم «بيروت جيل الحرب» (١٩٨٩) فيلماً مهمّاً وكأنّه آخر الأفلام المصوّرة خلال الحرب. بينما يفتتح «أحلام معلّقة» (١٩٩٢) مرحلةً جديدةً من فترة ما بعد الحرب والسّلام غير المؤكّد.

◆ تبدو العلاقة مع الشخصيّات الأساسيّة في الأفلام وطيدة وتعبّر عن الثّقة بالمخرج، ويشكّل آخر فيلمين لشمعون لقاءً مع شخصيّاتٍ من أفلامه السّابقة وكأنّ «حنين الغوردل» (٢٠٠٨) هو الجزء الثّاني من «زهرة القندول» (١٩٨٥) و«مصابيح الذّاكرة» (٢٠٠٩) هو الجزء الثّاني من «أحلام معلّقة» (١٩٩٢). وكما تشير مي مصري[١]: «جان شمعون لديه شخصيّة يحبّها النّاس ووجودنا كثنائيّ ساعد في بناء علاقة ثقة مع النّاس».

نقسّم هنا الأفلام إلى قسمين: «بيروت بين الأنقاض والأحلام المعلّقة»، وهي أفلام توثّق واقع المدينة بين فترة الحرب وفترة السلام مؤكّدةً استمرار آثار الحرب؛ «الجنوب الصّامد والمقاوم»، وهي أفلام نكتشف من خلالها وقع الاحتلال على المجتمع الجنوبي خاصّةً. تُوثّق هذه الأفلام مراحل أساسيّة من الصراع مع إسرائيل من اجتياح ١٩٨٢ وانسحاب ١٩٨٥ إلى عدوان ١٩٩٣ فالتحرير سنة ٢٠٠٠ وحرب ٢٠٠٦.

### بيروت بين الأنقاض والأحلام المعلّقة

يمثّل فيلم «تحت الأنقاض» (١٩٨٣) وثيقة مهمّة عن الاجتياح الإسرائيليّ للبنان وبالأخصّ بيروت في العام ١٩٨٢. نسمع منذ البداية صوت شمعون وقد أصبح معلّقاً لفيلم مدّته ٤٠ دقيقة. كتب نصّ التّعليق المؤلّف والمخرج المسرحيّ روجيه عسّاف.

يوثّق الفيلم معاناة النّاس وموجات التهجير المستمرّة من تلّ الزعتر والنبعة والشيّاح وقرى الجنوب. لكنْ تبدو سنة ١٩٨٢ مزلزلة مع كثافة الغارات الجوّيّة الإسرائيليّة والقذائف المحظّر استعمالها دوليّاً والدّمار الهائل الذي يحلّ ببيروت الغربيّة وبكلّ بقعة يمرّ بها الإسرائيليّون.

عدد الضحايا مخيف: ١٢ ألف طفل، تسعة آلاف امرأة وثمانية آلاف رجل. في بيروت الغربيّة، خليطٌ من اللبنانيّين والفلسطينيّين، من الفقراء والأغنياء يتابعون تدمير مدينتهم تحت الحصار.

كلّ شيء مهدّد بالزوال وها إنّ بنايةً من ثماني طبقات تختفي مع تعرّضها لقنبلة فراغيّة رمتها طائرة إسرائيليّة. في المبنى ١٣٧ شخصاً. أخبرني جان شمعون[٢] عن صعوبة تصوير هذه اللحظة وكيف أصيب بالشّلل. يجب تصوير «الآثار» المباشرة للتّاريخ ولكن ماذا يحلّ بالعين التي تشاهد الجثث المبعثرة تحت الأنقاض وكيف يمكن التّعامل مع هذه المادّة؟ ثمّ يقول جان لاحقاً في التعليق: «في جنوب لبنان تتراكم الصّوَر وتبحث عن كتاب تاريخ يضمّها»، وكأنّ الفيلم يصبح هذا الكتاب الذي ينقل صور الأحياء والأموات وحتى مَن هم داخل المقابر عندما تصرخ فرنسيّة مقيمة في بيروت: «إنّها حربٌ ضدّ الأموات» وهي تجول داخل مقبرة دمّرتها الدبّابات.

١ لقاء مع مي مصري في ٢٠١٧/٨/٢٧ خلال حفلة تكريم لذكرى جان شمعون أقامته منظّمة «جنى».

٢ مقابلة مع جان شمعون أجريتها في ٢٠٠٣/١٠/٥ خلال تصويري فيلم «سينما الحرب في لبنان».

تكمن أهميّة «تحت الأنقاض» في نقل الواقع بلحظته مع إبراز وقع التّدمير الذي يطاول الإنسان بكلّ تكوينه والذي سيؤدّي إلى تحوّلاتٍ جذريّة في المجتمع نتابعها من خلال الأفلام التالية.

**جيل العبث**

«بيروت - جيل الحرب» (١٩٨٩) من الأفلام البارزة خلال فترة تقلّص فيها جدّاً عددُ الأفلام المصوّرة في لبنان. وهو وثيقةٌ أخرى تاريخيّة مهمّة لفهم ما خلّفته الحرب في الأجيال المتعاقبة ومدى عبثيّتها وإفلاس العمل السياسيّ التدريجيّ.

يبدأ الفيلم سنة ١٩٨٨ بلقطاتٍ لمعبر المتحف الذي يربط بين بيروت الغربيّة والشرقيّة. ومن اللافت أن نشاهد فيما بعد أولاداً يقومون بتقليد المليشيات من حيث إقامة الحواجز واستعراض السلاح. نتعرّف إلى مجموعة من الأولاد أجبروا على العمل باكراً (ميكانيك سيّارات، بائع متجوّل) ونتابع من خلالهم صعوبة الحياة في مدينةٍ يسيطر عليها مَن حمل السلاح للدّفاع عن قضايا الشعب والفقراء.

المشهد داخل سينما ساورلا في شارع الحمرا هو من أجمل اللحظات في الفيلم. فيه نرى أحدَ الأولاد يشاهد فيلم «آكشن» أميركيّاً فتتفاعل الصالة، لينتقل بعدها الأولاد إلى تنفيذ فيلمهم الحربيّ على أرض الواقع من خلال استعادة المشاهد السينمائيّة ومشاهد الواقع.

من الصّغار، نصل إلى المراهقين مع مقاتلٍ مسيحيٍّ ينتمي لمليشيا «القوّات اللبنانيّة». يستعملُ بندقيّته كلعبةٍ وتبدو لائحةُ الأعداء طويلةً إذ تشمل الفلسطينيّ والشيعيّ والدرزيّ والاشتراكيّ والكرديّ وهو مستعدٌّ لأكلهم إذا ما حاولوا الدخول إلى المنطقة الشرقيّة. لكنّه يؤكّد أنّه مؤمنٌ بالله وبشفيعه مار الياس الذي تحوّل وشماً على صدره يُضاف إلى شعار السّلام على يده.

تزداد الصّورةُ عبثيّةً وسوداويّةً مع تبادل سيجارة الحشيش بين الشّباب على خطّ التّماس والأولاد الذين يسبحون بين الأوساخ في منطقة النورماندي. ثمّ نصل إلى من كبروا في ظلّ الحرب وحملوا السّلاح بحثاً عن تحقيق الأحلام في تغيير النّظام وكردّة فعلٍ على واقعٍ اجتماعيّ واقتصاديّ، فكانت فرحتهم كبيرةً عند حرقِ فندق «السان جورج» و«الهوليداي إن» خلال معركة الفنادق (١٩٧٥-١٩٧٦).

نهاية الفيلم معبّرة، مشهدٌ على خطوط التماس بين شطرَي بيروت نتابع فيه الحديث على الجبهة بين «الأعداء»: من التخاطب السلميّ نعود إلى تجدّد الاشتباكات.

أخبرني شمعون أنّهم أمضوا خلال التصوير أربعة أيّام ينتظرون التقاط الحديث بين المتقاتلين على الجبهة. ومع بدءِ الاشتباكات أصيب ميكروفون فريق التصوير فاقتصرت الأضرار على المادّيّات! يرينا هذا الفيلم مدينةً تلفظ أنفاسها وهي مقبرةٌ للأحلام، ويحضّرنا مباشرةً لأفلام أخرى عناوينها معبّرة مثل: «أحلام معلّقة» و«طيف المدينة».

**مخطوفون وأسرى**

من المفيد مشاهدة «أحلام معلّقة» (١٩٩٢) مباشرةً بعد «بيروت جيل الحرب». لقد رأينا كيف ينتهي «بيروت» مع مشهد الحديث السلميّ والحربيّ على خطوط التّماس، وها إنّ «أحلام معلّقة» يبدأ مع لقاءِ نبيل (المحارب المسلم) مع رامبو (المحارب المسيحيّ). فبعدما تحاربا، أصبحا اليوم صديقين يقومان بتصليح المنازل المدمّرة وكأنّهما صورة مصغّرة عن البلد. لكنّ هذه الصورة ليست بهذه المثاليّة. وهذا ما نتابعه مع الشخصيّة النسائيّة وداد حلواني. اختُطف زوجها عدنان سنة ١٩٨٢ ولم يعد، فأصبحت مع الوقت رئيسة «لجنة المخطوفين والمفقودين في الحرب اللبنانيّة» البالغ عددهم ١٧ ألفاً.

تعود وداد إلى منزلها في رأس النّبع المُصاب بسبب الحرب، ويقوم نبيل بعمليّة التّرميم فيقول لها: «خرّبت بلدي وهلّق عم صلّحها». لكن هل ترميم الحجر وإعادة البناء يكفيان لإعادة ترميم البلد والمواطنين؟ كيف تُعالج قضيّة المخطوفين والمفقودين في ظلّ قانون عفوٍ عامٍّ أدّى إلى محي المسؤوليّة ووصول أمراء الحرب على نحوٍ واسع إلى الحكم؟ كيف تجري عمليّة المحاسبة؟

إنّ هذه الأسئلة الجوهريّة تترافق مع خوف مستمرّ من أن تكون فترة السّلام هي مجرّد هدنة فيما البلد ملوّثٌ بتاريخه الدمويّ ووضع شاطئه الذي أصبح مكبّاً للنّفايات المتراكمة مع الحرب.

يؤسّس الفيلم لجميع التساؤلات والمخاوف التي عشناها وما زالت مستمرّة. وهذا ما دفع ربّما شمعون إلى تصوير شخصيّات «أحلام معلّقة» من جديد عام ٢٠٠٨ في فيلمه الأخير «مصابيح الذّاكرة» (٢٠٠٩). يبدأ هذا الفيلم مع عودة سمير القنطار ورفاقه من السجون الإسرائيليّة بعد سنواتٍ من الاعتقال. خلال الحفل الرسميّ للاستقبال على مدرج مطار بيروت، تتوجّه وداد حلواني إلى زعماء البلد، وأكثرهم من أمراء الحرب، سائلةً عن مصير المخطوفين والمفقودين في الحرب اللبنانيّة. ومن اللافت أنّ الوحيد الذي يقترب منها ويعانقها هو وزير الداخليّة حينها المحامي الشابّ والناشط زياد بارود.

لكنّ هذه الانطلاقة القويّة للفيلم لا تُستكمل كما يجب برغم اللجوء إلى مشاهد من «أحلام معلّقة» على سبيل «الفلاش باك» أو العودة إلى الوراء ومقارنة الشخصيّات بين الماضي والحاضر. وتطغى اللغة التلفزيونيّة على الفيلم من حيث الإضاءة واستعمال الموسيقى بشكلٍ متواصل لإضفاء الدراما وجعل الصورة فقط تفسيريّة فتُفقد الشخصيّات اللافتة من وداد ونبيل ورامبو، من وقعها مقارنةً بفيلم «أحلام معلّقة». وإذا كان شمعون قد بدأ بتصوير الحرب منذ السبعينيّات، فإنّ فيلمه الأخير يُظهر بوضوح استمرار آثار الحرب وكم تخفي هذه البلاد من مقابر جماعيّة.

**الجنوب الصّامد والمقاوم**

ما زالت انعكاسات الاجتياح الإسرائيلي المزلزلة عام ١٩٨٢ مستمرّة. تمّ تصوير «زهرة القندول» (١٩٨٥) بعد الانسحاب الإسرائيلي من قسم من الجنوب عام ١٩٨٥. مع هذا الفيلم، نبدأ مع الثنائيّ شمعون / مصري بمتابعة شخصيّات (أبرزها شخصيّات نسائيّة) نكتشف من خلالها الواقع والموضوع المحوريّ وهو دور المرأة في مقاومة الاحتلال.

**هذا الفيلم وثيقة أخرى تاريخية مهمة نفهم من خلاله مدى تأثير الاحتلال في المجتمع الجنوبي والشيعي تحديداً. نلاحظ كيف أصبحت معظم النساء محجبات وكأن البحث عن هوية دينية هو بحد ذاته مقاومة للاحتلال وتثبيت للخصوصيـــــــــــــة.**

هذا الفيلم وثيقة أخرى تاريخيّة مهمّة نفهم من خلاله مدى تأثير الاحتلال في المجتمع الجنوبيّ والشيعيّ تحديداً. نلاحظ كيف أصبحت معظم النساء محجّبات وكأنّ البحث عن هويّة دينيّة هو بحدّ ذاته مقاومة للاحتلال وتثبيت للخصوصيّة يترافق مع مشاركة نسائيّة في العمل المقاوم المباشر. في حين نشاهد صور النساء الشهيدات من طوائف وأحزاب مختلفة (شيوعيّة وقوميّة) قامت بعمليّات ضدّ الاحتلال. نتابع مشاهد من القرى الجنوبيّة مثل معركة تذكّرنا بفيلم «معركة» تحديداً الذي أخرجه روجيه عسّاف سنة ١٩٨٥.

«زهرة القندول» نافذة على مجتمع مقاوم تُسجن فيه المرأة مع زوجها من قبل المحتلّ، ويتوقّف الفيلم عند زهرة طريّة تخترق الأرض الحجريّة لتثبت إرادة الحياة وتختزل صورة المرأة المقاومة. لكنّ الفيلم يعرف الاحتفاظ بمقاربةٍ إنسانيّة بعيدةٍ عن استغلال الأحزاب السياسيّة للصورة بغية الترويج واحتكار العمل المقاوم.

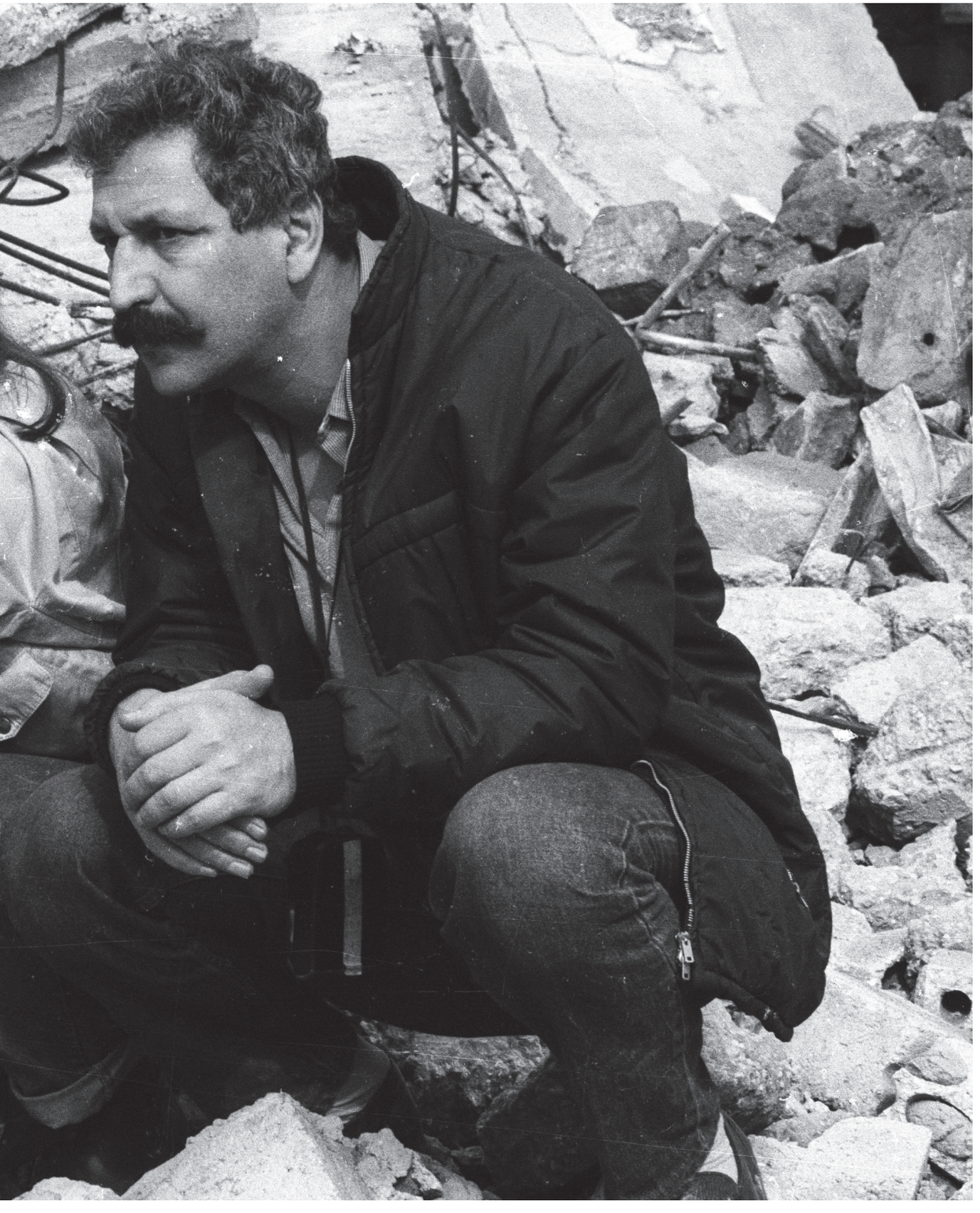
وبما أنّنا نحكي عن الصورة، من اللافت ذكر سحر صورة الـ١٦ ملم (من توقيع مصري) التي تجعل الشخصيّات، خصوصاً في البداية، وكأنّها شخصيّات فيلم روائيّ نتابعها في يوميّاتها. وتبدو هذه الصورة جليّةً وسينمائيّةً في فترة بروز الفيديو كوسيلة تصوير التّحقيقات التلفزيونيّة وحتّى العمليّات الاستشهاديّة كعمليّة حسين قصير ضدّ قافلة إسرائيليّة. لكنّنا نفتقد الالتصاق بأي شخصيّة أساسيّة إذ سرعان ما يطغى الموضوع وكأنّ الشخصيّات في خدمة الموضوع. من هنا تأتي مقابلات عدّة تجعلنا نبتعد عن الشخصيّة الأساسيّة.

في «حنين الغوردل» (٢٠٠٨) نلتقي من جديد بشخصيّة «زهرة القندول» خديجة بعد أكثر من عشرين عاماً وإثر حرب جديدة مع إسرائيل (٢٠٠٦) أدّت إلى استشهاد ابنها حسن المنتمي إلى «حزب الله» والذي يتابع الخطّ المقاوم الذي سلكه أهله. نشاهد في «حنين الغوردل» كيف أصبح المجتمع الشيعيّ أكثر تنظيماً ولديه مؤسّساته وقد تمرّس بالحرب مع إسرائيل. كما نتابع شخصيّاتٍ نسائيّةً أخرى فنيّة مثل الرسّامة سوزان غزّاوي التي فقدت منزلها ولوحاتها مع الغارات الإسرائيليّة على ضاحية بيروت الجنوبيّة. ويشكّل مشهد انتزاع جثث اللّوحات من تحت الأنقاض من أبرز اللحظات في الفيلم خصوصاً عندما ينتزع زوج سوزان لوحة رسمها تمثّل جدّته التي «مزّقها» الاجتياح الاسرائيليّ سنة ١٩٧٨ وقضى حتى على رسمها سنة ٢٠٠٦ فأصبحت ممزّقة كما قضى على متحف ذاكرة الاحتلال والتعذيب وهو معتقل الخيام في الجنوب. وبرغم أهميّة الشخصيّات، يفتقر الفيلم إلى صورةٍ تنطق من دون الحاجة إلى الكلام وإلى صوتٍ يتخطّى الكلمة والموسيقى.

**«رهينة الانتظار»**

بعد «زهرة القندول»، نعود إلى الجنوب اللبنانيّ الذي ما زال يواجه الاحتلال الإسرائيليّ ونتابع ليلى، الطبيبة التي تحرص على صحّة الجنوبيّات. من خلال يوميّات الطّبيبة، نشهد على المعاناة ودور المقاومة والإسلام السياسيّ من خلال نموذج الثّورة الإسلاميّة في إيران المجسّد بـ«حزب الله» (شخصيّة شقيق ليلى الأصوليّ)،

# يا عين





وتظهر الطّبيبة أنّها المرأة العلمانيّة غير المحجّبة شبه الوحيدة في مجتمع معظم النّساء فيه محجّبات.

بما يتعلّق بالشّكل، يغلب النّمط التلفزيونيّ الذي يحرم الفيلم من لحظات أكثر تأمليّةً يغيب فيها استعمال الموسيقى الميلودراميّة وتعطي للشخصيّة مساحةً أكبر تجعلنا نراقب الواقع ونستنتج تفاصيله من دون الحاجة إلى صوت التعليق.

**«أرض النساء»**

نستكمل مع «أرض النّساء» (منتج منفّذ: مي مصري، ٢٠٠٤) مسار نساءٍ مقاوماتٍ من خلال متابعة كفاح عفيفي، وهي مقاوِمةٌ فلسطينيّةٌ أمضت ست سنواتٍ في معتقل الخيام. وعبر كفاح نتعرّف إلى نماذج مختلفةٍ من النّساء الفلسطينيّات المقاوِمات قبل أن نلتقي بزميلات كفاح في معتقل الخيام، وسهى بشارة واحدة منهنّ.

في المشهد الأخير، نرى كفاح مع زوجها الذي كان أيضاً معتقلاً ويدور بينهما حوارٌ مفتعل وكأنّه يجري فقط للكاميرا، ومن اللافت أنّه ينتهي مع كفاح تنظر إلى الكاميرا سائلةً المخرج عمّا إذا انتهى التصوير. نظرة كفاح الأخيرة وضحكتها تُخرج المشهد من قالبه المفتعل ونحن نعرف مدى أهمّيّة تجنيب شخصيّات الوثائقي التحوّل إلى ممثّلين ومدى الحاجة إلى وقتٍ لجعل الكاميرا شبه مخفيّة تسجّل الواقع بعفويّته من دون افتعاله.

تظهر كفاح عفيفي من جديد في «حنين الغوردل» لتزور، بعد حرب ٢٠٠٦ الإسرائيليّة المدمّرة، ما تبقى من معتقل الخيام حيث سُجنت وحيث صُوّر «أرض النساء» قبل عامين. قام الإسرائيليّون مرّةً جديدة بمحو المكان، لكنّ روح النّصر تسيطر على الشخصيّات وفعل المقاومة مستمرّ.

**شمعون وطَيف المدينة**

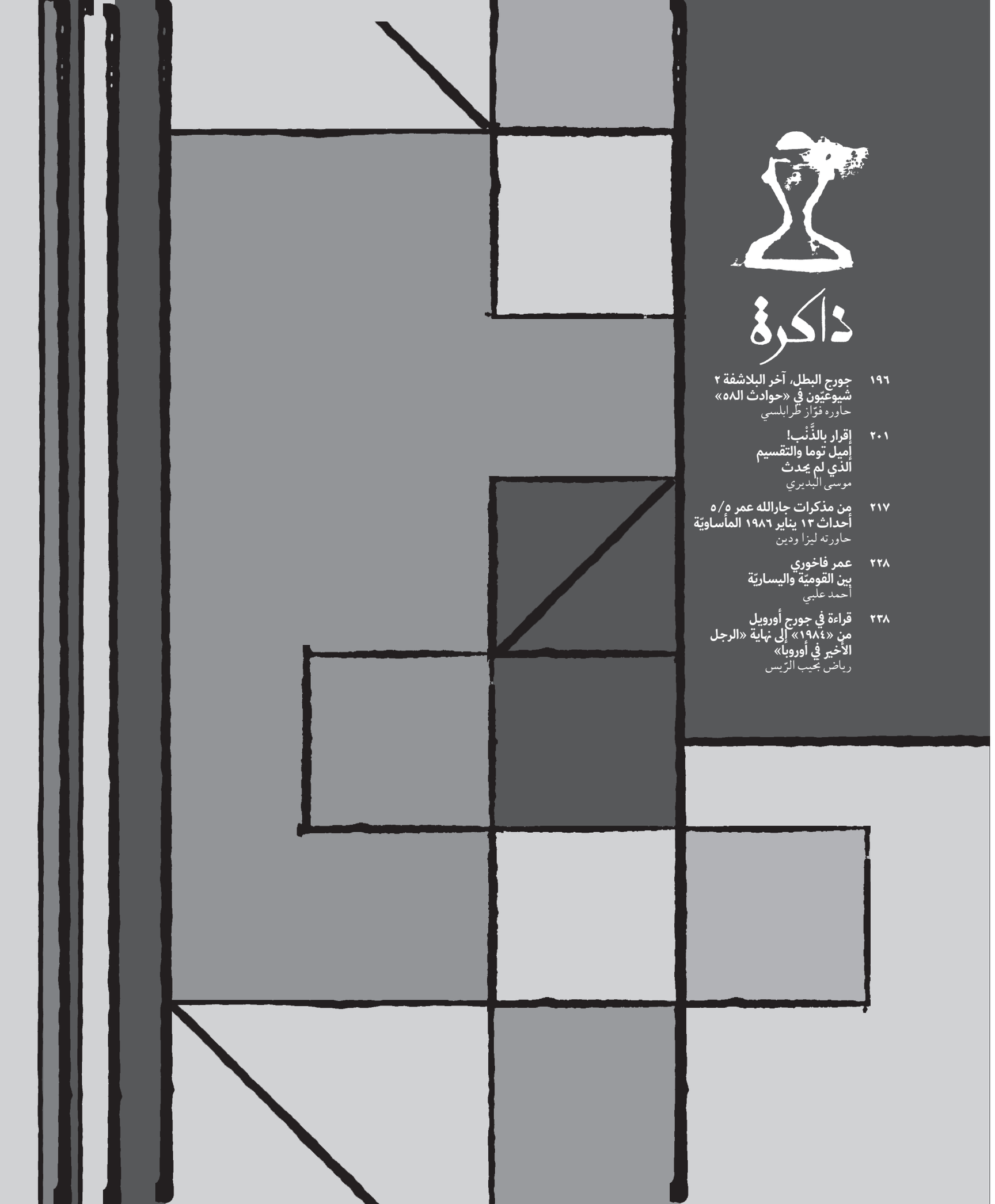
تظهر بوضوح آثار الإرث الوثائقيّ على الفيلم الروائيّ الوحيد لجان شمعون أي «طيف المدينة» (٢٠٠٠) الذي تغطّي أحداثه ثلاثة عقود من التاريخ اللبناني من خلال متابعة عائلة جنوبيّة تلجأ إلى بيروت سنة ١٩٧٤ فيشهد أفرادها على التحضيرات للحرب ومن ثمّ اندلاعها، ومن ثَمّ الاجتياح الاسرائيليّ سنة ١٩٨٢ لنصل أخيراً إلى فترة ما بعد الحرب واستلام زعماء الميليشيات مشاريع إعادة الإعمار والسيطرة على الاقتصاد. وكأنّ الفيلم خلاصة التّجربة الوثائقيّة ومشاهدات شمعون للواقع.

تتكوّن هذه الخلاصة في «طيف المدينة» من لقطاتٍ أرشيفيّة عن موجات التّهجير والغارات الإسرائيليّة والدّمار وقد سبق أن شاهدناها في الأفلام الوثائقيّة. كما أنّ هناك شخصيّات تابعناها على أرض الواقع وجاء الممثّلون لإعادة لعب دورها في إطار الفيلم الروائيّ كبعض المسلّحين والمدنيّين خصوصاً شخصيّة سهام التي تؤدّي دورها كريستين شويري وهي مستوحاة مباشرةً من «بطلة» فيلم «أحلام معلّقة» وداد حلواني. من اللافت في هذا الإطار وجود وداد في الفيلم ضمن المظاهرة التي تقودها سهام للمطالبة بمعرفة مصير المفقودين فيكون اللقاء مباشراً بين شخصيّة الفيلم الروائيّ وشخصيّة الفيلم الوثائقيّ لخدمة القضيّة.

يضعنا تحويل المخزون والإرث الوثائقيّ إلى مادّةٍ روائيّةٍ وكأنّنا أمام نموذج من الوثائقيّ الدراميّ ولكن ضمن قالب الفيلم الروائيّ من حيث حركة الكاميرا واستعمال الإضاءة والبحث عن جماليّة الصورة واختيار الممثّلين، فتصبح الحرب وكأنّها حكايةٌ مبسّطةٌ تُختصر فيها المراحل. كما قال لي شمعون، فإنّه لا يبحث عن تأريخ الحرب في «طيف المدينة» وهذا الأمر واضحٌ وربّما أنّ فقدان التّفاصيل المتشعّبة وعدم توفّر عفويّة اللحظة مقابل الإحساس بإعادة تركيبها يجعل وقع الوثائقيّ أكبر بكثيرٍ من الرّوائي. فالأوّل عاش الأحداث فيما الثّاني يحاول نقلها بصعوبةٍ وبوسائل تجعلها استعراضاً أكثر منها حقيقة. تؤكّد أفلام شمعون الالتزام بالإنسان، بيومياته ومشاكله وطموحاته ومقاومته وتحترم مفهوم السّينما التي يعتبر شمعون أنّها «يجب أن تساهم في تطوير المجتمع. فنحن من واجبنا مساعدة الإنسان وإلّا فما هي مسؤوليّة الفنّان؟». كما تغطّي أربعة عقودٍ من تاريخ لبنان الحديث وحروبه جاعلةً من سينما الحرب سينما مستمرّة تتفاعل مع الحاضر ومع رواسب الماضي الذي لم يمت.

بعد مارون بغدادي ورندة الشهّال، يغادرنا فردٌ آخر من هذا الجيل الذي نزع عنّا حالة اليتم السينمائيّ خاصّةً في مجال الفيلم الوثائقيّ فتتواصل التّجربة وتبقى الأفلام حيّةً وشاهدةً على تاريخنا المعلّق.

**تؤكد أفلام شمعون الالتزام بالإنسان. بيومياته ومشاكله وطموحاته ومقاومته وتحترم مفهوم السينما التي يعتبر شمعون أنها «يجب أن تساهم في تطوير المجتمع. فنحن من واجبنا مساعدة الإنسان وإلا فما هي مسؤولية الفنان؟».**



# ذاكرة


١٩٦ **جورج البطل، آخر البلاشفة ٢ شيوعيّون في «حوادث الـ٥٨»**
حاوره فوّاز طرابلسي

٢٠١ **إقرار بالذَّنْب! أميل توما والتقسيم الذي لم يحدث**
موسى البديري

٢١٧ **من مذكرات جارالله عمر ٥/٥ أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ المأساويّة**
حاورته ليزا ودين

٢٢٨ **عمر فاخوري بين القوميّة واليساريّة**
أحمد علبي

٢٣٨ **قراءة في جورج أورويل من «١٩٨٤» إلى نهاية «الرجل الأخير في أوروبا»**
رياض نجيب الرّيس

# جورج البطل، آخر البلاشفة ٢
## شيوعيّون في «حوادث الـ٥٨»

**حاوره فوّاز طرابلسي**

**مؤرخ وكاتب، لبنان.**

في تلك الفترة انتقلتْ علاقتي بالمسؤولين في الحزب إلى مرحلة أعلى. صرتُ أرى نقولا الشاوي وحسن قريطم وصوايا صوايا، هذا الأخير كان وافداً جديداً على الحزب وما زال شابّاً. تأخّرتْ معرفتي بفرج الله الحلو لأنّ تلك الفترة شهدتْ قصّة فرج الله و«رسالة سالم»[١]. حينها جلد الحزب فرج الله جلداً. كالَت الاجتماعات له الشّتائم. صحيحٌ أنّي لم أكن منظّماً في هيئة حزبيّة لكنّني سمعتُ بالحملة على فرج الله. أكثر من ذلك، في إحدى المرّات وبينما أنا داخلٌ إلى أحد المنازل الّتي لا يُفترض بي الدخول إليها سمعتُ كلاماً يدين فرج الله. خُصّص ذاك الاجتماع لإدانة الرّجل. سمعت أغلب الحديث. سمعتُ من يقول: «اعترف يا رفيق اعترف». وأشرس المتكلّمين يوسف خطّار حلو. قرّرتُ المغادرة لأنّي لم أشأ الاستماع إلى المزيد. سمعتُ الكلام بينما أنا جالسٌ في المطبخ وذلك لأنّني كنتُ ذاهباً إلى الشخص متسلّم المنزل ولم أعلم بأنّ اجتماعاً يُعقد. كان البيت من البيوت السرّية التي لا تُعقد عادةً فيها اجتماعات، إلّا أنّهم قرّروا ذلك الاجتماع في حينها. والمنزل قريب من منزلنا في فرن حايك السفليّ في الأشرفيّة، وهو منزلٌ كبيرٌ في الطّابق الرابع، تركناه عندما بدأ الوالد يعاني من مرض القلب.

### شاهدت اغتيال نسيب المتني

تمّ تكليفي بكثير من الأمور لها علاقة بالعمل السرّي. كثرت الاستفادة منّي. على سبيل المثال، استخدمتُ سيّارة فريد قزما ابن عمّ والدتي، أصبحتُ صديقاً لسائقه واستخدمته بإيصالي إلى أماكن يجهلها، أحياناً كثيرة لم يكن يعرف وجهتنا. تميّزتُ بإمكانات كثيرة استفاد منها الآخرون، منها سيّارة كبيرة من نوع «كورونيه دودج فرساي».

من ضمن مهمّاتي كان نقلُ رسائل خطّية وشفهيّة وإجراء اتّصالات شخصيّة. جاء ذلك نتيجة الثّقة التي اكتسبتُها. من مهمّاتي أيضاً كانت قضايا لها علاقة بالسّوفييت. على سبيل المثال في إحدى المهمّات تبيّن أنّ الضّابط السوفييتي اللعين يعمل على نحو مبتذل ليحوّل الضابط اللبنانيّ إلى عميل، فغضب منّي الضابط اللبنانيّ قائلاً: أريد إقامة علاقة مع السوفييت قائمة على النّصح والصداقة لا على العمالة. أحياناً يقومون بهذه المهمّات المخابراتيّة بحكم العادة.

وقد أصبحتُ قريباً من المسؤولين الحزبيّين وحزتُ ثقتهم. يُطلب منّي مثلاً بيع كتب أو كتابة منشور وتدبير طباعته بمكان ما. واظبتُ على هذا العمل من دون أن أنتسب إلى أيّ هيئة تنظيميّة حتّى العام **١٩٥٧**. في تلك السّنة كنّا نسكن في منطقة الخندق الغميق، ويقع منزلنا على الزاوية بين «شارع سوريا» والشّارع المؤدّي إلى الباشورة. في الطابق السادس. مقابل غرفتي، شارعٌ يصل شارع سوريا بشارع بشارة الخوري، في منتصفه دائرة سير وبالمقابل بيت صاحب صحيفة «التلغراف» نسيب المتني.

وأنا عائدٌ من سهرة حوالي الساعة الثانية أو الثانية والنّصف بعد منتصف الليل، وقفتُ على الشبّاك أدخّن سيجارةً كي لا تمتلئ الغرفة برائحة الدّخان، شاهدتُ اغتيال نسيب المتني. منزله مقابل دائرة الشّرطة. قدّرتُ أنّه تعرّض للاغتيال لأنّ الضوء لم يكن كافياً للرؤية بشكل جيّد. شاهدتُ وصول سيّارة من نوع فولسفاغن توقفَت وترجّل منها شخصٌ (هو نسيب المتني). أطلقوا عليه الرصاص. لم أرَ إطلاق النار، سمعتُ صوته فقط، كما لمحتُ شخصاً ترجّل من سيّارة نسيب نفسها حمله ونقله إلى المستشفى. عرفتُ على الفور ما حصل. أخبرتُ المتواجدين في المنزل أنّ نسيب المتني تعرّض لإطلاق نار.

١ الإشارة الى رسالة النقد الذاتي التي أجبر فرج الله الحلو على كتابتها بسبب موقفه المعارض لتأييد الاتحاد السوفييتي قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتّحدة العام ١٩٤٧ وما أملاه من تأييد الأحزاب الشيوعيّة العربيّة، بما فيها الحزب اللبنانيّ، لذاك القرار.

اتّصلتُ بعنصر من جماعتنا لم أعد أذكر من هو. اتّفقنا أن أراه في اليوم التالي على اعتبار أنّ الوضع في البلد سينفجر. ذهبتُ لمراجعة «مرجع» لنرى ما العمل. كان ثمّة إمكانيّة لقاء أحد من قادة الحزب في مكتب إدمون عون ونخلة مطران في شارع المصارف على «السور» في وسط البلد بحجّة أنّ أنطون ثابت أو إدمون عون محاميان، فهناك دائماً مكتبٌ يكون فيه حسن قريطم أو صوايا صوايا أو نقولا الشاوي. أمّا فرج الله فكان لا يزال «تحت الأرض».

**اكتشاف جورج حاوي**

وصلنا إلى المكتب والتظاهرات قد بدأت، وعناصر الدّرك يطلقون النار على الحرج الّذي خرجت منه تظاهرة. وعندما سألتهم: ما العمل؟ قالوا لي: «على رأس التظاهرات!» (طلبوا منّي أن أتسلّم قيادة التّظاهرات). لاقاني حسن فسألني عمّا أفعله هنا في قيادة التظاهرة. كنت مع كريم مروّة ومحمّد دكروب. مشينا حتّى وصلنا إلى أمام الباشورة، رأينا النّاس يقعون بين أقدامنا بسبب إطلاق النار من قبل الجيش. اختبأنا لأنّ الأمر لا يحتمل العنتريّات. وصلتُ إلى أحد الأماكن فرأيتُ شباناً يقطعون الأشجار لمنع آليّات العسكر من التحرّك. وبينما أنا أراقب قاطعي الأشجار، وجدتُ شخصاً يبلغ من العمر حوالي تسعة عشر عاماً يقوم بالمهمّة بكثير من العزم. أعجبتُ به. شاهدني رفيق يُدعى رياض بيضون (أصبح فيما بعد مدير ثانويّة وعضو مكتب سياسيّ)، كان حينها مسؤول الطلاب وطالباً في الجامعة اللبنانيّة. تقدّم رياض نحوي بصفته أحد قادة التظاهرات. قال لي: أراك معجباً بهذا الشاب، هذا رفيقٌ لنا في ثانوية الحرج ويُدعى جورج حاوي. تعرّض جورج للطّرد من البكالوريا لأنّه قدّم الامتحان نيابةً عن شخص آخر، فأخرّوه. ولم يقدّم جورج امتحان البكالوريا القسم الثّاني حتّى بلغ العشرين أو الثانية والعشرين من العمر. أخبرني رياض أنّ جورج حاوي من بلدة بتغرين. أجبته بأنّي أنظر إلى هذا الشاب ومن الواضح أنّه حطّاب. بعد ذلك سارت الأمور على النّحو المعروف إلى أن اندلعت الحرب...

أياماً عدّة قضيتُها على رأس الجماهير، لا نملك سلاحاً أو أيّ شيء آخر. في ذلك الحين بدأ الزّعران بحمل السّلاح، من لا يملك رشّاشاً حمل «جفتاً» ونحن لم نكن نملك شيئاً. غضبت وقلت لنديم عبد الصمد: ما رأيك بالذّهاب إلى الجبل والتّوجه إلى كمال جنبلاط؟ لأنّنا هنا لا نستفيد شيئاً، نتنزّه في الشّوارع وقد نروح ضحيّة لأنّ من الواضح أنّ الحزب متأخّر عن باقي العالم. أقنعت نديم بأن نتّجه إلى الشوف ونرى ما يمكننا أن نقوله لكمال جنبلاط، وقلت له: اذهب إلى بلدك، ما الّذي تفعله هنا؟

الخروج من بيروت لم يكن أمراً يسيراً لأنّ المدينة انقسمت، يجب عليكَ المرور من حيّ إلى حي. طريق الدّامور مقطوعة. ذهبنا إلى جسر القاضي، ووصلنا إلى كفرحيم، وَجدنا جماعة جنبلاط يتشاجرون بسبب خلاف على سرقة سلاح. بتنا الليلة في منزل المختار فأكل جلودَنا البقّ.

**الاستعانة بكمال جنبلاط**

في اليوم التالي توجّهنا أنا ونديم إلى المختارة وذهبنا مباشرةً إلى القصر. وجدنا كمال جنبلاط واقفاً وإلى جانبه شوكت شقير. اقتربنا منه مسرعين. أنا أعرفه لأنّني كنتُ على صلة بفؤاد رزق. خلال معركة المحامي فؤاد رزق [الانتخابيّة] ذهبتُ إلى الشوف، أوّلاً لقرابة مع آل رزق وثانياً لأنّهم طلبوا المساعدة. حينها ذهبتُ أنا وشخص اسمه جوزيف رزق. في تلك المعركة أراد فؤاد أن يكون معنا شخص آخر من عنده وليس فقط من الدروز. كان مرشّح الكاثوليك مع كمال جنبلاط في العام ١٩٥٣ وأعرفه منذ ذلك الحين، وهو من مؤسّسي الحزب الاشتراكي. والرّجل عصاميّ، صنع نفسه بنفسه كما أنّه محترمٌ جدّاً.

اقتربنا من كمال جنبلاط وألقينا عليه السّلام. على الفور، بادرتُ بالقول: أنا قادمٌ من بيروت، ونحن كما تعرف شيوعيّون، قد أكون أكثر إفادةً لكَ هنا، جئنا كي نضع أنفسنا تحت تصرّفك. أجابني بلؤم «يا عمّي إنتو شاطرين بالمظاهرات وبكتابة العرائض والبيانات بس ما بتعرفوا تقوّصوا». انزعجتُ أنا وابتسم هو. اقترب منه شوكت وأخذه جانباً ثمّ قال: «غير صحيح يا كمال بيك، أنا أعلم أنّ الشيوعيّين يجيدون إطلاق النّار كثيراً». وفي ذلك الحين كان للشيوعيّين تنظيمٌ عسكريٌّ مهمّ يعمل لمواجهة تهديدات تركيّا باسم «الحرس الشعبي في سوريا». اقترب الاثنان منّا وقالا إنّهما بحاجة إلى خدماتنا، ماذا تستطيعون أن تفعلوا لنا؟ كان السّؤال. أجبنا: يجب أن نعرف أوّلاً إلى ماذا تحتاجون. تحدّث كمال جنبلاط عن مشكلة في منطقة الغرب داخل القرى المسيحيّة مثل شملان وسوق الغرب، حيث مسيحيّوها يهربون منها عندما يلمحون «شراويل» من جماعتنا. وسألني عمّا إذا كنّا نستطيع إحضار شباب «نازيك» من المسيحيّين لنضعهم على الحواجز، فيتوجّهوا إلى جورج وحنّا وآرتين

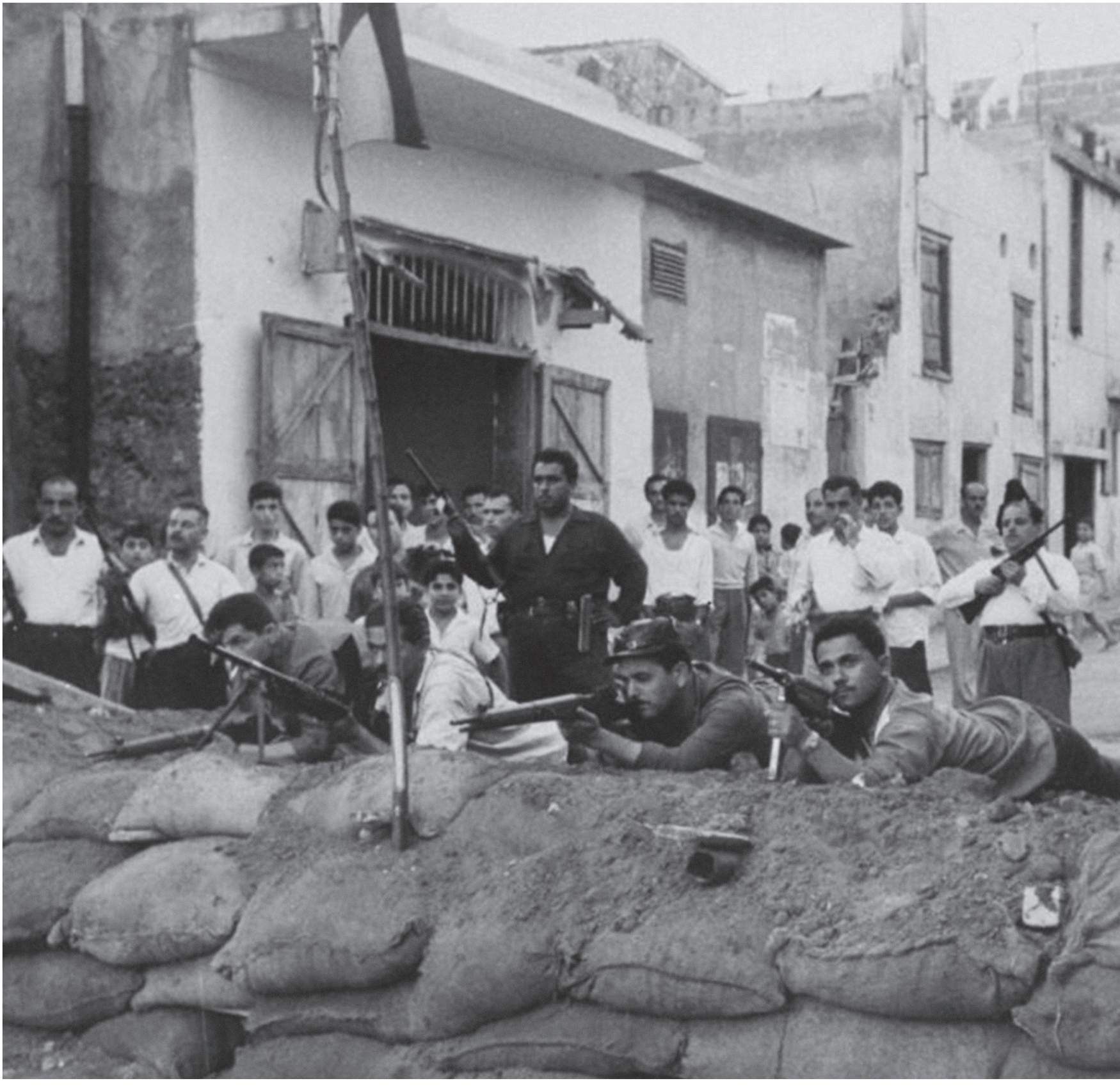
ويطمْئنوا الناس. أجبته فوراً بإمكانيّة ذلك لكنّي اشترطتُ أن يقوم بإيصالي إلى بيروت. تولّى الجيش إيصالي إلى العاصمة فيما توجّه نديم صوب عمّاطور.

افترضنا أنّ الجوّ المشحون انكسر مع كمال جنبلاط لأنّه أصبح بحاجة إلينا، فتوجّهتُ فوراً إلى بيروت وطلبت أن أرى أحد مسؤولي الحزب ممّن يتّخذون القرارات. قالوا لي إنّهم سيعطونني جواباً بعد حوالي السّاعة، وبعد ساعة أبلغوني أنّ نقولا سيلاقيني «غداً عند السّاعة كذا في بيت عادل عبد الصّمد». الحديث عن نقولا يعني أنّ الوضع أصبح جدّيّاً. كنتُ أعرف نقولا معرفة سطحيّة، ومنذ ذلك الحين بدأت صداقتي معه. ونقولا شابّ ذو سمرة مهيوبة وشعر أبيض على الرغم من أنّه كان يبلغ حينها من العمر اثنين وخمسين عاماً. جلسنا معاً، وأنا كنتُ قد أطلعتهم مسبقاً على الموضوع. أخبرني نقولا أنّ شيئاً أصبح جاهزاً وأنّ أبو علي سيتّصل بي في الغد (وأبو علي رفيق أرمني يُدعى كيفورك وهو عضو لجنة مركزيّة تعرّض للخطف بالقرب من المركز ثمّ وجدناه مرميّاً على الرملة البيضاء في فترة الثمانينيات خلال العدوان الإسرائيلي). اتّفقنا وقتها على طريقة اتّصال أبو علي بي. وبالفعل التقيت أبو علي كما أخبرني نقولا، وقد أحضر لي عدداً من الأشخاص نصفُهم أرمن ونصفهم عرب، ومن الأسهل على كيفورك التعامل مع الأرمن، منهم خليل الدبس وداوود بشارة ومخايل عون، أسماءٌ أصبحت جميعها فيما بعد كوادر حزبيّة.

الجميع من أبناء بيروت لأنّ أبو علي كان عضو منطقة بيروت، وأنا أردتُ أخذهم إلى الشوف. في بيروت كنّا محشورين بالناس لكثرتهم ولم نملك السلاح. أعطوني لائحة واتفقت مع الشباب على الذّهاب. أخبرتهم عن كيفيّة التّسلّل لأنّ الشّباب جاهزون هناك لاستقبالهم بمجرّد الاتصال بأحد المعنيّين. انطلق ثلاثون رفيقاً ثمّ طلبوا منّي وقف إرسال متطوّعين، متذرّعين بعدم وجود أماكن كافية للمبيت. كان من المفترض أن يذهبوا إلى سوق الغرب لكن عندما وجدهم كمال جنبلاط يرتدون جينزات ويتحدّثون لغات اجنبية ومهذّبين، لأنّهم جميعهم طلاب، قرّر إبقاءهم لديه خصوصاً أنّ المدارس كانت قد توقّفت حينها. صاروا يسمّونهم «الكومندوس» وصار كمال جنبلاط يتنقلّ وإيّاهم بدلاً من التّنقّل مع أصحاب السراويل. تدرّبوا على السّلاح لكنّهم لم يقاتلوا، لأنّ عدداً منهم كانوا مهندسين مثلاً ولديهم معرفة بكيفية تحديد الإحداثيّات فنقلهم جنبلاط على مطير عبيه فوق المطار. أمّا سائر أفراد المجموعة فظلّوا يرافقون كمال جنبلاط



❖ منطقة البسطة البيروتية في تموز من العام ١٩٥٨



ومن بينهم خليل الدبس وإدمون بعقليني. كان اسم جورج حاوي على اللائحة لكنّه لم يكن من الدفعة الّتي ذهبت إلى عند جنبلاط.

**نقل السلاح**

بعد مرور بعض الوقت اتّصل آرتين من الحزب، وكنّا في ذلك الوقت قد عملنا معاً على عدد من الأمور. قال لي إنّه يريد السيّارة. أخبرني عندما ناولته المفاتيح أنّه يريد تحويلها إلى مخزن لنقل السلاح وطلب منّي العمل في قطاع التسليح. قلتُ له إنّي عملتُ في الكثير من الأمور فما المانع في ذلك؟ غابت السيّارة حوالي ثلاثة أو أربعة أيّام. عندما عادت أصبحتُ أعرف كيفيّة وضع السلاح فيها لكنّي رغبتُ بتفتيشها بنفسي لمعرفة ما إذا كان هناك إمكانيّة لكشف السّلاح لأنّي لم أجد فيها تغييرات مهمّة. بدأتُ بتحميل السلاح. في المرحلة الأولى أقمنا صلة لترتيب قِطع السلاح. ذهبنا سيراً على الأقدام انا ونديم عن طريق دير العشائر. ومنها انتقلنا بإحدى السيّارات إلى دمشق حيث التقينا فرج الله، وقد طُلب منه تأمين سلاح. وفعلاً، اتّفق فرج الله مع أشخاص هناك يوفّرون سلاحاً للثّورة لأنّ ثورة ٥٨ تدخّل فيها جمال عبد النّاصر مباشرةً.

أخبرني فرج الله أنّ أفضل طريق هي طريق بعلبك، وأنّه يجب عليّ أن أتّفق هناك مع شبلي حيدر وفواز المعلوف اللذين يتولّيان تأمين السّلاح، ثمّ يضعون القطع في أحد الأماكن فأتولّى أنا نقلها إلى بيروت.

بقي نديم في الشوف إلى أن انتهت الحرب. أمّا أنا فتركت الشّوف نهائيّاً لأنّي باشرتُ مهمّةً جديدةً هي تأمين السّلاح للحزب، وهذه مهمّة تهمّني شخصيّاً كثيراً كي يقاتل الحزب ويحصل على مراكز.

وبدأتُ بنقل السلاح. ارتكزت خطّة شبلي حيدر على وضع السّلاح في أحد الكروم. تطلّب النّقل وقتاً طويلاً، ساعات وساعات، لأنّ العمل السرّيّ يتطلّب الخفاء، من الضروريّ ألّا يرى أحدٌ العمل وإلّا سيطر القلق على الشّخص. صرت أقوم بتعبئة السلاح وأسلك طريق الكروم. تلك الكروم كانت لآل المعلوف الّذين انطلق دورهم من هنا. بدأتُ بالتعاون مع آل المعلوف لأنّها عائلة شعرتُ معها بالثّقة، وكان معهم بناتٌ منهنّ إحداهنّ متزوّجة من بتغرين وما زالت كلّما تراني تذكرني وتقول لي: تحت العريشة.

داومتُ على إحضار السلاح ونقله لمدّة أربعين يوماً. وكنت أمرّ في ثكنة أبلح على حواجز الجيش وعلى حاجز الأمن العام في شتورا. ألهيتُ الحواجز دائماً. كلّما وجدتُ قطعة سلاح وضعتها إلى جانبي، ثمّ كنت أشغلهم وألهيهم، ولم أضطرّ مرّةً إلى فتح الصندوق كي يروا ما يحويه. بمعنى آخر لم يحرجوني ولو لمرّة واحدة بتفتيش السيّارة. قمتُ بتهريب حوالي مئتين أو ثلاثمائة قطعة سلاح عبر هذه الطريق، ثمّ هّربت عبر طريق ثانية هِي طريق طرابلس. طريق طرابلس أخطر لأنّه يجب عليكَ المرور عبر حواجز القوميّين، والقوميّون أشرس من الجيش ومحفّزون لأنّهم طرفٌ، بعكس الأمن العام. وعلى الرّغم من ذلك تمكّنتُ من تمرير سلاح مهمّ عن طريق طرابلس. لكنّ الطريف أنّ رسولي في طرابلس، مساعدي حينها في نقل السلاح، أصبح مفتش عام القضاء في لبنان، وهو قاض كبير اسمه وليد غمرة: كان يسلّمني السّلاح في ساقية طرابلس. حينها، كانت بساتين طرابلس على مدّ عينك والنظر.

في إحدى المرّات جلسنا أنا ووليد غمرة طويلاً وقد تأخّر السلاح بالوصول. لم يكن لدينا طعامٌ أو شراب. صرنا نأكل قشر ليمون حامض! وبقينا حوالي أربع وعشرين ساعة قابعين في الساقية، والليل بارد، ونحن لا نملك ملاحف، حتّى وصل السلاح. أسماءٌ كبيرة تولّت مهمّة تأمين السلاح، من بينهم فاروق معصراني. كنتُ أسلّم السلاح لنقولا الشاوي مباشرةً. وفي كلّ مرة نتّفق معاً على مكان نلتقي فيه. في إحدى المرّات حصل معنا حادثٌ طريف. قال نقولا يجب أن نضع السلاح في الغبيري. عندما وصلنا فتح نقولا كاراجاً كان يملك مفتاحه. الكاراج صغير وبالكاد يتّسع للسيارة، فاضطررتُ إلى الرجوع بها وإخراجها. لمح نقولا دوريّة أميركية داخل الحرج في الغبيري. نقولا رجلٌ شجاع. بمجرّد أن لمح الأميركيّين من بعيد طلب منّي رفْع غطاء محرّك السيّارة، وشمّر عن زنوده، وكان يرتدي قميصاً أبيض، وبدأ يمرّغ نفسه بالشّحم. أعصابه كالحديد. عندما وصلت الدوريّة الأميركيّة التي كانت تبعد عنّا حوالي عشرين متراً بدأ عناصرها بالضحك على هذا الختيار القادم لإصلاح السيّارة. توقّفوا للنّظر إليه. لكنّ قلبي في الحقيقة أصبح بين رجليّ وصرتُ أقول بيني وبين نفسي: أين علقنا؟ ومع مين؟ مع الأميركيّين!

عايشتُ نقولا في مناسبات كثيرة. مررتُ وإيّاه عبر الحدود مستخدمين جوازات مزوّرة، ودائماً كان هناك خطر أن يُلقى القبض علينا. تنظر إلى وجهه فترى الثّقة بحيث لا يمكن لأحد أن يشكّ فيه. لكن فرج الله الحلو لم يكن كذلك. كان يخوّفني فرج الله كجميع أهل حصرايل، أمّا نقولا فكان وجهه كالبلاطة لا تصدّق أنّه يخاف.

# إقرار بالذَّنْب!
## إميل توما والتقسيم الذي لم يحدث

**موسى البديري**

**مواليد القدس، فلسطين. درّس في جامعة بيرزيت حتى نهاية ٢٠١٢. من مؤلفاته «شيوعيون في فلسطين. شظايا تاريخ منسي» (٢٠١٢). ترجمة يزن الحاج.**

لا يسعى هذا المقال إلى تناول الموقف الذي اتّخذته عصبة التحرّر الوطنيّ حيال التقسيم عام ١٩٤٧، بل إلى إتاحة الفرصة لإميل توما، القائد البارز في عصبة التحرّر الوطنيّ في الأربعينيّات في فلسطين، لتفسير موقفه السياسيّ المُعارِض للتقسيم مع اندفاعه في الوقت ذاته إلى التنصّل من موقفه هذا، وهو موقفٌ أُرغم على اتّخاذه بهدف استعادة مكانه ضمن الصفوف الشيوعيّة. كما تهدف الوثائق المعروضة هنا إلى التحدّث عن نفسها بنفسها؛ ولن تُطلَق أحكامٌ أخلاقيّة أو قِيَميّة. وسيكون على القرّاء استنتاج خُلاصاتهم بأنفسهم. سنعرض ثلاث وثائق؛ الأولى هي خطاب إميل توما أمام مؤتمر الأحزاب الشيوعيّة في بلدان الإمبراطوريّة البريطانيّة الذي عُقد في لندن في شباط / فبراير - آذار / مارس من العام ١٩٤٧ وحضره توما بكونه ممثّلاً عن عصبة التحرّر الوطنيّ[١]. وقد ألقى شمويل ميكونِس خطاباً أمام المؤتمر ممثّلاً عن الشيوعيّين اليهود في فلسطين، إضافةً إلى خطاب لخالد بكداش[٢]. الوثيقة الثانية هي خطاب غروميكو أمام الجلسة الخاصة للجمعيّة العامة للأمم المتحدة التي عُقدت في أيار / مايو - نيسان / أبريل ١٩٤٧، حيث أعلن الموقف السوفييتيّ حيال التقسيم للمرة الأولى[٣]. وبالرغم من حقيقة أنّ الإحالة إلى التقسيم كان يُراد منها أن تبدو مشروطةً، إلا أنّنا نعلم اليوم بأنّها كانت حيلةً تكتيكيّة[٤]. كانت تلك إشارةً مبكرة إلى أن الدبلوماسيّة السوفييتيّة كانت منخرطةً أساساً في الشرط الأوسط كمنطقة نزاعات. أما الواجب الأساسيّ الذي ينبغي على تحالف الحرب الاضطلاع به فهو إضعاف الإمبرياليّة البريطانيّة على نحو أكبر. وقد قدّمت فلسطين نفسها فعلياً بكونها حلبةً عملت فيها حملة العنف التي تشنّها جماعة الاستيطان اليهوديّة ضد الحُكم البريطانيّ المستمر على تقديم الفرصة السانحة. أما الوثيقة الأهم من أجل غاياتنا هنا فهي إقرار بالذَّنْب من إميل توما، كتبه بعد عودته إلى حيفا في نيسان / إبريل عام ١٩٤٩، بعد أن أمضى عاماً في لبنان[٥]. وكما تُبيِّن السطور الأولى من النص، كان هذا الإقرار بأمر من رفيق قديم اسمه «إميل»[٦]، وكان الهدف هو إعادة توما إلى صفوف العصبة، التي كانت قد حُلّت نهائياً بعدما اتّحد من تبقّى من أعضائها العرب مع الشيوعيّين اليهود في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٨، وأسّسوا للمرة الأولى منذ عام ١٩٤٣ حزباً شيوعيّاً عربياً يهودياً موحّداً. ومع أنّه لم يعد يحمل اسم الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ، إلا أنّ الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ المُؤسَّس حديثاً اعتبر نفسه خلفاً للحزب الفلسطينيّ وبات يمتلك نسباً ممتداً إلى عام ١٩١٩، عام تأسيس الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ.

تقترح هذه الورقة، من حيث المبدأ، إطاراً يُحدّد موقع عصبة التحرّر الوطنيّ داخل فضاء الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة بين منتصف الأربعينيّات وأواخرها، وموقع إميل توما بكونه القائد البارز في العصبة. وكذلك تشير إلى سمات السياق الدوليّ الأكبر الذي يعرض مشهد انحسار القوة البريطانيّة، والإدراك السوفييتيّ للقوى التي ستُسهّل نهاية الهيمنة البريطانيّة. ولا ينبغي أن ننسى أنّ الهيمنة البريطانيّة كانت جليّةً في جميع الدول العربيّة «المستقلة» اسمياً التي لعبت دوراً محورياً في النضال من أجل فلسطين، تحديداً، العراق، مصر، وشرق الأردن. كانت هذه الدول الثلاث تابعةً لبريطانيا مع كونها في الوقت ذاته متنافسات شرسات من أجل الهيمنة على المنطقة حيث كان نوري السعيد في العراق والملك عبد الله في الأردن هما المُرشّحين الأساسيّين.

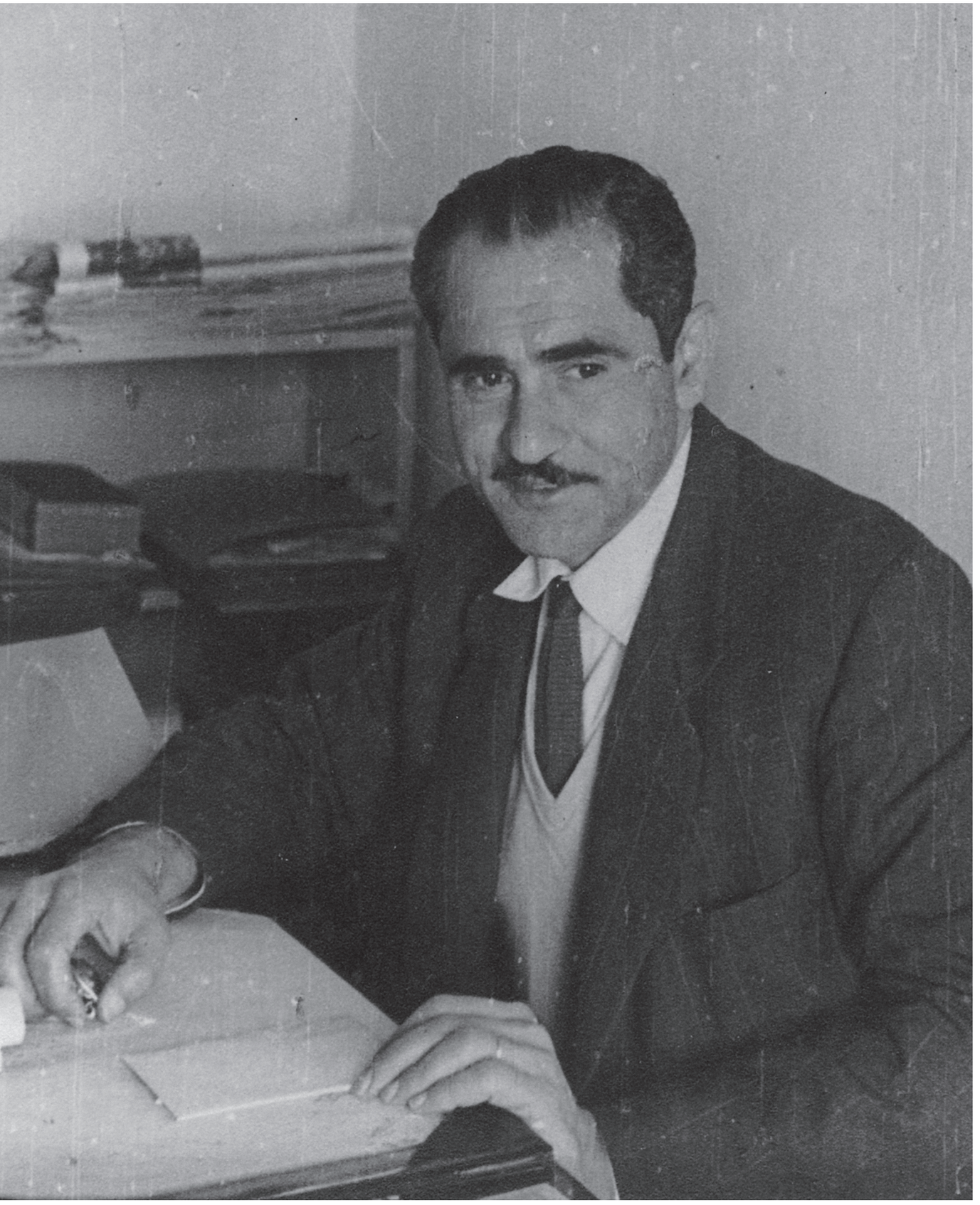
ومع أنّه أحد أقدم الأحزاب الشيوعيّة في المنطقة، إلا أنّ للحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ ماض مضطرب.

إذ تأسّس على يد مجموعة من العمال اليهود اليساريّين الذين تلاشت أوهامهم عن الصهيونيّة حالَ وصولهم إلى فلسطين، ولكنّهم واصلوا برغم هذا إدراك أنفسهم بكونهم جزءاً من حركة ثوريّة اشتراكيّة عالميّة وسارعوا مباشرةً إلى الانضمام إلى الأمميّة الشيوعيّة التي تأسّست في وقت قريب. وكانت شروط الانضمام إلى عضويّة هذه الجماعة تشدّد على الحاجة إلى تحويل أنفسهم إلى «حزب إقليميّ»؛ بهدف معالجة واجبات التنظيم الثوريّ والقلق من أنّهم سيصبحون حزباً عربياً يهودياً. ومنذ العام ١٩٢٤ فصاعداً، وهو التاريخ الرسميّ الذي يشير إلى التزام الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ بالكومنتيرن حتى عام ١٩٤٣، حينما تفكّك الحزب بعدما كان تنظيماً أمميّاً موحّداً وأنتج انشقاقات «قوميّة» عديدة، واصل الحزب صراعه من أجل واجب صون وحدته الأمميّة مع التزامه بتوجيهات الكومنتيرن الدائمة كي يصبح حزباً بأغلبيّة عربيّة، بحيث تنعكس هذا الأغلبيّة في عضويّته وقيادته على السواء. وبعد تعرُّبه رسمياً مع أوائل الثلاثينيّات، وانتخاب عضو عربيّ كسكرتير عام للحزب للمرة الأولى عام ١٩٣٤، صمد الحزب في مواجهة النزاع المرير الحتميّ بين السكّان العرب الأصليّين والمستوطنين الأوروبيّين الوافدين، ولكنّه عجز عن عبور الهوّة المتّسعة بازدياد التي تفصل بين الجماعتين.

**بداية الخلافات**

مع اندلاع الثورة العربيّة عام ١٩٣٦، وإعلان الحزب دعمه الكامل للموقف الذي تبدّى بوضوح في الوثائق الحزبيّة بكونه «نضالاً مناهضاً للإمبرياليّة ضد الكولونياليّة البريطانيّة»، بدأت الصُّدوع بين أعضاء الحزب العرب واليهود بالاتّساع. وتفاقم هذا الوضع مع اندلاع الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩ والموقفين المتباينين للجماعتين حيال طلب بريطانيا منهما دعمها في المجهود الحربيّ والانضمام إلى صفوف الجيش البريطانيّ للمشاركة ضمن المجهود الحربيّ للحلفاء ضد قوى المحور. وسواء كان هذا على مستوى النيّات أو الأهداف، بات الحزب الآن بمثابة قسمين منفصلين ينشغل كلٌّ منهما بأمور جماعته. ومع تفكّك الكومنتيرن عام ١٩٤٣، تفتّت الإسمنت الذي يثبّت أعضاء الأحزاب معاً. وفي سائر الأحوال، وخلال سنوات عديدة، كان الحزب قد فقد اتصاله أساساً بالمركز في موسكو. ولم تعد جامعة كادحي الشرق الشيوعيّة، التي كانت مركز التدريب الأساسيّ للكوادر الحزبيّة، تستقبل كوادر جدداً من فلسطين (ربما كانت آخر دفعة قد سافرت إلى موسكو عام ١٩٣٥ وضمّت بولس فرح، الذي سيلعب دوراً جوهرياً في تأسيس عصبة التحرّر الوطنيّ بعد عقد من الزمن)[٧]. وبينما كان أعضاء الحزب اليهود قادرين على مواصلة نشاطهم في البنى المتنوّعة للجماعة اليهوديّة على اختلاف مستوياتها (اليشوف بحسب المصطلح الصهيونيّ)، كان الأعضاء العرب مُشتَّتين. إذ لم يلعبوا يوماً دوراً شرعياً في الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة التي كان قادتها يميلون إلى اعتبار الشيوعيّين «منحدرين من الطبقات الدنيا» علاوةً على كونهم صهاينة متخفّين في آن. وفي جميع الأحوال، كانت القيادة التقليديّة تُبطن رؤيةً ازدرائيّةً أوروبيّةً سائدة حيال الشيوعيّين تُماثل تلك الرؤية المنتشرة في صحف العواصم العالميّة. كانت القيادة الفلسطينيّة حركةً نخبويّةً، تحالفاً متناثراً من قيادات مُعيَّنة ذاتياً تتكوَّن في الغالب من إقطاعيّين، وأعيان، ورجال دين يعتبرون الفلّاحين والعمّال أتباع ثانويّين، في حال تنبّهوا إلى وجودهم أساساً. وبعد فترة سكون قصيرة قرابة العام ١٩٤٣، ظهر «حزب وطنيّ» عربيّ، بنية حديثة متباينة كلياً عن الأحزاب العربيّة القائمة، وكان قادته أعضاء شباباً متعلّمين من الطبقتين الوسطى والدنيا. وقد ساهمت وجهة نظره الحداثيّة حيال العالم والتنظيم السياسيّ على السواء في تمييزه عن الأحزاب القوميّة القديمة التي كانت أقرب إلى أتباع شخصيّين لقادة إقطاعيّين، ورجال دين، وأعياناً يسعون إلى تكريس رعايتهم. كانت حداثة العصبة تتركّز في جوهر تقدميّتها فعلياً. موقفها حيال التنظيم الحزبيّ، محاولاتها تأسيس نقابات عماليّة، وتجمّعات طلّابيّة، وتجمّعات مهنيّة، إلخ، وفتوّة أعضائها الفاعلين (معظمهم أصغر من الثلاثين) الذين كانوا كلّهم قد نشأوا وتعلّموا خلال سنوات الانتداب، بخلاف الأعضاء الأكبر سناً الذين كانوا عثمانيّي النشأة والولادة والذين كانوا - بهذا المعنى - ينتمون إلى حقبة سالفة. وانضم عدد من الأعضاء القدامى في الحزب الشيوعيّ الميت إلى صفوف التنظيم الجديد الذي كان يهدف، كما يدل اسمه عصبة التحرّر الوطنيّ، إلى الاستقلال وبناء الدولة، لا إلى الصراع الطبقيّ أو الثورة العالميّة. وعلى عكس الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ القديم، لم تكن العصبة تنظيماً أمميّاً. كان أعضاؤها من العرب حصراً.

أخذ الحزب على عاتقه واجبين، أن يُشيّد بناه الداخليّة وأن يحظى باعتراف القيادة التقليديّة كجزء شرعيّ من الحركة الوطنيّة العربيّة. وقد أبلى بلاءً جيّداً في الواجب



الأول، ولكنّه أخفق في الثاني بالرغم من محاولاته الحثيثة. ففي سعيه نحو «الوحدة الوطنيّة» تخلّى الحزب عن مواقفه السياسيّة المستقلة في كل مفصل من المفاصل والتزم بالمواقف التي تناصرها الزعامة الوطنيّة المُنصَّبة ذاتياً متجنّباً أيّ محاولة صراع مع الزعامة المُكرَّسة (كما في موقفه من لجنة التقصّي الأنكلو - أميركيّة بشأن فلسطين، اليونسكوب [لجنة الأمم المتحدة الخاصة بشأن فلسطين]). ومنذ نهاية الحرب العالميّة الثانية حاولت العصبة إمالة الحركة الوطنيّة إلى رؤيتها حيال النضال بكونه في المقام الأول نضالاً من أجل حق تقرير المصير والاستقلال. وقد كان الخصم الأبرز هو الحُكم البريطانيّ في فلسطين، وليس جمهور المستوطنين اليهود في البلاد كما حاولت الزعامة التقليديّة تصويرهم. وبهدف تحقيق هذا، كان الأمران لازمين، بناء جسور مع السكّان اليهود وطمأنتهم أنّهم سيمتّعون بحقوق متساوية في الدولة الفلسطينيّة الديمقراطيّة المستقلة في فلسطين[٨]، والسعي نحو اكتساب دعم القوى الدوليّة المُعارِضة لهيمنة الإمبرياليّة البريطانيّة المتواصلة. وتبعاً لرؤية العصبة، كان هذا الأمر يستلزم أخذ القضيّة الفلسطينيّة إلى المحافل الدوليّة، أي منظمة الأمم المتحدة المتأسسة أخيراً حيث كان الاتحاد السوفييتيّ وكتلته يتمتّعان بعضويّة دائمة فيها[٩]. أما الزعامة الوطنيّة، من الجهة المقابلة، فقد ألقت بمرساتها مع الجامعة العربيّة المتأسسة أخيراً، والتي كانت لبريطانيا دور جوهريّ في تأسيسها، وكانت تعتبر الإمبراطوريّة البريطانيّة «صديقاً» وأملت بتحقيق تسوية للنزاع لصالح العرب من خلال علاقتها الوطيدة بها.

**منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حاولت «العصبة» إمالة الحركة الوطنية إلى رؤيتها حيال النضال بكونه في المقام الأول نضالا من أجل حق تقرير المصير والاستقلال. وقد كان الخصم الأبرز هو الحكم البريطاني في فلسطين. وليس جمهور المستوطنين اليهود في البلاد.**

وطوال العقد الأخير قبل إعلان بريطانيا نيّتها إنهاء الانتداب، كانت سياسة العصبة تهدف إلى دمقرطة الحركة الوطنيّة مع إحداث زخم وطنيّ للضغط على الزعامة التقليديّة للمفتي وأعوانه من أجل التقارب مع المنظمة الدوليّة الجديدة، ومع أعضائها الراديكاليّين على الأخص.

ولم تُخفق العصبة في هذا المسعى فحسب، بل أقدمت كذلك، بعدما أنشأت الأمم المتحدة لجنة اليونسكوب لدراسة المشكلة الفلسطينيّة واقتراح حلول لها، على التمسّك بقرارات الزعامة التقليديّة لمقاطعة اليونسكوب، بالرغم من إدراك العصبة بأنّ هذا الموقف سيضرّ بها. وخلال السنوات الخمس تقريباً من وجودها، نأت العصبة عن التخلّي عن زعامة المفتي وظنّت أنّ فرصها ستكون أكبر في التأثير على القراءات الوطنيّة العربيّة من الداخل وليس من الخارج[١٠].

**إميل توما: سيرة موجزة**

ولد توما في حيفا عام **١٩١٩**، والتحق بجامعة كمبردج في بريطانيا عام **١٩٣٧** ولكنّ إقامته في الخارج انقطعت عام **١٩٣٩** بسبب اندلاع الحرب العالميّة الثانية. وقبل عودته إلى حيفا شارك في نيسان / أبريل من العام نفسه في مؤتمر عُقد في باريس نظّمته المنظّمة الطلّابيّة العالميّة بشأن المسألة الكولونياليّة[١١]. وإثر عودته إلى فلسطين انضمّ إلى جماعة غير رسميّة بزعامة بولس فرح، انتظمت لاحقاً في نادي شعاع الأمل الذي أسّس اتّحاد النقابات في منافسة مباشرة مع جمعيّة العمّال العربيّة الفلسطينيّة في حيفا، والتي كانت ذات جذور أقوى. وكان هذا الاتّحاد هو الحاضنة التي أدّت إلى تأسيس عصبة التحرّر الوطنيّ عام **١٩٤٤** بعد تفكّك الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ. ومنذ البداية، ومع تأسيس جريدة الاتحاد، لسان حال الحركة العماليّة العربيّة، سيصبح إميل توما الوجه الأبرز للمنظمة الجديدة. وقد تعزّز هذا الأمر بفعل رحلاته العديدة إلى لبنان للقاء بكداش وفرج الله الحلو، وإلى أوروبا لتمثيل عصبة التحرّر الوطنيّ. وقد كانت أولى تلك الرحلات في شباط / فبراير **١٩٤٧** حين شارك في مؤتمر لندن للأحزاب الشيوعيّة في بلدان الإمبراطوريّة البريطانيّة. وزار لاحقاً باريس وبراغ وبلغراد، حيث التقى بقادة شيوعيّين عديدين بمن فيهم تيتو وموريس توريز[١٢]. وبعد عودته إلى فلسطين في أيار **١٩٤٧** نظّمت عصبة التحرر الوطنيّ استقبالاً حاشداً، حيث تجمّع أكثر من خمسة آلاف شخص لاستقباله في حيفا، من بينهم حمدي الحسيني، وهو زعيم يساريّ سلميّ من غزة، والشاعر الشهير أبو سلمى[١٣]. وفي تشرين الثاني من العام ذاته سافر إلى عاليه في لبنان برفقة زعماء آخرين في عصبة التحرر الوطنيّ للقاء المفتي الحاج أمين الحسيني، في اعتراف علنيّ بزعامته للحركة الوطنيّة[١٤]. ولكنّ موقع توما لم يبق بلا منافس. إذ زاحمه كلٌّ من

فؤاد ناصر، الذي كان تركيزه الأساسيّ منصبًّا على قضايا اتحاد النقابات والجمعيات العربيّة، وهو بمثابة نقابة العمال المرتبطة بالعصبة، ومخلص عمرو، رئيس رابطة المثقفين العرب، وهي منظمة فرعيّة أخرى للعصبة[١٥]. وحينما صوّتت الأمم المتحدة دعماً لقرار التقسيم في تشرين الثاني ١٩٤٧، كان رد الفعل الأول لجريدة الاتحاد برئاسة تحرير توما هو رفض التقسيم ومواصلة المطالبة بدولة ديمقراطيّة في فلسطين[١٦] (أغلقت السلطات البريطانيّة الجريدة في ٢٣ كانون الثاني / يناير ١٩٤٨، ما جرّد العصبة من وسيلتها لإيصال سياساتها إلى الرأي العام؛ وستعاود الجريدة الصدور في تشرين الأول ١٩٤٨ بعد أن سمحت لها بذلك الإدارة الإسرائيليّة الجديدة التي باتت المسيطرة على حيفا).

**بدا بأن «عصبة التحرر الوطني» بقيادة توما ستواصل سياستها الثابتة المديدة في معارضة التقسيم، ولكن القسم الذي تبقى في فلسطين عانى من عدة انشقاقات.**

عُقدت سلسلة من الاجتماعات الحزبيّة في تلك الظروف المضطربة التي تخيّم على البلاد، ولكن لم يحضرها سوى عدد قليل من الأعضاء؛ وفي بادئ الأمر بدا بأنّ عصبة التحرر الوطنيّ بقيادة توما ستواصل سياستها الثابتة المديدة في معارضة التقسيم، ولكنّ القسم الذي تبقّى في فلسطين عانى من عدة انشقاقات. فبينما واصل مخلص عمرو المتواجد في منطقة الخليل مسيرته مع جماعة صغيرة من الأعضاء وألقى بأسهمه مع القوى المصريّة التي كانت تحتل الأجزاء الجنوبيّة من البلاد آنذاك، تمكّن فؤاد ناصر من اكتساب جماعة من الأعضاء الفاعلين إلى صفّه لدعم التقسيم وقدّم نفسه بكونه الصوت الشرعيّ لعصبة التحرر الوطنيّ (ولكنّه رحل من الناصرة إلى غزة ومنها لاحقاً إلى المنطقة التي باتت تُعرَف باسم «الضفة الغربيّة»، حيث حوّل بقايا عصبة التحرر الوطنيّ إلى الحزب الشيوعيّ الأردنيّ). أما رفيقا توما السابقان، إميل حبيبي وتوفيق طوبي (ولكن ليس بولس فرح) اللذان كانا مواليين لنصّار، فقد تسلّما قيادة العصبة ليتّحدا في تشرين الأول ١٩٤٨ مع الشيوعيّين اليهود لتشكيل الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ. وحتى قبل هذا التاريخ، غاب توما، الذي كان غير قادر أو غير راغب بالدخول في صراع، عن الاجتماع الذي عُقد في الناصرة في شباط ١٩٤٨ الذي دعم موقف نصّار الداعم للتقسيم[١٧]. وفي نيسان من العام نفسه، اعتُقل توما في بيروت، ثم أُودع في سجن بعلبك حيث أعلن إضرابه عن الطعام ليُطلق سراحه أخيراً في أيلول من العام ذاته. وفي نيسان ١٩٤٩، بات قادراً أخيراً على العودة إلى حيفا، بفضل مساعي أعضاء حزب مپام الذين كانوا آنذاك جزءاً من الحكومة الإسرائيليّة وكانوا يأملون ضم الأعضاء العرب في عصبة التحرر الوطنيّ إلى صفوف حزبهم[١٨].

**مؤتمر لندن**

حضر «مؤتمر لندن للأحزاب الشيوعيّة في بلدان الإمبراطوريّة البريطانيّة» الذي عقد بين ٢٦ شباط / فبراير و ٢ آذار / مارس ١٩٤٦ كلٌّ من شموئيل ميكونيس وإميل توما كمندوبين فلسطينيّين. ومع أنّ كليهما تحدّث عن مصالح جماعة العمال العرب واليهود، وكان كلاهما راغباً بتحقيق الاستقلال وإنهاء الحكم الكولونياليّ، كان ثمة اختلافات في طروحاتهما. تحدّث ميكونيس من جهته عن «المرارة المبرّرة لليشوف حيال الحكم الكولونياليّ» والحاجة إلى تعزيز وحدة القوة التقدميّة لدى العرب واليهود. واعتبر أنّ وحدها الجهود المشتركة للعرب واليهود في نضال مشترك من أجل حريّة البلاد ستُفضي إلى قيام دولة فلسطينيّة ديمقراطيّة ومستقلة، ونظام ديمقراطيّ ومساواة كاملة في الحقوق المدنيّة للعرب واليهود. وشجب الدوائر الشوفينيّة الصهيونيّة «المتعامية حيال وجود الشعب العربيّ والتي تدعو إلى وجوب تحويل فلسطين إلى دولة يهوديّة، والتي تقابل شوفينيّين عرب بعينهم يتناسون الواقع الجديد في البلاد ويطالبون بدولة عربيّة صرفة». ولم يكن في خطابه أدنى إشارة إلى التهجير، أو بيع الأراضي أو التقسيم[١٩].

أما إميل توما، فقد شجب الصهيونيّة والإمبرياليّة البريطانيّة، ورفض كذلك الافتراض السائد بأنّ النزاع كان بين العرب واليهود. فالنزاع الجوهريّ كان بين الشعب العربيّ وجموع اليهود من جهة، والإمبرياليّة البريطانيّة من الجهة المقابلة. ومع ذلك، لا يمكن فصل النضال ضد الإمبرياليّة عن النضال ضد الحركة الصهيونيّة التي كانت «تُضلِّل وتُضيع جموع اليهود في فلسطين». وشدّد على أنّ «النضال ضد الانتداب وضد الإمبرياليّة البريطانيّة لا

يمكن أن ينفصلا عن النضال ضد الصهيونيّة والتهجير وبيع الأراضي. ولا يمكن أن يتحقق التحالف بين القوتين والحاجة إلى عزل اليهود عن الصهيونيّة والإمبرياليّة إلا على هذا النحو». كانت المطالبة الصهيونيّة بهجرة اليهود تقف في طريق التعاون الشعبيّ بين العرب واليهود في نضال مناهض للإمبرياليّة، وكذلك فإنّ الحركة

**كانت السياسات الخارجية للدول مدفوعة بمصالحها الشخصية لا بالأيديولوجيا السياسيـــــــــــــــــة. ولم يكن الاتحاد السوفييتي استثناء لهذه القاعدة. بالرغم من الادعاءات الصاخبة لكل من داعميه ومناهضيه القائلة إنه كان مدفوعا بالأيديولوجيا.**

الصهيونيّة التي ينتمي إليها اليهود المُضلَّلون لا تقاتل من أجل الاستقلال والتحرّر من الإمبرياليّة البريطانيّة. وتناول خطابه الاحتلال الصهيونيّ للأرض وما تبعه من تهجير لاحق للفلّاحين العرب، ولكنّه تركّز خصوصاً على شجب الإدارة الكولونياليّة البريطانيّة لأنّها تعيق التنمية الاقتصاديّة العربيّة ولكونها لا تقتصر على معاملة «الرأسماليّين اليهود كجماعة ذات امتيازات بحد ذاتها فحسب، بل تسحب التصنيف ذاته على العمال اليهود أيضاً». وأشار إلى أنّ الزعامة الفلسطينيّة التقليديّة عانت من إخفاق صارخ، «... لم تكن قادرةً أبداً على اتخاذ موقف إيجابيّ حيال السكّان اليهود لتمييزهم عن الصهيونيّة ...» ويعود سبب خطأ هذا الموقف إلى التآمر الصهيونيّ الإمبرياليّ علاوةً على المكانة المميَّزة للجماعة اليهوديّة في البلاد. ومع أنّ الزعامة التقليديّة كانت تُقرّ على الدوام بـ«الحقوق المدنيّة لليهود»، إلا أنّها لم تعتبر يوماً أنّ جزءاً من هدفها يتمثل في الحاجة إلى العون اليهوديّ في النضال من أجل التحرّر[٢٠]. وتجدر الإشارة إلى أنّ كلاً من خالد بكداش وفرج الله الحلو شاركا في المؤتمر، وبرغم عدم وجود دليل ملموس على أيّ لقاء مشترك بين المندوبين الفلسطينيّين والسوريّين إلا أنّ عدة تقارير أشارت إلى أنّ هذا اللقاء تمّ، وإلى أنّ تفضيل ميكونيس المُعلَن - حتى في تلك المرحلة - كان باتّجاه تأسيس دولة ثنائيّة القوميّة، بل وإلى التقسيم ربما، مع أنّ هذه النقطة لم ترد في خطابه أمام المؤتمر[٢١]. ومع اختتام المؤتمر صدر إعلان بشأن فلسطين يشدّد على دعمه للمطالبة بإنهاء فوريّ للانتداب البريطانيّ ولقيام دولة مستقلة موحّدة وديمقراطيّة في فلسطين. ووقّع جميع المشاركين على الوثيقة مؤكّدين دعم أحزابهم لهذا الموقف[٢٢].

### خطاب غروميكو في الأمم المتحدة

في عام ١٩٤٥، مع المؤتمر التأسيسيّ للاتحاد العالميّ لنقابات العمال في لندن، صوّتت البعثة السوفييتيّة دعماً لقرار مُقدَّم إلى المؤتمر يؤكّد على وجوب «تمكين الشعب اليهوديّ من مواصلة تأسيس فلسطين بكونها وطنهم القوميّ»[٢٣]. ولكن من الصعب تحديد ما إذا كانت هذه المبادرة إشارة إلى سياسة خارجيّة سوفييتيّة ملموسة حيال الصراع القائم في فلسطين أم مجرد محاولة لتيسير فعاليات المؤتمر في وقت كان فيه السوفييت والقوى الغربيّة لا يزالون متحالفين إثر انتصارهم الأخير على قوى المحور. وبعد سنتين، حينما أعلنت بريطانيا قرارها بشأن إنهائها للانتداب وتسليم القضيّة إلى الأمم المتحدة لحلّها، كان المناخ الدوليّ قد تغيّر. كانت الحرب الباردة في أشدّها الآن (ألقى تشرتشل خطابه بشأن «الستار الحديديّ» في آذار ١٩٤٦)، وبدأ الشرق الأوسط يبرز كمنطقة أساسيّة لتنافس القوى العظمى. أما بالنسبة إلى السوفييت، بدا الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانيّة. ومع أنّ القوة البريطانيّة باتت في مرحلة انحسارها، كان ثمة خشية من أنّ الولايات المتحدة ستحل محلّها لتصبح القوة المهيمنة الجديدة. ولكن لم تكن تلك هي الحال فعلاً. إذ بدا أنّ ثمة فرصة لتسريع عمليّة خروج البريطانيّين من إحدى مناطق سيطرتهم في العالم العربيّ. وفي ما يتعلق بفلسطين، بات النزاع يُقرأ الآن بكونه نزاعاً بين حركة صهيونيّة متعاظمة القوة ودولة كولونياليّة ضعيفة. أما السكّان العرب الفلسطينيّون فلم يُعتبروا أكثر من لاعبين صغاراً، في حال انتُبه إلى وجودهم أساساً. كانت دور الجامعة العربيّة تتحدث باسمهم وتوجّه تحرّكاتهم. أما بالنسبة إلى السوفييت، فلم تكن الجامعة العربيّة أكثر من مجرد أداة تابعة للسلطة البريطانيّة. كما أنّ تسريع عمليّة رحيل بريطانيا من فلسطين سيمثّل ضربةً للموقع البريطانيّ في المنطقة وإضعافاً لوكلائها المحليّين؛ ولم تكن الإجراءات المحليّة في فلسطين ذات موقع متقدّم في سلم أولويّات الأجندة.

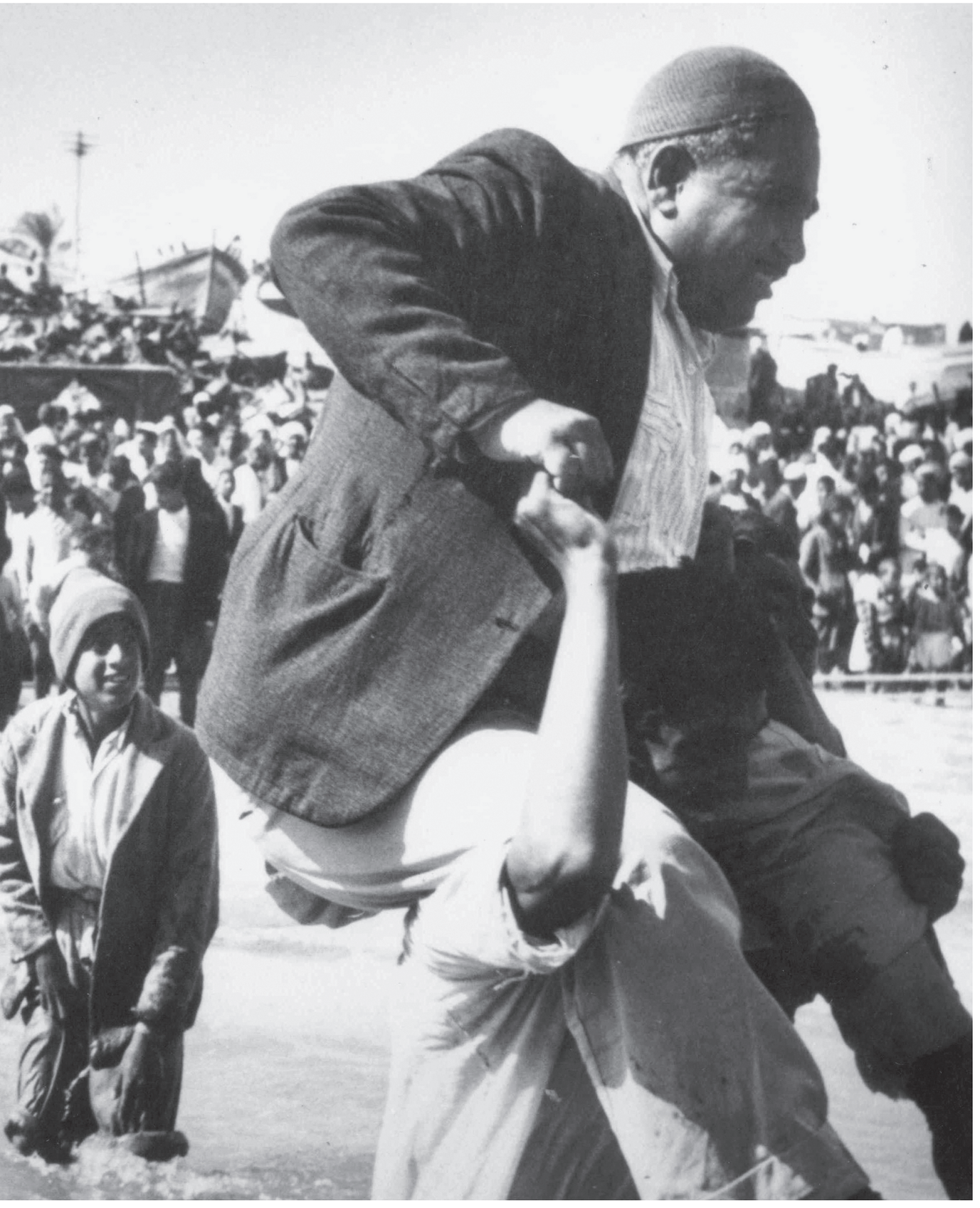
وبالرغم من حالات الإنكار المتكررة، كانت السياسات الخارجيّة للدول مدفوعةً بمصالحها الشخصيّة لا بالأيديولوجيا السياسيّة. ولم يكن الاتحاد السوفييتيّ استثناءً لهذه القاعدة، بالرغم من الادّعاءات الصاخبة لكلّ من داعميه ومناهضيه القائلة إنّه كان مدفوعاً

بالأيديولوجيا. وثمة مثال بارز للدلالة على أنّ الاتحاد السوفييتيّ أيام حُكم ستالين مارس هذا النوع من السياسة الخارجيّة منذ العشرينيّات (في تركيا والصين على سبيل المثال)، وأنّ الأحزاب الشيوعيّة المحليّة كانت مُلزَمةً باقتفاء هذا الخط. ولم تكن فلسطين ستصبح استثناءً، ولم تكن استثناءً فعلاً.

**بـــــــــــــــينت الوثائق السوفييتية المنشورة حديثا أن غروميكو كان منافقا. إذ كان السوفييت قد حسموا قرارهم معتبرين أن التقسيم هو النتيجة الأفضل وأن ذكر «دولة عربية يهودية واحدة» ما هو إلا حيلة تكتيكيـــــــــــــــــة.**

ألقى أندريه غروميكو في ١٤ أيار ١٩٤٧ أمام الجمعيّة العامة للأمم المتحدة في خلال جلسة خاصة باللجنة الأمميّة الخاصة بشأن فلسطين خطاباً طويلاً. أشار إلى لجنة پيل التي تشكّلت عام ١٩٣٧ كدليل على أنّ بريطانيا بحد ذاتها أقرّت باستحالة مواصلة الانتداب. وقد كانت هذه الإحالة مثيرة للتشاؤم، لأنّ التقسيم ورد أول مرة في تقرير پيل كوسيلة لتحقيق آمال وتطلّعات العرب واليهود على السواء. وقدّم دليلاً آخر عبر اقتباس طويل من خُلاصات لجنة تقصي الحقائق الأنكلو - أميركية (١٩٤٦)، إلى الدرجة التي باتت فيها فلسطين «معسكراً مسلّحاً»، والانتداب غير فعّال. وقد تأكّد هذا الأمر أيضاً عبر حقيقة أنّ السكّان العرب واليهود في البلاد كانوا متّفقين كلياً في رغبتهم بوجوب إنهاء الحُكم البريطانيّ. وبعد هذا التمهيد مباشرةً، أشار غروميكو إلى صلة مباشرة بين المحرقة النازيّة التي يُقدَّر عدد ضحاياها من اليهود بـ«ستة ملايين تقريباً»، ومليون ونصف المليون ممن نجوا من الحرب، ومئات الآلاف ممن باتوا اليوم لاجئين بلا دولة. ومضى بالقول إنّ من واجب الأمم المتحدة «إبداء الاهتمام بالحاجات الملحّة لهؤلاء الناس» الذي قاسوا هذه المعاناة الكبيرة نتيجةً لسياسات هتلر. وعلاوةً على ذلك، أشار إلى صلة مباشرة بين المصير الذي لحق باليهود الأوروبيّين خلال الحرب وعجز الدول الأوروبيّة عن «تقديم مساعدة كافية للشعب اليهوديّ في الدفاع عن حقوقه وجوهر وجوده ضد عنف الهتلريّين وحلفائهم». وهذا يفسّر، على حدّ قوله، تطلّعات اليهود لتأسيس دولتهم، ثم تابع حديثه بالقول «إنّه سيكون من الظلم أن لا نأخذ هذه القضيّة بالاعتبار أو أن ننكر حق الشعب اليهوديّ في تحقيق هذه التطلّعات. وسيكون من غير المُبرَّر إنكار هذا الحق على الشعب اليهوديّ بخاصة في ضوء كلّ ما قاساه خلال الحرب العالميّة الثانية». ثم تناول غروميكو مجدداً خُلاصات اللجنة الأنكلو - أميركيّة لتقصّي الحقائق ووصف بدقّة الحلول الممكنة التي اقترحتها اللجنة، ابتداء بدولة واحدة يهوديّة عربيّة، إلى التقسيم، وصولاً إلى تأسيس دولة تكون محصورةً باليهود أو العرب. وبرغم تأكيده أنّ من المبكّر جداً التصريح بالموقف السوفييتيّ النهائيّ إلا أنّه شدَّد على أنّ هذا الموقف سيرتكز على حقيقة أنّ «سكّان فلسطين يضمّون شعبين، العرب واليهود. ولكلّ منهما جذور تاريخيّة في فلسطين. وباتت فلسطين وطناً لكلا الشعبين ...» وأنّ الماضي التاريخيّ أو الظروف الحاليّة لا يبرّران أيّ «حل من طرف واحد بشأن المسألة الفلسطينيّة»، مُستبعداً قيام دولة عربيّة أو يهوديّة خالصة لأنّ أياً منهما ستُنكر «الحقوق المشروعة» للسكّان العرب واليهود. وينبغي على الحل المُنصِف أن يأخذ بالحُسبان المصالح المشروعة لكلا الشعبين، ولا يمكن لهذا الأمر أن «يتحقّق ... إلا عبر قيام دولة عربيّة يهوديّة ديمقراطيّة مستقلة متجانسة ... ترتكز على مساواة الحقوق بين السكّان اليهود والعرب...». ثم يلطّف هذا بالقول إنّ قيام دولة يهوديّة عربيّة واحدة «قد يُعتَبر واحداً من الاحتمالات وواحداً من أبرز الطرق من أجل حل هذه المشكلة المعقّدة...» ولكن «لو ثبت أنّ هذه الخطة مستحيلة التنفيذ، في ضوء تدهور العلاقات بين اليهود والعرب ...» سيكون من الضروريّ وضع التقسيم بعين الاعتبار». ويُنهي كلامه بإلقاء العبء على الأطراف المعنيّة بذاتها. «... إذ إنّ حلاً كهذا ... لن يكون مُبرّراً إلا إذا باتت العلاقات بين السكّان اليهود والعرب ... سيئةً جداً بحيث يصبح من المستحيل تشويتها وضمان تعايش سلميّ للعرب واليهود».

وقد بيّنت الوثائق السوفييتيّة المنشورة حديثاً أنّ غروميكو كان منافقاً. إذ كان السوفييت قد حسموا قرارهم معتبرين أنّ التقسيم هو النتيجة الأفضل، وأنّ ذكر «دولة عربيّة - يهوديّة واحدة» ما هو إلا حيلة تكتيكيّة. وفي اتصال بين ف. مولوتوف وزير الخارجيّة السوفييتيّ إلى أ. فيشنسكي المندوب السوفييتيّ في الأمم المتحدة، يطلب فيه الوزير من المندوب التصويت دعماً لقرار التقسيم، يفسّر الوزير أنّ تصريح غروميكو في أيار / مايو الماضي





«كان لاعتبارات تكتيكيّة» في اقتراحه قيام دولة واحدة، وأنّ «قيام دولة يهوديّة مستقلة سيعبّر عن موقفنا على نحو أفضل»[٢٤]. وبالطبع، لم يكن هذا الأمر معروفاً بالنسبة إلى إميل توما أو الشيوعيّين في فلسطين، عرباً ويهوداً. وعلى أيّة حال، كان خطاب غروميكو نقطةً فاصلةً أشّرت إلى التخلّي عن الموقف الشيوعيّ الأرثوذكسيّ المعادي للصهيونيّة، ولفكرة إيجاد وطن قوميّ لليهود في فلسطين. ولكن، وبلا أدنى شك، كان خطاب غروميكو قد نبّه توما الذي لجأ إلى [المنظّر الشيوعيّ البريطانيّ] پالمه دَتْ كي يساعده[٢٥]، وكذلك نصيحته أيضاً حيال ما بدت بكونها حركة غير مسبوقة، كي يتواصل مع السوفييت ويُسجّل احتجاجه على ما حدث[٢٦].

## إقرار الذَّنْب

عاد إميل توما إلى حيفا بعد إطلاق سراحه من سجنه في لبنان في نيسان ١٩٤٩. كان خارج البلاد منذ اثني عشر شهراً، وكان الوضع على الأرض خلال هذه الفترة قد تغيّر بشدّة. أما بقايا عصبة التحرر الوطنيّ المكوّنة ممن بقوا في البلاد، فقد انضمّوا للشيوعيّين اليهود في تشرين الأول ١٩٤٨ لتأسيس الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ، ليوافيهم لاحقاً أعضاء عصبة التحرر الوطنيّ الذين اعتقلتهم السلطات المصريّة جنوب البلاد وأطلق سراحهم الإسرائيليّون لاحقاً بعد أن قضوا فترة اعتقال إضافيّة. ليس ثمة تاريخ واضح في الوثيقة الموجودة، ولكن من الممكن افتراض أنّها كُتبت في وقت ما بعد عودة توما إلى حيفا. الوثيقة مُوجَّهة إلى اللجنة المركزيّة في عصبة التحرر الوطنيّ، وهذه مفارقة غريبة بما أنّ العصبة كانت قد تفكّكت، على الأقل ليس في المناطق التي تسيطر عليها القوات الإسرائيليّة، مع أنّها استمرت بالعمل نظرياً في المناطق التابعة للدولة العربيّة بحسب بنود قرار التقسيم (ولم يصبح اسمها الحزب الشيوعيّ الأردنيّ إلا عام ١٩٥١). والإشارة الوحيدة التي يذكرها توما، هي الإحالة إلى «الرفيق إميل»، والذي هو - بقدر كبير من التأكيد - إميل حبيبي الذي بات يشكّل مع توفيق طوبي الآن العضوين العربيّين الأبرز في الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ (كان طوبي أساساً عضواً في الكنيست الإسرائيليّ حيث انتُخب في كانون الثاني ١٩٤٩ للكنيست الأول وواصل شغل منصبه في كل كنيست إلى حين استقالته عام ١٩٩٠، أي طوال واحد وأربعين عاماً). ويمكن التخمين فحسب، برغم عدم وجود دليل دامغ، بأنّ هذا «النقد الذاتيّ» كان شرط إعادة توما إلى صفوف الحزب العربيّ - اليهوديّ المُؤسَّس حديثاً. ولكن، وكما ستبيّن حياته الحزبيّة اللاحقة، لم يبدُ أنّ هذه الخطوة كافية بالنسبة إلى قيادة الحزب، إذ لم يدخل توما إلى الدوائر الداخليّة للقيادة[٢٧].

صرّح توما في السطور الأولى أنّه منذ رحيله عن البلاد لم يتدخل في عمل اللجنة المركزيّة، ولذا فهو سيتناول القضايا التي يظنّ أنّها على الأرجح هي «الأخطاء» التي طلب منه حبيبي الكتابة عنها. ويبيّن السجلّ التاريخيّ المثبت أنّ توما عارض التقسيم وصوّت ضدّه في الاجتماع الأول لقيادة اللجنة المركزيّة حيث كان المعارضون للقرار هم الأكثريّة، وأنّه تغيّب عن الاجتماع الثاني للجنة المركزيّة حينما انقلب القرار السابق وصوّت الحاضرون دعماً لقرار التقسيم، وبأنّه أصبح عضواً في اللجنة الوطنيّة في حيفا في الشهور الأخيرة من الانتداب، وبأنّه غادر حيفا وسافر إلى لبنان في نيسان ١٩٤٨ [٢٨]. وهذه هي القضايا التي يتناولها النقد الذاتيّ. نص توما مزيجٌ، يجمع الإصرار الذاتيّ على الالتزام الصارم بالمعتقدات الشيوعيّة التاريخيّة مع إقرار بعجزه عن فهم الطبيعة والدور المتغيّرين للسكّان اليهود في فلسطين، والالتزام بالمبادئ الستالينيّة، وتأييد الجدانوفيّة، وشجب «خيانة تيتو» والقيادة الشيوعيّة اليوغسلافيّة، مع مطالبته في الوقت ذاته الأعضاء الآخرين في عصبة التحرر الوطنيّ كي يقرّوا بأخطائهم وكتابة نقد ذاتيّ مماثل. وطوال هذا الأمر، كان توما متشبّثاً بموقفه بأنّه في وقت تقلّده منصبه في العصبة، كان على تواصل مستمر للتشاور مع قيادتي الحزبين الشيوعيّين السوريّ واللبنانيّ، مُلْمحاً إلى حدوث لقاءات مع بكداش والحلو، وأنّ قراراته كانت تحظى بموافقتهما. وحينما كان عضواً في لجنة حيفا الوطنيّة لعدة أشهر عام ١٩٤٨، كان يشدّد بالقدر ذاته على أنّه تابع نشاطاته ضمن روح مبادئ عصبة التحرر الوطنيّ. وكان سفره إلى بيروت (قبل يوم من سقوط حيفا) مرتبطاً بعمله الحزبيّ السياسيّ وليس لسبب شخصيّ، وأنّ اعتقاله وسجنه كان نتيجة التزامه بالخط الحزبيّ في معارضة الحرب «التي تؤجّجها الإمبرياليّة الأنكلو أميركيّة»، ومعارضته لـ «العدوان العسكريّ العربيّ».

يفتتح توما كلماته بالإقرار بأنّ قرار التقسيم لم يكن مفاجئاً لعصبة التحرر الوطنيّ وبأنّ اللجنة المركزيّة منذ خطاب غروميكو أما الجمعيّة العامة للأمم المتحدة في أيار ١٩٤٧ كانت تُدرك أنّ التقسيم بات الحل الممكن الوحيد كنتيجة للتعارضات القوميّة العميقة بين العرب واليهود.

ولكن، وفي الوقت ذاته، لم يكن يمكن الإنكار أنّ هذا الإدراك يُناقض الموقف التاريخيّ لعصبة التحرر الوطنيّ حيال السكّان اليهود في فلسطين والذي يرتكز على عداء الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ التام وغير المشروط للصهيونيّة، ورفضه للاعتراف بـ «القوميّة اليهوديّة». وقد أكّدت فعاليّات مؤتمر لندن للأحزاب الشيوعيّة في بلدان الإمبراطوريّة البريطانيّة صحّة هذا الموقف. ثم واصل توما

**مع أن خالد بكداش لا يذكر بالاسم صراحة. إلا أن نص توما يشدد على أن تجربة الحزب الشيوعي السوري اللبناني كانت في ذهنه بقدر كبير في تعاملاته مع الأحزاب «القومية البورجوازية». وعند مناقشة غياب الوحدة بين الشيوعيين العرب واليهود. يكتب توما بأن هذا الموقف كان متأثرا بموقف الزعماء الشيوعيين في سوريا ولبنان.**

كتابته في الإشارة إلى أنّه وبرغم موقفه المُعلَن المُعارض للتقسيم إلا أنّ آمن في الوقت ذاته باستحالة إيجاد أيّ حل آخر، إذ كان التقسيم هو الحل العمليّ الوحيد، وأنّ تنفيذه أمر حتميّ. ويفسّر جذور معارضته بكونها تعود إلى «فهم غير صحيح» للقضية القوميّة اليهوديّة وارتباطه المتواصل بالخط القديم للحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ. لم يكن قادراً على إدراك ارتفاع الشعور القوميّ مقابل الكولونياليّة ضمن جموع اليهود والدور المتعاظم للطبقة العاملة اليهوديّة داخل الجماعة اليهوديّة. وقد تشكّل هذا الأمر بفعل فهم غير صحيح للشعار المتعلق بحق تقرير المصير. وتحوّل الشعار القائل بوجود دولة يهوديّة من شعار رجعيّ يخدم الكولونياليّة إلى شعار ديمقراطيّ يجمع اليهود في نضالهم لطرد الكولونياليّة البريطانيّة من فلسطين. وقد تجاهل الأبعاد العالميّة للقضيّة، حيث أنّ قيام دولة يهوديّة مستقلة سيُسهم في هزيمة الكولونياليّة البريطانيّة وسيُضعف بالتالي المعسكر الإمبرياليّ. كما بالغ في تقدير القوى الثوريّة القائمة داخل القوميّة العربيّة، معتبراً إياها حركة ديمقراطيّة ثوريّة بالرغم من زعامتها التقليديّة الرجعيّة، وتجاهل تاريخ هذه الزعامة حين تعاونت في الماضي مع القادة النازيّين في ألمانيا. وفي قلب ما سمّاه «هذا الانحراف» كانت تكمن الرغبة في إدخال عصبة التحرر الوطنيّ داخل الحركة القوميّة العربيّة واحتلال موقع في قيادة تلك الحركة. ويفسّر هذا الأمر، بالإضافة إلى المخاوف من «العزلة»، السياسة «الذيليّة» التي اتّبعتها عصبة التحرّر الوطنيّ كما حدث عند قبول العصبة بقرار الزعامة العربيّة بشأن مقاطعة لجنة اليونسكوب.

وحينما تناول مؤهّلاته الشيوعيّة، أصرّ توما على أنّه لم يقم يوماً بنقد علنيّ للاتحاد السوفييتيّ وموقفه، وأنّ مسيرته كمحرّر لجريدة الحزب، الاتحاد، في السنوات التي سبقت قرار التقسيم تشهد على دفاعه المستمر عن الاتحاد السوفييتيّ ودوره الدوليّ. ولكنّه اختلف بالفعل مع موقف الاتحاد السوفييتيّ حيال فلسطين، وآمن أنّه - استناداً إلى التجربة الأوروبيّة - ثمة احتمال مُتاح أن يكون هناك اختلاف سياسات بين الاتحاد السوفييتيّ والأحزاب الشيوعيّة. ويطرح مثالاً عن هذا، اختلاف الفرنسيّين مع السياسة السوفييتيّة في ألمانيا، والخلافات بشأن تريسته بين الحزبين الشيوعيّين اليوغسلافيّ والإيطاليّ. وبالعودة مجدداً إلى جذور هذا الموقف، يُحيل توما إلى الخط السياسيّ الذي تبنّته الحركة الشيوعيّة الأمميّة قبل عصر جدانوف، أي قبل أن يقدّم جدانوف تقريره بشأن «المعسكرين». وإنّ كلاً من وحدة القوى الديمقراطيّة التي كانت لازمةً خلال سنوات الحرب، والوحدة القوميّة التي سعى إليها الحزب الشيوعيّ السوريّ اللبنانيّ بهدف تحقيق الاستقلال من الحُكم الفرنسيّ، دفعاه إلى هذا المسار. وولم يكن توما قادراً على تمييز وتحديد أخطائه إلا بعد تقرير جدانوف (الذي صدر في أيلول ١٩٤٧).

ومع أنّ خالد بكداش لا يُذكَر بالاسم صراحةً، إلا أنّ نص توما يشدّد على أنّ تجربة الحزب الشيوعيّ السوريّ اللبناني كانت في ذهنه بقدر كبير في تعاملاته مع الأحزاب «القوميّة البورجوازيّة». وعند مناقشة غياب الوحدة بين الشيوعيّين العرب واليهود في تلك الفترة، يكتب توما بأنّ هذا الموقف كان متأثّراً بموقف الزعماء الشيوعيّين في سوريا ولبنان ويُشير إلى مشاركتهم المشتركة في مؤتمر لندن للأحزاب الشيوعيّة في بلدان الإمبراطوريّة البريطانيّة في شباط ١٩٤٧. وقد ساعدوه في قراره بحيث سيكون من الملائم أكثر تأسيس لجنة تنسيق بدلاً من الاندفاع إلى وحدة تامة بين عصبة التحرر الوطنيّ والحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ. ولأكثر من مرة، أشار توما إلى مؤتمر لندن ونشاط الشيوعيّين السوريّين واللبنانيّين لتفسير مسعاه إلى الوحدة الوطنيّة، والتشجيع الذي واصل تلقّيه في سعيه إلى هذه الاستراتيجيّة. ويقتبس في دفاعه من رسالة وصلته من ر. پالمه دت، العضو البارز في الحزب الشيوعيّ في بريطانيا العظمى والمسؤول عن الشؤون الكولونياليّة،

والذي كتب إليه يفسّر المشروعيّة التامة في أن يتّبع كلٌّ من السوفييت والأحزاب الشيوعيّة الأخرى مسارات مختلفة. فالحزب الشيوعيّ السوفييتيّ مُقيَّد ومُلزَم بخط دبلوماسيّة الدولة، وفي المثال الخاص المتعلق بتصريحات غروميكو في ما يخص اعتبار التقسيم حلاً ممكناً، لم تكن هناك حاجة لوضع هذا الموقف بالتعارض مع المطالبة بدولة ديمقراطيّة موحّدة[٢٩].

**كان يعارض تقسيم فلسطين وقيام دولتين. فيما كان مقتنعا في الوقت ذاته بأن هذا التقسيم محتوم. إذ لم تسمح الظروف المحلية أو البيئة الدولية بتنفيذ أي حل آخر.**

أما في ما يتعلق بالجانب التنظيميّ من القضيّة، عبّر توما عن مفاجأته بسبب «التُّهم» الموجَّهة ضده. كتب عام ١٩٤٨ بانّه هجر موقفه المعارض لقرار التقسيم، وانّه أودع ثقة الحزب لصياغة الخط السياسيّ للحزب. كان كلّ ما قاله وفعله بالتشاور مع الأعضاء البارزين (من الواضح أنّه يشير إلى فؤاد نصّار، وإميل حبيبي وتوفيق طوبي، مع انّه لم يذكرهم بالاسم صراحةً). وعليهم هم أيضا القيام بنقد ذاتيّ في ما يخص مواقفهم السياسيّة. وفي تحوّل غريب، يهدف إلى إظهار ولائه المستمر لموسكو، يشير إلى أنّ بيان الكومنفورم [مكتب الإعلام للأحزاب الشيوعيّة والعماليّة] الذي شجب تيتو وقيادة الحزب اليوغسلافيّ كان جوهرياً في جعل توما يرى ويدرك أخطاءه[٣٠]. وضمن هذا السياق، يصرّح أنّه لم يعد ضمن قيادة عصبة التحرر الوطنيّ منذ منتصف عام ١٩٤٧، وبأنّ مواصلته لمهامّه كمسؤول كانت بفعل إصرار رفاقه في العصبة؛ وبأنّ جميع أفعاله وتصريحاته كانت بالتشاور معهم، وعلى الأرجح بأنّه يعني هنا فؤاد نصّار الذي يبدو بأنّه أصبح المسؤول الأقوى غير الرسميّ في العصبة. وبالنتيجة، كان يدّعي أنّ من المفروض أن تقع المسؤوليّة عن نشاط العصبة وخطها السياسيّ على جميع أعضاء القيادة بالتساوي. أما الاتهامات المضادة التي وجّهها من تبقّى من قادة عصبة التحرر الوطني في وقت تأسيس الحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٨ بشأن «إظهار انحراف قوميّ عربيّ»، وعدم الاعتراف بوجود جماعة قوميّة يهوديّة في فلسطين قبل قرار التقسيم، وعدم الاعتراف بالاختلاف الطبقيّ القائم داخل الجماعة اليهوديّة والخط السياسيّ الصحيح اللاحق الذي ينبغي اتّباعه، كل هذا كان مسؤوليّة القيادة بأكملها لا مسؤوليّته وحده. وكان توما حازماً في تأكيده بأنّ العصبة أيام تسلّمه مسؤوليّة القيادة لم تتوان عن مناصرة سياسات لم تفز بموافقة الزعامة التقليديّة. ودعوا طوال تلك الفترة إلى أخذ القضيّة الفلسطينيّة إلى الأمم المتحدة وإلى بناء جسور مع القوى الجديدة التي برزت بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية، أي السوفييت والكتلة الشرقيّة. وعلى نحو أهم، فإنّهم ناصروا سياسة تعاون مع السكّان اليهود، وأصدروا تصريحات علنيّة واضحة بأنّ على الدولة المستقلة أن تكون وطناً قومياً لجميع سكّانها، العرب واليهود على السواء. كما دعموا تعاوناً عربياً يهودياً في اعتصامات يهوديّة وعربيّة في أماكن العمل ووقفوا في وجه جمال حسيني عندما هاجمهم بسبب تلك السياسات. وبرغم التهديدات بالاغتيال التي لم تكن قيادة الحركة الوطنيّة تأنف من اللجوء إليها، إلا أنّهم صمدوا، ولكنّ هذا الأمر لا ينفي وجود حالات اضطروا فيها إلى التخلّي عن مواقفهم المبدئيّة، إما من أجل صون الوحدة الوطنيّة أو لأسباب متعلقة بالأمن الشخصيّ[٣١].

### التقسيم: جائر ومحتوم، عدة خُلاصات موقّتة

وهذا يتركنا مع تركيبة توما. كان، كما يكتب، يعارض تقسيم فلسطين وقيام دولتين، فيما كان مقتنعاً في الوقت ذاته بأنّ هذا التقسيم محتوم. إذ لم تسمح الظروف المحليّة أو البيئة الدوليّة بتنفيذ أيّ حل آخر. وثمة مسألة يتناولها توما على نحو شخصيّ، ولكنّها تبقى بلا حل، ألا وهي سمة الحركة القوميّة العربيّة الواسعة، والشيوعيّين أنفسهم، في الفترة التي سبقت قرار التقسيم، وسمة طبيعة السكّان اليهود في فلسطين. ما الذي يمثّله هؤلاء السكّان؟ هل يمتلكون سمات جماعة، وإن كانوا كذلك فما نمط تلك الجماعة؟ هل هم مجرّد تجمّع لأفراد متناثرين يسعون إلى إكمال حياتهم الشخصيّة في منطقة كولونياليّة خارجيّة؟ خلال فترة تمتد إلى ثلاثين عاماً، كان عددهم قد تضاعف من عدة آلاف إلى نصف مليون تحت رعاية الحُكم البريطانيّ الكولونياليّ، مع أنّ العلاقة بينهم وبين العرب ساءت وتحوّلت إلى عداء عنيف. كانوا قد ابتكروا لغة خاصة بهم، ومؤسسات تمثيليّة، ومجتمعاً متمايزاً طبقياً واقتصاداً متأرجحاً، عدا عن تأسيسهم لجيش. وما هي ردة فعل الحركة القوميّة العربيّة على هذا؟ ما الذي كانت



تعنيه المطالبة بدولة عربيّة في فلسطين عام ١٩٤٨ بالمعنى الواقعيّ؟ الاستيعاب؟ التدمير؟ التهجير؟ أم تشارك البلاد، بالرغم من صبغة الخطيئة الأصليّة التي كانت تسم وصولهم إلى البلاد واستيطانهم فيها تحت حماية الحِراب البريطانيّة وبرغم معارضة السكّان المحليّين؟ كان الحديث (ولا يزال) عن التعايش بين ثلاثة أديان وعن تاريخ من التسامح في فلسطين العثمانيّة خارج سياق الواقع. إذ لم تعد الجماعة اليهوديّة في فلسطين مجرّد تجمّع دينيّ صغير آخر. فعصر التسامح، في حال وجوده أصلاً، يفترض - في أيّة حالة من الحالات - تفاوتاً وتبعيّة، ويمهّد لصعود القوميّة التي لا تضمّ تسامح التعدديّة الإثنيّة بين سماتها الأساسيّة. كما أنّ الدولة العربيّة المُخطّط لها في فلسطين عام ١٩٤٨ لا يجمعها أيّ شيء مشترك بمنظومة الحُكم العثمانيّ المستندة إلى نظام الملّة قبل الحرب العالميّة الأولى، الذي كان بعيداً كلّ البعد عن الدولة - الأمة الحديثة التي كان يتطلّع الفلسطينيّون لتأسيسها. لم تكن ثمة إجابة واضحة ومنطقيّة قبل عام ١٩٤٨، وربما لا يزال هناك إلى اليوم غياب لمثل هذه الإجابة الواضحة والحاسمة. فمنظومة الدولة العربيّة التي عارضت التقسيم تحت مظلّة الجامعة العربيّة قد عايشت الكثير من التغيّرات. إذ قدّمت إجابة مختلفة عن طريق قبولها قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وصولاً إلى عام ١٩٦٧، وكذا فعل الفلسطينيّون عام ١٩٨٨، ومن ثمّ ذلك الحماس الذي انخرطوا فيه في عمليّة اتفاقيّة أوسلو. كما أبدت جميع الدول العربيّة استعداداً للتعايش مع دولة إسرائيل التي رسّمت حدوداً

**لن نجد دليلا بأن الشيوعيين المناصرين لقرار التقسيم عانوا كثيرا من نتائج سلبية على شعبيتهم أو نشاطهم السياسي. ففي جميع تلك البلدان. شهدت فترة الخمسينيات درجة كبيرة من الدعم الشعبي بل ونجاحا انتخابيا نسبيا إلى أن تسبب صعود الناصرية المترافق مع اضطهاد الدولة إلى تحطيم مكانتهم وإرغامهم على التخفي.**

تفوق بكثير تلك الحدود التي حدّدها قرار التقسيم عام ١٩٤٧، بحسب بنود خطة السلام التي طرحها الملك فهد عام ١٩٨١. وفي الواقع، فإنّ كلّاً من مصر والأردن تعترفان بإسرائيل كدولة ذات سيادة (أياً تكن الحدود التي ترتئيها) قبل أيّ حل للقضية الفلسطينيّة أو انسحاب إسرائيل من المناطق السوريّة المُحتلّة في الجولان. ومع ذلك، وبرغم الاعتراف الدبلوماسيّ والتقدّم البطيء - ولكن المتواصل كما يبدو - لتطبيع العلاقات مع دول عربيّة أخرى، إلا أنّ هذا الواقع الجديد لم يدخل بعد إلى الوعي الوطنيّ الخاص بكثير من الفلسطينيّين علاوةً على قطاعات كبيرة من الرأي العام السياسيّ العربيّ.

وغالباً ما يُشار في الأدبيّات إلى قبول الشيوعيّين العرب باقتراح التقسيم عام ١٩٤٨، في ظل تصويت الاتحاد السوفييتيّ دعماً له، بكونه السبب الجوهريّ في إخفاق الشيوعيّين في وضع دمغتهم المؤثّرة في العالم العربيّ. كُتب الكثير حول الثمن الذي كان على الشيوعيّين العرب دفعه من أجل دعمهم للتقسيم (بينما كان الكتّاب القوميّون، في الفترة التي أعقبت النكبة مباشرةً، صارمين في شجبهم للأحزاب الشيوعيّة العربيّة). وبصرف النظر عن مدى شعبيّة هذه الفكرة، إلا أنّ من غير المُؤكّد أنّ السجّل التاريخيّ يدعمها. إذ لا يمكن إنكار أنّ الشيوعيّين، في الفترة التي تبعت اندلاع النزاعات المسلحة بين عامي ١٩٤٩ / ١٩٤٨ مباشرةً، كانوا ضحية عزلة واضطهاد الأنظمة العربيّة، ففي حالة العراق انتهز نوري السعيد الوضع ليمضي في إعدام فهد ورفاقه. وهذا لا يعني إنكار أنّ ثمة حالات غضب شعبيّ قد حدثت ضدّ شخصيّات شيوعيّة معروفة وهجمات على مقرات الأحزاب، بتحريض رسميّ في أغلب الأحيان. ولكنّ بالعودة إلى الفترة التي أعقبت عام ١٩٤٨ في فلسطين نفسها، وفي البلدان المجاورة، لن نجد دليلاً بأنّ الشيوعيّين المناصرين لقرار التقسيم عانوا كثيراً من نتائج سلبيّة على شعبيّتهم أو نشاطهم السياسيّ. ففي جميع تلك البلدان، شهدت فترة الخمسينيّات درجةً كبيرة من الدعم الشعبيّ بل ونجاحاً انتخابياً نسبياً (خالد بكداش في سوريا، يعقوب زيادين وفايق ورّاد في الأردن، والشيوعيّين العراقيّين، وبالطبع داخل فلسطين / إسرائيل نفسها) إلى أن تسبّب صعود الناصريّة المترافق مع اضطهاد الدولة إلى تحطيم مكانتهم وإرغامهم على التخفّي.

ومع ذلك تبقى مسألة قرار التقسيم، إجحافه أو العكس، صحّته، عمليّته أو العكس، بلا إجابة إلى اليوم، وبقي عصيّاً على الاختفاء. وبعد تسعة وستين عاماً، حان الوقت للإتيان بإجابات لعدد من الأسئلة الصائبة. هل كان يمكن على الإطلاق للفلسطينيّين في الظروف السائدة محلياً ودولياً على السواء أن ينتصروا عسكرياً على القوات المسلحة التي جنّدتها الحركة الصهيونيّة أم كانت

الهزيمة محتومة؟ هل تعافت الحركة الوطنيّة عام ١٩٤٨ من الهزيمة على يد البريطانيّين إبّان قمع ثورة عام ١٩٣٦، وهل كانت قادرة في الأعوام التي سبقت ١٩٤٨ على إعادة تنظيم صفوفها داخل فلسطين؟ هل امتلكت الموارد لتجنيد حملة عسكريّة للرد على مذابح الهاغانا والبالماخ عام ١٩٤٨؟ ما كانت رؤية الحركة الوطنيّة بشأن أكثر من نصف مليون يهوديّ يعيش في البلاد؟ هل كان هناك أيّ دعم بين النخب السياسيّة العربيّة من أجل قيام دولة ديمقراطيّة؟ ما الذي قدّمته الحركة الوطنيّة تحديداً للسكّان اليهود مقابل تركهم لمشروع بناء الدولة الصهيونيّة؟ ما نوع العلاقات التي تصوّرتها الحركة الوطنيّة العربيّة بين الجماعتين، العربيّة واليهوديّة في فلسطين وما نوع العلاقات التي كانت قائمة وصولاً إلى التقسيم؟ هل كانت قيادة الحركة الوطنيّة التي أُجبرت على الرحيل إلى المنفى على يد البريطانيّين علاوةً على كونها تحت رحمة الأنظمة العربيّة المجاورة في موقف يمكّنها من العمل باستقلاليّة عن تلك الدول؟ هل كانت رهينة للنزاعات العربيّة البينيّة؟ وإن كان هذا ما عليه الوضع فعلاً، فإنّ العراق، والأردن، ومصر كانت تابعة لبريطانيا وعاجزة عن اتّخاذ سياسات تتعارض مع رغبات بريطانيا، فما الذي يعنيه هذا الأمر بالتوازي مع ما كان يعنيه شنّ حرب للحيلولة دون التقسيم عام ١٩٤٨؟ هل كانت ثمة إمكانيّة أن تسمح بريطانيا بقيام دولة عربيّة حتى ولو ضمن اشتراطات قرار التقسيم؟ إذ، ومنذ لجنة پيل عام ١٩٣٧، كان ثمة مشروع لضم أجزاء فلسطين ذات أغلبيّة سكّانيّة طاغية من العرب ودمجه مع شرقيّ الأردن، وكان جزء من النخبة الفلسطينيّة السياسيّة والاقتصاديّة ميّالاً لهذا المشروع، إذاً لمَ كان هذا سبباً في اندلاع الحرب التي بدت موجَّهة ضد قرار التقسيم بعد الانسحاب البريطانيّ في أيار ١٩٤٨؟ سيُسهم تقديم إجابات لهذه الأسئلة في وضع مسألة التقسيم في إطارها الملائم. ومن المفيد تذكّر أنّ الحركة الصهيونيّة أشارت في مؤتمر بلتمور عام ١٩٤٢ إلى أنّ هدفها المباشر بعد انتهاء الحرب كان إعلان قيام دولة يهوديّة على كامل أراضي فلسطين. وقد وافقت على خطة التقسيم التي طرحتها الأمم المتحدة والتي منحتها ٥٥٪ من كامل مساحة الأرض، ثم تمكّنت خلال الحرب من احتلال ٧٧٪ من كامل أراضي فلسطين أثناء الانتداب. وفي حزيران عام ١٩٦٧، مع احتلال الضفة الغربيّة، كان وعد برنامج بلتمور قد تحقّق أخيراً. وربما حان الوقت أخيراً لاستخلاص بعض الدروس من الأحداث التي جرت قبل تسعة وستين عاماً. إذ لم يكن قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة هو السبب الذي أفضى إلى الهزيمة الفلسطينيّة. لم يكن التقسيم خياراً مطروحاً بين الأوراق. بل إنّ مصائر الحرب هي التي قرّرت نتيجة الصراع، ولم يكن السكّان العرب في فلسطين مستعدّين أو منظّمين من أجل هذه الحرب. وضمن هذا السياق، كانت الهزيمة مُتوقَّعةً. وكما كانت العصبة قد حذّرت، كانت تجزئة فلسطين هي النتيجة الحتميّة.

**الهوامش**

١ *We Speak for Freedom: Reports and Speeches* of the *Conference of the Communist Parties of the British Empire*. CPGB. London ١٩٤٧. ص ٦٩

٢ يظهر اسم خالد بكداش في محاضر المؤتمر المنشورة بلا أيّ صفة سياسيّة. ص ٧٨. ثمانية وعشرون مندوبًا مثّلوا مجموع أحد عشر حزبًا شيوعيًا من داخل الإمبراطوريّة البريطانيّة، إضافة إلى مراقبين من بلدان شيوعيّة وخمسة عشر بلدًا آخر

٣ خطاب أندريه غروميكو في الأمم المتحدة، أيار ١٩٤٧. سجلّ اجتماع الجمعيّة العامة. نقاش بشأن تقرير اللجنة الأولى حول تشكيل لجنة خاصة بشأن فلسطين

٤ برقيّة من مولوتوف إلى فيشنسكي ٣٠ أيلول ١٩٤٧
*Documents on Israeli-Soviet relations (DISR). Part 1:* ١٩٤١ - أيار / مايو ١٩٤٩. Frank Cass. London. ٢٠٠٠. ص ٢٢٧

٥ جريدة **الاتّحاد** ٢٥ نيسان ١٩٤٩ تنقل خبر عودة إ. توما إلى حيفا بعد قضاء ٤ أشهر في سجن لبنانيّ بسبب دعمه للتقسيم. وتقول إنّه أعلن إضرابًا عن الطعام حين كان في سجن بعلبك

٦ إميل حبيبي، عضو سابق في الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ، وأحد قادة العصبة، وداعم للتقسيم انتُخب في الكنيست الإسرائيليّ الثاني عام ١٩٥١ وقضى ١٩ عامًا كنائب ممثّل للحزب الشيوعيّ الإسرائيليّ

٧ لن أسرد تاريخًا للحزب؛ ثمة عدد كبير من الأعمال، الأكاديميّة والعامة، التي تتناول هذا الموضوع بالعبريّة والعربيّة والإنكليزيّة، إضافة إلى عدد من مذكّرات أعضاء بارزين في الحزب. وكذلك، ثمة مجموعتان لوثائق الكومنترن نُشرتا بعد انهيار الاتحاد السوفييتيّ. حرّر الأولى ليون زهافي، والثانية ماهر الشريف. وانظر كذلك، بولس فرح، **من العثمانيّة إلى الدولة العبريّة**، الناصرة ١٩٨٥، ص ٨٧

٨ افتتاحيّة **الغد** العدد ٤٣، ٢٣ أيار ١٩٤٧.

٩ عند تناول الأحداث السياسيّة في ألبانيا، أُشير إلى مجلس الأمن بكونه «صديقًا للأمم الصغيرة» **الاتحاد** ٦ نيسان ١٩٤٧. تتحدث افتتاحيّة **الغد**، العدد ٣٣، ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٦، عن «نجاحات مضمونة في مجلس الأمن» وتشير إلى الدعم السوفييتيّ لاستقلال سوريا ولبنان، ص ٤. وكتب فؤاد نصار، وهو عضو في المكتب السياسيّ «لعبة التحرر الوطنيّ، في سياق مماثل» في **الغد**، العدد ٣٩، ٢٨ آذار ١٩٤٧، ص ١٠، ٢٢

١٠ هاجم جمال حسيني في تصريح في حزيران ١٩٤٦ العصبة بسبب تنفيذها عملًا صناعيًا مشتركًا مع العمال اليهود، متهمًا إياها بالدعوة إلى الوحدة بين العرب واليهود، ورفض طلبها كي تُمثَّل في اللجنة العربيّة العليا. **الغد**، العدد ٢٣، ١٢ حزيران ١٩٤٦. الرد على تصريحات جمال حسيني، ص ص ٣-٤. تصريح لإميل توما في **الاتحاد**، ١٣ حزيران ١٩٤٦. تصريح المكتب السياسيّ للعصبة ٨ حزيران ١٩٤٦ للرد على جمال حسيني، **الاتحاد** ١٣ حزيران ١٩٤٦. تصريح جمال حسيني في ١٩٤٦ وردود مسؤولي العصبة، **الاتحاد** ٩ و١٣ حزيران / يونيو ١٩٤٦

١١ **مؤتمر بشأن المسألة الكولونياليّة**، باريس نيسان / أبريل ١٩٣٩

*World New and Views*, ٦. حزيران / يونيو ١٩٣٩. ص ١٢٥ .. نُشر التقرير في **الغد**، العدد ٢، أيار / مايو ١٩٣٩ (معه صورة لتوما وهو في العشرين من عمره آنذاك، جالسًا على المنصة إلى جانب جوليان بندا مؤلف الكتاب الشهير **خيانة المثقفين** الصادر عام ١٩٢٩»

١٢ **الاتحاد** ٢٠ نيسان ١٩٤٧. تقرير لوحدة الاستقصاء الجنائيّ البريطانيّة «التقرير نصف السنويّ كانون الثاني-حزيران ١٩٤٧» يصرّح أنّ توما، أثناء وجوده في باريس، التقى موريس توريز وجاك دوكلوس زعيمي الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، ص ٥. ويقتبس تقرير لوحدة الاستقصاء الجنائيّ بشأن النشاط الشيوعيّ من رسالة أرسلها توما إلى العصبة يقول فيها إنه التقى هاري بوليت، السكرتير العام للحزب الشيوعيّ في بريطانيا العظمى، بحضور بكداش والحلو، ص ١

١٣ **الاتحاد**، ٤ أيار ١٩٤٧، تنشر خبراً عن الاستقبال الحافل لإميل توما بعد عودته إلى حيفا

١٤ جريدة **الوحدة**، ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٧، تقول إنّ توما، ونصّار، وشاهين زاروا المفتي في عاليه. (تقرير وحدة الاستقصاء الجنائيّ تموز - كانون الأول ١٩٤٧، ينقل أيضًا خبرًا في أيلول بشان زيارة توما، ونصار، وشاهين، وم. نصر إلى المفتي)

١٥ تتضمّن تقارير وحدة الاستقصاء الجنائيّ إشارات إلى جناحين متنافسين داخل عصبة التحرر الوطنيّ. (بالاعتماد على معلومات قدّمها مُخبر مهم داخل العصبة). من **أرشيف الهاغانا**. ونجد معظم ملفات وحدة الاستقصاء الجنائيّ في أرشيف الهاغانا في تل أبيب. وهناك مجموعة أصغر في الأرشيف الوطنيّ في لندن

١٦ تصريح عصبة التحرر الوطني ضد قرار التقسيم في تشرين الأول ١٩٤٧، وقّعه جميع أعضاء اللجنة المركزيّة، يشجب صدور هذا القرار. تصريح عصبة التحرر الوطنيّ بشأن التقسيم، يافا، ٣ كانون الأول ١٩٤٧، وُقّع من السكرتاريا ونُشر في **الاتحاد**، ٤ كانون الأول ١٩٤٧. ونشرت جريدة **فلسطين** في ٣ كانون الأول ١٩٤٧ خبرًا عن توزيع بيان لعصبة التحرر الوطنيّ يعارض قرار التقسيم

١٧ اكتنف الغموض الأحداث التي جرت ضمن قيادة عصبة التحرر الوطنيّ إثر إعلان قرار التقسيم من جانب الأمم المتحدة، ما يعكس ربما الانهيار الأوسع في المجتمع العربيّ الفلسطينيّ. كان لأعضاء الحزب ذكريات مختلفة عما حدث فعلًا. كتب بولس فرح، الذي لم يشارك في أيٍّ من اجتماعات اللجنة المركزيّة لعصبة التحرر الوطنيّ، بأنّ اللجنة المركزيّة لم تجتمع إلا مرة واحدة في كانون الأول وبأنّ الأغلبيّة اتّخذت قرارًا يعارض التقسيم، من العثمانية إلى الدولة العبريّة، **الناصرة ١٩٨٥**، ص ١٨٤. أما فايق وراد الذي حضر اجتماع الناصرة وصوّت دعمًا لقرار التقسيم فيكتب أنّ غالبيّة أعضاء اللجنة المركزيّة عارضوا التقسيم (عُقد اجتماع الناصرة في بداية كانون الأول ١٩٤٧)، بينما دعمته أقلية من الأعضاء. ثم عُقد لاحقًا في الناصرة اجتماع موسّع يضم جميع الأعضاء (شباط ١٩٤٨) حيث قدّم إميل حبيبي اقتراحًا لدعم قرار التقسيم باسم أقليّة أعضاء اللجنة المركزيّة، فصوّتت أغلبيّة الحاضرين دعمًا للاقتراح. **مذكرات فايق وراد: خمسون عامًا من النضال**، رام اللّه ٢٠٠٥، ص ٣٧. ويكتب عودة الأشهب في مذكّراته بأنّ فروع عصبة التحرر الوطنيّ التي عارضت التقسيم، مثل فرع الخليل بقيادة مخلص عامر، حلّت نفسها، بينما كانت الأقلية التي عارضت التقسيم بقيادة إميل توما قد تمثّلت في فرع حيفا وبضعة فروع أخرى في شمال فلسطين. ويضيف بأنّ العصبة قررت في وقت مبكر من عام ١٩٤٨ بعد اجتماع الناصرة الموسّع إرسال إميل توما إلى بلغراد للتشاور مع مسؤولي الكومنيفورم. **مذكرات عودة الأشهب**، جامعة بير زيت: ١٩٩٩، ص ١٢٠. بينما كان لدى فهمي السلفيتي، الذي حضر اجتماع الناصرة أيضًا، قصة أخرى رواها للمؤلف. ص ص ٢٢٣-٢٢٤. وكان لدى إميل حبيبي رؤية مختلفة أخرى، ص ٢٤١. وكان لإميل توما رؤيته الخاصة؛ لقاء مع المؤلف ص ٢٥٠. اللقاءات مع السلفيتي، وحبيبي، وتوما، من كتاب موسى البديري، **شيوعيّون في فلسطين: شظايا تاريخ منسيّ**، رام اللّه: مواطن، ٢٠١٣

١٨ يتحدث نعيم الأشهب عن اتصالات بين قادة العصبة وقادة ميام بعد صدور قرار التقسيم. **دروب الألم .. دروب الأمل: سيرة ذاتية**، رام اللّه: ٢٠٠٩، ص ص ٤٨-٤٩. أما حنا أبو حنا، عضو العصبة، فيكتب بأنّ الحاكم العسكريّ الأول في الناصرة كان عضوًا في ميام، وبأنّ الحزب سعى إلى إيجاد أرضية مشتركة مع العصبة على أساس دعم قرار التقسيم، وسمح لعصبة التحرر الوطنيّ بمتابعة نشاطاتها في الناصرة. **مهر البومة: سيرة، حيفا: ٢٠٠٤**، ص ١٣٠

١٩ خطاب ميكونيس في مؤتمر لندن، ص ٦٦

٢٠ خطاب توما في مؤتمر لندن، ص ٧٠ - ٧١

٢١ في مقابلة مع شيمون أبرامسكي، العضو السابق في الحزب الشيوعيّ الفلسطينيّ والحزب الشيوعيّ في بريطانيا العظمى، لندن ٣ تموز ١٩٧٣، يصرّح بأنّ المتحدث الرئيسيّ بشأن قضية فلسطين كان بكداش بلا أدنى شك، وليس توما، وبأنّ اللقاءات المشتركة عُقدت مع ميكونيس. واقترح الأخير كلًّا من ثنائيّة القوميّة والتقسيم كحل ممكن، وبأنّ هذين الاقتراحين رُفضا. ويشير التقرير نصف السنويّ لوحدة الاستقصاء الجنائيّ: كانون الثاني-حزيران ١٩٤٧، بأنّ ميكونيس وتوما، قبل سفرهما إلى مؤتمر لندن، سافرا إلى بيروت والتقيا بكداش والحلو، وبأنّ خطاب توما أمام المؤتمر كُتب بمساعدة بكداش والحلو. ص ٤

٢٢ Empire Communist Parties Conference, London ٢٦ شباط / فبراير - ٣ آذار /مارس ١٩٤٧ ص ٩١-٩٣. ونُشر كذلك في مجلة **الكومنفورم وورلد نيوز أند فيوز** *World News and Views*. شجب إعلان المؤتمر الصهيونيّة وناصر حل الدولة الديمقراطيّة الواحدة. Declaration on Palestine، ص ٩١/٩٣. *We speak For Freedom CPGB* ١٩٤٧. ووقّع جميع ممثّلي الأحزاب الشيوعيّة الحاضرون الإعلان، بمن فيهم ميكونيس

٢٣ *Y Ro'i Soviet Decision making in practice: the Soviet Union and Israel* ١٩٤٧-٥٤. New Brunswick ١٩٨٠ ص ١٨ يشير إلى المرة الأولى للدعم السوفييتيّ للوطن القوميّ اليهوديّ في المؤتمر التأسيسيّ للاتحاد الدوليّ لنقابات العمال في لندن، شباط ١٩٤٥. حضر بولس فرح المؤتمر كمندوب عن اتحاد النقابات من فلسطين، وكتب عن هذه الحادثة في كتابه **من العثمانيّة إلى الدولة العبريّة**، الناصرة: ١٩٨٥.، ص ١٦٤. ولكنّه، مع هذا، لا يعطي الأمر أدنى أهمية!

٢٤ برقية من مولوتوف إلى فيشنسكي ٣٠ أيلول / سبتمبر ١٩٤٧. *Documents on Israeli-Soviet relations (DISR). Part 1:* ١٩٤١-أيار /مايو ١٩٤٩.Frank Cass. London. ٢٠٠٠. ص ٢٢٧

٢٥ رسالة من پالمه دت ردًا على رسالة إميل توما المؤرخة ٤ حزيران ١٩٤٧ أرشيف الحزب الشيوعيّ في بريطانيا العظمى CPGB archive. Peoples History Museum. Manchester. UK.

٢٦ Laurent Rucker. *Moscow's surprise: The Soviet Israeli Alliance* ١٩٤٧-١٩٤٩. Woodrow Wilson Centre working paper ٤٦. ٢٠٠٥. ص ٢٥. يعيد المؤلّف نقل فقرات من رسالة أرسلها إميل توما إلى مسؤولين في موسكو احتجاجًا على خطاب غروميكو في نيسان أما الجمعية العامة للأمم المتحدة

٢٧ يكتب حنا أبو حنا بأنّ نسخةً مُنقّحة من نقد توما الذاتيّ نُشرت في الاتحاد، وبأنّه عوقب بحرمانه من عضوية الهيئات العليا في الحزب. **مهر البومة**، ص ١٤٢

٢٨ في لقاء مع إميل توما، خمّن ما كان سيحدث لو تأجّل قرار التقسيم عدة سنوات. ففي عام ١٩٤٧، كانت الحرب الباردة لا تزال في مراحلها الأولى. ولو كانت القضية الفلسطينيّة قد وصلت مرحلة حاسمة في تاريخ لاحق، كان متشكّكًا في ما إذا كان الاتحاد السوفييتيّ سيتبنّى الموقف ذاته. لقاء مع إميل توما، ٣ نيسان ١٩٧٤، حيفا. في موسى البديري، **شيوعيّون في فلسطين**

٢٩ رسالة من ر. پالمه دت إلى إميل توما، ٤ حزيران ١٩٤٧

٣٠ عام ١٩٤٨، كانت «اللجنة الثقافيّة الحزبيّة» في العصبة قد نشرت بيانًا من أربع صفحات بعنوان «حالة الحزب اليوغسلافي» أعاد نشر الإعلان الذي أصدره اجتماع الكمونفورم في رومانيا في حزيران ١٩٤٨، وأضافت عدة أسطر في النهاية تُبيّن كيف أنّ هذا الأمر مكّن العصبة من التوصّل إلى «فهم صحيح» للأحداث في فلسطين!

٣١ يتضمن تقرير وحدة الاستقصاء الجنائيّ معلومات تُفيد بأنّ توما هُدّد من جانب اللجنة العربيّة العليا بسبب معارضته لسياسة المقاطعة اليهوديّة، وعدم التزامه عمومًا بخط اللجنة العربيّة العليا. CID Half Yearly Report: تموز /يوليو -كانون الأول /ديسمبر ١٩٤٧. ص ٢. وكذلك، لقاء مع عبد اللّه البندك، عمان، ٦ آذار/ مارس ١٩٧٤. يذكر البندك تهديدات وجّهها عبد القادر الحسيني، ويروي أنّه غادر إلى لبنان، مع إميل توما وإميل حبيبي، كإجراء احتياطي. البديري، **شيوعيّون في فلسطين**، ص ١٩٧

# من مذكرات جارالله عمر ٥/٥
# أحداث ١٣ يناير ١٩٨٦ المأساويّة

**حاورته ليزا ودين**

**أستاذة العلوم السياسية في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة. من مؤلفاتها «السيطرة الغامضة» (١٩٩٩) و«الجموع، السلطة، الأداء في اليمن» (٢٠٠٨).**

تعود جذور أزمة كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦ إلى الأحداث والصّراعات السّابقة التي كانت تخلّف ضحايا ويتولّد عنها منتصرون ومهزومون ولا تعالج في الانشقاقات والصراعات بعودة ديموقراطية لذلك ترتّبت عليها مخالفات نفسيّة واجتماعيّة وحزبيّة كبيرة.

**نموّ الاستقطاب**

عندما خرج عبد الفتاح إسماعيل من السّلطة انقسمت المجموعة الحاكمة بين قطبين رئيسيَن: الأمين العامّ ورئيس مجلس الرئاسة علي ناصر محمّد من ناحية، ونائبه علي أحمد ناصر عنتر من ناحية أخرى. ويعود الخلاف برأيي إلى نقطتين رئيستين. الأولى: كيفيّة إدارة الصلاحيّات والسلطة، بالإضافة إلى حالة من انعدام الثّقة بين الطّرفين. وفي مجرى النّزاع نُحّي عليٌ عنتر بصفته وزيراً للدّفاع لكنّه ظلّ مؤثّراً في الجيش والأمن. والنّقطة الثّانية: تمثّلت في الاختلاف الإيديولوجيّ حيث تكوّن تيّارٌ يساريّ داخل الحزب يعارض سياسة الانفتاح الداخليّة والخارجيّة التي كان يمارسها الرئيس علي ناصر محمّد على اعتبار أنّ هذه السياسة قد أدّتْ إلى فتْح المجال أمام عودة البرجوازيّة وأثّرت في الطّهارة الثوريّة لمناضلي الحزب.

إلى جانب هذين السّببين أسبابٌ فرعيّةٌ، منها خوف كلّ طرف من الآخر، ومن أنّ تَوسّع نفوذ الواحد سوف يكون بالضّرورة على حساب الآخر. ويُضاف إلى هذا ضغط المتطلّبات الحياتيّة على النّاس وعدم تحقيق الطّموحات والإصلاحات الاشتراكيّة واليساريّة الموعودة. ولعب الحصار الخارجيّ دوره، إلى جانب التّبايُن في السياسة تجاه الشمال، هل تكون سياسةً تثويريّة أم سياسةَ تصالُح أم تهادن؟ وهل يتعيّن على الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ أنْ يقف إلى جانب فرع الحزب في الشمال والجبهة أم لا؟

تطوّرت الأزمة تدريجيّاً وأخذ كلّ طرفٍ يعمل على توسيع نفوذه في الحزب والجيش ويسعى إلى تقليص نفوذ الطرف الآخر. في البدء كانت الأزمة محصورةً في عدد ضيّق من الافراد، ثمّ أخذت تخرج إلى العلن وانتشرتْ في الصحافة الخارجيّة. هنا اتّسع نطاق التدخّل من الخارج سواءٌ من البلاد العربية أو من الكتلة السّوفياتيّة أو الأحزاب الشيوعيّة. وبعض المتدخّلين كان يحاول حلّ الأزمة فيما بعضه الآخر ينحاز إلى هذا الطرف أو ذاك. بسبب غياب تقاليد ديمقراطيّة داخل الحزب لحلّ الخلافات بوسائل سلميّة، وغياب التعدّدية الحزبيّة بدأ كلّ طرف يفكّر بكسب ولاء الجيش والقوّات المسلّحة، وانتقل الصراع إلى داخل الجيش والأمن. طبعاً نحن في المكتب السياسيّ لحزب الوحدة الشعبيّة (حوشي)، تَوزّع معظمنا في المراحل الأولى على الطّرفين ولكنّني وقفْت على حياد مع بعض الإخوان في المرحلة الأولى. لم نساند أيّ طرف وكنّا نحاول حلّ الأزمة سلميّاً. ومن بين الحياديّين جارالله عمر، الأمين العامّ لـ«حوشي»، ويحيى الشامي وأحمد علي السلامي، عضوان في المكتب السّياسي. أمّا بقيّة الإخوة فقد توزّعوا بين الكتلتين المتنازعتيْن. وكان في قيادة الجنوب شخصٌ محايدٌ كنّا ننسّق معه هو صالح مصلح قاسم وزير الدّفاع الذي كان مصرّاً على الحياد حفاظاً على وحدة الجيش. لكنّ الهجوم تواصل علينا من الطّرفين فجميع الأطراف غير راضين عن موقفنا إذ يصفوننا بالمتردّدين والجبناء إلخ.

وكان من الواضح أنّ مَوازين القوى متأرجحة. هناك محافظات تؤيّد علي ناصر ومحافظات أخرى تؤيّد علي عنتر. فعدن في معظمها إلى جانب علي ناصر محمّد وكذلك محافظة أبين. والعديد من قادة الفصائل الحزبيّة السّابقة التي توحّدت مع الحزب الاشتراكيّ اليمنيّ يقفون

إلى جانب علي ناصر محمّد. وكانت محافظة شبوة إلى جانب علي ناصر في معظمها. وحضرموت مقسّمة بين الطّرفين حسب انقسام القيادات. فعلي سالم البيض مع علي عنتر وهو صاحب النّفوذ الأوّل في المحافظة لكنّ حيدر أبو بكر العطّاس، وهو أيضاً من حضرموت، قبل أن يعيّن رئيساً للوزراء، كان موقفُه مثل موقف صالح مصلح وموقفنا نحن، موقفاً غير منحاز، لأنّه كان يدرك حجم المخاطر في المراحل الأولى من الصّراع. وكان إلى جانب علي عنتر من حضرموت صالح منصّر السييلي وكان معه قادة حضرميّون. وكان أنصار عبد الفتّاح إسماعيل يراقبون الصّراع بارتياح في البداية، إلى أنْ تغيّر الموقف. اشتغل علي عنتر داخل الجيش، وله نفوذٌ سابق فيه فانحاز معظم قادة الجيش إلى جانبه، خصوصاً سلاح الطّيَران والدّروع. العام ١٩٨٥ اعتمدت جماعة علي عنتر تكتيكاً جديداً هو الاتصال بعبد الفتّاح إسماعيل في المنفى وبأنصاره في الدّاخل. زار علي عنتر عبدَ الفتّاح إثر زيارة له إلى موسكو وطلب منه العودة إلى عدن. ولدى عودة علي عنتر إلى عدن طرح موضوع زيارته علي عبد الفتّاح على المكتب السياسيّ واللجنة المركزيّة مقترِحاً عودة عبد الفتّاح. الأغلبيّة أيّدتْ عودة عبد الفتّاح بمن فيهم نحن الذين كنّا محايدين، لاعتقادنا بأنّ عودته تؤدّي إلى خَلق توازن في البلاد، وهو لديه رغبة في العودة من المنفى. لكن الآن، بعدما حدَث ما حدَث، لو عاد التاريخ إلى الوراء، لما أيّدت عودته. مهما يكن، صوتت الأغلبيّة في اللجنة المركزيّة والمكتب السياسيّ لعودة عبدالفتّاح، حتّى وزير الدّفاع صالح مصلح قاسم غيّر موقفه من عبد الفتّاح وأيّد عودته.

**كنت أدرك أن النزاع سيتحول إلى حرب داخليـــــــــــــــة. وكنا نحاول تفادي هذا التحول بكافة الوسائل ولكننا لم نفلح لأننا أصبحنا أقلية. كانت الأزمة تشتد يوما بعد يوم والمخـــــــــــــــاوف تتأجج مع تأجج الأزمة. حينها أدركت خطورة انقسام الحزب على وضع المعارضة في الشمال.**

هكذا عاد عبد الفتّاح إلى عدن بضغطٍ من جماعة علي عنتر وبمعارضة غير معلنة من جانب عليٍّ ناصر وجماعته أو مؤيّديه. حينها انحاز صالح مصلح إلى جانب علي عنتر وجماعته. استغربنا موقفه في البداية، لكن بعدما تصالح علي عنتر وعبد الفتاح صار عبد الفتّاح القائد السياسيّ لجماعة علي عنتر ومؤيّديه. وهنا اختلّ الموقف الحزبيّ أو بدأ يختلّ لصالح علي عنتر وعبد الفتّاح وعلي البيض. استمرّ الضّغط علينا نحن المجموعة المحايدة، فوجدنا أنفسنا محسوبين على علي عنتر وعبد الفتّاح، وكلّما مرّ يوم جديد صرنا أقرب منهم. شخصيّاً كنتُ أدرك أنّ النّزاع سيتحوّل إلى حرب داخليّة، وكنّا نحاول تفادي هذا التحوّل بكافة الوسائل ولكنّنا لم نفلح لأنّنا أصبحنا أقليّة. لم يعد ثمّة مكانٌ لطرف ثالث. كانت الأزمة تشتدّ يوماً بعد يوم والعواطف والمخاوف تتأجّج مع تأجّج الأزمة. حينها أدركتُ خطورة انقسام الحزب على وضع المعارضة في الشّمال. وكنّا نخشى أن ينفجر العنف، لذلك اقترحنا على جماعة علي عنتر وعبد الفتّاح أنْ نقفَ إلى جانبهم شريطة ألّا يبادروا باللجوء إلى العنف. تعهّدوا لنا بذلك وقد كسبوا الأغلبيّة في القوّات المسلّحة وفي الحزب.

### مساع فاشلة من أجل انقلاب عسكريّ

لكن التّأييد الدوليّ كان لعلي ناصر، ومن ضمنه التأييد السّوفياتي، كما ظلّ محافظاً على تأييده في المجتمع. وقد فشلتْ جميع المحاولات لحلّ المشكلة، لأنّه كما سبق أن قلت، لم يكن هناك تعوّدٌ على الحلول الديمقراطيّة ولم تكن هناك تجربة لتداول السلطة داخل الحزب والمجتمع، بل كان يحصل بالعنف أو بالتّصويت في اللجنة المركزيّة ولا يستشار الشعب ولا القواعد الحزبيّة. كان التّغيير يتمّ عن طريق النّخبة القياديّة وأحياناً عن طريق العنف. ولأنّ كلّ واحدٍ كان يخشى من سيطرة الآخر، عقدوا المؤتمر الثّالث للحزب في تشرين الأوّل / أكتوبر ١٩٨٥ وتمّ ذلك عن طريق الانتخابات الجديدة. ولم يحصل أحدٌ على الأغلبيّة بل ساد توازن قلقٌ. جاء جورج حبش ونايف حواتمه وأحزاب شيوعيّة عربيّة أخرى، وأيضاً السّوفيات بذلوا جهوداً. كان جورج حبش والسّوفيات يحاولون الإصلاح بين الفريقين، أمّا باقي الوسطاء فكانوا يميلون لصالح هذا الفريق أو ذاك، فنايف حواتمه مثلاً كان إلى حدٍّ ما قريباً إلى عنتر وعبد الفتّاح، فيما انحازت أحزاب شيوعيّة عربيّة لعلي ناصر. هنا بدأ التفكير باللّجوء إلى الخيار العسكري. وكان للفريقين قيادات عسكريّة غير معلنة من خارج سيطرة وزير الدّفاع تقود الوحدات العسكريّة لهذا الطّرف أو ذلك بتعليماتٍ مباشرة من علي ناصر أو من علي عنتر. ولم يعد وزير الدفاع قادراً على ضبط الجيش.



بعد المؤتمر العامّ الثالث تزايدت الشّكوك وتداخلت المعلومات عند الطّرفين. وكان كلّ طرف مستعدّاً للأسوأ. ولا أريد هنا أن أنكأ الجراح بعدما أصبحتُ طرفاً في الموضوع مع الآخرين. لم يعُدْ بوسعي أن أكون قاضياً وأحكم على الآخر وأبرّئ الطّرف الذي أنا منه، فإنّنا جميعاً نتحمّل مسؤوليّة ما حدث مع تباين في درجات هذه المسؤوليّة. في أواخر عام ١٩٨٥ سافر علي ناصر محمّد إلى بعض الدّول، ومنها صنعاء وإثيوبيا وبلغاريا وعدد البلدان العربيّة. وكان الرئيس الإثيوبيّ منغستو هيلا مريام قد جاء إلى عدن وحاول التّدخّل في حلّ الخلاف، لكنّه يقف إلى جانب علي ناصر. زار هذه البلدان ومرّ بصنعاء. في ذلك الوقت اتّصل بي أحد الأشخاص من جماعة علي عنتر وعبد الفتّاح، هو الأخ أحمد عباد شريف، عضو اللجنة المركزيّة، من منطقة خولان و«بطل العمل الحزبيّ الاشتراكيّ»، وقال إنّ بعض ضبّاط الجيش، وبعض القيادات الحزبيّة، تقترح عليّ أن أقنع صديقي صالح مصلح، وزير الدّفاع، بإعطاء أوامر للجيش باعتقال علي ناصر محمّد عند عودته من صنعاء في المطار وتغيير الأوضاع بطريقة لا تؤدّي إلى إراقة الدّماء وأنّ هذا سيجنّب البلاد ويلات الحرب. فسألته: هل كان عبد الفتّاح إسماعيل وعلي عنتر يعرفان بهذا الأمر وموافقَين؟ قال إنّهما لا يعرفان، وحده علي شائع وآخرون فقط يعرفون. أبلغتُه بأنّي لا أوافق على هذا النّوع من الوساطات للقيام بهذه المهمّة لأنّي ضدّ الانقلابات العسكريّة، وأنا على ثقة أنّ صالح مصلح وزير الدّفاع سيرفض هذا النوّع من التفكير. وكان أصحاب هذا الرّأي يقولون إنّ الجيش عندما يعتقل علي ناصر عند عودته سيجنّب البلاد الاقتتال. نحن [الشماليون في الجنوب] كنّا طرفين متقابلين ومعظم أصدقائي في الطّرف الثاني. رغم رفضي أنْ أطلب إلى صالح مصلح أنْ يقوم بالانقلاب، فاتحتُ صالح بالأمر وعلمتُ أنّه عرف عنه من آخرين وقد عُرض عليه أن يكون رئيساً للدّولة. وكان ردّ صالح مصلح على العرض على النّحو الآتي: «أنا مسؤول عن القوّات المسلّحة رغم أنّها كانت تقاد من الخارج، أنا مسؤولٌ عن الدفاع عن البلد وأنا لا أؤيّد اعتقال علي ناصر عند عودته لأنّني إذا قمت بانقلاب وأنا وزير دفاع وعضو مكتب سياسيّ فسنعوّد الجيش على الانقلابات العسكريّة. والانقلاب المقبل، بعد هذا الانقلاب، سيقوده رائدٌ في الجيش لا أعلم من هو ولا مع من هو، سيكون ضدّ الحزب بالكامل».

وفي إحدى الليالي اجتمعنا كي نقوم بمصالحة بين علي عنتر وصالح مصلح فسمعتُ صالح مصلح يقول لعلي «أنا لا أصلح كي أكون رئيس دولة، والمنصب الذي وصلتُ إليه أقصى ما أطمح إليه. يجب علينا أنا وأنت أن نفهم الحدود التي نصل إليها لأنّي أدير وزارة الدّفاع بمستشار سوفياتيّ، ورئاسة الدّولة تحتاج إلى عقل ولا أستطيع أن أدْخِل المستشار السّوفياتيّ في دماغي ويعطيني نصائح في كلّ لحظة». وقال صالح مصلح: «الذي سيبدأ القتال، سنكون ضدّه». واقترح على الطّرفين العودة إلى اللّجنة المركزيّة، وأضاف: «انا سأقف مع قرار اللجنة المركزيّة ولو اتُّخذ بفارق صوتٍ واحد».

### وصلت متأخراً إلى الاجتماع

عشيّة ١٣ كانون الثاني / يناير ١٩٨٦ دار نقاشٌ داخل المكتب السياسيّ حول توزيع الصلاحيّات والمقاعد في اللّجنة المركزيّة وفي سكرتاريّة اللجنة المركزيّة بين جناح علي ناصر والمؤيّدين لعلي عنتر وعبد الفتاح. طرح جناح علي عنتر إعادة اقتسام دوائر السكرتاريّة والبحث في الدائرة التّنظيميّة التي يتولّاها أبو بكر باذيب القريب من علي ناصر، وهو من العناصر الماركسيّين المؤسّسين للعمل اليساريّ في اليمن، وأخو عبد الله عبد الرزّاق باذيب، مؤسّس أوّل حركة شّيوعيّة في اليمن. دار النّقاش حول انتقال الدائرة التّنظيميّة من أبو بكر إلى عبد الفتّاح إسماعيل، فإذا الخلافُ حولها يصير القشّة التي قصمتْ ظهر البعير. لكنّ الأزمة كانت أوسع والخلاف أعمق، دار حول الصلاحيّات في الدّولة والنّفوذ في الجيش وفي الحزب. كان أنصار علي عنتر وعبد الفتّاح يريدون تعزيز مواقعهم في الحزب استعداداً للصّراع المقبل، فيما جناح علي ناصر يريد الاحتفاظ بالدّائرة الحزبيّة لكي يمنع المزيد من الاختلال المتسارع في موازين القوى لصالح جناح علي عنتر وعبد الفتّاح.

عيّن يوم ١٣ كانون الثّاني / يناير موعداً لحسم قضيّة الدائرة التنظيميّة. كنتُ مصاباً بشيءٍ من الإنفلونزا، وجاءني علي عنتر إلى المنزل ليلاً ليبلغني أنّه سيتمّ التصويت في اجتماع الغد على مصير الدائرة التنظيميّة، وأنّ حيدر العطّاس مسافر وقد انحاز إلى جانبنا، وأنّ لدينا نقصاً في الأصوات ويجب أن نحصل على أغلبيّة، فقلت له إنّي مريض ولا أستطيع الحضور. أصرّ على حضري وأقنعني «بالقوّة، حتى إذا كنتُ على السرير يجب أن تحضر الاجتماع، لأنّه إذا لم نستطِع أن نكسب

أغلبيّةً تصوّت لجانب المقترح غداً مش ح يعود الموضوع يعرض من جديد وح تفوّت علينا الفرصة». قبلتُ على مضض حضور الاجتماع يوم ١٣ كانون الثاني / يناير. وكان موعده العاشرة صباحاً. والنّقطة الرئيسة على جدول الأعمال هي الدائرة التنظيميّة. عند السّاعة التاسعة والنّصف كنتُ جاهزاً للتحرّك بسيارتي «البيجو» إلى الاجتماع في منطقة التواهي. وكان يجب أن أصل بسرعة وأعيد السيارة لنقْل الأطفال إلى المدرسة.

**لم نصل إلا وقد مضى على الاجتماع عشرون دقيقـــــــــة. لدى صولنا إلى باب اللجنة المركزية سمعنا من داخـــــــــل المبنى أصوات رصاص بدت لنا خافتة مثل بنادق الصيد. قلت ليـــــــــــــدو أنها بنادق صيد وأنهم يصطادون الغربان.**

وبينما أنا أستعدّ لركوب السّيّارة وصل إليّ اثنان من الكوادر القياديّة في محافظتَي إب والبيضاء، عبد الرّحمن سيلان، وهو كادر قياديّ مثقّف وعضو سكرتاريّة البيضاء، والشّيخ عبد الكريم الجهمي، القياديّ في محافظة إب، الذي سوف يُستشهد لاحقاً. كانا يتابعان بعض مستحقّات أسَر الشهداء في هاتَين المحافظتين ومعهما رسالة يتعيّن عليّ أن أراجعها وأوقّعها، لم أعدْ أذكر الجهة التي ستحال إليها. قالا: يجب أن توقّعها قبل أن تذهب إلى الاجتماع. قلت: اعذروني لديّ اجتماعٌ ويجب أن أحضر في الوقت المحدّد، ويجب أن أعيد السيارة للأولاد لتقلّهم الى المدرسة. غضِبا وقالا: على القيادة أن تستمع للنّاس. خشيتُ من غضبهما فقبلت التّأخير. أرسلْت سيارتي إلى المدرسة والتزما بنقْلي بسيارتهما إلى الاجتماع. بعد إكمال العمل تحرّكنا إلى التواهي، ولم نصل إلّا وقد مضى على الاجتماع عشرون دقيقة. لدى صولنا إلى باب اللّجنة المركزيّة سمعنا من داخل المبنى أصوات رصاص بدت لنا خافتة مثل بنادق الصّيد. وكان العسكر يُغلقون باب مبنى المكتب السياسيّ، فتساءلنا جميعاً ما هذا الذي يجري في الداخل؟ قلت يبدو أنّها بنادق صيد وأنّهم يصطادون الغربان. وكانت هناك حملة للقضاء على هذا الطائر بسبب ما يُلحقه من أذى بالحدائق وصوته المزعج للسكّان. فردّ عليّ الأخَوان الاثنان اللّذان كانا معي أنّ هذا رصاص، وأنّ هذه بنادق وهناك معركة داخل المكتب السياسيّ. فقلت: لندخلْ ونرَ ماذا يحصل، فقالوا: تدخلّ ماذا تفعل؟ تدخل لتموت؟ يجب ألّا تفعل شيئاً، يجب أن تعود من الباب. أمسكوا بي بقوّة ومنعوني من الدّخول إلى قاعة الاجتماعات. وكان باب اللجنة المركزيّة قد أُغلق فعدنا أدراجنا نبحث عن الّذي حصل وأين نذهب. وعند عودتنا من مبنى المكتب السياسيّ إلى التّواهي لاحظْنا حركةً في الجبال المحيطة بالمدينة وبداية إطلاق الرّصاص. وعندما وصلنا إلى خور مكسر لاحظنا أناساً مسلّحين يفتّشون السّيّارات عند المستديرات. لم نخضع للتّفتيش ولم يسألْنا أحدٌ لأنّ السّيّارة التي كنّا نستقلّها كانت عاديّة وغير معروفة، وليستْ تابعة لأيٍّ من الأطراف المتصارعة المعروفة. جلْنا على بيوت أعضاء المكتب السياسيّ. ذهبنا إلى منزل صالح مصلح وزير الدفاع وهو يقع في خور مكسر وسألنا عنه. قالوا لنا إنّه ذهب إلى الاجتماع وحضَرَ تلقائيّاً، وعلي ناصر لم يكن يريده أن يحضر. وقد أكّد عبد الغني عبد القادر فيما بعدُ أنّهم لم يكونوا يفكّرون بقتل صالح مصلح، وهذا ما أكّده أيضاً محمّد علي أحمد المتواجد الآن في بريطانيا، وكان هو الرّجل الذي يعتمد عليه علي ناصر محمّد، لكنّه ما لبث أنْ اختلف معه وقرّر العودة إلى الحزب. بعدما تعاون محمّد علي أحمد مع علي عبد الله صالح بعدكانون الثاني / يناير ١٩٨٦ وقرّر العودة إلى الحزب الاشتراكيّ اليمني، قال: «نار صنعاء ولا جنّة ذمار»، وهو مثل شعبيّ. وأكّد لي محمّد علي أحمد أنّه ذهب إلى صالح مصلح ليلة ١٣ كانون الثاني / يناير وسهر معه حتى الصباح كي يمنعَه من حضور اجتماع المكتب السياسيّ في اليوم التالي.

ثمّ ذهبْنا إلى منزل حسين الهمزة، عضو المكتب السياسيّ، نسأل إذا كان قد حضر الاجتماع أمْ لم يحضر. وجدناه في البيت يقرأ أوراقاً ولم يكن جاهزاً لحضور الاجتماع. وكان لحسين صِلاتٌ بعلي عنتر وعبد الفتّاح وبعض العسكريّين أكثر مِنّا وسبَقَنا في تحديد الموقف. الله يرحمه أخبرَناه بوجود إطلاق رصاص و«أنّنا لم نعلم بشيء وأنّنا وجدنا مبنى اللجنة المركزيّة مغلقاً، وكان الهاتف غير مقطوع. وهذا واحد من أخطاء المهاجمين، إذ لم يقطعوا الهاتف»، فاتّصل بنائب وزير أمن الدولة ثابت عبده حسين، وهو ضابط شجاع وطيّب، ووجد أنّ هاتفه مقطوع، وكان واضحاً أنّه هوجم وقُتل، واتّصل مرة ثانية بحسّان حسين، نائب قائد الاستطلاع السياسيّ، وهو

الآن من المشرّدين في القاهرة، فسأله حسين الهمزة عن الوضع لديهم وعمّا قد حصل. فردّ عليه بأنّه قد حصل انقلاب و«أنّنا محاصَرون في طرف وزارة الدّفاع، وأنّ الطرف الآخر قد استولى على وزارة الدفاع وهناك أناس قتلوا». سأله حسين إن كانوا قد استولوا على كلّ شيء؟ قال «نعم، سيطروا على وزارة الدفاع وغرفة العمليّات وهناك إطلاق نار في اللجنة المركزية»، فوجّه له تعليمات بالانسحاب من هناك، والباقي منهم يتوجّهون إلى خارج عدن إلى حيث الوحدات العسكريّة المؤيّدة للطّرف الآخر، فانسحب حسّان حسين وذهب إلى خارج المحافظة، ولعب دوراً كبيراً فيما بعد. قلت له أنا وحسين الهمزة أن يهرب من عنده، ففعل. هيثم قاسم طاهر الذي صار بعد الأحداث النّائب الأوّل لوزير الدّفاع، كان حينها قائد سلاح المدرّعات. سمع إطلاق النّار في وزارة الدّفاع فهرب من هناك إلى منطقة صلاح الدين حيث قيادة سلاح المدرّعات.

**الاختباء، بيان الانقلاب والبيان المضادّ**

بعد ذلك خرجْنا من منزل حسين الهمزة وكنّا أربعة، اثنان الآن غائبان فحسين همزة توفّي وعبد الكريم الجهمي استُشهد في صنعاء بعد قيام الوحدة. ذهبنا إلى منزلي في خور مكسر فأخبرتني الزوجة أنّ أحد أصدقاء محمّد سعيد عبد الله (محسن)، الوزير السابق لأمن الدولة، ومحمود عبد الله عشيش، نائب رئيس الوزراء ووزير الدولة لشؤون الوحدة والخبير الاقتصاديّ، الذي قتل في أحداث كانون الثاني / يناير - أخبرتْني أنّهما اتّصلا وقالا لها إنّ إطلاق نار يحصل في اللجنة المركزيّة والمكتب السياسيّ وأنّ علَى جار الله أن يخرج من المنزل. قالت لي: «رجاءً لا تبق هنا، سيأتون بحثاً عنك». خرجنا من البيت نبحث عن مكانٍ نختبئ فيه. عرض علينا عبد الكريم الجهمي أن نختبئ في بيته في مدينة المنصورة، حيّ نجوى مكّاوي، لأنّه اتّضح لنا أنّ المهاجمين من الطرف الآخر قد سيطروا على المدينة بشكلٍ كامل. لم يبقَ لدينا الآن إلّا أن نبحث عن مكانٍ نختبئ فيه، فذهبنا إلى منزل عبد الكريم وهو شخصٌ غيرُ معروف كثيراً ولديه هاتف.

وصلنا إلى المنزل في مدينة المنصورة حيث يسكن عبد الكريم في الطبقة الثالثة من أحد الأبنية، فوجدنا أنّ مجموعةً من الطّرف الآخر تسكن في الطّبقة أسفله وكانوا ينقلون السّلاح. نحن لم يكن لدينا سلاح سوى مسدّس واحد. اختبأنا عنده في المنزل والقتال قد انتشر في كلّ مكان والمدينة تحت سيطرة الطرف الآخر. وكانت الإذاعة لا تزال تبثّ وهي تحت سيطرة جماعة علي ناصر. وعند الساعة الثّانية عشرة والنّصف من بعد الظهر لاحظنا تحرّك الدّبابات من معسكر صلاح الدّين الذي كان تحت سيطرة هيثم قاسم قائد سلاح الدّروع والذي أرسل الدبابات التي دخلت المدينة من دون مشاة. ولاحظنا أنّ الكمائن كانت موجودة ودمّر الكثير منها قبل أن تصل إلى الهدف الذي كان محدّداً لها: إنقاذ القيادة والسيطرة على الإذاعة.

عند الساعة الثّانية والنّصف تقريباً سمعنا بياناً من الإذاعة يتحدّث عن حصول محاولة انقلاب عسكريّ من قبل جماعة علي عنتر وأنّه قد تمّ إفشال الانقلاب وألقي القبض على قادة المؤامرة الانقلابيّة وحوكموا أمام محكمة سريعةٍ وقد حُكم على أربعةٍ منهم بالإعدام ونُفّذ فيهم الحكم وهم: علي أحمد ناصر عنتر، علي شائع هادي، علي سالم البيض، عبد الفتّاح إسماعيل. سمعنا البيان في لحظة هلعٍ وفزع. لزمنا الصّمت، لم نكلّم بعضنا البعض لمدّة ربع سًاعة. وبعد ساعة توقّفت الإذاعة عن الإرسال. وكان السبب واضحاً، إذ إنّ الدبّابات وصلتْ إلى التواهي ودمّرت مبنى الإرسال. عند الثالثة والنّصف أو الرابعة من بعد الظّهر اتّصل بنا محمّد سعيد عبد الله (محسن) إذ تركنا له رقم الهاتف عند زوجته. تبيّن أنّه مختبئٌ في عدن، وأخبرنا أنّ البيان الذي أصدره علي ناصر كاذب وأنّ الأشخاص الذين قيل إنّه قد تمّ إعدامهم لا يزالون أحياء وهم موجودون في المكتب السياسيّ. قلنا له: «تريدون رفع معنويّاتنا والجماعة قد قُتلوا». قال لنا «لا»، خذوا هذا الهاتف واتّصلوا. فاتّصلنا وكان أوّل مَن ردّ على الهاتف من مبنى اللّجنة المركزيّة علي سالم البيض وإلى جانبه عبد الفتّاح، فأخبرَنا أنّهم أحياء ومحاصَرون، لكنّ علي عنتر وصالح مصلح وعلي شائع مصابون إصابات بسيطة. كذبوا علينا حتّى لا تضعف معنويّاتنا فصدّقنا أنّه إذا كان هناك اثنان ما زالوا أحياء فهذا يعني أنّ الجميع أحياء برغم شكّنا بأنّهم مصابون. وأخبرَنا علي البيض أنّهم الآن محاصرون وقال لنا إنّ علينا نحن من تبقى من أعضاء المكتب السياسيّ أن نتصرّف بوصفنا قيادة وأن ننسّق مع قيادة الجيش.

عند حلول المساء استطعنا الاتّصال بقيادة الجيش، هيثم قاسم ومحمّد هيثم وقاسم عبد الرّبّ، وقد شكّلوا غرفة عمليّات تولّوا قيادةً للجيش وهم يقودون القتال. بعد ذلك أقمنا قناة اتّصال مع القادة العسكريّين وعلمنا

أنّهم يريدون بعض أعضاء المكتب السياسيّ كي يعطوهم تعليمات سياسيّة. في هذا الوقت كان كلّ شيءٍ قد بات واضحاً لكنّنا كنّا خائفين أن يكشفَنا المقيمون تحتنا في المنزل الّذي كنّا مختبئين فيه. قبل غروب الشمس أخبرنا بن حسينون، وهو قائد عسكريّ محنّك وكان رئيساً لهيئة أركان الجيش ثمّ وزيراً للنّفط، أنّ علي عنتر وعلي شائع وصالح مصلح قد انتهوا، فكلّفنا أنفسنا أن نصدر بياناً إلى الرّأي العامّ نوضح فيه ما قد حصل أنا وحسين الهمزة وعبد الكريم الجهمي وعبد الرحمن سيلان. صغنا البيان واختلفنا عليه. كان رأيي أن نقول إنّ الخلاف حصل بسبب ميول علي ناصر للسيطرة على السلطة بشكلٍ كامل. وكان رأي المرحوم حسين الهمزة أن نقول إنّها مؤامرة إمبرياليّة ورجعيّة. رفضْتُ ذلك لأنّ رأيي أنّ الصراعَ على السلطة هو داخل الحزب. رأى حسين أن نتحدّث عن مؤامرةٍ من أجل تحريض النّاس، فيما رأيت أنا أن يكون البيان واقعيّاً. تشاجرنا وعلَتْ أصواتنا وطلب منّا عبد الكريم أن نهدأ حتى لا يعرف الّذين تحتنا أنّنا هنا فيصعدون إلينا. فرفع صوت المذياع كي لا يسمعوا أصواتنا ولكنّنا اتّخذنا حلّاً وسطاً وأصدرنا البيان، ثمّ تساءلنا حول كيفيّة إذاعة البيان وإيصاله إلى العالم ونحن محاصَرون. اتّصلنا بالدكتور محمّد جرهوم، الّذي عُيّن بعد ذلك وزيراً للإعلام، وهو خرّيج روسيّا. أمليْنا عليه البيان بالهاتف باسم المكتب السياسيّ وكان أوّل بيانٍ يتكلّم عن الحدث. تحرّك محمد جرهوم إلى خارج عدن حيث هناك إذاعةٌ محلّيّة تحت سيطرة جماعة علي عنتر وعبد الفتّاح وكانوا مسيطرين على لحج سيطرة كاملة لأنّ علي عنتر من لحج والجيش أغلبه من هذه المحافظة، وعبد الفتّاح من الشمال ولكنّه كان مؤثّراً في تلك المنطقة.

**مسلّحو المناطق في عدن**

في إذاعة لحج كان المهندسون الذين ربطوا الإذاعة المحلّيّة بالمقويّات الموجودة في جبل جحاف في الضالع، فأذاعوا البيان من الإذاعة المحلّيّة فالتقطتْه الإذاعة في صنعاء والكويت وبعض دول الخليج. وفي اليوم الثاني، يوم ١٤ كانون الثاني / يناير، كانت إذاعات العالم تذيع الذي حصل، تذيع بيان علي ناصر وبيانَنا. استمرّت المعركة والدبّابات التي دخلت المدينة دُمّر معظمها، وقضي على حوالي سريّتين بقذائف «الأر بي جي» المضادّ للدبّابات. وصلتْ أربع دبّابات إلى التواهي لكنّها لم تتعرّف الى مبنى اللّجنة المركزيّة - وهذا يدلّ على أيّ مدى كان الجيش الجنوبيّ مدرَّباً على صدّ الانقلابات! أخيراً دخلَت الدبّابات مساء يوم ١٣ كانون الثاني / يناير لإنقاذ عبد الفتّاح إسماعيل وعلي سالم البيض وآخرين، حسب رواية الأخ أحمد علي السلامي. لكنّ الدبّابات لم تستطِع أن تُخرج عبد الفتّاح من المنطقة فوقعت دبّابته في كمين وقُضي عليه. أمّا علي البيض فأصيب وذهب إلى المستشفى حيث وزارة الدّفاع. لكنّ الذي حصل يوم ١٤ و١٥ كانون الثاني / يناير هو أنّ القوّات التي جاءت من لحج، كانتْ قوّات عسكريّة ومواطنين، تمكّنوا من الوصول إلى الشيخ عثمان ودار سعيد، ودخلوا بعض أحياء المدينة بعد ثلاثة أيّام. وكانت هناك حربُ مدن وشوارع. كانت هناك جماعات تحتلّ أبنية تحاول جماعات أخرى احتلالها فتدور المعارك. في اليوم الرّابع طلبَتْ منّا قيادة الجيش أن نخرج وننضمّ إليهم في «معسكر المشاريع» الّذي يقع على طرف الشيخ عثمان. وكان خروجنا صعباً، فالمنطقة التي نحن فيها محتلّة من قبل الآخرين فتنكّرنا، ارتدينا ملابس عاديّة وحملْنا أكياساً بأيدينا على أساس أنّنا ذاهبون للتسوّق، فلم يعترضنا أحد. وكانتْ أجسامنا صغيرة. وصلْنا إلى دوّار مصنع الغزل والنّسيج ما بين المنصورة والشيخ عثمان، وكانت هناك دبّابة صغيرة تنتظرنا. لم يصدّق الجنود أنّنا أعضاء المكتب السياسيّ بسبب أشكالنا. شكّوا بنا وكانوا على وشك إطلاق النّار علينا. رفعنا أيدينا وقلنا «ليس معنا سلاح لكْن هذا مسدّس خُذوه». وبعد مناقشات معهم وإعطائهم ما لدينا من سلاح، وكان المسدّس بحوزة حسين الهمزة، أمّا أنا فلم يكن معي سلاح، وافقوا فصعدْنا إلى الدبّابة، ومن باب الصدفة وجدنا فيها قريباً تعرّف إلينا. قال: «أيّوه، هؤلاء معروفون». وانتقلْنا إلى المعسكر على بُعد كيلومترين من المكان الذي كنّا فيه، وهناك تولّينا القيادة السياسيّة. وجدنا ضبّاط الجيش يشكّلون قيادة وشاركناهم في إدارة المعركة وبالذّات الجانب السياسيّ. وكانت مهامّنا متابعة المعركة وإصدار البيانات. لم نقُل إنّ الجماعة قتلت مثلما فعل معنا البيض عندما أخفى علينا في البداية أنّ الجماعة لم تُقتل حتّى لا يَهزم معنويّاتنا، أعلنّا مقتلهم بعدما انتهت المعركة. عادةً ما يجري في الحزب إخفاء مثل هذه الأخبار حتّى لا تضرّ بمعنويّات الجيش. طبعاً الجيش انقسم، البحريّة مع علي ناصر والدبّابات مع علي عنتر.

المهمّ أنّ المعركة استمرّت لعشرة أيّام أو أحد عشر يوماً. وتمكّنت جماعة علي عنتر وعبد الفتّاح من الاستيلاء على المدينة كاملة بعدما قطعوا الطريق على الفريق الآخر.



أرسل هيثم الدبّابات وقطعوا عنهم التموين الوارد من محافظة أبين، فاضطرّوا إلى الانسحاب من عدن رغم أنّهم حصلوا على دعم بحريّ. كان طريق لحج مفتوحاً وميزان القوى العسكريّة يميل إلى جانب عنتر. تمكّنوا من احتلال المدينة بعد معارك شوارع استمرّت أسبوعاً أو عشرة أيّام. وقبل أن تنتهي المعركة ظلّ المصدر الوحيد لإذاعة أخبارنا هو إذاعة لحج. ولم نعرف كيف نقوم بتشغيل الإذاعة المركزيّة في عدن، لكنّ أحد المهندسين اتّصل بنا عندما كنّا في مدينة الشعب وقال إنّ الإرسال الحقيقيّ لديكم. لم نكن نعرف ذلك، كنّا نعتقد أنّ المبنى الرئيسيّ هو في التواهي ولم نكن نعرف أين هي الإذاعة. وكُلّفت أنا ومحمّد جرهوم من قبل أعضاء المكتب السياسيّ الموجودين أن نحتلّ مبنى الإرسال. كان معنا ضابط من المدرّعات من قِبل هيثم قاسم وفصيلة من الجنود. قمنا باحتلال المبنى في يوم عشرين أو ٢٢ كانون الثاني / يناير تقريباً، واكتشفنا أنّ أجهزة الإرسال صالحة للبثّ، فكتبنا أنا ومحمّد جرهوم بياناً سياسيّاً مرناً وهادئاً، لأنّ التعاطف الخارجيّ كان مع الطرف الآخر، قلنا فيه إنّ المعركة قد انتهت وإنّ الحزب قد انتصر. طبعاً هكذا يتصرّف المنتصرون. وهذه كانت من أخطائنا. نحن ظننّا أنّ الحزب هو نحن. مع أنّ جميع أوراقنا «تبدّدت» إلّا أنّ البيان موجودٌ في الصحف ويمكن العودة إليه وإلى البيانات التي أصدرناها. في تلك الأثناء احترنا بأيّ شيء نفتتح الإذاعة، فاقترحتُ أنا أن نفتتحها بأغنية اسمها «يا بلادي أحبّك أفديك بروحي ودمي وأولادي» لأحمد قاسم وقد غنّاها بصوت شجيّ.

السيطرة على الإذاعة المَركزيّة وإذاعة هذا البيان أثّرتا تأثيراً كبيراً فينا خارجيّاً وداخليّاً، وانسحب الطرف الآخر من أبين ثمّ إلى الشّمال، وبعدها تمكّنا من إخراج بقيّة أعضاء المكتب السياسيّ باستثناء علي سالم البيض الّذي كان يرقد في المستشفى حيث تمّ إخراجهم بواسطة قوارب من البحر، واجتمع المكتب السياسيّ في مبنى وزارة الخارجيّة في مدينة الشّعب وقرّر دعوة اللجنة المركزيّة إلى الانعقاد، لكنْ وجدنا أنّ عدداً من اعضائها قد قتل وهرب البعض الآخر إلى الشّمال وتمّ اعتقال ما تبقى من طرف علي ناصر. أي أنّ النّصاب غير متوافر إذ بالكاد يوجد نصف العدد. وكان عدد أعضاء اللّجنة المركزيّة بحدود ٨٠ عضواً أو أكثر وهم موزّعون في الشمال والجنوب، فتفرّقوا بين علي ناصر والآخرين، وقد اضطررنا إلى أن نُحضر المعتقلين من أصحاب علي ناصر لكي نكمل النّصابَ. بالإضافة إلى هذا كان عبد



الفتاح ضائعاً ولم يكن هناك أمين عام للحزب فيما معظم الأعضاء في المكتب السياسيّ غائبون، فتناقشنا حول من يرأس اجتماع اللجنة المركزيّة. اقترح الحضور أن يرأس الاجتماع الأكبر سنّاً في المكتب السياسي. وكان الأكبر سناً بين الحاضرين هو يحيى الشّامي.

**أخبرتني زوجتي أن أحد الضباط الذي كان جارنا اقتحم المنزل بالسلاح وبحث عني وقام بتفتيش المنزل كاملا وأنه كان مكلفا بقتلي. كان اسمه محمد عبد الله. اكتشفت فيما بعد أن هذا الشخص قد اعتقل من قبل قوات الأمن وأنه موجود في السجن. حققوا معه واعترف بأنه كان مكلفا بقتلي.**

اجتمعنا والمدينة عبارة عن أنقاض. وقد اتّخذت اللجنة المركزيّة عدداً من الإجراءات الأوّليّة لإعادة تشكيل الدّولة لأنّ رئيس الدولة خرج، كما واتّخذتْ قرارات فصل بحقّ الجماعة التي تدعم علي ناصر وأصدرتْ بياناً قالتْ فيه إنّ أصحاب علي ناصر الذين لم يشتركوا في القتال هم أصحاب رأي وينبغي ألّا يعاقبوا، وإنّ المدنيّين لا شيء يدينهم. وطبعاً تولّى المكتب السياسيّ القيادة اليوميّة، وأوّل مشكلة واجهناها كانت القتال الّذي كان لا يزال منتشراً في المدينة من قبل المنتصرين لأنّ أصحاب علي ناصر قبل أن ينسحبوا قاموا بقتل بعض الأفراد. وحصل قتالٌ متبادل مؤسف وصار القتل والاقتتال على الهويّة الشخصيّة، فيُقتل من هو من لحج أو من هو في المقابل من أبين وهكذا دواليك. فاضطرّ المكتب السياسيّ أن يتّخذ بعض الإجراءات ومن ضمنها إطلاق إنذار للمقاتلين المنتصرين إذا لم ينضبطوا أنه ستطلق النّار على أيّ شخص يَقتل أو ينهب. وبالفعل تمّ إطلاق النار على بعض المقاتلين من الطرف المنتصر وقتلوا ثلاثة أشخاص أحدُهم يُدعى البيضاني وآخر يُدعى الشعبي، وهما من المنتصرين وكانا يقومان باعتقال أشخاص من الطّرف المهزوم ويقتلونهم.

### جاري هو الضّابط المكلّف بقتلي

ومن اللّحظات الصّعبة بالنّسبة إليّ أنّه في منتصف المعركة شاهدنا حريقاً في مخزن الذّخيرة في «جبل الحديد» القريب من منزلي، فاتّصلت بالزّوجة والأولاد في البيت. قالوا إنّهم بخير لكنّ الحريق اخذ ينتشر حول المبنى. فطلبتُ منها أن تخرج من المنزل فرفضَت وقالت إنّها ستحافظ على المكتبة وستحافظ على البيت مهما حصل، وستبقى في البيت. كانت لحظةً صعبة. لكن بعد يومين توقّف الحريق ولم يحصل ما كنّا نتوقّعه. أخبرتني زوجتي أنّ أحد الضبّاط الذي كان جارنا اقتحم المنزل بالسّلاح وبحث عنّي وقام بتفتيش المنزل كاملاً وأنّه كان مكلّفاً بقتلي. كان اسمه محمّد عبد الله. اكتشفتُ فيما بعد أنّ هذا الشّخص قد اعتُقل من قبل قوّات الأمن وأنّه موجود في السّجن. حقّقوا معه واعترف بأنّه كان مكلّفاً بقتلي لكنّه كان شخصاً بسيطاً.

عندما انتهت المعركة كان لديّ هاجس آخر مهمّ وهو زملائي في الطرف الآخر من حزب الوحدة الشعبيّة، فرع الحزب في الشمال، ومن الجبهة الوطنيّة الذين كانوا مع علي ناصر. سمعت أنّ بعضهم قد اعتُقل وربّما قُتل أثناء المعركة أو في نهايتها انتقاماً. وقلتُ لنفسي: إذا قتلوا هؤلاء وأنا كنت معهم في مجموعة واحدة فسأتحمّل المسؤوليّة. لماذا؟ لأنّي مسؤول عن حياتهم وأنا في الطرف المنتصر. وكان من ضمنهم رئيس الجبهة الوطنيّة سلطان أحمد عمر وعضو قيادة الجبهة عبد الحافظ قائد، والاثنان قد توّفيا رحمهما الله، ومجاهد الكهالي وحسن شكري، محمّد عبد ربّه السلامي وهو الآن في «المؤتمر الشعبي العام» وعبد الله صالح عبده، وهو قياديّ متقاعد. زملائي هؤلاء كانوا في الطّرف الآخر ولم يتمكّنوا من الهرب وكانوا معرّضين للخطر. أحدهم «لحقتُه» في آخر لحظة وهو سيحكي القصّة. كذلك الشّيخ محسن أبو نشطان، وهو شيخ من منطقة أرحب، ونصر الشرعني. كانوا موجودين جميعهم في المدينة ومن مؤيّدي علي ناصر. وقد اعتُقل بعضهم. خرجتُ مع عدد من الجنود وبحثت عنهم وأخذتهم إلى منزلي وأقفلنا عليهم الباب. أبقيناهم في البيت سرّاً لمدّة شهر حتّى هدأت الأمور. أمّا معظم المقاتلين الذين هم من الجبهة والمتواجدون في عدن فقد انضمّوا إلى جانب الطرف المنتصر، أي إلى علي عنتر وجماعته.

عدتُ إلى العمل في المكتب السياسيّ بعد الحرب. لم تكن هناك شرعيّة. فقط شرعيّة القوّة، وكان يجب تأمين غطاء سياسيّ لعمل القوى عن طريق اللّجنة المركزيّة لأنّ السلطة في اليمن الجنوبيّ كانت بيد اللجنة المركزيّة والمكتب السياسي وهم الذين يشكّلون الدولة فيها. كان يجب أن يتأمّن نصاب قانونيّ في الهيئتين القياديّتين من

أجل تشكيل الدولة. وقد ترتّبت أوضاع الدولة ثمّ انتخاب علي سالم البيض أميناً عامّاً للحزب، لأنّه أقدم شخص من الشخصيّات التاريخيّة بعد غياب عبد الفتّاح، ولأنّه كان أثناء المعركة ثابتاً وشجاعاً وهو الذي تصرّف وأجرى الاتصالات وأعطى التعليمات للجيش إلخ.

**ألغاز مقتل عبد الفتّاح إسماعيل**

هناك من يقول إنّه هو، أي علي البيض، الذي قتل عبد الفتّاح. وهذا غير صحيح، فعبد الفتّاح لم يُعثر له على أيّ أثر وكان تقدير اللجنة التي تمّ تشكيلها أنّه احترق في الدبّابة التي أُحرقت بالبترول بين اللّجنة المركزيّة ووزارة الدّفاع والبحريّة في منطقة التواهي. لكنّ الشائعات التي أطلقت فيما بعد كثرتْ، بأنّه غاب، وهو مات موتاً تراجيديّاً، موتاً مثيراً، موتاً أسطوريّاً وهذا يتّفق مع شخصيّة عبد الفتّاح. والأرجح أنّه قُتل في الدبّابة، كما قالت اللجنة التي حقّقت في الموضوع وقالت إنّه احترق مع الدبابة وبانفجار الذّخائر في المكان المذكور. وقد حقّقت اللجنة مع الضبّاط الذين نقلوه في الدبّابة لأنّهم كانوا قد أصيبوا بقذيفة أصابت البرج وهو كان فيها. أغمي عليهم ثمّ نقلوا إلى المستشفى. وكان عبد الفتّاح في مؤخّرة الدبّابة مع الذّخائر فاحترق معها. وهذا تقدير اللجنة، ولم تظهر أيّ رواية أخرى سوى الشائعات.

بعض زملائي في حزب الوحدة تمكّنوا من الهرب إلى الشمال مع علي ناصر ومنهم الأخ محمد قاسم الثور. بقيت زوجته فأخذناها إلى منزلي. ومن الزملاء الذين قتلوا وتأسّفت عليهم نصر الشرعبي الذي قُتل في منطقة خارج عدن. أتى إليه أشخاصٌ من الطرف المنتصر وأخذوه ليلاً وقتلوه. وأصررنا على المكتب السياسي أن يستنكر هذا العمل، وأن يتّخذ موقفاً ويسمّيه شهيداً. لكنّ عملي مع بعض الزملاء على منع القتل أو الاعتقال والانتقام سبّب لي مشكلة مع المنتصرين، إذ اعتبروني مع بعض الإخوان الآخرين مُوالين لـ«الزّمرة» [أي جماعة علي نصّار]. وقفنا ضدّ الانتقام، أنا ويحيى الشامي وحيدر أبو بكر العطّاس. واستنكر المقاتلون موقفنا هذا. لم يرتاحوا له. لكنّ الجيش الجنوبي كان جيشاً منضبطاً خضع للّجنة المركزيّة والمكتب السياسيّ وللتعليمات التي صدرت له. من اللافت للاهتمام أنّه تمّ تشكيل الحكومة ولم يُطلب الجيشُ للمشاركةَ في القرار ولا هو طلب المشاركة في الحكومة، إلّا منصب وزير الدفاع فقط. وقد تمّت السيطرة على كلّ المناطق باستثناء أبين. كان لا يزال هناك تواجد للرئيس علي ناصر وأنصاره. تحرّكت قوّة من المدرّعات والمشاة إلى أبين على رأسها هيثم قاسم، وقد عُيّن فيما بعد نائباً لوزير الدّفاع وصالح عبيد أحمد وزيراً جديداً للدفاع. فخرجنا [يقصد هو ومجموعات من مقاتلي «حزب الوحدة الشعبيّة» الشمالي] مع هيثم وصالح عبيد إلى أبين. وصلنا إلى نهاية حدود جمهوريّة اليمن الديمقراطية التي هي منطقة مكيراس ولم تحصل أي معركة مع الطرف الآخر. عندما وصلت القوّات إلى أبين لفَتَ انتباهي أنّ الجيش الجنوبيّ المنتصر عندما دخل أبين، محافظة علي ناصر، لم يدخلوا أيّ قرية، لم يدخلوا القرى ولم يعتقلوا المواطنين ولم يأكلوا ويشربوا القهوة أو الشاي عند المواطنين، بعكس ما كان في ذهني عن الجيش في الشمال عندما يدخل مهاجماً أو منتصراً، أو يدخل أي قرية. كان ينهب. الجيش الجنوبي كان مدرّباً على الطريقة الروسيّة. لم ينهبوا وانتهت المعركة بعد يومين وتمّ تأمين مكيراس وعدنا بطائرة الهيليكوبتر إلى عدن.

أختتم هذه القصة بأنّي عندما عدتُ إلى عدن اكتشفت أنّ الشخص الذي كان مكلّفاً باغتيالي موجودٌ في السجن. طلبت من وزير أمن الدولة الشهيد سعيد صالح سالم إطلاق سراحه! فقال لماذا؟ هذا الشخص سنحاكمه لأنّه اعترف بأنّه كان مكلّفاً باغتيالك، فلماذا لا تريد إخراجه من السجن؟ فقلت له إنّه إنسان بسيط وهو ضحيّة ولا يتحمّل المسؤوليّة، نحن السياسيّين نتحمّل المسؤوليّة فيما حصل، كما أنّه جاري بجانب البيت. قال لي سعيد صالح: أنت تريد أن تزايد في هذه القضيّة؟ قلت نعم أنا مزايد وأريد أن نزايد في هذه القضيّة وأن أبالغ في منع إراقة مزيدٍ من الدماء لأنّ الضحايا كثر. قال لي: اكتبْ لي رسالة على مسؤوليّتك، فكتبت له رسالة فأطلق سراحه. خلق هذا ارتياحاً لدى الجيران وزوجتي لم تعارض هذا التصرف الذي قمت به لأنّ المعركة خلّفت ضحايا كثراً.

بعض الذين كانوا عندي في المنزل فُصلوا من عضويّة اللجنة المركزيّة لكن تمّ إخراجهم بعد شهر من منزلي. المهمّ، انتهت المعركة وكانت الدنيا كلّها خراباً. شُكّلت لجنة لإحصاء القتلى والجرحى من القانونيّين ومن الهلال الأحمر ومن الأطبّاء ومن قيادة الجيش ولجان الدفاع الشعبي... فاتّضح أنّ عدد القتلى بحدود خمسة آلاف شخص. لكنّ الدعايات الخارجيّة كانت تبالغ في العدد حيث قالت إنّ عددهم اثنا عشر ألف شخص وهذا غير صحيح. القتلى من الطرفين معظمهم من أعضاء الحزب وكوادره ومن ضبّاط الجيش والأمن (...).




# عمر فاخوري
# بين القوميّة واليساريّة

**أحمد علبي**

أديب وجامعيّ لبناني (١٩٣٦-٢٠١٧). من أعماله «ثورة الزنج وقائدها علي بن محمّد» و«رئيف خوري، داعية الديمقراطيّة والعروبة».

**بصمت رحل أحمد عُلبي، مثلما كان دائماً يعمل بتواضع وصمت. قبل أن يغادر خصّ «بدايات» بمقالة عن المفكّر والأديب التقدّمي اللبنانيّ عمر فاخوري في امتداد شغله على التعريف بنتاجات أعلام الثقافة العربيّة الحديثة.**

**نودّع الرفيق والزميل أحمد عُلبي بباقة ورد حمراء. وننشر مقالته يستعيد فيها، من خلال تقييم النقديّ لفكر وأدب عمر فاخوري، أبرز أفكاره عن الالتزام والقوميّة والشيوعيّة وقضيّة فلسطين.**

**ولد أحمد سهيل العلبي في بيروت متحدّراً من عائلة دمشقيّة استوطنت المدينة مطلع القرن العشرين. درس في البعثة العلمانيّة الفرنسيّة (اللاييك) ومعهد المعلّمين العالي والجامعة اللبنانيّة وجامعة القدّيس يوسف حيث نال الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها. ودرّس إلى حين تقاعده، مادّة الأدب العربي في الجامعة اللبنانيّة، ببيروت.**

**ترك أحمد علبي مجموعة وافرة من المؤلّفات في التاريخ والأدب والفنّ والنقد والمذكّرات والرحلات. من أبرز أعماله في التاريخ «ثورة الزّنج وقائدها علي بن محمّد» (١٩٦١ وعدّة طبعات)؛ «الإسلام والمنهج التاريخيّ» (١٩٧٥)؛ «ثورة العبيد في الإسلام» (١٩٨٥)؛ و«العهد السرّيّ للدعوة العبّاسيّة، أو من الأمويّين إلى العبّاسيّين»، (١٩٨٨ و٢٠٠٩). في الفكر والأدب: «ابن المقفّع، مُصْلح صرعه الظّلْم» (١٩٦٨)؛ «طه حسين، رجل وفكر وعصر» (١٩٨٥)؛ «المنهجيّة في البحث الأدبيّ» (١٩٩٩)؛ «ابن المقفّع، الكاتبُ والمترجِم والمُصْلح» (٢٠٠٢) «يوميّات مجنون ليلى» (٢٠٠٣)؛ «رئيف خوري، داعية الديمقراطيّة والعروبة» (٢٠١٣) واشترك مع آخرين في تأليف «المقاومة في التعبير الأدبيّ» (١٩٨٥)؛ «المسرح العربيّ بين النقل والتأصيل» (١٩٨٨). وفي الذكريات والرحلات كتب علبي: «تحت وِسادتي، مقالات واعترافات وذكريات» (١٩٨٦)؛ «في حنايا الوطن الملهَم» (٢٠٠١)؛ «بالأحضان يا بلدنا» (٢٠٠٩).**

**إلى كل هذا، ترك أحمد علبي عدداً وافراً من الأبحاث والمقالات في أبرز المجلّات الثقافيّة والجامعيّة اللبنانيّة والعربيّة.**

**يمكن قراءة مساهمات الراحل السابقة في «بدايات»: «يوميّات على جبل صنّين» (العدد ٢٠١٦/١٦)؛ «مقابلة مع محمد دكروب: أنا السمكري، الفوّال، الحمّال، بائع الياسمين» (العدد ٢٠١٤/٩/٨)؛ و«رئيف خوري، المثقّف الشيوعي في الزمن الستاليني» (العدد ٢٠١٣/٥)**

لأنّ بعض الإخوان رغبوا إليّ في أن أتحدّث عن عمر فاخوري، بعد أن استطابوا دراستي «عمر فاخوري، رائد في المقالة الأدبيّة» (مجلّة «العربي» (نيسان / أبريل ٢٠١٥)، ص ٩٥ – ٩٠)، نازعتني النفسُ أن أزور قبره، وأن أقف أمام الرُّخام الأبيض الذي يحتضن تحته هذا البيروتيَّ الجميل. فلعلّ في الوقوف بين يدي عمر، الثاوي هناك منذ ٢٧ نَيْسان ١٩٤٦، يوم رحيله، فرصةً للتأمّل. ومَنْ يدري، فلعلّ صوتاً ينبعثَ في هَدْأة الصّمت من وراء القبر يقول ويُجيب ويحثّ على الحوار. وقصدتُ الباشورة، وهي كلمة تركيّة تعني المقبرة، وأنفقت ثلاثةَ

أَرباع الساعة وأنا أَجول بين القبور بحثاً عن مثوى عمر. وسألتُ العاملين هناك عن بُغْيتي، فأرشدوني إلى المكان الذي يضمّ قبوراً عائدة لعائلة الفاخوري، ولكن لم يكن بينها قبرُ لعمر. وساءلت نفسي، وأنا أضحك في عُبّيَ، كما خُيّل إليّ أنّ عمرَ نفسَه سوف يقهقه لما دار في خَلَدي: أكان يجدر بي أن أصطحب بَعْثة أثريّة في هذا المسعى، أم لربّما اقتضى الحالُ أن أستعين بشعبة المعلومات في قوى الأمن الداخليّ، فهم أدرى بأحوال البلد المستعصية وبرهنوا أنّهم العارفون بما وراء الحُجُبِ وطيَّ الصناديق؟!

**الموت الرَّحوم**

عزيزي عمر، ستنعقد الدهشة على جبينك العالي إذا ما همستُ إليك أنّ المنيّة كانت رحوماً بك، فهي قد أراحتك من الآلام المُضْنية. كما أنّها، وهذا هو الأهمُّ والأخطر، قد أبعدتْك، بهذا الغياب القسريِّ، عن مسرح الكوارث والأزمات والخيبات القاتلة التي نزلت بنا إثر رحيلك. عندما مات حسين مروَّه برصاصات الغدر الظلاميّة في شباط / فبراير ١٩٨٧، ثمّ حدث بعد أعوام قليلة، ما هو حتّى يومنا أقربُ إلى الخيال، ربّما، وهو انهيار الاتحاد السوفييتيّ والمنظومة الاشتراكيّة، بالضربة القاضية؛ نسبوا إلى الروائيّ الكبير حنّا مينه أنّه قال: نيّالو أبو نزار مات ولم يشهد ما نحن فيه وما حلَّ بنا!

**عزيزي عمر. ستنعقد الدهشة على جبينك العالي إذا ما همست إليك أن المنية كانت رحوما بك. فهي قد أراحتك من الآلام المضنية. كما أنها. وهذا هو الأهم والأخطر. قد أبعدتك. بهذا الغياب القسري. عن مسرح الكوارث والأزمات والخيبات القاتلة التي نزلت بنا إثر رحيلك.**

وعلى المنوال نفسه، أَحسَبُ أنّ عمر فاخوري كان على موعدٍ مع البخت في هذه المغادرة لدنيانا. فبعد سنةٍ فقط من وفاته حلّت بنا مأساةُ العصر، التي ما زالت مستمرّة، بل إنّها تتفاقم وتتعقّد وتضيع معها فَلَسْطينُ متراً تلو متر. وتغنّي فيروز الملائكيّة: أنا، لن أنساك، فلسطينُ. ولكنّ الأنظمة العربيّة والأحزاب العربيّة والشعوب العربيّة، جميعَهم نَسَوْا فلسطين كلّيّاً؛ وبات شعب المسيح يتيماً، يقاتل يائساً وحيداً، ولا مَنْ يدري به بين الماء والماء. وهذا الأديب عُمَر، الذي بدأ حياته، وهو ما زال في عُمْر الشباب الغضّ دون العشرينَ، بكتابٍ معبّر «كيف ينهض العرب»، ثمّ توالت ظروفٌ على هذا الكتاب، وعرف البئرَ إثر البئرِ لإخفائه، فغدا مبلّلاً تالفاً؛ هذا الأديب قال، بظَرْفه المعهودِ، إنّه إذا ما عثر على كتابه هذا وأعاد طبعه فسيسمّيه عندئذ «كيف يغرق العرب»! ولكنّ ما قاله عمرُ مازحاً بات واقعَ حالٍ لا فَكاك منه، فمَنْ يصدّق أنّ الحروب الأهليّةَ، وهي أسوأ ما قد يُصيب شعباً، دَوّارةٌ في خمسةٍ من البلدان العربيّة، والبقيّة تنتظر مترقّبةً وبها خَشْيةٌ. هناك حتماً ضوء وآمال ولكنّ النَّفَق طويلٌ مديد والمخاضَ عسيرٌ ممضّ والتاريخَ لا يرحم.

ولئن فاتني أن أعثر على قبر عمر فاخوري لقد أَخذتُ الأمر على محمل الاستسهال. فإنسانٌ من طينة عمرَ ليس من الصواب أن تحصره في غياهب قبرٍ لا يلبث أن يقتات به الدودُ وسرعان ما يغدو نزيلُهُ كومةَ عظامٍ رقيقةٍ. ولا نعرف إذا ارتضى عمرُ هذه النهايةَ، أم أنّه غادر قبره قبل أن يَفِدَ عليه الملاكان أنكر ونكير، يستنطقانه، وحلّق بروحه بعيداً، فوق روابي هذا الوطنِ الذي شُغِفَ به. أما كان أَوْلى بنا، أن نقلّد الهنود، الذين يحرقون موتاهم؟ والمؤرّخ الفَلَسْطينيّ الدكتور نبيه أمين فارس، والذي شارك منير البعلبكي في ترجمة الكتاب القيّم «تاريخ الشعوب الإسلاميّة» لكارل بروكلمان، الصادر بالعربيّة عن «دار العلم للملايين» عام ١٩٤٨؛ وقد علّم لزمنٍ في الجامعة الأميركيّة ببيروت، وكان، كما أذكره، يضع عِوَضَ ربطة العنق، «پاپيون». هذا المؤرّخ كان شديد التعلّق بالعروبة، وكانت زوجته أميركيّة؛ وقد أوصى بإحراق جسمه عقب الوفاة ووضع رماده في قارورة تقطع المحيط، ويُنثر هذا الرماد فوق مدينته «الناصرة» في فَلَسْطين. وتمّ له ما أراد، حسبما حكى لي بعضُ طلّابه. أما كان أبدعَ أن نرشّ رمادَ عمر فاخوري فوق بيروتَ التي أُغرم بها؟!

**اربعة وجوه بيروتية**

ولقد انحازت إلى صفوف اليسار اللبنانيّ أربعةُ وجوهٍ بيروتيّة، أخال أنّهم أجملُ مَنْ عرفتُ في حياتي: محمّد خطّاب، مصطفى العريس، عمر فاخوري، ومحمّد عيتاني. كان خطّاب مقاصديّاً، تخرّج في كلّيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة وصار محامياً، وانخرط بعزم وحزم في حزب الطبقة العاملة. تميّز بشخصيّةٍ محبَّبةٍ وبكتفين عريضتين وسُمْرةٍ جذّابةٍ وكاريزما لافتة. وعندما صدرت جريدةَ

«النداء»، في مطلع العام ١٩٥٩، كان اسمه، إلى جانب اسم نخله مطران، الإنسان النبيل الآتي إلى اليسار من كَنَف «الكتائب»، كمسْؤولَيْن عن التحرير. ولكنّ المرض سرعان ما زحف إلى كيان المناضل محمّد خطّاب؛ ولقد ارتضته زوجاً امرأةٌ تقدّميّة، تُدعى: أسماء فيصل، علمت تماماً بمرضه الخطير، ولكنّها، إعجاباً بشخصه، آثرتْ عِشْرته لتعتني به وتسهرَ عليه. وعندما رحل هيّأت حَقيبتَها ورحلت بدورها إلى موطنها حِمْص! ولا أنسى أنّني زُرته في منزله، ولاحظت خلال الزيارة أنّه يضع كفّه اليُمنى فوق مَعدته، وسألته الخبر، فأجابني بلامبالاةٍ أنّه مجرّدُ مغصٍ عابر. كان المغص الذي ادّعاه هو الدّاء الفتّاك الذي أتى عليه. رحل محمّد خطّاب واقفاً في كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٦٢!

**في اعتقادي أن محمد عيتاني من أفضل كتّاب القصة في لبنان. على قلتهم وندرتهم. ولكنّي لا أعثر على اسمه أبدا في القائمة المكرورة! ولم يكن محمد عيتاني ذا بخت في حياته. فهل سينال الحظوة وقد طواه الردى؟**

أمّا مصطفى العريس فهو النقابيّ الأَشهر الّذي كان ذات يوم يدوّي صوتُهُ في جموع العمّال الذين تفانى في خدمة قضيّتهم. ولقد كان إنساناً وديعاً، على شيءٍ من الخَفَر ولكنّ روحه كانت مرحةً ونُكْتتُه ظريفةً. من ذلك أنّهم وضعوا متفجّرة أمام بيته في محلّة المزرعة بغية ترهيبه أو النّيل منه فسَلِمَ، ولكنّ ساعة الحائط تعطّلت. فأخذها إلى الساعاتيّ قائلاً له: ما هذه الساعة التي لا تحتمل «بومبه»! عقدتُ مع العريس حواراً نشرتُه في جريدة «السفير» (١٩٨١/٩/٢٧) غداة رحيله في أواخر عام ١٩٨١، حول «أقطاب الحركة الشيوعيّة في لبنان»؛ ولقد أعجب هذا الحوار المفكّر الراحل مُنَح الصلح، فذكّرني به غير مرّة لَدُنْ التقائنا.

الوجه البيروتيّ الثالثُ هو عمر فاخوري. عندما فارقَنا كنتُ في العاشرة من عمري، ولكنّي عرفته من خلال كتاباته خصوصاً من خلال أستاذيَ وصديقيَ رئيف خوري، وهو الذي ظلّ يحاصر عمرَ بحديثٍ مستفيض لا يهدأ عن الماركسيّة والسوفييت، وعمر يمانع ويجادل ويتبغدد، إذا جاز القولُ، إلى أن وقع في مصيدة رئيفٍ الفكريّة. فعمرُ، في نظر رئيفٍ، كسبٌ عظيم، وهو الذي شاد لعمرَ حكايته، وأَكاد أَقول: أسطورته. وقد عاونه في هذا المسعى قدري قلعجي قبل ارتداده عن الفكر اليساريّ الذي كافح زمناً في نُصْرته. ولقد كتب رئيف خوري في مجلّة «الطريق»، وهو الذي اقترح اسمها، وكان من مؤسّسيها، طائفةً من المقالات والدراسات عن عمر فاخوري، تكوّن، إذا ما جُمعت، قِوامَ كتابٍ عن عمر. وربطت الرجلين، عمرَ ورئيفاً، محبّةٌ عميقة مبعثُها، فضلاً عن الإعجاب الأدبيّ المتبادَل، شمائلُ الطيبة والنزاهة والإخلاص المضطرمة في صدر كلّ منهما؛ ثم هناك موهبة السخرية عند كليهما والصادرةُ عن الثقافة الموغلة والذكاءِ الوقّاد والعطيّةِ الربّانيّة كما درجنا على القول.

أمّا محمّد عيتاني (١٩٢٦ - ١٩٨٨) فلا تفيه الكلماتُ القليلة حقّه من الإكبار، لأدبه القَصَصيّ الفاتنِ الجميل، ولا من المحبّة الغامرة والصداقة العريقة لشخصه الودود الظريف. وفي ظنّيَ دائماً أنّ في الكلام على الأدباء، حظوظاً وتقاديرَ عجيبة. ويحضرني في هذه المناسبة ما قاله ذاتَ مقابلةٍ الراحلُ الأديب السوريّ ممدوح عدوان، متعدِّدُ المواهب، فهو شاعر جميل وروائيّ جذّاب ومترجم مقتدر قال لسائله، بظَرْفه المأثور عنه: عندما تتكلّمون على الشعراء العرب فهناك دائماً المعزوفةُ إيّاها: أدونيس، محمود درويش... ولكنْ أينَ نحنُ؟! وفي اعتقاديَ أنّ محمّد عيتاني من أفضل كتّاب القصّة في لبنان، على قلّتهم ونَدْرتهم. ولكنّي لا أعثر على اسمه أبداً في القائمة المكرورة! ولم يكن محمّد عيتاني ذا بختٍ في حياته، فهل سينال الحُظوةَ وقد طواه الردى؟ ففي ذكر كتّاب القصّة في بلدنا تتردّد أسماءٌ شحيحة من مثل: ميخائيل نعيمه، توفيق يوسف عوّاد، مارون عبّود... ثم يتوقّف العدُّ، فأين محمّد عيتاني، صاحبُ «أشياء لا تموت» و«مواطنون من جنسيّة قيد الدرس»؟! إنّه البيروتيّ الساخرُ الأكبر والمبدع القدير؛ وكما كان مارون عبّود صاحبَ سخريّةٍ لا تُجارى في أدبه القَصَصيّ، فيمكن القول إنّ محمّد عيتاني هو النُّسخةُ البيروتيّة من مارون عبّود، إذا جاز القول وصَلُحَ التشبيه.

### جريمة تقسيم فَلَسْطين

وهكذا كان عمر فاخوري ورئيف خوري توأمين من حيث القِماشةُ الإنسانيّة والتركيبُ المناقبيُّ؛ كذلك صارا، بعد انحياز عمرَ إلى ضِفّة اليسار، توأمين من حيث الموقف الإيديولوجيّ والتطلّعات المستقبليّة. لهذا نزعم باطمئنانٍ



أنّ ما حلّ برئيف خوري كان سيحلّ بعمر فاخوري، من قِبَل الحزب الشيوعيّ في سورية ولبنان، كما كان اسمه عهدذاك قبل افتراقهما، بسبب موقف الاتحاد السوفييتيّ غيرِ المبدئيِّ وغيرِ الأخلاقيِّ وغيرِ القوميِّ السليم، من موضوع تقسيم فَلَسْطين ونشوءِ دولةِ الاستيطان والعدوان والاستعمار، إسرائيل، على أرضِ فَلَسْطين العربيّة، وعدم رضا رئيف خوري بهذا الموقف واستنكاره له. في حين جرّ السوفييت الأحزاب الشيوعيّة العربيّة إلى الإقرار بمبدأ التقسيم، فكان حالهم كحال مَنْ يُضرب من بيت أبيه، فغدت الأمميّة ثوباً مهلهلاً. وكان يجدر بالأحزاب العربيّة أن تقلب صفحة الانتماء منذ ذلك العهد إلى المركز الأمميّ والانقيادِ الأعمى إلى توجيهاته. فمَنْ يفكّر بعقل غيرِه قد يُصيب مرّةً، ولكنّه يخطئ مرّاتٍ. ومَنْ ذا الذي يُدرِك أحوال بيتك بأفضلَ ممّا تفعل أنت؟ وقامت القيامة على رئيف وتجنّدت الأقلام الصفراء، أقلامُ رفاقه، وأحطُّهم الكاتب السوريّ وصفي البنّي، لمهاجمته ولنعته بأخسِّ النعوت، وذلك كلُّه على صَفَحات المجلّة التي صدرت أواخر العام ١٩٤١ «الطريق»، واحتضنت، طَوَال الأربعينيّات من القرن المنصرم، كتاباتٍ لرئيف تنويريّةً عن الماركسيّة، وقصائدَ من عيون الشّعر، تتغنّى ببطولات الجيش الأحمر وببلاد ثورة أكتوبر العظمى وبستالين العظيم، كذلك جرى قلم رئيف بالأبحاث المستنيرةِ عن التراث العربيّ والقوميّة العربيّة ووحدة العرب. حتّى إنّ رئيفاً صار، لَدُنْ الهجوم الافترائيِّ عليه، موضوعاً للرسوم الكاريكاتوريّة الطاعنَة على صَفَحات «الطريق» نفسِها. وسامح الله مرتكبَها، الصديقَ الغالي: الفنّان الراحل رِضْوان الشهّال!

**غرام عمرَ بالسوفييت**

فلو كان عمر فاخوري ما زال حيّاً آنذاك لوقف حتماً الموقف المبدئيّ الذي اتخذه رئيف خوري، ولحلّت به صواعق الشتم والتجريح التي انهالت على رئيف. لهذا قلنا سابقاً إنّ منيّته أنقذته من هذه المهانة التي كان سيسبّبها له الرفاق هناك وهنا ولكانت خيبته لا توصف! وخصوصاً إذا علمنا أنّ عمر فاخوري، عندما غدا يساريّاً، أُغرم غراماً مشبوباً ببلد الاشتراكيّة الأوّل، كما كان يُنعت الاتحاد السوفييتيّ، بحيث إنّه عندما ألقى محاضرته عام ١٩٤٤، «الاتحاد السوفييتيّ، حجر الزاوية»، والتي طُبعت في كُتيّبٍ أصدرته جمعيّة أصدقاء الاتحاد السوفييتيّ في سورية ولبنان، فإنّ عاطفة عمر الجيّاشةَ حيال هذه التجربة الكونيّة الفريدة التي ضخّت آمالاً عظمى بغدٍ إنسانيٍّ أعدلَ وأجملَ كانت غلّابة على تحليلاته وآرائه. فمن المشروع أن يرى عمرُ حينها أنّ «الاتحاد السوفييتيّ لأعظمُ خطوةٍ، بل قفزةٍ قفزها التاريخ نحو هذا المثل الأعلى. فهو يحمل في صدره التراث القديم، تراثَ الشوق إلى المدينة الفاضلة» (ص٣٣). وذلك أنّ أهل اليسار، في العالم قاطبةً، نظروا إلى هذه المأثَرة التاريخيّة، في محاولة إقامةِ مجتمع اشتراكيّ، ينتفي فيه الاستغلال والاستثمار والاستعباد، على أنّها إنجازٌ لا نظيرَ له، وبالتالي كانَ الاتحاد السوفييتيّ قِبلةَ الأنظار ومحطَّ الطموحات والأشواق. ولا عجب أن يمجّد عمرُ الجيش الأحمر، فهو الذي هزم النازيّة شرَّ هزيمةٍ، وهو الحارس لهذه القارّة الاشتراكيّةِ التي دُعيت سابقاً «سِجْنَ الأمم». على أنّه، ومن غير تدقيقٍ أو تبصّرٍ علميّ، يكيل عمر فاخوري في محاضرته المديحَ والتقريظ للزراعة السوفييتيّة وللصناعة ولمشاريع السنوات الخمس وللدستور السوفييتيّ لسنة ١٩٣٦، المعروف بدستور ستالين. بل إنّ عمرَ، وهنا وجه الغرابة والهَوَس، هذا المثقّف اللبنانيّ العربيّ، الذي درس في فرنسا وعرف كيف أنّ الحرّيّة هي الجوهر الذي لا إنسانَ بدونه، وهي المبتدا والمنتهى، ينبري في الدفاع عن المحاكماتِ والتطهير الدمويّ والتضحياتِ التي عمد إليها ستالين، الطاغية الذي شوّه التجربةَ الكبرى وعطبها: «وقد ثبت للملأ، قاصيهم ودانيهم، صلاحُ تلك المحاكمات والعقوبات الصارمة التي أُنزلت بمستحقّيها»، بل «ونحمد الله على أنّنا سمعنا قولَ بعضهم: ما كان أجدَرَنا بأن نفعل ما فعل ستالين»! ويتوّج عمر هذا المنحى في التبرير القاتل قائلاً: «إذا لم يكن الاتحاد السوفييتيّ ديمقراطيّةً، فقد آمنت بأنّ الدنيا من الديمقراطيّة خلاءٌ» (ص٢٠ و٢١، ٣٠)!

بعد هذا الإطراء، الذي لا حدود له ولا تحوّط فيه، كيف كان سيكون موقف عمر فاخوري لو أنّه تمهّل في دنيانا سنةً فقط وعاين ثورة أكتوبر التي، كما عرض لها، في محاضرته سالفةِ الذكر، «حطّمت باب «سجن الأمم»، وأطلقت القوميّاتِ من أصفادها والمذاهبَ الدينيّة من خوف الاضطهاد» (ص ٢٢)؛ وها هم أبناؤها، الحاكمون رَغَداً في موسكو، يكونون أوّل المعترفينَ بنشوء إسرائيل، هذه الدولةِ التي هي، في تقدير المستشرق مكسيم رودنسون، «مشروعٌ استعماريّ»، بل هي استعمار في زمنٍ يتوارى فيه هذا الاستعمار تباعاً عن أقطار المعمورة. وإذا كان الرفاق في كعبة الاشتراكيّة، موسكو، قد خضعوا

للنفوذ الصهيوني المتغلغلِ وأَداروا الظهر للشعوب العربيّة، وفي طليعتها الشعبُ الفَلَسْطينيّ المشرّد عن أرضه، ونكثوا بمبدأ حرّيّة تقرير المصير وباعوا القوميّة العربيّة وأَصحابَها، فأيّ عذر يكون، للرفاق ههنا، في هذا الانسياق المخجل التدميريّ وراء مشروع ظالم فاجر، وهو تقسيم فَلَسْطَين؟! والذين أبدوا عتباً أو اعتراضاً، من أمثال رئيف خوري وفرج الله الحلو، كان مصيرهم الشتمَ والتحطيم. فمن المؤكّد أنّ ما واجهه رئيفٌ من تجريح بلغ حدّ الاتهام بالعمالة للدولار، وما تعرّض له فرج الله من إذلالٍ، ليخُطَّ، مرغماً، «رسالةَ سالم»، المخالفةَ تماماً لقناعاته، هذا المآل كان منتظراً بالتأكيد لعمر فاخوري، لو أنّه تمهّل في الرحيل سنةً فقط وعاصر المأساة، ولكان انتفض تلقائيّاً وأدرك أنّ من الحبّ ما قتل! فعمر غادرنا عام ١٩٤٦، وتقسيم فَلَسْطين حدث في عام ١٩٤٧ بقرار من هيئة الأُمم، ونشأة إسرائيل تمّت عام ١٩٤٨. وشارك الاتحاد السوفييتيّ بقرار التقسيم، ثمّ كان من أوائل المعترفينَ بقيام إسرائيل. وغادر أهلنا في فَلَسْطين بلدهم، لأنّ الأنظمة العربيّة حثّتهم على المغادرة، وتكفّل الصهاينة، عن طريق ارتكاب المذابح، في ترويع مَنْ لم يغادر بعدُ. حمل الفَلَسْطينيّون معهم حُجَجَ بيوتهم ومفاتيحَها، فقد قالوا لهم إنّ العودة حكايةُ أسابيعَ. وصادر الصهاينة، بعد أن فازوا على الجيوش العربيّة مجتمعةً، أرض فَلَسْطين وبيوتها العامرةَ، فلقد سُلِّمت لهم أو اغتصبوها. يبدو أنّ الأنظمة العربيّة تنازلت عن فَلَسْطين أو باعتها مفروشةً! فهل كان عمر فاخوري، لو أنّه ما زال حيّاً، يرتضي هذه النكبةَ-التي صنعها الصهاينةُ، وباركها مَنْ أُغرم بهم هناك، وأقرّ بها مأموراً مَنْ مشى معهم الدرب ههنا؟!

**«كيف ينهض العرب»**

مسألة الحسِّ القوميّ العربيّ، قديمة عهدٍ لدى عمر فاخوري، بل إنّه افتتح حياته وهو شابٌّ طريُّ العود، في الثامنةَ عَشْرَةَ أو يكاد، وذلك بدعوة جهيرة إلى الأُمّة العربيّة، خلال كتابه الذي جمع فيه مقالاته المنشورةَ في جريدة «المفيد» العريقة، لصاحبها أحد الشهداء بعدئذٍ، وهو عبد الغني العرَيسي. وقد سمّى عمرُ كتابه «كيف ينهض العرب» (المكتبة الأهليّة، بيروت ١٩١٣). وينبغي التنويهُ أنّه كتاب صغير، بل إنّ عمرَ نفسَه يدعوه رسالة؛ وعند مطالعتنا لها تبيّن لنا أنّها مقتَبَساتٌ وترجمات خصوصاً من كُتُب الباحث الفرنسيّ غوستاف لوبون، أَمثال: «بسيكولوجيا الثورات» و«الثورة الفرنسيّة وبسيكولوجيا الثورات» و«حضارة العرب» و«آراء ومعتقدات». لهذا يصرّح عمرُ الفتى، عن عمله الباكر، قائلاً: «آراءٌ اقتبستها من كُتُب غربيّة، لا أَدّعي عِصْمتها، وأَفكارٌ خاصّة جرّتني إليها المقارنةُ والمقابلة بين تلك وما شاهدتُه! فالرسالة إذن جمعٌ وتعريب، أكثرُ منها وضعاً وتصنيفاً» (ص ٩٨). والصفحة تعود إلى الطبعة التي نشرها وقدّم لها مطوَّلاً صديقُنا الباحث عبد اللطيف فاخوري، وقد ظهرت ضِمْنَ الأَعمال الكاملة لعمر فاخوري والتي نشرتها دار «الآفاق الجديدة»، بيروت، العام ١٩٨١. ويرى عمرُ أنّه، شأن أرخميدس لمّا اهتدى إلى قانون العَوْم، فركض عارياً منادياً: أوريكا، أوريكا، وجدتُها وجدتُها؛ فهو أيضاً وجد القانون الذي يداوي انحطاط قومه، فإذا به كامن في الغاية الكماليّة التي ينبغي أن تشدّ أواصرَ مفكّري الأمّة. وهذه الغاية الكماليّة كامنةٌ في الديانة الجديدة، التي ينبغي أن يتمسّك بها القوم وقِوامها الإيمانُ باللغة العربيّة إيماناً دينيّاً، بمعنى مقدّساً؛ والأَخذُ بالعنصريّة العربيّة، بمعنى القوميّة؛ وبعثُ مجدِ أجدادنا العظام. وممّا ساعد العربَ في ازدهار حضارتهم، سجاياهُم الحربيّةُ والدينُ الجديد الذي أرهص بهم، وكان عندهم ذخيرةٌ من العلوم، ومن بينها الشعرُ، الذي كان عميق الحضور بينهم وغزيراً على نحوٍ لافت جدّاً. ونعرف ما بلغ من تقديرهم لبعض هذا الشعر الذي علّقوه، كما يُحكى، على أستار الكعبة ودعَوْه المعلّقات أو المذهَّبات أيضاً، لأنّهم كتبوه بماء الذهب! فالشعر مستودعُ أخلاقِهم وأخبارهم وآدابِهم، لذا قيل: الشعر ديوان العرب. وكانت الغاية الكماليّة، التي نَشَدها النبيّ محمّد، دينيّةً وسياسيّة. وأبلى العرب في فتوحاتهم، لأنّهم غلّبوا أيضاً السياسة، في تعاملهم مع الشعوب التي خضعت لهم، ممّا أعانهم على نشر دينهم وتعميم لغتهم. وقد تطوّر العرب خلال عهد قليلٍ، حتّى إنّهم ظهرت لهم آثار ساطعة في البناء وفي الفنون والعلوم.

**حضارة الإسلام نتيجة الاختلاط**

بيد أنّه جاء في كتاب عمر فاخوري عن العرب: «حتّى إنّ الفلسفة اليونانيّة، التي لم تكن لتتّفق مع روحهم ومزاجهم، لم يَقْرَبوها أبداً» (ص ١١١)! فماذا نفعل بالفلسفة الإسلاميّة، المتلقّحةِ حتماً بالفلسفة اليونانيّة. وماذا يكون مصير علم الكلام، القائم على الدفاع عن الاجتهادات الدينيّة بالمنطقَ الفلسفيّ. وماذا يكون

مصير ابن رشد والرشديّة بعده، وهو الذي شغل أوروبا بفكره الأرسطيّ، ولُقّب بالشارح، لأنّه شرح الكثير من كُتُب أرسطو، وهو واضع كتاب «تهافت التهافت»، في الردّ على كتاب الغزّالي «تهافت الفلاسفة». وقد سعى ابنُ رشد إلى التوفيق بين الفلسفة والدين، كما عُني بإثبات أنّ الشريعة الإسلاميّة دعت إلى النظر العقليّ، وجعلته واجباً؛ ولا مجال للتضادّ بين الشريعة والفلسفة، لأنّ كلاً منهما حقٌّ، والحقُّ لا يُضاد الحقَّ، بل من شأنه أن يعضده ويشهدَ له.

ويعوّل عمر على أفكار غيره لتَبيان عوامل سقوط العرب. من ذلك تفسّخُ المملكة وتجزُّؤها وطمعُ الطامعينَ بها وتحلّلُ المركز؛ ثم ضعفُ الحميّة الحربيّة، نتيجةَ التمدّن وترقّق العادات. كذلك من أسباب سقوطهم اختلاطُهُم بالشعوب الخاضعة لهم، وما جرّ عليهم من تزاوج، هذا «التزاوج الذي يُفسد سريعاً دمَ الغالبين» (ص ١١٥). وطبعاً هذا كلام غيرُ علميٍّ لأنّ التزاوج بين الأقوام المختلفينَ، مجلبةٌ لتحسين النسل. فالكلام الذي يقوله عمر أو يتبنّاه هو عنصريّ بحت. وما نشهده في أيّامنا من تزاوج بين بعض الشباب العربيّ والأجنبيّات، فإنّ حصيلته البيولوجيّةَ أنّ الأولاد يحصّلون أفضل ما لدى الطرفين من مزايا وراثيّة. ثم إنّي سألت أحد مواطنينا: علا مَ تتقبّل البلاد السكندیناڤيّة الراقيةُ جدّاً، من أمثال السويد والنَّرويج، أفواجَ المهاجرينَ من العرب والأكراد والسُّريان وغيرهم، وغالبيّتُهم ليست ذاتَ اختصاص وكفاءةٍ علميّة، ثمّ إنّهم يُحْدث بعضهم، في تلك البلاد الهادئة المشاكلَ والانحرافاتِ والرذائلَ؟ أجابني محدّثي أنّهم هناك يصبرون على آبائهم ويُعطونهم المِنَح ويتحمّلون تكاسلهم وذلك أنّهم عاقدون الأملَ على الأبناء الذين سيغدون سويديّين ونَرويجيّين وسيُدخلون دماً جديداً، تشعر هذه البلاد أنّها بحاجةٍ إليه!

**يعول عمر على أفكار غيره لتبيان عوامل سقوط العرب. من ذلك تفسخ المملكة وتجزؤها وطمع الطامعين بها وتحلل المركز؛ ثم ضعف الحمية الحربية. نتيجة التمدن وترقق العادات.**

وليس من مسيّر للأفراد والأُمم سوى الغايةِ الكماليّة. «وليس لأفراد الأمّة العربيّة من غاية كماليّة أسمى وأعلى من النهضة بالعرب، وإعادةِ مجد العرب» (ص ١١٩). وما التاريخ سوى تسطيرٍ للوقائع التي نهض بها الناس، منذ القدم، لمتابعة غاياتهم الكماليّة. وإلّا فكيف أُتيح للبشر أن يعبروا من الهمجيّة إلى المدنيّة لولا غايةٌ كماليّة شخصوا إليها واستمسكوا بها؟ وعندما احتشد العرب وتضافروا حول غايتهم الكماليّة المتمثّلة بالإسلام شادوا دولة عظمى؛ وعندما فقدوا هذه الغايةَ الكماليّة، وانطفأت وَقْدة الحماسة في نفوسهم وعقولهم، خَبَتْ شعلتهم، وهوى مقصدهم العالي وطليعيّتُهُم الحضاريّة وسقطوا كما سقطت حضارات كبرى قبلهم! ويتحصّل من سطور كتاب عمر فاخوري أنّه يلوم العرب على اندماجهم واختلاطهم بغيرهم من الشعوب الأجنبيّة. وهذا خطل عظيم، لأن أخصَّ ما ميّز الحضارةَ الإسلاميّة العربيّة، أنّها نتاج هذا الاختلاط الخلّاق، الذي جرى على مدى أصقاع الإمبراطوريّة، وقد وحّد الإسلام مقاصدهم، وكانت العربيّة الواسطة اللغويّةَ التي اعتنقوها جميعُهم للتعبير عن منجزاتهم في العلوم والآداب على أنواعها.

كان سرّ الحضارة الإسلاميّةِ في هذا الاختلاط البديع. وقد تدفّقت على بغداد العبّاسيّين روافدُ ثقافيّةٌ آتيةً من الهند وفارس وبيزنطة وآسيا وغيرها من البلدان، وكان من شأن الحضارة الإسلاميّة، أنّها اغتنت وتفاعلت مع هذه الروافدِ على مدار دار الإسلام. لهذا فإنّ العلماء الذين علا صيتهم في تاريخ هذه الحضارة الإسلاميّة العربيّة كانوا، في الكثير من الحالات، غيرَ عربٍ لكنّ العربيّة أداتُهم المثلى، ثم إنّهم، وهو الأهمُّ، مسلِمونَ مندمجونَ ومساهمونَ في هذه الحضارة الجديدة. فالطَّبَريّ المؤرّخ الشهير، من طَبَرِستان؛ والزَّمَخْشريّ من زَمَخْشَر، وهي قرية في نواحي خوارزم، والبيروني، صديقُ ابن سينا، فارسيّ الأصل؛ وابن سينا نفسُه، المفسّر الكبير، الذي عُرف بالشيخ الرئيس، وُلد على مقربة من بُخارى، والسلسلة طويلة. وهذا برهان على عظمة الحضارة الإسلاميّة التي جمعت هذه العقول المتفرّدةَ في بوتقة واحدة.

والفكرة التي نريد الإضاءةَ عليها، لاعتقادنا بصوابها، أنّ الإسلام أنشأ في زمانه أُمميّةً إسلاميّة ضمّت أمماً شتّى وشعوباً متباينة؛ ولقد ازدهرت هذه الأُمميّة الإسلاميّة لقرون عدّة، مهتديةً بالطبع بأفكار الإسلام، التي كانت متقدّمة في حينها، ثم آلت إلى سقوط مع ضعف المركز، دمشق ثمّ بغداد ثمّ القاهرة، وتهافت الخلافة وغيابِ خلفاءَ بُناةٍ وأشدّاء ودُهاة من مثل مُعاويةَ الأمويّ والمنصور العبّاسيّ.

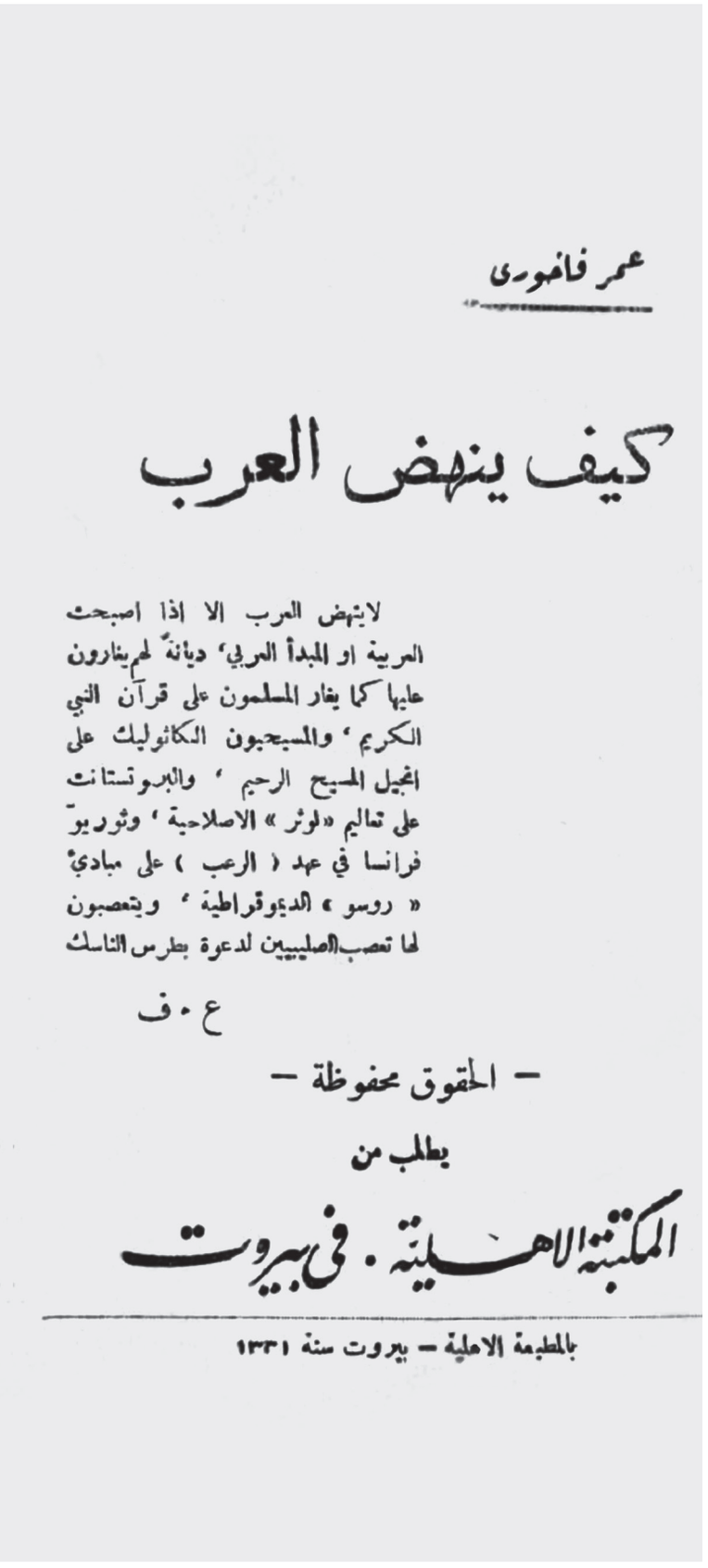
ونعرف أنّ مطمحنا المعاصرَ بالأُمميّة الشيوعيّة، كان في غير حدود، وكان فقراء كوكبنا يعقدون عليها الآمال العظام؛ ولكنّها هوت وسط ذهولٍ كونيّ بعد ثلاثة أرباع القرن. ولا مجال ههنا للتفصيل، ولكنّ علّتها القاتلةَ أنّها لم تنهض على أساس الحرّيّة التي لا خلاص للإنسانيّة

**نعرف أن مطمحنا المعاصر بالأممية الشيوعية. كان في غير حـــــــــــدود. وكان فقراء كوكبنا يعقدون عليها الآمال العظام؛ ولكنها هوت وسط ذهول كوني بعد ثلاثة أرباع القرن.**

من دونها، بل إنّها كبتت الحرّيّة وكتمت أَنفاسها وقضت على أجيالٍ من الثوّار الصادقين والرفاق الشجعان. ونكتفي بمثالٍ، لأنّه منسيّ تماماً، فلقد كان سلطان غالْييف (Galiev) من البارزين في الأُمميّة الشيوعيّة، وفي تاريخ الاتحاد السوفييتيّ الناشئ، وحاول، مقتدياً بنصائح لينين، أن يجد شيوعيّة إسلاميّة تتلاءم مع أَوضاع قومه التتار، عَبْرَ دولة كبرى عاصمتها قازان. ومن غير تفصيل وقفتْ في وجهه العِصا الستالينيّة، وانتهى هذا الرائدُ المجهول سجيناً في الأَشغال الشاقّة بعد أن كان رئيساً لجمهوريّة تاتاريا الاشتراكيّة السوفييتيّة. ودلّل الزمن أنّ أمثال هذه الجمهوريّات لم تكن لا اشتراكيّة ولا سوفييتيّة. وأنّ سجن الأُممِ القيصريَّ غدا، واعجباه، سجنَ الأُممِ الاشتراكيَّ!

### عامل اللغة لا يكفي

ويذكر عمر فاخوري أنّ لوبون يُؤْثر التطوّر البطيء الهادئ أو النشوءَ، ممّا يُعبّر عنه بالفرنسيّة Évolution، على الثورة العاتية Révolution؛ فهذا مدعاة إلى التوازن المعتدل بين القديم والجديد، بين الماضي والحاضر المتحوّل. وللثورة العلميّة، شأنَ نظريّةِ داروين واكتشافاتِ پاستور، أثرٌ عظيم في حياة الناس. كما أنّ الثورة السياسيّة ناموسٌ طبيعيّ، يأتي عاصفاً، «وهي الظروف تحتّم على الشعب، في بعض الأحايين أن يسير على الجثث والجماجم إلى النهضة والعمران» (ص ١٢٦). أمّا الثورة الفكريّة فأعظمها أثراً الدياناتُ، بدليل ما نهض به النبيّ محمّد من تأطيرٍ للقبائل العربيّة في موجةٍ شعوريّة وفكريّة، ودفع بهم في قلب التاريخ. «فالثورات الفكريّة مُخّ التاريخ ولبابه» (ص ١٢٧). ويذكر الكتاب أنّ أصعبَ الثورات هي التي تتوجّه إلى التقاليد الموروثةِ والعادات


عمر فاخوري

كيف ينهض العرب

لاينهض العرب الا اذا اصبحت
العربية او المبدأ العربي، ديانةً لهم يغارون
عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي
الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على
انجيل المسيح الرحيم، والبروتستانت
على تعاليم «لوثر» الاصلاحية، وثوريو
فرانسا في عهد (الرعب) على مبادئ
«روسو» الديموقراطية، ويتعصبون
لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك

ع . ف

— الحقوق محفوظة —

يطلب من

المكتبة الاهلية . في بيروت

بالمطبعة الاهلية — بيروت سنة ١٣٣١

المستحكمة والأفكار الراسخة في النفوس. ولكنّنا نعتقد أنّ هذا الرصيد الشعوريَّ والفكريَّ، لا سبيل إلى تعديله أو تغييره بقرارٍ أو أوامرَ صادرةٍ أو مجرّد برامجَ معتَمَدَةٍ. إنّ التغيير له أسسه الماديّة وإنجازاته الحضاريّة. وبالتالي فهو تغيير جدليّ، قائمٌ على التبادل والتفاعل، بين البُنى الماديّة الجديدة والروحيّة السالفة، والعمليّة التلاقحيّةُ تحتاج إلى زمن. فكما أنّ النباتَ يمتصّ الماء والغذاء، اللذين يرويانه في تصاعدٍ ندعوه Osmose، هكذا التفاعل الحضاريّ يسري في الأبدان والسرائر.

يأتي عمر فاخوري في كتابه على العناصر المكوّنة للقوميّة، فيرى أنّها كامنة في الدم والتاريخ واللغة والحضارة؛ غير أنّه يُفرد للغة شأناً خاصّاً وحاسماً ووحيداً ومحدِّداً للقوميّة. يقول عمر: «والذي يحدّد الجنسيّةَ هو في الحقيقة اللغةُ، فيها وحدها يصبح الإنسان عُضْواً في جسم الأمّة، وهي وحدها تخوّله الجنسيّة» (ص ١٣٦). طبعاً المقصود بالجنسيّة ههنا القوميّة. ونحن نتفهّم تماماً لماذا أكّد عمرُ وقطع في حكمه، فالاتحاديّون، أي جماعة الاتّحاد والترقّي، الذين أمسكوا بدفّة السلطة في إسطنبول، نكثوا بوعودهم الإصلاحيّة بعد أن كان لهم فضل وافر في إقرار الدستور العثماني لعام ١٩٠٨ الذي أحدث في أرجاء الإمبراطوريّة زلزالاً من البهجة؛ وقادوها سياسة قوميّةً وتعصّبيّةً وعرقيّة وقمعيّة لشعوب الإمبراطوريّة، ومنهم العربُ والأرمن، فإذا بعمليّة التتريك مبتغاهُم، وكلُّ مَنْ يناوئ هذه السياسةَ يُعتبر خائناً أو معادياً أو مارقاً! وهكذا حلّت القوميّة التركيّة الهمجيّةُ مكان الرابطةِ العثمانيّة الجامعة لشعوب المملكة.

ومن هنا على الإجمال أهميّةُ كتابِ عمر فاخوري، والغايةُ منه واضحة في عُنْوانه «كيف ينهض العرب». كما أنّ إلحاح عمرَ على عنصر اللغة مرجعُهُ خطرُ التتريك الداهم. في حين نعرف أنّ عناصر تكوين الأمّة متفاعلةٌ مع بعضها جدليّاً، ولا سبيل إلى إسقاط أيِّ عنصرٍ في هذه السلسلة، ذلك لترابطها، وتأثير كلِّ عنصرٍ في سائر العناصر وتأثيرُها فيه أيضاً. والدليل الجذّاب على موضوع عنصر اللغة في زمننا، في عمليّة التقويم القوميّ، والذي ينقض ما ذهب إليه عمر فاخوري، أنّ في الهند غابةً من اللغات وكان من براعة نهرو أنّه قفز فوقها، وجعل الإنكليزيّة اللغة الجامعةَ لعموم الهند. فهل هذا العمل السياسيّ محى عن الهنود صفتهم القوميّة، بزوال عنصر اللغة الأصليّة عنهم أم أنّ الإنكليزيّة باتت عنصراً قوميّاً، ولكنّه مستجدٌّ وموحِّد؟!

والأُمّة العربيّة سادرة، منذ ستّة قرونٍ، في نومٍ عميق لذا هي بحاجةٍ ماسّةٍ وجوديّة إلى ثورة فكريّة، تعينها على تلمّس وِجْدانٍ قوميّ متين. وهذا الخمول الفكريّ السائد بات طَبيعة في أمّتنا المحتاجةِ إلى غاية كماليّةٍ تهزّها وتدعوها إلى السعي الحثيث لخلق كيانٍ حقيقيّ للعرب وديانةٍ جديدة لهم هي الجنسيّة العربيّة. والحياة ميدان صراعٍ لا رحمة فيه، والغلبة للقوّة والمغلوبُ مصيره التشكّي والشعوب الصغيرة عُرْضةٌ للزوال والحقُّ إلى جانب القوّة. ولا مستقبل للعرب إلّا إذا تمسّكوا بقوميّتهم: «إنّ جامعة الجنس وحدَها الثابتةُ، إذ يمكن أن يردّ الإنسانُ ما سواها، بينا هو غير واجدٍ سبيلاً إلى نكران دمه الذي يجول في عروقه، والتاريخ الذي خطّه أجداده على جبهة الدهر، واللغة والحضارةَ اللتين وضع كلّ منهما حجراً من أحجارها» (ص ١٣٥). لهذا فنحن، لنعمل على إيقاظ الروح القوميّة عندنا، وَجَبَ أن نُعنى بتاريخ أجدادنا الميامين، ونبعثَ الصَّفَحاتِ الزّاهيةَ في سجلّ هذا التاريخ الغابر. فإنّ «الفكر القوميّ درجة من درجات الرقيّ البشريّ... والشعوب التي بلغت شأواً عالياً من العلم والمدنيّة تقدّس قوميّتها وتتعصّب لها أشدَّ التعصّب» (ص ١٣٩). والدليل على ذلك ما يدور بين الباحثينَ الأتراكِ من جدالٍ حول بداية تاريخ الأمّة التركيّة، أهو صاعدٌ إلى المنبع الطورانيّ في تركستان، أم أنّه يبتدئ ويتكوّن مع حلولهم في بلادهم الحاليّة، وقد غَدَوْا عثمانيّين مسلمين؟ وهؤلاء عوّلوا على القوميّة وأحلّوها في مركزٍ سامٍ مقدّس. وما أجدرَ أبناءَ الضادِ أن يجعلوا الجنسيّة العربيّة قِوامَ حياتهم ومستقبلِهم. والجنسيّة تأخذ ههنا معنى القوميّة.

إنّ عمر فاخوري، الفتى الشابّ في مُقْتَبَل العمر، يخطّ في مذكّراته، هذه التي نشرتْ بعضَها المخطوطَ مجلّةُ «الثقافة الوطنيّة» (س٦، ع٦ (١٥ حزيران ١٩٥٧)، ص ٢١)، ما يشي بأنّه كان يحيا قلق المعرفة، واكتناهَ ما يدور في دنياه من أفكارٍ كبرى، وهو الإنسان طريّ العود، ولكنّه بالغُ الحساسيّة. ويبدو من مذكّراته هذه نضج لافت في التعبير الأدبيّ، فكأنّه، منذ هذه البدايات، وُلد عمر الأديب الذي عرفناه بعدئذٍ بصولاته التعبيريّة المُبْهرة. يقول عمر: «أنا في ربيع العمر، لا أتجاوز الثامنةَ عشرةَ، تركتُ المدرسة منذ شهرين، وقلبي طافح بالآمال الكبيرة والأحلام السعيدة والمشاريع الواسعة!... نعم، خرجت من المدرسة، ولم يكن يستوعب دماغي إلّا كلماتٍ كبيرةً، ليس عليها مَسْحَةُ الوضعيّة والتثبّت، ولا

أَعرف عنها الآن لذلك إلاّ معلوماتٍ غامضةً، وأَفكاراً مبهمةً مشوَّشة، كأَمثال الديمقراطيّة والاشتراكيّة والنواميسِ الطبيعيّة، وهلمّ جرّاً»!

**في حين أن محتويات كتاب عمر «كيف ينهض العرب» لم تكن بعيدة تماما عن الأجواء التعصبية. فكأن عمر فاخوري. الذي تلقح بالفكر الاشتراكي العلمي. يرد على عمر الفتى الشاب الطالع إلى معترك الفكر والحياة.**

أمّا المدرسة التي تركها عمر، كما ورد في نصّه القريب، فهي الكلّيّة العثمانيّة ببيروت التي كانت شهيرة بكلّيّة الشيخ عبّاس، وقد أسّسها وأَدارها الشيخ عبّاس الأزهري، وكان لها دور تعليميّ ووطنيّ كبير، فقد خرّجت وطنيّين وشهداءَ، ينادون بالاستقلال العربيّ. وعمر فاخوري في كتابه «كيف ينهض العرب» كان يجاهر بالأفكار التي كانت شائعة بين أساتذته وهم أعلامٌ في الدعوة القوميّة، كما هي منتشرة بين أقرانه من طلّاب الكلّيّة العثمانيّة، والذين سلكوا سبيل الاستشهاد من أجل نُصْرتها. على أنّ دعوة عمر فاخوري في كتابه قامت على اقتباس آراءٍ في القوميّة المتشدّدة، هي أقرب ربّما إلى المنحى الجرمانيّ الذي «يقدّس» القوميّة ويشدّد على «التعصّب» لها، ولم يكن سلوكه مع هذا الموضوع كما صار، عندما داخلته الطراوة وأخذ بالحسبان الروحَ الإنسانيّةَ وعواطفَ التسامح والتوادد، وذلك عندما تأثّر عمر في باريسِ بآراء أناتول فرانس ورومان رولان وغيرهما من حَمَلَة التنوير. أمّا عندما اعتنق عمر فاخوري، في السنوات السبع أو الثماني الأخيرة، من حياته الخاطفة، إيديولوجيّةَ اليسارَ، فقد تعامل، مع موضوع تعريف الأُمّة، في ضوء فكره الجديد. فهو، من حديثٍ له من محطّة راديو الشرق، الذي غدا بعد ذلك الإذاعةَ اللبنانيّة، وحيث كان يعمل، ينبّه في تعريف بناء الأُمّة، على بطلان الكلام على وَحْدَة الدم أو العرقِ في أساس بناء الأُمّة. فهذا زعم باطل يدحضه الواقع التاريخيُّ. ينبغي أن نعوّل في تعريف الأُمّة على العوامل الاجتماعيّة والجغرافيّة والتاريخيّة. في حين أنّ محتوياتِ كتابِ عمر «كيف ينهض العرب» لم تكن بعيدة تماماً عن الأجواء التعصّبيّة. فكأنّ عمر فاخوري، الذي تلقّح بالفكر الاشتراكيّ العلميّ، يردّ على عمرَ الفتى الشابِّ الطالعِ إلى معترك الفكر والحياة. يقول في كتابه «أديب في السوق» (دار المكشوف، بيروت ١٩٤٤): «والذي نراه أنّ أصحّ تعريفٍ للأُمّة، للأُمم على إطلاقها وللأُمّة الناشئة بنوع خاصّ، هو هذا التعريف الجامع المانع، على قول المناطقةِ: الأُمّة جماعة ثابتة من الناس، مؤلّفةٌ تاريخيّاً، ذاتُ لغةٍ مشتركة وأرضٍ مشتركة وحياةٍ اقتصاديّة مشتركة وتكوينٍ روحيّ مشترك يجد عبارته في الثقافة المشتركة» (ص ٩٩).

هذا الكلام الأخير ماركسيّ مُحْكم في تعريف الأُمّة، ووَدَاعاً أيّتها المثاليّة السالفة. لكأنّ قائله هو صديق عمر الحميم، رئيف خوري، الذي خاض وَصال وجال في الفكر القوميّ العربيّ، وجَبَهَ أستاذه قسطنطين زريق بجراءة واقتدار، في كتابه الردّ «معالم الوعي القوميّ» (دار المكشوف، بيروت، ١٩٤١)، حيث يوضح أنّ القوميّة، كما يذهب وَفْقَ رأينا، كارل ماركس في عبارته الشهيرة الباهرة، من أنّ «القوميّة وُلدت في السوق». يقصد بذلك أنّ تقوّضَ الإقطاع الأوروبيّ وقيامَ النهضة الصناعيّة ونشوءَ المُدُن حيث تكاثرت البرجوازيّة، وغيرَها من العوامل الاقتصاديّة والاجتماعيّة، هي الدوافع وراء ولادة القوميّة. في حين أنّ قسطنطين زريق، أحدَ أعلام الفكرِ القوميّ التقليديّ الخَطابيّ، يقول بالحلول التبسيطيّةَ ويُتحفنا بالمواعظ الأخلاقيّة حول الجهاد الأكبر ويُغرقنا بالعموميّات، فكأنّ القوميّة جوهرُ خالد، وإرثٌ غيبيّ، وموضوعٌ مناقبيّ ليس إلاّ! وفي كتابنا الذي وقفناه على «رئيف خوري، داعية الديمقراطيّة والعروبة» (دار الفارابي، بيروت ٢٠١٣) كلامٍ مستفيض حول «رئيف خوري والمسألة القوميّة، مفكّراً قوميّاً ومنظراً للوَحْدَة العربيّة» (ص ٤٢٢ - ٣٨٥).

وبعد، فقد حاولنا أن ننظر إلى عمر فاخوري الذي نُحبّه ونُجلّه، بنَصَفَةٍ وبنظرةٍ نقديّة بعيدةٍ عن الأسلوب الطاغي في التعظيم والتمجيد. فإنّ كيل المدائح، وصَوْغَ النعوت الباذخة، ليست من الدراسة العلميّة في شيء. وأحسَبُ، مخلصاً، أنّنا، معشرَ التقدميّين، كما هو حال بقيّة الفرقاء عندنا مع الأدباء والمفكّرين، الذين انضوَوْا تحت ألويتهم، وقد صدقت فيهم وفينا الآيةُ الكريمة: «كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون» (سورة الرُّوم ٣٢/٣٠)، نحن معشرَ التقدميّين نبذَنا التقويمَ الراجح والتحليلَ النقديّ وجنحنا، في الغالب، إلى «سياسة أدبيّة». والسياسة ما دخلت شيئاً إلّا وأفسدته. فآن الأوان لطرد الدعايةِ والحماسةِ والتحزّبِ والتبرير؛ ووجب علينا إكرامُ الحقيقةِ الموضوعيّة، فهي وحدها الباقيةُ والمجدية.

# قراءة في جورج أورويل
## من «١٩٨٤» إلى نهاية «الرجل الأخير في أوروبا»

**رياض نجيب الرّيس**

**صحافي متقاعد، يعمل في النشر، سورية ولبنان. صدر له «صحافي المسافات الطويلة» ٢٠١٧.**

في حزيران / يونيو ١٩٤٩، رفع كاتب إنكليزيّ اسمه جورج أورويل في رواية صدرت له بعنوان «١٩٨٤»، الشعارات الآتية:

**«الحرب هي السلام**
**الحريّة هي العبوديّة**
**الجهل هو القوّة»**

في نهاية عام ٢٠١٣، كان عشرات الملايين من الناس قد قرأوها في أكثر من ٧٠ لغة، العربية واحدة منها.

«١٩٨٤»، تروي ببساطة قصة وينستون سميث، الموظّف الصغير في دولة «أوشايانيا» الديكتاتوريّة. هذه الدولة في حرب شبه مستمرّة - باردة وساخنة- مع القوّتين العظميين الأخريين في العالم: «يوراسيا» و«إيستاسيا». ظروف الحرب والتحالفات تتغيّر باستمرار. سميث يعمل في وزارة الحقيقة، يعيد كتابة مقالات الصحف حتى تتناسب مع عقيدة الحزب الحاكم المتغيّرة باستمرار. الحميميّات انتهت. الحياة الخاصّة أُلغيت. سميث وكلّ أعضاء الحزب يخضعون للمراقبة في مشْيهم ونومهم وبيوتهم بواسطة عين «إلكترونيّة» تلفزيونيّة. لافتات في كلّ مكان ترفع شعار الدولة: «الأخ الكبير يراقبك». الأخ الكبير هو زعيم الحزب الحاكم.

فجأة يرتكب سميث خطيئة فكريّة. يصيح في فكره: «يسقط الأخ الكبير». في الوقت نفسه يرتكب سميث خطيئة أكبر. يقع في حبّ جوليا، زميلته في وزارة الحقيقة. الحبّ ممنوع في دولة «أوشايانيا». الحزب يدعو إلى العفّة الجنسيّة. الأطفال يولدون فقط بواسطة التلقيح الاصطناعي. كلّ ولاء شخصيّ هو للحزب. البوليس الفكريّ يلقي القبض على وينستون وجوليا ويقودهما إلى وزارة الحبّ. ويُخضع البوليس سميث لأقصى درجات التعذيب. يحقّق معه في الغرفة ١٠١ لأيّام طويلة، حتى يصل التحقيق والتعذيب به إلى إدخال وجهه في قفص يحتوي على فئران. عندئذٍ ينهار سميث ويتوسّل أن يخضعوا جوليا لهذا التعذيب بدلاً منه. وتُنهي هذه الخيانة كلّ ما بقي عنده من احترام للذّات وكرامة. لقد أصبح عضواً كاملاً في الحزب. هنا فقط يُعترَف به كحزبيّ جيّد.

هكذا تصوّر جورج أورويل العالم عام ١٩٨٤. وعندما كتب أورويل هذه الرواية في نهاية الأربعينيّات، كان العالم قد خرج لتوّه من الحرب العالميّة الثانية. كانت هزيمة هتلر والنازيّة لا تزال ضاربة في أذهان الناس. وكانت الحرب الأهليّة الإسبانيّة قد انتهت بانتصار الجنرال فرانكو والفالانج. وكان ستالين سيّد روسيا والاتحاد السوفييتي. وكانت بريطانيا دولة طبقيّة فقيرة. وكانت الولايات المتّحدة لم تطمح بعد إلى زعامة العالم الغربيّ. وكانت فرنسا تلعق جراح هزيمتها على أيدي النازيّة واحتلالها لأكثر من أربع سنوات. وكانت ألمانيا خراباً. وكانت أوروبا مهدّمة. وكانت الأفكار والعقائد السائدة في تلك السنوات تتعرّض لزلزال خيبة أمل المثقّفين الغربيّين بالمسلّمات التي تعلّموها في المدارس. وكان الفكر السياسيّ الأوروبيّ كلّه يخضع لإعادة نظر شاملة.

كان أورويل يحتقر المثقّفين، إلّا أنّه كان واحداً منهم. كان مجموعة متناقضات تسير على قدمين. كان ناقداً أدبيّاً وثقافيّاً استطاع بأسلوبه المبسّط ولغته الإنكليزيّة السلسة أن يُفهِمَ النقد للعامّة. كان صحافيّاً أحال الكتابة السياسيّة إلى فنٍّ راقٍ. كان أفضل كتّاب المقال بالإنكليزيّة - بشهادة النقّاد - في هذا العصر. وكان أوّل من جعل الرواية السياسيّة تصل إلى مرتبة الفنّ الخلّاق

المميّز. لقد جعل مهمّته أن يقول الحقيقة في زمن كان معاصروه قد صدّقوا أنّ التاريخ هو الكذب.

لكنّ جورج أورويل لم يكن جورج أورويل. كان اسمه أريك بلير. ولد في الهند عام ١٩٠٣ من أبٍ كان يعمل موظّفاً في حكومة الهند، مثله مثل آلاف الإنكليز الذين كانوا يديرون شؤون الإمبراطوريّة البريطانيّة مترامية الأطراف في حينه. وكانت أمّه من طبقة ريفيّة متوسّطة. وعندما يتطلع أريك إلى طفولته، لا يذكر إلّا كيف كان همّ والديه الحفاظ على المظاهر فقط. «حتى دخْل العائلة كلّه كان يُصْرَف على المظاهر». وعندما بلغ الثامنة من عمره، وأخذت بذرة التمرّد تنمو في داخله، كتب يقول: «أنا ضعيف، ليس عندي مال. أنا بشع. أنا مكروه. مصاب بسعال مزمن. أنا جبان. أنا ولد غير مقبول». كانت حاسّة النقد الصّارم لذاته قد بدأت تكبر، على عكس عادة المتمرّدين، الذين يقعون في غرور حبّ الذات.

عندما أصبح أريك بلير شاباً نال منحة دراسيّة بسبب تفوّقه تخوّله الالتحاق بمدرسة «أيتون» الشهيرة معقل الأرستقراطيّة البريطانيّة والطبقة الحاكمة في البلاد. ولم يخفّف نجاحه في الالتحاق بـ«أيتون»، كطالب متفوّق لا يدفع الأقساط (فوالده موظّف صغير وفقير)، من نقده الذاتي الصارم وتشاؤمه السوداويّ. فبدلاً من الشعور بالانتصار كتب يقول: «الفشل، الفشل، الفشل. الفشل ورائي. الفشل أمامي. هذه هي القناعة العميقة التي أحملها».

**حقق نبوءته بالفشل. وكان الكسل مهمته. إلا فى القراءة. قرأ كثيرا وكتب الشعر. لكن القراءة والشعر لم توصلاه إلى النجاح.**

قضى أريك أربع سنوات ونصف سنة في «أيتون» من دون أن يحقّق أيّ نجاح. حقّق نبوءته بالفشل، وكان الكسل مهمّته، إلّا في القراءة. قرأ كثيراً، قرأ كلّ كتّابه المفضّلين من ديكنز إلى ثاكاري إلى ولز إلى كيبلينغ، أعمدة الأدب والفكر الإنكليزيّ. وكتب الشعر. لكنّ القراءة والشعر لم توصلاه إلى النجاح. وفشل في الحصول على مقعد في جامعتي أوكسفورد أو كامبردج حيث يذهب عادة متخرّجو مدرسة «أيتون». ولم يفز بأيّة منحة. أبوه الفقير لا يستطيع أن يدفع أقساط الجامعات الأرستقراطيّة. كان الفشل وراءه فعلاً، وأمامه قولاً.

أغلقت أبواب الوظيفة في إنكلترا في وجهه، وفتحت لأقرانه في «أيتون» الذين دخلوا الجامعات. قرّر أن يلحق بأبيه ويترك إنكلترا. التحق ببوليس الهند الإمبراطوريّ، وأرسل للخدمة في بورما. وهناك أمضى خمس سنوات. بعدها استقال من البوليس وعاد إلى بلاده. عاد محملاً بأطنان من الشعور بالذنب. عاد ليكتب. لقد قرر أن يبدأ مساراً جديداً ويتّخذ اسماً جديداً. لقد قرّر أن يصبح كاتباً.

في مقال له بعنوان «الإعدام» (١٩٣١) ومقال آخر بعنوان «قتل الفيلة» (١٩٣٦) صوّر أعمال الإمبراطوريّة القذرة عن قرب (صدرا فيما بعد في كتاب بعنوان «أيّام بورما»). وبين هذين المقالين كان الكاتب الشابّ قد أعلن للناس نهائيّاً أنّ مكانه هو إلى جانب المضطهدين والمستضعفين. وفي السنوات العشر التي تلت عودته من بورما إلى إنكلترا، بدأت رحلة الكاتب الدونكيشوتيّة إلى الشهرة وأصبح اسمه جورج أورويل. لقد غيّر اسمه حتى لا يحرج أهله وقيَمهم البورجوازيّة - الطبقية - المتوسطة.

بدأت رحلة أورويل البوهيميّة في غرفة صغيرة في لندن في حي من أحيائها الفقيرة، يختلط بالمتسكّعين والسكارى والفقراء والبوهيميّين، محاولاً إخفاء لهجته «الأتيونيّة» الأرستقراطيّة حتى لا تفضحه مع رفاقه الجدد من المعذّبين في الأرض. وأغرته الحياة البوهيميّة في لندن بالسفر إلى باريس، التي كان قد قرأ وسمع عنها في العشرينيّات. في باريس عمل في غسل الصحون في مطعم ثلاث عشرة ساعةً في اليوم. وبين غسل الصحون وكتابة المقالات التي لا تنشر كان الطموح يتأجّج في داخله ليصبح روائياً. وكتب كتابه الأوّل عام ١٩٣٣ عن باريس ولندن. وعندما عاد إلى بلاده مجدّداً بعد نشر كتابه بدأت مشاكل إنكلترا الاقتصاديّة والسياسيّة تقلقه. وكتب كتابه الثاني عن البطالة والفقر في إنكلترا عام ١٩٣٦ وعن ضحايا الطبقيّة والتفاوت الاعتقادي.

لقد كان هذا الكتاب المعنون «الطريق إلى رصيف ويغان»، دعوة إلى الاشتراكيّة لإزالة كلّ ظروف عدم المساواة في بلاده. كان وعيه السياسيّ قد بدأ يتفتّح. كذلك أخذ يتساءل عن ماهيّة الرأسماليّة والطبقيّة وظروف كلٍّ منهما. كانت اشتراكيّته المثاليّة تنتقد بعنف كلّ الاشتراكيّين الإنكليز، من سياسيّين ومفكّرين وكتّاب. وخاف أورويل أن ينتقل الفقراء والمضطهدون من ديكتاتوريّة الرأسماليّة إلى ديكتاتوريّة الاشتراكيّة. خاف على المستضعفين من كذب نظريّات أدعياء الاشتراكيّة، حتى كتب يقول:


INGSOC


INGSOC

«الحقيقة أن عدداً كبيراً من الناس الذين يقولون عن أنفسهم اشتراكيّين، لا تعني الثورة لهم تحرّك الجماهير الذين يطمحون إلى أن ينتسبوا إليهم. إنّها تعني مجموعة إصلاحات نفرضها «نحن» الأذكياء على: «هم الأغبياء» من الطبقة الدنيا».

**برشلونة خدعته. فقد وجد أورويل نفسه بعد أن انضم إلى مليشيا برشلونة المحلية. أن الشيوعيين هم الذين يطلقون النار عليه لا فالانج فرانكو وعسكره. واكتشف أن ما تريده موسكو هو غير ما يريده المستضعفون.**

مع تفتّح مثاليّة أورويل الاشتراكيّة، لم يستطع أن يقاوم الانضمام إلى «فيلق الاشتراكيّة الدوليّة»، ويذهب إلى إسبانيا ليحارب قوات الجنرال فرانسيسكو فرانكو الذي قلب الحكومة اليساريّة المنتخَبة في مدريد، بادئاً الحرب الأهليّة الإسبانيّة. لقد كانت بالنسبة إليه فرصة أخيرة لكي «تقف الديمقراطيّة في وجه الفاشيّة». وعندما وصل إلى برشلونة عام ١٩٣٦، كتب يقول إنها «المرّة الأولى التي أجد نفسي في مدينة تتولّى الطبقة العاملة فيها الحكم». لقد سُحِرَ أورويل «باستنشاق هواء المساواة».

لكنّ برشلونة خدعته. فقد وجد أورويل نفسه بعد أن انضمّ إلى مليشيا برشلونة المحليّة، أنّ الشيوعيّين هم الذين يطلقون النار عليه لا فالانج فرانكو وعسكره. وجرح أورويل برصاص الشيوعيّين الذين جاء أصلاً للدفاع عن الجمهورية التي كانوا يشاركون فيها. وعلم خلال القتال أنّ الحكومة الاشتراكيّة التي حمل السلاح من أجلها قد أعلنت أنّ مليشيا برشلونة التي انضمّ إليها، والتي تضمّ شتات العمّال والفلّاحين والكادحين، غير شرعيّة. واكتشف أنّ ما تريده موسكو هو غير ما يريده المستضعفون. ووجد أورويل فجأة أنّ رفاق السلاح قد أصبحوا يُسمَّون «الفاشيست» و«مرتزقة فرانكو» من قبل الصحافة الشيوعيّة في أوروبا والعالم. وعندما سيطر الشيوعيّون على برشلونة وبدأت عمليّات التصفيات، هرب أورويل من المستشفى واختبأ ستّة أشهر حتى عاد إلى بلاده.

تركت برشلونة والحرب الأهليّة الإسبانيّة علاماتٍ فارقة في شخصيّة أورويل، صاحبت كلّ كتاباته من بعدها. لقد كان الحسّ بالخيانة التي تعرّض لها يفرض نفسه باستمرار على تفكيره وقلمه. وصدر كتابه الشهير «تحيّة وفاء إلى كتالونيا» عام ١٩٣٦ الذي يروي فيه قصّة الحرب. ودفعه هذا الكتاب إلى واجهة الشهرة وواجهة الخلاف وتعدّد الآراء حول كتاباته وآرائه. وفتح عليه النار، الشيوعيّون والماركسيّون والتروتسكيّون والاشتراكيّون بكلّ فروعهم. لقد فضح أورويل كذبة الحرب عندما قال: «لقد رأيت معارك كبيرة يُكتب عنها، عندما لم يكن هناك معارك. وصمتاً كبيراً عندما كان يقتل مئات الرجال. لقد رأيت القوّات التي كانت تحارب بشجاعة تدان بالجبن والخيانة. وآخرين لم يحاربوا قطّ ولم تطلق عليهم طلقة واحدة يَحْيَون كالأبطال في معارك وهميّة».

لقد أخافت ظاهرة الكذب هذه أورويل إلى أبعد الحدود، لأنّها كما كتب «تعطيني الشعور بأنّ كل مفهوم الموضوعيّة والحقيقة والصِّدقيّة قد بدأ ينحسر ويغيب عن هذا العالم».

ومن هنا بدأت فكرة رواية «١٩٨٤» تختمر في رأسه. ومنذ ذلك الحين كرّس أورويل كتاباته ضدّ ظاهرة الكذب، فتصدّى للستالينيّة، وتصدّى للفاشيّة، وتصدّى للرأسماليّة. حتى مقالاته في النقد الأدبي، كانت تقوم على مفهوم الخوف من الكذبة التي تروّج. لكنّ أورويل كان يحارب على كلّ هذه الجبهات عدوّاً واحداً، هو الديكتاتوريّة في جميع صوَرها وأشكالها وعقائدها وأساليبها. كان يحارب كذب الكتّاب المثقّفين وخيانة السياسيّين وسيطرة الحزبيّين وتسلّط العسكريّين. كان يحارب الرقابة على الفكر واللغة والفنّ والكتابة. كان يحارب تدجين الجماهير بالإرهاب والإقناع. كان يحارب إلغاء الفرد والفرديّة. كان يعتبر ستالين ظاهرةً يجب محاربتها. كذلك هتلر. كذلك فرانكو. كان يعتقد أنّ الديمقراطيّة في خطر أمام جحافل الإرهاب الفكري. السياسيّ الذي يهدّدها. كانت خطوط رواية «١٩٨٤» قد بدأت تنضج، وكانت شعاراتها قد بدأت تظهر على الجدران:

**«الحرب هي السلام**
**الحريّة هي العبوديّة**
**الجهل هو القوّة»**

لكن رواية «١٩٨٤» لم تظهر. لقد طرقت الشهرة القابلة للجدل باب أورويل من دون أن يتركه الفقر، فظلّ يكتب في الصحف والمجلّات، ورجع كاتب مقال أسبوعي في صحيفة «متربيون» الاشتراكيّة العماليّة، وعمل ناقداً في عدد من الصحف، وأخذ يذيع من محطّة الإذاعة البريطانيّة الموجّهة إلى الهند وآسيا، ولم يكتب بعد رواية «١٩٨٤».

كتب رواية قصيرة بعنوان «مزرعة الحيوان»، (ترجمها إلى العربيّة جبرا إبراهيم جبرا في عام ١٩٦٧) التي أصبحت فيما بعد أشهر أعمال أورويل، وأصبحت تدرَّس في المدارس. ولم تكن رواية بالمعنى الحقيقيّ. كانت خرافة أسطوريّة على لسان الحيوان. في هذه الرواية تثور الحيوانات المرهقة والعاملة بجد ليلاً ونهاراً على صاحب المزرعة المستغِلّ. لكنّ قائد الثورة - الخنزير - سرعان ما خانها، بعد أن رفع شعاراً أصبح من مقوّمات الأقوال الإنكليزيّة الشهيرة: «كلّ الحيوانات متساوية، لكنّ هناك بعض الحيوانات أكثر مساواة من غيرها».

ورفض عدد كبير من الناشرين «مزرعة الحيوان»، لأنّهم وجدوا في الخنزير شبهاً بجوزيف ستالين. وكان ستالين حليفاً لإنكلترا وأميركا ضدّ هتلر في ذلك الحين، كذلك وجدوا في الرواية نقداً جارحاً للنّظام الستالينيّ في الاتحاد السوفييتي. إلى أن غامر ناشر بقبولها، وحقّق من ورائها كسباً «كبيراً». وجاء مردود «مزرعة الحيوان» بشيء من الراحة الماليّة لأورويل، فاستغنى عن الكتابة الصحافية، وبدأ يكتب روايته الأخيرة والأشهر «١٩٨٤»، وكان مرض السلّ الذي أصيب به منذ مطلع شبابه قد أخذ ينهشه، وكانت زوجته قد توفّيت قبل ذلك بأربع سنوات. وصارع المرضَ حتى أنهى روايته. وتزوّج للمرّة الثانية وهو على فراش المرض. وصدرت «١٩٨٤». وعاش سبعة أشهر بعد صدورها، ومات بعد ثلاثة أشهر من زواجه الثاني. مات جورج أورويل في ٢١ كانون الثاني / يناير ١٩٥٠.

**أهم إنجازاته ككاتب أنه جعل الناس العاديين يفكرون جديا في قضية الحريات. جعلهم يتساءلون عن ماهية العقائد والأفكار التي يطرحها السياسيون عليهم. دعا الناس إلى التفكير وحدهم من دون ملقن. في العصر الذي كانت فيه الإنسانية تريد من يفكر عنها.**

استطاع أورويل في الأشهر السبعة التي عاشها بعد صدور «١٩٨٤»، أن يدرك أنّها ستصبح رواية شهيرة، ولكنّها ستظلّ رواية يُساء فهمها من النقّاد والقرّاء معاً. فحاول قبل موته بأسابيع أن يكتب توضيحاً لها، فقال: «ليس المقصود بروايتي الأخيرة أن تكون هجوماً على الاشتراكيّة وحزب العمّال البريطاني (الذي أؤيده)، ولكنّها تعريض للشذوذ والتشويه الذي يمكن الاقتصاد المركزيّ أن يعير نفسه إليه كما تطبّقه الشيوعيّة والفاشيّة. إنّني لا أعتقد أنّنا سنصل إلى نوع المجتمع الذي أصفه في روايتي. لكنّني أعتقد أنّنا قد نصل إلى شيء شبيه به».

ولم يصدّق أحد الكاتب. لكنّهم صدّقوا الرواية.

### هذا ما يبشّرنا به «١٩٨٤»

أين كان يقف أورويل في نهاية المطاف؟ كان يعتبر نفسه «رجل اليسار»، مدركاً أنّ الكثيرين من رفاقه في الاشتراكيّة لا يشاركونه آراءه «المتطرّفة» - أو غير التقليديّة، بينما اعتبر اليمين أنّ روايتيه «مزرعة الحيوان» و«١٩٨٤»، هما إدانة للثوريّة ومفهوم اليسار لها. لكنّ هذه المصطلحات - يسار ويمين - تتغيّر مع الزمن. أكثر من ٦٠ عاماً مرّت اليوم على صوت أورويل، ومع مرورها أثبت صاحبها أن إدانة الأنظمة الديكتاتوريّة والعقليّة التوتاليتاريّة تطاول اليمين واليسار معاً. فمفهوم الحرّيّة كلٌّ لا يتجزّأ.

لم يكن جورج أورويل منظّراً سياسيّاً جيّداً. لعلّ أهمّ إنجازاته ككاتب أنّه جعل الناس العاديّين يُفكّرون جدّيّاً في قضيّة الحرّيّات. جعلهم يتساءلون عن ماهية العقائد والأفكار التي يطرحها السياسيّون والمنظّرون عليهم. دعا الناسَ إلى التفكير وحدهم من دون ملقِّن، في العصر الذي كانت فيه الإنسانيّة تريد من يفكّر عنها، بل مَن يأمرها بالسَّير من دون تحديد وجهة معيّنة. لقد أدان العقائد على حساب القيَم. كانت قيَم الحريّة بكامل مفهومها وأقانيمها فوق كلّ الإيديولوجيّات والأحزاب والزعماء عنده. حاول أن يجعل من الاشتراكيّة لفظة محترمة ذات مفهوم إنسانيّ شموليّ، مبعداً إيّاها عن تشويه السياسيّين والحزبيّين لها. ربّما لم ينجح.

كان إنساناً متشائماً. بل كان مغرقاً في التشاؤم. إلّا أنّه، رغم كلّ هذا التشاؤم، كان يؤمن إيماناً حقيقيّاً لا حدود له بقدرة الإنسان، ذلك المخلوق الهشّ الضعيف، على تصحيح مسار أقداره والتغلّب على صعاب حياته بعمليّة راديكاليّة جذريّة بسيطة: أن يفكّر. أن يمارس التفكير وحده. ألّا ينساق وراء دعاة المذاهب والعقائد من دون أن يشكّك فيها ويتساءل عنها. كان يخاف الفوضى السياسيّة، إلّا أنّه كان يخاف أكثر على ضياع الحريّة.

اختصر أورويل موقفه من التسوية بالنّسبة إلى الحريّات والتقويم الأدبيّ والفكريّ عندما كتب عام ١٩٤٣: «أن تقول إنّ فلاناً كاتب موهوب، لكنّه عدوٌّ سياسيٌّ لي

وسأبذل جُهدي لإسكاته، أمر مقبول. حتى لو نجحت في إسكاته بقوّة السلاح، فأنت لم ترتكب ذنباً حقيقيّاً تجاه الفكر. الخطيئة المميتة أن تقول إنّ فلاناً عدوٌّ سياسيٌّ لي، لذلك فهو كاتب سيّئ».

كان أورويل فوق التسوية على حساب الفكر.

كان الغضب صفة أورويل الأساسيّة. كان غاضباً من نوعية الحياة التي كانت تعيشها الطبقة العاملة البريطانيّة. كان غاضباً على الفقر المستشري في المجتمع البريطانيّ. كان غاضباً على نظام الطبقات المعمول به في بريطانيا. إلّا أنّ غضبه الحقيقيّ كان على الطبقة العاملة لأنّها كانت بلا صوت، وبلا أفكار وبلا طاقة. كانت طبقة من دون ضمير. كانت طبقة منحطّة. وسبب انحطاطها أنّها فشلت في أن تخلق لنفسها الصوت والقاعدة والطاقة لتخرج من تعاستها ولترفع السَّيف في وجه الظلم المحيط بها. كان يريد من الجماهير المسحوقة أن تستعمل عقلها لا قلبها ولا كسلها ولا استسلامها.

ليس مهمّاً أن يدّعي اليوم أيٌّ من اليمين أو اليسار أبوّته لأورويل وأفكاره بعد مرور أكثر من نصف قرن على وفاته. المهمّ أنّ أفكار أورويل ما زالت صالحة للاستعمال ومثيرة للجدل وأصيلة الهدف بعد كلّ هذه السنين. الأهمّ من ذلك أنّ نبوءة أورويل في رواية «١٩٨٤» في خلق المجتمع التعسّفيّ الرقابيّ التوتاليتاريّ في العالم قد تحقّقت.

إنّ الضجّة التي تثيرها صحافة العالم وإذاعاته وتلفزيوناته ليست حول أفكار أورويل، وهي الأساس. بل إنّ الضجّة كلّها هي أنّ أورويل قد حدّد عام ١٩٨٤ في عنوان روايته، على أنّه العام الذي سيشهد قيام الدولة الديكتاتوريّة التوتاليتاريّة في العالم، التي ستسلب كلّ الحريّات وتقلب القيم وتعيد تحديد المفردات وتخلق لغة المتناقضات وتتعامل بالإرهاب وتلغي الفرديّة وتمنع الحبّ وترفض الخصوصيّات وتكره الجمال وتزيد من بناء السجون وتغلق المدارس وتحْجر على الفكر وتحتقر المروءة والوفاء.

هل اقترب العالم عام ١٩٨٤ من أفكار رواية «١٩٨٤» وأحداثها؟ هناك مَنْ يقول: نعم، ويعطي عشرات الأمثلة. وهناك مَنْ يقول: لا، ويؤكّد أنّ أورويل كان مبالِغاً ومتشائماً. مأساة أورويل أنّ الناس تذكّروه لأنّه ارتبط في أذهانهم بهذا التاريخ. ولو حافظ أورويل على عنوان الرواية الأصلي - «الرجل الأخير في أوروبّا» - ولم يرتبط بتحديد موعد زمنيّ لنبوءته، لما ضجّ العالم اليوم باسمه وبأفكاره.

ماذا تعني «١٩٨٤»، وماذا يعني جورج أورويل للقارئ العربيّ أو للمواطن العربيّ اليوم أو في الأمس؟ الجواب بكلّ أسف: لا شيء.

لا شيء لأنّ ليس هناك في رواية أورويل شيء لم يعرفه المواطن العربيّ طوال الخمسين سنة الأخيرة، ولم تمارسه الأنظمة التي تعاقبت على امتداد الوطن العربيّ، عليه. لا جديد في رواية أورويل بالنّسبة إلى العربيّ الفرد المقهور والمحروم الكرامة والحريّة. ولا جديد في أفكار أورويل لم يُطبَّق على الجماهير العربيّة المسحوقة، ولا مفاجأة في «١٩٨٤» تخصّ العرب من المحيط إلى الخليج. فعندما كتب أورويل روايته لم يكن العرب في الحسبان.

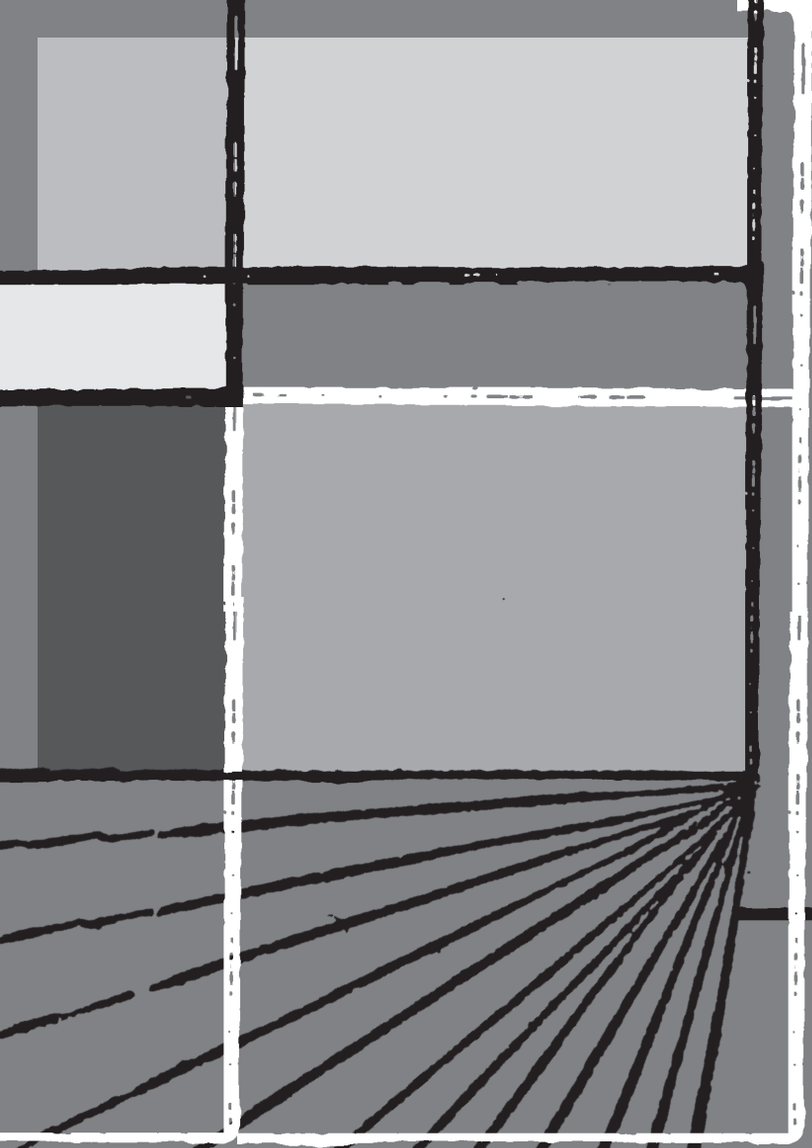
لكنّ أورويل وأعماله الكثيرة يجب أن تعني كلّ قارئ عربيّ ما زال يجهل ضرورة التفكير وحده ومتعة الرفض ومقاومة الانسياق وراء الملقِّن، أيّاً كان اسمه ونوعه. ميزة كتابات أورويل أنّها كلها ذات دلالة مباشرة تكاد تكون تفصيليّة - عن معاناة المواطن العربيّ وعلاقته بالعقائد والأفكار والسلطة. كلّ ما في كتب أورويل يجب أن يشدّ القارئ المواطن إلى البحث عن الذّات والتّساؤل عن الخبز والكرامة. بل لا خبز يمكن أن تعطيه السلطة من دون كرامة. إنّ قراءة أورويل هي عمليّة تحريض على الذات.

عرفت أورويل كقارئ وأنا على مقاعد الدراسة، عندما كانت روايته «مزرعة الحيوان» مقرّرة في البرنامج الدراسيّ. قرأتها كلغة وأدب وأسلوب. لم أفهمها في حينه كفكر سياسيّ. كانت مجرّد خرافة أسطوريّة مملّة على لسان الحيوانات. وعندما كبرنا وبدأ تفتّحنا السياسيّ، ازددت معرفة بأورويل الكاتب والناقد. وفي رأيي المتواضع أنّ مقالاته ونقده أهمّ بكثير من رواياته، وأكثر دلالةً على أوضاع المواطن العربيّ وهمومه ومتاعبه وطموحاته وقصوره.

أهمّيّة أورويل أنّه يفتح عيوننا على أشياء كثيرة نعيشها ونعرف أنّها معنا منذ أن وُلدنا. لكنّه على الأقل سيدفعنا إلى التفكير فيها، والتساؤل حولها وإعادة النظر فيها. إنّ النفس العربيّة عطشى دائماً إلى القليل من التشاؤم البنّاء.

لقد دَهمَنا عصرُ الحرب وعصر الكراهية وعصر الجهل، ونحن لم نعرف حتى الآن السلم ولا الحبّ ولا العلم، فما بالك بالحريّة.

وداعاً جورج أورويل، وأهلاً «١٩٨٤». فعلى الأقلّ نعرف أنّك لن تحمل إلينا أيّة مفاجأة. حتى عصر المفاجآت لم يمرّ من هنا!



٢٤٦ الماديّة التاريخيّة
أم التصوّر الماديّ للتّاريخ؟
سلامة كيلة

# الماديّة التاريخيّة أم التصوّر الماديّ للتّاريخ؟

**سلامة كيلة**

**كاتب، فلسطين.**

إنّ طرح إعادة النظر بالمادية التاريخية أو استبدالها بالتصور المادي للتاريخ ليس شكليّاً بل إنّه يعبّر عن اختلاف جوهريّ، حيث إنّ الماديّة التاريخيّة تشير إلى تصوّر منجز، مكتمل، بينما يشير التصوّر الماديّ للتّاريخ إلى منظور يُحكم فهم التاريخ، وبالتالي هو ينطلق من عدم اكتمال البحث في التاريخ بل يؤكد ضرورة هذا البحث. لكن إلامَ ينحكم هذا البحث؟ هنا لا بدّ من تلمّس مسار نشوء وتطوّر الماركسيّة، لنصل إلى كيف تشكّلت الماديّة التاريخيّة.

**ما هي أهمّيّة ماركس؟**

ماذا أضاف كارل ماركس؟ بالتأكيد ليس سهلاً التوافق على إجابة واضحة على ما أضافه ماركس، وأيّ الأفكار كانت هي المفصل الذي شكّل ما بات يُسمّى الماركسيّة. ففي تاريخ الماركسيّة إجابات متعدّدة، وأفكار مختلفة، كان واضحاً أنّها نتاج تأثُّر بتيّارات سابقة، لكن أيضاً بمصالح فئات باتت تعتبر ذاتها ماركسيّة.

فلا شكّ في أنّ أهمّيّة ماركس خضعت لمنظورات مختلفة من «مريديه»، ومن الماركسيّات اللاحقة. فقد سادت «نظرة اقتصاديّة» نتيجة تركيز ماركس على الاقتصاد الرأسماليّ، وساد منظور تطوريّ ينطلق من انتقال أنماط الإنتاج بشكل تدرّجيّ و«عفويّ» (أي بلا فاعليّة ذاتيّة). ولقد انعكس كلّ ذلك في تحديد دور الماركسيّة في الصراع الطبقيّ، وفي تحديد التكتيكات الضروريّة لانتصار البروليتاريا. وكان واضحاً أنّ علاقةً ملتبسة تقوم بين الاقتصاديّ والفلسفيّ، ومَيل للتّركيز على «الماديّ». لقد انتقد إدوارد بيرنشتاين «بقايا هيغليّة» لدى ماركس، وقصد الجدل، لكنّ يورغي بليخانوف تمسّك بالجدل مختصراً إيّاه إلى منظور خطّيّ يتعلّق بمبدأ التراكم الكمّيّ والتغيّر النوعيّ، بينما حاول لينين باعتماد فريدريك إنجلز، وبالعودة إلى هيغل، أن «يتْبَع» إنجلز في فهم الدّيالكتيك. وفي كلّ هذه المراحل كان يبدو أنّ الاقتصاد هو المغري، حيث تتمظهر الماركسيّة في طابعها الاقتصاديّ.

مع هيمنة ستالين و«أدلجته» الماركسيّة ساد منظور «تخصّصيّ» قسّم الماركسيّة إلى أربعة فروع «علميّة»: الأوّل هو الماديّة الديالكتيكيّة، والثّاني هو الماديّة التاريخيّة، والثّالث هو الاقتصاد السياسيّ، والرّابع هو الاشتراكيّة العلميّة. لكنّ موت ستالين فرض «إعادة نظر»، ومحاولةً لتجاوز «الماركسيّة السوفياتيّة بالعودة إلى ماركس». هذا ما أدّى إلى «اكتشاف» نصوص لماركس جرت التغطية عليها، منها ما يتعلّق بـ«نمط الإنتاج الآسيويّ»، الذي حظي بتنظير وبحث ونقاش طيلة خمسينيّات القرن العشرين وستّينيّاته. لكنّ الأهمّ هنا هو «نقد الديامات» (والديامات هي الشكل الذي اتخذه المفهوم المادي للديالكتيك في الاتحاد السوفيتي خلال الفترة الستالينية) التي «غرزها» المنظّرون السوفيات في الماركسيّة استناداً إلى إنجلز، وكان القصد يتعلّق بالجدل. هذا ما أنتج النظريّة الماديّة التاريخيّة التي أصبحت سمة الماركسيّة الغربيّة.

لا شك في أنّ المَيل الاقتصاديّ هو الذي كان يتعمّم في الماركسيّة الغربيّة منذ الأمميّة الثانية، ومن ثَمّ تحوّل منظورات الأحزاب الاشتراكيّة الديمقراطيّة، رغم مجهودات أنطونيو غرامشي لتنظير «المستوى السياسيّ» انطلاقاً من الديالكتيك، وكلّ البحث النظريّ الثريّ الذي تضمنّته «كرّاسات السجن». ورغم مجهودات جورج لوكاش هائلة الأهمّيّة في «نقد العقل»، وتأسيس أنطولوجيا الوجود الاجتماعيّ، ورغم

أفكار فلهالم رايش، وربّما آخرين. لهذا، ربّما، كان هذا المَيل في أساس العودة إلى «الماديّة» التي كانت تبدو أنها تمثّل تجاوزاً لديالكتيك يعمّمه السوفيات معتمدين على إنجلز، هذا الأخير الذي بات يشير إلى انحراف مبكّر في الماركسيّة، وتكريس لما جهد ماركس لتجاوزه، أي «لوثة هيغل». فإنجلز هو الذي نظّر أسس الديالكتيك في كتابه «ضدّ دوهرنغ».

إذن، لقد أفضى رفض الماركسيّة السوفياتيّة إلى رفض «الماديّة الديالكتيكيّة» وقبول «الماديّة التاريخيّة». ولقد جرى تحميل إنجلز «خطيئة» الجدل، كما جرى اعتبار أنّ مشكلة الماركسيّة السوفياتيّة تكمن في اعتمادها على «الديامات» (الجدل)، رغم أنّها أوّل من تخلّى عن الجدل حينما حوّلته إلى «موضوع تأمّليّ» بعدما فصلتْه عن الواقع من خلال إبعاده عن البحث فيه، وباتت الماديّة التاريخيّة هي المنظور الذي يحكم فهم التّاريخ (أو يكرّر فهم التاريخ كما جرت صياغته انتقائيّاً)، وبات الاقتصاد

**أفضى رفض الماركسية السوفياتية إلى رفض «المادية الديالكتيكية» وقبول «المادية التاريخية». ولقد جرى تحميل إنجلز «خطيئة» الجدل. كما جرى اعتبار أن مشكلة الماركسية السوفياتية تكمن في اعتمادها على «الديامات».**

السياسيّ هو المنظور الذي يكرّر مفاهيم الاقتصاد الرأسماليّ. ومن ثمّ قاد هذا الرفض إلى تأسيس الماديّة التاريخيّة في الماركسيّة الغربيّة على نصّ ماركس الوارد في مقدّمة كتاب «إسهام في نقد الاقتصاد السياسيّ». فما يوضحه ماركس في هذا الكتاب هو التالي: «(...) والنتيجة العامّة التي وصلتُ إليها، والتي أصبحتْ، بعد اكتسابها، الخيط الموجِّه لدراساتي، يمكن أن تصاغ صياغة موجزة كما يلي: تقوم بين النّاس، في الإنتاج الاجتماعيّ لحياتهم، صِلات معيّنة ضروريّة مستقلّة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تقابل درجةً معيّنةً من درجات نموّ قواهم الإنتاجيّة الماديّة، ويؤلّف مجموع هذه العلاقات الإنتاجيّة البنية الاقتصاديّة للمجتمع، وهي القاعدة المشخّصة التي تقوم فوقها بنية حقوقيّة وسياسيّة، والتي تقابلها أشكال معيّنة من الوعي الاجتماعيّ»، ويكمل «إنّ أسلوب إنتاج الحياة الماديّة يشرط سلسلة أفاعيل الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة بصورة عامّة»، بالتالي «فليس وعي النّاس هو الذي يعيّن وجودهم، بل إنّ وجودهم الاجتماعيّ على العكس من ذلك هو الذي يعيّن وعيهم» (ط/ دمشق ص٢٥). وهي الفكرة التي يقول إنجلز إنّها من اكتشاف ماركس، وهي الإضافة التي قام بها (مقدّمة البيان الشيوعيّ، ط/ موسكو ص١١).

كما جرى تكرار كلّ أفكار ماركس حول التاريخ باعتبار أنّها حقائق علميّة، بما في ذلك «المراحل الخمس» و«النّمط الآسيويّ»، وكلّ السّياقات التي ذكرها فيه. وفي هذا توافقٌ كامل مع منظور الماركسيّة السوفياتيّة للتاريخ، والمسمّى الماديّة التاريخيّة.

إنّ منطلقات الماديّة التاريخيّة تتمثّل في التعاقب في تطوّر المجتمعات الإنسانيّة، أي «التحوّل المستمرّ في البنى التحتيّة التاريخيّة للمجتمعات» (سمير أمين «عن الأزمة»، ص٦١). ولا شكّ في صحّة هذه الفكرة، لكن كيف يمكن فهم هذا التعاقب؟ لقد أشار ماركس وإنجلز إلى تعاقب أنماط الإنتاج، وأشارا إلى ذلك منذ «البيان الشيوعيّ»، لكنّ الفكرة كانت عامّة هنا، وعموميّة، حيث لا بدّ من تحديد الأسس التي تحدّد طبيعة كلّ نمط، وكيف ينتقل إلى آخر. وبالأساس ما هو المنظور الذي يحكم فهم كلّ ذلك؟ أي ما هو المنطق الذي يحكم النظر لفهم ذلك؟

تسود في الماركسيّة الغربيّة فكرة أنّ الماركسيّة «في شكلها الناضج» تتحدّد في «تفسير ماديّ للتاريخ والسياسة، نقد للاقتصاد السياسيّ الرأسماليّ، والتزام بالثورة الاشتراكيّة». وتعتبر النّصّ الوارد في مقدّمة «إسهام في نقد الاقتصاد السياسيّ» نصّاً برنامجيّاً، «يتمتّع بسلطة مرجعيّة رفيعة جدّاً»، وهو «الإطار العامّ الذي وضعه ماركس لتحليل التاريخيّ والسياسيّ والاقتصاديّ، الذي صار يعرف لاحقاً باسم: الماديّة التاريخيّة» (جاكسون، ص١٤١). ويشير هابرماس، الذي كتب حول إعادة بناء الماديّة التاريخيّة، إلى أنّ ماركس «كان ينظر إلى الماديّة التاريخيّة كنظريّة كليّة للتطوّر الاجتماعيّ، وكان يرى في نظريّة الرأسماليّة وحدةً فرعيّة من تلك النظريّة» (بعد ماركس، ص٥٥). ويبدو هنا وكأنّ هابرماس يردّ على الماركسيّة السوفياتيّة التي فصلتْ الماديّة التاريخيّة التي تتعلّق بالتاريخ وأنماط الإنتاج، عن الاقتصاد السياسيّ الذي يخصّ المرحلة الرأسماليّة. ويعتبر هابرماس أنّ أسس تحليل ماركس للرأسماليّة «يمكن أن تكون أساس النّظر إلى المجتمعات قبل رأسماليّة» (ص٥٥)، «فليست الماديّة التاريخيّة بالنسبة إليّ دلالة كشفيّة فحسب، بل هي

نظريّة، وبالتدقيق نظريّة للتطوّر الاجتماعيّ تمتلك أيضاً، بفضل مكانتها التأمّليّة، قيمةً استدلاليّة بالنسبة إلى العمل السياسيّ»، ومن ثمّ يؤكّد على «تعاقب أساليب الإنتاج» (ص ٨٥)، ومكرّراً وشارحاً ما ورد في نصّ ماركس في مقدّمة «إسهام حول هذا التعاقب كحقائق مطلقة الصحّة» (ص ٧٥، و٨٧ - ٨٨).

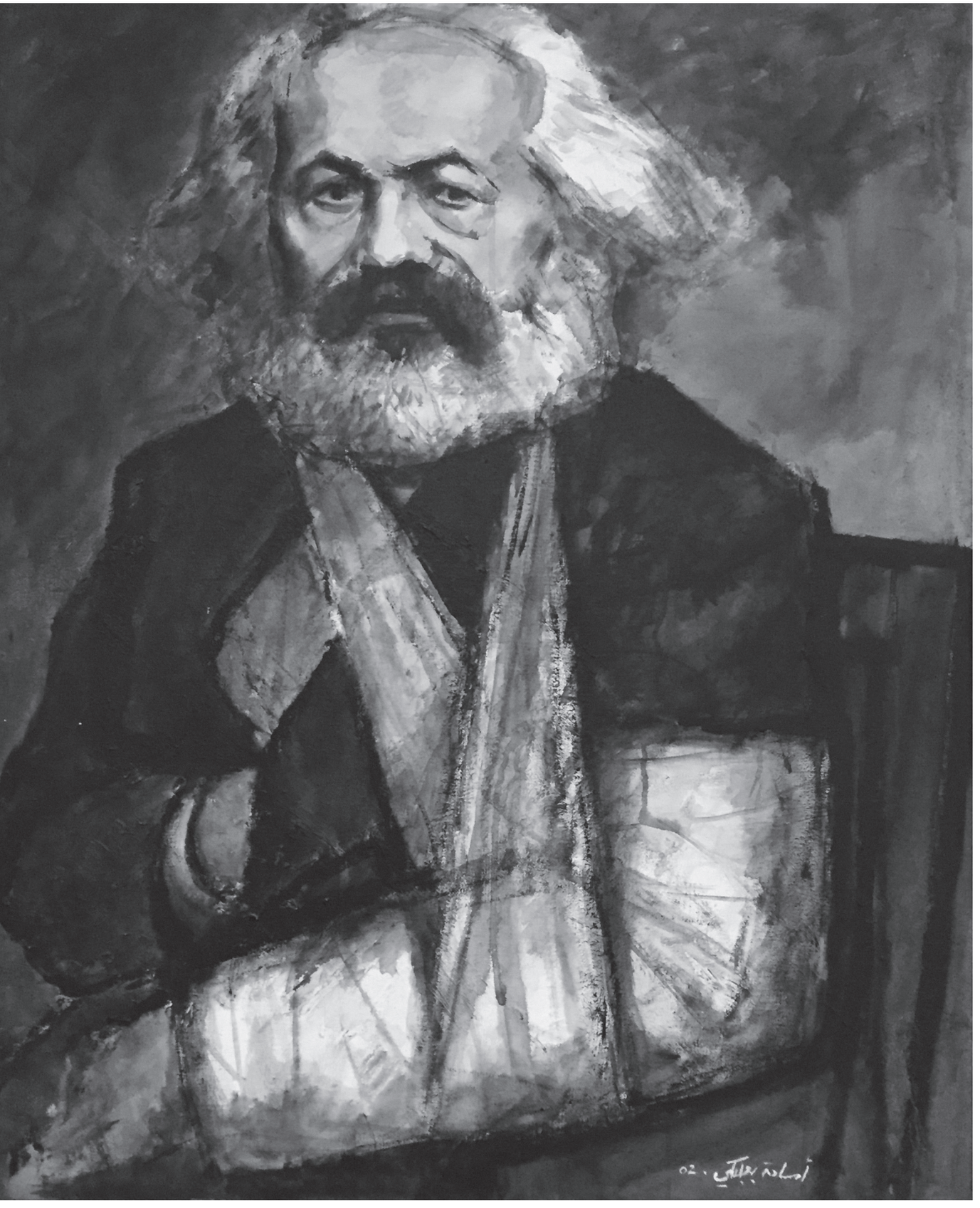
لست في وارد إطالة الاستشهاد في هذا المجال، حيث حاولت أن أوضح جوهر الفكرة التي تنبني عليها «نظريّة» الماديّة التاريخيّة، التي باتت تتمتّع «بسلطة مرجعيّة رفيعة جدّاً» وتستخدم مقولات ماركسيّة وهي تشرع في تحليل التاريخ والسياسة. وهي المقولات المتداولة والصحيحة، مثل الاقتصاد والطبقات والدولة والأيديولوجية، وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، البنية التحتيّة والبنية الفوقيّة، وأسلوب (أو نمط) الإنتاج. لكنّ المشكل هنا يتمثّل في اعتبار أنّ هذه المقولات (أو المصطلحات) هي إطار التفسير الماديّ للتاريخ، أي تحويلها الى «أداة منهجيّة».

## ماهيّة الماركسيّة

كان السؤال حول ماهيّة الماركسيّة متكرّراً منذ ماركس، حيث لمس «الانحراف الاقتصاديّ» فصاح «أبلغوا هؤلاء أنّني لست ماركسيّاً» (حسب ما أورد إنجلز وهو يفسّر موقع الاقتصاد في بنية الماركسيّة كما ذكر في رسائل كتبها لزعماء الأمميّة الثانية، «رسائل حول الماديّة التاريخيّة»). وإذا كانت الماركسيّة وُلدت من هيغل ومن نفيه (أي فورباخ)، فقد مال بعض الماركسيّين إلى رفض «البقايا الهيغليّة» في الماركسيّة كما فعل بيرنشتاين، والميل إلى اعتبارها منظوراً اقتصاديّاً. وهو الرفض الذي تكرّر في خمسينيّات القرن العشرين وما بعد، مع الميل لـ «تجاوز الاقتصادويّة» نحو الماديّة التاريخيّة. لكن ما هو موقع الديالكتيك في نظريّة ماركس؟

ليس أفضل هنا من ردّ ماركس في المقدّمة الثانية لكتاب «رأس المال» على تبخيس بعض المعلّقين على الكتّاب الذين ساءتْهم طريقة عرضه التي هي «ديالكتيكيّة على نحو ألمانيّ» (ماركس ص ٢٥). يقول ماركس «عندما كنت منهمكاً في كتابة المجلّد الأوّل من رأس المال شرع المقلّدون الصاخبون، المتصنّعون، والتافهون للغاية، الذين يلعبون الدور الأوّل في ألمانيا المعاصرة المثقّفة، يستهينون بهيغل، مثلما كان المقدام موزيس مندلسون في عهد ليسنغ يستهين بسبينوزا ككلب ميت. ولذلك أعلنت عن نفسي بصراحة أنّني تلميذٌ لهذا المفكّر العظيم، وحتى أنّني عمدت في بعض مواضع الفصل المتعلّق بنظريّة القيمة إلى محاكاة طريقة هيغل في التعبير. وإنّ الطّابع الصّوفيّ الذي ارتداه الديالكتيك على يدَي هيغل لم يحُل إطلاقاً دون أن يكون هيغل بالذّات أوّل من قدّم تصويراً شاملاً وواعياً للأشكال العامّة لحركته. فالديالكتيك يقف على رأسه عند هيغل، بينما ينبغي إيقافه على قدميه بغية الكشف عن اللبّ العقلانيّ تحت القشرة الصوفيّة» (ص ٢٧-٢٨). ويشرح ماركس هذه الفكرة الأخيرة بالقول «إنّ طريقتي الديالكتيكيّة من حيث أساسُها لا تختلف عن طريقة هيغل وحسب، بل وتناقضها بصورة مباشرة. وبالنّسبة إلى هيغل فإنّ عمليّة التّفكير، التي يحوّلها حتّى تحت اسم الفكرة إلى ذات مستقلّة، هي ديمورغ (خالق، مبدع) الواقع الذي لا يشكّل سوى مجرّد مظهر لتجلّيها الخارجيّ. أمّا عندي فعلى العكس، فالمثاليّ ما هو إلّا ماديّ منقول إلى رأس الإنسان ومحوَّل فيه» (ص ٢٧). يكمل ماركس: «لقد أصبح الديالكتيك بشكله الصوفيّ موضةً ألمانيّة، لأنّه بدا وكأنّه يمجّد الأوضاع القائمة. وإنّ الديالكتيك بشكله العقلانيّ لا يثير لدى البرجوازيّة وأيديولوجيّيها المتحذلقين الجامدين سوى الحقد والذّعر، إذ إنّه يتضمّن إلى جانب الفهم الإيجابيّ لما هو موجود فهْم نفيه أيضاً وهلاكه المحتوم، وينظر إلى كلّ شكل مجسَّد من خلال الحركة، وبالتّالي من خلال جانبه العابر أيضاً، والديالكتيك لا يعبد أيّ شيء، وهو انتقاديّ وثوريّ من حيث جوهرُه ذاته» (ص ٢٨).

ماركس يعلن هنا أنّ الديالكتيك هو طريقته، ولكنّه يميّزها عن طريقة هيغل من حيث «وضع الفكرة». ولقد قام إنجلز بمهمّة توضيح الديالكتيك، وطابعه الجوهري في جزء مهمّ من كتاباته. فقد شرح الأمر في كتاب «ضدّ دوهرنغ» الذي قرأه ماركس (وأسهم في جزء من الفصل المتعلّق بالاقتصاد كما يشير إنجلز)، وحاول فهم الطبيعة من خلال الديالكتيك في كتاب «ديالكتيك الطبيعة» (رغم تجاوز العلم لكثير ممّا ورد فيه)، وأعاد صياغة جزء من كتاب «ضدّ دوهرنغ» في كتاب «الاشتراكيّة: الطوبا والعلم» حيث أوضح بكلّ دقّة كيف أنّ الاشتراكيّة باتت ممكنة نتيجة عنصرين: نشوء الطّبقة العاملة واكتشاف الديالكتيك. وربّما حاول أن يشرح بالتفصيل علاقة الماركسيّة بهيغل وفورباخ في كتاب «لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيّة الألمانيّة»، حيث أوضح كيف جرى إيقاف جدل هيغل على قدميه عبر بلورة الفهم الماديّ اعتماداً على فورباخ. كذلك لينين كان ينطلق من



محوريّة الديالكتيك في الماركسيّة، وعاد لقراءة هيغل من هذا المنظور (الدفاتر الفلسفيّة، التي هي ملخّصاته لكتب هيغل وغيره). بهذا ليس من الممكن أن نعتبر أنّ الديالكتيك هو «نتوء هيغلي» في الماركسيّة يجب تجاوزه، ولا تكريس الاقتصاد كـ «جوهر» للماركسيّة، وبالتّالي تجاوز الفهم الذي قامت عليه الماديّة التاريخيّة.

**موقع نصّ ماركس**

لكنْ أين موقع نصّ ماركس آنف الذّكر في الماركسيّة؟ يقول إنجلز «إنّ الفكرة الرئيسيّة السائدة [في البيان] وهي أنّ الإنتاج الاقتصاديّ والبناء الاجتماعيّ، الذي ينشأ بالضرورة عنه، يؤلّفان في كلّ عهد تاريخيّ أساس التاريخ السياسيّ والفكريّ لهذا العهد، ولذا فالتّاريخ بأسره (منذ انحلال الملكيّة البدائيّة المشاعيّة للأرض) كان تاريخ نضال بين الطبقات» (ص ١١)، وهي الفكرة التي توصّل إليها ماركس (ص ١٢). وهي الفكرة التي تبلورت بشكل «ناضج» في مقدّمة «إسهام في نقد الاقتصاد السياسيّ». هل نفَتْ هذه الفكرة الجوهريّة «الطريقة الديالكتيكيّة» لدى ماركس؟

**ليس من الممكن أن نعتبر أن الديالكتيك هو «نتوء هيغلي» في الماركسية يجب تجاوزه. ولا تكريس الاقتصاد كـ«جوهر» للماركسية. وبالتالي تجاوز الفهم الذي قامت عليه المادية التاريخية.**

في «رأس المال» يتحدّث ماركس عن طريقته الديالكتيكيّة، وكما أوضحت يميّزها عن طريقة هيغل، لكنّ تمييزه لا يتعلّق بالديالكتيك بل بـ«القشرة الصوفيّة» (أو المثاليّة) التي تحكم منطق هيغل، حيث إنّ الأمر يتعلّق بموقع الفكر، هل أنّه هو الجوهر وما الواقع سوى تجلّيه الخارجيّ، أم أنّ الواقع هو الذي يكون في أساس وجود الفكر؟ ولهذا، ولأنّ ماركس يتمسّك بالديالكتيك بعد أن يوقفه على قدميه، يقول موضحاً موقع النّصّ سالف الذّكر الوارد في المقدّمة، «حيث عرضت الأساس الماديّ لطريقتي» (ص ٢٥). ولقد أوردت النصوص التي تشرح معنى ذلك، والتي جرى اعتبار انّها من «اكتشاف مارك س». وهو يشير إلى ذلك في كتابه «إسهام في نقد الاقتصاد السياسيّ»، «فالموضوع الواقعيّ يبقى، من قبْل ومن بعد، مستمرّاً في استقلاله خارج الذهن، ويبقى كذلك طيلة الوقت الذي يكون فيه للذّهن فاعليّة تصوّريّة خالصة ونظريّة خالصة. وبالتّالي، فعند استعمال المنهج النظريّ أيضاً يجب أن يبقى، الموضوع، المجتمع، ماثلاً دوماً أمام الذهن كنقطة انطلاق أولى» (ص ٢٧٩).

ما يشير إليه ماركس هو أنّ هذا النّصّ هو الذي بلور الأساس الماديّ للجدل، حيث بتنا نتحدّث عن الجدل الماديّ بخلاف جدل هيغل المثاليّ. وبالتّالي لم يكن هدف ماركس تجاوز الديالكتيك لمصلحة الماديّة، بل تأسيس طريقة تفكير علميّة جوهرُها الجدل الذي ينطلق من الوجود وليس من أولويّة الفكر. فالواقع يتطوّر في صيرورة جدليّة، وطريقة ماركس هي التي تسمح لنا بكشف هذه الصيرورة. فقد أوقف ماركس ديالكتيك هيغل على قدميه، أي وضعه على أساسه الماديّ الذي يشرحه هذا النّصّ. هنا ليس من قطع مع الديالكتيك بل عودة له متضمّناً الفهم الماديّ، أو الأساس الماديّ. هذا هو الجدل الماديّ.

**إشكالية الماديّة التاريخيّة**

قامت الماديّة التاريخيّة على تحقيق الفصل بين الجدل والفهم الماديّين، على نفي الجدل لمصلحة الماديّة التاريخيّة، التي باتت منظومة قوانين تحكم فهم التاريخ. هذا يعيد إلى الماديّة القديمة التي هي مثاليّة، بعدما كان ماركس وإنجلز قد رفعاها إلى أن تصبح علماً عبر الجدل الذي هو صيرورة الواقع، وبالتّالي نقلها من النّظر الشكليّ إلى فهم البنية، ومن سكونها إلى فهم حركتها، ومسارها. وبالتالي، يمكن أن نقول بأنّ هذا المنظور أعاد إنتاج الماديّة القديمة في شكل جديد عبر الاستعانة بمصطلحات ومقولات ماركسيّة، وأنّه أسقط كلّ الآليّات التي تسمح بفهم صيرورة الواقع. وسنلمس هنا كيف أنّ هذه الخطوة أفضت إلى تكريس المنطق الصّوَري، المنطق الذي بات يعني «التّحديد الشكليّ» للظّواهر، والسّابق لفاعليّة الجدل، حيث كان الجدل الماديّ يشكّل نقلةً نوعيّة في المنطق. وهنا، أسّس ماركس منطقاً جديداً، هو في جوهره علميّ، لأنّه ينطلق من الواقع، ويحلّل آليّاته «كما هي». فالجدل الماديّ هو الصيرورة الواقعيّة مجرَّدةً في الذهن في خطوطها العامّة.

بالتّالي، إذا كانت الماديّة التاريخيّة تشكّل انتكاسة نحو الماديّة القديمة، فقد شكّلت كذلك انتكاسة إلى المنطق القديم، أي المنطق الصّوَري. فالماديّة التاريخيّة التي عمّمتها «الماركسيّة السوفياتيّة» وراجت في أوروبّا هي «تنظير» بعض نصوص ماركس وقولبتها في قوانين

حول التاريخ، وكان نصّ ماركس في مقدّمة «إسهام في نقد الاقتصاد السياسيّ» هو جوهر هذه القوانين، التي باتت تحكم فهم التاريخ والسياسة. لقد تشكّلت منظومة مستمدّة من كتابات ماركس باتت تشكّل منهجيّة (أو طريقة) لفهم التاريخ والسياسة والواقع عموماً. وبهذا جرت تنحية الجدل الماديّ بمجمله وليس الجدل فقط، وتكريس منظومة يقاس الواقع بها، أو يُفهم الواقع (بمعنى التاريخ والسياسة) عبرها. هنا نعود لمنطق القياس الذي هو جزء جوهريّ في المنطق الصّوَري، وهو الجزء الذي لفظه هيغل في جدله، وبالتّالي لفظتْه الماركسيّة.

**ينتج آلاف الأطنان من الأبحاث التي لا قيمة علمية لها نتيجة أنها تتحدث عن تاريخ وعن واقع انطلاقا من نص لماركس لم يتأسس على فهم عميق للتاريخ نتيجة إيلاء ماركس الأهمية الأكبر لدراسة الرأسمالية.**

لقد جرى تلخيص بعض أفكار ماركس حول الاقتصاد والواقع والتاريخ لكي تصبح نظريّة، وتحدّدت فكرة ماركس حول الأساس الاقتصاديّ بعدد من المصطلحات التي جرى اعتبار أنّها «أسس منهجيّة»، من ثمّ الاقتصاد والطّبقات، والبنية التحتيّة والبنية الفوقيّة، ونمط الإنتاج، وأيضاً الدّولة والأيديولوجيّة الخاضعتين «ميكانيكيّاً» للبنية التحتيّة. لكنّ الأخطر هنا هو اتّخاذ فكرة ماركس حول أنماط الإنتاج التي عدّدها في: المشاعة، الرّقّ، الإقطاع، والرأسماليّة (وأحياناً نمط الإنتاج الآسيويّ) كحقيقة مطلقة، وتطبيقها على كلّ التاريخ العالميّ. ولا شك في أنّ ماركس حين أشار إلى هذه «الأنماط» كان «يحْدس» بناءً على معلومات متفرّقة، غير متسلسلة، وليست عميقة، عن كثير من مراحل التاريخ العالميّ، وحتى الأوروبيّ، لهذا لم يعتقد أنّه يقرّر مراحل ارتقاء التاريخ العالميّ، ولم يحسم سوى بما كتبه عن الرأسماليّة، بالضّبط لأنّه درسها بدقّة العالم.

السؤال الجوهريّ هنا يتمثّل في: هلَ «أسسُ» الماديّة التاريخيّة المشار إليها للتّوّ هي قوانين ومنهجيّة أم ترميزات ومصطلحات ومفهومات؟ والفارق هنا هو أنّ المنهجيّة والقوانين هي أسس تحليل الواقع بينما المصطلحات والترميزات هي عناصر مساعدة لمنهجيّة تحليل. ولا شكّ في أنّ كلّ هذه المصطلحات والمفهومات متداولة في الماركسيّة، وهي جزء منها، لكنّها ليست قوانين ولا منهجيّة، بل تحديدات لمسائل واقعيّة، ترميزات لمسائل واقعيّة، الهدف منها هو مساعدة الآليّات المنهجيّة على الاشتغال. وهي تُصنّف في إطار التحديد الصّوَريّ، التي هي الأواليّات التي يقوم عليها التحليل. هذا يوضّح التزام المنطق الصّوَري، الذي اعتبره هيغل الخطوة الأولى في التفكير، قبل الارتقاء إلى العقل، الذي كان يعني الجدل. بالتالي قلت إنّ الماديّة التاريخيّة تعيد إلى المنطق الصّوَري بعدما تجاوزه هيغل ثمّ ماركس. وهذا المنطق وفق «أسس» الماديّة التاريخيّة (رغم الاختلاف في تحديد هذه الأسس، وسيادة التشوّش فيه نتيجة سيطرة ميول مختلفة كما أوضحت في كتاب «التاريخ كصيرورة، أنماط الإنتاج في التاريخ العالمي») يمكن أن يساعد في تحديد طبيعة نمط الإنتاج، حيث يمكن تحديد طبيعة الاقتصاد ووسيلة الإنتاج وقوى الإنتاج، والطبقات، ومن ثَمّ طبيعة الدولة والأيديولوجيّة، أي يمكنه تحديد طبيعة النّمط كما هو، لكنّه لا يستطيع فهم كيف تشكّل، وآليّات تطوّره، وكيف جرى الانتقال إلى نمط آخر. لأنّه يعطي «صورة» عن نمط قائم انطلاقاً من تلك «الأسس»، وهذه إشكاليّة المنطق الصّوَري.

يظهر ذلك واضحاً عبر تلمّس كيفيّة التّعامل مع أنماط الإنتاج، إذ يقوم البحث على تفسير أفكار ماركس، ويجري الشغل على تأويلها، واستنتاج تصوّرات جديدة انطلاقاً منها. فكلّ ما أشار إليه ماركس صحيح، وهنا تحلّ نتائج ماركس (ضعيفة الأساس المعرفيّ) محلّ تحليل التاريخ، ويجري الغوص في تأويلات للتّاريخ بعيدة عن دراسة التاريخ. وهذا ما كان يُنتج آلاف الأطنان من الأبحاث التي لا قيمة علميّة لها نتيجة أنّها تتحدّث عن تاريخ وعن واقع انطلاقاً من نصّ لماركس لم يتأسّس على فهم عميق للتاريخ (بالطبع نتيجة إيلاء ماركس الأهمّيّة الأكبر لدراسة الرأسماليّة). وبهذا، بدل حتى «الأسس» التي يجب أن يقوم البحث في التاريخ عليها، باتت التحديدات لأنماط الإنتاج هي التي تحكم التاريخ، وهذا ما كان يُنتج أطناناً من الأبحاث «المجرَّدة»، وحتى المزوّرة. وكان الاعتماد على «خماسيّة» ماركس، وحتى على فكرة نمط الإنتاج الآسيويّ، يمنع تحديد الأسس التي تخصّ «التحديد الصّوَري» لنمط الإنتاج بشكل صحيح، ولهذا سادت عشوائيّةٌ في هذا المجال. ولا شكّ في أنّ هذا التّحديد كان سيوصل إلى نفي هذه الخماسيّة، وكذلك النّمط الآسيويّ، ويعيد البحث في التاريخ على أسس علميّة.

كان ذلك يقتضي تحديد ماهيّة الماركسيّة بشكل صحيح. فقد سمح تجاوز الديالكتيك كمنهج نقديّ وثوريّ الى اتّباع المنطق الصّوَري، وإلى التزام نصيّ ببعض أفكار ماركس «غير النّاضجة» حول أنماط الإنتاج، بتشكيل «صورة» عن التاريخ هي لا تاريخيّة، وكذلك الكسل عن البحث المعمّق في التاريخ، وأصلاً فهم المنظور الماركسيّ للتاريخ.

ربط ماركس بين فهمه الماديّ للواقع وللتاريخ وبين الديالكتيك، حيث اكتشف هيغل القوانين العامّة للحركة في الفكر، واعتبر ماركس أنّها انعكاس للقوانين العامّة للحركة في الواقع. وبهذا بات الجدل الماديّ هو منظور فهم الواقع والتاريخ، بالضّبط لأنّه القوانين العامّة التي تحكم الذّهن في بحثه في الواقع والتاريخ. فكلّ شيء ينحكم للجدل، والصيرورة هي الواقع في حركته الجدليّة. والواقع متعدّد المستويات، كما أنّ التاريخ متعدّد أنماط الإنتاج، وللبحث في الواقع والتاريخ هناك «ترميزات»، أو مصطلحات تحدّد عناصر الواقع لا بدّ منها لفهم الصيرورة. ولا شكّ في أنّ كلّ المصطلحات التي أشرت إليها من قبل أساسيّة كترميزات أثناء البحث في الواقع، لكنّها ترميزات يجب أن تخضع لمنطق الجدل الماديّ. فالواقع يبدأ في الاقتصاد حسب ماركس والماركسيّة، رغم الخلط الذي شاب ذلك وفرض الانحراف الاقتصادوي في الماركسيّة، وهو ما حاول إنجلز مواجهته منذ البدء حين أشار إلى أنّ الاقتصاد هو العنصر المحدِّد «في التحليل الأخير»، أي دون أن يبخس العناصر الأخرى فاعليّتها. وعلى أساس الاقتصاد تتشكّل الطّبقات وتصارعها، وعليهما معاً تقوم الدّولة وتتشكّل الأفكار.

هذا تحديد «ستاتيكيّ»، يشير إلى الفهم الماديّ، لكنّ الواقع «في حركة دائمة»، ممّا يفرض فهمه انطلاقاً من صيرورته الجدليّة. وهنا يتحوّل الستاتيك إلى فاعليّة، إلى حركة. وسنلمس في كلّ هذه العمليّة فاعليّة الجدل، إذ إنّ مسار الاقتصاد يفترض صيرورة جدليّة (وهذا ما أربك إلتوسير حينما اكتشف، اعتماداً على موريس غودلييه، أنّ الجدل يخترق «رأس المال»)، وصراع الطبقات يخترقه التناقض الجدليّ، وأيضاً الأفكار (والأيديولوجيّة)، ومن ثمّ الدّولة التي هي نفي النفي لمصلحة الطبقة المسيطرة. في كلّ هذه المستويات يسري الجدل، حيث إنّها تتضمّن تناقضها الخاصّ. لكنْ لا بدّ من أن نلمس كذلك أنّ التّناقض يحكم العلاقة بين المستويات ذاتها، حيث إنّ تناقض مستوى ينعكس على تناقض المستوى الآخر.

المسألة هنا لا تتعلّق بالاقتصاد فقط، رغم أهميّته وأساسيّته، بل بكلّيّة البنية المجتمعيّة التي تتطوّر في صيرورة تناقضيّة، وتنحكم للجدل. والجدل الماديّ هو المنهجيّة التي تسمح لنا بفهم هذه الصّيرورة، كما حدثت في الماضي، وكما هي الآن، وبالتالي فهم ما يجب فعله من أجل المستقبل.

لا بدّ من استعادة هيغل في ماركس والماركسيّة، ولا بدّ من فهم التركيب الذي قام به كلّ من ماركس وإنجلز بين الجدل الهيغليّ الذي هو خلاصة تطوّر الفكر الفلسفيّ، وبين الماديّة التي نضجت مع فورباخ، لتشكيل منهجيّة «طريقة» جديدة تتجاوز منطق أرسطو (المنطق الصّوَري) وتصبح هي المنهج العلميّ الوحيد حسب ما أشار موريس كونفورث (الفلسفة المفتوحة والمجتمع المفتوح، ص٥٧). وقد شرّح ماركس وإنجلز ذلك بكلّ دقّة كما أظنّ. بالتّالي في الماركسيّة هناك الجدل الماديّ الذي هو منهجيّة التفكير في الواقع، والذي يقوم على الفهم الماديّ للتاريخ. الجدل الماديّ هو جوهر (ومركز) الماركسيّة، هو الإضافة الجوهريّة التي تبلورت مع ماركس وإنجلز، وحقّقتْ نقلة نوعيّة في الوعي البشريّ بعد منطق أرسطو (المنطق الصّوَري). الأمر هنا يتعلّق بطريقة تفكير جديدة، هي أعظم ما جاء به ماركس وإنجلز معتمدَين على هيغل، وليس بوضع «سيستم» للتطوّر البشريّ يصبح هو القانون الحاكم لهذا التطوّر. هذا الأمر الأخير هو الماديّة التاريخيّة، التي ليست سوى انحراف نقوصيّ.

---

المراجع


**إسهام في نقد الاقتصاد السياسي**، كارل ماركس، ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٧٠

**بيان الحزب الشيوعيّ**، كارل ماركس وفريدريك إنجلز، دار التقدم موسكو، د.ت.

**عن الأزمة، الخروج من أزمة الرأسماليّة أو الخروج من الرأسماليّة المأزومة**، سمير أمين ترجمة إنعام ابراهيم شرف، روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠١٤

**نزع مادّيّة كارل ماركس، الأدب والنظريّة الماركسيّة**، ليونارد جاكسون، ترجمة ثائر ديب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤

**بعد ماركس**، يورغن هابرماس، ترجمة محمّد ميلاد، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقيّة - سوريا، ط١، ٢٠٠٢

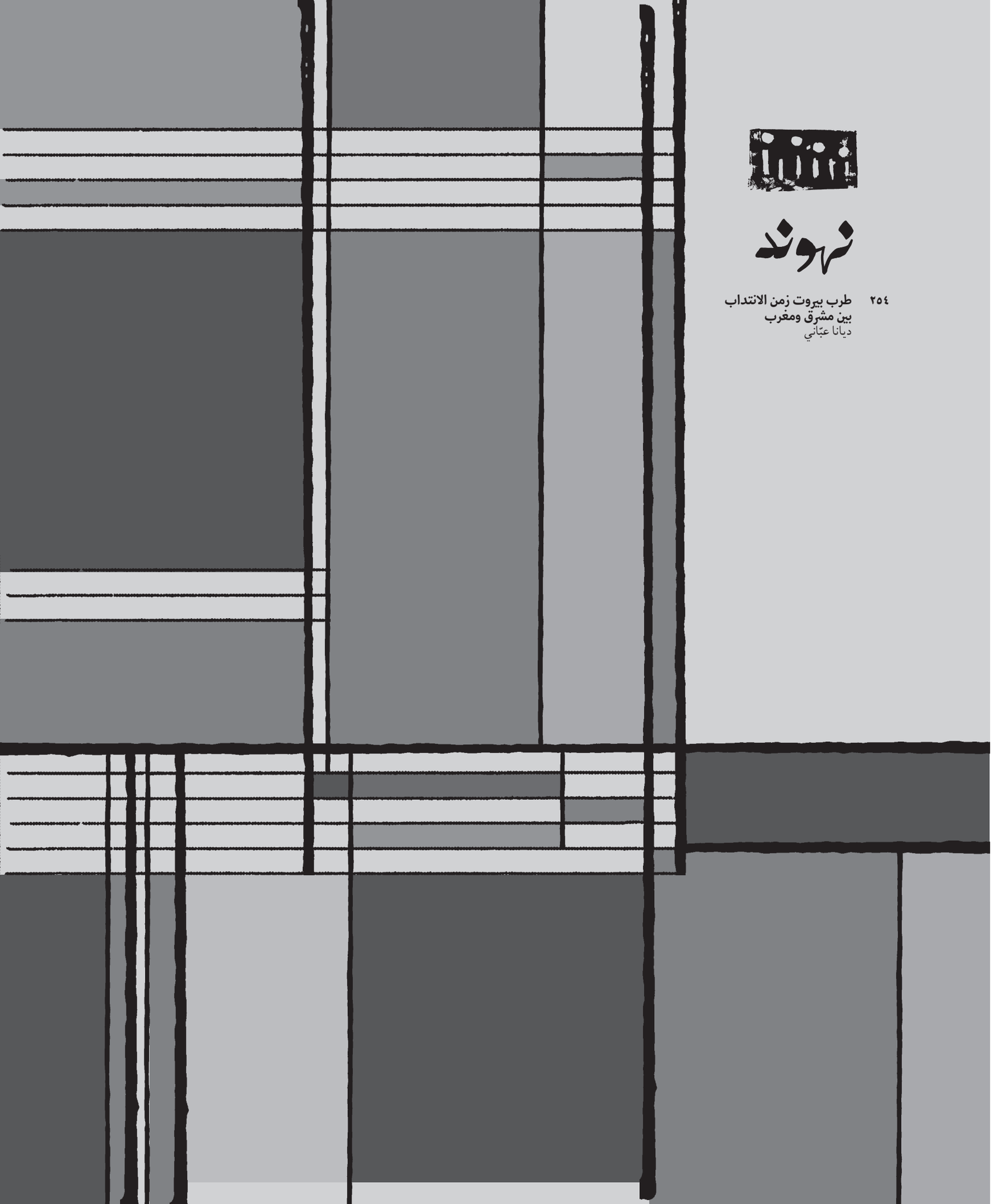
**رسائل حول المادّيّة التاريخيّة**، فريدريك إنجلز، دار التقدّم موسكو

**رأس المال**، كارل ماركس، ترجمة فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، ط١، ١٩٨٥

**التاريخ كصيرورة، أنماط الإنتاج في التاريخ العالمي (نقد النظريّة الماركسيّة حول أنماط الإنتاج)**، سلامة كيلة، دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠١٠

**العقلانيّة واللا عقلانيّة في الاقتصاد**، موريس غودلييه، ترجمة عصام الخفاجي، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٥

**الفلسفة المفتوحة والمجتمع المفتوح، ردّ على نقد كارل بوبر للماركسيّة**، موريس كونفورث، ترجمة فاروق عبد القادر، دار الأدب والثقافة، بيروت، ط١، ١٩٧١



# نهوند

٢٥٤ **طرب بيروت زمن الانتداب بين مشرق ومغرب**
ديانا عبّاني

# طرب بيروت زمن الانتداب
## بين مشرق ومغرب

**ديانا عبّاني**

**باحثة في تاريخ الحياة الثقافية في بيروت خلال عصر النهضة، تنهي حالياً رسالة الدكتوراة في التاريخ والحضارة في جامعة السوربون.**

«على نغمات الأوتار»[1] عنوان لرواية صغيرة للصحافيّ أسعد عقل نشرت ضمن عدد من الروايات التي كانت تنشرها الجريدة البيروتيّة «المعرض» في عشرينيّات القرن العشرين. ليس عنوان هذه الرواية الذي قد يجذبنا فقط، إنّما وصفها لبيروت والمنطقة خلال الثورة السوريّة الكبرى ضدّ الاستعمار الفرنسيّ الذي يخال القارئ أنّه كُتب في بيروت اليوم:

«الحرب قاعدة في جارتنا سورية أمّا لبنان فهادئ ولولا الأزمة الاقتصاديّة الخانقة لما ميّز بين الحياة في باريس وبيروت. ويتجلّى السلام بأحلى مظاهره في العاصمة اللبنانيّة بأعيادها وحفلاتها الشتائيّة، ليليّة كانت أم نهاريّة، وإن كانت قد خسرت الكثير من رونقها بسبب شعور الناس وآلام جيرانهم ونكبات سكّان الحدود. ومن أبهى الحفلات الأسبوعيّة التي يحييها الموسيقيّون الروس ظهر كلّ أحد في نادي (الكاريون). وفي الحقيقة إن هؤلاء الفنّانين الذين قذفتهم العاصمة البولشفيّة إلى ديارنا قد خلقوا عندنا نهضة خصوصاً في ذوق قومنا»[2].

فهذه بيروت كما هي اليوم بتناقضاتها ومشاكلها، باختلاط تقاليدها بعصريّتها، بانفتاحها واجتذابها لمختلف اللاجئين. منذ نهاية القرن التاسع عشر، عرفتْ بيروت تغييرات سياسيّة، واجتماعيّة وفكريّة، حوّلتها لمدينة منفتحة ومتمدّنة والميناء الأهّم في بلاد الشّام. لم تكن الموسيقى بمنأى عن هذه التغييرات، إذ شهدت في بيروت والمنطقة تحوّلات عدّة على صعد أماكن وأساليب الغناء والذوق الموسيقيّ، نتيجة رغبات متعدّدة محلّية لمواكبة تغيّرات العصر واللحاق بالتمدّن الاجتماعيّ والثقافيّ. تستعرض هذه المقالة أبرز التغييرات التي شهدتها البلاد على الصعيد الموسيقيّ خلال فترة الانتداب الفرنسيّ (١٩٢٠ - ١٩٤٣) بعد موجز سريع للحياة الموسيقيّة حتى بداية الحرب العالميّة الأولى.

### المشهد الموسيقيّ المشرقيّ في العهد العثماني

كانت بيروت تقع بين قطبين موسيقيّين أساسيّين خلال القرن التاسع عشر، هما القاهرة وحلب اللتان أثّرتا على باقي مدن المنطقة. فاتّسمت مدن بلاد الشّام بالميراث الموسيقيّ التقليديّ ذاته المتأثّر بالموسيقى التركيّة والمصريّة والفارسيّة. فعرفت الموشّحات والقدود والأغاني الشعبيّة (المواليا، الزجل)، ومن ثمّ القصيدة والدور المصريّ، وكافة القوالب الشرقيّة (الدولاب، التحميلة، السماعي والبشرف). كما عرفت بلاد الشّام ما يسمّى التنزيلات، وهي منظومات على أسلوب الموشّحات، من تلحين الناظم نفسه، أو على ألحان الأغاني التي كانت شائعة في تلك الفترة. وكثرت تلك العادة للاستفادة من رواج تلك الأغاني وبالتالي سهولة حفظها[3]. ولم تعرف بلاد الشّام نظام التخوت التي كانت بمثابة مدارس يتعلّم فيها المنشدون أسرار الفنّ وقواعده، إنّما من المرجّح أنّ التخوت المصريّة والمدارس الصوفيّة الحلبيّة قد أثّرت على كافة المدن المشرقيّة لناحية التقاليد والتنظيم.

ظهرت في تلك الفترة أولى المحاولات الموسيقيّة التنظيريّة، خصوصاً مع الاحتكاك المتزايد بالغرب، بحثاً عن هويّة موسيقيّة وثقافيّة. كتب ميخائيل مشّاقة (١٨٠٠ - ١٨٨٨) «الرسالة الشهابيّة في الصناعة الموسيقيّة» (١٨٥٠)، وفيها أوّل تصنيف وتوصيف شامل للمقامات العربيّة، للنّظام اللحني، وللآلات الموسيقيّة المعتمدة في التقليد الموسيقي الفنّي الخاصّ بالمشرق العربيّ. ووضع نظريّة موسيقيّة تنقد تقسيم الدّرجة الموسيقيّة إلى أرباع الدّرجات المتساوية. أمّا مقالة أحمد فارس الشدياق عن الموسيقى فتجسّد بداية الوعي عند متنوّري العصر للحاجة إلى وضع تعريفٍ للموسيقى الشرقيّة يثبت تميّزها عن الموسيقى الغربيّة، وتحديداً تحضّرها وذلك من خلال

التّشديد على أهمّيّة اختلاف أذواق الشعوب[٤]. فقد حاول الشرقيّون منذ أواخر القرن التاسع عشر وضع تعاريف موسيقيّة رغبةً منهم بتقليد أوروبا كنموذج أعلى لحضارة متقدّمة ثقافيّاً، مع إصرارهم على الدفاع عن هذه الموسيقى الشرقيّة والاعتراف بجماليّتها الخاصّة بها. بالنّسبة إلى الشدياق، تتميّز الموسيقى الغربيّة بالتّدوين والهارمونيا، في حين ترتكز الموسيقية الشرقيّة على التنوّع المقاميّ والإيقاعيّ، أمّا الاختلاف الأساسيّ بينهما فهو التأثير الموسيقيّ في الجمهور. يشدّد الشّدياق على أنّ الموسيقى الأوروبيّة تعبّر عن الصّوَر والمفاهيم، في حين أنّ الشرقيّة متخصّصة في إثارة العواطف. صحيح أنّ توصيفاته ذاتيّة وغير علميّة، إلّا أنّها تظهر الاهتمام المتزايد بالموسيقى لدى مفكّري النّهضة العربيّة وأدبائها، وتعبّر عن مدى أهمّيّة العاطفة كأساس يميّز الهويّة المشرقيّة بالنّسبة إليه وإلى كثير من منظّري تلك الفترة حيث تعتبر من أهمّ ركائز المجتمع الشرقيّ وموسيقاه.

من جهة أخرى، لم تكن نظرة المجتمع البيروتيّ وسائر مدن بلاد الشام منفتحة على فنّ الغناء والموسيقى، فمنعت الضغوطات الاجتماعيّة دخول النّساء عالم الغناء والتمثيل (حضوراً ومشاركةً)، واقتصرت مشاركتهّن على الحفلات الشعبيّة من خلال الزلاغيط. بقيت النّظرة الدونيّة للمغنّيات في المقاهي هي الطاغية، ومن المرجّح أنّ أولى المغنّيات الشاميّات كنّ يهوديّات، إذ توجّهت العديد من يهوديّات ومسيحيّات بلاد الشام إلى مصر حيث الظروف الاجتماعيّة والفنّيّة متقبّلة أثر للوجود النسائيّ، خصوصاً أنّ الموسيقى كانت تعتبر مهنة كسائر مهَن الصناعات اليدويّة، لكنْ إلى حدٍّ ما متدنيّة المستوى الاجتماعيّ، على الرغم من أنّ بعض المطربات استطعن اختراق بعض الحواجز، كالمغنّية البيروتيّة ليلى، التي اشتهرت في نهاية القرن التاسع عشر. اذ استحقّت هذه «المطربة المتفنّنة» التّقدير وذكر اسمها في الجرائد المحليّة، من خلال إحيائها مع جوقتها العديد من الحفلات في المقاهي وفي أعراس العائلات الغنيّة (كعائلة فرعون)[٥]، كما شاركت في مسرحيّات أبي خليل القبّاني.

## المسارح والملاهي

ظهرت في بيروت خلال تلك الفترة مقاهي وملاهي الخلاعة أو المقاصف[٦]، عُرفت «كمراسح للخلاعة والبطر والفساد»[٧]، منها قهوة لَوكا أو المرصد التي اشتهرت ببراعة بناتها الأوروبيّات اللاتي تسمّين «بنات القهوة» أو «بنات الموسيقى» لأنّهن كنّ يلعبن الموسيقى. أمّا المسؤولة عنهّن فكانت تسمّى «كومبانيّة». كان القانون يمنع مجالسة «بنات الموسيقى» للرّجال، وغالباً ما كانت تلك الملاهي ممنوعة على المسلمين[٨].

أمّا بالنّسبة إلى المسرح، فلم تكن بلاد الشّام قد اكتشفت فعلاً الفنّ المسرحيّ حتى منتصف القرن، واقتصرت وسائل التسلية على نوعين أساسين من الفنون الشعبية في المقاهي والساحات: الحكواتي وعروض كركوز وعواظ وخيال الظّلّ، الذين شكّلوا بذور المسرح فيما بعد. ومع انتصاف القرن وتزايد التأثير الأوروبيّ، ظهرت ملامح المسرح، فعرفت بيروت مسرحيّات مارون النقّاش (أرزة لبنان) الذي ترجم أولى النصوص المسرحيّة الغربيّة وعرضَها في دارته (١٨٤٨). كانت المسرحيّات تُمثَّل في منازل أعيان ووجهاء الطبقات الميسورة والغنيّة وفي الصالونات الأدبيّة. وعرفت المدارس، خصوصاً الإرساليّات منها، نشاطاً مسرحيّاً مهمّاً، ممّا دفع عدداً منها إلى افتتاح مسارحها الخاصّة والتي ما لبثْ أن استعملتها فرق خاصّة. مع الوقت، انتقلت المسرحيّات من صحون الدُّور وإيواناتها إلى المقاهي، ومن ثمّة الى المسارح التي بُنيت وانتشرت في بداية القرن العشرين على نمط المسرح الغربيّ (كمسرح زهرة سورية أو الكريستال) حيث تقام المسرحيّات وتُعرض مختلف أنواع الموسيقى والرقص. وكانت تسمّى مرسح في البداية أو صالة، ومن ثمّة انتشر اسم تياترو أو كازينو.

## الموسيقى والغناء

ذكرت بعض الجرائد البيروتيّة أسماء موسيقيّين من بيروت ظهروا على مسارح المدينة في بداية القرن، منهم الموسيقيّ والعوّاد شكري السودا والمطرب فيليب الشوشاني. وكان السودا من أشهر موسيقيّي بيروت، فقد أحيا العديد من الحفلات والمسرحيّات، وتوفّي حوالي عام ١٩٢٠. وكثيراً ما ذُكر اسمه في الصحافة كموسيقي مجلٍّ يحاضر عن الموسيقى، ومَنشئها وتنظيم نظريّاتها الموسيقيّة ونطاق نظام التّدوين. مثال على ذلك المحاضرة التي ألقاها عن الموسيقى العربيّة، بمشاركة عدد من الموسيقيّين، منهم «المنشد الفنّي والبلبل العربيّ بولس أفندي صلبان»، و«أمهر المغنّين في البغدادي والمعنّى والقرّادي والعتابة». أثنت جريدة «لسان الحال» على هذه الحفلة النّادرة التي جمعت «اللذة والإحسان»[٩]، لكنّها انتقدتْ بعد يومين صاحب الدّعوة الذي لم يكتف بالبطاقات التي وُزِّعت، بل استمر بالبيع «على الباب»، فكان الحضور كثيفاً نظراً

لشهرة الاثنين، ممّا أعاق الاستمتاع بالحفلة. وعلى الرغم من هذه الملاحظة، كانت الحفلة مشوّقة، إذ إنّ السودا كان يعطي أمثلة عن كلّ تفسيراته للموسيقى «المعروفة قديماً وحديثاً»[١٠]. كما شارك السودا في وضع ألحان مسرحيّة «عروس ليالي الطّرَب» لشبلي ملّاط والتي عُرضت سنة ١٩٠٣ على المرسح البيروتي «زهرة سورية»، تمثيل وغناء «المطربين الأصوليّين المشهورين الحاج عبد الرحيم أفندي الصفح وحليم أفندي النّحّاس» والممثّلة رحلو. وشارك في الحفل بعد عدة أيّام فيليب أفندي الشوشاني[١١] والجوق المصري[١٢]. ومن الطريف أنّ إعلان المسرحيّة يعطي بعض المعلومات عن المشاكل التي كانت تواجهها المسرحيّات في تلك الفترة كالملل والضجر والحَرّ، وبَعِد من يحضر بعدم النّدم، «فلا يمكن لزيد مثلاً أن يقول (بَلَصُونا) ولا لعمرو أن يتأفّف ولا لخالد أن يشكو ويتبرّم»[١٣].

**مع بزوغ القرن العشرين، أضحت بيروت مركزاً ثقافياً ومدينة كوزموبوليتية منفتحة أكثر فأكثر على الغرب. وتكونت تدريجياً طبقة وسطى مدنية و«عصرية» مؤلفة من مثقفين ومتعلمين، تجار وموظفين.**

كذلك اشتهر في بيروت الموسيقي والمغنّي بولس صلبان «بلبل سورية» مع عازف العود المرافق له سليم عوض. كان فنّاناً ذا طباع خاصّة، يرفض الغناء في الحفلات الخاصّة بالأغنياء. يُتّهم بأنّه «لئيم، مغنّج وأعْوَج»، يأتي دائماً متأخّراً على الحفلات. من أخباره الطّريفة أنّه في سنة ١٩٠١ كان مدعوّاً إلى حفل زفاف ابن جلال باشا، فطُلب منه الغناء، إلّا أنّه أنشد دوراً واحداً، ثمّ توقّف. وعلى الرّغم من إصرار المدعوين ورجاء صاحب الدّعوة، رفض الغناء وغادر الحفلة، متّهماً الحاضرين بأنّهم غير مهتمّين أبداً بالموسيقى ولا يستذوقونها، لا يهمّهم إلّا المظهر، والمأكل والمشرب. وتوجّه إلى منزل صديقه حبيب سعادة المجاور للقصر ليحتفل بعرس ابن جلال باشا في منزله، «فليس لجدران بيت الباشا آذانٌ تسمع رنّات العود والأناشيد»[١٤]. كان بولس الصلبان يرفض نظرة المجتمع إلى الموسيقيّين ووضْعهم الذي فرَض عليهم أن يُنشدوا بالأعراس والمآتم والحفلات. فيلوم المجتمع والفنّانين أنفسهم على هذا الوضع الاجتماعيّ الصعب والوضيع.

### تحوّلات الحياة الموسيقيّة في ظلّ الانتداب

مع بزوغ القرن العشرين، أضحت بيروت مركزاً ثقافيّاً ومدينة كوزموبوليتيّة منفتحة أكثر فأكثر على الغرب[١٥]. وتكوّنت تدريجيّاً طبقة وسطى مدنيّة و«عصريّة» مؤلّفة من مثقّفين ومتعلّمين، تجّار وموظّفين، تبلورت لاحقاً في عهد الانتداب الفرنسيّ وأصبحت ذات تأثير واضح في الحياة اليوميّة البيروتيّة. تكوّنت هذه الطّبقة من رجال ونساء متعلّمين يتشاركون مستوىً اقتصاديّاً وثقافيّاً مماثلاً ونمطَ حياة مرتبطاً بالتسلية والترفيه[١٦]، فاجتمعتْ هذه الطبقة في أماكن اللهو والصالونات الأدبيّة، في المسارح والمقاهي، حيث كانت تتشارك الأحاديث والأفكار والقراءات والاستماع للموسيقى. واعتمدت هذه الطبقة حياة كوزموبوليتيّة جمعت ما بين الثّقافة المتمدّنة والممارسات التقليديّة.

مع ظهور هذه الطبقة الجديدة وزيادة النفوذ الأوروبيّ، شهدت بيروت افتتاح حانات ومطاعم ومسارح ومقاهي غناء جديدة، استقدمت العوالم والفرق المصريّة والراقصات العربيّة والأجنبيّة، سُمعت من خلالها الموسيقى والمحادثات والضّحك. كذلك عرفت بيروت باكراً احتكاكاً مباشراً مع الموسيقى الأوروبيّة من خلال وجود موسيقيّين وعازفين أوروبيّين أحيوا حفلات خاصّة وأعطوا دروساً خصوصيّة في المدينة منذ أوائل القرن العشرين، تحديداً في مدرسة الأحد التّابعة للكلّيّة السوريّة الإنجيليّة (الجامعة الاميركيّة لاحقاً). وأصبح تعلّم الموسيقى علامة الحداثة، فاشترت العديد من العائلات البيروتيّة الميسورة آلة البيانو نموذجاً لرقيّها وتمدّنها، وأصبح تعلّم هذه الآلة محبّذاً، خصوصاً للبنات[١٧].

شكّل مجيء الفرنسيّين بعد الحرب العالميّة الأولى نقطة مفصّلية، إذ شهدت العشرينيّات والثلاثينيّات تغييراً جذريّاً لأنماط التّسالي تزامَنَ مع كافّة التغييرات الاجتماعيّة والسياسيّة التي شهدتْها البلاد، وذلك «نتيجة الاختلاط بالأجانب والسّعي إلى تقليدهم»[١٨]. تطوّر نوعٌ جديد من الحانات متغرّب يُعرف باسم بار أو كازينو أو دانسينغ، «أرتيستاته» أوروبيّات يُسمح لهنّ بمراقصة الرجال ومجالستهنّ، على شرط تقديم الشراب لهنّ[١٩]. فتغيّر تدريجيّاً الذّوق البيروتيّ الذي أضحى يستهويه كلّ ما هو غربيّ. وأصبحت أهمّ وسائل التسلية التي يُقبل عليها البيروتيّون والشاميّون هي السينما والحانات الراقصة وسباق الخيل.

وقد آثّر انتشار وسائل الترفيه المستوردة من أوروبّا، مثل قاعة الموسيقى والمسرح والسينما، على المشهد الموسيقيّ خلال فترة الانتداب، خصوصاً على الجماليّة والإنتاج الموسيقيّ، التي حلّت مكان الملاهي - المقاصف القديمة وأماكن الترفيه السابقة في الحدائق الخاصّة أو الشوارع، فشهدت بيروت التحوّل التدريجيّ من المقهى القديم إلى المقاهي الراقصة والحفلات الموسيقيّة المتأثّرة بالنّموذج الباريسيّ، بينما كان صاحب المقهى القديم يدفع مباشرة للمغنّي، أضحى ذلك الأخير في المسارح الحديثة اكثر استقلالاً، معتمداً على حفلاته الخاصّة في تلك الأماكن الاستهلاكيّة الجديدة، إذ يدفع الجمهور بدلاً لشراء بطاقات الدّخول. لذلك، لم يعد الاستماع إلى الموسيقى مخصّصاً للاحتفالات الرسميّة أو الخاصّة، إنّما أضحى مرتبطاً بنشاط اقتصاديّ.

باشرتْ بعض المسارح بتقديم مسرحيّات وحفلات موسيقيّة لجمهور متنوّع من أوروبيّين وبيروتيّين، وعُرضت أفلام أجنبيّة متحرّكة، لتصبح دور السينما من أكثر الأماكن عصريّة خلال الانتداب[٢٠]. امتلأت المدينة القديمة بعروض متنوّعة من مسرح وبهلوانات وسحَرة وفنّاني إيماء، فضلاً عن موسيقيّين ومغنّين بعضهم من المدن المجاورة، إنّما أغلبهم وأهمّهم من مصر وأوروبّا (كمنيرة المهديّة وفرقة كشكش بك). وقد حضر بيروت العديدُ من العازفين الروس هرباً من الثّورة البولشيفيّة خلال العشرينيّات تركوا بصمتهم على الموسيقى في بيروت، مثل عازف البيانو اليهوديّ أركادي كوغيل (**١٨٩٨ - ١٩٨٥**) الذي أسّس معهداً للموسيقى (**١٩٢٩ - ١٩٤٩**) في الجامعة الأميركيّة في بيروت، والتحق به اثنان من أبرز موسيقيي لبنان لاحقاً، زكي ناصيف (**١٩١٦ - ٢٠٠٤**) وتوفيق الباشا (**١٩٢٤ - ٢٠٠٥**).

امتلأت شوارع بيروت بصياح فتيان في الشوارع معلنين وصول هؤلاء الفنّانين الأجانب. أصبحت بيروت مدينة صاخبة أكثر فأكثر، خصوصاً خلال الليل حيث الحانات والمسارح تمتلئ بالحشود التي تحاكي المدينة. أسهم افتتاح أماكن الترفيه على الطراز الأوروبيّ، ولا سيّما مسرح التياترو الكبير (**١٩٢٧**)، في تحويل بيروت إلى مدينة حديثة. وكان افتتاح المسرح الكبير حدثاً مهمّاً في تاريخ الحياة الثقافيّة، حيث شكّل جزءاً من عمليّة إعادة البناء والتجديد الرسميّة في وسط بيروت، وهي عمليّة أجرتها السلطات الفرنسيّة بهدف جعل بيروت مدينة حديثة تتماشى مع مشروعهم الاستعماريّ. سريعاً أصبح هذا المسرح من الرموز الرئيسة للحياة الثقافيّة الحديثة، تحديداً منطقة وسط المدينة التي تحوّلت خلال الليل إلى منطقة ترفيهيّة حيث تتعايش التقاليد الترفيهيّة المحليّة مع الموسيقى والعروض الأوروبيّة. لعبت هذه الأماكن الجديدة دوراً أساسيّاً في تغيير الذّوق المحليّ حيث عرضت أنواع موسيقيّة جديدة متأثّرة بالموسيقى الترفيهيّة الأوروبيّة لتلائم أذواق طبقة اجتماعيّة جديدة تبحث عن موسيقى «معاصرة» تستهويها وتناسب نمط حياتها الجديد. في الوقت نفسه، استمرّت التقاليد الشعبيّة إلى جانب أشكال التعبير الثقافيّ الجديدة.

دفع ذلك الصّحافي أسعد عقل المفاجأ بسرعة التغيّرات والمتحسّر على بيروت إلى القول:

«لقد نُحِرت الموسيقى الشرقيّة ورُمِس الغناء العربيّ واندثر المرسح الوطنيّ وقامت على أنقاضها دولة الموسيقى الأوروبيّة والأغاني الإفرنجيّة، والألحان المختلطة، ألم تبصرهم يرقصون رقصة العبيد؟ سِرْ في الأسواق واقطعْ الشوارع هل ترى على الجدرانَ غير إعلانات الملاهي والمسارح وقصص الأشباح المتحرّكة؟ [...] هذا تقدّم بيروت «الغربيّة» وهذا رقيّها وعمرانها، هي تكره الجمود وتسير دائماً، ولكن خطوة إلى الأمام... وعشرين إلى الوراء»[٢١].

بدأ الاهتمام المتزايد بالآلات الغربيّة والأنواع الموسيقيّة الغربيّة. وانتشرت الأناشيد والمونولوجات (الاجتماعيّة الانتقاديّة والرومنسيّة) مع عمَر الزعنّي ويحيى اللبابيدي والأغاني ذات الإيقاعات الغربيّة (كالتانغو، الرومبا، السامبا، والفالس). وتطوّرت الموسيقى التغريبيّة مع افتتاح أولى المدارس والمعاهد الموسيقيّة التي تتّبع المناهج الغربيّة (كمدرسة وديع صبرا). كان الاهتمام في تعلّم الموسيقى الغربيّة وتذوّقها، وخصوصاً الكلاسيكيّة منها، أكثر شيوعاً بين الطبقة المتوسطة - الغنيّة والنخبة المثقّفة في المدن السوريّة. وعرفت البلاد أفكاراً جديدة في الموسيقى، وبداية التدوين الموسيقيّ التغريبيّ وما تلاه من نقاشات حول كيفيّة التدوين والتدريب الموسيقيّ وآلياتهما. في هذا الجوّ، ظهرت محاولات متعدّدة لتأسيس معاهد وأندية موسيقيّة نواتُها طبقة من البرجوازيّين (كالنادي الموسيقيّ لألكسي اللاذقان، **١٩٠٧ - ١٩٧٣**)[٢٢]، لحماية حقوق الموسيقيّين والترويج لموسيقى شرقيّة و/أو عربيّة حديثة، إنّما مع التركيز غالباً على الأنواع والآلات الموسيقيّة الغربيّة. فلاقت صعوبة بالاستمرار، حيث غاب التمويل الرسميّ وغابت معه الاستمراريّة.

# نهوند




أم كلثوم

**عصر شركات التسجيل**

ساهم وصول أولى شركات التسجيلات مطلع القرن العشرين بالتأثير في المشهد الموسيقيّ، إذ دخلت بيروت وبلاد الشّام والمنطقة كلّها عصراً جديداً، فخلقت جمهوراً أوسع من خلال نشر الأسطوانات والإعلانات، كما عزّزت إلى حدّ كبير من شعبيّة بعض المطربين، فاشتهر بعض مغنّي وموسيقيّي بلاد الشام في جميع الأقطار العربيّة، ممّا غيّر في وضع ومكانة المغنّي والموسيقيّ.

**ساهم الفونوغراف وصناعة الأسطوانات في تغيير وضع الموسيقيين والذوق الموسيقي العام. كما لعب دورا في تأكيد هوية الطبقة الوسطى الناشئة الجديدة. وازدادت شعبية فنانين مختلفين. وارتفعت مكانتهم الاقتصادية والاجتماعية.**

ظهرت أوّل شركة تسجيل عربيّة «بيضافون» في بيروت بعد الاتفاق مع شركة تسجيل ألمانيّة في برلين حوالي سنة ١٩٠٧، على يد عائلة بيضا البيروتيّة[٢٣]، وذلك للتسجيل لفرج الله بيضا[٢٤] مغنّي العائلة مع عازف العود قاسم الدرزي، الذي سجّل العديد من المواويل البغداديّة، إذ كان الموّال البغداديّ رائجاً في بداية القرن في بلاد الشام، وتحديداً في بيروت. لكنّ الأفق المشرقيّ محدود، وسرعان ما انتشرت أعمال الشركة وتوسّعت. ساعدت تلك الشركة على انتشار وشهرة أبرز موسيقيّي المشرق ومطربيه، منهم أحمد أفندي المير (توفّي في الخمسينيّات)، والدمشقيّ محمّد العاشق (١٨٨٥ - ١٩٢٥) الذي لُقّب ببلبل الزّمان، وجميل الإدلبي (١٨٧٩ - ١٩١٩)[٢٥]، والشيخ أحمد الشيخ (١٨٦٨ - ١٩٣٨)[٢٦]، ولاحقاً يوسف تاج[٢٧]. كما سجّل العديد من رجال الكنيسة كالمرتّل متري المرّ (١٨٨١ - ١٩٦٩) والأبَوان الأنطونيّان يوسف العرموني وبولس الأشقر أصواتهم.

غير أنّ أشهر مطرب عرفتْه بيروت في الربع الأوّل من القرن العشرين هو من دون شكّ محيي الدّين بعيون (١٨٦٨ - ١٩٣١/١٩٣٤؟)، المغنّي وعازف البزق البيروتيّ «فارع القامة، الأسمراني»، تلميذ القانونجي أحمد البدويّ، ذو الأصل المصريّ من سكّان طرابلس الشام[٢٨]. مثّل بعيون في العشرينيّات المدرسةَ الموسيقيّة المدينيّة السوريّة - اللبنانيّة والتي كانت تعتمد تحديداً على غناء القصائد، فلقّب بسلطان البزق، وأمير القصائد، والمتفنّن بالغناء البغدادي. عرف شهرة واسعة وأحيا عدّة حفلات في القاهرة، وذُكر أنّه يوم وفاته أقاموا له حفلة تأبينيّة موسيقيّة كبيرة في دمشق اشترك فيها أكثر من مئة موسيقيّ كان من بينهم أمير الكمان سامي الشوّا.

من جهة أخرى، شكّل دخول التسجيلات عالم الشرق مرحلة مفصليّة: فقبل عصر الفونوغراف، كانت الحفلات الموسيقيّة للمطربين المحترفين حكراً على النخبة وللمناسبات الخاصة فقط. مع ازدياد صناعة التسجيلات وانتشار الفونوغراف، امتدّت هذه الموسيقى تدريجيّاً إلى سائر طبقات المجتمع لتشكّل ثقافة جماعيّة لم تعد محصورة في الطبقة الغنيّة، وهي عمليّة مماثلة لما حدث في مصر[٢٩]. أصبحت الأسطوانات أقلّ تكلفة خلال العشرينيّات، ومع سهولة الحصول عليها أضحت متوافرة لجمهور أوسع بكثير. ساهم الفونوغراف وصناعة الأسطوانات في تغيير وضع الموسيقيّين والذّوق الموسيقيّ العام. كما لعب دوراً في تأكيد هويّة الطبقة الوسطى الناشئة الجديدة. لم يعد مهنيّو الموسيقى يعتمدون على الرعاية الموسيقيّة واتّبعوا شركات التسجيل. وازدادت شعبيّة فنّانين مختلفين، وارتفعت مكانتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

كذلك ساهم انتشار الفونوغراف في المنازل الخاصّة أيضاً في تحويل الحدود بين الجنسين: انضمت المزيد من النّساء إلى المشهد الموسيقيّ ودخلت أصوات النساء إلى بيوت الخاصّة من خلال الفونوغراف، والراديو لاحقاً، فعرفت بعض مطربات بلاد الشام الشهرة وتحسّن موقعهنّ. فاشتهرت مغنّية يهوديّة اسمها حسيبة موشى لقبت بالسّت وسميت «بلبل الرياض الشاميّة»، هي من أوائل المطربات الشاميّات اللاتي سجّلن أسطوانات لشركة «غرامفون» في بدايات القرن العشرين. وقد لحّن لها كبار الملحّنين المعاصرين ومنهم أنطوان الشوّا. وعُرفت أيضاً بدريّة سعادة، ولاحقاً ثريّا قدّورة ونجيّة الشاميّة وعلياء الأطرش (والدة أسمهان) التي سجّلت مع يوسف تاج العديد من العتابات في الثلاثينيّات.

من الصعب تحديد هويّة تلك المغنّيات ومعرفة أصولهنّ. كنّ يتنقّلن بين المدن المشرقيّة والقاهرة ليغنّين في مقاهيها مجموعة مشتركة من الأغاني والطقاطيق. وبطبيعة الحال لم يتركن أثراً كبيراً في صحف تلك الفترة. لكنّ المؤكّد أنّ عهد الانتداب شهد ظهور فئة جديدة من الفنّانات عرفْن تقدّماً اجتماعيّاً وبعضاً من الاحترام المهنيّ كالمطربة لور دكّاش (١٩١٧ - ٢٠٠٥) التي لقّبت بأمّ كلثوم الصغيرة لصغر سنها آنذاك وجمال صوتها. لكن سرعان ما

توجّهت لور دكّاش إلى مصر، فرغم تحسّن مكانة بعض الفنّانات في بلاد الشام، بقيت مصر وجْهة أساسيّة ومركز نجاح للعديد منهنّ كالمطربة نور الهدى، نجمة الأربعينيّات، ولاحقاً المغنّية صباح خلال الخمسينيّات.

**عد وديع صبرا وكثر غيره أن آلة البيانو هي علامة على الحداثة. لذلك عمد العديد من الموسيقيين من مؤيدي خطاب الحداثة والتغريب إلى استخدامه وإدخاله في المشهد البيروتي الموسيقي.**

علاوة على ذلك، تأثّرت الموسيقى نفسها بصناعة التسجيل، فشهدت فترة العشرينيّات والثلاثينيّات انتشار أشكال موسيقيّة جديدة في بيروت مستوردة بشكل رئيسيّ من مصر: كالطقاطيق المصريّة، والأوبريت والمونولوجات والحوارات الساخرة التي شكّلت النّوع الوحيد، إلى جانب الأناشيد الوطنيّة، الذي تمّ تطويره على نحو أساسيّ من قبل فنّانين محليّين أمثال عمر الزعنّي والأخوين فليفل ومتري المُرّ. مثّلت هذه الأنواع الثلاثة الموسيقى الشعبيّة التسويقيّة في بيروت خلال الانتداب التي اعتمدت على أشكال لحنيّة بسيطة مع نصوص بسيطة ولكنّها متنوعة، معبّرة عن المطالب الاجتماعيّة والسياسيّة في لغة جدليّة. غالباً ما تميّزت هذه الموسيقى بألحانها المستوحاة من الموسيقى الغربيّة واستخدام البيانو أو آلات غربيّة أخرى.

**الموسيقيّ - الأديب وتعليم الموسيقى**

مع ظهور الحفل من الطراز الأوروبيّ، أصبح الفنّانون أكثر استقلاليّة من خلال تقديم موسيقاهم إلى جمهور أوسع وبأسعار محدّدة مسبقاً. وهكذا، تحسّن وضع الموسيقيّين والمغنّين الذين تحوّلوا من حرفيّي ترفيه إلى فنّانين محترفين. بالإضافة إلى ذلك، ومع الظهور التدريجيّ لنخبة جديدة، تشكل جمهور جديد ذو مصالح وقيَم موسيقيّة جديدة. على عكس مجتمع القرن التاسع عشر، كان هذا الجمهور الجديد أكثر انفتاحاً على الموسيقى وممارسيها، وأكثر اهتماماً بالموسيقى التي أصبحت «فنّاً».

ظهر وتطوّر خلال تلك الفترة مفهوم جديد، هو شخصيّة الموسيقيّ - الأديب. يشير مصطلح «أديب» إلى الأخلاق الحميدة للشّخص وعلمه ومركزه، ويمثّل استعماله لوصف بعض الموسيقيّين إعادة تقييم لوضع المغنّي ضمن المجتمع. وقد شهدت بيروت تحت الانتداب انتشار التجمّعات الأدبيّة التي تجمع بين الموسيقى والأدب والفنّ. وكان نجوم هذه الاجتماعات الأدبيّة مغنّين وملحّنين غالباً ما اعتبروا من ضمن أدباء المدينة، منهم الكانتور والموسيقيّ وملحّن العديد من الأناشيد الوطنيّة متري المرّ (١٨٨٠ - ١٩٦٩) الذي قدّم حفلات موسيقيّة على الطّراز الأوروبّي في المسارح البيروتيّة، والأخَوان فليفل ووديع صبرا. حتى الشاعر والمونولوجيست عمر الزعنّي (١٨٩٥ - ١٩٦١) كان يعدّ من أدباء بيروت، على الرّغم من أنّه شكّل حالة استثنائيّة، اذ لاقى نجاحاً شعبيّاً ونخبويّاً في آن معاً، فأضحى هؤلاء الموسيقيّون جزءاً من دائرة النخبة الفكريّة والمثقّفة، يقدّمون عروضهم لتلك النخب. وقد شاركوا جميعاً في الحياة الفكريّة والثقافيّة في بيروت، وبدأوا بنشر أغانيهم وتدوينات موسيقاهم في الصحف والمنشورات الخاصّة. وبدأ عدد قليلٌ من الموسيقيّين بإلقاء محاضرات عن الموسيقى، ولا سيّما عن أصل الموسيقى الشرقيّة أو الفرق بين الموسيقى الشرقيّة والغربيّة، كما فعل وديع صبرا (١٨٧٦ - ١٩٥٢).

درس ذلك الأخير الموسيقى في باريس، فظهر اسمه غالباً في الصحافة كموسيقيّ ماهر تخرج من كونسرفتوار باريس الذي كان هدفه التوفيق بين الموسيقى الغربيّة والشرقيّة. وأشادت الصحافة بصبرا الذي اعتبرتْه بمرتبة الموسيقيّين الأوروبيّين خصوصاً بفضل جمعه «بين المعرفة الكاملة للموسيقى الفرنسيّة وجماليّة الموسيقى الشرقيّة»، واصفة إيّاه بأنّه «رمز الاتّحاد الروحيّ بين فرنسا ولبنان». يعبّر هذا الإعجاب، المبالغ به، بصبرا عن الافتتان بالغرب والرغبة الدائمة بالوصول إلى دمج ما بين الشرق والغرب الذي غالباً ما تُرجم موسيقيّاً بالاستغناء تدريجيّاً عن أسس الموسيقى الشرقية، والاستعانة بأنماط موسيقية أوروبيّة على كلمات عربيّة.

عدّ وديع صبرا وكثرٌ غيره أنّ آلة البيانو هي علامة على الحداثة. لذلك عمَدَ العديد من الموسيقيّين من مؤيّدي خطاب الحداثة والتغريب، مثل صبرا والأخوين فليفل، إلى استخدامه وإدخاله في المشهد البيروتيّ الموسيقيّ. ومن الغريب أنّ هؤلاء المؤيّدين لتغريب الموسيقى لم يُتّهموا بمحو تقاليدهم أو المساس بموسيقاهم. بل كان يُنظر إليهم على أنّهم قوميّون يطمحون لتهذيب موسيقاهم وتحويلها إلى عِلم، مساعدين بذلك على تحديث مجتمعهم، وبالتالي الإسهام في تقدّم الأمّة. إذ إنّ الموسيقى نفسها لم تكن معياراً للأصالة، إنّما استخدام اللغة العربيّة والمواضيع الوطنيّة والاجتماعيّة. من هنا يمكن تفسير هذا التناقض

من خلال اختيارهم للّغة العربيّة الفصحى أو العاميّة التي تعبّر عن مواضيع من الحياة اليوميّة.

لقد أدّى إعجاب صبرا وافتتانه بالتعليم الموسيقيّ الأوروبيّ وسعيه إلى هدفه المتمثّل في التوفيق بين الموسيقى الغربيّة والشرقيّة إلى افتتاح دار الموسيقى (بيت الموسيقى) في عام ١٩١٠، الذي أصبح المدرسة الوطنيّة للموسيقى في عام ١٩٢٥ والكونسرفتوار الرسمي في عام ١٩٢٩. أصبح صبرا خلال فترة الانتداب أحد الشخصيّات الرئيسّيين في الحياة الموسيقيّة في بيروت، وحصل على دعم السلطات الفرنسيّة والمحليّة وشارك في مختلف الفعاليّات الثقافيّة والفكريّة والسياسيّة، إذ إنّ أهمّ ما ميّز فكر ومشروع صبرا هو رغبته بتغريب الموسيقي الشرقيّة، وذلك لتهذيبها، فعمد في مدرسته إلى تدريس النظريّات الموسيقيّة الأوروبيّة وطرقٍ جديدة للتعليم الموسيقيّ. التقى مشروع صبرا بمشروع بناء لبنان الجديد «المتمدّن الفرنكفونيّ» من قبل السلطات الفرنسيّة والبرجوازيّة المحليّة التي دعمت وموّلت هذه المدرسة، فمثّل افتتاح هذا المعهد الموسيقيّ المحليّ والتغريبيّ تحوّلاً في التاريخ الموسيقيّ لبيروت مع بدء التغريب الرسميّ للتعليم والتقاليد الموسيقيّة. كما أدخل الطابع المؤسّساتيّ والمهنيّ على المشهد الموسيقيّ الحديث ومعه بدأت محاولات محليّة مختلفة لتعريف «فنّ الموسيقى الشرقيّة الحديثة» بالاستناد في الدرجة الأولى إلى الموسيقى الغربيّة. فقبل افتتاح هذا المعهد، كان التعليم الموسيقيّ يستند إلى التقاليد الشفهيّة ويقتصر على القطاع الخاصّ، لكن مع افتتاحه وتمويله من قبل السلطات الرسميّة، تمّ تأسيس تعليم موسيقيّ تغريبيّ رسميّ وإرساء مهنيّة الموسيقيّ المتعلّم.

**المجتمع والفنّ**

على الرّغم من كلّ التغييرات بقيت النظرة إلى الموسيقى والمسرح خلال الانتداب متناقضة في المجتمع. فخلال زيارة الممثّل المصريّ بمسرح رمسيس قاسم وجدي لبلاد الشام سنة ١٩٢٦، وجد صعوبة كبيرة بالحصول على معلومات أو أحاديث من البيروتيّين عن المسرح. حتى إنّه أراد تصوير بعض المسارح لكنّ اصحابها لم يرفضوا مباشرة، إنّما ماطلوه واخترعوا الحجج كي لا يتمكّن من التصوير[٣٠].

وبحسب بعض الذين يعملون في المسرح والغناء والذين تكلّم معهم وجدي، لم تعرف تلك الفنونُ الأهميّة التي عرفتْها بمصر. فالمجتمع البيروتيّ والسوريّ عموماً محافظ والمسرح بالنسبة إليه مكان للتسلية فقط. لذا فهو يفضّل الروايات الشرقيّة والغنائيّة التي ترتبط بثقافته والتي تتعاطى بأموره اليوميّة، على تلك الغربيّة المُعرّبة. وغالباً ما كانت تُسمع من البيروتيّين بعد عرض رواية لفرقة جورج أبيض التعاليق التالية: «شو هيدا، شو بهمّنا نحنا من ها اللويس (لويس الحادي عشر)، ولّا ها المتعوس اللي بيتجوّز إمّه (أوديب الملك) مثل الجاج (الدجاج)، شو وينه صلاح الدين؟ وينه عنترة؟ العمى! شو بيسووا ما لهم ذكرى هلّق»[٣١].

من الصعب تكوين فرق مسرحيّة غنائيّة محترفة في بيروت خصوصاً، وبلاد الشام عموماً. فبحسب متعهّد جرائد سورية خضر نحّاس، المتعهّد الأوّل للحفلات التمثيليّة والغنائيّة في بيروت، أنّ فكرة تكوين فرقة من الممثّلين والمغنّين المحترفين سابقة لأوانها وتُعتبر مخاطرة، ذلك لأنّ المجتمع والفنّانين لم يكن لديهم الاستعداد ولا المؤهّلات الكافية.

وكانت الروايات الأكثر رواجاً ونجاحاً تلك «الفكاهيّة الممتزجة بالألحان» كروايات كشكش بك، التي كانت تغصّ بالحضور، فكان على الجمهور أن يأتي قبل ساعتين من الافتتاح ليجد مكاناً للجلوس[٣٢]. أمّا الروايات الأدبيّة فكانت تستهوي الطبقة الغنيّة (كعائلات سرسق وبَيْهم) والمثقّفة (كالأدباء والصحافيّين). ولكي تنجح الرواية، كان عليها الاعتماد على مطرب أو مطربة للغناء بين الفصول، لأنّ الشعب يفضّل التمثيل مع الغناء. وكان على المطرب أن يؤدّي قبل بدء الرواية، في خلال كلّ فصل من فصولها، وحتى في النهاية، وإلّا ملأ الجمهور «الدنيا صياحاً وضجيجاً»، وذلك بغضّ النظر عن مدى إتقان المطرب وبراعته. فالجمهور يفضّل المغنى «حتى لو لم تتوافر فيه كلّ شروط الطرب»[٣٣]، فيستمع أكثر إلى الغناء في الروايات.

وكانت المسارح البيروتيّة تتميّز عن المصريّة باستمرار الأكل والشرب خلال العرض. فالبيروتيّ «لا يتمتّع بلياقات المسرح»، إذ يعتبر المسرح مثل بيته الخاصّ يستطيع أن يقول ويفعل فيه ما يشاء»[٣٤]، ولا يستغني عن «الأرجيلة» طوال مدّة العرض ويحضر معه البزور والفول السوداني ليأكلها و«يقزقزها» خلال العرض. وغالباً ما كانت الفوضى تعمّ المسارح بسبب بعض الحضور، فالأندية «على صغرها لا تخلو من صيحات وصفير قويّين» للتعبير عن الاستحسان او الاستهجان»[٣٥]. ونختم حديثنا بوصف توفيق عواد للمسرح خلال عرض مسرحيّة لكشكش بك يلخّص فيها كل ذلك: «وإذا جئت أحدّثك

عن الصفير، وضرب الأرجل والعصيّ في الأرض، وعن قرقرة الأراكيل، وتصويت البزر والفستق بين الأسنان، وعن صراخ الكرسونات ونداءات الساعة، وضجّة الأقداح على طاولات العرق، لطال بي المجال، وساء المآل»[٣٦].

إذاً وفي لحظة مفصليّة، تحديداً خلال الانتداب الفرنسيّ، وجدتْ بيروت نفسها أمام مشروع بناء مجتمع جديد يسعى الى التحضّر والتمدّن. فتأثّرت الحياة الموسيقيّة والثقافيّة والفنيّة بتلك التغييرات السياسيّة والاجتماعيّة وبرزت الموسيقى إلى جانب أدوات أخرى كوسيلة للتقدّم والتنمية. في ظلّ هيمنة فرنسا على الصعيد السياسيّ والاقتصاديّ وهيمنة مصر على الصعيد الفنيّ الموسيقيّ، أضحى إيجاد هويّة موسيقيّة محليّة أمراً ملحّاً وأساسيّاً لبناء هويّة لبنانيّة مختلفة عن محيطها المشرقيّ والعربيّ. هذه الأفكار التي ظهرت في ظلّ الانتداب، ستتبلور تدريجيّاً لتصبح مشروعاً واضحاً بعد الاستقلال عمَدَ إلى بناء موسيقى لبنانيّة، مع جيل الخمسينيّات والستينيّات (الرحابنة وفيروز، زكي ناصيف، صباح ووديع الصافي...) متلقّياً بذلك دعماً رسميّاً وشعبويّاً.

**الهوامش**

١ هذه المقالة صيغة منقّحة ومزيدة من مقدّمة كتّيب أسطوانة «رواد الطرب في بلاد الشام» التي أصدرتها مؤسّسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربيّة في العام ٢٠١٤

٢ **المعرض**، ١٤ آذار / مارس ١٩٢٦، عدد ٤٧٧

٣ عبد اللطيف فاخوري، « رحلة في دواوين الشيوخ عمر اليافي، أحمد الأغرّ وعمر الأنسي: الأغاني الشعبيّة والتنزيلات الدينيّة البيروتيّة»، **اللواء الثقافي**، ٣ أيار / مايو ٢٠١٣

٤ احمد فارس الشدياق، «في موسيقى اهل مالطا وغيرهم»، **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب**، ١٨٨٢

٥ **لسان الحال**، ١٦ آب ١٨٩٧، عدد ٢٥٨٢

٦ **لسان الحال**، ٢ تموز ١٩٠٠، عدد ٣٤٦٠

٧ **لسان الحال**، ٢٩ ايار ١٨٩٩، عدد ٣١٢٦

٨ **لسان الحال**، ٣١ كانون الثاني ١٩٠٣، عدد ٤٣٢٣

٩ **لسان الحال**، ١٢ اذار ١٩٠٣، عدد ٤٢٤٥

١٠ **لسان الحال**، ١٦ آذار / مارس ١٩٠٣، عدد ٤٢٤٨

١١ **لسان الحال**، ٢٣ أيار / مايو ١٩٠٣، عدد ٤٣٠٦

١٢ وقد احيا «الجوق المصري» بقيادة طانيوس واكد عدّة مسرحيّات غنائيّة في بيروت يقوم بأهمّ ادوارها الشيخ حسن صالح «المطرب الشهير» و رحمين أفندي المصري «أستاذ التمثيل و التلحين ... الحائز قصب السبق بهذا الفنّ».

١٣ **لسان الحال**، ١٩ أيار ١٩٠٣ عدد ٤٣٠٢

١٤ جبران خليل جبران، **العواصف**، «مسرحيّة الصلبان»، ١٩٢٠

١٥ عن التغييرات التي شهدتها بيروت خلال تلك الفترة، مراجعة: سمير قصير، **تاريخ بيروت**، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٦

Sehnaoui, Nada, *L'occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth, 1860–1914*, Beirut: Dar an-Nahar, 2002

Hanssen, Jens, *Fin de Siècle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital*, Oxford: Oxford University Press, 2005

١٦ للمزيد عن نشأة هذه الطبقة مراجعة:

Abou-Hodeib, Toufoul, «Taste and class in late Ottoman Beirut », *International Journal of Middle East Studies*, 43/3, 2011, pp. 475–92

١٧ وخير دليل على ذلك افتتاح أوّل معهد للموسيقى في بيروت عام ١٩١٠ المتخصّص بتعليم البنات، دار الموسيقى لوديع صبرا، الذي أصبح لاحقاً المعهد العالي للموسيقى. عام ١٩١١ حقّق وديع صبرا تغييراً مهمّاً في المدينة: وذلك من خلال إرساء مسابقة بيانو سنويّة لطالباته تختبر من قبل لجنة من الخبراء المحلّيّين والأجانب يحضرها عدد من أعيان المدينة ومثقّفيها

١٨ كرم البستاني، مجلّة **العواصف**، ١٤ أيار / مايو ١٩٣٢، عدد ٨

١٩ كاظم الداغستاني، «المسرح والمقصف»، مجلّة **الثقافة**، (١٩٣٣ - ١٩٣٤)

٢٠ عن أهمّيّة السينما خلال فترة الانتداب وتأثيرها، مراجعة:

Thompson, Elizabeth, «Cinema: Gendering a New Urban Space», in *Colonial citizen, Republican Rights, Paternal Privilege, and Gender in French Syria and Lebanon*, Columbia: Columbia University Press, 2000

٢١ أسعد عقل، «بيروت تعدو نحو الغرب، غرام مدينتنا الجديدة بالحياة العصريّة»، **المعرض**، ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٩٢٧، عدد ٥٥٤

٢٢ **لسان الحال**، ١٢ آب / أغسطس ١٩٢٢، عدد ٨٦٩٨

٢٣ أسّسها الأخَوان جبران وفرج الله، مع أبناء عمّهم بطرس وجبران وميشال

٢٤ يذكر سعيد فريحة انّه سنة ١٩١٨ بمناسبة عيد مار الياس، أحيا فرج الله بيضا احتفالاً للطائفة الأورثوذكسيّة في كنيسة مار الياس بطينا. وكان يتصدّر حلقة كبيرة، يغنّي المواويل البغداديّة وإلى جانبه عازف بزق. كانت الحشود كبيرة، كلٌّ يحاول الاقتراب للاستماع. وكانت العادة خلال تلك الفترة لتحيّة المطرب والتعبير عن الفرح بالحفل هي بإطلاق الرصاص. فلم يكن يكفي التطبيب للمغنّي بالآه فقط، بل «بالتقويص بالهواء»، فـ «كل سحبة أوف... بألف طلقة». كانت الاحتفالات إذاً تزخر «بالطرب والرجولة والرصاص»، وكان حلم الفتى سعيد فريحة أن يملك مسدّساً ليعبّر به عن فرحه وإعجابه بفرج الله! (سعيد فريحة، الغناء البغدادي، ١٩٧٢)

٢٥ تعلّم الموسيقى على يد عبد الرزاق البيطار في دمشق، حاول الغناء في مصر، ولكنّه فشل، مات من الحمّى التيفوئيديّة

٢٦ «عندليب الغوطة» ينتمي إلى أسرة منشدين مشهورة بالشام. انضم إلى فرقة ابي خليل القبّاني. هاجر إلى يافا وفيما بعد إلى مصر. وكان من بين الخبراء الذين ساعدوا المستشرق الفرنسي الأب كولانجيت في دراسة الموسيقى العربيّة

٢٧ انتمى إلى الحزب القومي السوري، وكان من مؤسّسيه. أحيا عدّة حفلات للحزب

٢٨ قال عنه جرجي نخلة حين أحيا مع عازف القانون زاكي أفندي حفلة بمناسبة زواج جرجي أفندي عطا الله (**البرق**، ١ كانون الثاني / يناير ١٩١٤، عدد ٢٥٧):

«يا صاحب الصوت الرخيم جرحتنا و شفيت قلب الواله المجروح
سموك محيي الدين عن خطاء ولو هم أنصفوا سمّوك محيي الروح»

٢٩ لمزيد من المعلومات عن دخول شركات التسجيل إلى مصر والشرق عموماً مراجعة:

Lagrange, Frédéric, *Musiciens et poètes en Égypte au temps de la Nahda*, thèse de doctorat, Université Paris VIII, 1994

Al-Racy, Ali-Jihad, *Musical Change and Commercial Recording in Egypt, 1904 - 1932*, doctoral thesis, University of Illinois, Urbana-Champaign, 1977

٣٠ قاسم وجدي، «المسرح في بلاد الشام»، مجلة **المسرح**، أكتوبر / تشرين الأوّل ١٩٢٦

٣١ قاسم وجدي، «المسرح في بلاد الشام»، مجلة **المسرح**، أكتوبر ١٩٢٦

٣٢ توفيق عواد، «في دور التمثيل: رواية رسول الشمس على مسرح الكريستال»، **البيان**، ٢٣ آذار / مارس ١٩٣٠، عدد ٣١٨

٣٣ قاسم وجدي، «المسرح في بلاد الشام»، مجلة **المسرح**، أكتوبر ١٩٢٦

٣٣ توفيق عواد، «في دور التمثيل: رواية رسول الشمس على مسرح الكريستال»، **البيان**، ٢٣ اذار ١٩٣٠، عدد ٣١٨

٣٥ نوح، «اداب المسرح»، **البيان**، ١٢ شباط ١٩٢٨، عدد ٢٤٥

٣٦ توفيق عواد، «في دور التمثيل: رواية رسول الشمس على مسرح الكريستال»، **البيان**، ٢٣ اذار ١٩٣٠، عدد ٣١٨

## توزيع المجلة

| | |
|---|---|
| **الاردن** | وكالة التوزيع الاردنية، عمان |
| **تونس** | الشركة التونسية للتوزيع، تونس |
| **فلسطين** | دار الايام للطباعة والتوزيع والنشر |
| **العراق** | مكتبة منشورات المتوسط، بغداد |
| **الكويت** | الشركة المتحدة للتوزيع، الكويت |
| **المغرب** | الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء |
| **اليمن** | مكتبة ابو ذر الغفاري، صنعاء |
| **مصر** | مؤسسة اخبار اليوم، القاهرة |
| **فرنسا** | مكتبة معهد العالم العربي، باريس |
| **إنكلترا** | مكتبة السّاقي، لندن |
| **لبنان** | شركة الناشرون لتوزيع الصحف والمطبوعات |

**بيروت:**
— مكتبات: مكتبات انطوان (الاشرفية، الحمرا، فردان، الاسواق، سن الفيل، ABC)، ABC Virgin (الاشرفية، الدورة)، مكتبة الشرقية، مكتبة واي إن، مكتبة الفرات، مكتبة بيسان (شارع الحمرا)، مكتبة انترناشيونال (جفينور)، مكتبة البرج (وسط البلد)، دواوين (الجمّيزة)، النديم (الظريف)
— اكشاك: زياد عباني (الكولا)، نعيم صالح (شارع الحمرا)
**المناطق:** مكتبة قشوع (كفرشيما)، قلم وورقة (عين الرمانة)، نيوبرس (الحدث)، مكتبة ساوا (قبر شمون)، حسام بوكشوب (بعقلين) ، مكتبة البستاني (زحلة)، مكتبة انطوان، مكتبة سمير حصني (طرابلس)، مكتبة طلال، مكتبة النقوزي (صيدا)، مكتبة نعمة (صور)، مكتبة الطليعة (النبطية) فواز غروب لتوزيع الصحف، مكتبة بيضون (بنت جبيل)، مكتبة جبل عامل (عيثرون)

## الاشتراكات

| | | |
|---|---|---|
| لبنان | افراد ٥٠$ | مؤسسات ١٠٠$ |
| البلدان العربية | افراد ٨٠$ | مؤسسات ١٥٠$ |
| الإتحاد الاوروبي | افراد ٧٥$ | مؤسسات ٢٠٠$ |
| باقي البلدان | افراد ١٠٠$ | مؤسسات ٣٠٠$ |

**Bidayat SARL**
Banque Libano-Française
Agence Gefinor - Beirut - Lebanon
IBAN: LB860010000000017101842001840
SWIFT: BLFSLBBX
Account: 017101842001840

صندوق بريد ١٣/٥٧٤٨
شوران - بيروت - لبنان

info@bidayatmag.com
www.bidayatmag.com
facebook.com/bidayatmag

## الحقوق

- نعوم غابو، رأس امرأة، ١٩١٧ - ١٩٢٠ (انطلاقاً من عمل من العام ١٩١٦)، ص ١
- جناح روسيا الذي مثلها إل ليسيتزكي في معرض بريسا في كولونيا في العام ١٩٢٨، ص ٦
- صفحة المعارضة الإيرانية الشعبية على تويتر، ص ١١
- وكالة فارس للأنباء، ص ١٤ - ١٥
- رضا ماسالي من تويتر، ص ٢٠
- جوليان هارنيس - فليكر، ص ٢٢ - ٢٣
- صفحة حراك الريف على فايسبوك، ص ٢٧
- صفحة ريف بلادي على فايسبوك، ص ٣٢ - ٣٣
- صفحة النساء المدنيات - العراق على فايسبوك، ص ٣٦
- من مدونة thecharnelhouse.org، ص ٤١
- مكتبة كاترين وسيبيلي كالوم ديفيس، ص ٤٤، ٥٣، ٥٦ - ٥٧، ٧١، ٧٤ - ٧٥، ٨٠ - ٨١، ٨٦ - ٨٧
- وكالة الأنباء الروسية، تاس، ص ١١٠، ١٤٢ - ١٤٣
- «تحرير النساء في الدول الإسلامية»، ملصق مجهول المصدر، ١٩١٨ - ١٩٢٣، الاتحاد السوفياتي، ص ١١٤ - ١١٥
- (أسفل الصفحة) «امرأة متحررة - بناء الاشتراكية!»، أدولف ستراخوف، طباعة حجرية على ورق، ١٩٢٦، مجموعة ديفيد كينغ في متحف تايت، ص ١٢٥
- أغلفة مجلة ليف الجديدة ١٩٢٧ - ١٩٢٨، ص ١٢٧
- الصورة لأرنولد غنثه بين العام ١٩١٧ و١٩١٩، مكتبة الكونغرس الأميركي، ص ١٣١
- مدونة the charnel house، ص ١٥٢، ١٥٦ - ١٥٧، ١٥٩، ١٦٤، ١٦٥
- «رودشينكو وفنون روسيا الثورة»، ديفيد إليوت، ١٩٢٧، ص ١٥٨
- Google Art Project، ص ١٦٠
- غاليري ريتياكوف في موسكو / روبرت باير، بازل / متحف الفن المعاصر، ص ١٦١
- Stiftung Moritzburg Kunstmuseum des Landes Sachsen – Anhalt Halle Saale، ص ١٦٢
- لوحة «مريم» التي استخدمت على ملصق مسرحية «المريم» للكاتبة الراحلة مريم حمود، ميريلا سلامة @ellazplanet، ص ١٧٣
- مكتبة مدينة نيويورك العامة، ص ١٧٧
- مجلة لايف، هانك ووكر، ص ١٩٨ - ١٩٩
- وكالة الأونروا من العام ١٩٤٩، ص ٢٠٨
- أرشيف الأمم المتحدة، المصور غير معروف، العام ١٩٤٨، ص ٢١٣
- التواهي، عن العمري.نت، ص ٢٢٤ - ٢٢٥
- رسم مصطفى فروخ، ص ٢٢٨
- «بلا عنوان»، أسامة بعلبكي، ٢٠٠٥، ص ٢٤٩

إن الخط المستخدم في الشبابيك من تصميم جويل حداد، Jeem.

حاولنا جهدنا العثور على اصحاب حقوق النشر والتصوير المنشورة. الرجاء ممن أغفل إسمه الاتصال بنا.